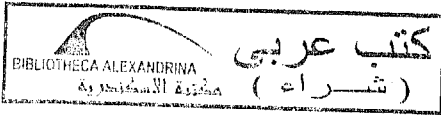


عبد الحميد صوره السحار



جمال

السحر والبيوت



كتب عربي
(شراء)

٨٩٢٠٧٣٦
٨٩٢٠٧٣٦
مطبوعات مكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل ٦٥١٨٩

السُّهول البَيضُ

تأليف

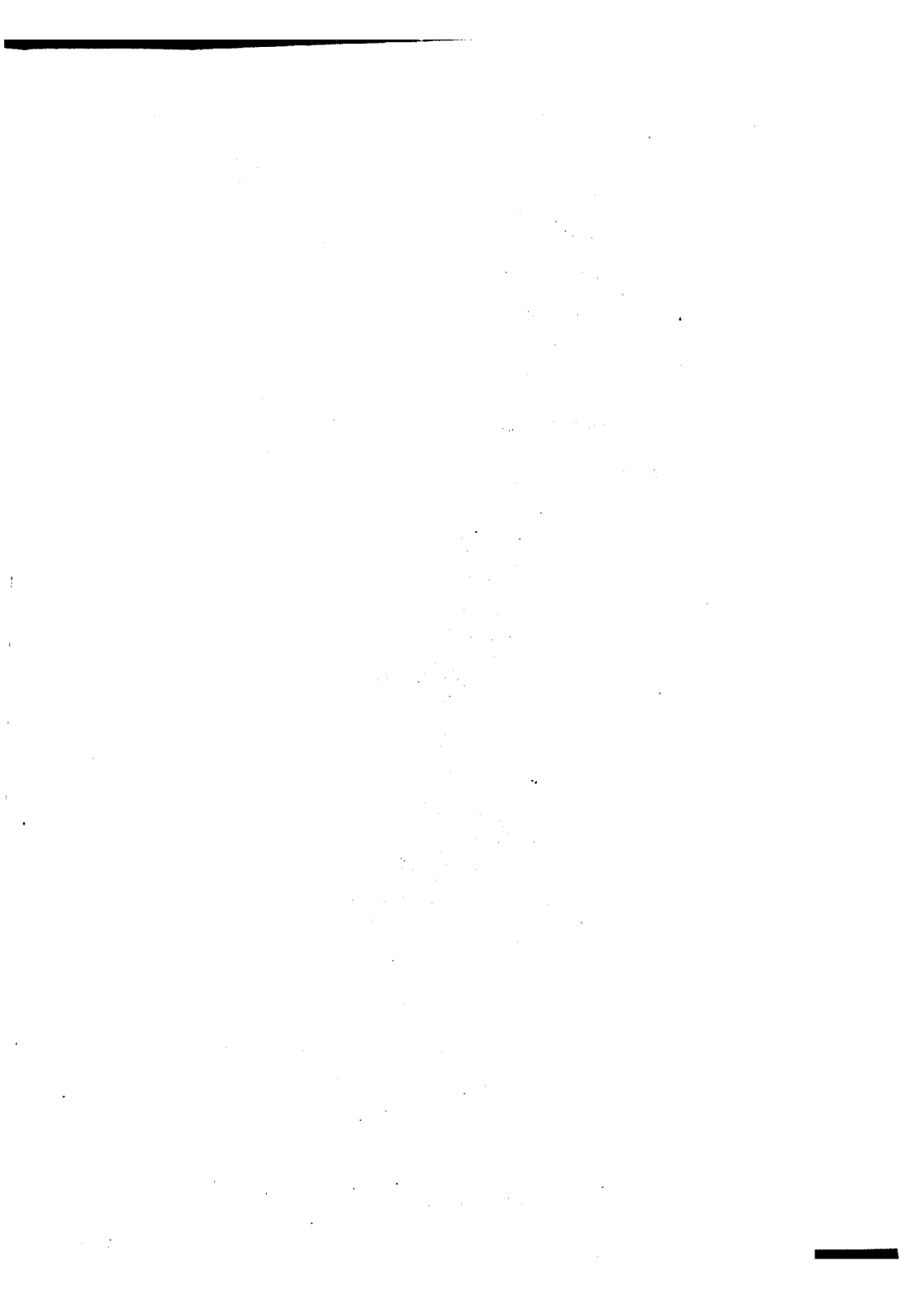
عبد الحميد جودة السحار

الناشر: مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي أنبالا
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣١ شارع كامل صدق





الاهداء

خرج نفر من يهود بنى قريظة بالمدينة حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعواهم إلى حرب المسلمين ، وقالوا إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم . ثم خرجوا إلى قبائل العرب ودعواهم لقتال المسلمين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم على المسلمين حتى يستأصلوهم .
وتأمرت الأحزاب ، وخرجت جيوشها لاستئصال شأفة المسلمين في غزوة الخندق ، ووعد رسول الله المسلمين بالنصر بعد الحصر ، وصدق الله وعده وهزم الأحزاب ، وقال رسول الله : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

وخرج نفر من يهود إسرائيل حتى قدموا على الفرنسيين ، فدعواهم إلى حرب المصريين ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم ، ثم خرجوا إلى الإنجليز ودعواهم لقتال المصريين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم على المصريين حتى يستأصلوهم .

وتأمرت إسرائيل وفرنسا وإنجلترا ، وخرجت جيوشها لاستئصال المصريين في معركة بور سعيد ، وثار العرب في كل مكان ، حتى هزم الله دول المؤامرة الثلاثية ، وهتف العرب ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم .

فإلى الشعوب العربية جمعاء ، إلى الشعوب التي أكدت الوحدة العربية في معركة بور سعيد .

أهدى « السهول البيض » .

« عبد الحميد جوده السحار »



راح عبود يتقدم في خطوات مضطربة نحو النافذة وقد أخذ قلبه يخفق خفقات زاحرة بالرقعة ، تمد مشاعره بفيض من النشوة الحاملة التي يزيد في روعتها ذلك القلق المشتبهى الموارين ضلوعه ، واستمر في تقدمه ولم يعد يحس من كيانه إلا إحساسات اللذة الروحية التي تستغرقه ، وتلك الלהفة التي تدفعه إلى الشباك وقد تركزت كل آماله في أن تقع عيناه عليها .

إنه ينطلق إلى الشباك كلما استيقظ من نومه في الصباح وكلما عاد من عمله قبيل الغروب ، تداعبه أمنية أن يختلس إليها النظر وهي غادية رائحة في غرفتها ، أو وهي مطلة على الطريق تروح عن نفسها . إنها لحظات حياته تلك التي يقف فيها منزويا خلف نافذته يمد الطرف الوهان إليها ، والقلب يرقص طربا ، والروح تهيم في عوالم صيغت من رقة امتزجت بغيوبة تخدر الحواس ، لا يستشعرها إلا الضارب في الأحلام ، فما كان في حياته الرتيبة من متعة إلا تلك اللحظات القصار التي تكتحل فيها عيناه برؤيتها ، وتلك الساعات التي يخلو فيها بطيفها الزائر ، يعيش معه أجمل حياة .

ويا طالما استلقى في سريره وأسبل جفنيه ، وفتح عين خياله ليرى ما تهفو إليه نفسه ، ويدير بينه وبينها أحاديث تسيل غدوبة ، يناجيه وتناجيه ، ويبثها آماله ويصغى إلى همسها الذي يهز كيانه ، وينسجان معا خيوط مستقبلهما البسام ، وكانت دنيا أو هامه أكثر صدقا من واقع حياته ، فقد كانت تعيش نابضة في وجدانه ، بينما كان يجتاز أيامه كراكب سفينة تشق عباب الماء ، لا يجد لها أثرا إذا ما تلفت خلفه ، ولا يرى إلا فضاء تكتنفه وحشة إذا ما مد بصره أمامه .

وبلغ موقفه من الشباك وقد ازداد وجيب فؤاده وشحذت الלהفة حواسه ، فتفجرت ينابيع الصبابة في جوفه وفاضت حتى غمرته ، فأصبح كما ما يراه مسحورا ، فلم يعد يرى بيتها المصنوع من صفيح ، ولا الصدا الذي تراكم فوقه على مر السنين حتى أخفاه عن الناظرين ، بل رآه غارقا في أضواء شاعرية تستريح

إليها نفسه ، وتفتتح لها ذاته تفتح الزهرة التي تتلقي وحى السحر .
ومرت بهية ندية كنسيم الصباح ، فعبق الجو بأريج عطر لم تشمه أنفه وإن
انتشت به روحه ، وترددت في ضميره أنغام شجية حاملة كأنها أصوات بلا بل
تصدح من بعيد ، وهام في دنياه حتى استشعر أنه أصبح الوجود جميعه ، وأن كل
ما فيه من لذة ونشوة وحنان أخذت تنسكب في قلبه وتغذيه .

وعادت إلى الشباك ووقفت تنظر ناحيته ، فارتد إلى الورااء خطوة وحبس
أنفاسه ، واستمر يرنو إليها في خشوع ، ويتملى من حسننها وهو مأخوذ بالمشاعر
الرفيقة الناعمة التي سرت في جوانبه سريان الجدول الرقراق في المروج الغنية
بالأزهار والرياحين .

رأى وجهها كهالة من نور تتوجه قطعة من ليل بهيم ، تزينه عينان لا هما
مفتوحتان يغوص فيهما ويسعد بما في قاعهما من كنوز ، ولا هما مغلقتان على
الفننة التي تعبت بأوتار فؤاده وتعرف أناشيد الخلود ، بل كانتا متكسرتين في
دلال تذوب له مهجته عذوبة وترق له حواشيه .

وتقضت لحظات زاخرة بأنبيل الإحساسات ، فقد صار روحا فرافة قادرة على
أن تهيم في دنيا الوجد لتتصل بروحها وترشف في أناة وغبطة رحيق الحب العظيم .
وتحركت في خفة واختفت فجأة كاختفاء الطيف ، وظل هو في شروده
اللذيذ ، كان مندجما في روح الكون غائبا عن كل ما حوله ، لا ترى عين خياله
إلا عالما مكللا بنور لطيف .

ومزق السكون المسحور صوت صك أذنيه يناديه :

— عبود ! صباح الخير .

وانته مدعورا كمن استيقظ فجأة من حلم لذيد ، فهبط من سموات خياله
إلى أرض البشر ، وانجابت عن عينيه غلالة الهيام المسحورة فاختمنى ذلك النور
اللطيف الذى كان يغلف كل ما يقع عليه بصره ، ورأى أمامه البيت المصنوع
من صفيح ، وقد وقف — فى نافذته — مأمون يرتدى زيه العسكري وعلى شفثيه
بسمه عريضة وفى عينيه بريق ينطق بالجرأة والعزم ، أبيض البشرة أسود الشعر

يشبه بهية في تقاطيع وجهه وخفة روحه ، ولكن لم يكن فيه ذلك السر الساحر الذى تزخر به أخته ، والذى ينقله من دنياه الضيقة الجافة القاسية إلى دنيا رحيمة لينة رحيمة كلها إشراق ونور .

وقال فى صوت متهدج :

— صباح الخير يا مأمون ، وحمد الله على السلامة . متى جئت ؟

فقال مأمون وهو يطل برأسه ويمد عنقه كأنما يحاول أن يدنو منه :

— البارحة مساء ، إنى فى شوق إليك أريد أن أراك .. متى نتقابل ؟ .. اليوم

بعد أن تعود من عمرك إذا لم تكن مشغولا .

فابتسم عبود وقال فى هدوء :

— أنت تعلم أنه ليس عندى ما يشغلنى .

ومرت بهية من خلف أخيها ، فصعدت الدماء حارة إلى وجه عبود وراح يتلفت فى اضطراب ويزرد ريقه وقلبه يخفق فى شدة ، كأنما قد انكشف كذبه وهمس فى جوفه صوت عابث يقول « وهذه الحبيبة ألا تشغلك ؟ ألم تسرق قلبك وتسلب كل تفكيرك وتملأ كل أوقاتك رؤى وبهجة ونورا ؟! » وقال مأمون :

— سأنتظرك حتى تعود .

فقال عبود وهو يشيح بوجهه عنه كأنما كان يخشى أن يقرأ فى عينيه ما يعتمل

به صدره من انفعالات :

— إن شاء الله ... عن إذنك .

— تفضل .. مع السلامة .

ودار عبود على عقبيه وراح يجيل عينيه فى الغرفة ؛ كانت جدرانها من صفيح ، ليس بها إلا سرير من حديد ونضد من خشب عليه موقد نפט ، وحوله ثلاثة مقاعد ، ثم لا شيء إلا بعض ملابس علق فى مسامير دقت فى جدران الصفيح ، وبعض أشياء تناثرت هنا وهناك يستعملها عند استحمامه أو غسل ملابس أو طهو طعامه إذا ما هفت نفسه يوما إلى طعام لذيد .

وثبتت عيناه لحظة على بذلته الزرقاء الداكنة التى يرتديها فى أثناء عمله ، وشرد

ذهنه وراح يفكر في نفسه وفي مأمون ، كانا طفلين يلعبان معا ، وكان مأمون يكبره بسنة واحدة ، وكانت بهية أصغر منه بستين ، وكانت تحب أن تراقبهما في لعبهما ، وكان هو يمتنى ذلك ويشتهي ، ولكن مأمون كان ينهرها وكثيرا ما كان يضربها ، وهو ينظر صامتا وإن كان قلبه يكاد ينفطر ألما ، فهو لا يطيق أن يرى أحدا يضرب أو يساء إليه ، فما بالك لو كانت التي تتلقى الضربات بهية ؟ كان يرقب لحظات صفو صديقه وينصحه ألا يلجأ إلى العنف أبدا ، وكثيرا ما كان مأمون يوافق على آرائه ، ولكن إذا ما جد الجد وحدث ما يثيره عاد إلى طبعه العنيف يسب ويلعن ويضرب في شدة ، فقد كان الضرب عنده هو الحل الحاسم لمشاكله مع الآخرين .

وكانت أسعد أيامهما تلك التي ترسلهما فيها أمهما لشراء سمك ، كانا يستيقظان في الفجر وينطلقان إلى القابوطى مدينة الصيادين ، وتبعد عن حبيهما كثيرا ، فكانا يعدوان مرحين ، حتى إذا ما انقطعت منهما الأنفاس تمهلا في السير وأخذنا يملآن صدريهما بهواء الصباح ليستأنفا ما كانا فيه ، وكانا يبلغان القابوطى مع الشروق .

إنه ليعرف تلك الدور الخشبية المتواضعة القائمة على الشاطئ دارا دارا ؛ كان هو يرى أن يشتري السمك من أى من الرجال الذين يقابلانهم على الشاطئ ، وكان مأمون يصر على ألا يشتري إلا من شيخ الصيادين !

و ذات يوم جاءت بهية فرحة وقالت له إنها هي التي ستذهب معه لشراء السمك . فلما سألها عن مأمون وعن سبب تخلفه قالت له : إنه لا يزال يغط في نومه ، وأشفق عليها من قسوة أخيها فنصحها بأن ترجع وإن كان في قرارة نفسه يرحب برفقتها وينشرح لها صدره ويتبجح فؤاده ، فلما أخبرته أن أمها قد أمرتها بذلك خرج معها وهو يكاد من الفرح يطير .

وسارا يعابثهما النسيم ، يتحدثان حديثا كان وقعه في أذنيه أعذب من أرق نغم تنتشى له نفسه وترفف له روحه ، فيحس أنه صار طيفا مجنحا بهم في الوجود . ووصلا إلى القابوطى بعد الشروق ، ولم يستشعر مرور الزمن ولم يدب في

أوصاله التعب ، بل كان سعيدا يتمنى في أعماقه أن يستمر معا وأن ينعم بصحبته إلى الأبد .

وانساب في الطريق المتعرج السارى بين الدور الخشبية الذى طالما انطلق فيه مع مأمون ، ولكنه لم يسعد من قبل بتلك الغبطة المنتشرة في أرجائه ، وكان يديم النظر إلى عينيها المنكسرتين في نعومة آسرة فلا يرتوى من التطلع إليهما ، بل يحس ظمأ إليهما ، وانجذابا في أن يفوص بكل روحه في صفائهما الذى يغمره بغيوبة منتشية لذيدة تسرى في كل كيانه الضئيل .

وبلغادار شيخ الصيادين ، وذهبا مع ابنه إلى الشاطئ ليقابلاه هناك ، وراحت بهية تعبت في شبك الصيد المنشورة وهو يرقبها كأنما يخشى أن تغيب عن عينيه لحظة ، واشترى السمك وقفلا عائدين وقد راحت الشمس ترتفع في السماء . كان كل منهما سعيدا بحمله ، وراحا يضربان في الأرض الجرداء ، وفطن إلى أن الحمل ثقيل على يديها فأخذه وضم الحملين بذراعيه إلى صدره ، وسار وهو لا يحس تعباً ، وتمنى لو كان رجلا كبيرا ليحملها خوفا عليها من أن يمشی إليها التعب أو يمسه من الألم ، فقد كانت روحه في أوج غبطتها .

وحيت الشمس ورفعت بهية يدها لتحجب بها الضوء الباهر عن عينيها وتفصد العرق من وجنتيها ، فلم يطق أن يرى وجهها وقد عكر صفوه سحابة خفيفة من الضيق ، فوضع حمله على الأرض ، وخلع قميصه ثم غطى به رأسها ليحميها من الشمس ، وهى جذلانة تضحك ضحكات صافية بريئة أثلجت صدره .

كان ذلك من سنين ، ولكن ذكرى ذلك اليوم انطبعت في أعماق وجدانه لا تمحوها يد الزمن .

ومرت أعوام وأصبح فتى يافعا ، وصار عليه أن يعمل ليعول أمه بعد أن أقعدها المرض ، كان خلى الباب لا يدري من أمر دنياه شيئا فإذا به يواجه الحياة فجأة ، وأخذه مأمون معه إلى حيث كان يعمل .

و ذات صباح ذهب إلى البافذة ينظر فرأى بهية أمامه ، ممتلئة الصدر ، موردة الوجنتين تكاد تملأ فراغ الشباك كأنما قد شبت في يوم وليلة ، فأحس اضطرابا

واشتد خفقان قلبه وارتد إلى الخلف خطوات ، وأطرقت هي في حياء وأسبلت جفניה على عينيها ، فاستشعر كأن ستارا قد انسدل بينه وبينها . ومنذ ذلك اليوم أحس أن شيئا ما قام حائلا بينهما يمنعه من أن يجيها بيده أو يوميء إليها برأسه أو ترف على شفثيه بسمة ترحيب بها ، بيد أن ذلك زاد اشتعال وجدّه ، وربما تألق خياله فأصبح يراها غارقة في فيض من النور كلما مد عينيه إليها .

وفي ليلة حالكة السواد ماتت أمه ، وهصر الحزن قلبه وانفطرت كبده وانهمرت الدموع من مقلتيه ولكنها لم تطفئ وقد النار المتأججة في أحشائه ، وفي لحظة صار وحيدا يتلفت في ذعر خشية أن تتخطفه أنياب المجهول الذي وقر في أعماقه أنه وحش هائل فاغر فاه ليلتلهه ، وسرت في روجه مرارة اليم والوحدة ، فأطرق في انكسار وسار يجر رجليه جرا .

وضاق بنفسه وهو يسير خلف نعش أمه ، وطفق يتساءل لماذا جاء ؟ وما فائدة وجوده ! وماذا يضير الدنيا لو أنه قبر الساعة مع أمه الحبيبة في قبر واحد ! ليت ذلك أنفر القليل الذين جاءوا يودعونها الوداع الأخير يدفنونه معها ليرجوه من العذاب الذي يقاسيه ، وذلك الخوف الجاثم على صدره يكاد يكتم أنفاسه .

وصعد إلى غرفته وحده بعد أن انصرف الناس ، كان السكون الضارب في جنباتها يخلع القلب ، وشبح الموت الذي نشر جناحيه الثقيلين في أرجائها يقبض النفس ويزيد الروح ظلما على ظلام ، وانطلق في جوف السواد الذي يكلل كل شيء وهو يستشعر كأن وحشا كاسرا سينقض عليه من الخلف ، ولم يجد متنفسا لما يعانيه من كرب إلا دموعه ، فارتقى في فراشه يذرف الدمع السخين من قلب مكلوم .

وفي صباح اليوم التالي جاءت بهيبة مع أمها لتواسيه ، كانت ترتدى السواد ، والتمست منه والدموع تترقرق في عينيها المنكسرتين أن يصبر وأن يتجلد ، وأحس وهي تضع يدها في يده أنه ليس في الحياة وحده ، وسرى في ظلام وحدته بصيص من نور ، وبذرت في أرض يأسه بذرة أمل .

ومرت الأيام وذهب مأمون إلى الجيش ، وراح هو يعد نفسه ليلتبعه في السنة

التالية ، ومرت السنة ولم يذهب فقد أعفى من الخدمة العسكرية مع من أعفى من مواليد دفعته ، وارتاح لذلك القرار فقد كان بفطرته يمقت الحروب ، ويعجب من حكومات الدول التي تنفق جل مواردها لتكديس أدوات الدمار والتفنن في كل ما يبئد البشر ؛ بينما ملايين الناس يقاسون الحرمان ويتلونون من الجوع ، وما كان يتصور كيف يمضى يوم دون أن يسعد بذلك الضياء الذى ينتشر في جنبات صدره كلما وقعت عيناه على أسرة الفؤاد .

ومد يده إلى بذلته الزرقاء التي يرتديها في العمل وتناولها وراح يلفها في صحيفة قديمة ، ثم التفت ناحية النافذة لعله يتزود بنظرة ثانية قبل أن ينصرف إلى عمله ولكنه لم يرها ، فوضع اللقافة تحت إبطه وانصرف ، وصورة بهية تملأ كل آفاقه .

وقف على وصيد الباب الخارجى ورفع بصره إلى نافذتها ، واشرب بزوحه إليها ودبت في جوفه رغبة ناعمة تشتهى رؤيتها ، ومرت لحظات وهو خاشع لا تطرف له عين ، كأنه عابد متبتل في محراب رفع رأسه بعد الدعاء ليلتقى السكينة الهابطة من السماء لتستقر في أعماق قلبه .

ولمح طيفا قادما من جوف الغرفة نحو الشباك ، فتحركت المشاعر الخاملة تملأ خواء نفسه بأرق ما تجوده به روح هفهافة زاخرة بكنوز الحبة ، وخفق فؤاده خفقات تسكب في وجدانه نعومة ورقة ، وبدأت ألواح الصفيح الصدى التي كانت في لون الطمي تغيب عن عينيه لتقوم مكانها جدران تشع أضواء شاعرية . وأطل مأمون من النافذة فتبددت أحلامه وطارت أمانيه كما تطير عصافير كانت على فنن ثم انطلقت إلى جوارها رصاصة تمزق السكون فجأة ، فخفض رأسه وضغط بذراعه على اللقافة الموضوعة تحت إبطه ، ثم سار في شارع الأمين لا يلوى على شيء .

سار في رفقة ذاته لا يكاد يرى شيئا مما حوله ، ومر على المقهى ومشت إلى أذنيه الضوضاء المنبعثة من العمال الذين انتشروا في أرجائه فلم يحفل بها ، وظل في

طريقه وهو مشغول بالدنيا النابضة في نفسه .
ومس سمعه صوت نسوى ساخر يقول :
— التحيات لله .

فالتفت ناحية الصوت ووقعت عيناه على إنصاف وعلى شفتيها بسمتها الهازئة
وفي عينها تلك النظرات الماجنة التي يضيق بها صدره ، وقد ظهر خلفها دكان
العم فانوس كما تظهر الظلال في الصورة ، ومد عنقه ليرى العم فانوس الذي غاب
في أقصى دكانه وقال :

— صباح الخير يا عم فانوس .

فضحكت إنصاف ضحكة احمر لها وجهه ، والتفتت إلى العم فانوس وقالت :

— يا أطف الله ! المحروس نطق . نهارك مبارك يا عم فانوس . رد على هذا

الشرف العظيم .

فأسرع العم فانوس إلى صدر دكانه وقال في تهليل :

— صباح النور يا سى عبود .. اتفضل . اتفضل يا أمير .

فقال عبود وهو يلقي على إنصاف نظرة ازدراء :

— متشكر .

فقال عم فانوس :

— مصحوبا بالسلامة يا رجل يا طيب .

والتفت فانوس إلى إنصاف وقال لها :

— العيون علينا والقلب معنا .

فرمته إنصاف بطرف عينها وقالت وهي تتناول من يده اللقافة التي قدمها إليها :

— يا كهين !

ثم أسرع في مشيتها حتى سبقت عبود وسارت أمامه ومفاتها ترتج وترنح .

كانت في الثامنة عشرة ، ممثلة الجسم وإن كانت ملفوفة العود بحمزية اللون

مفتوحة العينين غليظة الشفاه ، إذا ما سخرت من شيء ، وكثيرا ما كانت

تسخر ، تتدلى شفتها السفلى وتنفرج شفتها من ناحية وتضيق من الناحية

الأخرى ، يرتفع حاجب ويهبط حاجب ، وتوسع عين ويسبل الجفن عن العين الأخرى ، ثم تطرف المقلة المفتوحة كأنما صار ذلك الشيء قذى في عيناها . وكانت ذات أنوثة طاغية تتحرك لها القلوب ، وحتى قلب عبود كان ينفعل بها فيضيق صدره ويتمنى في أعماقه لو أن تلك الفتنة تذبذب وتزول ، فقد كان في قرارة نفسه يربط بين جسدها المفتوح ونزوات الشياطين .

وبلغا مفترق الطرق فعرجت إنصاف إلى اليمين ووقف هو على الناصية ينتظر السيارة التي ستقله مع زملائه إلى عمله ، وظلت صورة إنصاف في مخيلته برهة ثم انمحت لتحل محلها صورة أخرى مشرقة ترتاح لها نفسه وتستكين لها حواسه استكانة القط لبيد الرحيمة التي تمسح ظهره في رفق وحنان ، فقد ملأت مخيلته صورة بهية بعينها المنكسرتين في نعومة تسلب اللب وتعبث بأوتار القلوب . وجاءت السيارة تسبقها ضجة رفقاءه وضحكاتهم فحذف إليها وألقى تحية الصباح على من مر بهم ، ثم اندس بين زميلين أفسح له مكانا بينهما وهو يقول لأحدهما :

— صباح الخير يا سليمان .

— صباح النور يا عبود .

ثم أطبق شففيه وظل صامتا وإن كانت عيناه تدوران في المكان وأذناه تلتقطان الصخب المجلجل في جنبات السيارة .

وألقى نفسه برغمه يتتبع المناقشات الحامية الناشبة بين فريقين من الزملاء ، وفطن من الصيحات المنطلقة من الحناجر إلى أن مباراة في الملاكمة قد جرت بالأمس بين زميلين ، وأن فريقا من الإخوان قد تحزب للظافر وراح يدل على مهارته وكيف كان يكيل اللكمات لخصمه ، وأن فريقا آخر انتصر للمهزوم وراح يلقي لوم هزيمته إلى ضعف الحكم وسوء تقديره .

وانتصب سليمان في وسط السيارة يقلد الفائز في وقفته ويضرب الهواء بقبضته ويقول :

— أتذكرون تلك الضربة الهائلة التي سددها يسراه من أسفل إلى أعلى ،

والتي ترنخ منها فؤاد وكاد يسقط على الأرض !
وارتفعت صيحات التأييد والإعجاب من فريق وصيحات الإنكار من
فريق ، وقام أحد المتحمسين للمهزوم وقال وهو يضرب بيده اليمنى في وجه
سليمان ذلك الواقف في وسط السيارة منفوشا كالديك :
— كيف نسيت هذه الضربة !؟

وترنخ الديك المنفوش وارتفعت صيحات مزججة هادرة من فريق ، وتأهب
الفريق الآخر للقتال إذا ما اعتدى على رجله ، وتكهرب الجو وانكمش عبود في
مقعده ، وراح يتلفت في ضيق كأنما يبحث عن عاقل يضع حدا للمهزلة الحمقاء
التي وقعت والتي قد تؤدي إلى بذر العداوة في الصدور .

وقام بعض الزملاء بإطفاء النار التي اشتعلت في النفوس ، وراح عبود
يعجب في نفسه كيف يتحمس الناس لفرد أو حزب أو فريق كل هذه الحماسة
التي قد تبلغ حد الهوس وإراقة الدماء ! إنه يذكر أن سليمان صحبه ذات يوم
لمشاهدة مباراة في كرة القدم بين النادي المصري ونادى الترسانة ، وهو يذكر
كيف كان سليمان يصيح في انفعال وحماسة كلما هدد المصري مرمى الترسانة ،
وكيف كان يرتجف رعبا كلما هددت الترسانة مرمى المصري ، بينما كان هو
هادئا ساكنا يشاهد المباراة التي تجري أمامه دون أن ينفع أو يتحمس . إن
سليمان من بورسعيد وهو من بورسعيد ، فلماذا تحمس سليمان كل هذه
الحماسة الرعناء التي جعلته يشترك في مشاجرة استنكارية بعد هزيمة المصري ،
بينما ظل هو هادئ النفس ، لا ينفع ولا يصخب ولا يصيح !؟ إن في سليمان
رعونة ، وما أكثر الرعناء من الناس !

وانسابت السيارة في شوارع بورسعيد حتى بلغت القناة ، فهبط من فيها
وانطلقوا جماعات إلى المعديّة ، وداعب نسيم الصباح وجه عبود وأنعش روحه
وحسر عن صدره موجات الكدر التي عكرت صفوه ، فراح يغوص في رؤاه
العذبة التي يندفع فيها بكل عواطفه حتى يكاد ينسى كل شيء حوله .
وبلغت المعديّة بورسعيد ، فانسابت السيارة بالعمال وانطلقت بهم في المدينة

الهادئة الوداعة التي كانت أشبه بلوحة رائعة يسرى في جنباتها همس النسيم
كتسييح الملائكة ، وحفيف الشجر كترنيمه شكر في معبد الجمال .

ووقفت السيارة في فناء شركة الملح ، فهبط العمال منها وانتشروا في الأرض
وانطلقوا إلى أعمالهم ، وفي لحظات كانت الملاحه كخلية نحل ، قطار صغير
يجرى على قضبان يجر خلفه عربات مكشوفة ، ورجال في غدو ورواح ، وآلات
تهدر ، وصوت المياه المتدفقة في الأحواض آت من بعيد .

واندج عبود في عمله ، وراح يصلح من قطع الغيار وسليمان إلى جواره
بوجهه الشاحب وعوده النحيل يعاونه ، وكاد النهار أن ينتصف وهو مشغول بما
في يده لا يلتفت ولا يتحدث ولا يكاد يسمع مما يدور حوله شيئاً ، وصكت
أذنه أنه مكتومة انتهت إلى صرخة الخلع لها قلبه ، والتفت مذعورا فألقى الدم
يقطر من يد سليمان فتقلصت سحنته وأخفى وجهه براحتيه ، ودارت به
الأرض حتى كاد ينهار .

إنه لا يحتمل رؤية الدم المنبثق من الناس ، وإذا ما رأى دماً فإنه يشعر بغثيان
ويبد قوية تعنصر كل مشاعره فتشن كل أحاسيسه وتتألم .

وجلس على أقرب مقعد ، وعلى الرغم من أنه أشاح بوجهه عن كل ما يجري
على قيد خطوات منه فقد أرهفت حواسه ، وراحت أذنه تلتقط كل همسة
وتجسم له عين خياله ما أغمض عنه مقلتيه تجسيما بشعا يقطر دماً ، فتسرى
قشعريرة في بدنه ، ويستشعر وخزات في روحه كأنها لسع النار .

ومر الوقت وخفت الأصوات ، وأحس يدا تلمس كتفه فالتفت فرأى
سليمان يرنو إليه رنوة امتزجت فيها الشفقة بالسخرية ، فانتصب على قدميه
ومسح وجهه براحتيه ، وقال سليمان :

— والله لا أدري ما الذي تخشاه من رؤية بعض قطرات من الدم ؟

فقال عبود في صوت لونه الانفعال :

— إني لا أهتم إذا ما جرحت وجرى دمي ، أما أن أرى دم غيرى يسيل

أمامي فهذا ما لا أحتمله .

فقال سليمان وهو يتنسم :

— إننا يا عبود قرينة من الدم ، فلماذا لا يخيفك الدم الذى يجرى فينا وترتعد إذا ما سالت قطرة من أصبع مجروحة ؟

— ما أكثر الأشياء التى فى أجوافنا وتمتعض منها إذا ما خرجت .
وقال سليمان مداعبا :

— ماذا تفعل يا عبود إذا ما وجدت نفسه يوما قد قتلت رجلا ؟
فقال عبود فى سرعة :

— كنت أموت قبله ، إني لا أطيق رؤية دجاجة تذبح .
فربت سليمان على ظهره بيده المجروحة وقال فى نبرات ساخرة :
— بطل !

وعاد عبود إلى عمله وانهمك فيه وكاد ينسى نفسه ، وإذا بصوت يناديه فالتفت ، كان المهندس توفيق يأمره أن يدع ما فى يده وأن يحضر بعض الأدوات ليذهب معه لإصلاح وصلة فى الأنابيب بدأت ترشح :

كان يحب مهندسه ، فما يذكر أنه نهره مرة أو ثار فى وجهه ، وكان يزيده قربا من نفسه تواضعه فما كان يحس أبدا أنه أمام رئيس من الرؤساء المتغطرسين ، بل كان يستشعر فى أعماقه أنه أخ كبير يزجى النصح فى هدوء ويلتمس العون فى أدب إذا ما أراد أن يصلح شيئا من أدوات بيته . وما كان يضايقه إلا إصراره على أن يدفع له ثمن كل خدمة يؤديها له ، وكان يقدرها فوق قدرها وهو المهندس الخبير !
وخف إلى مهندسه الذى كان ينتظره فى صبر وأناة ، وصعدا إلى عربة صغيرة مكشوفة من العربات الكثيرة التى يجرها القطار الصغير الذى راح ينساب بين جنبات الملاحظة ، وعرج يسارا وانطلق بن كثنان من الملح ثم يسرى بين أحواض الملح المترامية عن يمين وشمال كأنما قد كسيت الأرض بجليد ناصح البياض .
ومد عبود بصره إلى السهول البيض ، وراح يتلفت حوله ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا بسحاب أبيض قد حجب زرقتها ، فاستشعر راحة وتفتحت نفسه فقد خيل إليه فى تلك اللحظة أن الكون كله قد غلف بالظهر والنقاء .

كان كلما دب التعب إلى أوصاله يغادر عمله ويسير حتى يبلغ مشارف السهول البيض ، ثم ينظر إليها شاردا فتتبخر أوصابه وترق نفسه ويحس كأن روحه قد شفت ، أما إذا وقعت عيناه على عرق أحمر من تلك العروق المنسابة في الملاحظة كالأفاعى الحمر على صفحة بيضاء ، فقد كان ينقبض ويدور على عقبيه ليعود من حيث جاء .

انقضى النهار أو كاد ، فخفف العمال إلى السيارات الكبيرة التي كانت في انتظارهم ، هذا ينادى على ذلك ، كل يحاول أن يكون مع صديقه أو ثلثه ليتجاذب وإياهم أطراف الحديث . ويقص أقاصيصه التي رواها كثيرا ورددتها مرات في الغدو والآصال ، بيد أنه يجد لذة في أن يسمعها من نفسه ، ولا يمل أبدا من ترديدها مادام هو الذى يتحدث ويجد آخرين يصغون إلى كلامه .
وراحوا يتزاحمون أمام باب السيارة ، ويتدافعون بالمناكب ، فترث عبود حتى صعدوا ، ثم ارتقى السلم في تودة وسار بين المقاعد يتلفت ، فوجد سليمان قد حجز له مكانا فاتجه إليه وجلس وهو صامت . وإن كان كل من في السيارة يحاول أن يأخذ بطرف الحديث وأن يرغم زملاءه على أن يغلقوا أفواههم وأن يفتحوا له آذانهم ، وبدا من ارتفاع أصواتهم أن الجميع زاهدون في الإصغاء .
وتحركت السيارة وارتفع عجاج السيارات الأخرى ، وخلفت الشركة وراءها وانسابت في بور فواد ، فجرحت حياء السكون الذى ران على المدينة الهادئة المكلفة بالوقار .

وبلغت السيارة نادى موظفى شركة القناة ، فمد سليمان عينيه إلى النادى ، وراح يرقب سيدة أجنبية وطفلها وهما يتجهان في ثقة نحو الباب ، فالتفت إلى عبود وقال :

— متى يُسمح لنا بدخول هذا النادى ؟

فالتفت إليه عبود في إنكار وقال له :

- عيبك يا سليمان أنك كثير الأحلام ، عريض الآمال .
فقال سليمان في حماس :
- كل ما أطلبه أن أتساوى أنا ابن البلد بهؤلاء الأجانب الوافدين من كل مكان ،
أن يكون من حقي أن أتمتع بجمال بلدى وخيراتة وبكل ما خصوا به أنفسهم
دوننا ، أن أجلس أنا وهم في مكان واحد دون أن يبدوا استياءهم من وجودى .
فشرد عيود ساها برهة ، ثم قال :
- لم أفكر يوماً في أن أدخل هذا النادي ولم أحلم بأن أجلس مع أحد من هؤلاء
السادة فأين أنا منهم ، كل ما تمنيت يوماً أن تفتح لى أبواب السماء وأن أعين كناسا
فى الشركة ، ولكن لم أستطع أن أحقق حلمى ، أو أجد من يشفع لى عندهم .
وكان يصغى إلى حديثهما شاب فى عينيه بريق ذكاء ، وفى جبهته زيبية من أثر
السجود قال :
- لو دفعت ثمن الوظيفة لحصلت عليها .
— ومن أين لى المال الذى كنت أدفعه يا شيخ حسن ، يوم كنت أبحث عن قوتى ؟
فزفر الشيخ حسن فى قوة وقال :
- لو كنا دولة قوية لأرغمنا هؤلاء الأجانب على احترامنا ، فالناس
لا يحترمون إلا الأقوياء ، ولا يقلدون إلا الأقوياء ، ولا يتملقون
إلا الأقوياء .
- وصمت قليلاً ثم قال :
- ماذا كان يفعل هؤلاء أيام كنا أقوياء ، أيام غزونا بلادهم ؟ كان رجالهم
يفاخرون بأنهم ينظمون الشعر العربى ، كما يفخر رجالنا اليوم بأنهم يجيدون لغاتهم .
ونظر الشيخ حسن من الشباك القريب منه ، ووقع بصره على رجال بيض
الوجوه ، زرق العيون ، شعورهم شقراء ، فقال فى مرارة :
- لو كنا أقوياء ما مشى هؤلاء الإنجليز على أرضنا مطمئنين .
— لم يبق إلا شهور وبعدها نرتاح من رؤية وجوههم .
— لا أعتقد أنهم سيتركوننا دون حرب .

فقال سليمان في فرح :

— انتهى كل شيء ، تم الاتفاق بيننا وبينهم على أن يجلبوا عن قاعدة القناة بعد عشرين شهرا ، بعد أقل من سنتين .

فقال الشيخ حسن :

— أشك في أنهم سيحلون : وحتى لو نفذوا الاتفاق فما أسرع ما يخلقون الظروف التي تمكنهم من العودة إلى القاعدة ، كيف قبلنا شرط رجوعهم إليها إذا ما حدث هجوم على مصر أو تركيا أو أية دولة من الدول العربية المنضمة إلى ميثاق الضمان الجماعي العربي ، ونحن نعلم أن العالم اليوم جالس على فوهة بركان ، هذا في رأيي إذعان للقوة الموجودة بيننا .

— وماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟

فقال سليمان :

— نرفض هذا الشرط .

— ولا نبرم اتفاقية الجلاء ؟

— ونحاربهم إذا استدعى الأمر .

فقال عبود :

— أنا لا أفهم في السياسة ولكني لا أوافق على هذا الرأي ، لأنني بطبعي أوافق على كل حل سلمى ، لماذا نقتل أنفسنا إن كنا نستطيع أن نحقق أهدافنا دون إراقة دماء ؟ إنى أو من بأن كل مشاكل الأرض يمكن أن تحل دون سلاح إذا خلصت النيات .

فقال حسن في سخرية :

— إذا خلصت النيات !

ورفت على شفثيه ابتسامة ساخرة مريرة ، ثم قال :

— إننا بشر يا عبود ولسنا ملائكة ، وما من دعوة كبيرة انتشرت في الأرض إلا وقد سقيت جذورها بالدماء ، وما من حق من الحقوق انتزع من معتصبيه إلا وقد أريق في سبيله الدماء ، فالدماء المسفوكة إن هي إلا قرابين للمجتمعات

ناعمة بالطمأنينة ، سعيدة بالاستقرار .

فقال عبود :

— أيهما أفضل أن يخرج الإنجليز دون قتال ، أو أن نقتل وتزهق أرواحنا دون مبرر يدعوننا للقتال ؟

— بل هناك مبرر ، لو طردناهم من بلادنا بالقوة فلن يكون لهم حق العودة ، ذلك الحق الذي لا أدرى كيف طاوعتنا قلوبنا على أن نعطيه !
قال سليمان :

— أحب يا حسن أن تقتل في حرب بيننا وبين الإنجليز ؟

فشمخ حسن بأنفه وقال :

— يا ليت ! هذا هو الاستشهاد .. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا .
فقال سليمان في تودة :

— نسالم من يسالنا ونعادي من يعادينا .

فابتسم حسن ابتسامة هازئة والتفت إلى عبود وقال :

— أأنت يا عبود على استعداد لأن تعادي أحدا ؟!

وأحس عبود رنة السخرية في أعماقه ، فلم يضطرب ولم ينقبض بل قال في ثبات :

— أنا أمقت العنف وأكره أن أعادي أحدا . وأحاول أن أحب كل الناس

حتى أعدائي .

قال الشيخ حسن :

— في رأيي ألا نهادن من قتلوا آباءنا واضطهدونا وطعنونا في قلوبنا يوم

خانونا في فلسطين ، الإنجليز أعداؤنا منذ أن عرفناهم وعرفونا وهم رأس كل بلاء
حاق بنا .

قال عبود :

— علينا أن ننسى الماضي ونصفح ، وأن نبدأ صفحة جديدة ونمد أيدينا

للجميع ، فالأصدقاء لا ينفعون ولكنهم لا يضررون ، أما عدو واحد فقد يحيل

الحياة إلى جحيم ، وعدو الأمس اللدود قد يصبح صديق الغد الحميم .

— هيات .

وظلت السيارة في طريقها والمناقشات محتدمة بين ركبها ، مناقشات جادة ومناقشات هازلة ، ومهارات ورواية نكات ، وانطلقت العوامة بحملها إلى بور سعيد ، ثم انسابت السيارة في حى المناخ حيث هبط جل ركبها .

وسار عبود وحسن في شارع الأمين ، عبود يمد بصره بعيدا لعله يلمح طيف بهية وقلبه يخفق في حنان ، وخلجات نفسه كلها تحرضه على أن يفتح مأمون في أمر حبه لأخته ورغبته في أن يتخذ منها زوجة ، وحسن يفكر في مستقبله وفي العش الهادئ الذى عليه أن يبنيه . وفي الزوجة الصالحة التى سيسكن إليها .

كان الشيخ حسن في مثل سن عبود ، ولكنه كان يبدو أكبر منه ببضع سنين ، فمسحة الجذ التى تكسو وجهه ، والزيبية التى تتوسط جبهته من أثر السجود ، وصوته الأجلج ، وفمه المطبق في براءة ، وشاربه الغزير الذى يملأ ما بين أنفه وشفته العليا ، وجسمه المبسوط ، كل أولئك يوحى بأنه قد جاوز الثلاثين .

وكان حسن مغرما بقراءة الكتب الدينية يحفظ كثيرا من السور القرآنية والأحاديث النبوية ، وكان يقتطع من أجره المحدود كل شهر مبلغا يشتري به الكتب الإسلامية ، وكان يسارع إلى الندوات والمحاضرات إذا ما كانت تدور حول الدين أو حول شخصية من الشخصيات التى كان لها أثر في نشر الإسلام وتوطيد دعائمه ، فكان مثقفا ثقافة دينية وإن كان حظه من التعليم الدراسى ضئيلا ، وكانت نفسه تتفتح إذا ما جرت بينه وبين آخرين مناظرة أو أتاحت له فرصة أن يدلى برأى وجيه له فائدة الكتب التى ينفق فيها جزءا ليس باليسير من دخله .

كانت أحلام يقظته تدور حول الدعوة ، وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس إلى الهدى ، ويعيد الضالين إلى الصراط المستقيم ، وقد أراد أن يحقق أحلامه يوما فراح يرأسل بعض الشبان في العراق وسورية عقب حرب فلسطين ، وكانوا يتحدثون عن العبث والقومية والدعوة الإسلامية وضرورة العودة إلى الدين .

كان لا يعرف الفرق بين البعثيين ولا القوميون ولا يدري علام يختلفون ؟

بيد أن حماسه كانت تثار كلما جاء في رسالة من الرسائل التي يتلقاها ذكر الماضي وبطولات الماضي المجيد ، وأمانى العودة إلى العزة التي كان فيها المسلمون أيام اتحاد الشعوب . كان ذلك حاله أيام أن كانت بعض الكتب المقررة على طلبة المدارس الثانوية تؤكد أن بيروت عاصمة سورية !

ومرا بدكان فانوس فتمهل عبود قليلا ، وتريث حتى وقع نظر فانوس عليه فألقى عليه تحية بيده وبلسانه ، بينما سار حسن في طريقه وأشرف على القهوة ، وكانت الأصوات المنبعثة منها خليطا من همهمة وكركرة وقهقهة وضجيج وغناء منبعث من الراديو يضيع في صيحات لاعبي الطاولة والورق وعجيج أنصارهم ، وكانت سحب الدخان تموج في جنباتها وتسرى في حلقات إلى السقف ، ففر المكان بنظرة سريعة فإذا بمأمون وصديق الفرارجي والشاويش بهنس جالسون تحت رف الراديو .

وقف حسن لحظات وقد ثبت بصره على صديق ، ودارت في رأسه أفكار تنبعث فيه مشاعر وأمانى ، وأحس أنه ينجذب إليه بكل كيانه ، ثم تقدم في خطوات ثابتة وصوت أجش يرن في أعماقه يقول : « توكلنا على الله » . كان صديق الفرارجي طويلا نحिला ، أشقر الشعر ، وكانت عيناه واسعتين لامعتين لهما يريق لم تطفئه السنون ، فلئن أشرف على الستين إنه كان مستوى العود ، مشدود القامة ، يرتدى ثوبا بسيطا غاية البساطة ونظيفا تستريح لنظافته العيون . وكان بهنس ربعة ، لا هو بالقصير ولا بالطويل ، أسمر ، يملأ وجهه شارب أسود غزير ، تدل ملامحه على الصرامة ، في الرابعة والثلاثين يرتدى زى الشرطة الشتوي الأسود وحذاءها الضخم الثقيل .

سار حسن إلى حيث كانوا جالسين ، فألقى عليهم التحية ثم صافحهم بيده ، وقد بدا عليه شيء من التوقير الصادق وهو يصافح صديق ، ثم سحب كرسيه وجلس إلى جواره .

وتقدم عبود في الطريق في خطى ثقيلة وقد شخص ببصره إلى شبك بهية ، فلمحها هناك في هالة من النور على الرغم من أن الظلام بدأ يزحف ليلف الكون

في عباءته السوداء .

ونبتت في جوفه مشاعر جميلة كان مذاقها في نفسه لذيذا ، وسرى فيه خدر ناعم دغدغ حواسه وفتح أمام أحلامه آفاقا رحبية ، وظل في هيامه الروحي فترة حتى همس فيه هامس أن الناس جميعا فطنوا إلى ما هو فيه من وجد ، وأن العيون كلها غشيتها ذلك الضوء الشعري الذي يشع من بهية كلما مد عينيه إليها ، فأفاق من النشوة السارية بين أضلعه وسار إلى القهوة وهو يتلفت .

ومشى هونا إلى حيث كان يجلس أصدقاؤه ، حتى إذا صار على بعد خطوات منهم حياهم في صوت خافت ، وهم بأن يجلس على أول مقعد قابله ، إلا أن مأمون نهض لاستقباله وهتف في ترحيب :

— أهلا عبود .

ومد له يده ، فاعتدل عبود وصافحه ، وراح يصافح الآخرين وهو يتسهم وفي عينيه صفاء ينم عن نقاء نفسه .

وجلس الجميع ، وانتبه الشاويش بهنس الفرصة ليأخذ بطرف الحديث ، فقال :

— حدث اليوم في القسم شيء طريف ، جاءت شكوى من أحد مديري شركة القناة يتهم فيها الطباخ بأنه سرق بعض أدوات البيت ، وقد تسلم الشكوى ضابط جديد ، فأمر باستدعاء الشاكي لأخذ أقواله ، وهرع أحدنا إلى المأمور يحمل إليه النبأ العظيم ، فخف المأمور إلى الضابط الشاب وقال له : « إن مديري القناة لا يستدعون إلى القسم ، بل ينتقل إليهم المحققون » فقال الضابط في دهش : « لماذا ؟ » وضحك الحاضرون وقال له المأمور : « إن كل مدير من مديري القناة الثلاثة يتقاضى ثلاثة عشر ألف جنيه في السنة . »

فقال حسن في استنكار :

— ولو ! إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مثل بين يدي القاضي لما اشتكاه أحد رعاياه من اليهود !

فقال مأمون :

— ذلك أمير المؤمنين ، أما هذا فهو أحد أباطرة القناة الفرنسيين !

وشرد عبود قليلا ثم قال :
— ثلاثة عشر ألف جنيه في السنة !؟ لو قدر لى أن أشتغل مائة سنة
ما حصلت على هذا المبلغ .
وقال صديق الفرارجى في مرارة :
— إنه يتقاضاه في سنة ، أما أنا وأنت فموت دون أن تساوى كل جهود
حياتنا مثل هذا المبلغ ، قد نحصل عليه لو اشتغلنا قرنا من الزمان وهذا مستحيل .
فقال حسن في سخرية :
— المسألة كلها قرون .
ورفت بسمات على الشفاه ، وقال مأمون :
— وماذا فعل الضابط الشاب ؟
— رفض أن يذهب إلى المدير لأخذ أقواله ، فاضطر المأمور لكيلا يثير أزمة
أن يذهب بنفسه ، وبعد ساعات عاد المأمور وهو عابس الوجه ، وسرعان
ما عرف السبب ، فالمدير الفرنسى رفض أن يوقع على أقواله لأنها مكتوبة باللغة
العربية وقد طلب أن تترجم إلى الفرنسية قبل أن يوقع عليها .
فقال مأمون في ضيق :
— ما شاء الله !
وقال حسن في مرارة :
— يريد أن يجعل من أقسام القناة محاكم مختلطة لإكراما لخاطره ! إنه معذور فهو
يحس أنه إمبراطور في دولة القناة !
وقال صديق الفرارجى :
— ما أقوى صوت المال ، وما أعظم أن يكون الإنسان غنيا .
وتذكر فجأة حادثة لأجد مديرى شركة القناة ، فاعتدل وقال :
— دخل أحد مديرى الشركة بار الفندق الحديدى ، وكان في رفقته ثلة من
وجهاء المصريين والمالطيين والإنجليز ، وأعلن أن جميع الطلبات من البار في تلك
الليلة على حسابه .

- وقال الشاويش بهنس :
— له حق ، وأين سينفق الثلاثة عشر ألفا من الجنيهاً التي تدخل جيبه كل سنة ، إن لم ينفقها في البارات وفي القمار ؟
وقال مأمون وهو شاردي يحلم :
— وعلى اللحم الأبيض والشعر الأصفر .
وقال حسن وهو يهز رأسه ويمسك شاربه :
— والعيون الزرق !
فقال له عبود في عتاب :
— اتق الله يا شيخ حسن .
وقال صديق وهو يعبث في ذقنه :
— والله لا أدري ما الذي يجنيه من بعثرة أمواله ؟
فقال حسن وهو يهز رأسه استخفافاً :
— يجني الكثير . كأس .. كأسان .. ثلاثة ثم بعدها تحل عقدة اللسان ،
ويجمع ما يشاء من معلومات . فشركة القناة أكبر بؤرة للجاسوسية في الشرق الأوسط إن لم تكن أخطر بؤرة للتجسس في العالم .
فقال عبود في انكار :
— حرام عليك يا شيخ حسن .
فقال الشاويش بهنس :
— يخيل إلى أن الشيخ حسن على حق ، فوليامز كثيراً ما يتصل بكبار موظفي القناة .
فقال مأمون مستفسراً :
— وليامز ثعلب المخابرات ؟
فقال بهنس وهو يقبض على شعرات من شاربه بين أصابعه ويجذبها :
— نعم . وهل هناك غيره ؟ إنه كثيراً ما يخوم حول ضباط الأقسام .
وقال صديق الفرارحي :

- وأطباء المستشفيات ورجال الإسعاف .
وقال عبود في دهش :
— أنا لم أصدق أذن لما ناداني باسمي أول أمس وكنت أسير أمام مبنى المباحث
الجنائية .
فقال مأمون في طرفة :
— وماذا قال لك ؟
— لا شيء . حيائي وانصرف .
فقال صديق وهو يعبث في ذقنه :
— يخيل إلى أنه يعرف سكان بور سعيد واحدا واحدا .
فقال بهنس :
— والأهالي يرحبون به لأنه يكلمهم بلسان عربى .
فقال عبود في غيظ :
— وهذا أخطر ما فيه .
فقال صديق :
— سيغادرنا مع من سيفارقوننا بعد شهر .
فقال حسن في مرارة :
— إن خرج مع جيوش الاحتلال فما أسرع ما يعود موظفا في شركة
القناة ! إنه كفاية ولا يمكن أن تستغنى عنه المخبرات .
ونفض مأمون مستأذنا ، فقال له بهنس :
— إلى أين ؟
فقال مأمون وهو يبتسم :
— أعطى أمى حقها ، فإجازتى قصيرة وقد أمضيت النهار كله هنا .
فقال له حسن .
— مع السلامة وبلغها تحياتى .
والنفت مأمون إلى عبود وقال له :

— أراك غدا بخير .

فنهض عيود وقال :

— إني ذاهب لأستريح .

وسار مأمون و عيود إلى جواره تراوده فكرة أن يفتح صديقه في خطبة أخته ولكنه لم يجد لسانه حتى غادره مأمون وغاب في ظلام بيته ، وانطلق هو إلى داره وهو حائق على نفسه .

وظل حسن وبهنس وصديق يتسامرون وحسن يحاول أن ينتهز فرصة ليفتح صديق فيما عقد العزم عليه ، وأتيحت له فرصة طيبة ليكشف عن مكنون صدره ، بيد أنه آثر أن يتريث حتى ينفرد بصديق .

ومر الوقت والأغاني تبعث من الراديو دون أن يصغى إليها أحد ، وأصوات رواد المقهى تعلو وتختلط وتطن حتى إن الأذان لم تعد تميز منها شيئا ، وراح الدخان يتكاثف ويستقر ليملاً كل فراغ المكان ، ولم يعد بقادر على أن يسامى أو يعرج إلى السقف كأنما أصيب بشلل .

وقام صديق لينصرف ، وما لبث أن قام حسن ، وقال بهنس إنه سينتظر حتى يسمع نشرة الأخبار .. وسار صديق وحسن إلى جواره ، ولما خلفا القهوة وراءهما قال حسن :

— أمى تريد أن تزوركما غدا .

فقال صديق دون تفكير :

— أهلا وسهلا .

— متى ؟

— في أى وقت البيت بيتها .

فقال حسن في انشراح :

— شكرا .

ثم صافح صديق في حرارة وانصرف وهو يحس بلايل تشدو بين جوانحه ، ومشاعر منتشبة ترقص في أرجاء نفسه التي تفتحت حتى وسعت الكون جميعه .

سار صديق وهو مشغول بطعام العشاء الذى يحمله معه إلى بيته ، بعد أن التهمت بناته الخمس فى الغداء كل الطيبخ الذى أمضت زوجته فى إعداده صدر نهارها . ورأى بعين خياله زوجه وهى تحمد الله ثم تغادر السفرة وما أكلت إلا لقيمات تمسك رمقها ، ورأى نفسه وهو ينسحب وراءها قبل أن يشبع ليترك لبناته ما يملأ بطونهن .

ووقف عند عربة صغيرة فوقها صندوق من زجاج مغبر ، وضع عند مقدمها موقد غاز فوقه إناء به زيت ، تفوح منه رائحة الطعمية الشهية ، وقال للرجل :
— بخمسة قروش .

وانطلق فى طريقه ، وما بعد خطوات حتى عاد إلى الرجل وقال له :
— بستة قروش .

ثم عاود سيره ليشتري خبزا بخمسة قروش آخر . ووضع أرغفة العيش تحت إبطه وحمل قرطاس الطعمية فى يده ، ووسع من خطوه وهو يرجو أن يصل إلى البيت والطعمية ساخنة ، فذلك يدخل البهجة على قلوب بناته .

ووصل إلى الدار ، ودلف إلى السلم مسرعا ، وراح يصعد فى الدرج المتهدم ، وعلى الرغم من الظلام الثقيل الذى ران على المكان فقد كان يعرف أين يضع قدمه .

ووقف أمام باب شقته وطرقه طرقات خفيفة ، وما أسرع أن انفرج عن بناته الخمس ، وما إن وقعت أنظارهن عليه حتى انقضت كل منهن تحاول أن تأخذ من يده قرطاس الطعمية .

وتعالت صيحاتهن لما تناولت فتحية ، الابنة الكبرى ، القرطاس من أبيها ، فأقبلت الأم على أصواتهن ، ورأت زوجها فقالت :
— جئت يا صديق ؟ مساء الخير .

— مساء النور .

ورأت قرطاس الطعمية في يد فتحية ، فمدت يدها لتأخذه منها حسما للنزاع الذى سينشب بين البنات وقالت :

— هاتى يا فتحية ، وافرشى السفرة .

ومد صديق يده بأرغفة العيش التى كانت تحت لإبطه فتناولتها الزوجة منه ، وذهب إلى غرفته ليخلع ثياب الخروج ويلبس الجلباب الذى يرتديه فى المنزل . كانت الغرفة خالية إلا من سرير عتيق ، و امرأة مكسورة ، ومشجب عليه جلباب أبيض ، وبذلة الإسعاف وقبعة رجال الإسعاف ، وقميص نوم وثوب بسيط للزوجة ولا شىء آخر غير الرطوبة التى كثيرا ما تعجز الأغطية الموضوعة على السرير عن أن تبعد عن النائمين فيها غائلتها .

وخلع ثيابه وارتنى جلبابه الأبيض ، وبلغ مسمعه صوت زوجته تناديه :
— صديق . تعال قبل أن تبرد الطعمية .

وخف إلى الردهة الخارجية فألفاهن يتحلقن السفرة ، وكانت طشتا مقلوبا عليه مفرش من قماش قديم نثرت فوقه أقراص الطعمية .
وفسحت بنتان مكانا بينهما وقالتا فى صوت واحد :

— بابا . تعال هنا .

وذهب وجلس بينهما على الحصيرة ، ووضعت الزوجة بصلة كبيرة على السفرة وقطعتها بسكين أربعة أجزاء متساوية ، ثم تناولت بصلة أخرى وقسمتها أربعة أجزاء آخر ، وقدمت نصف بصلة إلى زوجها وهى تقول له :

— خذ وزتك .

وراحت توزع ربع بصلة على كل من بناتها وهى تقول :

— فتحية ، خذى وزتك . وأنت وزتك .. وأنت وزتك .. وأنت

وزتك .. وأنت وزتك .. وأنا وزكى .

ونظرت صغرى البنات إلى نصف البصلة التى ميزت أباهما وهمت أن تقول شيئا بيد أنها أحست سخافة ما ستقوله بعد أن فتحت فمها ، فقالت وهى

تتظاهر بالمرح :

— كل واحدة وزه !

وقال صديق وهو يمد يده :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

وقبل أن يتناول الأب شيئا كانت البنت الصغرى قد غيبت في فمها قرص

طعمية ، ورأتها أمها فقالت لها :

— من يأكل معك يظلم .

وراحت تقسم أقراص الطعمية على الجميع بالتساوى ، لكيلا يبدأ بينهن

سباق لا يخسر فيه إلا هي وزوجها .

وساد الصمت بينهم ، كانوا مشغولين جميعا بالطعام ، وقد ألقى صديق نظرة

على أسرته فأحس شيئا من الرضا ، فتياته متوردات الخدود في ضحة جيدة ،

وزوجته على الرغم من أنها أشرفت على الخمسين لا تزال ناضرة .

كانت فتحة في الثانية والعشرين ، بيضاء البشرة ذهبية الشعر ، ممتلئة الجسم

متناسقة الأعضاء ، وزاد في حيويتها ذلك المجهود الذي تبذله مع أمها في توفير

بعض أسباب الطمأنينة لأهل البيت ، فقد كانت تصنع من ثوب ضاق على

صاحبه أو خلق من بعض أجزائه ثوبا آخر لأخت من أخواتها الصغار ، وكانت

تتفنن مع أمها في طهو أصناف شهية من بقول أو خضر رخيصة ، فكانت تتفنن

في صنع بعض أنواع الكفتة من الفول الحراقي ، وبعض ألوان من الملوخية على

مرق من الفول النابت ، وقد كانوا يطلقون على هذا الصنف من الملوخية :

ملوخية بالأرانب ! كانوا يتحدثون عن الأوز والدجاج والأرانب والديوك

الرومية في بساطة دون أن تتحرك المرارة في وجدانهم ، فقد أفلحوا في أن يقنعوا

أنفسهم بالرضا عن الحياة التي يحبونها .

وكانت أصغر البنات في العاشرة ، وكانت شهيتها مفتوحة كأخواتها ،

ولكنها كانت أجرأهن في التهام ما يوضع أمامها من شراب أو طعام ، بيد أنها

ما كانت تأكل وحدها ما تقدمه المدرسة إليها من وجبة غذائية ، بل كانت تحمله

إلى أمها لتضعه مع ما تأتي به أختها الأخرى اللتان تذهبان إلى المدرسة مثلها أمامهم جميعا ليشتروا فيه .

وألقى صديق نظرة سريعة على المائدة ، فألقى أصغر بناته قد غيبت في بطنها كل ما كان أمامها ، فمد يده وقدم إليها ربع البصلة الذي ميز به ، ثم التفت إلى زوجته وقال لها :

— هاتي لبنا لنحلى به .

وتهللت أسارير الفتيات جميعا ، وقامت الأم وتناولت إناء ملأته بالماء ثم وضعت على النار ، وجاءت بعلبة من الصفيح بها لبن مجفف جمع مما يأتي به الفتيات من مدارسهن ، ومما أتى به صديق من الإسعاف حيث يعمل ، وأخذت تذيب اللبن المجفف في الماء ثم ألقته فيه كمية من السكر ووقفت تنتظر حتى فار اللبن ، فحملت الإناء وعادت به إلى حيث كان زوجها وبناتها في انتظارها . وضع إناء اللبن على المائدة ، وقبل أن يستقر فوقها كانت أصغر البنات قد ألقته فيه فتيبت ما تبقى معها من خبز ، وإذا بباقي الأسرة تفعل مثل ما فعلت ، ونظرت الأم إلى فتحية وقالت :

— الملاعق يا فتحية .

وانتهوا من عشائهم ، فرفع صديق نظره إلى السقف وقال في رضا :

— اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال .

فقالت الأم في إخلاص :

— يارب .

وظل مصباح الغاز حائرا بين الأم وفتحية وأخواتها اللاتي يذهبن إلى المدرسة ، واستقر المصباح مع الفتيات بعد أن دخل الأب والأم غرفتهما ، وفرشت فتحية الحشايبا على الأرض في الغرفة الثانية لتنام هي وأخواتها .

وتذكر صديق ما قاله الشيخ حسن ، فقال لزوجته :

— قال الشيخ حسن إن أمه ستزورنا غدا .

فقالت الأم في استغراب :

— ألم يقل لك لماذا ؟

— كل ما قاله إن أمه ستزورنا غدا .

— إنها لم تترنا من سنة . ترى لماذا ستزورنا !؟

— وهل لا بد من سبب ليزور جار جيرانه ؟

— يخيل إلى أن لهذه الزيارة سببا .

— وما هو ؟

— فتحية .

— فتحية !؟

— زينب بنت إحسان جارتنا ولدت في نفس الشهر الذى ولدت فيه

فتحية ، وقد تزوجت وخلفت ثلاثة .

وساد الصمت برهة حتى قالت الزوجة :

— مالك ؟ لماذا لا تتكلم ؟

وكان الضوء المنبعث من مصباح الغاز خافتا حتى إنها لم تلاحظ الانفعالات

العنيفة التى ارتسمت على وجه زوجها .

كان قانعا راضيا بحياته ، وكان يجاهد ويكافح ليحقق لبناته رغباتهن ، وكان

ينشرح صدره كلما ملأهن بطونهن ، وكان يظن أن ذلك غاية أمانهن وما فكر

يوما فى أمر زواجهن ، وإذا بحديث الليلة الخاطف يلقي ضوءا على مشكلة معقدة

لم يحسب لها حسابا ، إنها ليست مسألة فتحية وحدها بل مسألة بناته كلهن

وأسرته من بعده .

لأنه قد أمضى كل عمره فى خدمة الإسعاف ، وأشرف على الستين وكانت

ثمرة كل هذه السنين خمس بنات وأمهن ومرتبته الذى ينفقه على حاجة البطون

وستر الأجسام ولا شيء آخر . ماذا يكون حال بناته وزوجته لو سقط ميتا كما

سقط عشرات من الرجال من حوله ؟

وتلوى فى فراشه وعض على طرف الغطاء من الألم ، وسرت فيه أنه مكتومة

كادت تمزق أحشائه ، فما رآه بعين خياله بشع لا يمكن لرجل شريف مثله أن

يحتمل مجرد أن يطوف بذهنه . . .
آه لو تزوج بناته جميعا في هذه الليلة ويصبحن في كنف رجال يصونونهن من العيب ، إذن لاستراح من سوط العذاب الذى بات يلهب روحه ويمزق وجدانه ويعذبه عذاب الهون .

وعلى الرغم من الظلام الذى جثم على أنفاس الغرفة ، فقد رأى في وضوح بناته ناهدات الصدر ، ممتلئات الأرداف محلولات الشعر وقد امتدت إليهن أصابع نهمة ثائرة تمزق الأسماط التى تسترهن .

ومر يده على وجهه وعصر رأسه بقبضته لعله يكتم أنفاس الرؤى البشعة التى عرفت طريقها إلى عقله ، وأحس رغبة في أن يزفر الرماد المتخلف في صدره من النار المندلعة في جوفه تحرق عواطفه ، بيد أنه خشى أن تفتطن زوجته إلى حقيقة ما يكابده فتسأله عما به وعما يدور في رأسه فتزيد في تعذيبه وأساه ، فأخذ يجاهد ليبدو بنفسه طبيعيا ، وكان ذلك جهدا آخر فوق الجهود المبذولة لإخماد الثورة التى انفجرت في نفسه فجأة كالبركان .

ماذا يفعل لو طلب الشيخ حسن حقا الزواج من فتحية ؟ إنه بكل جارحة من جوارحه يتمنى أن يتحقق ذلك ولكن فرق بين أن يتمنى وأن يكون ، فهو لا يملك ما يشتري به ثوبا واحدا لابتته ترتديه ليلة الزفاف ، وحتى لو كان يملك ثمن ذلك الثوب ، أيكفى ليتم الزواج أن تمتلك الزوجة ثوبا واحدا ؟! ولو قبل حسن أن يأخذ فتحية بثوبها أيعفيه ذلك من شراء ملابس لأخواتها ولزوجته ؟ ومن أين له المال ؟!

ليت الزمن توقف عن الدوران أيام أن كن جميعا أطفالا كل حاجاتهن أن يملأن بطونهن ، أما وقد دارت عجلة الزمن وأصبحت لهن رغبات كان غافلا عنها فلم يعد يدرى ماذا يفعل .

وقالت الزوجة : . . .

— ماذا أقول لأم حسن لو طلبت فتحية لحسن ؟

ودارت به الغرفة ، فزوجته تطلب منه في هذه اللحظة أن يقرر أن تظل بناته

(م ٣ — السهول البيض)

عوانس أو أن يقبل ما لا يستطيع أن ينهض به . ماذا يقول لها ؟ وشحذت كل مشاعره وتبتهت كل حواسه ، وراح عقله يعمل بيد أنه لم يبتدأ إلى جواب ترتاح له انفعالاته الثائرة .

وظل صامتا وإن دار في فراشه أكثر من دورة ، وعادت الزوجة تقول له :

— لم تقل لي ماذا أقول لأم حسن ؟

فقال وقد تهجد صوته : —

— لو كان معنا ما نشترى به ما تحتاج إليه فتحية لرحبنا بطلب حسن ،

ولكنك تعلمين أننا لا نملك شيئا .

— لو قبلت أن تشغل فتحية لكان معها ما يعينها على أن تتزوج .

— من يسمعك يعتقد أنى رفضت أن تعمل فتحية . ألم أحاول أن أجد لها

عملا في شركة الشاي ؟ ولكنى لم أنجح لأن المديرين من الإنجليز ولا أعرف

أحدا منهم .

— أنت الذى رفضت أن توسط عبود ليكلم المهندس توفيق ، ولو فعلت

لكانت فتحية قد اشتغلت ، فالإنجليز لا يردون لتوفيق كلمة .

— لماذا ؟

— لأن زوجته منهم .

— وما رأيك فى أنى وسطت واحدا منهم ومنع ذلك لم تعمل فتحية ، كلمت

ويلمز فى أن يعاوننى على أن يلحق فتحية بالمصنع ، ووعدنى خيرا ، ومنع ذلك لم

تعين فتحية ، إنهم لا يخدمون إلا من يستطيع أن يؤدى لهم خدمة .

وصمت قليلا ثم قال فى مرارة : —

— وأنا لا حول لى ولا قوة .

وزفرت الزوجة وقالت :

— المهم . ماذا أقول لأم حسن لو طلبت منى فتحية ؟

فقال فى ضيق : —

— وما أهرآك أنها ستطلب فتحية .

— أنا واثقة أنها ستأق غدا لتخطب فتحية لحسن .
وكانت الفرحة تغلف رنة صوتها ، فزاد ذلك في انقباضه . وقال في نبرة حادة :
— قولى لها : الرأى رأى أبيا .
— وماذا سيكون جوابك لما أقول لك إن أم حسن تطلب منك ابنتك لابنها؟!
فقال فى ضيق :
— دعيني أفكر .

وصمتت زوجته ، وقامت الأفكار فى رأسه كالأبالسة التى تنفت من أفواهاها
السنة النار ، تلسع كل خلجة من خلجاته وتجعله يتلوى وين ويتفصد منه
العرق ، وإن كان الهواء فى الغرفة باردا .

كانت الشمس تنحدر فى الأفق البعيد ، وكان توفيق يغدو ويروح فى الشرفة
وهو يزفر فى ضيق ، فقد كانت زوجته — جانيت — تقوم بتنظيف البيت ،
وكان مرجان الخادم الأسود يحمل المقاعد ويخرجها من الغرفة ، وينطلق
بالسجاجيد إلى الحديقة ينفضها ، ثم يعود بها والعرق ينبثق من وجهه ورقبته
ويجرى على جسمه كأنما قد سكب عليه ماء ولم يجففه .

كانت جانيت فى الخامسة والعشرين ، بيضاء البشرة ، شقراء زرقاء
العينين ، طويلة القامة ، موفورة النشاط ، وكان مرجان فاحم اللون ، مفلفل
الشعر ، أفضس الأنف ، قصير القامة ، مفتول العضلات ، وكانت جانيت تأمر
وكان مرجان يلبى أوامرها فى خضوع .
وعاد توفيق ينظر إلى ما يجرى أمامه فأحس استياء ، فسار إلى حيث كانت
زوجته وقال :

— كفى اليوم يا جانيت .

فقالت دون أن تلتفت إليه :

— لم تبق إلا غرفة الاستقبال .

— دعيتها للغد .
— إنها نظيفة ولن يحتاج أمر إعادة تنسيقها إلا إلى دقائق معدودة .
ومر مرجان بهما وصدرة يعلو وينخفض من التعب ، فنظر توفيق إليه نظرة
إشفاق ثم التفت إلى زوجه وقال :

— إنه روح مثلنا .
فقال جانيت في عدم اكتراث :

— أعرف .
وأمرت مرجان أن يحمل مقعدا ضخما ليخرجه إلى الردهة ، وأحسن توفيق
رغبة في أن يؤلمها ، فراح يلقي على مسامعها فقرة من كتاب « روح القوانين »
لمونتسكيو ، قال بالفرنسية :

— وهذه الشعوب إن هي إلا شعوب سوداء من القدم إلى الرأس ، وأنوفها
فطساء بشعة ، حتى أنه من المستحيل أن نرثي لها .
ومن العسير أن يتصور المرء أن الله جل شأنه قد نفخ روحا ، وعلى الأخص
روحا طيبة في جسم حالك السواد .
واحمر وجه جانيت ، وقالت في غضب :

— توفيق !
فرنا إليها توفيق نوة طويلة وابتسم ابتسامة انتصار ، فقالت وهي لا تزال
منفعلة :

— قلت لك مرات : لا تحزني بمثل هذه الأقوال .
فقال بالإنجليزية وهو يبتعد عن جانيت :
— متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . عمر بن الخطاب قالها
قبل أن يولد منتسكيو بألف عام .
فقال جانيت وهي تزفر :

— توفيق ! هذا ليس وقت جدل ، أريد أن أنتهي من ترتيب البيت ، وأحب
أن تعلم أني لا أرهق مرجان ، فهو لم يفعل طوال النهار شيئا .

فدار توفيق على عقبيه وذهب إليها ، وقال في رقة :
— أنا واثق من طيبة قلبك يا جانيت ولكنى أحب أن أرى الدم الإنجليزي
وهو يشتعل في هذه الوجنات .

وفي لمح البصر طبع على خدها قبلة ، وقالت له :

— اذهب يا توفيق لتأتى بمن يصلح السخان .

— ولماذا لا أقوم بإصلاحه بنفسى ! أتسيت أنى مهندس ؟

فقالت وهى تدفعه برفق :

— اذهب . إصلاح السخانات ليس من اختصاص المهندسين .

فهز كتفيه وخرج ، وركب سيارته الصغيرة وانطلق إلى شارع الأمين ،
حتى إذا ما بلغ القهوة ترك السيارة وسار على قدميه دون أن يتلفت . كان يعرف
إلى أين يذهب .

وأشرف على القهوة ومد بصره إلى حيث وضع الراديو ، فأرى من خلال
الدخان الكثيف المحصور بين الأرض والسقف عبود ومأمون والشيخ حسن
وبهنس جالسين حول النضد الذى اعتادوا أن يجتمعوا عنده ، فسار إليهم ، وكان
الشيخ حسن أول من لمح فقد كان دائم التطلع ناحية الباب ، كان متلهفا على
قدوم صديق ليعرف رأيه فى طلب زواجه من ابنته فتحية بعد أن زارتهم أمه فى
الصباح وخطبتها له ، وقال الشيخ حسن وهو ينهض :

— الباشمهندس .

والتفت الجميع وحموه قادمًا فنهضوا لاستقباله ، وخف إليه مأمون وهو يمد

يده مصافحا ، قال توفيق :

— أهلا مأمون . أنت هنا ولم تمر على .

فقال مأمون معتذرا :

— أنا فى إجازة قصيرة .

وسلم توفيق على الجميع ، وقال له الشيخ حسن وهو يقدم له كرسيًا :

— تفضل !

- فقال توفيق وهو ينظر إلى عبود : **أنت من عبود ؟**
- متشكر . جئت آخذ عبود . أأنت ممنوع ؟
- فقالوا في صوت واحد :
- بكل سرور . تفضل .
- وهم بأن ينصرف بيد أنه عاد والتفت إلى مأمون وقال له :
- تعال معنا يا مأمون ، لم أرك من مدة طويلة .
- وذهب مأمون معهما وقد أثلج صدره أن الرجل دعاه لينطلق معه إلى حيث لا يعلم ، فقد كانت لفتة طيبة منه أن يدعو له لئلا يندى من عمل معه يوماً . وانطلقوا بالسيارة إلى بيت توفيق وهم يتجادبون أطراف الحديث ، ثم دلفوا إلى الردهة ، فإذا بجانيت تستقبلهم وترحب بهم وتقول للمأمون :
- لم نرك منذ أكثر من ستة شهور . أين كنت ؟
- فقال مأمون وهو يبتسم في زهو : **كنت على حدود إسرائيل .**
- وأشارت بيدها ليجلسوا وقالت : **تفضلوا !**
- فقال عبود وهو يتحرك لينصرف : **شكراً .**
- شكراً . ذاهب لإصلاح السخان .
- وسار وكان يعرف طريقه ، وجلس مأمون وتوفيق ، وقالت جانيت للمأمون :
- ستمكث في بور سعيد طويلاً ؟
- غدا فقط ثم أعود .
- إلى حدود إسرائيل ؟
- إلى « أبو عجيلة » .
- وسادت الصمت برهة ، ورأى مأمون أن يقول شيئاً فقال :
- كلما فكرت في موضوع فلسطين ، وجدت الحق واضحاً في جانب

العرب ، وزادت دهشتي لموقف الغرب من هذه القضية ، كيف ينكر حق أناس أخرجوا من ديارهم ويساند الغزاة المعتدين .

فابتسمت جانيت وقالت :

— لكي تفهم قضية لا بد أن تدرس كيف ينظر إليها الطرف الآخر ، إلى على الرغم من أني كنت أدرس تاريخ الشرق الأوسط في الجامعة ، كنت متأثرة بالتراث الأدبي الذي يصور لي الشرق في صورة خاصة تغلغلت في أعماق . وقال توفيق وهو يبتسم :

— كانت تريد أن تعمل في وزارة الخارجية فأقنعتها أن تعيش في الخارج دون حاجة إلى أن تعمل بوزارة الخارجية .

وابتسم مأمون مجاملة ، فقد كان يحاول أن يفهم ما تقوله جانيت ، فقال لها : معذرة ! أرجو توضيح ما تقصدينه بالتراث الأدبي .

فقالت جانيت وهي تنظر إلى توفيق :

— كنت أنا وتوفيق نعيش في بيت سيدة في لندن ، وكانت غرفته إلى جوار غرفتي ، وكان يعيش معنا في نفس البيت شاب إنجليزي يعمل في شركة تأمين ، ورجل آخر يعمل في التجارة ، وفتاة تعمل في محل تجاري . كان توفيق رجلا مثل الآخرين ، وكان يرتدى نفس الزي الذي يرتدونه ، ولكن ما إن عرفت أنه قادم من مصر حتى نظرت إليه نظرة خاصة ، ولو أني قرأت كثيرا عن مصر إلا أني كنت أتصوره يعيش في خيمة بالقرب من الأهرام وأبي الهول ، وكثيرا ما رأيته على صهوة جواد أشهب يخطفني ويعلوني إلى خيمة ليغتصبنى .

فقال توفيق مداعبا :

— والله لا أدري من منا الذي خطف الآخر !

ونظرت إليه نظرة خاطفة ، ثم قالت :

— وأهداني توفيق ذات ليلة نسخة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية ورأتها في

يدى الفتاة التي كانت تعيش معنا في نفس البيت ، فأنكرت على قراءة مثل هذا الكتاب ، فلما قلت لها : « هل سبق لك أن قرأته ؟ » قالت في إنكار : « كيف

أقرأه وقد رفض مارتن لوثر أن يقرأه؟! « ودخلت غرفتي وتمددت في سريري ،
الذى طالما شردت بخيالي وأنا مستلقية عليه لأرى نفسي في جيش من الصليبيين
نغمس أسيافنا في قلوب المسلمين الكفرة الذين يحتلون بيت المقدس ، وفتحت
الكتاب لأقرأ: قرآن هؤلاء الذين نشبت العداوة بيننا وبينهم منذ أن وقفوا على
أبواب فرنسا يهددوننا بالغزو والقضاء على ديننا .

وطاف بذهني خاطر وأنا أمسك بالقرآن في يدي لأول مرة : لو قدر أن
ينتصر العرب على شارل مارتل في معركة بواتيه لكان هذا الكتاب يدرس الآن
في جامعاتنا وجامعات أوروبا كلها !
فقال مأمون في لهفة :

— وهل قرأته تلك الليلة ؟ وماذا كان رأيك فيه ؟

فقالت جانيت وهي تنظر إلى توفيق :

— قرأته إكراما لعيون توفيق ، وكان في ذهني ما قاله لي توفيق : « ترجمة
القرآن تفقده كثيرا من روعته ، إنه معجز في لسانه العربي ، تصوري كم يفقد
شكسبير من جلاله إذا ما ترجم إلى لغة أخرى » .

فقال مأمون في حماسة :

— هذا مع الفارق فإن القرآن من عند الله ، أما ما كتبه شكسبير فهو بقلم
بشر مهما سميت عبقريته فالبشرية تستطيع أن تجود بمثله أو بمن يتفوق عليه .
فابتسمت جانيت وقالت وهي تنظر إلى مأمون :

— حماسكم لهذا الكتاب وتمسككم به هو ما يخيف الغرب منكم !

فقال مأمون وهو يقلب نظره بين جانيت وتوفيق :

— ليت الشيخ حسن أتى معنا فهو ينتشي بحديث الدين . إنه يقول : لو كان
الغرب متدينا ويفهم حقيقة دينه لكان معنا على إسرائيل ، فاليهود هم الذين
وشوا بالسيد المسيح ، وهم الذين أنهموا حياته كما شبه لهم .
فقال توفيق وهو يدلي شفته السفلى في مرارة :

— بمأساء فهم الغرب لقضية فلسطين أن التوراة جزء متمم للكتاب المقدس .

فراح مأمون ينظر في بلاهة ، لم يستطع أن يفهم ما يعنيه توفيق ، ودخل عبود على أطراف أصابعه بعد أن أصلح السخان وجلس صامتا يصغى إلى الحديث ، قالت جانيت :

— هذا حق ، كلما قرأ المسيحي التوراة وجد أن اليهود في فلسطين ، ووقر في ذهنه أنهم أصحاب البلاد الأصليون ، وكلما نشب قتال بين إسرائيل ومصر تذكر المسيحي ما جاء في التوراة عن المصريين .

فقال مأمون وقد اتسعت عيناه وأرهفت حواسه :

— وماذا جاء في التوراة عن المصريين ؟

فقال توفيق :

— إنه لا يمكن الركون إليهم .

فقال مأمون في ضيق :

— والله ظلمتنا التوراة .

فقال توفيق :

— بل ظلمنا اليهود الذين كتبوا التوراة بأيديهم وإن كانت العداوة بين الشرق والغرب قديمة ، بدأت بالعداوة بين الفرس والرومان ، ولما جاء الإسلام وانتصر على الفرس ، ورث عنهم فيما ورث العداوة التي كانت بينهم وبين الرومان .

فقالت جانيت :

— ربما يكون ذلك صحيحا ، ولكن أس العداوة بينكم وبين الغرب هي الفكرة التي بثها الغرب عن الإسلام في نفوس الأطفال ، المسلم مخادع مكار ، رجل شهوة ومحب لسفك الدماء ، يقتل من يرفض الدخون في دينه ، فإذا ما قوى المسلم واشتد ساعده فسيقضى على كل المسيحيين الأبرار ! المسيحية والإسلام في رأى الغرب كفتا ميزان ، إذا شالت إحدهما فلا بد أن تنخفض الأخرى .

وامتقع وجه عبود ولكنه لم يحرك لسانه ، وقال مأمون :

— ألا تزال هذه الفكرة عن الإسلام في رعبوس الغريين حتى الآن ؟

قالت جانيت وهي تبسم :

— عندما عرض على توفيق الزواج طفت كل الرواسب التي كانت في نفسى على سطح ذهنى ، فانتابنى خوف من فكرة الزواج منه ، رأيت نفسى أساق لأضم إلى حريم توفيق ، ورأيت رمالا وخياما ورجالا لا هم لهم إلا أن يؤذونا طوال الليل والنهار ، وأن يسجدوا وأن يركعوا ، ولم أنقد لخواطرى ورحت أفكر فى هدوء فعمجز فكرى عن أن يربط بين حياة الحرم وحياة القيام والسجود والركوع ، ورحت أتذكر كل ما قرأته عن مصر ، وأبعد عن ذهنى الأوهام ، وخطر لى أن توفيق قد يفرض على الحجاب ، ولكنى جاهدت أن أهتك الحجاب الذى ضربته على عقلى ثقافتى التي كانت تثير فى نفسى بذور الخوف والمقت لكل ما هو عربى ، ولكل من يدين بدين الإسلام ، ولما كنت قد أحببت توفيق فقد كان من اليسير على الحب أن يقتلع بذور الشك والكراهية ، وقبلت أن أكون زوجة لرجل مسلم .

فقال مأمون وهو يضحك :

— وعلى ذلك ، ولكى نقتلع كراهية الغرب لنا من قلوب أبنائه ، علينا أن نوفد أبناءنا إلى أوروبا المسيحية ليتزوجوا من بناتها !
فقال توفيق مازحا :

— وحتى لو فعلنا ذلك فلن نكتسب إلا قلوب الفتيات .
فقالت جانيت :

— إنهن الأغلبية ، ولا تنس تأثيرهن على الرجال !

وجاء مرجان يحمل بنادق صيد ، فالتفتت إليه جانيت وقالت :

— نظفتها جيدا يا مرجان ؟

فهز مرجان رأسه أن نعم وابتسم فأضاءت أسنانه البيض رقعة وجهه السوداء ، وتقدم خطوات حتى اقترب من مأمون ، فمد مأمون يده وأخذ بندقية وجعل يفحصها ويقلمها ويصوبها إلى أهداف وهمية ويختبرها ، وكان توفيق ينظر إليه فى ارتياح ، ثم قال :

— أتجيد الرماية يا مأمون ؟

- فقال مأمون في زهو :
— نلت جائزة الرماية في فرقتي أكثر من مرة .
فقلت جانيت في بساطة :
— سنخرج في فجر غد للصيد ، تعال معنا .
فالتفت مأمون إلى عبود ، وقال له وهو يقدم إليه بندقية :
— ما رأيك يا عبود ؟
فقال عبود وهو يتعد عن البندقية في فرع :
— تعلم أني لا أحب الأسلحة ، وأمقت إراقة الدماء . وإن كانت دماء عصافير .
فقلت جانيت وهي تضحك :
— مرحى برجل السلام .
وقال مأمون وهو ينظر إلى عبود نظرة خبث وإن كانت زاخرة بالحبية :
— يسرنا أنا وعبود أن نلبى هذه الدعوة الكريمة .
وقال عبود في صرامة :
— لا .. شكرا . اذهب أنت ودعني في حالي .. أنت رجل محب لسفك الدماء .
وضحك الجميع وقال توفيق :
— غدا في الفجر ، سأمر عليكما بسيارتي .
فقال مأمون وهو ينهض :
— إلى الغد . مساء الخير .
وتحرك لينصرف فقال له توفيق :
— انتظر . سأعيد كما كما جئت بكما .
فقال عبود وهو يوسع من خطوه لينصرف :
— شكرا .. شكرا ، إنا نريد أن نتمشى ، فجو الليلة جميل .
وقال مأمون وهو يتسّم :
— هذه فرصة طيبة لأكون أنا وعبود وحدنا ، لتسامر على هوانا .
وحقق قلب عبود خفقات ناعمة ، إنها فرصة لحقا ليفاتحه في أمره وأمر بهية

التي شغف بها حبا ، وباتت أسعد أمانيه أن تصبح له زوجة .
وخرج إلى الطريق والمشاعر الرقيقة تملأ صدر عبود ، والكلمات الحبيسة التي
تضع حدا لمسألته الهينة التي تتراقص على لسانه ، بيد أن لسانه لا ينطق بها ويقول :

— الحلولا يكتمل ، الباشمهندس رجل كريم ، إنسان عظيم لولا ..

فقال له مأمون في لهفة :

— لولا ماذا ؟!

— لولا أنه تزوج من إنجليزية .

— هذا أمر يخصه يا عبود .

فقال عبود في مرارة :

— ما أكثر ما حاولت أن أقنع نفسي أن هذا أمر لا دخل لأحد فيه

إلا توفيق ، إلا أن شيئا ما في داخلي يأتي أن يغمض عينه عن هذه السقطة .

فقال مأمون في دهش :

— سقطة ؟!

فقال عبود في شرود :

— إن شيئا ما في داخلي يصيح : بل زلة كبرى .

ونظر إليه مأمون وهو يعجب في نفسه من أمر عبود ، فهو هادئ ساكن ينفر
من الخصام ويفزع من رؤية الدماء ، ولكن يبدو أن في جوفه براكين تحاول أحيانا
أن تنفجر وأن تعبر عن ذاتها !

وبلغا أول شارع الأمين ، وما درجا فيه خطوات حتى سمعا وقع أقدام أنثوية
تجد في أثرهما وتحاول أن تلحق بهما ، فالتفت مأمون فرأى إنصاف توسع من
خطاها ، فتمهل في سيره ، حتى إذا بلغت قالت :

— مساء الخير يا مأمون ؟

فقال مأمون وهو يبتسم :

— مساء النور .

والتفت عبود ، وما إن وقعت عيناه على إنصاف حتى امتقع لونه ، وأشاح

عنها بوجهه ، وفطنت إنصاف إلى ما اعتراه ، فتعمدت أن تطيل سيرها إلى جوار مأمون فقالت له :

— كيف حال بية ؟

وربا غيظ عبود ، وتمنى لو يستطيع أن يأمرها ألا يجرى اسم بية على لسانها مرة أخرى ، بيد أنه كظم غيظه على كره منه وسار وهو يزف وإن أرفه سمعه ، قال مأمون :

— بخير .

— وكيف حال الوالدة ؟

— الحمد لله . أحسن .

— كنت أحب أن أراهما .

— إن كنت تحبين رؤيتهما فما يمنعك من زيارتهما الآن ؟

فقالت وهي تضحك متهاككة :

— التعب . اريد ان أضع رأسي على الوسادة وأنام . مساء الخير .

فقال مأمون في رقة :

— مساء النور .

ووسعت خطواتها وقال عبود في غضب :

— نمت ما قمت .

فقال له مأمون في عتاب :

— حرام عليك يا عبود ، لماذا تكرهها كل هذا الكره ؟

— أكره سلوكها .

— إنها مسكينة ، تعمل ممرضة طوال النهار أو الليل ثم تعود إلى بيتها ، ولم

يعرف عنها ما يشين .

فقال عبود في سخرية :

— ممرضة؟! هذه مهنة للتغطية .

فقال مأمون في انفعال :

- عبود ! لماذا تظلم الناس ؟
- ليتك تراها وهي تهز أردافها كلما مرت على القهوة ، وليتك تسمعها وهي تروى لفانوس نكات بذيئة ، أخجل من سماعها .
- إنها فتاة مكدودة ، وإن فعلت شيئا من ذلك فهي تروح عن نفسها ، وتنفس عن قسوة حياتها .
- أنت ماهر في تبرير أخطاء الناس .
- يجب أن نرحم الناس ليرحمنا الناس .
- فقال عبود ليبرر سلوكه :
- إني أقسو عليها شفقة بها ، لو ظلت في سيرها الذي أكرهه ، فهل هناك رجل يقدم على زواجها ؟
- لو فكرت يوما في أن أتزوج فلن أتردد في أن أتزوجها .
- فقال عبود في استياء :
- مجرد كلام . لو كنت أنا وهي في صحراء ، وكنت أموت من العطش وكان الماء في يدها ، ما تناولته منها !
- فقال مأمون وهو يبتسم :
- أنا واثق يا عبود أن قلبك أرق مما ينطق به لسانك .
- وكانا قد وصلا إلى القهوة ، فهم مأمون أن يعرج إليها بيد أن عبود توقف وقال له :
- أستأذن . سأذهب لأنام .
- فقال له مأمون :
- مع السلامة ، وإلى الغد ، ومن يستيقظ منا أولا يوقظ الآخر ، سيمر علينا توفيق في الفجر .
- إن شاء الله .
- ودخل مأمون القهوة ، وانطلق عبود إلى بيته وهو حاقد على نفسه ، كانت الفرصة سانحة ليطلب من صديقه يد بيهية ، بيد أنه أضعافها في انتقاد توفيق ،

ومهاجمة إنصاف ، وقال لنفسه في غضب : مالى أنا إن كان توفيق تزوج إنجليزية ، أو كانت إنصاف تتاجر في عرضها ، إني أريد بية .. بية .. بية . ورفع رأسه ونظر إلى نافذتها ، فألقى الظلام يخيم عليها ، فسار لا يلوى على شيء .

أغلق فانوس دكانه وذهب إلى القهوة يمضي بعض الوقت مع أصدقائه الذين يتسامر معهم كل ليلة قبل أن يعود إلى داره ، فألقى الشيخ حسن وبهنس وحدهما ، فانضم إليهما يصغى إلى مشاكل الناس ومآسهم التي كان بهنس يرويها كأنما كانت مشاهد تجرى على مسرح فرقة فكاهية !

كانت عين بهنس تلتقط المتناقضات ، وتبحث عن المفارقات ، وتنتقب عن السخرية بين أشلاء الأسر وأجداث الناس ، وكان في أول عهده بالعمل في أقسام الشرطة ينفعل بالأحداث ويرق قلبه لبعض من يقسو عليهم المجتمع فيدفعهم إلى الوقوف أمامه ليحرر لهم محضرا ، ويحيل بعضهم إلى النيابة ، أو يأمر بحبسهم في « التخشبية » ، بيد أن حسه قد تبدل بمرور الزمن ، من كثرة ما رأى من النكبات ، وشحذت موهبته في التقاط النكات من بين الرمم .

واعتدل بهنس وقال :
— جاء إلينا زوج أعمى يتهم زوجته بأنها تستغل عماه وتسرقه ، ولما يسألها عن المسروقات تقسو عليه وتضربه ، وقد اعتدت عليه اليوم بالضرب وأسالت الدماء من أنفه ، واستدعينا الزوجة لنسمع أقوالها : فلما رأت زوجها قالت له : إنه يظلمها ويقسو عليها ولا يقدر جمالها ، ولو كان يبصر ورأى حسن ما وجه إليها الإهانات التي يكيلها لها ، فقال لها الزوج الأعمى : والله لو كنت جميلة جفا ما تركك لي من يبصرون .

وضحك فانوس ، ومد الشيخ حسن بصره ينظر ، كان متلهفا على عودة صديق ليسمع منه رأيه في مسألة زواجه من فتحية ، وقد بدأت الزيب تضايقه لتأخر صديق ، فلو أن عرضه قد أسعده ما تأخر حتى هذه الساعة ، « ترى

أتحاول يا صديق أن تهرب من لقاءى؟ ولماذا تهرب؟! لك كل الحق فى أن تقبل أو ترفض ، فإن قبلت فهذا يسعدنى وإن رفضت فلن يؤثر ذلك على صداقتنا .
يا ولد! أنت صاحب مبادئ وتقدر ظروف الناس يا شيخ حسن « تعال
يا صديق وارحمنى ، وأنت يا فتحة ما هو شعورك يا ترى لما عرفت أنى أريد
أن أتزوجك . لماذا أتزوج ، لأن الزواج نصف الدين يا شيخ حسن .. الزواج
دائرة من فى داخلها يريد أن يخرج منها ومن خارجها يريد أن يدخلها .. تعال
يا صديق .. تعال » .

ونظر الشيخ حسن إلى فانوس وقال له :

— متى ستتزوج يا فانوس ؟

فقال فانوس فى بساطة :

— ولماذا أتزوج ؟ النسل فى زيادة والبلد ليس فى حاجة إلى نسل جديد .
ليت ما تتمتع به من إخصاب ينتقل إلى الثيران والبقر والجاموس والخراف
والنعاج ، إذن لو وجدنا اللحم الذى نأكله . نصف أقة من لحم الضأن خير عندى
من امرأة .

فقال له بهنس وهو يلحق شفثيه بلسانه :

— لا خير فى اللحم كله إن لم تأكله من أجل امرأة !

وهم الشيخ حسن بأن يرد على فانوس ولكنه رأى مأمون مقبلا ، فقال :

— عاد مأمون وحده ، أين عبود ؟

وكان مأمون قد وصل إلى حيث كان الأصدقاء يجلسون والتقطت أذنه سؤال

حسن ، فقال :

— ذهب لينام ، عبود يكره السهر ويجب أن ينام مبكرا .

وشرد حسن : « عبود يحب بهية وهو الآن خلف النافذة يمتع البصر والنفس
والفؤاد بالنظر إليها . أنت محظوظ يا عبود ، بهية أمامك تراها كلما هفا إليها
قلبك ، أما أنا فإن بينى وبين فتحة شوارع ومنازل وأبوها صديق . أين أنت
يا صديق ؟ تعال وأرح قلبى ، أراح الله قلبك » .

وأفاق حسن من شروده على صوت مأمون يوجه إليه الحديث ، قال :
— ليتك يا شيخ حسن كنت معنا ، كان حديث جانيت يستحق أن تسمعه .

فاعتدل الشيخ حسن وقال :

— وماذا قالت جانيت ؟

— قالت إن التوراة من أسباب إساءة فهم الغربيين المتدينين لقضية فلسطين .

فقال بهنس بنفس اللهجة التي يستوفى بها محضرا :

— لماذا ؟

فقال مأمون :

— لأنهم كلما قرعوا التوراة وجدوا اليهود في فلسطين ، فيقر في أذهانهم أنهم

أصحاب البلاد .

فقال حسن في مرارة :

— لو كان المسيحيون الغربيون يفهمون دينهم حقا لعرفوا أن اليهود المتدينين

لا يعترفون إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى من التوراة ، ويعتبرون كل

ما بعدها كتابا يسجل تاريخ اليهودية لا أكثر ولا أقل .

ونظر إليه فانوس وقال :

— لم أسمع بذلك من قبل ، من أين جئت بهذا الرأي يا شيخ حسن ؟

فقال الشيخ حسن في هلهوء :

— كان السامريون وهم من اليهود المتمسكين بأصول دينهم لا يعترفون

إلا بالإصحاحات الخمسة وهم على حق ، فعلى من نزلت التوراة يا فانوس ؟

— على موسى .

— فكيف يرد فيها أخبار اليهود بعد موسى ؟

فأستعت عينا فانوس ولاح في وجهه الدهش ، وقال :

— يبدو أن ذلك حق ، أنا لست مثقفا في الدين ، ولكن من ذا الذي كتب

باقى التوراة ؟

فقال حسن في ثقة :

(م ٤ — السهول البيض)

— حكماء بنى إسرائيل على مر العصور ، ونجحوا في أن يضيفوا ثوب
القداسة على آرائهم وقد وقع في مكرهم كثير من المؤمنين .
وتذكر مأمون شيئا فقال :
— آه .

والتفت إلى فانوس وقال له :
— هل جاء في التوراة أن المصريين لا يركن إليهم ؟
فقال فانوس في هدوء :
— نعم .

وقال مأمون في قلق :
— وهل يؤثر ذلك في نظرتكم إلى قضية فلسطين ؟
فقال فانوس في ثبات :

— الشيوخ والمسنون والعجائز يؤمنون أن المصريين القدماء اضطهدوا
اليهود وأساءوا إليهم ، أما الشبان فلم يعد للدين تأثير عليهم .
فقال الشيخ حسن :

— أخطر ما في الأمر أن اليهود قد نجحوا في أن ييشوا آراءهم في عقائد الناس !
ولاح في وجه مأمون الأسى وقال ساخرا من نفسه :
— وكنت أظن أن قضية فلسطين واضحة لا يمكن أن يختلف عليها منصفان !
وقال الشيخ حسن :

— لكي تفهم قضية فلسطين لا بد أن تطهر عقائد البشر من شوائب اليهود ،
وهذا أمر عسير .

وخرج فانوس عن صمته وقال لحسن :
— ألم يأت في القرآن أن فرعون عذب اليهود وقتل أبناءهم واستحى بناتهم؟
فقال حسن :

— هذا حق ، اضطهد فرعون اليهود كما اضطهدهم هتلر ، ولكن ذلك
الاضطهاد لا يعطيهم حقا في فلسطين .

وقال فانوس :

— ألا يحسن المسلم المؤمن الصادق عطفًا على اليهود ؟

فقال حسن :

— أبدا . لأن الله لعنهم في القرآن مرتين .

ونهبه بنهس مستأذنا فموعده بدء عمله الليلي قد أزف ، ودعا فانوس مأمون ليلعب معه الطاولة ، وبقي حسن وحده يفكر فيما أحر صديق الليلة ، وراح الملل يتسرب إلى نفسه . وهم أكثر من مرة أن ينهب لينصرف بيد أنه كان يعود ويقنع نفسه بالانتظار دقائق أحر ، لعل صوت جرس عربة الإسعاف يداعب أذنيه : « الناس كلها تنقبض إذا ما سمعت صوت جرس الإسعاف أما أنا فأتلهف على سماعه . ليته يدق ليعلن قدوم صديق ويريجني من هذا الترقب القلق » . وفي سكون الليل دق جرس عربة الإسعاف دقائق خافتة ، التفتها أذنا حسن ، وما أسرع ما بعثت بالنبا إلى كل مشاعره وعواطفه ، فاضطرب وخفق قلبه وسرى فيه خوف ولهفة ، ولم يستطع أن يظل مستقرا على كرسيه فهض ، ومد عنقه ناحية باب القهوة .

ووقفت عربة الإسعاف أمام القهوة ، وهبط منها صديق وعلى رأسه القبعة الحمراء وقد ارتدى بذلة الإسعاف ، وتقدم في خطوة ثابت وحسن ينظر إليه وقد لاح في وجهه الانفعال : « إنه قادم ليضمد جراح قلبي ، لا إنه قادم ليبتري . وجهه يقول ذلك . يضمد جرحي .. يبتري .. فليفعل ما يشاء » .

ولمخ صديق الشيخ حسن واقفا ينتظره ، فسرت في بدنه قشعريرة ، وتمنى لو أن شيئا ما يحدث ويجنبه هذا اللقاء ، وغمرته موجة من الأسى ، بيد أنه ابتسم وقال :

— مساء الخير يا شيخ حسن :

فقال حسن في صوت متهدج :

— مساء الخير يا عمي .

وتمنى صديق لو أن مأمون وفانوس يتركان الطاولة التي أخذت منهما كل انتباههما ويشتركان في الحديث لينقذاه من الأثر المدمر الذي تركته كلمة :

« يا عمى ». إنها مست وتر الحنان في أغواره ، وجسمت في لحظة كل مأساة حياته ، إنه يشتهي بكل كيانه أن يتحقق الحلم الجميل ، حلم أن تتزوج فتحية ، بيد أن كل ظروفه تقوض أركان ذلك الأمل ، وتكتم أنفاسه .

وقرر أن يفر من هذا اللقاء لحظات إلى أن يجمع شتات أمره ، ويعيد سيطرته على مشاعره ، ويتحكم في قلبه ، فالتفت إلى مأمون وفانوس وقال لهما وهو يجلس :
— أنا أتحدى الغالب منكما .

فقال فانوس وهو يزهو بنفسه :

— لم يخلق من يهزمنى في الطاولة في حنى العرب كله وفي الأفرنج أيضا إن كان فيهم من يلعب الطاولة .

وسحب صديق كرسيه ودنا منهما وهو يقول لفانوس :

— ألم أهزمتك أول أمس ؟

فقال فانوس :

— حظ .

ولم يعجب حسن أن صديق أولاه ظهره ، وفطن إلى أنه يتهرب من لقائه فعزم على أن يستأذن وينصرف ، بيد أنه عاد وقرر أن يضع حدا لموضوع طلب زواجه من فتحية قبل أن يعود إلى داره ، فمال على صديق وقال له في صوت هامس :

— أسمح لى بدقيقة واحدة قبل أن تنهك في الطاولة ؟

فطارت رباطة جأش صديق وقد حاول أن يعتصم بها بكل قواه ، لكن ما أسرع أن خارت تحت وطأة دعوة حسن له ، فقال وقد ذهبت نفسه شعاعا :
— بكل سرور .

ونفض وحسن ينظر إليه : « لا يبدو عليك أنك مسرور يا صديق . هل أنا أقسو عليك ؟ لا بأس إنها لحظات وبعدها يستريح كل منا . لماذا أنا خائف ولماذا أنت خائف . كأننا عدوان يلتقيان يتربص كل منهما بالآخر ؟ » .

وانتبذا مكانا بعيدا وجلسا إلى نضد سطحه من رخام وقوائمه من حديد ، وسرت برودة الرخام إلى أذرعهما التي استندا عليها وقد دنارأس كل منهما من

رأس الآخر يبدأنهما لم يحسا البرودة ، كانت المشاعر تتلظى في جوفهما كأنما كانت تتفجر في جوف بركان .

وقال حسن وهو يحاول ما وسعه الجهد أن يبدو هادئا :

— زارتكم أمي في الصباح وطلبت منكم فتحية لتكون لي زوجة ، وأحب أن أسمع رأيك في هذا الموضوع .

وصمت حسن وهو حائق على نفسه : « مالك لا تستطيع أن تعبر عن موضوع يمس كل مستقبل حياتك ؟ إنك تتحدث كأنما أنت مقبل على إبرام صفقة ، أو شراء صفقة ، ماذا سيقول صديق عنك بعد أن يعود إلى أهله ؟ بقرة وثور .. بقرة وثور » .

ولم يسمع صديق ما قاله حسن في وضوح ، كان مشغولا عنه بمحاولة التعبير الصادق عما يحسه دون أن يكشف عن السبب الحقيقي الذي يرغمه على أن يرفض هذه الفرصة المواتية وهو حزين يعتصر الأسي قلبه ، ويكاد الكدر أن يهد كيانه ، قال وهو مطرق ، فما كان بقادر على أن يواجه وهو الشيخ الذي أشرف على الستين ، نظرات الشاب التي تعلقت بشفتيه :

— تعلم يا حسن مقدار إعزازي لك وحيي لاستقامتك ومكانتك من نفسي ، ولو كنت سأزوج فتحية ما وجدت لها من خير لديهاها ودينها منك ، ولكنني لا أفكر في زواج فتحية الآن .

وساد بينهما صمت رهيب على الرغم من الضوضاء المنبعثة من كل أرجاء القهوة ، كانت خناجر تطعن قلب صديق ، وأنياب حادة تمزق حشاياه ، ونار تتلظى في حناياه ، ويدان من فولاذ تطبقان على عنقه تكادان تكتمان أنفاسه ، وودت دموعه أن تطفر من مآقيه لتطفئ مشاعره المشبوبة ولكنه جاهد ليكتمها حتى لا يبدو ضعيفا أمام حسن ، فزاد ذلك في كربه وأساه :

وظل حسن مطرقا مدة وهو حزين : « لماذا هذا الحزن ؟ كنت تقول : إنك لن تغضب إذا رفض صديق أن يزوجك فتحية ، هل أنا لست ككفا لفتحية ؟ عزيز على نفسي أن يرفضني إنسان » .

ونفض حسن وهو مطأطيء البصر ، وقال :
— السلام عليكم .

ونفض صديق ومد يده إلى حسن ، فصافح حنن اليد الممدودة إليه
وانصرف لا يلوى على شيء ، وسار صديق بجر رجليه واتجه ناحية الباب ،
ومس أذنيه صوت فانوس وهو يقول له :

— هزمت مأمون . تعال يا بطل إلى الميدان .

ولم يلتفت خلفه بل انطلق في طريقه ، وما غادر القهوة حتى انفجر باكيا وهو
يقول بصوت خييل إليه أنه ملاً أرجاء الكون :
— لو كان معي يا فتحية ما أزوجك به ما رفضت أبداً أن أزوجك من حسن ..

نام عبود نوما متقطعا ، فما يكاد يغمض عينيه ويروح في سبات حتى يهب
من نومه وينظر إلى الأفق من خلال النافذة القريبة من سريره يرقب ظهور تباشير
الصباح . كان يخشى أن يمر عليه المهندس توفيق وقد حطفه النوم فيتسبب في
تعطيل رحلة الصيد . وكان أهون عليه أن يعذب نفسه من أن يكون سببا في
تكدير أمزجة الآخرين .

وقبل الفجر غادر فراشه وأسرع بارتداء ثيابه ، وهرع إلى النافذة وراح
ينادي في صوت خافت خشية أن يزعج الجيران :

— مأمون .. مأمون .

وخطر على قلبه أن الشباك سينفراج عن بهية ، فخفق فؤاده في حنان ،
ومشت في كيانه مشاعر ناعمة ، وشرد بصره وقد أسلم قياده للأمانى والآمال
وظفق ينادى :

— مأمون .. مأمون .

وجوارحه تهتف في شوق : « بهية .. بهية » .
وظافت برأسه فكرة أن ينطلق إلى مأمون يقرع بابه ليوظفه قبل أن يأتي

المهندس توفيق ، وإذا بالفكرة تصبح رغبة ملحة مستبدة وتتحول إلى شوق آسر بعد أن طافت بهية وتشبثت بها وباحتمال أن يكون بينه وبينها لقاء . وسار إلى بيت مأمون كالمسحور ، في جوفه رهبة وبين جوائحه رغبة وفي سويداء قلبه حب وفي حشاياه خوف ، بيد أنه كان على استعداد ليجود بنصف عمره لقاء نظرة من لواحظ فاتنة الفؤاد .

وهبط في الدرج المظلم ولكن عواطفه كانت تنير له طريقه ، وخرج إلى الشارع ولفحه هواء البكرة وانطلق إلى بيت مأمون وقد دبت في كل مشاعره الحياة ، وسار وقد تدفقت إلى رأسه الأفكار : « ما لنا يا مأمون وهذه الرحلة ؟ أين نحن من هؤلاء الناس !؟ ولكنها جرأتك يا مأمون التي تضعنا في هذه المواقف . أه لو كان لي جرأتك لقلت لك الآن : مأمون زوجني أحتك . قبلت ؟ وأنا قبلت زواجها . مبروك .. بارك الله فيك ، زغاريد .. زغاريد . متى أسمع هذه الزغاريد .. قريبا يا عبود ، وقد تسمعها الليلة . سأفتح مأمون في زواجي من بهية قبل أن تغرب شمس هذا النهار ، وقبل أن يسافر مأمون » . وانفض من الخوف بعد أن دقت يده الباب ، كان شاردا يجرى وراء أحلامه ، ولم يفق من شروده إلا بعد أن أفزع صوت طرقات يده أذنيه ، فانبهرت أنفاسه وراح يترقب ، وقد زاد في رهبته أن التقط سمعه وقع أقدام . وفتح الباب ، وإذا بهية مشرقة بتبسم له ، فخيل إليه أنه قد رأى هالة من نور ، وسمعها تنطق باسمه فأحس أنه يصغى إلى تراتيل هابطة إليه من السماء ، قالت :

— عبود ! تفضل .

قال وهو يتلعم :

— قولي لمأمون أزف الوقت ، إنى سأنتظره هنا .

فقالته وهي تفسح له الطريق :

— تفضل . إنه لم يبدأ في ارتداء ثيابه بعد .

ودخل وقد أحس أبواب الجنة فتحت له ، وجلس على أول مقعد قابله ، ولم ير من المكان شيئا فقد رأى بعين فؤاده أن النور قد غمر كل شيء ، ووقفت أمامه

وهي تشتهي أن تظل واقفة ترنو إليه ، بيد أنها قالت :

— قهوة ؟

فقال وقد أسبل عينيه :

— متشكر .

فقالت في إصرار :

— سأعد لك القهوة إلى أن يرتدى مأمون ملبسه .

ودارت على عقبيها وسارت فأحس كأن بعضاً من روحه بعد عنه ، وظل ينظر ناحية إنصرافها : « تعالى يا بهية . إكرامى أن تظلي جالسة أمامى وروحي تناجى روحك وإن أطبقنا الشفاه ، وإن شئت زيادة في إكرامى فاجلسي إلى جوارى وعيناي في عينيك .. أحبك يا بهية » .

ووقفت بهية تعد القهوة وهي تلتفت ، كانت تشتهي أن تعود سريعاً إليه وأن تصغى إلى حديثه وأن تسعد بقربه : « ليتك يا عبود تأمرني بشيء ، سأحمل إليك القهوة ولن أحمل إليك كوب ماء لأتيح لك فرصة أن تطلب منى شيئا ، آه لو طلبت كوب ماء فسينشرح صدرى وسأحمل إليك الماء وأنا سعيدة أكاد أطيّر من الفرح . أشتهي يا عبود أن أنجب منك أولادا ، بنين وبنات ، يملفون علينا البيت . إنى أحب أولاد الجيران . وأحب أن يكون لي أبناء أجمل من كل أبناء الحى » .
ومس أذنيها صوت آت من غرفة أمها فالتفتت وقد أرهفت حواسها :
« أرجوك يا أمى أن تظلي في سريرك فما حان موعد استيقاظك بعد ، أحب أن أكون وعبود لا أحد معنا ، حتى وجودك أنت يا أمى يا أعز حبيب يعكر صفو لقائنا ، نامى يا أمى الآن إكراماً لي » .

ونام الصوت وأشرق وجه بهية بالابتسام ، وعادت تنظر إلى حيث كان عبود فأحسست كأن روحها امتلأ بحبة وقلبها عمر بالسعادة وبين جوانحها فرح مرح يكاد يهز أعطافها ، والتفتت إلى القهوة الموضوععة على النار فإذا بها قد فارت ، فأسرعت ترفعها عن النار في لهفة وتنظفها ثم تضعها على الصينية التي وضعت عليها فنجان القهوة .

وحملت الصينية وهرعت إليه وهي توسع من خطوها ، كانت حريصة على أن تمضى إلى جواره أطول وقت قبل أن يأتي أخوها مأمون ، ووضعت الصينية أمامه والتقت عيناها بعينه فأحست في قرارة نفسها أن نظراتها لم تكن بريئة : « عيب يا بهية في عينيك اشتها .. والنعمة الشريفة لقد نظرت إليه نظرة عابرة .. لا تكذبي على يا بهية أنت تريدينه ... نعم أريده .. أريده في الحلال . أفي ذلك عيب ؟ » . وقالت في رقة :

— تفضل .

— متشكر .

ورفع الفئجان إلى شفثيه وراح يجتلس النظر إليها : « روحها خفيفة ، لا تزال مرحة كعهدي بها مذ كانت طفلة . ليتنا نذهب معا الآن إلى القابوطي لنشترى السمك . بل ليتنا نذهب الآن إلى بيتي .. الصيد ليس لي فيه ، والله لا أدري يا مأمون لماذا حشرتني في زمرة هؤلاء الناس .. لن أغضب منك يا مأمون أبدا إكراما لعيون بهية » .

ووقفت بهية وهي ترجو أن يأمرها بأن تحضر كوب ماء . بيد أنه لم يفعل ، فشهقت في استنكار كأنما قد ارتكبت خطأ غير مقصود ، وقالت :

— آسفة ، نسيت كوب الماء ، والنعمة الشريفة لا أدري ماذا جرى لعقلي؟ ودارت على عقبيها وسارت كالغزال وعينا عبود تتبعانها : « سلامة عقلك يا بهية ، عقلي أنا الذى طاش ، مأمون تأخر وقد يدوى كلاكس سيارة توفيق الآن ، ليت مأمون يتريث ، ويالحظي لو انفجر اطار من إطارات سيارة توفيق ، لو انفجرت الإطارات جميعا أو تعطل المحرك ، آه لو توقف الزمن عن الدوران لكنك أسعدت الناس » .

ورشف من القهوة رشفة طويلة وقد ركز عينيه حيث غابت بهية ، وإذا بصوت مأمون يصك أذنيه :

— صباح الخير يا عبود . آسف إن كنت قد تأخرت .

وهب عبود مفزوعا ولكنه كبح جماح نفسه سريعا ، وقال :

— صباح النور .
ووضع فنجان القهوة على النضد أمامه وقال :
— هيا ننتظر المهندس توفيق تحت .
فقال مأمون وهو يجلس :
— اقعدي يا رجل حتى تشرب القهوة .
وقعد عبود وهو سعيد ، وعادت بهية تحمل كوب الماء ولما رأته مأمون قالت
في خفر وهي تنظر إلى الأرض بعينها :
— صباح الخير .

ومالت ووضعت كوب الماء في حرص : « مؤدبة يا بنت يا بهية ! افتحي
عينيك وانظري إليه ، يا خوفي من مأمون ! لو فطن إلى ما في عيني لوضع
أصابعه فيهما » .
وقال مأمون وهو ينظر إلى بهية :
— صباح الخير ، وأرجو أن يكون الصيد اليوم وفيرا للكرم عبود .
ونظر إلى عبود وقال :
— ستغذى اليوم معنا .
— شكرا .

— وعلام الشكر ؟ سنطعمك مما نصيده .
فقالت بهية وهي تبتسم :
— وإذا لم تصيدوا شيئا ؟
فقال مأمون وهو يضحك
— يصوم اليوم معنا .

ودوى صوت سيارة توفيق ، فهب عبود واقفا ، وقام مأمون وانصرفا
مسرعين ، وتأهبت بهية لتبتسم معبرة عن حقيقة المشاعر الرقيقة السارية في
جوانحها إذا ما التفت إليها عبود مودعا ، إلا أن عبود انحأف نظرات مأمون
فانطلق دون أن ينظر وإن كانت كل خلجة من خلجاته تهفو إليها .

وهبط في الدرج قفزاً وهدية تلاحقهما بنظراتها حتى غابا في الظلام عن
عينها ، وظلت صورة عبود محتلة رأسها ، واستمر الحوار دائراً بينها وبين طيفه :
« عبود يا حبيبي ، كيف تذهب إلى العمل دون أن تفطر .. إنه ليس ذاهباً إلى
العمل ، إنه خارج للصيد ، أوه اسكت أنت . إنني أكلم زوجي .. حبيبي .
عبود ! ماذا تريد أن تتغذى اليوم ؟ قال مأمون ستتغذى مما نصيده ، أوه لماذا
لا تسكت أنت ولا تعود إلى مضايقتي . دعني أكلم حبيبي » .
وصعد عبود إلى المقعد الخلفي وقفز مأمون إلى جوار توفيق ، وانطلقت
السيارة بهم ونسيم البكرة يداعب وجوههم وينعش أفئدتهم ويوقظ عقولهم
فيجرون في صفاء أذهانهم وراء الأمانى والأمال .
وبلغت السيارة منزل توفيق ، فإذا بسيارة أخرى واقفة وإلى جوارها جانب
ووليمز ، وما إن وقعت عينا عبود عليهما حتى انكمش في مقعده وأحس تضاضاً ولا
وود لو يستطيع أن يفر من هذا اللقاء ، فهو لا يرتاح إلى جانب ، ويوجس
خيفة من وليمز على الرغم من رفته ونعومته التي تذكره دواما بنعومة الثعابين .
وفي مثل لمح البصر ربط عقله بين جانب ووليمز ، ذلك الثعلب العجوز الذي
امتدت أصابعه إلى جميع أرجاء بوز سعيد ، وانتشر نفوذه في شركاتها ومصارفها
بل وفي مصالحها ودواوينها ، ترى أنعمل جانب هي الأخرى في المخابرات ؟
ونظر إلى توفيق فإذا بالحجة التي يكنها له تكدرها جانب : « لماذا يا توفيق
تزوجت هذه الإنجليزية . أما كان في بنات مصر من ترضى غرورك وتملاً فراغ
قلبك ؟ » وأفاق من شروده على صوت مأمون يقول له :
— انزل يا عبود وتعال نسلم على السادة .
ورنت كلمة « السادة » في أذني عبود رنيناً بغضاً جعله يندم على أن أسلس
قياده لمأمون ، فما كان مثله أن يخرج للصيد مع هؤلاء السادة لولا اندفاع
مأمون ، ولن يكون في هذه القافلة إلا خادماً ، لن تزيد مكانته على مكانة مرجان .
وحقد على نفسه لأنه في معرض المقارنة بينه وبين السادة حط من قدر
مرجان ، فإن كان مرجان يعمل في بيت توفيق عمل العبيد فهو في الشركة يعمل

نفس ما يعمله مرجان ، يبيع نفسه لمن يدفع له في نهاية الشهر أجره الذى يمسك به الرمق !

وبلغ توفيق ومأمون وعبود سيارة وليمز ، فقال توفيق :
— صباح الخير .

قال وليمز فى لهجة أولاد البلد :
— صباح الفل .

وراح توفيق يقدم الشابين إلى الإنجليزى الذى كانت عيناه متقدتين بالذكاء والخبث على الرغم من السنين التى هدلت جفنيه وجعدت ماتحت عينيه ، وقال :
— عبود ! ويعمل معى فى الشركة ، مأمون وكان يعمل معنا فى الشركة ولكنه الآن صول فى الجيش .

وابتسم وليمز ابتسامة عريضة وقال :
— أهلا وسهلا .

والتفت إلى مأمون وقال مداعبا :
— أنا وأنت رفقاء فى السلاح !

وراح عبود يقلب وجهه بين جانيت ووليمز وهو صامت حتى فتح وليمز باب سيارته وقال له ولأمون :
— تفضلا معى .

وصعد عبود إلى المقعد الخلفى ، فإذا ببندق صيد وذخيرة ، فجلس بعيدا عنها وهو يوجس منها خيفة ، وقفز مأمون إلى المقعد المجاور للمقعد السائق ، واستوى وليمز خلف عجلة القيادة ، بينما ذهبت جانيت وتوفيق إلى سيارتهما . وانطلقت السيارتان وراح وليمز يحدث عبود ، قال له :

— أمستريح أنت فى الشركة يا عبود ؟
فقال عبود فى اقتضاب :

— نعم .
قال وليمز فى هدوء :

— إن كان هناك ما يضايقك أو كان لك مطلب فقل لي ، فمسيو فاجولى صديقى .

— شكرا .

فابتسم وليمز وقال :

— انتهز هذه الفرصة قبل أن يبعد مسيو فاجولى عن الشركة ، فقد بلغنى أن الحكومة ستقوم بتقويم الشركة وستضمها إلى شركة ملاحات إسكندرية . ويومها لن يكون لمسيو فاجولى سلطان على الشركة .

فقال عبود وهو منكمش في ركن السيارة ، يختلس النظر إلى البنادق والذخيرة بين الفينة والفينة :

— شكرا .

وقال مأمون وهو ينظر إلى وليمز :

— ميزة عبود أنه قانع بما هو فيه .

فقال وليمز مخاطبا مأمون :

— أين أنت الآن يا مأمون ؟

— على حدود إسرائيل ، الدولة التى خلقتها حكومتكم لتكون شوكة في جنب العرب .

والتمعت عينا عبود وأرهفت حواسه : « لماذا هذا الاندفاع يا مأمون ؟ أين أنت من هذا الثعلب الماكر ؟ وماذا ستجنى من هذا التحدى ؟ » .

وقال وليمز في هدوء :

— حقا كانت غلظة من الحكومة البريطانية أن أمرت الموظفين البريطانيين أن يفتحوا أبواب فلسطين لليهود .

وراح عبود يصغى وهو في دهشة : « يا منافق ، يا بن الكلب ! وهل ينتظر غير هذا من ثعلب ماكر مثلك ؟! وقع مأمون . سيطمئن إليه ويفضى بكل ما عنده . خذاز يا مأمون وأمسك لسانك » .

وراح مأمون يتحدث عما يفعله في « أبو عجيله » ووليمز يشجعه على

الحديث بأن يؤيد كل ما يقول ، ويلعن اليهود ويقرر أنهم في إنجلترا لا يحبونهم .
وتضايق عبود وانكمش وأحس أنه غريب في سيارة ولمز ، ويا طالما أحس ذلك
الإحساس كلما مر بمعسكر من معسكرات الإنجليز ، أو وقعت عيناه على
الأجانب وهم يغدون ويروحون في بور سعيد ويحتلون أرقى منتدياتها ويتقلدون
أرفع الوظائف فيها » .

وظفا على سطح ذهنه ذلك اليوم الذى كان عائدا فيه من القاهرة إلى بور سعيد
أيام كانت معسكرات الإنجليز على طول طريق المعاهدة . وقفت السيارة التى
كان فيها عند كل نقط المراقبة ، وقام جندى بريطانى بتفتيشها . ولم يقف الهوان
عند ذلك ، بل لحق بها جندى من البوليس الحرنى يركب موتوسيكلًا ويرتدى
خوذة على رأسه تحمل شارة بريطانيا العظمى ، وأوقف السيارة فى منتصف
الطريق بين التل الكبير والإسماعيلية وعاود تفتيشها !

أحس ذلك اليوم أنه غريب فى وطنه ، وكاد يخنقه حنقه لولا الدموع التى
طفرت من مآقيه لتخفف عنه ضغط حزنه . ليته يستطيع الساعة وهو فى سيارة
ولمز أن يبكى لينفس عن الغيظ الذى يكتمه فى جوفه !

ووصلوا إلى المنزلة فى عماية الصبح ، وهبطوا جميعا من السيارتين فرحين
مستبشرين ، يحمل كل منهم بندقية ، إلا عبود فقد سار صامتا ينظر وقد أنكر
ذلك المرح الذى بدا على وجه جانيت : « ما كل هذا البشر يا جانيت ؟ ألا نك
ذاهبة لإزهاق أرواح بعض الطيور ؟ » .

ووضع مأمون فى يده بندقية ، فنظر إليه نظرة إنكار وعتاب كأنما قد وضع فى
يده أفعى . وكاد يلقيها من يده لولا أنه خجل أن يفعل ما قد يجعله سخريه ممن
أحترفوا إراقة الدماء ، وفظن مأمون إلى ما يكابده ، فقال له :
— احتفظ بها معك إلى أن أطلبها منك .

وتفرقوا وراحوا يخوضون فى الماء ، وساد الصمت ووقف عبود على الشاطئ
يقلب البندقية بين يديه ، ودوى صوت الرصاص فجأة ، وتهافت الطيور
وارتفعت صيحات الفرخ وكان أعلاها صوت جانيت الحاد .

و مر بعض الوقت واطمأن عبود إلى البندقية التي في يده فراح يعبث بها وثنى مقبضها وفوهتها فإذا بها تتشى بين يديه ، وإذا بالخوف ينبعث فيه فجأة ويصور له أن البندقية قد تنطلق فيه ، فحاول أن يعيد البندقية إلى سيرتها الأولى في سرعة . وفي لحظة أحس ألما وبالدم يسيل من أصبعه في غزارة ، فنظر إلى الدم في هلع وجرى ناحية مأمون وراح يخوض الماء دون أن يتردد .

ووصل إلى حيث كان مأمون كامنا ، وقال في فزع :

— مأمون ! مأمون ! أصبعي قطعت .

ونظر مأمون فإذا بقطرات الدم تسيل من أصبع عبود لتسقط في الماء ، فأخرج من جيبه منديلا وربطه حول أصبع عبود لعل الدم الذي كان ينزف يتوقف ، وقال لعبود :

— أسرع إلى سيارة توفيق وسألحق بك .

وخرج عبود من الماء وخف إلى سيارة توفيق ، بينما راح مأمون يعدو ناحية

توفيق حتى إذا بلغه قال :

— أعطني مفاتيح السيارة ، أغلق عبود البندقية على أصبعه .

— وماذا ستفعل ؟

— سأذهب به إلى الدكتور حازم .

وانطلق مأمون بالسيارة وإلى جواره عبود يئن في صمت ، كان النهار قد تم مولده لما وصلا إلى العيادة ، فراح مأمون يدق جرس الباب في لهفة ، وإن هي إلا لحظات حتى انفرج الباب عن إنصاف ، ولما وقعت عينها عليهما قالت في دهش :

— مأمون !؟ عبود !؟ تفضلا .

وفتحت الباب وفسحت لهما الطريق وهي تقول :

— خطوة عزيزة .

ورأت أصبع عبود فقالت في اهتمام :

— ماذا جرى ؟

فقال مأمون :

— قطع عبود أصبعه .

فقالت إنصاف في اهتمام :

— أرجو أن يكون جرحا بسيطا .

وتقدمت من عبود خطوة وقالت :

— تعال لنرى ماذا فعلت بأصبعك .

ولم ينس عبود كراهيته لها فقال في ضيق :

— الدكتور موجود ؟

— لم يأت بعد ، سأقوم بالإسعافات الأولية حتى يأتي .

فقال وهو يدور على عقبه لينصرف :

— شكرا هيا يا مأمون إلى المبرة .

فقالت له في استعطاف :

— ادخل وسأقوم بما سيقومون به في المبرة وزيادة .

وقال مأمون :

— إنصاف منا ، ادخل يا عبود واطمئن .

وأعرض عبود عن توسلاتهما وذهب إلى المبرة ليضمده جراحه :

« أفضل أن تقطع أصبعي على أن تمسنى هذه العاهرة » .

تقلب عبود في فراشه وأبى أن يفتح عينيه حتى لا يفر النوم منهما ، بيد أن حواسه استيقظت جميعا ؛ راح يفكر فيما كان في أمسه ، وكان أول ما تذكره أنه حرم من الغداء الذي دعاه مأمون إليه ، ومن متعة أن يبقى ساعة أو ساعات بالقرب من بهية .

وفتح عينيه واعتدل في فراشه ونظر إلى الضمادة التي لفت حول أصبعه وثبتت حول رسغه ، ولوى شففته في مرارة وهو يهز رأسه في أسى ، وما أسرع أن

شرد بصره : « ترى ماذا فعلت يا بهية لما قال لك مأمون أن أصبغى قد جرحت ؟ كنت أحب أن نتغدى معا ، أن أنظر إليك بقلبي المفتوح ، أن يتدفق الحديث بيني وبين مأمون إلى أن أقول له : مأمون ! زوجنى بهية » .

وسار إلى الشباك فإذا بالنهار قد غمر الكون ، وإذا بالشمس ساطعة ، وبالحياء قد دبت في الشارع ، فمد بصره إلى نافذتها ومشاعره تهتف : « بهية .. بهية ، ما الذى يحول بينك وبينى ؟ لا شئ إلا جنينى . أنا جبان . أجن من أن أطلب من صديقى أن يزوجنى حبيبة القلب . لك كل العذر أن تغضبى يا بهية . أين أنت يا بهية ؟ أريد أن أسعد برؤية وجهك ! » .

ومس أذنيه صوت طرق على الباب ، فسار وقد لوى عنقه لآ يريد أن يبعد عينيه عن نافذتها ، كان يأمل أن يلمحها وأن تشرق نفسه بالضياء ولكنه وصل إلى باب الغرفة دون أن يرى شيئا ، فسار إلى باب شقته المتواضعة وفتحه ، فإذا بدماؤه تتدفق حارة في عروقه ، وإذا بالاضطراب يسرى في كيانه ، وإذا بقلبه يخفق في عنف ، وبعينه تسعان في دهش ، وابتسامة حائزة ترف على شفثيه ، فقد وقعت عيناه على بهية وأمها قد جاءتا إليه ، فقال وهو مأخوذ :

— تفضلا .

وقالت أم مأمون :

— صباح الخير يا بنى . كيف أصبحت ؟

وقال وهو يفسح لهما الطريق ويمس إحساس الغارق في حلم جميل :

— بخير يا نخالة .

وقالت بهية في صوت حنون :

— صباح الخير يا عبود ، كيف حال أصبعك اليوم ؟

— الحمد لله . شكرا .

ودخلت أم مأمون تجر نفسها جرا وسارت بهية خلفها ، تحمل على يدها شيئا ملفوفا في ورق صحيفة ، وكانت أم مأمون تدير عينها في المكان ، بينما التقت عينا عبود بعيني بهية ، وأخذت العيون تتحدث حديثا رقيقا عذبا تعجز أفصح (م ٥ — السهول البيض)

الألسن عن أن تعبر عن مكنون أسرارها ، أو تكشف جانبها من كنوز ثروتها .
ونظر عيود إلى أصبعه : « شكرا لك يا أصبعي مادام جرحك قد أتى لي بها ،
لو كنت أعرف أنها تأتي لذلك لقطعتك من زمان ! » .
وابتسم وابتسمت دون أن ينس أحدهما بكلمة ، ووضعت ما كانت تحمله
على نضد ذهب لونه ، وبان معدنه الصديء ، وقالت :
— كان مأمون يريد أن يبعث إليك بالأمنس بنصيبك من الصيد ، ولكنه رأى
أن يدعك تستريح بعد الغرزتين في أصبعك .
وقالت أم مأمون وهي تجلس على أول مقعد قابلها :
— مأمون يجبك ، لم يسافر إلا بعد أن أوصاني بأن أزورك وأن نخدمك حتى
تعود إلى عملك .
— شكرا لكم . مأمون أخى .

وراحت حواسه تجرى وراء بهية ، تشتهي كلها أن تسعد بها ، ورقص قلبه
طربا : « الحمد لله أن مأمون ليس أخى حقا وإلا لما كان لي أن أتزوج بهية . قالوا
لنا في المدرسة إن الفراعنة كانوا يتزوجون أخواتهم . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟
ما لي وأنا والفراعنة ! المهم أن بهية هنا في شقتي ، أنا سعيد لأنها بقرى ، ليتها تبقى
معي ، لا يفسد سعادتنا شيء . إنها هي الأخرى سعيدة . ما أدراني ؟ كل
ملاحمها تنطق بالسعادة ، يا لفرحتى ! » .
وقالت أم مأمون :

— ستذوق اليوم طيبخ بهية ، لم يسترح مأمون حتى اطمأن إلى أنها طبخت
لك نصيبك من الصيد كما يشتهي .
قال وهو يرنو إلى بهية في وجد :
— أنا واثق أني سأكل أصابعي بعد أن أذوق طعامها .
قالت بهية وقد ابتسمت عيناها :
— أكلت البندقية أصابعك قبل أن تأكلها .
قال وخلجات نفسه ترفرف بالسعادة :

— عضتها ولم تأكلها .
قالت أم مأمون وقد ثبتت عينها على ملابسها التي علقها في مسامير في الجائط :
— قدر ولطف .
والتفت إلى ابنتها وقالت وهي تشير إلى الملابس المعلقة :
— بهية خذى هذه الملابس واغسلها .
وتحركت بهية وفزع عبود ، فأسرع يعترض سيلها :
— بالله لا تتعبي نفسك .
فقالت بهية في رقة :
— أتعب لمن إن لم أتعب لك !
وقال لها في توسل :
— أرجوك ألا تفعل . سيضايقني أنى أتعبتك .
فقالت بهية وهي تحاول أن تنطلق إلى ملابسها :
— والنعمة الشريفة تعبك راحة يا سي عبود .
وقالت أم مأمون وهي تنقل بصرها بين ابنتها وعبود :
— لمى يا بهية كل ما يحتاج إلى غسيل .
— حاضر .
والتفت إلى أم مأمون وقال لها :
— لا داعى لكل هذا التعب ، والله لا أحب أن أتعبكم .
وسرى صوت طرقات خفيفة على الباب ، فخفضت بهية في خفة الغزال تفتح
الباب ، فألقت إنصاف أمامها ، فتكدر كل صفوها وتحركت غيرتها قبل أن
تفتح إنصاف فيها ، وكانت الدهشة التي ارتسمت على وجه إنصاف لا تقل
عن الدهشة التي علت وجه بهية ، غير أن عقارب الغيرة لم تنهش قلبها ، اعتادت
بعد أن عملت في العيادات والمستشفيات أن تجد في اختلاط الرجال بالنساء أمرا
مألولا لا يثير شكوكها أو يطلق لسانها بأحاديث الإفك والبهتان .
وقالت وهي تبسم في رقة :

— صباح الخير . كيف أصبح حال سي عبود ؟
فقلت بهية في غير ارتياح :
— بخير . تفضل .

وظلت واقفة تسند الباب بجسمها ، كأنما كانت تحول بين إنصاف وبين الدخول ، بيد أن إنصاف تقدمت ودفعها بصدرها ودفلت حيث كان عبود وأم مأمون جالسين ، فأسرعت بهية خلفها . وراحت الفتاتان تستبقان إلى الرجل الذي راح يرمق إنصاف في ضيق وقد فغرفاه من الدهشة . إنها لم تطرق بابه قبل الآن ، فما بالها جاءت إليه وبهية عنده ؟ « ماذا ستقول بهية ؟ ستظن أن هناك علاقة بيني وبين هذه المستهتره ! لو جرى بذهنها شيء من هذا لما استحقت أن تكون زوجتي ، إنها معنورة يا عبود لو ظنت بك السوء ، فما عاشرتك بعد ولا عرفت أخلاقك ، كشر عن أنيابك يا عبود وعاملتني تطفلت عليك بغلظة ، لتنفى عن نفسك كل شك ، وتريح قلب بهية . لا ، هذا لا يليق . إنها في بيتي » .

وأرهفت حواس بهية ووقفت تصغي وترقب حركات عيني إنصاف ، حتى لا يفوتها شيء وإن كان رمزا ، ونسيت الغسيل وكل ما دبته لتشرح صدر الرجل الذي كانت كل أحلامها تدور حول أن تنجب منه أولادا !
قالت إنصاف وهي تمد يدها تصافح عبود وأم مأمون في بساطة :

— صباح الخير يا خالة . صباح الخير يا سي عبود .
وركزت بهية عينها على اليدين المتصافحتين لعلها تلمح ضغطة تعبر عما لا يمكن التعبير عنه في حضورهما ولكنها لم تلمح شيئا ، والتفتت إنصاف إلى أم مأمون وقالت في صراحة :

— تصوري يا خالة ، رفض عبود بالأمس أن أضمد له جرحه وزاح يفر مني كأنما يفر من جيفة ، وسألت نفسي ، لماذا يكرهني عبود ولم أفعل له شيئا سيئه ولم أجد لسؤالي جوابا .

وأطرق عبود ولم ينبس بكلمة ، ولم ترتج بهية لهذا الحديث ، فإن لم يكن عبود

بهما فلماذا هذا العتاب ، ولماذا جاءت تسأل عنه إن كانت على يقين أن عبود
بمقتها حقا ؟ وقالت إنصاف :

— لولأنى أصيلة وأحب أن أنسى إساءات الناس ، ما جئت لأسأل عنك .
وظل عبود فى صمته ، ونظرت بهية إليها فى غيظ دون أن تتحرك أو تفتح فمها
بكلمة : « يا لقيمة ! يا ناعمة ! يا فاجرة » وقالت أم مأمون لتلمس له عذرا ، بعد
أن وجدت فى صمته إهانة للفتاة التى تحشمت الحضور لتستفسر عن صحته :

— عبود لا يعرف الكراهية ولكنه خجول .

فقال إنصاف وقد أطلقتها ضحكة عالية :

— يضع على وجهه منخلا !

وتدفق دم الغيظ إلى وجه عبود ، وعضت بهية على نواجذها ، وزاد فى حنقها
أن إنصاف كانت ذات دلال وحيوية ، وأن غيرتها صورت لها أن ضحكة
إنصاف الماجنة فعلت فى عبود فعلتها الساحرة ، فجعلت دم الرغبة يسرى فى
خديه ، ويزيق الاشتهاء يأتلق فى عينيه .

وقالت إنصاف لأم مأمون :

— ألم يأمرك الدكتور حازم بالبقاء فى فراشك ؟ لماذا تركت سريرك ؟

سيتعبك نزول السلم وصعوده .

فقال أم مأمون فى هدوء :

— عبود عزيز علينا وكان لا بد أن أزوره وأطمئن عليه .

فقال إنصاف وهى تنظر إلى بهية :

— كان فى بهية الكفاية ! إنها الخير والبركة .

وضايق بهية حديثها ونظراتها : « آه لو أقبض على رقبتك وأكتم أنفاسك ، أو
أضع أصابعى فى عينيك » ، وودت أم مأمون أن تقول شيئا ولكنها أمسكت
لسانها حتى لا تجرح إنصاف ، ولم تنتظر إنصاف جوابا ، ونهضت ثم قالت :

— تأخرت عن العيادة ، عن إذنكم .

والتفتت إلى عبود وقالت :

— إن احتجت إلى شيء فأنا في خدمتك . ولا داعي للخجل : إننا أهل ،
ليس كذلك يا خالة ؟

— تمام يا بنيتي ، الجيران أهل ، النبي أوصى على سابع جار .

فقالت إنصاف وهي تضحك :

— وأنا ثالث جار !

ومدت يدها تصافح أم مأمون ، وقالت :

— سيغضب الدكتور حازم لما يعرف أنك تركت فراشك .

— والله يا بنتي لا تقولي له إكراما لخاطري .

فابتسمت إنصاف وقالت :

— لو كنت لأحبك لأخفيت عنه ذلك ، ولكني أحبك ، لذلك لا بدأن يعلم .

وخيل إلى بهية أن إنصاف نظرت إلى عبود نظرة ذات معنى ، فاضطربت

وأحسست كأن يدا قوية تهصر قلبها وكأن حملا ثقيلًا جثم على صدرها ، وتمنت

بكل جوارحها لو أن إنصاف تنصرف : « تحركي . يا شيال الحمول

يا متولى . مدد » .

ومدت إنصاف يدها إلى عبود وهي تقول :

— كنت أنوى أن أمرضك اليوم ولكنك محظوظ . عندك ممرضة جميلة

متطوعة ، والمتطوع أفضل دائما من المحترف .

فقالت أم مأمون في سداجة :

— الله يجبر خاطرك .

ولم تشأ بهية أن تدع حديث إنصاف يمر ، دون أن تعلق عليه تعليقا يجرح

كبرياء من أطلقت للسانها حرثته ، يسخر ويحز ويرغب ويصرح ويلمح

ويلمز ، فقالت وهي تحرك رأسها استخفافا وتحديا :

— أنا لا أمرض غريبا ، عبود منا ، تربي في البيت معنا ، لا فرق بينه وبين

مأمون ولا داعي للغمز واللمز .

وأحسست إنصاف أن بهية تريد أن تثيرها معركة ، وهي على الرغم من طلاقة

لسانها تخشى معارك النساء ، فقالت في انكسار :
— لم أقل شيئاً يغضبك يا بهية ، ومع ذلك فأنا آسفة إن كان قد صدر مني ما يسئك . السلام عليكم .

وانصرفت إنصاف لا تلوى على شيء ، وأغلقت الباب وراءها فراحت بهية تزفر بصوت مسموع كأنما كانت تزفر سموما ملأت صدرها .
وقالت أم مأمون لا بنتها في عتاب :

— لماذا ثرت عليها يا بنتي ولم تقل لك ما يغضبك ؟ إنصاف بنت حلال ، وخدم ، لا تستأهل منك ما فعلته بها .
فقالت بهية في انفعال :

— ليتها انتظرت ولم تهرب لأفعل بها ما اشتتهته نفسي ، لماذا تطيل لسانها على ؟
— لم تقل لك شيئاً يا بهية .

— قالت أشياء كثيرة بلسانها وبعينها وشففتها الملتوية ، أليس كذلك يا سبي عبود ؟
وقال عبود في حماسة :

— إنني أكره جرأتها ولا أحترم أية فتاة بجريئة .
وأرضت شهادة عبود غرور بهية ، فأسبلت عينها في حفرة ، وسارت إلى ملابسها ، وهي تحس أنوثتها ، وهو يتبعها بنظرة شاردة « آه لو كانت لك جرأة

إنصاف يا عبود ، لما كان هذا حالك . حالي ؟! ما أحسن حالي ، أنا سعيد ، أسعد إنسان في الوجود ، بهية تخطر أمامي .. هل حقاً جرحنا شعور إنصاف ؟
لعنة الله على إنصاف . مالها ومالي ؟ . بهية هنا في داري ، تغسل ثيابي بعد أن

طبخت لي طعامي ، متأهبة لأن تلبس ندائي ، أين أنت يا مأمون لتأني بالمأذون يعقد قراننا ؟ لماذا انتهت إجازتك اليوم ، لو لم تجرح أصبعي لطلبتها منك بالأمس ، لو خطبتها بالأمس ما كنت أسعد حالاً مما أنا فيه الآن » .
واضطجع في مقعده ، وبدأت عيناه تريان نور المحبة وقد انسكب في أرجاء

الشقة المتواضعة فغمر كل ما فيها ، فاستشعر كأنما بهم في فردوس ونعم .
وغابت بهية بالغسيل عن العيون ، وقلبت أم مأمون وجهها في المكان وقالت :

— ما أصعب أن يعيش الإنسان وحده ، لماذا لا تتزوج يا عبود ؟
واعتدل في مجلسه وخفق قلبه إلا أنه لم يحس إحساسات الرهبة التي كانت
تعقد لسانه إذا ما تحدث إلى مأمون ، وشعر لأول مرة أنه سيد الموقف فقال :
— كنت أنوى أن أطلب بهية من مأمون لولا ما أصاب أصبعي ، أيقبلني
زوجا لأخته يا خالة ؟

وتهللت أسارير الأم وخفق قلبها فرحا ، فما دار بخلدها أن يكون الأمر بهذه
السهولة وهذا اليسر ، فقالت في انشراح ؟
— وهل سيجد لها أفضل منك ؟ أنت ابن العزيزة الغالية يا عبود ، كانت
أملك رحمة الله عليها أطيب الجيران وأعزهم علينا ، لو أطال الله في عمرها
ما رضيت أن تزوجك غير بهية .

وراحت أم مأمون تتدفق من فرحتها في الحديث ، وتروى ما كان بينها وبين
أم عبود من ود ومحبة ، وكان عبود شاردا عنها وإن صوب عينيه إليها ، كان
مشغولا بفرحته بنفسه لأنه اجتاز عقبة الإفضاء بما في صدره .
والفت حيث غابت بهية وراوده أمل أن يذهب إليها ويقول لها : مبارك
يا بهية يا زوجتي العزيزة ، ثم يطبع على جبينها قبلة . جبينها ؟! ولماذا لا يطبق
شفتيه على شفتيها ؟! لا . لا يا عبود . لن تفعل شيئا من ذلك قبل ليلة الزفاف
حتى لو عقد المأذون لك عليها .

وراحت الأم تتلفت وتتململ في جلستها ولاح عليها القلق . كان الخبر الذي
جاءها أكبر من أن تحمله وحدها ، ليتمها تستطيع أن تنهض لتفضي به إلى بهية . أو
تفضي به إلى بهية قبل عودة مأمون وأخذ رأيه ؟ أخذ رأيه في ماذا وقد قال لها أول
من أمس أنه يحس أن عبود يريد أن يقول له شيئا وأن الكلمات تموت على طرف
لسانه خجلا ، وأنه في أعماقه يشعر أن عبود يريد أن يطلب منه بهية ، وأنه لو
فعل فيسرحب به ، فعبود رجل يقدر المسئولية ، وسوف يعرف حق بهية عليه .
ذهبت الصحة ولو بقى منها شيء لأطلقت زغرودة تعلن النبأ السعيد في الحى
كله .

وخرجت بهية إليهما لتنشر الغسيل وامتدت العيون إليها ، كان عبود يجاهد
خجله وتردده لينض لمعاونتها ، وكانت الأم تجاهد الرغبة الملحة التي كانت
تعرضها على أن تناديهما وتزف إليها أجمل نبا تنتظره كل فتاة ، ثم تضمها إلى
صدرها وتغمرها بقبلاقتها .
وقام عبود ولحق بها وقال لها :
— كفاك تعبا اليوم . دعيني أفعل شيئا .
وهم بأن يأخذ منها الغسيل ، فقالت بهية وهي تبعد عنه الغسيل :
— والنعمة الشريفة لن ينشره أحد غيري . ناولني المشابك .
وذهب إلى حيث يضع المشابك وعاد بها : « والنعمة الشريفة روحك خفيفة
يا بهية . أنا محظوظ » وقدم إليها المشابك :
— تفضلي .
— ورن صوته في جوفه : « يا روحى . يا عقلى . يا عينى »
وراحت تنشر الغسيل وهو يرنو إليها مسحورا وقد أفعم بالغبطة ، وما انتهت
منه حتى قالت الأم :
— هيا يا بهية لندع عبود يستريح .
فقال عبود فى حماس :
— والله يا خالة ما أحسست فى حياتى راحة كما أحسست بها اليوم .
انتظرى يا خالة حتى نتغدى معا .
— يا بنى هذا نصيبك وقد أكلنا نصيبنا بالأمس ، وخير ربنا كثير ، والحمد لله .
فقال عبود وهو يخلتس النظر إلى بهية :
— « لقمة هنية تكفى ميه » .
— بالهناء والشفاء يا بنى . هيا يا بهية .
ومدت يدها وصافحت عبود وهى تقول :
— مبارك يا بنى .
ورنت الكلمة غريبة فى أذنى بهية ، فما تدرى ما الذى دعاها إلى أن تبارك له

وأصبعه في الضمادة !
ومدت يدها إلى عبود تصافحه قبل انصرافها ، فقال لها عبود في رقة :
— يد لا نعدمها . شكرا لكما ومع السلامة .
وهبطتا في الدرج . الأم تتوكأ على الدرايزين وعلى ذراع ابنتها ، وبهية تهبط
في تؤدة ، وعبود عند رأس السلم يرقبهما وهو مفعم بمشاعر لذيدة وقد أحاطت
بهما كل عواطفه الرقيق ، وتعلقت كل آماله المشرقة .
وغابتا عن عينيه ، فأسرع إلى النافذة المطلة على الطريق يرصدهما وهما في
سيبلهما إلى البيت ، كانت بهية معتدلة القامة ، نحيلة الخصر ، ممتلئة الصدر ،
مرفوعة الرأس ، جميلة ، بيد أن شيئا من ذلك لم يكن يخطف بصره . كان يراها
روحا هفهاقة شفاقة تأسر روحه وتملؤها رضا وغبطة .
وزحفتارويدارويدا إلى الدار . ولما اختفتا فيه عن ناظريه راح يدور في الغرفة
من السرور ويضم الهواء من الفرح بين ذراعيه وهو يقول بصوت عال : « والله
قد صفالك الزمان يا عبود يا بن حنيفة » . وشخص ببصره إلى السقف وقال :
— أمى ! أنا سعيد ، خطبت بهية يا أمى .. سأتزوج بهية يا أمى .
أتسمعينى ؟! أنا واثق أنك تسمعين ، وأنت الساعة هنا معى .. تشاركينى
فرحتى .
ورفت على فمه بسمه وقال : « بارك الله فيك يا أمى » .
ومد بصره إلى نافذة بهية فألفاها تتقدم نحوه ، فحقق قلبه حنانا ، وأرهفت
حواسه ، فألفاها بتسم له ابتسامة خفيفة ، ثم تسبل عينيها حياء ؛ وفجأة تدور
على عقبيها وتفر من النافذة .
وفاض سروره فهتف في فرح :
— عرفت .. عرفت أنى خطبتا . قالت لها خالتي ، وقالت لى عيناها إنها
سعيدة بأن تكون لى زوجة ، وأنا سعيد أيضا يا بهية .
ودار فى الغرفة دورة كاملة وصاح دون أن يعى :
— يا وعدى !

وعاد توفيق من عمله ، فألفى جانيت جالسة تصغي إلى الراديو وقدر كرت انتباهها في الأخبار التي كانت تذاع باللغة الإنجليزية ، وكانت تلتقط قلما من الرصاص ملقى على النضد أمامها ، وتدون بعض الملاحظات في كراسة صغيرة أنيقة مغلقة بجلد أخضر .

ووقف توفيق يرقبها برهة ، ولم تحس دخوله ، فقال لها مداعبا :

— أما زلت جالسة إلى الراديو منذ البارحة ؟

فالتفتت إليه وقالت :

— إني أستمع إلى إذاعات إسرائيل ولندن والقاهرة .

ونفضت من مقعدها وأقبلت عليه وهي تقول :

— إذاعات إسرائيل لا تفتأ تزدد أن اتفاقية الجلاء التي وقعت بين مصر

وإنجلترا ، خيانة من إنجلترا لإسرائيل .

فقال توفيق في سخرية :

— وإنشاء إسرائيل في الوطن العربي ، ألم يكن خيانة للعرب ؟

ولم تعلق جانيت على ما قال ، بل استمرت في حديثها ، قالت :

— أعتقد أن إسرائيل لن تسكت عن هذه الاتفاقية .

— وماذا تستطيع أن تفعل ؟

— قلت لك يا توفيق أكثر من مرة : « لا تستهن بعدوك ؛ ستقاوم إسرائيل

جلاء الإنجليز عن مصر بالدم وإثارة القلاقل في المنطقة والتآمر ، المسألة بالنسبة

لها مسألة حياة أو موت .

— وما رأى الإنجليز في الجلاء ؟

— أخشى أن الإنجليز العادي لن يفهم الدوافع الحقيقية لهذا الجلاء ؛

سيصاب بخيبة أمل كمثل التي أصيب بها يوم جلت إنجلترا عن الهند . كنت أعقد

آمالا كبيرة على تشرشل ، فهو وحده القادر على أن يشرح للشعب البريطاني

ظروف هذا الجلاء. ولكن تشرشل خيب رجائي ، قال إن منطقة القناة لم تعد منطقة حيوية بعد اكتشاف الأسلحة النووية .

— وماذا كان يمكن لتشرشل أن يقول غير هذا ؟

— الرأي العام البريطاني يعتقد أن حكومته استسلمت لضغط ناصر ، فكان على تشرشل أن يبصر الشعب بحقيقة الوضع الجديد في مصر ، أن يشرح لهم أن عهدا جديدا يختلف عن العهود السابقة قد قام في مصر ، وأن العهد الجديد مصمم على أن يرعى مصالح بلاده ، وأن يكون على الحياد بين الكتلتين المتصارعتين ، الشرقية والغربية .

— أظن أن الرئيس عبد الناصر أعلن سياسته في وضوح : الحرية ، وحق تقرير المصير ، والقضاء على الاستعمار ، وعدم الانحياز ، والتعايش السلمي ، والحياد الإيجابي ، والتعاون مع جميع الدول ؛ نعادي من يعادينا ونسلم من يسالطنا .
— قلت لك يا توفيق أكثر من مرة : إن من أصعب الأمور فهم الأشياء الواضحة ، الشعوب لا تفهم إلا ما تحب أن تفهمه ، وما يجب ساستها أن يفهموها إياه .

— إنا سنسير في طريقنا ، سواء أفهم السياسة البريطانيون أم لم يفهموا ، وسواء عرفت الشعوب الغربية والشرقية حقيقة أهدافنا أم تأخر فهمها لنا .
فقلت جانيت وهي تسير إلى جوار زوجها إلى غرفة السفارة :

— أنا واثقة من ذلك ؛ ولكن الطريق لن يكون مفروشا بالورود !

وبلغا المائدة وقعد كل منهما على مقعده ، وقال توفيق :

— قال لي ولينز إن مركز شركة قناة السويس سيكون دقيقا عقب الجلاء .

فقلت جانيت وهي تهز رأسها :

— هذا حق .

وأقبل مرجان يحمل الطعام في صحيفة من معدن يتألق كالفضة ، فرمقته

جانيت ثم التفتت إلى توفيق وقالت :

— لا أدري سببا لموجة الغلاء المتزايدة هذه الأيام .

فقال توفيق في دهش :

— موجة الغلاء ؟

فقالت جانيت دون أن تلقى بالا لدهشته :

— أعطيت مرجان جنيتها ليشتري أقة لحم وأقة طماطم وأقة قرع وأقة موز ،
وكنت أظن أنه سيعيد ثلاثين قرشا على الأقل ، ولكنه أعاد من الجنية قرشين .

فنظر توفيق إلى مرجان نظرة ريبة وقال :

— أحقا هذا يا مرجان ؟

فقال مرجان دون أن يرفع عينيه عن الصفحة :

— كل شيء أصبح غاليا يا سيدى هذه الأيام ، إلا بنى آدم .

ولم يصدق توفيق شيئا مما قاله مرجان ، بيد أنه سكت وتظاهر بالانهماك في
الأكل ، ولم يشأ أن يثير مشكلة وأن يعطى زوجه فرصة لومه على ثقته في
مرجان ، والوقوف إلى جانبه ظلما أو مظلوما ؛ فقد كانت معظم المشادات التي
تقوم بينهما بسبب مرجان ، وكان مرجان يعتمد على تأييد توفيق له وعطفه عليه
ليتأدى في غيه ، ويرتكب من الحماقات ما يفجر غضب جانيت ، ويجعلها
تصرخ في حدة سيدات البحر الأبيض !

وشغلا بالطعام عن مرجان ، وراحا يتبادلان أحاديث خاطفة عابرة ، قالت

جانيت :

— هل رأيت عبود ؟

— لم أره بعد ، طلب إجازة اليوم وسأذهب لزيارته بعد العصر .

— بلغه تمنياتي وتمنيات ولينز ، فقد سألت عنه صباحا .

وقبيل الغروب انطلق توفيق إلى دار عبود ، ولحبه واقفا في النافذة ؛ كان
يرصد معبودة الفؤاد ، فأشار له بيده محميا ، فحجل عبود كأنما ضبطتلبسا وقد
جاء شيئا نكرا ، وتحرك في ارتباك ليستقبل رئيسه الذي جاء ليعوده .

وعند باب الشقة المتواضعة التقى الرجلان ، قال توفيق :

— كيف أصبحت يا عبود ؟

— بخير والحمد لله . شكرالك . ليس ما بي يستحق أن تجثتم نفسك هذا
التعب . وآسف إن كنت قد أزعجتكم وعكرت عليكم صفوكم ، ما لمغفل
مثلي وللصيد !

وابتسم توفيق وقال :

— يعجبني فيك صراحتك .

وقال عبود في بساطة :

— إن لم أقل أنا ذلك فستقولونه أنتم ، فلماذا أعش نفسي ؟!

وقال توفيق وقد لاحت في عينيه حقيقة مشاعره نحو عبود :

— أنت رجل طيب يا عبود ؛ كلنا نحبك ؛ أرادت جانيت أن تأتي

معى لتزورك .

فقال عبود في صوت متهدج :

— هذا شرف لا أستحقه . من أنا حتى يأتي أناس كرماء مثلكم ليسألوا عني ؟!

ونظر إليه توفيق في عتاب وقال له :

— وقد طلبت منى أن أعتذر لك عن عدم تمكنها من الحضور ، وأن أحمل

إليك أطيب تمنياتها وتمنيات وليز .

— شكرا لهما .

وخشى عبود أن يفصح وجهه عن حقيقة مشاعره نحوهما ، فدار على عقبه

وذهب بعيدا ليعود وفي يده زجاجة كوكاكولا ، قدمها إلى توفيق وهو يقول :

— تفضل .

وتناول توفيق الزجاجة وراح يشربها ، وعبود ينظر إليه وقد لاح عليه أنه

يريد أن يطلب شيئا إلا أنه متردد في الإفصاح عما يراوده ، وفطن توفيق إلى

ما هو فيه فقال له :

— ماذا تريد أن تقول يا عبود ؟

— أستطيع أن أحصل على إجازة أسبوعا ؟ سليمان قادر على أن ينهض بكل

عملي في هذه المدة .

ورفع توفيق زجاجة الكوكاكولا عن فمه ، ولاح في عينيه أسى وقهر ولم ينبس بكلمة ، وأحس عبود أن ما قاله لم يلق قبولا فقال :

— آسف إن كان طلبى قد ساءك ، الظاهر أنى لم أكن موقفا فيما طلبت .

ونفض توفيق وقال وقد أولاه ظهره :

— أبدا يا عبود ، ولكن سليمان لم يعد قادرا على أن ينهض بعمله .. بأى ثمن .

وفغر عبود فاه وجعل يتلفت برهة ، ثم قال :

— هل أصابه مكروه ؟

قال توفيق وقد أطرق حزنا :

— أحس سليمان وخزا فى ذراعيه فذهب إلى طبيب الشركة ، وبعد أن

فحص عنه أمره أن يذهب إلى بيته ، ثم أرسل تقريرا سرى إلى الشركة يقرر فيه

الاستغناء عنه لضعف قلبه الشديد . فلما تسلمت التقرير ذهب إلى الطبيب

وقلت له : هذا قرار خطير ، حكم على إنسان طيب بالشر . فقال لى : إذا

استمر فى عمله فسيموت . فقلت له : وإذا ترك عمله فسيموت جوعا ، خير له

أن يموت وهو يعمل من أن يموت ذليلا . قال : أعلم أنه قرار بغىض . فقلت له فى

ثورة : قرار لا رحمة فيه . فقال لى : واجبى يحتم على أن أتخذ هذا القرار وإن كان

قاسيا . إنى لم أتخذ إلا رأفة به .

وزفر توفيق زفرة شديدة ثم قال :

— يا للسخرية ! يلقى به فى عرض الطريق لموت جوعا رأفة به .

فقال عبود فى حماس :

— لن نتخلى عنه ، ولن نتركه يموت جوعا مادنا على وجه الأرض نسير .

فقال توفيق فى مرارة :

— هذه حماسة اللحظة .. النخوة العارضة ، ولكن إذا طال به الزمن

فسيصبح عبثا نضيق به جميعا .

فقال عبود فى هلع :

— لا . لا . لن نضيق به أبدا ، سنراه رعايتنا لأنفسنا .

- فقال توفيق وهو يهز رأسه استخفافا :
— يا ليت .
— مسكين يا سليمان .
— كلنا مساكين ، قد يحدث هذا غدا لأى منا .
— وساد صمت ثقيل بينهما ، وتمنى كل منهما لو أن الآخر يقول شيئا ، أى
شيء ليخرجهما من ذلك القلق الذى أطبق عليهما . ومن آذانهما صوت أقدام
تقترب ، فالتفت توفيق وعبود ناحيته ، وهتك السكون طرق خفيف على
الباب ، فراحا يستيقان إليه ليفرا من الشجن الذى أحاط بهما .
وفتح توفيق الباب فإذا بالشيخ حسن أمامه يقول :
— السلام عليكم .
— وعليكم السلام ورحمة الله يا شيخ حسن . تفضل !
ودخل الشيخ حسن وما وقعت عيناه على عبود حتى قال :
— علموا أولادكم الرماية والسباحة ، لو أنك طبقت تعاليم سيد المرسلين لما
أصنابك ما أصابك .
فقال له توفيق :
— أتجد الرماية يا شيخ حسن ؟
فقال الشيخ حسن فى بساطة :
— أجيد الرماية بكل أنواعها ، السهام والمقلاع والبندقية والمدفع الرشاش
وإلقاء القنابل ، وصنع الذخائر الحية .
— وأين تعلمت كل هذا يا شيخ حسن ؟
— من يريد أن يتعلم لا يعدم الوسيلة .
والتفت إلى عبود وقال :
— وقد قررت أن أعلم عبود الرماية ليكمل إسلامه .
فقال عبود فى فزع :
— حد الله بينى وبين أى سلاح .

فقال الشيخ حسن في إصرار :

— بل ستتعلم الرماية حتى لا تمكر البندقية بك كما فعلت بالأمس ، السلاح كالنار خادام مطيع ، وسيد طاغ مستبد لا يرحم ، فاتخذة خادما ولا تجعله سيدا .

ورمق توفيق الشيخ حسن في إعجاب ، وقال :

— عن إذنكما .

وقال للشيخ حسن وهو يضافحه لينصرف :

— عليك به يا شيخ حسن حتى يكمل إسلامه .

وانسل توفيق خارجا ، وما بعد عن أبصارهما حتى قال عبود :

— بارك لي يا شيخ حسن ، اليوم أكملت ديني ، خطبت بهية من أمها ،

وقدر حبت الأم بي .

— مبارك يا عبود ! وقد كنت موقفا لأنك طلبتها من أمها ، فخير من بيت

في مثل هذه الأمور النساء .

وصمت قليلا ثم قال في أسي :

— طلبت فتحة من صديق ، ولم يقبلني زوجا لابنته ، قال : لا أفكر في

زواج فتحة الآن .

فقال عبود في دهشة :

— كلام فارغ ، كيف يضيع هذه الفرصة من يده ، لن يجد لها خيرا منك .

فأطرق حسن وقال :

— كل شيء قسمة ؛ ولكن ما يضايقني أتي كنت قد قررت ألا أغضب إذا

ما رفضني صديق ، فلما رفضني حز ذلك في . عزيز على النفس أن ترفض .

فقال عبود متطوعا ليخفف عن صديقه :

— لا بد من سبب أرغمه على هذا الرفض ، وسأعرف السبب .

فقال حسن في صوت أسيف :

— لا داعي للتعب ، رفضني صديق وانتهى الأمر .

ونفض وقال :

— سأصلي المغرب والعشاء ثم أعود إليك .

وانصرف حسن ، وراح عبود يمد بصره إلى شباك بهية ويدور في الغرفة في فرح . ثم توقف فجأة وارتمى على وجهه صرامة ، وأصاخ السمع كأنما كان يصغى إلى من يؤنبه : « عيب يا عبود أن ترقص طربا وقد ألقى سليمان إلى الشارع شريدا ، وقد رفض صديق أن يزوج ابنته لحسن . سليمان لن يهان ، سيعيش بيننا عزيزا مكرما ؛ وسأقنع صديق بأن يقبل حسن زوجا لابنته . إنه كفيل بذلك . هل جن صديق حتى يرفض الشيخ حسن ؟ لعل امرأته تريد أن تزوج ابنتها موظفا . الشيخ حسن خير من ألف موظف . سأقول لصديق هذا ، سأقسو عليه إن اضطرني إلى ذلك ، وشفيعي أرى أريد مصلحة ابنته قبل مصلحة حسن ، إى والله إني لا أبغى إلا مصلحة فتحية . الحمد لله لم ترفضني حماق . قبلة لك يا حماق . قبلة على الخد . أما أنت يا بهية فلك قبلة عميقة نابغة من سويداء قلبي ، من أغوار كل مشاعري » .

وأقنع نفسه بأنه سيسعد أصدقاءه جميعا ، فعاد إليه مزجه ، وراح يدور في المكان وقد غمرته سعادة وانشرح صدره ، حتى نخيل إليه أنه قادر على احتواء الكون كله !

وسمع طرقا على الباب فذهب وفتح ، فأرى أمامه صديق يرتدى ملابس الإسعاف وقد حمل حقيبة صغيرة ، فقال عبود مهللا :
— أهلا .. أهلا .. جئت في وقتك .

وقال صديق في براءة :

— الفضل لإنصاف ، قالت لي إنك جرحت بالأمس ، وطلبت مني أن آتي لأظهر جرحك وأغير الضمادة . كانت ترجو أن تفعل ذلك بنفسها لولا أنها واثقة من أنك تكرهها .

واربد وجه عبود وقال :

— إني لا أكره أحدا ، ولكني لا أحب أن تكون بيني وبين بعض الناس مودة ؛ وفرق بين الكراهية والاقتصار عن الناس .

ودخل صديق وفتح الحقيبة ، وأخرج منها لفافة من القماش وأنبوبة مرهم ومقصا صغيرا ، وقال :

— ناولتى أصبعك .

ومد عبود إليه يده وقال :

— ليتك جئت قبل نصف ساعة ، كان الشيخ حسن هنا .

وغام وجه صديق بسحابة من الكدر ، وراح يفك الضمادة في انفعال ينم عن الثورة التي تأججت في جوفه ، ولم تتحرك شفثاه بكلمة ، وراح عبود يرقبه ففطن إلى الصراع الناشب بين جوانحه ، فقال له في رقة :

— لماذا رفضت الشيخ حسن يا صديق ؟

ورفع صديق وجهه فإذا بالدموع قد بللت عينيه ، وقال في صوت خنقته

العبرات :

— أتظن يا عبود أن ذلك كان هينا على ، رفضته والخناجر المسمومة تمزق

قلبي ، والمطارق تدق رأسي ، والحزن يخنقنى ويكاد يكتم أنفاسى . كان رفضى

له أقمسى قرار اتخذته في حياتى . قلت له صادقاً إنى لن أجد لابنتى زوجاً خيراً منه .

— ولماذا رفضته ؟

فأطرق صديق وترك يد عبود تسقط من بين يديه ، وقال :

— لأنى لا أملك ما أزواج به ابنتى . مرتبى لا يكاد يكفى قوت عيالى

فكيف أزواج فتحية ، ومن أين أدفع تكاليف زواجها ؟!

فقال عبود كأنما يواسيه :

— كل شىء برزقه يا سيد صديق .

فقال صديق في ضيق ، وفي صوته رنة غضب وأسى وعدم رضا :

— لا أملك غير مرتبى ، وباليته يدوم ، فمن أين سيأتينى ذلك الرزق الذى

أزواج به بناتى ، وليس لى قريب غنى أنتظر موته لأرث ثروته ؟

وصمت صديق برهة ثم قال فى مرارة :

— لم أحسن جرم ما فعلته بإنجاب كل هؤلاء البنات قبل أن يفاخننى حسن فى

زواج فتحية . أنا بائس .. مسكين .. مجرم .. لمن سأترك بناتي وزوجتي لو
كتب علي أن أموت ؟

وبللت الدموع عيني صديق وارثسم علي وجهه أسى عميق ، وفجأة طفرت
العبرات من مقلتيه ، وأجهش بالبكاء ، فقد راح هامس يفتح في جوفه بصوت
أجش بغيض : وماذا ستفعل بهم بعد سنوات ، حتى لو أطال الله في عمرك ؟
ستحال إلى المعاش ، وتتقلص الجنيئات القليلة التي لا تكاد تكفي القوت إلى
جنيئات لا تغني ولا تمسك الرمق .
وفجرت دموع صديق كل منابع الشفقة في قلب عبود ، وأيقظت شهامته ،
فقال في صوت متهدج :

— وإذا كفيت مؤونة تجهيز فتحية ، أتقبل حسن زوجها ها ؟

فقال صديق كأنما يتحدث عن أمنية عزيزة المنال :

— ياليت ! أين لي هذا ؟ سيستر عرضي ويغلق فم من الأفواه المفتوحة في بيتي .

فقال عبود في حماسة :

— دع لي هذا الأمر . سأديره .

وراح كل منهما ينظر إلى صاحبه في بلاهة ، ثم ضم عبود السيد صديق

الفرارجي إلى صدره وقال :

— مبارك . أنت رجل طيب وحسن رجل صالح ، الطيبون للطيبات يا سيد

صديق .

وقفت إنصاف أمام العم فانوس تتشاءب وتمطى ، وتكئء بمرفقيها على
الحاجز الذي يفصل بين الزبائن والدكان ، وتغالب النعاس الذي يداعب عينيها
وإن كان الوقت ظهرا ، فقد أمضت ليلة طويلة إلى جوار مريض في عيادة
الدكتور حازم عقب أن أنهت عملها في المستشفى .
ومالت بصدرها إلى الأمام واسترخت في وقتها ، فبدت كأنما تتعمد أن تبرز

مفاتها وأن تلتقط أنظار المارة . وراح العم فانوس يزن لها السكر والشاي ويختلس النظر بين لحظة وأخرى إلى الأخدود الغائر المكشوف بين نهديها ، وقال بيلى شفتيه بلسانه :

— متى ستصيبك العدوى يا إنصاف ؟

فقالت دون أن تفكر فيما يقول ، أو تحاول أن تفهم ما يرمى إليه :

— أنا محصنة .

فقال وهو يدنو منها ليرى من صدرها أكثر مما رأى :

— ما أصاب بنات الحى يجعل كل فتاة تتمنى أن يكون وباء .

وصمت قليلا ليثير فضولها ويجذب انتباهها ، وأرضاه أنها قالت :

— وما الذى أصاب بنات الحى ؟

— « شوطة » زواج . خطبت بيهة وفتحية بنت صديق الفرارجى .

فاعتدلت إنصاف ، وطار النعاس من عينها ، وقالت :

— عيود خطب بيهة ، ومن الذى خطب فتحية ؟

فقال العم فانوس :

— الشيخ حسن .

وقدم إليها قرطاس السكر .

— العقبى لك .

وفطن إلى شرودها ، ورأى الأحلام على وجهها ، فتعلم أن تلمس يده يدها

فأفاقت مما كانت فيه ، وقالت وهى تنفخ الهواء فى وجهه :

— فانوس ! والنبي أطفئك .

وابتسم فانوس وأبعد يده عنها وقال :

— أتخبين الزواج يا إنصاف ؟

فقالت فى صراحة :

— الزواج نعمه .

ونظرت إليه نظرة طويلة وقالت :

— لماذا لا تتزوج يا فانوس ؟

فقال وهو يبتسم في خبث ويلحسها بعينه : أنت تعلم يا فتاة

— ولماذا أتزوج ؟

ولم تدعه يتم حديثه بل قالت : أنت تعلم يا فتاة

— عندك حق ، فالرجال هم الذين يتزوجون .

والنساء أيضا .

فقالت وقد التعت عيناها بيريق خبث : أنت تعلم يا فتاة

— والنساء أيضا . أما من لا يتزوج فلا هو رجل ولا هو أنثى !

فقال فانوس وهو يسبل عينيه : أنت تعلم يا فتاة

— حرام أن نحكم على الناس قبل أن نجرهم .

فقالت له دون أن تغضب : أنت تعلم يا فتاة

— يا كهين !

وحملت أشياءها وهمت بالانصراف ، بيد أنها عادت ووضعت حملها وقالت :

— ومتى خطب الشيخ حسن فتحية ؟

— خطبها من أبيها منذ أيام ولكن صديق اعتذر له ، ولما سأله عبود عن سبب

رفضه لحسن علم منه أنه لا يملك ما يزوج به ابنته ، فأقنعه أن جشن لا يطلب

جهازا ، وأتانا نحن أصدقاء صديق سنتعاون على حمل تكاليف الزواج الأخرى ،

علق عبود في عنقه إتمام هذا الزواج .

فقالت إنصاف في حرارة وقد شخص بصرها إلى نافذة بهية :

— عبود إنسان ، وإن كان يكرهني .

وعادت تحمل أشياءها وهي تفكر فيما فعله عبود ، دون أن تلتصعها غيرتها أو

يتحرك حقدها . وانصرفت وقد زحف النعاس ليداعب جفونها .

وأقبل حسن وعبود من القابوطى وكل منهما يحمل جملا ثقيلا من السمك .

وتعبت يدا عبود ، بيد أنه كان سعيدا فما يحمله إن هو إلا الهدية لبهية . ونظر

الشيخ حسن إلى السمك الذى يرفعه بيديه ، وأشرق وجهه بابتسامة وقال :

— كان صديق جاهلا لما قال لك : من أين سيأتي ذلك الرزق الذى أزوج به بناتى ، وليس لى قريب غنى أنتظر موته لأرث ثروته .
وهز السمك الذى يحمله وقال :

— ها هو رزق ساقه الله إليه ما كان يفكر فيه . المرتب يا عبود شئء والرزق شئء آخر . قد يكون مرتب شخص ما أربعين جنبها بينما يكون رزقه أكثر من ذلك أو أقل .
فالتفت إليه عبود وقال له :
— كيف ؟

— إذا مرض ذلك الشخص أو أحد ممن يعولهم ، وأنفق على ذلك المرض خمسة جنيهات أو أكثر ، فإن ما أنفقه هو من مرتبه وليس من رزقه ؛ قد يكون من رزق الطبيب أو الصيدلى . الرزق فى رأى هو ما تنفقه فى معاشنا ، وما نكسبو به أنفسنا ، وما نعلم به أبناءنا ، وما تنفقه فى البرلينفعا فى آخرتنا .
قد يكون لأحدنا مرتب معلوم يا عبود فإذا مات انقطع رزقه .
— ومتى يزيد الرزق على المرتب ؟

فقال حسن وقد لاح فى وجهه الرضا :
— إذا منحك الله صحة وألبس ذريتك ثوب العافية ، فهذا رزق خفى . وإذا بارك لك فى أهلك فهذا رزق خفى . وإن أمدك بقوة تمكنك من الإعراض عن نزوات النفس الأمارة بالسوء فهذا رزق خفى .
ثم ضحك حسن وقال :

— وإذا قبض الله لك زوج ابنة ذا قلب كبير مثل عبود يحمل إلى بيتك الهدايا ، فهذا رزق ظاهر .
ورأى عبود سمكة من الأسماك التى يحملها حسن تريد أن تسقط ، فقال وقد أشرق وجهه ببسمة :

— حاذر يا حسن ، بعض الرزق يريد أن يفلت من بين يديك .
وانسابا سعيدين فى شارع الأمين ، عبود يوسع من خطوه لينسق حركاته

والحرازة المنبعثة من قلبه ؛ فعما قليل سيُقدم هديته إلى بهية ، آسرة الفؤاد .
وحسن يسرع ليلحق بدكان العم فانوس ليلف السمك في ورق جديد ، غير هذا
الورق الذي تمزق وذاب .

وبلغا الدكان ، فوضع كل منهما حمله على الحاجز الخشبي الذي كاد لونه
الأخضر أن يختفى ليحل مكانه طبقة من الزيت امتزجت بالأوساخ ، وراحا
يزفران في راحة ، ومد حسن بصره إلى حيث كان فانوس ، فألفاه يتناول
غداه . كان أمامه دجاجة كاملة ، فقال له حسن في دهشة :

— من أين لك هذا الطعام ؟

فقال فانوس في هدوء :

— من البيت :

فقال حسن ساخرا :

— مستحيل . البيت يكتفى بإرسال دبوس أو جناح أو قطعة من الصدر .

فقال عبود في انشراح :

— هذا رزق ، وأظن أنا أعرف من أين جاء .

ونظر إليه فانوس في تحد ، ولم يأبه عبود لنظرتيه وقال :

— جاء من المستشفى ، جاءت به إنصاف . حرمت منه مريضا وحملته إلى
صاحب القسمة .

فقال فانوس في انفعال :

— وعهد الله لا صلة بين هذا الطعام وبين إنصاف . لماذا تظلمها دائما يا عبود ؟

ثم ضحك ضحكته المجلجلة فجأة وقال :

— بنات الحلال كثيرات ؟

ومد عينيه إلى السمك ، ثم نظر إلى عبود وحسن وقال :

— الحب جميل .

وانفجر ضاحكا ثم قال :

— الزيت موجود . اللهم اجعل فيها زيتا .

وقال له حسن :
— هات فرخ ورق قزاز وثلاثة أفرخ ورق أبيض .
فقال فانوس وهو يقدم له ما طلب :
— وشريط حرير أحمر .
وضحك ثم التفت إلى عبود وقال له :
— لماذا لم تضع في خياشيم السمك ورودا حمراء ، إنها دليل على أن الحب نار .
وجلجلت ضحكته ، وقال له عبود :
— لك حق ، اضحك : إنها راضية عنك .
ورفع فانوس نظره إلى شباك بهية ، ثم استقر على وجه عبود وقال :
— وسترضى عنك لما يصل إليها السمك ، اليوم كله رضا .
وانتهى حسن من لف السمك في عناية ، ثم اتجه إلى المقهى ، وما لبث أن عاد
ومعه صبي القهوة ، فوضع في يديه اللقافة وقال له :
— اذهب بها إلى بيت السيد صديق الفرارحي ، وقل لأهل البيت إنها من
حسن ، فاهم ! إنها من حسن .
— فاهم .
وقال فانوس للصبي :
— وبعد ذلك عد إلى .
وقال حسن لعبود :
— وأنت ؟ ماذا ستفعل ؟
فقال عبود وهو يرفع هديته بين يديه :
— سأذهب بنفسى .
فقال فانوس :
— هذا أجمل .
وسار عبود وهو مسرور ، وراح يصعد في الدرج قفزا ، حتى إذا بلغ شقة
بهية توقف برهة خافق القلب ، وقد سرى في كيانه كله خدر لذيذ ثم طرق الباب

في رفق ، وسرعان ما فتحت الأم الباب ، ولما رأَت عبود قالت :

— تفضل يا عبود ، ادخل يا بني .

فقال في تردد :

— شكرا .

ومد يديه بهديته ، ولم تمد الأم يديها لتأخذها منه ، كانت أعجز من أن تحمل

شيئا ، فنادت في صوت يموج فيه الفرح :

— بهية ! تعالى . عبود هنا .

وخفت بهية إليه وهي تصلح من زينتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خيل

إليه أن نورا غمر المكان كله ، وقالت له في صوت ساحر :

— تفضل .

فقدم إليها هديته وهو يقول :

— تفضلي .

وتناولت منه هديته وعيناها تشعان فرحا ، فأحس بسرور من أذى رسالة هامة !

وتناولت فتحية من صبي القهوة هدية حسن وهي تكاد ترقص فرحا ،

وقالت له :

— انتظر .

وهرعت إلى أمها وهي تقول في غبطة :

— أمي . أمي . تعالى انظري ماذا أرسل لنا حسن .

وجاءت الأم تهرول وراحت تعاون ابنتها في فك اللقافة ، وقالت الأم في ابتهاج :

— سمك !

وتذكرت فتحية صبي القهوة الذي أمرته أن ينتظر ، فقالت لأمها :

— ماذا سنعطى من حمل إلينا النفقة ؟

وكان رنين كلمة « النفقة » في أذني الأم جميلا ، فزاد إشراق وجهها ،

وقالت في رضا :

— تحت وسادة سريري خمسة قروش كنت سأشترى بها جينا ، لم نعد في

حاجة إليها ، أعطيتها له .
وجرت فتحة كالطيف إلى غرفة نوم والديها ، والتقطت القروش الخمسة ،
ثم راحت تهزول إلى الباب ووضعها في يد الصبي وقالت :
— شكرا .

وكان سرورها من أنها أعطت شيئا أعظم من سرورها بالهدية ، وقلت
راجعة إلى أمها وقالت :

— استريحى أنت وسأقوم أنا بتنظيفه .

ف نظرت الأم إليها بعينين ترقرت فيهما الدموع ، وقالت :

— يا ليت كل التعب كهذا يا فتحة !

وانهمكت الأم وفتحة في تنظيف السمك ؛ كان كثيرا ، وكان فاخرا ،

وراحت فتحة وأمها تتجادلان في أنواعه وأسمائه ، وإن اتفقتا على أنه أطيب

أنواع أسماك بور سعيد ، وقالت فتحة في حماسة :

— سمك بور سعيد أحسن سمك في الدنيا .

وسمعت الأم طرقا على الباب فقالت :

— ترى من الذى جاء بنا في هذه الساعة؟! افتحى يا فتحة !

وذهبت فتحة في تثاقل وفتحت الباب ، ومالبت أن صاحت في فرح :

— ما هذا ؟

فقال صبي القهوة :

— هذا من العم فانوس وهو يقول لكم : مبارك .

وحملت فتحة قفص الجريد الذى صفت فيه زجاجات الشراب ، وطارت

به إلى أمها وهى تقول :

— انظرى يا أمى هدية العم فانوس .

ونظرت ورقص قلبها سرورا ، ورفعت عينها إلى السقف وقالت :

— الحمد لك يارب ، والشكر لك .

ثم أسبلت جفניה وقالت في صفاء :

— الحمد لله . الدنيا بخير .

وعادت البنات من مدارسهن ، وامتألت خياشيمهن برائحة السمك ،
واتسعت عيونهن من الدهش ، وتحركت الألسن في الأفواه ، وانهاالت الأسئلة :
— هل رقى أبى ؟ مبارك .

— علاوة الترقية لا يمكن أن تشتري كل هذا السمك يا عبيطة ! من أين جاء
كل هذا ؟

فشمخت الأم بأنفها وقالت وهي مسرورة :

— رزق ساقه الله الينا .

— ولماذا لا يرزقنا بمثل هذا الرزق كل يوم ؟

وزاحت البنات يقفزن حول أمهن وفتحية في فرح ، وتقول إحداهن :

— والله يا أمى قولى : من أين جاءنا كل هذا السمك ؟

ولاح في وجه فتحية غبطة وإن ظلت صامتة ، وإن كانت تقول في نفسها :

« قولى لمن يا أمى إنه هدية حسن إلى . إلى فتحية . يا حبيبى يا حسن ! » .

وقالت الأم وهي تكاد تطير فرحا :

— إنها نفقة فتحية .. بعث بها حسن .

وتعلقت عيون الفتيات بأختمهن وقد تبدلت نظراتهن إليها ، كانت لكبارها ،

وهرعن إليها وكل منهن تصيح :

— مبارك . مبارك يا فتحية . مبارك يا أختى ... مبارك يا أبله .

وانفعلت الأم بسرور لبناتها حتى كادت تبكى ، وقالت وقد تركز في صوتها

كل ما في الإنسان من مشاعر نبيلة رقيقة :

— العقبى لكن . اذهبن الآن واخلعن ثيابكن حتى لا تعلق بها رائحة

السمك ، وتعالين لتحملن للجيران نفقة فتحية .

وأسرع البنات يستيقنن إلى حجرتهن ، ورحن يبذلن ملابسهن في نشوة

كان حدثا عظيما أن يأتي اليوم الذى يوزع فيه طعاما على الجيران ، هن اللاتي لم

يشبعن أبدا من طعام طيب وضع أمامهن !

- وعادت الفتيات إلى المطبخ يتصالحن :
- أين ما سأوزعه ؟
- أنا التي سأحمل هديتنا لأم حسين .
- وقالت فتحية :
- لا تنسى يا أمى صبي القهوة ، فهو الذى جاءنا بالسّمك والشربات .
- وارتفعت أصوات الفتيات قائلة :
- شربات ؟ وأين هو ؟
- وقالت فتحية فى زهو :
- تحت سرير بابا .
- ومن الذى أرسله ؟
- حسن طبعا ؟
- أبدا . العم فانوس .
- العم فانوس !؟ غير معقول ، إنه يرفض أن يعطينى قطعة حلوى بعد أن أشتري منه السكر والشاي .
- وابتسمت الأم وقالت :
- الشغل شغل . الرجل طيب وابن حلال .
- وقالت فتحية :
- وإنسان .
- فقال إحدى الفتيات فى حُبث وهى تنظر إلى فتحية نظرة خاصة :
- طبعا .
- وهرعت بعض الفتيات ليشاهدن زجاجات الشربات الموضوعة تحت السرير ، وقالت فتاة :
- هاتى نصيب أم حسين .
- فقالت الأم :
- انتظرى حتى يعود بابا ويرى الهدية كلها .

وسمع طرق على الباب ، فصاحت الفتاة قائلة :
بابا جاء .

ورن صوتها في أرجاء الشقة ، فخف كل من فيها لاستقباله ، وما إن وقعت
عيونهن عليه حتى حاولت كل منهن أن تسبق الأخريات في أن تزف إليه النبا
العظيم ، وارتفعت الأصوات وامتزجت :

بابا . أرسل لنا حسن هدية .

سمك كثير .

وشربات . أرسله العم فانوس .

تعال .. تعال يا بابا .

وذهب الأب إلى المطبخ وألقى نظرة على السمك ، ودخل غرفة نومه وأهل
بيته كلهن حوله ورأى الشرابات . ثم غادرته الأم وبناتها ليوزعن النفقة على
الجيران ، وبقي هو وحده صامتا وإن مس شغاف قلبه ما قام به فانوس ؛ كان
أكثر مما يحظره على بال .

وعقب الجري هنا وهناك ، وخروج الفتيات بالهدايا وعودتهن وهن يحملن
من الجيران أطيب التمنيات ، جلس الجميع حول السفرة وأكلوا . وامتلاأت
البطون بطعام شهى ، والمشاعر بعواطف رقيقة زاخرة بالرضا والانشراح .

وذهب الأب والأم إلى غرفتهما ، وتكدست الفتيات الخمس في غرفتهن ،
وأخذن في مداعبة فتحية والتحليق معها في دنيا الأحلام . ثم قامت أصغرهن تقلد
الشيخ حسن ، فقامت إليها فتحية وهي مسرورة ، وقبضت عليها وراحت
تضربها في حنان على مؤخر ظهرها ، والأخريات غارقات في الضحك .

وبلغت الضحكات منساع صديق فانبسطت أساريره ، وسرعان ما فر
انشراحه وعاد إليه خوفه وراح يتساءل : إن كان حسن قد أدخل السرور على
قلوبهن اليوم ، فمن ذا الذى سيدخله على قلوبهن غدا ؟ ، من أين لى تكاليف هذا
الزواج . ورطنى عبود والأمر لله .

وقبل الغروب سمع طرق على الباب ، فخفت فتحية لاستقبال القادم ، بيد أن

- أختها الصغرى سبقتها وفتحته ، وقالت في صوت عال :
— تفضلي .
وسمعت الأم صوت ابنتها فهضت من نومها وهي تقول :
— جاءنا ضيوف .
وهرعت لاستقبال الزوار ، فرأت فتحية تعانق إنصاف وتقول لها :
— تفضلي . العقبى لك . نشرب شرباتك قريبا إن شاء الله .
وقدمت إنصاف إلى فتحية لفافة وهي تقول :
— تفضلي أرجو أن تعجبك .
قالت الأم :
— سلمت يدك .
وهمت البنت الصغرى بأن تتناول اللفافة من أختها وتفتحها لترى ما بها ،
ولكن الأم نظرت إليها نظرة زاجرة فانكمشت .
وقالت إنصاف وهي تتأهب للانصراف :
— أستاذن . ميعاد العيادة جاء . ربنا يتنم أفراحكم بخير .
وقالت الأم وهي تمسك بها :
— والله لن تمشي قبل أن تشرني الشربات .
والتفتت إلى فتحية وقالت :
— الشربات يا فتحية .
وذهبت فتحية وجلست إنصاف ، وجلست الفتيات الأخريات يداعين
جميعا أمل أن يشربن الشربات مع الضيفة التي جاءت بهدية ، إلا أن ذلك الأمل
لم يعيش طويلا فقد عادت فتحية تحمل كأسا واحدة في يدها .
وقالت إنصاف وهي تنهض لتنصرف :
— نشرب شربات عوضك .
وقالت الأم في طلاقة :
— تشرني المغات إن شاء الله .

وانصرفت لإنصاف ، وما أغلق الباب خلفها حتى انقضت الفتيات على اللقافة وأخرجن ما بها . وما لبثن أن نظرن مشدوهات ؛ كانت ملابس داخلية من الحرير ، في لون الفسدى ، وكانت مشغولة برسوم دقيقة أنيقة ينشرح لها صدر المراهقات !

وحملن الهدايا إلى الأب وهن يتصايجن ، وقالت الأم في قهر :

— يا للكسوف ! لم ترسل لإنصاف شيئا من النفقة .

وقالت البنت الصغرى :

— لن ننساها في المرة القادمة .

وانشاحت فتحية وقالت في نفسها : « إن شاء الله » ، ورفت على فم الأم بسمة ، بينما شرد صديق يفكر في هذا الأمر الجديد الذى لم يعمل له حسابا .

وجاءت جانيت ولم يقابلها من الأسرة غير الأم وفتحية ، أما باقى الفتيات فقد قبعن في حجرتهن صامتات وإن أرهفن السمع ، وكن يغالبن رغبتهم فى الضحك لطريقة جانيت فى نطقها العربى ، كانت تتحدث عن مرجان وكيف أنها أمرته بأن يغلى اللبن فتركه على النار حتى فار .

وقدمت جانيت إلى فتحية عشرة جنيهات ، وقالت لها :

— هذه هدية من توفيق ، كلفنى أن أشتري بها شيئا ؛ ولكنى فضلت أن

أقدمها لك لتشتري ما تحبين .

وراح صديق يغلو ويروح فى غرفته وهو يفكر فيما قدمه الأصدقاء ، فتأثر

وفاض تأثره حتى إن دموعه جرت على خديه .

كان بيت توفيق يأتلق النور ، وكانت جانيت تشرف على إعداد المائدة وتعاون مرجان على تنسيقها ، وكان مرجان يغلو ويروح بين المطبخ وغرفة السفرة وقد أرهف سمعه ليصغى إلى نشرة الأخبار المداعة من الراديو ، فقد أصبح مهتما بمعرفة ما يجرى من أحداث فى البلاد ، كان الراديو يشن حملة عنيفة على

نورى السعيد وحلف بغداد .

واطمأنت جانيت إلى تنسيق كل شيء ، فاتجهت إلى غرفة الاستقبال وقالت :
— تفضلوا .

ونفض وليمز ومسيو فاجولى وساروا إلى غرفة الطعام ، وراحوا يستأنفون
حديثهم ، قال وليمز :

— أنا معجب بنورى السعيد وبن جوريون ، فهما سياسيان مخلصان .

فقال توفيق فى سخريه :

— أنت معجب بهما لأنهما يخدمان سياسة بريطانيا .

فقال وليمز فى حماسة :

— أبدا . سر إجمالى أنهما يعرفان كيف يخدمان بلادهما دون أن يقيما وزنا
لرأى الجماهير ؛ فنورى السعيد هاجم الحياذ الإجمالى فى شجاعة هنا فى قلب
القاهرة ، وبن جوريون خرج من عزلته وقبض على غريمه لافون وزير الدفاع
ونحاه عن السلطة .

وقال مسيو فاجولى ، وهو يمرر يده على شعره الأبيض :

— ألم يتفق نورى السعيد مع عبد الناصر على تقوية ميثاق الضمان الجماعى
العربى ، وعلى عدم توقيع أية معاهدة غير عربية قبل أن يخطر جمع الدول الأعضاء
فى الميثاق ؟

وقال توفيق :

— اتفق على شيء ونفذ غيره ، أهذه هى السياسة المضحكة ؟

قالت جانيت وهى تجلس :

— كل ما أخشاه أن تخطئ بريطانيا وتنضم إلى هذا الحلف .

فقال وليمز وهو يضحك :

— وماذا ستخسر بريطانيا لو انضمت إليه ؟

قالت جانيت فى إيمان :

— ستخسر صداقة الشعوب العربية ، وقد تحدث كارثة فى العلاقات بين

(م ٧ — السهول البيض)

بريطانيا والجيل الصاعد من العرب .
وضحك وليمز وأغرق في الضحك ، ثم قال :
— لا خوف على بريطانيا في هذه المنطقة ، مادامت أمورها في أيدي ساسة
محنكين مثل نوري السعيد وبن جوريون .
فقالت جانيت في مرارة :

— هذا الوهم الذي سيقطع أواصر العلاقات الطيبة بين الشعوب العربية
وإنجلترا ، وإني أحب إنجلترا وأحب مصر وأحب أن تدوم أطيب العلاقات
بينهما ، ولن تدوم هذه العلاقات إلا إذا فهم الساسة الإنجليز حقيقة مشاعر الجيل
الصاعد من أبناء العرب .
وقال توفيق في رنة ساخرة :

— وليمز يجب أن تظل قبضة إنجلترا قوية في هذه المنطقة ، لذلك فهو يمتقت
كل الحركات المتحررة .
فقال وليمز دون أن ينفعل :

— إني أحب هذه البلاد وأحب الخير لها . وإن أعز أماني أن أموت بها ، قد
لا تصدقون هذا ، ولكنه الحقيقة ، وإني أؤمن أن خير هذه البلاد والبلاد العربية
جمعاء أن تدوم الصداقة بينها وبين إنجلترا . والله لقد حاولت أن أفهم معنى الحياض
الإيجابي الذي يدعون إليه ، فلم أفهم شيئا . كيف تستطيع مصر أن تقف على
الحياض بين قوى الشرق وقوى الغرب المتصارعة ؟ ستجتاحها إحدى القوتين ،
فعل مصر أن تختار أن تكون معنا أو علينا ، هذا ما أفهمه .
والتفت إلى مسيو فاجولي وقال له :

— هذا رأيي فما رأيك أنت ؟

فقال مسيو فاجولي :

— هذا رأي الشيوخ ، ولا أظن أن آراء الشيوخ تعجب الشباب في هذه
الأيام .

فقالت جانيت :

— تعلم يا مسيو فاجولى أنى متهمة بدراسة منطقة الشرق الأوسط والشعوب العربية بنوع خاص ، فبعد عودتى مع توفيق من إنجلترا عكفت على دراسة المجلات التى تصدر فى القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، وقد استرعى انتباهى مجلة « الفكر الجديد » ، مجلة كانت تصدر فى القاهرة إبان حرب فلسطين ، ولم يكتب لها الانتشار . كتبت هذه المجلة أثناء معركة فلسطين ، أيام كان الملك عبد الله قائدا للجيش العربية ، « اقتلوا الملك عبد الله » كانت تشم رائحة الخيانة ، ورسمت رسوما كاريكاتيرية للتنديد بالأحلاف ؛ رسمت جون بول وقد قيد مصر وسوريا ولبنان والعراق والسعودية والأردن بسلاسل من حديد ، وكتبت تحت الصورة « الدفاع المشترك » . وكانت تدعو إلى وحدة عربية وتهاجم الإقطاع ، كان ذلك سنة ١٩٤٨ ، وكانت المجلات السورية فى ذلك الوقت تتحدث عن القومية العربية ، وكان العراقيون الشبان يحملون بالبعث وبالقومية . إن جمال عبد الناصر ليس وحده الذى يدعو إلى الحياد وإلى الوحدة ، ولكنه يمثل هذا الجيل الثائر من الشبان ، ومن المؤسف أن السياسة البريطانيين لم يقدرها هذه الاتجاهات حق قدرها .

فقال وليمز :

— فورات شباب . الوحدة العربية حلم راود سياسة العرب الشبان فى كل الأجيال .

فقال توفيق :

— شباب اليوم من الثوار .

— ستخدم الثورة المشبوبة فى جوانحهم على مر الأيام ، وسيصبحون محنكين .

فقال توفيق فى سخرية :

— كنورى السعيد .

فقال وليمز فى ثبات :

— كنورى السعيد وغيره من السياسة الموالين للديمقراطية .

فقال جانيت فى ضيق :

— إن كان هذا هو فهم السياسة البريطانيين للحركات التحررية هنا وفي البلاد العربية ، فعلى بريطانيا العظمى السلام .

فقال ويمز :

— كنا ننتظر من عبد الناصر بعد أن وقعنا معه اتفاقية الجلاء ، أن ينضم إلينا أو يسكت على الأقل ولا يهاجم حلف بغداد هذا المهجوم القاسى المرير .

فقال توفيق :

— عيب الحكومة البريطانية أنها لا تزال تنظر إلى الثوار الذين يحكمون مصر الآن ، نظرتها إلى السياسة القدامى .

فقال ويمز ساخرا :

— أبدا ، جافاك الصواب في هذا الرأى ، فبريطانيا تعاملهم وهى على يقين من أن السياسة القدامى أكثر منهم حنكة وأعظم دراية بأمور السياسة .

فقلت جانيت وهى تكاد تتلوى من الألم :

— من هنا ستأتى المصائب . أرجوك يا ويمز من أجل بلادك أن تنسى تجارب الماضى ، وأن ترقب الأمور بعقلية جديدة متحررة .

وقال توفيق فى حماسة :

— وأن تؤمن بأن هؤلاء الشبان لن يكتبوا تاريخ بلادهم بأقلام بريطانية ولا بأقلام روسية ، بل بأقلام وطنية ، ولن يوقعوا على شىء إلا إذا كانت فيه مصلحة بلادهم .

فقال ويمز هازئا :

— ياليت ؟ أين لشيخ مثل انطعت فى سريرته تجارب الماضى مثل هذه

العقلية المتفتحة المتحررة !

والتفت إلى فاجولى وقال :

— وأين لأمثالنا نحن الشيوخ مثل هذه الحماسة المتقدمة ؟

وقال فاجولى وهو يقطع قطعة اللحم التى وضعها مرجان فى الصحفة أمامه :

— إنى لا أفهم كثيرا فى السياسة ، فمجالى التجارة والاقتصاد ، ولقد لمست

تغييرا في سياسة الحكومة الجديدة حيال الشركات ؛ أرسلت وزارة التجارة والصناعة لجنة لتقوم شركة الملح بيور سعيد ، وتدخلت الحكومة في إعادة تقويم أصول شركة السكر .

فقال توفيق :

— تعلم يا مسيو فاجولى أن لشركة السكر وضعها خاصا ، وأن هناك نزاعا بينها وبين مصلحة الضرائب على تقدير قيمة أصولها .

فقال فاجولى فى تحد :

— وشركتنا ؟

فقال توفيق :

— رأيت الدولة إدماج شركة الملح بالإسكندرية وشركة الملح بيور سعيد لتقضى على التنافس الضار بينهما فى الأسواق الخارجية ، وذلك خدمة للاقتصاد القومى .

فابتسم مسيو فاجولى ابتسامة باهتة وقال :

— أنا واثق أن ذلك سياسة دولة ، خطة مرسومة للسيطرة على نشاط الشركات والمصانع وكل أدوات الإنتاج وشرايين الاقتصاد .

فقال وليمز :

— لو فكرنا هذا التفكير لمنحناهم مواهب أكثر من مواهبهم الحقيقية .

فقالت جانيت وهى تنظر إلى وليمز نظرة عتاب :

— عيبك يا وليمز أنك لا تقدر هؤلاء الثوار حق قدرهم ، آه لو كان ساسة بريطانيا كلهم مثلك ، لكانت الكارثة .

فقال وليمز :

— الحمد لله أنك لست فى وزارة الخارجية البريطانية ، وإلا لأشرت بأن ندعن لمطالب هؤلاء المتطرفين .

فقال توفيق فى سرعة :

— من سوء حظ بريطانيا أنها ليست هناك فى وزارة خارجيتها .

فقال وليمز مازحا :

— بل من سوء حظ مصر أنها الآن هنا وليست هناك .

ولم تأبه جانيت لقوله ، بل قالت :

— غرسنا في قلوب شباب العرب جميعا بذور الكراهية لبريطانيا يوم ساندنا

قيام إسرائيل ، فلا نسقها بحماقاتنا .

— أنا أعرف بهذه الشعوب منك ، إنها شعوب طيبة القلب ، سريعة النسيان !

فقالت جانيت :

— لن نجنى إلا ما زرنا .

وقال توفيق :

— لا شك أنك تعرف أن هناك أزمة عدم ثقة بين الجيل الجديد من العرب

وبين كل من بريطانيا وأمريكا .

فقال وليمز وقد توقف عن الأكل :

— أعتقد أن هذه الأزمة قد انقشعت بعد توقيع معاهدة الجلاء .

فقال توفيق :

— أبدا ، وستظل الأزمة قائمة مادامت إنجلترا وأمريكا ودول الغرب تضيق

على البلاد العربية الخناق وتمنع عنها الأسلحة ، بينما تغدق الأسلحة على إسرائيل .

— إننا نحافظ على توازن القوى في هذه المنطقة .

— إنكم تدللون إسرائيل ، هذا ما يغرس المرارة في نفوسنا .

قال وليمز :

— كيف ؟

قال توفيق :

— جاء إلى بلادنا إرهابي إسرائيلي ، وادعى أن اسمه جون دارلنج ، ونظم

شبكة تجسس وتخريب . وقد قام رجاله بضرب السفارة الأمريكية بالقنابل ،

وكان هدفه أن يعمل على إساءة العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة ، ومن

حسن الحظ أن انكشف أمره ، وإلا لحاولت أمريكا أن تفعل ما فعلته إنجلترا بنا

يوم قتل السردار ، فطردت الجيش المصرى من السودان ، وفرضت عليه فدية مقدارها نصف مليون من الجنيهات ، أيام أن كانت قدرة الجنيه الشرائية عشرة أمثال قدرته اليوم . فلما عرف أن إسرائيل المدللة هى التى دست هذه القنابل سكنت صحف أمريكا وصحف الغرب عن فعلتها الشنعاء .

فقال وليمز :

— أنت تبالغ يا توفيق ، فقد استنكرت كل صحف الغرب ما قامت به إسرائيل .

— استنكار فاتر ، لتغطية المؤامرات التى تدبر بين إسرائيل والغرب لتوهين

قوى العرب .

فقال وليمز :

— لا أظن .

فقالت جانيت :

— العرب معذورون لو اعتقدوا أن الغرب كله يتآمر مع إسرائيل عليهم ،

فكل يوم يكشفون هنا وفى سورية وفى العراق مؤامرات إسرائيلية تباركها السلطات الغربية وتعاونها بكل أسلحتها .

— هذا افتراء يا جانيت .

— وما قولك يا وليمز فى أحدث الأجهزة اللاسلكية الأمريكية السرية التى

ضبطتها السلطات السورية وقد دستها إسرائيل تحت أعمدة التليفونات

العسكرية ، لتنتقل أوامر القيادة السورية بدمشق إلى قلب إسرائيل ؟ من أين

لإسرائيل مثل هذه الأجهزة الأمريكية التى تعتبر من أخطر أسرارها الحربية ؟!

فقال وليمز :

— تعلمون أن اليهود الموالون لإسرائيل مندسون فى كل مرافق الولايات

المتحدة .

فقال توفيق :

— أكانت أمريكا تسكت على خياناتهم ، إن لم يكن ما نعتقده نحن خيانة ،

يتفق مه أهداف الولايات المتحدة ويتسق مع أهوائها ؟!

وانتقل الحديث إلى بن جوريون وابنه عاموس ونفاقه ، وكيف ظل محتفظا
بجنسيته البريطانية على الرغم من إقامته في إسرائيل وشغله مركزا مرموقا بها ،
وكيف يستغل الإعانات الأمريكية لمصلحته ، وكيف يتستر بن جوريون على
فضائح ابنه ، من رشوة واتجار في الحشيش والتهرب وحماية بيوت الدعارة
وتجارة الرقيق الأبيض وعصابات السرقة . وتشعب الحديث حول الفجور في
إسرائيل ، والمعارك بين المسيطرين على أسواق الرذيلة ، وسردت قصة « إيدا »
الغانية الإيطالية اليهودية التي كانت تمتلك في موانئ إيطاليا بيوتا وفنادق تدار
للدعارة ، وكيف انتقلت إلى إسرائيل لتنافس عاموس في حقل الفساد الذي كان
يحتكره وحده دون منازع ولا شريك !

وانصرف الضيفان ، وخفت الأصوات ، وتناولت جانيت كتابا وعكفت
تقرأ فيه ، وراح توفيق يتصفح صحف اليوم ، وما كان يعكر الصمت
إلا أصوات الأواني والصحاف التي كان يغسلها مرجان في المطبخ . وما لبثت
تلك الأصوات أن ماتت وخيم على الدار سكون عميق .
هتك غلالة الصمت فجأة صوت مرجان وهو يدير حديثا بينه وبين آخر ،
فالتفت جانيت إلى توفيق في دهش وقالت :

— مع من يتحدث مرجان في هذه الساعة ؟

فقال توفيق وهو ينهض :

— لست أدري .

ونحت جانيت الكتاب . جانبا ثم سارت مع زوجها إلى حيث كان مرجان ،
فوجداه نائما يروى بصوت عال كل ما جرى في يومه ، قال :

— لا . لا يا عم عثمان . أقة الكوسة ستة قروش ، والجزر أربعة قروش ،
والطماطم خمسة قروش . والله لن أدفع أكثر من هذا . لعنة الله على الإنجليز ،
فهم سبب هذا الغلاء .

والتفت توفيق إلى جانيت وابتسم ، وقال مرجان :

— خذ . خمسة عشر قرشا ، والله العظيم لن أدفع غير هذا .. السلام عليكم

يا عم سرحان .. ثلاثة أزواج حمام على مزاجك ، عندنا اليوم خواجات يأكلون مال النبي ، والله يا عم سرحان لا يعرف فوائد الحمام إلا أولاد البلد . كم ؟ لا . يا عم سرحان ، هذا ثمن خروف ... خذ تسعين قرشا .. والله لن أدفع مليما أكثر من هذا .. يا ولد يا محمود ، لعنة الله عليك ، اللحم لم يعجب الست ، أريد عرق فلتو ممتاز .. خذ .. خمسين قرشا .. أريد موزا أطيب من هذا . مغرى بنقطة .. ثلاث أقات .. هات القرش يا حرامي . أعطيتك خمسة وعشرين قرشا . وصمت مرجان وانسل توفيق وجانيت من الغرفة وهما يتسلمان ، ولما عادا إلى مكانهما ، قال توفيق لزوجته :

— كم أعطيته اليوم ليشتري هذه الحاجات .
— جنيهان .

وتناول توفيق قصاصة ورق وراح يدون أثمان اللحم والحمام والخضر والفاكهة . وفي الصباح انطلق توفيق وجانيت إلى حيث كان مرجان ، وقال له توفيق :

— هات واحدا وعشرين قرشا ، باقى حساب الأمس .

ونظر إليه مرجان بعيون مفتوحة دون أن ينبس بكلمة ، واستمر توفيق يقول :
— أقة كوسة ستة قروش ، أقة جزر أربعة قروش ، أقة طماطم خمسة قروش ، ثلاثة أزواج حمام تسعون قرشا ، أقة لحم خمسون قرشا ، ثلاث أقق موز أربعة وعشرون قرشا ، المجموع مائة وتسعة وسبعون قرشا ، وقد أعطتك الست جنيهين وبذلك يصبح الباقي واحدا وعشرين قرشا . أليس كذلك ؟
فقال مرجان وهو أشبه بالمذهول :

— تمام .

وغادرهما وهو يتلفت فى حيرة ، وذهب إلى غرفته وما لبث أن عاد بالمبلغ وقدمه إلى توفيق ، وقال وهو لا يزال غارقا فى دهشته :

— تفضل .

وتناول توفيق المبلغ ، وجانيت تجاهد لتكتم ضحكاتها التى تود أن تنطلق .

كان الكون لا يزال نائما في عماية الصبح ، وكانت بهية في سبات ، وإن رفت على شفتيها بسمة رقيقة تنم عن روعة ما تهيم فيه من أحلام ، كانت تحس إحساسا صادقا أنها في أحضان عبود وأنهما يتبادلان أعذب القبل .
وسمعت صوت أمها تناديهما في وهن ، فاختلط عليها الأمر ، لم تكن تدرى أكانت لا تزال في أحلامها أم أن ما تسمعه حقيقة . وأرهفت أذنيها فإذا بالنداء يتكرر :
— بهية ! بهية !

لم يكن نداء عاديا بل كان استغاثة على الرغم من خفوته وضعفه ، ودق قلب بهية خوفا ورهبة ، وزلزلت من الرأس إلى القدم وهبت مذعورة ، فقد استشعرت في أعماقها الخطر المحيق بأبوابها الحبيبية ، وهرعت إليها ملهوفة ونظرت إلى وجهها الذابل ، وكان في صفته يحاكي وجوه الموتى ، وقالت لها :
— أمي ! ماذا جرى ؟ بماذا تحسين ؟

فقالته الأم في جهد ، وهي تشهق كأنما تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة :
— صدري .. صدري ضاق .

وراح صدرها يعلو وينخفض ، فقالت لها بهية وهي تكاد تموت من الخوف :
— سأغلي لك ينسونا .

وذهبت تعد لها ينسون وهي تحاول أن تستجمع شتات أفكارها . ماذا عليها أن تفعل ؟ « اذهبي يا بهية إلى عبود واطلبي منه أن يأتي ليقف إلى جوارك . لا يا بهية ، ماذا يقول الناس إذا رأك أحدهم وأنت تدقين بابه في هذه الساعة ؟ أمك ليست في حاجة إلى عبود . إنها في حاجة إلى طبيب يا بهية . اذهبي إلى إنصاف . هذا هو الرأي الصائب . إنصاف ممرضة وستعرف ماذا ينبغي أن تفعل . إذا وجدت أن الحالة تستدعي وجود طبيب ، فهي تعرف كيف تحضر الدكتور حازم . الدكتور حازم يعرف حالة أمي وهي تثق به وتقول له : إن دخولك على يا بنى يزيل كل آلامي . لو كانت أمي شابة لقلت إنها تحب

الدكتور حازم . بهية . اذهبي إلى أمك وانظري ألا تزال تتنفس .
وانسابها خوف ، وخفت إلى حيث كانت أمها وراحت تفحص عنها
بعيون قلقة ، فألفتها تلتقط أنفاسا متلاحقة . وأرادت أن تتأكد من أنها مالكة
لحواسها ، فقالت لها في صوت حاولت أن يبدو هادئا :

— كم قطعة سكر أضع لك في الينسون ؟

فقالت الأم في جهد :

— واحدة .

ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلب بهية ، فراحت تنظر إلى نافذة عبود
ببصر زائع ، لعلها تلمحه فتناديه ليسعف أمها التي تنوء من الضعف ، بيد أنها لم
تر إلا الفضاء فزادت وحشتها واشتد وجيب فؤادها ، وأحست رغبة ملححة في
الفرار إلى الناس .

وحملت فنجان الينسون إلى أمها ، فرشفت منه رشفة واحدة ، ثم زمت
شفتيها وتفصد من جيبيها عرق بارد . ونادتها بهية في هلع :

— أمي .. أمي .. ماذا بك ؟

فقالت الأم في ضعف وصدرها يرتفع وينخفض في تتابع سريع :

— الدكتور .. الدكتور حازم .

وجرت بهية وهي حائفة ، وفتحت الباب وهبطت في الدرج كأنما يعدو في
أثرها شيطان . وانسابت في الطرق إلى بيت إنصاف وإن كانت أصوات في
أغوارها تهتف بها أن بيت عبود أقرب .

ودقت باب إنصاف دقات تم عما يعتمل في صدرها من إحساسات ، وسرعان
ما فتحت إنصاف الباب ، ولما رأت بهية وما في عينيها من خوف قالت :

— خيرا ؟

فقالت بهية وعبراتها تخنقها :

— أمي يا إنصاف . ضاق صدرها حتى إنها لم تستطع أن تشرب فنجان

الينسون ، وهي تطلب الدكتور حازم .

— ومن معها الآن ؟

— لا أحد .

— اذهبي إليها وسأتي بالذكور حازم وألحق بك .

ودارت بهية على عقبيها ، وقد أخذت مخاوفها تزداد : « ماذا تفعلين يا بهية لو عدت إليها ووجدتها جثة هامدة ؟ آه يا أمي .. آه يا حبيبتى . ليس لى فى هذه الدنيا غيرك . ومأمون ؟ وعبود ؟ أين أنت يا عبود لتقف إلى جوارى فى محنتى ؟ هل سينخلع قلبك إذا ما انطلق صوتى معلنا موت أمى .. لا . لا . أمى لن تموت . ستبقى لتفرح بفرحى . أبى مات . أما أمى فستبقى لتفرح لى وتفرح بمأمون وبأولادنا من حولنا » .

وانسابت إلى حيث كانت أمها راقدة ، وقلبها يدوى فى صدرها ، ونظراتها زائغة . وركعت إلى جوارها وتظاهرت بأنها تمرر يدها على وجهها حنانا ، بيد أنها كانت تريد أن تحس أنفاسها الواهنة وهى تتردد على يدها ليطمئن قلبها ، وقالت فى انفعال :

— أمى ! ذهبى إلى إنصاف لتحضر الدكتور حازم . سيكون هنا بعد

قليل . أنت بخير يا أمى . أنت أحسن الآن . أليس كذلك يا أمى ؟

وهبطت إنصاف إلى الشارع وسارت توسع من خطوها ، حتى إذا ما بلغت بيت عبود وقفت برهة وهى مترددة . ثم دلفت إلى بيت عبود وراحت تصعد فى الدرج قفزا ، وطرقت الباب بيد ثابتة ، وما لبثت أن بلغها صوت عبود يسأل فى صوت يغالبه النوم :

— من ؟

— أنا إنصاف .

ودهش عبود واستشعر شيئا من الاشمعزاز ، إلا أن الخوف غمر كل ما عداه ، وزاد فى رهبة جرأة الفتاة التى تطرق بابها فى مثل هذه الساعة ، وتقدم خافق القلب ، زائغ النظرات ، يشعر بغثيان ، ويفكر فيما يفعله لو أنها اقتحمت الباب ودخلت شقته دون أن تأبه لما يظهر فى وجهه من امتعاض !

وبلع ريقه ووقف لحظة يجمع شتات أمره ، ثم فتح الباب وتعمد أن يسده بجسمه ، ورأى إنصاف أمامه فارتبك ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة ، وقالت إنصاف :
— صباح الخير . آسفة إن كنت أيقظتك ، ولكن المرض اشتد على أم مأمون ، فجاءت بهية إليّ وطلبت مني أن أستدعي الدكتور حازم ، وقد رأيت أن أبلغك لتقف مع بهية إلى أن يأتي الدكتور .

ودارت على عقبيها وهي تقول :

— سأخذ تاكسي وأعود بالدكتور حالا . السلام عليكم .

وقال وهو يسرع ليرتدى ثيابه :

— وعليكم السلام .

وفي مثل لمح البصر ارتدى ملبسه : « فزعت بهية إلى إنصاف لتطلب منها استدعاء الدكتور ، لا بد أن أمها تموت . لماذا يا بهية لم تلجئي إليّ ؟ خفت عليّ من الفزع . لو طرقت بابي لمتّ من الرعب » .

ولفح هواء الطريق وجهه ، واستقبلته رطوبة مدخل بيت مأمون ، وسرت فيه رعدة وهو يطرق الباب في لهفة ، ومرت عليه لحظات كأنها دهر ، تململ فيها وتلفت وفرك يديه ومسح وجهه بكفه أكثر من مرة ، وفتح الباب ورأته بهية ، فقالت في نبرات حية كأنما كانت تغرق ومدت إليها يد لتنتشلها :

— عبود ! تفضل .

— كيف حال خالتي ؟

— أحسن .

— قالت لي إنصاف إنك طلبت منها أن تحضر الدكتور .

— ضاق صدرها واضطرب نفسها ، وأصبحت عيناها كالزجاج فخفت .

وسارا على أطراف أصابعهما حتى وصلا إليها فألفياها خاشعة ، فقالت بهية

في همس :

— نامت .

وأشارت إلى مقعد بالقرب من السرير ، وقالت :

— تفضل .

وجلس وهو ينظر إلى أم مأمون المسجاة أمامه ، وجلست بهية ، وغرق المكان في الصمت ، بيد أن حركة عارمة كانت تموج في حنايا عبود وبين أضلع بهية . كان عبود يفكر فيما سيكون لو أن أم مأمون ماتت ، سيتأخر زواجه حتى تنقضي أيام الحداد ، ولن يستطيع بعدها أن يقيم الفرحة الذي يتراءى له في خياله . كان قد اتفق على أن يتزوج هو وحسن في ليلة واحدة ، وقد نذر أصدقاؤهما في الشركة أن تكون ليلة زفافهما ليلة من ليالي العمر ، وها هي ذى أم مأمون تموت لتقوض كل أحلامه .

وراحت بهية تفكر في حالها لو أن أمها ماتت ، ستتجرع كأس اليتيم المريرة . وأحست غصة وكادت دموعها تجري على خديها ، إلا أن صوتا زاجرا انبعث من أعماقها يقول لها : لست أول من ماتت أمها ومات أبوها ، تيمم عبود قبلك وعاش وحيدا . سيكون عبود عما قليل أبك وأمك وكل دنياك . لا . لا ياربنى . كانت أمنية أمى أن تفرح بى . أبقها يارب حتى تفرح .

وتحركت الأم حركة خفيفة ، فهرعت إليها بهية وقالت لها فى حنان :

— أتريدين شيئا يا أمى ؟

فقالت الأم فى صوت خافت :

— أشرب .

وجاءت بهية بكوب ماء ، وحاولت أن ترفع رأس أمها بيدها فأسرع عبود يعاونها على رفعها ، ورأت الأم عبود فانبسطت أساريرها ، ومدت يدها ووضعها على يده وضغطت ضغطة واهنة ، إلا أن عبود أحس وقعها فى سويداء قلبه . وسمع طرق على الباب فقالت بهية :

— الدكتور حازم .

وهرع عبود يستقبله ويقوده إلى حيث كانت أم مأمون . وضايقه أن إنصاف سبقتة وأن مفاتها كانت تترنح ، وزادت فى ضيقه أن وهمه راح يؤكده أنها تتعمد أن تسير أمامه لتعرض فتنتها .

كان الدكتور حازم شابا ، معتدل القامة ، أبيض الوجه ، يميل لون شعره إلى الصفرة ، وكان أبرز ما فيه خفة روحه ، يألفه الناس سريريا ، وقد استراح له عبود وما كان يعكر ذلك الإحساس الطيب الذى أحسه نحوه إلا معاملته اللينة لإنصاف ، حتى أنه راح يتصور وجود علاقة بينه وبينها .

وراح الدكتور يفحص عن المريضة ، وكان وجهه كمرآة صافية تعكس كل انفعالات نفسه ، وقد رأى فيه عبود خطيرة الحالة التى يفحصها ، فاختلس نظرة سريعة إلى بنية فألفاها مشغولة عنه بحديث خافت بينها وبين إنصاف ، فاستراح لأنها لم تفتن إلى ما فطن إليه .

ونحى الدكتور حازم السماعة الطبية عن أذنيه ، والتفت إلى بنية وقال لها :
— يجب ألا تتحرك أبدا من فراشها .

وصمت لحظة ثم قال :

— وحتى السرير يجب ألا تصعده أو تنزل من فوقه . من الأفضل أن تنام فى فراش على الأرض .

ودنا منه عبود وهو يكتب الدواء ، وقال هامسا :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟

— قلبها ضعيف جدا ، وأى حركة تضرها .. يجب ألا تتحرك إطلاقا .

وشغلت بنية وإنصاف ببسط الفراش على الأرض ، ولحهما عبود وهما تحاولان حمل أم مأمون لوضعها فيه ، فأسرع يعاونهما على حملها فى تودة ورفق ، كأنما يحملون شيئا هشيا قابلا للكسر .

وعاد الدكتور يقول :

— يجب ألا تغادر الفراش لأى أمر كان .

وتناول عبود منه تذكرة الدواء ، وهبط مسرعا لإحضار ما أشار إليه به . ولم يغب طويلا ، فما لبث أن عاد يحمل أدوية كثيرة قدمها إلى بنية وهو يقول :

— بالشفاء إن شاء الله .

وقالت بنية :

— كم دفعت فيها؟

فقال عبود في بساطة :

— سأحاسب مأمون عليها لما يعود بإذن الله .

فقالت له بهية في إصرار :

— لا . قل كم دفعت فيها؟

— هناك حساب بيني وبين مأمون ، سأسوى معه حساب الدواء . فقالت

بهية في إلحاح :

— لا بد أن تقول . والنعمة الشريفة لقد ترك لنا مأمون نقودا نشترى بها كل ما

نحتاج إليه ، حتى ثمن الدواء .

فقال عبود وهو يفر منها :

— والنعمة الشريفة سأحاسب مأمون عندما يجيء على ما دفعته . السلام

عليكم .

وانصرف إلى الشركة ، ووقف في الورشة يعمل وهو شارد ، يفكر في دنياه .

كان هنا إلى جواره صديقه سليمان ، وإذا به يمرض ويفقد مورد رزقه ، ترى ماذا

يفعل سليمان لو طال أجله وتخلي عنه الأصدقاء ! . وماذا تفعل أنت يا عبود إن

تزوجت وأنجبت أطفالا صغارا ، ثم هجم عليك المرض ولفظتك الشركة وألقت

بك في الطريق ؟ .

وضايقه فكره ، فراح يحاول أن ينهك في عمله ليفر من نفسه ، بيد أن

الأفكار السود ظلت تلح في ذهنه ، وفحيح الأفاعى توسوس في كيانه وتضنيه :

« أهون عليك يا عبود الموت من أن تنتظر ما يجود به الأصدقاء عليك ، أو لادك

يا عبود ؟ وبهية يا عبود ؟ إن الأصدقاء بدأوا يتململون مما يدفعونه لسليمان

ولم يمض على فصله شهران . إنهم معنورون ، فتكاليف الحياة باهظة

وأرزاقهم محدودة وأعباؤهم كل يوم تزيد ، حسن يريد أن يتزوج ، وصديق

لا يملك إلا القوت ، وبهنس ليس من أصدقاء سليمان حتى يقطع من قوته وقوت

عياه ليعطيه ، والسيد توفيق حتى متى يواظب على دفع ما يدفعه ؟ لو

أن توفيق حاول أن يعاون كل المحتاجين في الشركة فلن يجد طعام بيته ، فراتبه مهما بلغ محدود .

وألقى عبود ما في يده ، وخرج من الورشة ضيق الصدر ، وانطلق إلى أحواض الملح المترامية ؛ وراح يمد عينيه إلى السهول البيض ، فأحس كأن بياضها الناصع أخذ يغسل ما في جوفه من هموم ، ويمحو ما في ذهنه من سواد ، فانقشع ما في نفسه من ضباب ، وانشرح صدره ، وراح يستنشق ما في الكون من نقاء .
ومرت لحظات وقد هام في دنيا رقيقة من الأحلام ، ودار على عقبه ليعود إلى الورشة فإذا به يجد سليمان أمامه ، فقال في ترحيب :

— أهلا يا سليمان .

فقال سليمان وهو مقطب الجبين .

— أهلا بك .

وصمت قليلا ثم قال :

— آسف إن كنت أزعجتك .

فقال له عبود في عتاب :

— عيب يا راجل ، لا تقل هذا . أنت تعرف معزتك عندنا .

واكفهر وجه سليمان ، ولاح عليه أنه يجاهد نفسه ليقول شيئا ، فقال له عبود :

— لماذا تعذب نفسك يا سليمان ؟ أنا أخوك . أطلب ما تريد .

وأحس سليمان كأن يدا قوية تعتصر قلبه ، وراح يغالب في حياء ، فقال

والدموع تكاد تفر من عينيه ، فما كان له عهد بمثل هذا الهوان :

— نفذ اللواء يا عبود ، وأنا في حاجة إلى كورامين .

فربت عبود على ظهره وقال له :

— آسف إن كنا شغلنا عنك هذه الأيام ، والله لقد اتفقنا بالأمس وأنا وحسن

على أن نزورك اليوم .

وكانت نفس سليمان ثائرة ، فلم يلتفت إلى ما قاله عبود ، وقال في مرارة

وغضب :

(م ٨ — السهول البيض)

— لماذا ألقاني طبيب الشركة في الطريق؟ شفقة على؟! رافة بي؟ ذهبت إليه قبل أن آتي إليك وتوسلت إليه أن يعيدني إلى عملي ، أن يرد إلى حياتي ، فقال لي : إنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية ما قد يحدث لي لو وافق على عودتي . قلت له : أن أموت في العمل وأنا كريم خير من أن أموت من الجوع وأنا ذليل . فقال لي : إني أعلم يا بني أن قراري قاس ولكني أقوم بواجبي . قلت له : إني على استعداد لأن أكتب إقرارا على نفسي أذكر فيه أنني متحمل لكل النتائج التي قد تترتب على عودتي إلى عملي . قال لي : آسف ! لا أستطيع ، قلت له : ومن أين أعيش ؟ فهز كتفيه ولم ينطق بكلمة ، وغسل يديه مني كأنى لست إنسانا مثله . لو كنت كلبا لمسح ظهري بيده حنانا ، ولكن لسوء حظي لم أكن كلبا .

وظل عبود يصغى إليه وهو مشفق عليه : « لعنة الله على الفقر والمرض . هل أصبحت أمراض القلب مودة هذه الأيام ؟ سليمان قلبه ضعيف ، وأم مأمون قلبها ضعيف ويجب ألا تتحرك من فراشها . وأنا أدفع ثمن الدواء لأم مأمون وثنم الكورامين لسليمان . أصرت بهية على أن تدفع ثمن الدواء ، لماذا لم تأخذ منها ثمنه ؟ » والنعمة الشريفة لقد ترك لنا مأمون نقودا نشترى بها كل ما نحتاج إليه حتى الدواء . سيعطيني مأمون ما دفعته لما يعود » .

وأراد عبود أن يقول لسليمان إن الأصدقاء كلهم مهتمون بأمره ، فقال له : — لقد أشار صديق بإدخالك مستشفى المبرة .

فقال سليمان في سخرية مريزة :

— وبعد أن أمكث به شهرا أو أكثر هل سأخرج منه إلى عملي ؟ سأعود إلى الطريق ، ما من أحد يقبل أن يلحق مريضا بالقلب بعمل عنده . إني انتهيت يا عبود ، وسأبقى عبئا على الناس ما حييت .
وصمت سليمان قليلا ثم قال :

— الحيوان المريض الذي لا يرجى له شفاء يرمى بالرصاص رافة به ، فلماذا لا يرمى بالرصاص الإنسان المريض الذي لا أمل في شفائه ؟ أليس ذلك أفضل من أن يترك للعباد والهوان والتشريد ؟

فقال له عبود وهو يضمه إلى صدره :
— اتق الله يا سليمان ، رحمة الله واسعة .
وأقبل القطار الصغير الذى يجر وراءه عربات كثيرة مكشوفة ، فصعد إليه
عبود وسليمان ، وانطلق بهما إلى الورشة وقد خلفا وراءهما السهول البيض .

وقف عبود فى الشباك يرتدى ملبسه ويمد عينيه إلى شقة بهية ، كان
السكوت مخيما عليها على الرغم من أن الحياة قد دبت فى حى المناخ : « لا بد أن
بهية سهرت الليل إلى جوار أمها وأن النوم لم يعرف طريقه إلى عيونها إلا فى
الفجر . نامى يا بهية واستريحى . كان الله فى عونك . لا أحب أن أتعبك .
سأمر عليك لأستفسر عن صحة أمك آخر النهار » .
وهم بأن يغادر الشباك ، وإذا به يلمح إنصاف قادمة من ناحية بيتها وقد
اتجهت إلى بيت بهية ، وإذا بفانوس قادم من الناحية الأخرى ، ولما رأى إنصاف
وسع من خطوه حتى التقى بها أمام الباب ، فمد يده وصافحها فى شوق ، ثم قال
شيئا فضحكا معا لما قال ، وقد اهتز جسم إنصاف وارتج حتى أن عبود ضرب
قاعدة الشباك بقبضته غيظا .

وغابا عن عينيه فى جوف الدار ، فطاف بذهنه أنهما انتهزا فرصة مرض أم
مأمون ليتواعدا على اللقاء عندها ، وزجره زاجر فى نفسه : « حرام عليك
يا عبود ، فقد كان لقاؤهما مصادفة . لماذا تسيء الظن دائما بإنصاف ؟ إنصاف
أهل لكل مظنة » والتفت إلى ناحية شقتها . كانت نوافذها كلها مغلقة ، إنه
لا يذكر أنه رأى نافذة منها مفتوحة فى يوم من الأيام ، وأن هذه النوافذ المغلقة تمد
خياله دائما بأفعال مريبة تجرى خلفها ، إنه لا يستطيع أن ينسى أنه رأى الدكتور
حازم أكثر من مرة وهو يهبط فى سواد الليل من بيتها . ماذا يفعل شاب مثله وشابة
جريئة مثلها خلف نوافذ مغلقة ؟ وإنه ليذكر أن الدكتور حازم اتجه معها إلى بيتها

عقب أن عاد أم مأمون ، لماذا لم ينصرف إلى بيته أو إلى عيادته أو إلى المستشفى ؟
كم أنت طيب القلب وساذج يا مأمون ، كيف طواعك لسانك على أن ينطق بما
قال : لو فكرت في الزواج يوما لتزوجت إنصاف . أعوذ بالله .

ليتك يا مأمون كنت كهنس الذى عركته الحياة ، والذى يسر له عمله في
الأقسام أن يلمس حقيقة الناس ، قال ذات ليلة لما رأى إنصاف عائدة وهي ترقص
في مشيتها : أشتى أن تكون إنصاف لى كل شيء إلا أن تكون زوجة ! ليتها تعتدى
على أحد في الليل بالسب أو بالضرب لتبيت في القسم على أن أكون أنا هناك !
وجرى عبود ليلحق بهما ، فهو لا يطيق أن يبقى فانوس وإنصاف وحدهما بعيدا
عن رقابته ورن في جوفه صوته وهو يعدو في الدرج : « أشتى يا عبود أن تكون
أنت وإنصاف وحدكما في مكان قصي ؟ فقال بصوت مرتفع ، أعوذ بالله ! » .
وبلغ الشقة ، كان بابها مفتوحا فوقف مترددا برهة ، والتفت فانوس فرآه
فهب واقفا وهو يقول :

— أهلا عبود .

ومس الصوت أذنى بهية مسارقيا ، فالتفت ناحية الباب وقد تهملت
أساريرها وتوردت وجنتاها ، وهمت بأن تسرى إليه كالطيف بيد أنها خجلت
من العيون الغريبة المصوبة إليها تخصى حرركاتها وسكناتها ، فوقفت ثابتة في مكانها
وإن كان قلبها قد طار إليه .

وتقدم عبود وقال :

— صباح الخير .

ولم يمد يده ليصافح أحدا حتى لا يضطر إلى مصافحة إنصاف ، وقال موجها
الحديث إلى بهية :

— كيف حال خجالتى اليوم ؟

وقالت إنصاف :

— لا تزال في حاجة إلى راحة .

وذهب عبود إليها ونظر في وجهها فألفاها لا تزال ذابلة ، وقد زادت صفرة

بشرتها ووهنت عيناها ، وأحست به على الرغم من أنه لم ينطق حرفا .

فقالت في صوت خافت :

— عبود ! كيف أنت ؟

— كيف أنت يا خالة ؟

فمدت يدها وقبضت على يده وظلت يده في يدها مدة ، وقد ساد الخشوع

المكان .

والتفتت إنصاف إلى بهية وقالت لها :

— هنيئا لك زوجك . إنى أغبطك عليه .

وراحت بهية تتلفت في حيرة ، لا تدري أين تستقر عيناها ، ولم ترحم

إنصاف اضطرابها بل قالت :

— أتعرفين ماذا نسماه في الحى ؟ الرجل البكر .

وصعد الدم حارا إلى وجه عبود ، وغالبت بهية الضحكة التي كادت تفلت

من حنجرتها ، بينما ضحكت إنصاف ضحكة هزت كيان عبود وجعلت ثورته

تتدفق بين جوانحه وتنعكس على مجياه ، وضحك فانوس وقال :

— لو كان فتاة ما ترددت في أن أتزوجه .

ونظر إليه عبود نظرة غيظ وكانت ملامحه تصيح في فانوس هاتفة :

يا خبيث ! واستمرت إنصاف هذا الهزر ، فقالت لعبود وهي معجبة بنفسها :

— إلى متى ستظل بكرا ؟

ولم يستطع عبود صبورا وانفجر مرجل غضبه ، ضايقه أن انتهر فانوس

وإنصاف فرصة وجود بهية وراحا يركبانه بسخريتهما ، وقد سمحت إنصاف

لنفسها أن تتجاوز كل حد ، فقال لها وهو يرميها بنظرة تحد :

— إلى أن تعودى بكرا مرة أخرى .

وفزعت إنصاف كأنما سددت رصاصة إلى قلبها ، واتسعت عيناها وفغر

فوها ولم تعد تحس إلا الطعنة المسمومة التي مزقت شرفها ، وودت أن تصرخ ..

أن تسبه وتلعنه .. أن تبكى .. بيد أنها ظلت جامدة كأنما مسها مس من

الكهرباء فصعقتها .

وجرت بهية بعيدا تحفى وجهها وتفر من الحرج الذى بدأت تستشعره ، ولكنها كانت فى قرارها سعيدة . لم يستكن عبود للألسنة الطويلة ، بل ضرب ضربته القاضية وأنهى المعركة لما وجد أنه لو سكت على الاستخفاف به ، فسيصبح مطية ذلولا للساخرين والهازئين .

وتلفت فانوس فى دهش وعقلت لسانه المفاجأة ، وزاد فى ارتبائه أنه لم يدر بخلده يوما أن الحمل الوديع يمكن أن ينقلب فجأة إلى ليث كشر عن أنيابه . وفكر فى أن يقول شيئا يخفف به وقع الكارثة التى نجمت عن الألسنة التى أفلت عيارها ، بيد أنه أحس ثقلا فى لسانه وخوفا فى قلبه ، خشى أن يند منه ما قد يغضب عبود ، فيقطعنه بكلام يمرغه فى الأحوال .

ووجد فانوس أن خير ما يفعله أن ينسحب فى صمت ، وأن يبعد إنصاف عن ميدان المعركة لتسترد أنفاسها المبهورة ، وتهدأ نفسها الثائرة ، وتعلق جرح كرامتها بعيدا عن الأعين الشامتة ؛ فنهض ونظر إلى إنصاف ، فقامت وهى ذابلة وقد هرب الدم من وجهها ، وبان فى عينيه دهش ، أيمن أن تبدل كلمة الإنسان كل هذا التبدل الذى طرأ على إنصاف !

وسار فانوس وإنصاف إلى جواره تقول فى ألم :

— أعرف أن عبود يكرهنى ، ولكنى ما كنت أظن أنه يحتقرنى إلى هذا الحد . وراح عبود ينظر إليهما وقد أحس قسوة ما نطق به ، وفتش فى أعماقه عن حقيقة مشاعره ، فوجد أنه آسف على أنه قد اضطر إلى ما نطق به ، ولكنه غير نادم على ما قاله .

وهرعت بهية إليهما ولحقت بهما عند الباب وقالت لهما :

— شكرا لكما على هذه الزيارة .

فقال فانوس وهو يفسح الطريق لإنصاف لتخرج من الباب :

— ربنا يطمننكم عليها .

وأرادت بهية أن تشعر إنصاف أن كل شئ سائر فى طريقه المعتاد ، وأن

ما قاله عبود إن هو إلا مزاح عابر ، فقالت لها :

— ومتى ستعطينها الحقنة الثانية ؟

فقال إنصاف وهي تتحاشى لأول مرة أن تلتقى عيناها بعينها :

— في الليل : بعد أن ينتهى العمل في العيادة .

— شكرا ومع السلامة .

وهتفت أم مأمون في جهد :

— أشرب .

فخف عبود إليها وفي يده كوب ماء ، ورفع رأسها في رفق وحنان ، ووضع الكوب على شفتيها . وهرعت بهية إليهما وراحت تعاونه على إسناد ظهر أمها ، ورشفت الأم قطرات من الماء ، ثم قالت في همس :

— أنام .

وأرقدتها في فراشها وهي واهنة ، تلتقط أنفاسا مكروبة ؛ وجاهدت حتى فتحت عينيها ، ونظرت إلى عبود وبهية نظرة طويلة ، ثم أسبلت جفניה لتعيش مع الحياة التي دبّت في ذهنها .

والتفت عبود إلى بهية في حب ، وقال في حنان :

— أتريدين أن أحضر لك شيئا ما عند عودتي .

— شكرا .

ودار على عقبيه وقال وهو يسير نحو الباب :

— السلام عليكم .

— مع السلامة .

وتقدم في خطوات بطيئة وهي إلى جواره ، كأنما كانا يرجوان ألا تنتهى أبدا المسافة القصيرة الفاصلة بين فراش الأم والباب .

وراحت الأم تصغى إلى ما يلور في نفسها وهي مستجاة في فراشها :
« ستموتين يا زكية ، انتهى الأجل ، فإن مت الآن قبل أن تتزوج بهية فسيأخر زواجها حتى تنتهى أيام الحداد ، وستعيش بهية وحيدة حزينة لا تجد من يمسخ لها

دموعها ، ولا من يواسيها في سواد الليل الطويل . ستموتين هذا قضاء الله ، ولكن لا . يجب ألا تموتى يا زكية إلا بعد أن تتزوج بهية وتحمل إلى بيت عبود . آه لو تزوجت بهية قبل أن أموت لرقدت في قبرى مستريحة الفؤاد . بيدك يا زكية أن تتزوج بهية وأن تسعد قبل موتك ، انهضى يا زكية من هذا الفراش ، وقولى إنك بخير ، وأصرى على أن يتم هذا الزواج قبل أن ينطفئ ما بقى فيك من زيت الحياة . قومى يا زكية ، ولكن الدكتور حازم قال لك : لست مسئولا عن حياتك إن غادرت فراشك ، ومن قال للدكتور حازم إنه مسئول عن حياتى ، وما قيمة هذه الحياة إن كانت ستسبب شقاء ابنتى . لست بهية تتزوج الآن ثم أموت قريرة العين . لم يعد لى ما أريد أن أعيش من أجله بعد أن أستر عرض ابنتى . والله لو مت قبل أن أرى بهية وهى إلى جوار عبود فى طريقها إلى بيتها ، فلن تعرف روحى الراحة وستظل هائمة فى ملكوت الله . لو عشت حتى رأيتك يا ابنتى فى ثياب الزفاف فسأموت من الفرح . خير لى أن أموت من الفرح من أن أموت حزينة كسيرة الفؤاد ، قومى يا زكية .. تحاملى على نفسك . ماذا تنتظرين ؟ أنتظر عودة مأمون .. ها هو ذا صاعد فى السلم » .

وتحركت أم مأمون فى فراشها وجاهدت حتى استوت جالسة ، ونادت فى صوت خافت إلا أنه كان ملونا بالحنان :

— مأمون ! مأمون !

فخفت إليها بهية وقالت لها فى توسل وهى تحاول أن تعاونها على أن تتمدد الفراش :

— نامى يا أمى .

— افتحى لمأمون الباب . اذهبى . مأمون حضر . إنه جاء . إنى لا أهذى

يا بهية . افتحى لأخيك .

وراحت ترنو إلى أمها فى خوف وشفقة واضطراب ، وتقاوم فى رفق رغبة أمها فى أن تنهض . ومس أذنيها صوت طرق على الباب ، فالتفتت فى دهش ، ثم راحت تعدو لترى من الطارق ثم تعود إلى أمها على عجل لتمنعها من النهوض .

وفتحت الباب ، وما لبثت أن صاحت قائلة في فرح :

— مأمون !

ودبت القوة في جسد الأم ، فقامت وقالت وهي تبسط ذراعيها :

— مأمون ! ابني حبيبي .

واندفع مأمون إلى أحضان أمه ، وهتفت بهية في خوف :

— أمي . لماذا قمت ؟

فقالت الأم في فرح :

— أنا بخير يا بهية .

فقالت لها بهية في توسل :

— نامي . نامي يا أمي . أرجوك .

ونظر مأمون إلى الفراش الموضوع على الأرض ، ثم التفت إلى بهية في

تساؤل ، فقالت له بهية :

— أمرها الدكتور حازم ألا تغادر الفراش أبدا . قال لها إنه ليس مسئولا عن

حياتها .

فقال مأمون لأمه في توسل :

— استريحى يا أمي . أرجوك .

فقالت الأم في عناد :

— أنا بخير يا مأمون .

فقال لها وهو يسندها برفق خشية أن تنهار :

— نامي يا أمي . نامي وسأجلس معك في فراشك .

وخشيت الأم أن تنوء من الجهد قبل أن تصل إلى غرضها ، فقالت :

— سأبقى في فراشي إذا سمعت كلامي .

فقال لها مأمون في حب :

— ومتى يا أمي لم أسمع كلامك ! نامي واطلبي ما تريدين .

وقالت وهي تبذل آخر ما في طاقتها لتظل على قدميها :

— أريد أن يكون زفاف بهية يوم الخميس .

فقال مأمون في إنكار :

— بعد ثلاثة أيام !؟

— أريد أن أفرح بها يا مأمون .

وصمتت ، وفظن مأمون إلى أنها تريد أن تقول : « قبل أن أموت » فقال لها

في استسلام :

— أمرك . استريحى يا أمى .

وأحست شيئاً من الراحة ، وداعب روحها الأمل ، وأرادت أن تستوثق من

أن هذا الوعد حق ، فقالت له :

— أقسم لى بشرتك يا مأمون أن بهية ستتزوج يوم الخميس .

فقال لها وهو يرفعها بذراعه :

— قلت لك يا أمى إن بهية ستتزوج يوم الخميس .

فقالت له في عناد :

— أرح قلبى يا مأمون واقسم لى بشرتك أن زفاف بهية سيكون يوم

الخميس .

وأحس مأمون أنها بدأت تترخف فى يده ، فقال لها :

— أقسم لك بشرفى أن بهية ستتزوج يوم الخميس .

وثقلت على ذراعه ، فأسرعت بهية تعاونه على تمديدها فى فراشها ، ولما

استقر رأسها على الوسادة ، قالت وهى تزفر وتشهق فى صوت مسموع ، يعلو

على صوتها :

— بارك الله فىك يا مأمون . أرحت قلبى .

وجرت بهية بعيداً لتجفف الدموع التى تفرقت فى مقلتيها .

كانت الرياح تصفر في سكون الليل ، وكان البرد قاسيا حتى إن شوارع بور سعيد أقفرت من الناس وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء ، وكانت جانيت جالسة أمام المدفأة تصغي إلى الراديو ، وتداعب قطتها التي اختارت وسادة حريرية وغاصت فيها هائثة تنعم بدفء النار .

وأقبل توفيق من غرفته ووقف يصغي إلى ما تذيعه إذاعة إسرائيل ، كانت تؤكد أن متسللين خرجوا من غزة وتوغلوا في إسرائيل وقتلوا بعض الأهالي العزل ، ثم فروا هاربين .

ونظر توفيق إلى جانيت فألفاها تنهض وتحضر كراستها التي تدون فيها ملاحظاتها ، ثم تكتب فيها بعض فقرات وهي تقول :

— عاد بن جوريون إلى وزارة الدفاع خلفا لغريمه لافون .

ثم رفعت رأسها عن الكراسية وقالت :

— إني لا أصدق ما تذيعه إسرائيل .

فقال لها توفيق وهو يحاول أن يقرأ ما يدور في رأسها :

— ولماذا تذيعه إذا لم يكن حقيقة ؟

فقال جانيت شاردة :

— ربما لتبئء الرأي العالمي لعدوان تنوى أن تقوم به . بن جوريون مشاكس . يؤمن بالعدوان . وسيعمل على خلق الاضطراب في المنطقة ليرغم إنجلترا على نقض وعدها بالجلء .

— بن جوريون ليس في حاجة إلى تهيئة الرأي العالمي إذا كان ينوى العدوان حقا ، فالصحافة العالمية تكاد تكون كلها في يد اليهود ، وكل وسائل النشر والإعلام في الدول الكبرى في أيديهم ، وهي جميعا في خدمته ، ويا ليتها تكتفى بأن تسكت عن جرائم إسرائيل بل تصورها دواما على أنها الحمل الوديع الذي

يتحمل الأذى في سماحة وصبر . ماذا فعلت الصحافة العالمية يوم اغتالت برنادوت ؟ وماذا قالت عن مذابح دير ياسين ؟ كنت في تلك الأيام مكلفا في القوات الجوية وكنت في قلب المعركة ، وقد أحسست في تلك الأيام مرارة لما كانت تذيعه صحافة العالم من أكاذيب ، كانت تشوه وجه الحقيقة ، وكانت تفتري على العرب وتلصق بهم كل نقيصة ، بينما كانت تشيد بأعمال الأفاكين من عصابات صهيون . إن قوة إسرائيل في أصدقائها المثبتين في العالم ، القابضين على شرايين الحياة في الدول التي يعيشون فيها . إنهم هم الذين فرضوا الهدنة الأولى لما وجدوا أن إسرائيل على وشك أن تزول من الوجود قبل أن يثبت كيائها ، وأنهم هم الذين أمدوها بالأسلحة بينما فرضوا حظر إرسال الأسلحة إلى العرب .

قال لي زميل في القوات الجوية كان ضابطا للأسلحة : فتحنا مخازننا للإنجليز في الحرب العالمية الثانية ، وأعطيناهم كل ما عندنا من ذخيرة وقذائف ، ولما قامت حرب فلسطين أبوا أن يردوا إلينا ما أعطيناهم .

فقلت جانيت :

— أعلم يا توفيق أنكم تحاربون الصهيونية العالمية المنتشرة كالأخطبوط في المراكز الحساسة في كل دول العالم ، ولكني أقول إن ابن جوريون يعبى شعور الكراهية ضدكم بتصويركم في صورة المعتدين دواما ، وأنه إن قام بالهجوم عليكم فإنما يقوم بحقه المشروع في الدفاع عن نفسه .

— إن اعتدى علينا فلن نسكت ، هذا ما أنا واثق منه .

فقلت جانيت وهي تعاود الكتابة في كراستها :

— العين بالعين والسن بالسن .

وقال توفيق في مرارة :

— وموقف الدول الكبرى لم يتبدل منذ قامت حرب فلسطين إلى الآن ، إنها تسلح إسرائيل بكل سلاح بينما تمنع عنا الأسلحة بحجة توازن القوى في المنطقة . سبع دول عربية لا تستطيع أن تحصل على ما تحصل عليه إسرائيل من أسلحة . هذا إذلال ، ولا أحسب أننا نصبر على هذا الهوان طويلا .

ودخل مرجان ووقف صامتا برهة إلى أن وقع نظر توفيق عليه ، فقال له :
— ماذا تريد ؟

فقال مرجان وهو يتقدم خطوات :

— أريد أن أحاسب المدام على ما اشترت اليوم من لحم وخضار وفاكهة .. و ..
فقال له توفيق :

— غدا صباحا ستحاسبك المدام . اذهب لتنام .

ورفت ابتسامة على شفתי جانيت ، وهز مرجان كتفيه استنكارا وقال :
— والله لا أدري لماذا لا نقطع هذا الحساب الآن ؟!

ودار على عقبيه وانصرف ، وقالت جانيت :

— لو اوتكب مرجان جريمة فما أسرع ما يكتشف أمره ، إنه ظاهرة عجيبة ؛
يروى في صدق وهو نائم كل ما يجرى له في النهار ، كأنه شريط مسجل !
وعاد مرجان ، ورأته جانيت فقالت له :

— قلنا لك الحساب في الصباح .

فقال مرجان في هلوء :

— عارف .

وقال له توفيق :

— فماذا تريد الآن ؟

فقال مرجان وهو ينظر خلفه :

— جاء مأمون وعبود يطلبان مقابلتكم .

فقال توفيق وهو يبعد القطة عن الوسادة التي تربعت فوقها :

— قل لهما : تفضلا .

وغاب مرجان قليلا ، وما لبث أن عاد وخلفه مأمون في ثوبه العسكري ،
وعبود وقد تأنق ، فبدا رائعا حتى إن توفيق أطال النظر إليه ، ثم قال :

— أهلا بكما .

فقال مأمون في بساطة :

— آسف إن كنا جئنا في هذا الوقت ، ولكننا لن نمكث طويلا .

فقال توفيق في صدق :

— هذا بيتكم .

— شكرا .

وجلسا وفرت القطة منهما وغادرت الغرفة كأنما كانت تحتج على هذين اللذين جاءا ليعكرا صفوها ، وقالت جانيت لمأمون :

— كيف صحة أمك ؟ قال لي توفيق إن عبود خيره أنها مريضة .

فقال مأمون :

— إنها لا تزال مريضة ، ولكنها تصر على أن يتم زواج عبود وبهية يوم

الخميس ، وقد اجئنا للتمس تشريفكم لنا في ذلك اليوم .

فقال توفيق وهو ينظر إلى عبود :

— إن شاء الله .

فقال عبود في فرح :

— سيتزوج معنا في نفس اليوم الشيخ حسن وفتحية بنت صديق الفرارجي .

وهم مأمون أن يقول شيئا ، وفهم توفيق ما يدور في رأسه فقال :

— خيرا فعلتم .

والتفت توفيق إلى جانيت وقال :

— إني معجب بالرابطة الطيبة التي تربطهم جميعا ، لو تعاون الناس مثل

تعاونهم لحفت قسوة الحياة ولصار لها طعم لذيذ .

وقال مأمون وهو يبتسم :

— الضعفاء هم الذين يتعاونون ، أما الأقوياء فلا يعرفون إلا التنافس

والتشاحن والقتال والكراهية .

فقالت جانيت :

— أتريد أن تقول إن الأقوياء هم الذين يفسدون في الأرض ؟

وتيقن توفيق أن جانيت تتأهب للدخول في جدل طويل ، فنظر إليها نظرة

تلمس منها أن تسكت . وفطنت إلى ما يريد ، فهضت ومدت يدها إلى صندوق الحلوى وفتحته وقدمته إلى عبود ثم إلى مأمون وهي تقول :

— تفضل .

— شكرا .

وقال مأمون لتوفيق :

— لي زجاء وأرجو ألا أثقل عليك .

فقال توفيق وهو يبتسم :

— أطلب ما تريد .

وأرهفت أذنا جانيت ، وقال مأمون :

— أن تسمح لمرجان أن يعاوننا يوم الخميس .

فقال توفيق في راحة ، فقد حسب أن مأمون سيطلب طلبا عزيزا :

— بكل سرور .

ونفض مأمون وقال :

— شكرا لكم .

ومد يده وصافح جانيت ثم توفيق ، وتبعه عبود ، ودلفا إلى الطريق وقدهب هواء بارد من الباب المفتوح ، فهرعت جانيت إلى الغرفة الدافئة ، وجاء في أثرها توفيق ، وما إن رأته حتى قالت :

— لا أفهم لماذا يطلبون مرجان ؟

— ليعاونهم .

— على ماذا ؟

— على طبخ طعام للمدعوين .

فضحكت جانيت وقالت :

— أتظن أنهم سيطعمون المدعوين !؟

وشرد توفيق قليلا ففطن إلى أن ذلك مستحيل ، فمن أين لثلهم بنفقات إطعام الحى جميعه ، فقد دعوا بلا شك كل سكان حى المناخ ، وكل العاملين في

شركة الملح ، وربما العاملين في الإسعاف إكراما لصديق ، فقال :
— ربما سيعد طعام العروسين .
فقالت جانيت وهي تهز رأسها موافقة :
— هذا معقول .

وتناولت جانيت كتابا راحت تقرأ فيه ، وعكف توفيق على الصحف
والمجلات ، ومر الوقت ، وارتفع صوت مرجان ، كان قد نام وبدأ يروى كل
ما حدث في يومه وما جرى بينه وبين الجزار وبائع الخضر والفاكهة من
مناقشات ، فأسرع توفيق يدون أسعار الحاجات التي اشتراها مرجان ليقدمها
إلى جانيت لحساب الصباح .

وأطفأت جانيت النور واتجهت إلى الفراش واندسا فيه ، كان الفراش باردا
حتى إن جانيت غطت رأسها وراحت تزفر أنفاسا حارة لينقشع البرد ، وجعلت
تتقلب وتنكمش وتنفرد فيرتفع الغطاء ، ويصيح توفيق قائلا :
— جانيت ! كفى حركة فقد ارتفع الغطاء وتسرب الهواء البارد إلى ، إني
أرتجف .

والتصق كل منهما بالآخر وهو ينتفض من البرد ، ومرت لحظات ثم سرى
الدفء اللذيذ فاستسلما له وقد هدأت أنفسهما واستكانت للخندر الذي مشى
حنونا في أوصالهما .

وارتفع مواء القطة وأصاحت جانيت سمعها ثم قالت :
— توفيق . افتح الباب للقطة . ستموت من البرد .
فقال توفيق وهو يقرب ركبتيه من ذقنه :
— اذهبي أنت . لو قمت من تحت الغطاء فسأموت من البرد .
فقالت جانيت في إغراء :
— أتعرف يا توفيق لماذا تزوجتك ؟
فقال لها مداعبا :
— أنى كنت الرجل الوحيد الذى تقدم إليك يطلب يدك .

فقال في عتاب :

— توفيق !

واستمرأ توفيق مداعبتها فقال لها :

— أكان ذلك الإنجليزى الأصلع المغرور الذى يعمل فى التأمين ، يقدم على

الزواج منك ؟

فقال له جانيت فى لهجة جادة :

— لو تقدم مستر جونس وطلب منى أن أقبله زوجا لرفضته .

— لماذا ؟

— لأنى أمقت صنف أنصاف المتعلمين .

— إنى احتقرته يوم دخل حزينا لأن بريطانيا العظمى فرطت فى الهند ، درة

التاج البريطانى ، ومنحته استقلاله ، إنى لا أنسى ساعة أن وقف على رأس

المائدة ، وقال فى خيلاء : « الهند لنا وما كان للساسنة أن يفرطوا فى حقوقنا » .

وعاودت القطة المواء ، فقالت جانيت فى توسل :

— القطة . افتح لها الباب .

— قومى أنت .

— تفتح لك قلبى يا توفيق من أجل قطة . أتذكر ليلة دخل كل منا إلى غرفته

وكان الثلج يتساقط فى الخارج ، وارتفع مواء القطة فلم يخرج إليها أحد منا ،

وخرجت أنت إليها بالرغم من شدة البرد وحملتها ووضعتها إلى جوار المدفأة . إنى

تعلقت بك منذ تلك الليلة .

فقال لها توفيق وهو يحكم الغطاء حوله :

— إنى أكره أن أكرر نفسى .

فجذبت جانيت الغطاء من فوقه وقالت له :

— اذهب .. إكرامالى .

وقام وهو ينتفض من البرد وجرى إلى الباب وفتحه ، ثم انتشل القطة وعاد بها

وراح يعدو حتى وصل إلى الفراش فاندس فيه وهو يرتجف ، وسحب الغطاء

(م ٩ — السهول البيض)

عليه ، ولم يكتف بذلك بل ضم جانيت إلى صدره .
وقبلته جانيت وقالت له :
— أتذكر أول قبلة كانت بيننا ؟
— أجل وقد سرني أنها كانت أمام عيني مستر جونس المفتوحتين .
وقالت جانيت وهي تبتسم :
— طافت بك نوبة كرم فدعوتني للعشاء في الأمباسادور ، وعندما عدنا إلى
البيت قبضت الثمن .
فقال لها توفيق في حدة :
— لا . لا يا جانيت . لا تقولي هذا حتى لا تفسدى روعة الذكريات .
فقالت وهي تضحك :
— ولم تكتف بأن تتقاضى ثمن العشاء قبلة ، بل ..
فقال لها وهو ينهض بصدرة :
— اسكتي أرجوك .. وإلا كتمت أنفاسك .
وأطبق بشفتيه على شفتيها .

غرق بيت مأمون في النور ، فقد تعاون عبود والشيخ حسن ومأمون
وأصدقاؤهم على أن تتدلى المصابيح الكهربائية على واجهة البيت ، وتنتشر في
الشقق التي فتحت أبوابها على مصاريعها لاستقبال سكان الحي ، الذين خفوا
ليشاركوا جيرانهم أفراحهم وليتمنوا لهم السعادة والهناء .
وجلست بهية في ثياب الزفاف على كرسي مذهب ، وجلست إلى جوارها
فتحية وقد زينت رأسها بتاج مرصع لا تدرى من أين استعاره بهنس ، وقد
التفت أخواتها حولها كأنما يردن أن يعلن المدعوين أن هذه العروس أختهن ،
وراحت الأم تطلق التهاني وتغلدو وتروح في سرور ، وتملأ عينيها بمنظر بناتها وهي

مزهوة ، دون أن تستشعر أى قلق لأن اثنتين منهن قد بلغتا سن الزواج .
وراحت إنصاف ترقص أمام العروسين رقصا رائعا على أنغام طبول بعض
النسوة من الجيران ، وأخذت الفتيات والنساء يصفقن على الوحدة ، وإنصاف
تتلوى فى فن وتتنهى فى إغراء ، فشاع فى بعض العيون الإعجاب ، بينما امتلأت
عيون أخرى بالغيرة فمصصت الشفاه .

وظافت أم مأمون بين المدعوات وهى ذابلة ، تكاد تنوء من الإعياء ، ولكنها
كانت تتحامل على نفسها وتلتفت بعيون زائغة ، وتحاول أن تبسّم : « تجلدى
يا زكية ، ساعات قليلة ثم يغلق على بهية باب بيتها ، وبعدها أموت مستريحة » .
وأحست أنها ستنهار ، فالتصقت بجدار الحائط وراحت تلتقط أنفاسها ،
ومرت بها سيدة من المدعوات فقالت لها :

— مبارك العقبى للمأمون .
فقالت لها فى جهد وقد تفصد من جبينها العرق ، على الرغم من البرد الذى
يكاد يخزم العظام :
— فى حياتك

وراحت تجر نفسها جرا حتى بلغت مكانا قصيا ، فانهارت على كرسي وهى
تلهث وتشخص إلى السماء وتدعو دعاء حارا : « يا رب ! أطل فى أجلى هذه
الساعات » .

ولم تكد تسترد أنفاسها حتى قامت وذهبت إلى حيث كان الناس يموج
بعضهم فى بعض ، خشية أن يفطن أحد إلى غيابها فيبحث عنها حتى يجدها وهى
يكاد يعنى عليها من الإعياء ، فتعكر صفو الليلة التى تركزت كل أمانى حياتها فى
أن تمر بخير .

وذهبت إلى بهية ورنّت إليها فى حب ، واستشعرت انجذابا إليها فتقدمت منها
وظفقت تتحسسها فى عطف وحنان ، وبلغت مسامعها أصوات كثيرة عجزت
عن أن تميزها ، بيد أنها فطنت إلى أنها تحمل إليها التهاني ، فراحت تجاهد حتى
ابتسمت ، بيد أن غشاوة انسدت على عينيها فلم تعد ترى شيئا .

وارتفع صوت المغنى الذى كان يشدو عند الرجال ، فهرع بعض النسوة الحاسدات لإنصاف إلى النواذ وتدلين منها يرفهن الأسماع ، وأحست إنصاف بانفضاضهن من حولها ، فأخذت ترقص فى عنف ، ودبت الحماسة فى نفوس المعجبات فانتقلت إلى الأكف التى كانت تصفق ، فارتفعت أصواتها حتى غطت على صوت المغنى ، فابتسمت إنصاف ابتسامة انتصار .

ودارت الأرض بأمر مأمون ، وخافت أن تسقط مغشيا عليها ، فانسلت لتتبدد مكانا قصيا تسترد فيه أنفاسها ، وتبتهل إلى الله فى حرارة أن يمنحها القوة حتى تزف حبيبة الفؤاد .

وراحت أم فتحة تنقب عن ابنتها الصغرى وتمزق بين الجموع كالسهم حتى إذا ما عثرت عليها قالت لها :

— اذهبي إلى أبيك وقولى له أن يحضر مفتاح الشقة من حسن .

وهبطت الفتاة فى الدرج وهى مسرورة ، فستتاج لها رؤية الفرح عند الرجال ، وسارت فى الشارع خطوات ، حتى إذا وصلت إلى القهوة وجدت الرجال قد انتشروا فيها ، وقد وجهوا أنظارهم إلى حيث كان يجلس مطرب أسود يغنى بصوت رخيم ، والناس يهللون فى نشوة وانسراح .

ووقفت الفتاة تتلفت حتى وقعت عيناها على أبيها ، كان جالسا مع حسن وعبود ومأمون وفانوس وبهنس ، فانسابت إليه ، ووقعت عينا صديق على ابنته فبهض وذهب إليها وقال لها :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فقالت فى ثبات :

— أمى تريد مفتاح الشقة من حسن .

وقال الأب دون تفكير :

— لماذا ؟ ماذا ستفعل بمفتاح الشقة .

— ليجدها مفتوحة إذا ما ذهب إليها مع فتحة . العروس يا أبى لا تنتظر حتى يفتح العريس لها باب الشقة .

ونفض المغنى الأسود بين تهليل الناس وصيحات الإعجاب وغادر المنصة ،
وسار صديق في ضيق لأنه تسرع وسأل عن حاجة زوجه إلى المفتاح ، ترى أ قالت
لها أمها ما قالت أم أنها فطنت إلى ما قالت بغيريتها؟! وخف إلى حسن وقال له :
— مفتاح الشقة من فضلك .

فنفذ حسن وراح يبحث عنه في جيوبه ، وقال له فانوس :
— أعطه مفتاح حريتك .

فالتفت مأمون إلى فانوس وقال :

— هذا قصر ذيل يا أزعز .

واستمر حسن في بحثه حتى عثر على المفتاح ، فقدمه إلى صديق ومأمون يرقبه
ويقول :

— ليس معك إلا مفتاح واحد ؟

فابتسم حسن وقال :

— الحمد لله على هذا ، فكلما كثرت المفاتيح كثرت الذنوب .

وقال بهنس :

— كيف ؟

قال حسن :

— ماذا يحمل الإنسان من مفاتيح ؟ مفتاح الخزانة ، وهذا دليل على الكنز ،
وسيسأل المرء على حبسه الأموال وسيكوى بما يكنز يوم القيامة ، مفتاح البيت
الحر .

وقال بهنس وهو يبتسم :

— قل مفتاح الجرسونييرة ، الله يفتح عليك ، اللهم اوعدنا .

قال حسن في بساطة :

— مفتاح جرسونييرة الذنوب .

قال فانوس :

— ومفتاح الدكان ، هذا أطهر مفتاح .

- فقال مأمون :
— وقد يكون أحبث مفتاح .
واشترك صديق في المناقشة ، قال :
— ومفتاح السيارة .
فقال بهنس في ابتهاج وهو يرفع أكف الضراعة إلى السماء :
— اللهم ارزقنا بالمفاتيح .
فقال عبود وهو يبتسم :
— يكفيك ما عندك من مفاتيح السجون .
فقال بهنس في امتعاض :
— أعوذ بالله ! إنا نذكر مفاتيح الخزائن ومفاتيح الجرسونييرات ومفاتيح السيارات ، وفتاحات الويسكى ، وأنت لا تذكر إلا القرف .
فقال مأمون لبهنس :
— أحب أن تحمل ذنوب المفاتيح .
قال بهنس :
— أحملها وقبل أن أموت أتوب .
وقال له فانوس :
— ماذا تريد من الدنيا وقد تزوجت مرتين ؟
فقال بهنس وهو يضحك :
— تزوجت مرتين وأنجبت خمسة أولاد ، ومع ذلك فإنى أقاسى من الكبت الجنسي .
فقال عبود ساخرًا :
— من الشهوة البهيمية .
فقال الشيخ حسن :
— والله إنا نظلم البهائم لما ننسب إليها هذه الشهوة ، فالبهائم لا تمارسها إلا لحفظ النوع ، أما البشر فيفتنون في ممارستها للذة .

فقال فانوس :

— البشر من أمثال السيد بهنس .

فقال له بهنس مازحا :

— اسكت أنت فهذا كلام لا يعينك ، فالشيخ حسن يتكلم عن الفحول

من الرجال ومن النساء .

— اسكت يا فحل .

والثفت مأمون ناحية باب القهوة ، فوقعت عيناه على توفيق وهو يشق طريقه بين الجموع ، فهرع لاستقباله ، والتفتوا إلى حيث ذهب مأمون ، فلما رأوا توفيق خفوا جميعا إليه وصافحوه وراحوا يفسحون له مكانا في الصدر ، فجلس وهو يقول لحسن مداعبا :

— أنت تزوج لتشهر دينك يا حسن ، أليس كذلك !؟

فقال حسن وهو يبتسم :

— الزواج نصف الدين يا افندم .

وقال بهنس :

— إذن تزوج اثنتين لتكمل دينك .

فقال صديق الفرارجي لبهنس :

— خيرا لك ولنا يا سيد بهنس أن تحتفظ بنصائحك لنفسك .

قال بهنس :

— عندما ذهبت إلى حمای الأول ، وأرجو أن يرزقني الله مالا لأحدث عن

حمای السابع عشر ، وشكوت إليه تصرفات زوجتي ، قال لي في سماحة :

طلقها . كان حمای الأول — رحمة الله عليه — رجلا .

فقال له مأمون معاتبا :

— أهذا كلام يقال في ليلة زفاف !؟

وقال فانوس :

— ماذا تنتظر من رجل يتغذى طول يومه بمصائب الناس !

وخشى توفيق أن ينقلب المزاح إلى جراح وتحريج ، فالتفت إلى عبود وقال :
— مبارك يا عبود .

وفطن فانوس إلى ما رمى إليه توفيق ، فقال ليدير الحديث وجهة أخرى :
— شد حيلك يا عبود لنضيف لك إلى بطاقة التموين نصف أقة سكر وربع
أقة زيت وثلاثة لترات جاز .

فابتسم توفيق وقال :

— وسيزيد راتبك جنبيين في الشهر ، فالشركة تدفع جنبيين للولد الأول .
وقال صديق في مرارة :

— ليت الحكومة تأخذ بطاقة التموين وكل ما أعطته من علاوات ، وتتكفل
بالأبناء :

فقال فانوس :

— إني في عجب من أمر الحكومة ، تغرى الناس على تحديد النسل ، ثم تعطى
مكافأة لمن ينجب أطفالا . لو كنت من الحكومة لخصمت جنبيها من راتب كل
من ينجب طفلا .

فقال صديق في فزع :

— حرام عليك .

وقال بهنس :

— لا تؤاخذة فهذا كلام أغوات .

وكان سليمان جالسا على البعد يرقب ما يجري وقد تعكر صفوه ، يحس
إحساس الغريب ، وجعل يتلفت في قلق ، خيل إليه أن من في الفرح جميعا ضاقوا
ببقائه ، وأن النظرات التي وجهت إليه تحته على أن ينهض وينصرف ليتنفسوا في
راحة ، فهو جاثم على صلورهم .

وشعر بأنه ينكمش ويتضاءل وأنه يكاد يذوب من خجله من نفسه ، وسمع
صوت ضميره يقول له في وضوح : « لو لم تطرد من عملك لكنت الآن جالسا
معهم ، ولكنك طردت من عملك ومن دنياهم » ، ففاضت شجونه ، وهب

واقفا وقد عزم على أن يفر من ذلك الحرج الذى بات يملأ خواطره ومشاعره
وفراغ فؤاده .

وانطلق إلى حيث كانوا جالسين وهو مرتبك يتعثر فى مشيته ويتأرجح فى لفتته ،
حتى أصبح على بعد خطوات منهم ، فلمحه عبود ، فقام إليه مرحبا وهو يقول :
— سليمان ! تعال هنا إلى جوارى .

وفسح له مكانا ، فقال سليمان فى صوت متهدج :

— شكرا . أريد أن أنصرف . السهر يضر صحتى .

ومد يده ليصافح عبود وصوت ساخر يرن فى أعماقه : « صحتك ! وما قيمة
صحتك ؟ ليتك تموت وتستريح » . واربد وجهه ، بيد أنه راح يقاوم انفعالاته ،
ويحاول أن يرسم بسمه على شفثيه ، وفطن إلى أن تأثيره كان أقوى من محاولاته ،
وأن أى عين تنظر إليه تكشف فى يسر ما كان يعانيه ، فقال وهو يتأهب للفرار :
— مبارك يا عبود .

وانصرف لا يلقى على شىء دون أن يحاول أن يجيبى باقى أصحابه ، وراحت
نظراتهم تتبعه ، وقال صديق :

— ما أقسى أن يعيش إنسان بلا عمل ولا أمل !

وسيطر عليهم السكون ، ولاحت على محياهم عواطفهم التى حركها ظهور
سليمان واختفاؤه ، وسرعان ما تبخرت تلك العواطف لما عاد المغنى الأسود
ليطرب الحاضرين .

ونظر إليه توفيق فى دهش ، ثم التفت إلى مأمون وعبود وقال :

— ماذا يفعل مرجان هناك ؟

فقال مأمون فى بساطة :

— يغنى . ألم تسمعه وهو يغنى ؟

فقال توفيق وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

— أبدا .

وسرى صوت مرجان عذبا حنونا ، وارتفعت آهات الناس وصيحات

الإعجاب ، وتوفيق ذاهل يكاد ينكر ما يجرى حوله : « من يصدق أن هذا هو مرجان الذي يفأق ويثأق إذا ما وجهت إليه جانب سؤالا أى سؤال ؟! » .
وراح ما وقر في نفسه عن مرجان يتلاشى ، وأحسن نحوه شيئا من التقدير والإكبار ، والتفت إلى مأمون وعبود والشيخ حسن وقال مازحا :
— ما كنت أحسب أن مرجان يتواضع بقبوله العمل عندنا .
وصور له خياله أن مرجان يقول له : « احمدوا ربنا أنى قابل أن أعمل عندكم طباحا وخداما وسفرجيا » .

وضحك توفيق ورفت بسمات الرضا على الشفاه .
وصعد مأمون إلى حيث كانت النسوة وأعلنهن أن العريسين صاعدان ، فهرعت الفتيات إلى السلم ، ودوت الزغاريد ، وراحت أم فتحية تشق الجموع لتكون في استقبال حسن ، بينما كانت أم مأمون تلهث وتحسن أن الدنيا تدور بها وأن كل جسمها يحن إلى الأرض ، بيد أن عزيمتها كانت تصرخ فيها أن تظل على قدميها حتى تنصرف بهية إلى بيتها في أمان ، ثم بعد ذلك تنهار .
وجلس عبود إلى جوار بهية وحسن إلى جوار فتحية ، وراحت إنصاف ترقص أمامهن رقصا مثيرا ، تميل حتى يلمس رأسها حجر عبود ، ثم ترتفع بصدرها حتى تكاد شفتاها تلمسان خد بهية ، وشعر عبود بضيق ، إلا أنه كان يجاهد حتى لا يعكز ليلة صفوه .

ونفض عبود ووضع ذراعه في ذراع بهية ، وقام الشيخ حسن وظلت فتحية جالسة ، فأسرعت أمها تجذبها لتنفض ، وسار ركب الأزواج وإنصاف ترفهم هي وبعض النسوة من الجيران .

وسار كل من في الدار خلفهم إلا أم مأمون فقد أسندت ظهرها إلى الحائط ، ووضعت يدها على قلبها وهي تنظر إلى الأشباح المبتعدة ، وفجأة خيل إليها أن الأضواء التي كانت تتلأأ أطفعت جميعا ، وأن كل شيء يتراقص كأن الأرض زلزلت زلزالها .

وانطلق الشيخ حسن بعروسه إلى بيته ، وأغلق عبود بابا عليه وعلى بهية ، ثم

تقدم إليها وحملها بين ذراعيه ، وفي نفس الوقت دنا مأمون من إنصاف وقال لها :
— العقبى لنا .

فابتسمت إنصاف في إنشراح ، وقال لها مأمون وهو يضغط على يدها :
— والله لا أدري كيف أشكرك .

فقال إنصاف في بساطة :

— بهية أختي . يا ليت كنت أستطيع أن أفعل شيئاً أكثر مما فعلت .
وصعدا معاً إلى حيث كانت أمه ، فألفاها ممدودة على الأرض ، فهتفت في خوف :
— أمي ! أمي .

وهرول إليها وحملها بين ذراعيه وهو يقول :
— الدكتور .. الدكتور يا إنصاف .

وراحت إنصاف تعدوا لاستدعاء الطبيب ، ولحها صديق وتوفيق وهي تجرى
وتتلفت ، فقال لها صديق :

— ماذا جرى يا إنصاف ؟
— أم مأمون أغشى عليها وأريد أن أستدعي الدكتور حازم حالا .

فقال لها توفيق :

— تعال معي في سيارتي .
وقال صديق :

— سأصعد لأرى ماذا أستطيع أن أفعل حتى يأتي الطبيب .
وانطلقت سيارة توفيق ، وما أسرع أن غادت بالدكتور حازم ، وصعد

الجميع مهرولين إلى حيث كانت أم مأمون مسجدة في فراشها ، وأخذ الدكتور
يفحصها في عناية وقد تعلق كل العيون بوجهه ليتقرأ فيه أثر انفعالاته ، ولم

يستطع الدكتور أن يسيطر على سحنته فعبزت عن كل شيء .
وأطرق مأمون في أسى ، واقتربت منه إنصاف وقالت له :

— تشجع .
وسار الدكتور حازم مبتعداً ، ولحق به توفيق وقال له :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟

فقال الدكتور حازم :

— قلت لها : « لا تتحركى لا تغادرى فراشك أبدا ، ضحت بنفسها

لتزوج بهية ، لن تعيش أكثر من أيام » .

فقال توفيق :

— كان لا بد أن تضحى ، فالأمهات يعرفن أن وظيفتهن ليست إنجاب

الأولاد وحسب ، بل يشعرون أن عليهن إسعادهم .

وشرد توفيق قليلا ثم قال :

— إن كنا نريد أن نسعد من نحب فلا بد من التضحية .

الظلام منتشر في أرجاء شقة عبود ، والسكون مسيطر على المكان ، حتى إن

تقلبات بهية في السرير كانت تحدث أصواتا تعكر صفو الهدوء الذى ران على كل

شء . وفتحت بهية عينها ونظرت إلى عبود الراقد إلى جوارها ، فألفته في سبات

عميق ، فأشفقت عليه ووأدت فكرة أن تهزه لتوقظه ، بيد أنه لا بد أن ينهض ليتناول

عشاءه ويداعبها حتى يعود النوم إلى جفونهما ، فمالت عليه وراحت تمطره

بقبلاتها ، فتمطى في سعادة وفتح عينيه وقد توجت شفتيه بسمة رضا ومحبة .

وتظاهر بالنعاس وإن كان يرقبها من بين أهدابه المسبلة ، فلما مالت عليه

لتعاود تقييله ، لف ذراعه حولها وضمها إلى صدره في قوة وأخذ يلثمها هنا

وهناك ، فقالت له وهى سعيدة :

— عبود قم . نمنا كثيرا ، والله لا أدرى كيف سننام الليل .

فقال لها وهو لا يزال يضمها إليه :

— كما نمناه فى الليالى السابقة ، لا قلق ولا أرق فى شهر العسل .

وأفلتت من بين ذراعيه فى دل وأضاءت النور . كانت ترتدى قميص نوم من

الحرير ، وكان عبود يرقد وقد ظهر صدره العارى وذراعه العاريتان من الفانيلة

الاسبور ، كان الجو باردا ولكن حرارة الشباب كانت أقوى من برد الشتاء .
وقام عبود من سريره قفزا وراح يتلفت في الغرفة ، إنها نفس الغرفة التي كان ينام
فيها ، إلا أن ستائر أسدلت على نافذتها ، وكانت من نفس القماش الذي نجد به
اللحاف .

— واتجه عبود إلى الشباك ، وسارت بهية خلفه ، وراح يراقب القهوة مدة ،
ثم التفت إلى بهية وقال :

— سأنزل إلى القهوة .
فقالت في دلال :

— لا تتأخر لأني سأسخن العشاء .

— لم أذهب إلى القهوة منذ أن ماتت المرحومة .

وأطرقت بهية ، وساد الصمت برهة ؛ ونظر عبود إليها فألغى موجة من
الأسى طافت بها ، فمد يده إليها ورفع ذقتها وهو يقول :

— كلنا لها يا بهية .

ثم طبع على شفتيها قبلة هادئة وقال :

— ناوليني القميص .

وذهبت بهية تعاون زوجها على ارتداء ثيابه ، وكان يمنحها قبلة ثمن كل قطعة
تقدمها إليه ، وراحت تمسح له حذائه فقال لها :

— هذا يستحق أكثر من قبلة .

وضمها إليه في وجد ، وراح يمسح شعرها بيده ، ويمرر خده على خدها في
حنان ، وهو يحس أنه يحتوى الدنيا كلها بين ذراعيه ، وقال في صوت رقيق :

— بهية !

— روح بهية .

— أحبك .. بهية .

— عيون بهية .

— أعبدك .. عبود .

— روح عبود .
— إذا بقيتا هكذا فسيمر العمر كله دون أن نحس . أذهب إلى القهوة الآن
وإلا فلن تخرج الليلة .
فقال وقد هم بخلع الجاكته :

— ليس من الضروري أن أذهب إلى القهوة الليلة ، لاهو سنة ولا هو فرض .
فأسرعت إليه تمنعه من خلع الجاكته ، وقالت :
— اذهب يا حبيبي إلى أصدقائك . الليل طويل .
وقبلته ثم فرت منه بعيدا ، وقالت :
— مع السلامة .

وانطلق عبود سعيدا ، حتى إذا ما بلغ وصيد الباب وقف يتلفت ، ألفى دكان
فانوس مغلقا ، ووجد نوافذ شقة إنصاف مغلقة ، إنه لا يذكر أنه رآها مفتوحة
مرة ، ولما كان منشرح الصدر ، مشرق النفس ، فلم تذهب به الظنون إلى
ما كانت تذهب إليه . وتأهب لينطلق إلى القهوة ، إلا أن عينيه وقعت على مشهد جعله
يثبت في مكانه ويستشعر شيئا من الضيق ، رأى إنصاف والدكتور حازم خارجين
من بيتها وقد التصق كتفه بكتفها ، وهو يتحدث وهي تلتفت إليه بكل حواسها .
ومرت به والدكتور إلى جوارها ، ولم تخلج ولم تضطرب وقالت في ثبات :
— مساء الخير يا عبود .

وقال في صوت متهدج :

— مساء الخير .

وظل يتبعهما بنظره ، إنها تتثنى وتتلوى كأنما كانت تسير على شوكة ،
واشدت غيظه فزفر في ضيق وحقد على نفسه وعليها : « مالك وما لها يا عبود ؟
وهل ينتظر غير هذا من فتاة لعوب مثلها ؟ » .

ولمح بهنس قادما فانتظره ، ورآه يلقي السلام على إنصاف وعلى الدكتور ،
ولم يكتف بذلك بل كان يتبع إنصاف بنظره بعد أن تجاوزها ، فلما وصل إلى
حيث كان عبود قال :

— مساؤنا فل .

ثم عاد ينظر إلى ظهرها ، فتضايق عبود ، وزاد في ضيقه ذلك الصوت الهامس الذى هجس في نفسه : لماذا تتضايق يا عبود ؟ أتغار عليها ؟ أبدا أنا أغار للفضيلة ، ما الذى يدعونى لأغار على فاجرة مثلها ؟ » .

والتفت بهنس إلى عبود وقال : « يا عبود ، ما أحلى أن يموت الإنسان بين يديها .

وشرد بهنس لحظة ، ثم قال فى ابتهاج :

— غدا سأكون مريضا فى المستشفى ، سأكون فى رعايتها ، وسأعلق على الباب لافتة مكتوبا عليها « الحالة خطيرة . ممنوع الدخول » .

وضحك بهنس ثم قال وهو ينظر إلى عبود :

— عيني عليك باردة ، مورد الخدين ، هادئ النفس ، مستريح البال .

ثم شم الهواء وقال :

— تتبعث منك رائحة الصابون الممسك . إنى أحسد العرسان ، وأتمنى أن أبيت كل ليلة فى أحضان عروس جديدة . الزواج اللذيذ ، أليس كذلك يا عبود ؟

فقال عبود فى انشراح :

— لا أظن ما تتحدث عنه له صلة بالزواج ، إنه أحلام الشيوخ .

— أنا لا أزال فى قوة ابن العشرين .

ثم تنهد وقال :

— ما أحلى الشباب ! ليت الإنسان إذا ما بلغ الثلاثين يعود ثانية إلى العشرين .

فقال عبود وهو يبتسم :

— يقطع العمر ذهابا وإيابا بين العشرين والثلاثين ! جميل !

وأشرفا على القهوة ، ووجدوا حسن وفانوس وصديق قد احتلوا مكانهم عند

الراديو ، فاتجهوا إليهم ، ولحهما فانوس فقال فى صوت عال :

— أهلا عبود . أين كنت يا رجل ؟!

فقال عبود :

— غارقا في العسل . اللهم وعندك .

ثم حك بهنس جسمه بجسم عبود وقال :

— ليته كان يعدى .

فقال صديق وهو يبتسم :

— لو كان الزواج يعدى لبت كل ليلة يا بهنس مع عريس لتنقل إليك

العدوى .

فقال بهنس في إنكار :

— ومتى أتزوج إن كنت سأمضى عمرى مع المصايين بالزواج ؟

وقال فانوس لعبود :

— كانت العادة قديما ألا تغادر العروس بيت زوجها إلا إذا أنجبت طفلا

وحملت على ذراعها . الظاهر يا عبود أنك كنت تنتظر حتى تخرج علينا وقد

حملت ابنتك على ذراعك !

وضحك فانوس ضحكته المجلجلة ، ثم قطعها فجأة لما لاحظ أن الآخرين قد

أصاخوا سمعهم لما كان يذيعه الراديو . كان المذيع يعلن أن وحدات من الجيش

الإسرائيلى اخترقت حدود الهدنة في غزة ، واستخدمت أسلحتها الثقيلة في هذا

الهجوم ، وإنها قتلت عددا من المدنيين في هذا الهجوم الغادر .

وساد الوجوم ، وأحس كل من في القهوة بالخطر ، وقال حسن :

— وماذا بعد غزة إلا مصر ؟ يجب ألا نسكت على هذا العدوان أبدا .

قال صديق في مرارة :

— لو كانت عندنا أسلحة ما كنا نسكت على هذا الاعتداء .

قال حسن .

— ولماذا لا نحصل على الأسلحة ؟

فقال بهنس :

— من أين ؟

قال حسن :

— من الشيطان ، إن كنا نريد أن نحصل على أسلحة حقا ، فلن نعجز عن أن نحصل عليها .

قال فانوس :

— يمكننا أن نحصل عليها من أمريكا وإنجلترا .

قال حسن :

— لن يعطينا الغرب شيئا إلا إذا رضخنا لضغطه ، وانضمنا إلى معسكره .

قال فانوس :

— وهل سيعطينا الشرق أسلحة ونحن نقبض كل يوم على الشيوعيين ؟

قال صديق :

— الغرب يضرب علينا حصارا شديدا لتركع عند أقدامه ، إنى أخاف نتائج

هذا الحصار .

فقال حسن في سخرية :

— لن يستطيعوا أن ينالوا منا .

فقال عبود :

— لعنة الله على أطماع البشر ، وتجار الحرب . لماذا يعيش الناس أعمارهم

القصيرة في محبة وسلام ؟

فقال حسن :

— لأنهم بشر .

وقال بهنس :

— أنا مع صديق ، أخشى أن ينجح الغرب في أن يوهن عزائمنا بتضييق

حصاره علينا .

فقال حسن في إيمان :

— علمتني تجارب الماضي أن الله لا يريد بمصر شرا ، فكلما اشتدت

الأزمات ولاح أن الكارثة وشيكة الوقوع ، امتدت يد الله الرحيمة لتنقذ هذا

الشعب الطيب من النتيجة المحتومة . أتذكرون أيام انتشرت الملاريا في الصعيد .

(م ١٠ — السهول البيض)

هل كافحناها يا سيد صديق ؟

فهز صديق رأسه نفيًا ، واستمر حسن في حديثه قال :

— والكوليرا التي انتشرت من القرين إلى البلاد المجاورة ، من الذي أوقفها ؟

من الذي قاومها ؟ لم يقاومها أحد . استيقظنا ذات يوم وإذا بالغول المروع والفرع الأكبر ، يرحل عن بلادنا . وروميل ، الثعلب الألماني ، الذي كان يتقدم نحو الإسكندرية دون مقاومة ، من الذي أوقفه عند العلمين ؟ ولماذا لم يتابع زحفه المظفر ؟ لا لشيء إلا أن الله أراد بنا خيرا .

فقال فانوس :

— إذا كان ما تقول حقا ، فلماذا رمانا بالصهيونية ، وترك على حبلودنا

عدوا خبيثا يهدد أمننا ؟

فقال حسن في إيمان :

— لعله أراد أن يوقظنا لنقوم برسالتنا نحو البشرية .

فقال بهنس :

— وما هي الرسالة التي سنقوم بها ؟

فقال حسن :

— رسالة المحبة والسلام والإيمان بالإنسان والقيم الروحية .

فقال فانوس ساخرا :

— إننا نشكو ضعفنا ، وأنت يا سيد حسن تتحدث عن رسالتنا التي

سنؤديها للبشرية .

فاعتدل حسن في جلسته ، وقال وهو ينظر إلى فانوس :

— مثلنا ومثل يهود إسرائيل الآن كمثل النبي صلى الله عليه وسلم ويهود المدينة ، كانوا قد

عاهدوه على حسن الجوار وعلى أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما داهمها عدو خارجي ؛ بيد أنهم كانوا في الخفاء يؤلبون عليه الأعداء . خرج زعمائهم إلى قريش وإلى القبائل العربية يغرونهم بقتال المسلمين واستئصال شأفتهم ووعدهم بمساعدتهم سرا ، واستجاب أعداء المسلمين للدعوة اليهود ، وخرجوا في جيش

عظيم ليداهموا المدينة ، ويقضوا على محمد ﷺ وأتباعه .
وعلم الرسول بما فعل اليهود ، ففكر في الأمر ، وأشار عليه سلمان الفارسي
بحفر خندق حول المدينة . وجاءت الجيوش وحاصرت المدينة ، واشتد الحصار ،
وزلزل المسلمون زلزالا شديدا . وبينما بلغت قلوب المسلمين الحناجر راح النبي
يتحدث عن فتح اليمن والشام واستيلاء المسلمين على إيوان كسرى . أصحاب
العزائم القوية ، يا سيد فانوس ، يذكرون في لحظات الشدة الأجداد التي تنتظرهم .
ويهود إسرائيل الآن وقعا معهم هدنة ، ولكنهم يتقضونها كل يوم ، ويعتدون
على خطوط الهدنة ، ويؤلبون علينا دول العالم الغربية والشرقية ، ويدعون ساسة
هذه الدول للقضاء علينا ، وإني على يقين من أن مصير يهود فلسطين سيكون
نفس مصير بنى قريظة وبنى النضير الذين خالفوا النبي ﷺ ثم نقضوا عهدهم .
فقال فانوس :

— لو كانت أمريكا قد اكتشفت في ذلك الوقت ، وكان اليهود قد سيطروا
عليها ، لكان من الصعب على المسلمين أن يقضوا على يهود المدينة .
فقال حسن في ثقة :

— سيأتي الوقت الذي تتحرر فيه أمريكا نفسها من الصهيونية ، فلن
يستطيع أنصار الصهيونية أن يخذعوا الشعب الأمريكي إلى الأبد ، ويومها
سيكون انتقام الأمريكيين ممن سخروهم لخدمة مآربهم وأطماعهم رهيبا .
فقال بهنس :

— أنت تحلم يا شيخ حسن .
وقال فانوس :

— اليهود أمهر من أن ينكشف أمرهم ؛ قتلوا السيد المسيح ونجحوا في أن
يخفوا عن أعين المسيحيين الذين آمنوا به فعلتهم الشنعاء . من من المسيحيين يذكر
اليوم أن اليهود هم الذين قتلوه ؟ ولكن لا بأس من أن تحلم يا شيخ حسن .
فقال الشيخ حسن :

— الأحلام هي بداية الأعمال الجلييلة ، وما أكثر الأحلام التي تحققت .

- ونهب عبود مستأذنا ، فقال له فانوس :
— لم نستأنس بك . لماذا كل هذه العجلة ؟
فقال بهنس :
— لا بد أنها كانت تسخن له العشاء ، لو كنت منه ما تركت البيت أبدا .
قال له فانوس :
— لك زوجتان وله زوجة واحدة ، فلماذا تحسده ؟
فقال بهنس وهو يلحق شفتيه ، كأنما وقعت عيناه على طعام شهى :
— زوجة في الثامنة عشرة بألف زوجة كالتي عندي .
وشرد قليلا ثم قال :
— غدا لن أعاد سريري .
وهمس في جوفه هامس : « ولو قبلتني زوجا فيكون شهر العسل ما بقى من
عمرى » .
وفي البكرة كان بهنس في المستشفى الأميري ممدودا في سرير ، وقد ارتدى
جلابيا أبيض ، وحلق ذقنه ومشط شعره ، وغسل أسنانه بالفرشاة وتطيب ،
وراح يرقب الباب يتعجل قدومها ويفكر فيما سيقوله ، ولم يندم أبدا على
ما فعله ، بل كان سعيدا لأنه استطاع أن يفعل ما قد يفعله أى مراهق شاب
جسور : « اللهم احشرنى في زمرة المراهقين ، وأدم على نعمة المراهقة يا كريم » .
وأقبلت إنصاف فراح يجول بعينه في مفاتها وقد انبسطت أساريه ، وأخذ
لسانه يרטب شفتيه ، ولحخته إنصاف فاتجهت إليه وقالت له :
— خيرا ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا .
فقال وهو يتنهد فى هيام :
— قلبى .
— ماذا به ؟
— عرف العشق .
فقالت وهى تبتسم :

- هذا ليس جديدا عليه .
- فمد يده وقبض على يدها في حنان وقال :
- لم يعرف الحب الذى أحسه هذه المرة من قبل أبدا .
- فسحبت يدها من يده وقالت :
- دع الهذر وقل لى بماذا تشعر .
- بقلبي يدق فى مرح ، بالمثل يسرى فى كل جسمى ، بدم الشباب يتدفق فى عروقى .
- بهنس ! اعقل وقل لى : ما الذى جاء بك إلى المستشفى .
- إننى جئت لأجد فرصة لأعبر لك عن عواطفى .
- فاعتدلت فى وقفها ، وقالت فى لهجة جادة :
- وماذا تريد منى ؟
- فقال فى ثبات :
- أن نتزوج .
- فلم تضطرب ، ووضعت يدها فى وسطها وقالت :
- يفتح الله . ؟
- وتهض من السرير ودنا منها وقال :
- أنا على استعداد لأن ألبى لك كل طلباتك ، اطلبى ماشئت .
- فقالت ساخرة :
- أنت لا تستطيع أن تلبى لى طلبا واحدا مما أريد .
- فقال فى حركة تمثيلية ، كأنما كان فارسا من فرسان العصور الوسطى :
- أنا تحت أمرك .
- فقالت وهى تبتسم فى استعلاء :
- لكى أقبلك زوجا لا بد أن تصغر سنك عشرين سنة ، وأن لا تكون قد عرفت الزواج .
- وعز عليه أن ينهزم فقال :

— أنا أصبى من أى شاب من شبان الحى ، أما زوجتى ...
فقاطعتها قائلة :

— زوجتك .
— أما زوجتى ، فلم يعد بينى وبينها إلا العشرة الطيبة .
فضحكت ضحكة طليقة ، ثم قالت :

— إذا كان ما بقى بينك وبين زوجتك العشرة الطيبة ، فلماذا تريد الزواج ؟
— العيب ليس عيبى ، استهلكنا قبل الأوان .
فقال إنصاف فى جد :

— اسمع يا بهنس ، أنا لن أبيع نفسى لأى رجل يتقدم إلى ، لن أفعل ما يفعله
أغلب البنات . لن أتزوج رجلا إلا إذا أحببته وأحسست أنى سأشقى إن عشت
بدونه ، إن وجدته فلن يهمنى إن كان طويلا أو قصيرا ، أسمر أو أبيض ، شابا أو
شيخا ، فقيرا أو غنيا ، لم يسبق له أن تزوج أو تزوج عشرات المرات . كل
ما أريده أن يتفتح له قلبى ، أن تعشقه روحى .
وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قالت إنصاف :

— إن كنت جئت إلى هنا لتفانحنى فى أمر الزواج حقا ، فوفر وقتك ومالك
وانصرف فى أمان .

فنظر إليها فى استعطاف :

— لا أمل ؟

فقالت وهى تدور على عقبيها :

— لا أمل .

وانصرفت وبهنس يرنو إليها ، وقد لاح على وجهه أنه قد شاخ .

كان مأمون قد تظوع ليكون من الفدائيين ؛ أحس بعد موت أمه وزواج بهية
أن روحه أصبحت ملكا له ، وأنه يستطيع أن يهبها لوطنه راضيا ، وللمغامرات
التي تملك عليه كل حواسه وتستهويه ، قليلا ما كان يذكر إنصاف وبهية وعبود

وحى المناخ وشارع الأمين في لحظات الحنين ، فقد كان في أغلب الأوقات يحمل
باللحظة التي سينطلق فيها خلف التلال والجبال ليقا تل العدو البغيض .
كان منذ الصباح الباكر يتدرب تدريبات عنيفة مع زملائه في صحراء
« أبو عجيله » ، يجرى مسافات طويلة ، ويرتقى التلال القريبة والبعيدة ،
ويسير على هدى النجوم ، ويلعب بالسونكى ، ويتدرب على استخدام الخنجر
ومصارعة العدو والالتحام معه ، فإذا ما انتهى التدريب وتفصد منه العرق ونال
منه الجهد ، عاد يجلس بالقرب من البئر ، ويمد بصره إلى القبة الحمراء ، يحلم
باليوم الذى سينطلق فيه مع رفاقه إلى قلب إسرائيل .
وأم مأمون وصحبه تدريبات اجتياز الحواجز ، وقطع الأسلاك الشائكة ،
وفتح ثغرات فى الجدران ، وإلقاء القنابل على الحصون ، واقتحام الموانع ،
وجندلة كل من يعترض سبيل الصواعق الثائرة المزججة المقضبة للقضاء على
الأعداء ، فتأهبوا ليغوصوا فى جوف الصحراء بلا طعام ولا ماء ، ليختبروا قوة
احتياهم وحسن تصرفهم وقدرتهم على انتزاع ما يسكتون به صراخ الجوع ،
ويطفنون به وقدة الظمأ ، من الطبيعة الشحيحة القاسية .
وخرجت السرية مع الفجر ، ولا شىء غير الرمال والجبال والسماء ،
وعزائم فتية ، وإرادات قوية وطدت النفس على احتمال المكاره ، وقهر قسوة
الظروف التى ألقوا بأنفسهم فيها طائعين .
وأشرقت الشمس والفتية يضربون فى الصحراء ، رعوسهم شايخة ،
وصدورهم العريضة ممتلئة ثقة ، وسواعدهم المفتولة صاعدة هابطة ، فى صعودها
دفعه إلى الأمام ، وفى هبوطها طى لخطوة قطعت فى سبيل بلوغ غرض ، وتأهب
لقطع خطوة أخرى نحو هدف ، إنهم ساروا وسيظلون سائرين النهار والليل ،
والصيف والشتاء ، وسنة فى إثر سنة ، إلى أن يتحقق الأمل الكبير ، أمل الملايين
من العرب ، وتعود الأرض الغالية المسلوبة إلى الوطن العربى الحريج .
وارتفعت الشمس والفتية فى طريقهم لا يلوون على شىء ، العرق يتصبب
منهم ، وأنفاسهم الحارة تلهب عزائمهم فيغنون السير وتطوى الأرض تحت

أقدامهم ، ويتتصف النهار وتشتد وطأة الطبيعة عليهم ، بيد أنها لا تنال من الأجسام المفتولة التي كانت في صلابة الصخور .

وبدأ الإحساس بالجوع ، ثم ارتفع صراخ البطون ، فصدرت الأوامر إليهم أن يبحثوا عن طعامهم في الفلاة ، فانتشروا في الصحراء ينقبون عما تجود به ، فراح فريق منهم يأكل الأعشاب ، وراح فريق يأكل الزواحف ، وعثر مأمون على ثعبان فقبض عليه بيد من فولاذ ، ثم فتح فاه وراح يلتهمه .
وجلسوا يستريحون قليلا ، وراح راسم الفتى الفلسطيني الطويل النحيل يقص على رفاقه قصته ، قال :

— كنت في دير ياسين ، أعيش مع أبي وأمي وأخت أصغر مني ، وقامت الحرب بيننا وبين اليهود ، وخرج أبي مجاهد مع المجاهدين ؛ كنت في ذلك الوقت في الثالثة عشرة من عمري ، وطلبت من أبي أن أخرج للقتال مع الرجال ، وكان أبي يميل إلى أن يأخذني معه ، ولكن أمي تشبثت بي ، وقالت إنى لا أزال طفلا . فبكيت وقلت لها : إنى رجل وواجب على أن أقاتل أعداء بلادى . ولكن أمي أبت على ذلك على الرغم من أنى كنت قد جبت مع أبي كل فلسطين ، وغبت عنها أياما طويلة . واستشهد أبى ، وبقيت إلى جوار أمي إلى أن دخل اليهود دير ياسين ، وحاولت أنا وأمى وأختى أن نفر من وجه الغزاة السفاحين مع من خرجوا هارين ، بيد أننا وجدناهم قد أحاطوا بنا ، ومد أحدهم يده ليقبض على ، فدفعته أمى بعيدا عنى ، فإذا بمجرم آخر يطعننا بخنجر معه في قلبها ، فصرخت صرخة مفزوعة ثم انهارت ، فأطلقت ساقى للريح وأنا مرعوب ، وكان يزيد في رعبى الجثث الملقاة في طريقي ، البطون مبقورة والوجوه مشوهة والدماء تسيل . ولحقت بفلول الهاربين من طغيان المعتدين ، وصرت لاجئا من اللاجئيين .
وصمت راسم ولاح في وجهه غيظ وقهر ومرارة ، وقال له مأمون :

— وأختك ؟

— لا أدرى ما حل بها ، أغلب الظن أنهم قتلوها .

قال مأمون :

— ما الذى يجنونه من قتل طفلة صغيرة ؟
— كان هدفهم إلقاء الرعب فى قلوب الفلسطينيين ليخرجوا من ديارهم
هاريين .

وساد الصمت برهة ، ثم قال راسم :
— إن صرخة أُمى لا تزال تَدوى فى أذنى على الرغم من انقضاء سبع سنين ،
وجث الضحايا التى رأيتها بعينى تصرخ فى ليل نهار أن أثارها .. متى نبدأ العمل ؟!
فقال له مأمون :
— صبرا يا راسم .

— إنى أعيش لأمل واحد : أن أدخل تل أبيب ، وأن أعتلى أعلى سقف فيها ،
وأن أرفع وجهى إلى السماء وأصيح : « نامى يا أُمى قرية العين ، فاليوم ثأرنا
لك ولكل الشهداء ، وعدنا إلى فلسطين » .
ودوى هتافه فى الصحراء ، أخذته حماسته فصاح دون شعور ، والتفتت
الجموع إليه ، ثم عاد الصمت وأطبق على الجميع .
واستأنفوا رحلتهم وجدوا فى السير حتى مالت الشمس للغروب ، وراح
الظلام يزحف لينشر رداءه الأسود على الصحراء ، وجعلوا يضربون فى الفضاء
فى جوف الليل ، وأحسوا العطش ولم يكن معهم ماء ، كان عليهم أن ينتزعوه من
جفاف اليد .

وفى منتصف الليل حفر كل فدائى حفرة فى الأرض على هيئة قمع ، ووضع فى
نهاية المخروط كوبا ، وغطى الكوب بشبكة ، ثم وضع فوق الشبكة حصى على
هيئة هرم قمته مقعرة ، وبعد أن انتهوا من هذا العمل ، أسلموا جنوبهم للرقاد ،
فراحوا فى سبات ، إلا أن راسم كان شاخصا إلى السماء ، وكان يتحدث كأنما
يروى مشاهد يشاهدها وينفعل بها ، بينما كان مأمون يصغى إليه ، قال راسم :
— كل أحلام يقظتى تدور حول قتال إسرائيل ، ولم أر نفسى مرة إلا وأنا فى
قلب إسرائيل أحمل قنابل ألقى بها على الأعداء ، ومدفعا رشاشا أحصد به من
كانت كراهيتهم تأكل قلبى ، إنى قتلت بن جوربون وجولدا ماير وموسى ديان

آلاف المرات ، وقد هممت أكثر من مرة أن أندفع وحدى إلى بلادى ، وأنا أحمل مدفعى أجدل كل من أقابله ممن دنسوا الأرض الطاهرة ، ثم ألقى مصرعى وأنا مستريح الضمير .

وظل راسم يتحدث ومأمون يصغى إليه ، إلى أن غلبهما النوم ، فساد المكان هدوء ما كان يعكّره إلا صوت الريح ، ورأى راسم فيما يرى النائم أن جحافل من جيوش العرب أطبقت على إسرائيل من كل جانب ، وأن أسراب الطائرات راحت تلقى عليها حممها من السماء ، والأساطيل تقذفها بالموت والدمار ، فهب من نومه وانتصب واقفا وهو يهتف ويصيح في ثورة وانفعال ، واستيقظ مأمون وخف إليه يضمه إليه ويتوسل إليه أن ينام .

وفي الفجر قبل أن تشرق الشمس ذهب كل منهم إلى الحفرة التى حفرها ، وأزاح الحصى ، ورفع الكوب فإذا به قد امتلأ بالماء ؛ وكان ذلك الماء الذى تجمع من الندى هو كل نصيبهم منه إلى أن يعودوا مرة أخرى إلى بحر « أبو عجيلة » .
ومرت أيام ، وتوطدت الصداقة بين مأمون وراسم ، وقرب بينهما اتفاقهما في وحدة الهدف . كان راسم لا يعيش إلا للقضاء على إسرائيل ، وكان مأمون يقول : « أمنيته أن أعيش حتى أرى نهاية إسرائيل ثم أموت » .

ودقت ساعة العمل ، ودب نشاط غريب في معسكرات الفدائيين ، وراحت السرايا تتأهب لاجتياح إسرائيل لإلقاء الرعب في قلوب المعتدين ، وللثأر لمن دهمهم بن جوريون بدباباته وأسلحته الثقيلة على حين غرة من سكان غزة .
والتفت راسم إلى مأمون وقال له :

— يعجبني فى الرئيس أنه لا يسكت على العدوان بل يرد الصاع صاعين .
فقال له مأمون :

— لو تركنا الغرب نحصل على ما نريد من أسلحة ، لكان لنا مع إسرائيل شأن آخر .

فقال راسم فى مرارة :

— الغرب خلق إسرائيل لتعيش ، ولن يعاوننا على خنقتها ؛ فإن أردنا أن

نقضى عليها فلا بد لنا أن نفهم أن ذلك لن يكون بإرادة الغرب أبدا .
ووقف الضابط يقول لرجال السرية الخارجين تحت إمرته : —
— إنا ذاهبون إلى بير سبع لنضرب لضربتنا ثم نعود . أوامرى ألا تبدر أية
بادرة من أحدكم إلا بعد أن أصدر أوامرى بما تفعلون .
وقال راسم لمأمون : —
— إني أعرف كل شبر في هذه المنطقة .
وانتشرت السرايا تتسلل إلى أهدافها وقد تدرت بظلام الليل الثقيل ، وراح
راسم ومأمون ومن معهما من الرجال يتقدمون في جرة ، ويمشون مشى اللبث
وأيديهم على خناجرهم ، وقد أرهفت حواسهم ، وراحت عيونهم تجاهد
لتخترق سواد الليل البهيم .
وقال راسم في صوت خافت : —
— أمامكم أنابيب المياه .
وتهمل الرجال وتقدموا في جدر ، حتى لمست أرجلهم الأنابيب ، وانقض
راسم عليها يريد أن يتلفها ، فقال له مأمون : —
— راسم ! ماذا تفعل ؟
— أقطع الماء عن المستعمرة .
— ليس الآن . دع هذا حتى نعود .
ومد يده وجذبه من كتفه فنهض وتقدم مع المتقدمين وقد تدفقت الدماء جارة
في عروقه ، وأحس عطشا إلى دماء من سفكوا دماء أمه وبقروا بطون الجبال
والأطفال والشيوخ الأبرياء في دير ياسين .
ورأى نفسه وهو يفر مرعوبا ورجلاه تفوصان في الدماء ، وعيناه لا تقعان
إلا على أجداث الضحايا ، وصيحات الأنين والفرع تدوى في أذنيه ، فكاد
ينسى نفسه ، ويندفع وهو يضيح إلى بضيح النور المنبعث من نار تندلع ألسنتها
في الأفق البعيد ، بيد أنه كبح جماح نفسه وإن كان قلبه يدوى نائرا بين جنباته .
وهمس مأمون : —

— أترى ما أرى ؟

وقال راسم :

— نعم . إنهم هناك .

وقال الضابط :

— خذوا حذركم ، اقتربنا من الهدف . لا يبدأ أحدكم بالعمل قبل أن أشير

إشارة الهجوم .

وتقدموا في حرص شديد وقد كتموا أنفاسهم ، ولاحت لهم خيمة كبيرة ، فأمرهم قائدهم أن يزحفوا على بطونهم وأيديهم على خناجرهم ، ودنوا من الخيمة حتى كادت أنوفهم تلمسها ، والتفتوا جميعا إلى قائدهم وقد حسبوا أنفاسهم ينتظرون إشارة الهجوم . ونفذ صبر راسم ، ولم يتحمل أن يتريث وأعداؤه تحت رحمة سلاحه ، فهب واقفا وصاح بصوت جهورى :

— الله أكبر . الله أكبر .

واندفع إلى الخيمة كالعاصفة ، ورأى مأمون ما فعل راسم خلفه يشد أزره ويحميه ، واندفع الآخرون خلفهما .

ألقت التكبير الرعب في قلوب اليهود ، وزاد في ارتباكهم المفاجأة وصيحات المهاجمين والأسلحة البيضاء المشهورة التي كانت تتألق في النور ، وتتابعت الطعنات ، ودوت أصوات الهلع ، وارتفعت الأنات ، وسقطت الأجسام لترقد رقدتها الأخيرة ، وساد الخيمة سكون لحظة ، ومالبت أن أجهد راسم بالبكاء ، وازتمى على الأرض يقبلها ويعفر وجهه بتراها وينتحب في حرقه كأنما قد مات للتو أعز من تعلق به قلبه .

ومال مأمون عليه ورفع بين يديه وضمه إليه ليواسيه ، وصدرت أوامر قائد السرية بالانسحاب السريع ، فقفلوا راجعين في جنح الليل ، حتى إذا ما بلغوا أنابيب المياه انكب راسم عليها يحطمها في حنق شديد .

وفي مساء اليوم التالي كان صديق وحسن وعبود وفانوس وبهنس في القهوة ، يصغون إلى المذيع الذى كان يعلن دخول الفدائيين من سورية والأردن وغزة

ومصر وتغلغلهم في قلب إسرائيل ، وعودتهم جميعا سالمين .

والتفت صديق إلى حسن وعبود وفانوس وقال :

— أيامكم كلها كفاح وبطولات وأعمال جسام ، لا أعاد الله أيام النذل التي عشناها والاستعمار جاثم على أنفاسنا ، لو كنت من شباب هذا العهد لتميت أن أكون من الفدائيين .

وصمت قليلا ثم قال وهو شارد ببصره :

— جميل أن يكون الإنسان بطلا ، وأن يحس أنه يؤدي حق بلاده عليه .

فقال له بهنس :

— أنت بطل يا صديق .. أنت تؤدي للناس خدمات جلية .

وقال صديق :

— إننا انتهينا . البركة فيكم .

وقال حسن :

— يا ليت تتاح لنا فرصة الكفاح في سبيل استرداد فلسطين .

قال له فانوس :

— الباب مفتوح على مصراعيه .. تطوع .

ولم يلتفت حسن إلى ما قال فانوس ، وقال :

— إنني أحس خزيا كلما فكرت أن عصابة من اليهود تحدث ملايين العرب

واستقرت في قلب وطنهم ، وأسست لها دولة تناوشهم وتقض مضاجعهم وتذل

كبرياءهم . وطالما أحسست أني وأنا وكل إخواني العرب سبب هذا الهوان ، فلو

وضع كل منا يده في يد أخيه وسرنا إلى إسرائيل على الأقدام لاجتئناها ، ولو

سقط منا مليون شهيد في هذه الموقعة فلن يكون ذلك كثيرا لغسل العار الذي

لحقنا . إنني أتمنى أن أموت في مثل هذه المعركة .

والتفت فانوس إلى بهنس وقال له :

— وأنت ؟

فقال بهنس وقد التفت عيناه ببريق خبيث :

— إني على استعداد للحرب إذا قيل لنا إن نساء اليهود غنيمة لنا .

فابتسم فانوس ، وقال عبود لهنس :

— اتق الله .

وقال حسن وهو يبتسم :

— بهنس يعبر عن روح المقاتلين وإن كان يمزج ، قرأت في كتاب عن نابليون

أن حصون فيينا وقفت صامدة أمام جيوشه التي هزمت أوروبا ، فقام نابليون

خطيباً في جنوده ، وقال : « خلف هذه الأسوار أجمل نساء العالم » . وقبل أن

ينتهي من خطابه كان الجنود يتسلقون أسوار الحصون .

وقال بهنس :

— لو كنت أحارب إسرائيل ، وقال لي قائدٌ مثل هذا القول ، لنبشت

جدران الحصون بأظفري .

دخل توفيق الورشة ، وأخذ يتلفت باحثاً عن عبود فلم يجده ، فعاد من حيث

جاء وركب عربة مكشوفة في القطار الصغير الذي كان ينساب في الملاحه ،

حتى إذا ما بلغ أحواض الملح التي كانت تتراعى على مدى البصر قفز من

القطار ، وذهب إلى حيث يجب عبود أن يقف ليمد بصره إلى السهول الناصعة

البياض لينشرح صدره ويفعل النقاء فؤاده ؛ بيد أنه لم يجده ، فذهب إلى عامل

كان يفتح صنادير المياه لتتدفق من الأنابيب إلى الأحواض ، وقال له :

— ألم تر عبود ؟

— كان هنا منذ قليل ، وقد طلب لإصلاح الطاحونة .

فدار توفيق على عقبيه واتجه إلى مكان الطواحين ، فألقى إحدى طواحين

الملح معطلة ، فمشى إليها وراح ينقب عن عبود عندها ، فألفاه منهمكاً في

إصلاح عطل طراً على الكهرباء فقال له :

— ماذا وجدت ؟

— تعرى سلك من أسلاك الموتور فسبب ماسا في الكهراء ، وقد غطيته .
واتجه عبود ليدير الطاحونة ، ومشى توفيق خلفه وهو يقول :
— أنت بارع يا عبود .
فقال عبود في بساطة :
— لم أفعل شيئا . كل ما فعلته أنى غطيت سلكا تعرى .

فابتسم توفيق وقال له :

— توقف مصنع فجأة ، واستدعى أصحاب المصنع خبيرا فأشار بعد أن
فحص عن الخلل بضرورة فك أجزاء رئيسية في المصنع والكشف عليها ، مما
سينجم عنه توقف الإنتاج شهرا ، فجاءوا بخبير آخر ، وبعد أن اختبر معدات
المصنع قال : « أتدفعون لى ألفا من الجنيهات إذا ما أدت المصنع الآن ؟ فقبل
أصحاب المصنع عرضه ، لأنه سينقذ إنتاج شهر على الأقل ، فقام الخبير وبمفك
صغير ربط مسمارا واحدا ، وإذا بالمصنع تدب فيه الحياة مرة أخرى . قال له
أصحاب المصنع : « تأخذ ألفا من الجنيهات لأنك ربطت مسمارا ؟! » قال لهم :
« إن ربط المسمار لا يساوى أكثر من قرش واحد ، ولكن خبرتي التي جعلتني
أضع أصبعي على الخلل دون أن أفك كل المصنع وأشل إنتاجه ، هي التي تساوى
ألفا من الجنيهات » .

وأنت يا عبود لا تستهن بما فعلت ، فخبيرتك هي التي قادتك إلى الخلل مباشرة ،
فمن يدري ماذا كان مآل هذه الطاحونة لو أن أحدا غيرك هو الذي جاء لإصلاحها؟
ورفع عبود سكين الكهراء بيده ، فإذا بالطاحونة تدور ، ويتأهب عبود
ليعود إلى ورشته . وقبل أن يتحرك يخرج توفيق من جيبه بعض النقود ويدفعها
إليه وهو يقول :

— هذا نصيبي فيما ندفعه لسليمان .

فقال عبود وهو يأخذ النقود :

— شكرا لك .

ولم يكن ذلك ما جاء توفيق من أجله ، إنه جاء ليحدثه في أمرينهما ، قال :

— بالأمس نشبت مشادة حامية بين جانيت و مرجان ؛ استأذن منها مرجان أول أمس في أنه سيضطر إلى أن يتأخر حتى منتصف الليل ، لأن بعض أقاربه جاءوا إلى بور سعيد ، وأنه سيسهر معهم ، فأذنت له . وعاد مرجان في الثانية صباحا ودخل لينام .

إن عيب مرجان أنه يقص كل ما حدث في نهاره أثناء نومه ، يحكى كل شيء ، في أمانة عجيبة ، إنه لا يهمل أدق التفاصيل ، فلما نام راح يتحدث ويغنى ، فقامت جانيت من نومها على غنائه ، وذهبت إليه ، وجعلت تصغى لما يقول في نومه ، فتيقنت إنه كان يغنى في فرح .

وفي الصباح لامته على كذبه ، وقالت له : إنه لم يسهر مع أقاربه بل كان يحى أحد الأفراس ، فأنكر مرجان ذلك ، فاشتد غضب جانيت وعنفته ، فلما ضيقت عليه الخناق قال : أنا حر أفعل ما أشاء . ثم أقسم ألا يعمل عندنا ، وطلب منى حسابه ، ولما كنت لأحب أن أفرط فيه ، فقد طلبت منه أن يمر على اليوم هنا ليأخذ حسابه . كان هدفي أن تمر العاصفة ، وأن تهدأ نفسه .
قال عبود :

— مرجان شاب طيب ، لن تعوضه .

— هذا رأيي ، فإذا جاءني فسأبعث به إليك لتعقله وتعيد إليه صوابه .
وعاد عبود إلى ورشته وقد سره أن مرجان لم يستكن لاستبداد جانيت ، وثار لحرته ، وعكف عبود على عمله وهو يصغى إلى ما يدور في نفسه : « حسنا فعلت يا مرجان . إن هذه السيدة الإنجليزية متعجرفة ، إلى لا أحبها .. تظن أنها من طينة أفضل من طينتنا . إنها لا تصرح بذلك بلنسائها ، ولكن كل حركة من حركاتها تؤكد هذه الحقيقة . أنت رجل يا مرجان . ماذا يهملك من أمرها ؟ أنت صاحب موهبة ، تستطيع أن تعيش في رخاء من صوتك . لماذا تقبل ذل العمل عندها ؟ توفيق رجل طيب ، ولكن ليس معنى ذلك أن تطأطئ رأسك لزوجته . الإنجليزية لتدوس على رقبتك . لا يا مرجان ، لن أنسبك عن عزمك ، بل سأحرضك على أن تتشبث بموقفك لتثبت لهذه المتكبرة أن لنا كرامة . توفيق

طلب منك أن تعيد إليه صوابه ، والأمانة تقتضى منك يا عبود أن تكون واسطة خير . أنت مسلم يا عبود وتحب المسألة . لا . أنا أكره الظلم . لا يمكن أن أعاون على إذلال إنسان ، إن مرجان سيتحرر من عبودية هذه السيدة ، فواجبى أن أعاونه على أن يتحرر . سأقول لتوفيق وأنا مرفوع الرأس : آسف يا سيد توفيق .. مرجان مصمم على رأيه .. لم أستطع إقناعه .. إنه يطلب حسابه . سيكون وجهى جامدا ، أما صدرى فستنتشر فيه ضحكة انتصار عريضة . أنت خبيث يا عبود ، كيف تشمت فى توفيق ؟! فى الرجل الطيب ؟! أنا لا أشمت فيه بل أشمت فى جانيت . ليتك يا توفيق لم ترتكب هذه الحماقة ، ولكن هل يرتكب هذه الحماقة إلا أناس طيبون ؟! » .
وأفاق عبود من شروده على صوت حسن ، فرفع عينيه إليه وقال :
— أهلا حسن .

فمد حسن يده إليه ببعض النقود وقال :

— نصيبى فيما ندفعه لسليمان .

فقال عبود فى أسى :

— مسكين سليمان ! لم يدفع له هذا الشهر أحد غيرك وغير الباشمهندس . اعتذر الآخرون . قالوا إنهم معذورون وإن تكاليف الحياة أصبحت باهظة هذه الأيام .
فقال الشيخ حسن :

— كان لا بد أن يحدث هذا ، طال الزمن بينهم وبين زمالة سليمان فانطفأت جذوة الحماسة التى هزت نخوتهم . الإنسان سريع النسيان .

فقال عبود وهو شارد :

— ما حدث لسليمان قد يحدث لأى واحد منا .

— الإنسان قد يشفق على جريح ، ولكنه لا يحس ألم الجرح إلا إذا أصابه .
وتأهب الشيخ حسن لينصرف ، فقال له عبود :

— مارأيك فى أن نذهب غدا إلى القابوطى نشترى سمكا لنا وللسليمان ؟

فقال الشيخ حسن وهو يتسمم :

(م ١١ — السهول البيض)

— إنا لا نهنا بطعام هذه الأيام .

فقال عبود في دهش :

— لماذا ؟

— فتحية تتوحم . لا تطيق أن ترى لحما أو تشم رائحة السمك .

فقال له عبود في حماس :

— مبارك . ستصبح أبا .

فقال حسن في سخرية :

— هذا أرخص إنتاج .

وانصرف حسن وعاد عبود يستأنف عمله وهو يفكر فيما قاله حسن :
« أرخص إنتاج؟! تقول ذلك يا حسن في استخفاف لأنك ستصبح أبا أما أنا فلا أجرؤ أن أقول ذلك . إني أريد أن أصبح أبا . أبا لأكثر من ولد . عشت وحيدا لأمي ، ولما ماتت أُمِّي أصبحت مهيض الجناح ، أريد أن تكون لي أسرة .. أسرة كبيرة ، أنا الذي عشت بلا أهل ، بلا سلاح . أريد أن أذوق طعم العزة . لماذا حملت فتحية ولم تحمل بهية ؟ آه لو كانت بهية عاقر الكنت أتعس الناس . أريد ولدا أشد به أزرى وأحقق حكمة وجودى في الحياة . ماذا أنتظر ؟ لا بد أن أعرض بهية على طيب ، والمال ؟ من أين آتى بالمال ؟ أقتر على نفسى ، فابنى أغلى من كل مال . سأطلب من إنصاف أن تذهب مع بهية إلى الطيب . لا . لا . لن تخرج بهية مع إنصاف أبدا . أين بهية من إنصاف . إنصاف تعرف ولا شك كل وسائل منع الحمل . حرام عليك يا عبود . سينتقم الله منك ولن يمنحك الولد الذى تشتهييه . استغفر الله .. استغفر الله .

سأطلب من بهية أن تعرض نفسها على طيب ، وإذا ثارت بهية وقالت له :
افحص نفسك أولا ؟ أتظعننى فى رجولتى ؟ وأنت ألا تشك فى أنوثتها ؟ ماذا يكون حالى لو ظهر أن العيب فى ، وأنى غير صالح لإنجاب أولاد ؟ يالطول شقائك يا عبود !

بهية تمنى الحمل وإنصاف تفزع من الحمل ، ما أعجب الدنيا ! مالك وإنصاف . لماذا تفكر فيها ؟ دع الخلق للخالق واتق الله يا شيخ .

ورفع رأسه إلى السماء وقال في ابتهاج :

— اللهم سترك . اللهم ارزقني ذرية صالحة ولا تدعني في هذه الدنيا فردا .
ولمح سليمان قادمًا ، فخف إليه يرحب به ويفر من نفسه ، قال :

— أهلا سليمان .

وقال سليمان في تقطيب :

— أهلا بك .

ولاحظ عبود القهر في وجه سليمان وقد زوى ما بين حاجبيه ، فقال له في رقة :

— مالك ؟

فانفجر سليمان قائلا :

— أعرف أني أصبحت ثقيلًا على قلوبكم .

— لا يا سليمان ، لا تقل هذا .

فقال سليمان وهو مطرق وفي عينيه دموع :

— هذه هي الحقيقة ، تصور يا عبود أن أعز أصدقائي رأوني وأنا قادم الآن

فتشاغلوا عني وتظاهروا بأنهم لم يشعروا بي .

فقال عبود وهو يجاهد ليبدو صوته طبيعيا :

— لا تتصور هذا يا سليمان . هذه أو هام .

— ياليت ! إني ذهبت إلى حمدان وسلمت عليه ، فرد على تحيتي في اقتضاب

واستأذن مني في جفاء . ادعى أن وراءه عملا يريد أن ينجزه . فرمى .. هرب

من وجهي .

وتهدد سليمان ثم قال :

— أعرف أني أصبحت حملا ثقيلًا عليكم ، أتظن يا عبود أني راض عن

حالي . إني حاولت أن أجد عملا ولكنني أخفقت ، فمن ذا الذي يقبل أن يشغل

عنده مريضا بالقلب . كتب على أن أظل عائلة على الناس إلى أن تنتهي حياتي .

ليتني أموت وأستريح .

فقال عبود في رقة :

— الشر بعيد .

ونظر سليمان إلى عبود وقال في مرارة :

— ياليتنى كنت أتمنى الموت حقا ، إني أخاف منه . أعلم أن حياتى أصبحت بلا هدف ولا أمل ، ومع ذلك أفزع من الموت . إذا ضاقت نفسى أو اشتدت دقات قلبى أهرع إلى الدواء وأنا مرعوب . لماذا أتشبث بالحياة ؟ لماذا أريد أن أعيش على الرغم مما أصبحت فيه ؟ ما كنت أحسب أن يأتى يوم أقبل هذا الهوان الذى أتمرغ فيه .

وربت عبود على ظهره وقال :

— هون عليك يا سليمان ، واصبر .

وهم سليمان أن ينفجر ، إنه رأى عبود يتجه إلى حيث وضع ملابسه ، فكظم غيظه ومضغ حقه ، فكفى عبود ما حمل اليوم من متاعبه . وأخرج عبود من جيبه ما كان يعطيه له كل شهر ، على الرغم من أن أغلب الزملاء لم يدفعا أنصبتهم .. رأى أن يتحمل هو بعض الضيق على أن يزيد آلام سليمان . وأخذ سليمان ما أعطاه عبود وانصرف ، وعاد عبود إلى عمله وشروده : « أعطيته من قوتك وقوت بهية ما يخجل به الزملاء . لماذا فعلت هذا ؟ إن استطعت أن تتحمل هذا شهرا فلن تقدر عليه شهرا آخر . لو مرضت بهية لأنفقت مادفعته له فى الدواء . الحمد لله إننا لم نمرض . ما أعطيته إياه ليس رزقى ، إنه رزقه . من يدرى قد يكون ما يقوله الشيخ حسن صوابا ، لعل الله يرزقنا برزقنا ورزق سليمان . ماذا نستطيع أن نفعل لو انقطع الرزق الذى يأتينا من السماء ؟ كلام جميل ، ولكنك لن تستطيع أن تسير على هذه الحال إلى أن يموت سليمان . يموت سليمان ؟! أتمنى موته لتوفر لنفسك بعض المال ؟! احفظ مالك ودعه لخالفه وهو كفيلى به . وما أدراى أن رزقى كله قد يذهب إذا بخلت بمالى ؟ ماذا لو أصبحت غدا شريدا طريدا مثل سليمان ؟ إلى من أذهب ومن ذا الذى سيتكفل لى وبزوجتى ؟ أكل هذا الرزق الذى يغمر الدنيا يقصر عن أن يوفر حياة كريمة لحفنة من البائسين الذين طحتهم قسوة الحياة ؟. » وسمع وقع أقدام بالقرب منه ،

فأفاق من شروده ، ونظر بعينين مفتوحتين ، بعد أن أطبق الواقع جفنه على عين خياله ، فرأى مرجان مقبلا عليه وهو عابس ، فخف إليه يستقبله ، قال له :
— أقابلت الباشمهندس ؟

فقال مرجان في صوت متهدج ينم عن الخوف والقلق :

— لا . رأيت أن آتى إليك لأتحدث معك قبل أن أقابله .

— حسنا فعلت ! ولو كنت ذهبت إليه ، لأشار عليك بأن تقابلنى أولا .
واعتدل عبود وقال :

— قال لى الباشمهندس إنك ثرت بالأمس وأقسمت ألا تعمل عندهم وطلبت حسابك . الحق لقد سعدت بما سمعت ، فمن حسن الحظ أن الله وهبك صوتا جميلا تستطيع أن تستغله لتضمن عيشة راضية . هذه الهبة هى التى حررتك من المذلة .. حررتك من أن تتحكم فىك سيدة متغطسة .. إنى سعيد بالقرار الذى اتخذته يا مرجان .

فأطرق مرجان قليلا ثم قال :

— فكرت طوال الليل فى هذا الذى تقوله يا عبود ، فوجدت أن الناس يدعوننى لإحياء أفراحهم لأنى لا أتخذ على غنائى أجرا ، فلو طلبت منهم ثمنا فسيعرضون عنى ، وقد أموت من الجوع .
فأحس عبود كأن يدا قوية تحاول أن تكتم أنفاسه ، ولكنه لم يشأ أن يستسلم لها فقال :

— صوتك يا مرجان يدر عليك ذهبا . لا تخف .

— بعد أن ثرت ثورتى وأقسمت ألا أعمل عندهم ، فكرت فى أمرى

فكدت أموت من الخوف ، ماذا يكون حالى لو أعرض الناس عنى ولم يدعونى لإحياء أفراحهم ؟ سأموت جوعا .

— تعمل فى بيت آخر ما كنت تعمله فى بيت جانيت .

فقال مرجان وهو مطرق :

— من تعرفه خير ممن لا تعرفه . إنى عملت فى هذا البيت من سنين وقد

ألفت من فيه وألفوني ، لذلك استقر رأبي بعد طول تفكير أن آتى إليك لتصلح ما بينى وبين الباشمهندس .

وأحس عبود مرارة ، حتى من في يده سلاح يواجه به الحياة لا يستطيع أن يتحرر من عبوديته ، من خوفه ، من أسر بطنه ، فقال :

— قابلنى الباشمهندس هذا الصباح وأخبرنى بما كان بينك وبين زوجته بالأمس ، وطلب منى أن أثنيك عن عزمك ، سأقول له إنى قابلتك مصادفة ، وإنى بعد إلحاح شديد نجحت فى أن أقنعك بأن تعود إليهم ، فلو ذهبنا نطلب الصفح فسيهون شأنك . إذا كنت ستعود فلا بد أن تعود مرفوع الرأس .

وتأثر مرجان وأراد أن يعبر عن عواطفه ، فضم عبود إليه وقبله ، وقال له عبود :

— لا تضعف ولا تخف وأمل شروطك ، وسيقبل منك كل ما تقول . هيا نقابل الباشمهندس .

وسارا إلى مكتب توفيق ، وقبل أن يدخلوا إليه قال عبود فى أسى :

— كلنا عبيد بطوننا .

كان ولهمز فى النادى وحده ، ينظر إلى قرص الشمس القرمزى الذى كان يغوص فى البحر وتداعب وجهه نسيمات الأصيل . ولم تنعش روحه مداعبات الهواء ، ولا الخضرة الزاهية ، ولا الزهور المتفتحة ، ولا سحر الطبيعة الأخاذ الذى أضفى جلاله على الشاطئ والماء والسماء ، فقد كان منحرف المزاج ، يفكر فى السنين الغامضة المجهولة الباقية فى حياته .

وظل يرقب الشمس الغاربة ، وإذا بصوت ساخر يرن فى جوفه ، « الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس » ولوى شفته فى امتعاض وزوى ما بين حاجبيه ، وأخرج غليونه من جيبه ووضع فيه الدخان ، ثم أطبق على شفثيه وشرد .

كانت الهند جوهرة التاج البريطاني وقد نالت استقلالها وقطعت قطعة غالية من إمبراطوريتنا ، وكان تساهل المحافظين هو السبب . وفي إيران أذلنا مصدق . ذلك الشيخ المتهدم الذي تجرى دموعه غزيرة لأى سبب . وفي العراق لنا أصدقاء ولكن هؤلاء الأصدقاء عجزوا عن أن يربطوا الدول العربية في حلف بغداد . حتى الأردن التى يحكمها جلوب باشارفضت أن تدخل هذا الحلف . واستقل السودان . وإن هى إلا شهور حتى نخرج من مصر . من ذا الذى أقر هذا الهوان ؟ لماذا نترك هذه البلاد ؟ هنا فى مصر يكمن الخطر الأكبر . ليت ساستنا يعرفون . آه لو عرفوا لتقضوا المعاهدة التى وقعوها ، ولتشبثوا بأظافرهم فى هذه الأرض . سنفقد كل شئ إذا خرجنا من هنا ، سنفقد الشرق وبتروال الشرق ، ومواقنا الاستراتيجية . إن الرجل لا يخفى نواياه . قال : بتروال الشرق للشرق ، فلماذا لا نريد أن نفهم ، وها هو ذا قد كشف عن هواه واشترى من أعدائنا السلاح . لو سمع ساستنا رأى ما غادروا أبدا هذه البلاد ، فجلاؤنا عن مصر سيكون الضربة القاضية على إمبراطوريتنا . إنى قلت ذلك مرات ولكن لم يستمعوا النصحى . بعد شهور سأرحل إلى لندن ، ولن أكون أكثر من ضابط متقاعد يمضى وقته فى قراءة الصحف والمجلات ، وتمضية ليلالى الشتاء الباردة أمام المدفئة . وأنا ولينز الذى كنت حركة دائبة ، وكنت هنا ملء السمع والبصر ، سأصبح شيئا مهملا ، لا يحس وجوده أحد ، وقد أموت وحيدا وتنقضى أيام قبل أن يكتشف موتى إنسان . ما أبشع هذا .

كانت أيامى هنا كلها سعادة ، كنت صاحب كلمة وصوله ونفوذ . الجميع يعملون لى ألف حساب ، الأبواب تفتح فى وجهى ، لا أستقبل إلا بالابتسامات والانشاءات .. ولينز جاء .. ولينز قال .. ولينز فعل ، وما كنت أفعل شيئا إلا لتوطيد أقدام بلادى ، وإذا بالحمقى يرضون بالجلاء !

لم تكن حياتى هنا فى أمان ، هددت بالقتل أكثر من مرة ، وكنت هدفا للفدائيين الذين اجتاحوا معسكرات القناة ، وجاءت أيام كنت أعيش فيها على فوهة بركان ، ولكنى كنت سعيدا لأنى كنت شيئا هاما ، وكانت لحياتى قيمة .

ترى ماذا ستكون قيمة حياتي بعد أن أعود إلى بلادى؟ سأعيش في سلام.
ألا سحقا لهذا السلام! ليتنى أقتل هذا وأنا في أوج مجدى على أن أموت في بيتي كما
تموت الكلاب .

لو كان العرب يأتون إلى بلادى سائحين لاشتغلت لهم مترجما ، وإلا ماذا
سأفعل بهذه اللغة التى أنفقت عمرى فى تعلمها؟ لقد قوض السياسة الجهلاء
إمبراطوريتنا ، وقوضوا معها كل آمالى .

ودار بعينيه فى المكان حتى استقرتا على مبنى شركة القناة ، فإذا بها تبدو له
كبارقة ضوء فى الظلام . هنا يا ويلزم مستقبلك . إذا كانت جيوشنا ستغادر هذه
البلاد ، فستبقى هذه الشركة . يجب أن تجد لك مكانا بها ، حتى إذا ما خرجت
مع الخارجين عدت إلى حيث يعرفون فضلك ، واستأنفت خدمة بلادك .

هذه الشركة لن يدوم عمرها أكثر من ثلاثة عشر عاما ، سينتهى امتيازها
بعدها ، ولن يقبل الرجل الواقف لنا بالمرصاد أن يجدد الامتياز . لا بد أن نضغظ
عليه حتى يقبل تجديد الامتياز مائة سنة أخرى . أنت واهم يا ويلزم ، لن يرضخ
لضغطنا . لا بأس ! أمامى ثلاثة عشر عاما ، من يدري ماذا سيجرى فيها من
أحداث . إننا مشهورون بأننا نعرف كيف نستغل الظروف لمصلحتنا . ستتاح لنا
أكثر من فرصة لتقليم أظافره ، وفرض سلطاننا . إن كان ساستنا غافلين اليوم
فسيستيقظون غدا .. بعد فوات الأوان . لا . لا يا ويلزم لا تكن متشائما . إننا
نفقد المعارك فى أولها ثم يعقد لنا النصر النهائى . كان هذا هو حالنا مع نابليون ومع
هتلر ... هزمنا نابليون بأموال اليهود ونفوذهم . وهزمنا هتلر بأموال اليهود
ونفوذهم ، وإننا نحتضن اليوم إسرائيل لنضمن أموال اليهود ونفوذهم .

إننا نمقت اليهود فى بلادنا ، ولكن السياسة تفرض علينا أن نصادقهم فى
الخارج ، أن نرتبط معهم بمعاهدات لتحقيق مصالحنا ، مادامت أهدافنا واحدة .
وغابت الشمس ، وترامى إلى سمعه صوت مؤذن يؤذن بالمغرب ، فأطرق
يصغى . ياطالما سمع أصوات المؤذنين ، بيد أن الصوت الآتى من بعيد حرك
أفكاره ، وجعله يتساءل : لماذا اندثرت حضارات وماتت فلسفات وتلاشت

مبادئ وأفكار ، وبقيت نواقيس الصوامع والكنائس وأصوات المؤذنين ؟ ربما لأن نفوس البشر تهوى التطلع إلى فوق ، بينما حضارات الشعوب وفلسفات المتفلسفين تحاول أن تشدهم إلى الأرض ، وقد تمرغهم في أوحالها .

وتذكر ليلة أن كان في الخندق في الحرب الطاحنة التي نشبت بينهم وبين النازية والفاشية ، وكان يغوص في الوحل ، والمطر يهطل من السماء ، وأنوار القذائف تضيء في الظلام كالبرق الخاطف ، وهدير أصوات الانفجارات يخلع القلوب ويلقى بها إلى الحناجر ، وقد تركز كل الوجود في كيانه ، في أنفاسه التي تتردد بين جنبه ، وظل يتلفت في رعب وما كان يعرف من أين يطلب العون ، وقد شغل كل من في الميدان بنفسه . فشخص يبصره إلى السماء ، وصلى صلاة خاطفة ولكنها كانت منبعثة من سويداء فؤاده . إنه لا يذكر أنه صلى صلاة خاشعة مثلها في حياته ، أحس في تلك اللحظة أن روحه اتصلت بقوة عظيمة ، نشرت الطمأنينة في أرجائه ، وأنزلت السكينة على قلبه .

ولمح توفيق وجانيت قادمين فنهض يستقبلهما مرحبا ، وكان صادقا في التعبير عن شعوره فقد أتاحت له فرصة أن يفر من وحدته ، وأن يعيش مع أناس يرتاح إليهم ويحس متعة في محادثتهم وإن اختلفت الزاوية التي ينظر منا كل منهم إلى الحياة . كان يحب توفيق ويحترم جانيت وإن كان في قرارة نفسه يخشاها ، فقد كانت في نظره أشبه بجندي كان في معسكره واطلع على مواطن الضعف عنده ثم انضم إلى المعسكر الآخر :

وقال توفيق في دهش :

— ما الذي جاء بك إلى هنا الليلة ؟

قال وليمز وهو يتتسم :

— أردت أن أكون في رفقة نفسي ، لتتاح لي فرصة محادثة رجل ذكي .

قالت جانيت وهي تتتسم :

— قالها برناردشو ، أليس كذلك ؟

فقال وليمز :

— قالها كل الأذكياء ، وإن كان برناردشو سجلها في بعض أقواله .

قال توفيق :

— آسف إن كنت قد حرمتك من لذة الحديث مع ذلك الذكي .

— أبدا . كنت قد بدأت أسأم صحبته ، حتى الأذكياء يبعثون على الملل إن

ظالت صحبتهم .

فقال توفيق مازحا :

— إني في صحبة غيبي مذ ولدت إلى أن أموت ، ولم أسأم صحبته .

فقال وليمز :

— لولا دخول الأذكياء من البشر بينك وبينه لأزهقت روحه .

ثم التفت إلى جانيت وقال :

— إن دخول جانيت في حياة إنسان خليق بأن يضفى عليها بهجة .

فقال جانيت في سرور :

— شكرا لك .

وقال وليمز في بساطة :

— نظرة من عينيك الجميلتين تملأ القلوب بالسعادة .

فقال جانيت في فرح :

— إنها مجاملة أن يتغزل إنسان في عيني بعد أن رأى عيون المصريات الجميلة !

فقال توفيق :

— بل إنها جرأة أن يتغزل رجل ويتغنى بجمال امرأة وزوجها الشرقى قاعد

يسمع . ألا تخشى أن تثور كرامتي وأعد ذلك إهانة لرجولتي ، فأدعوك للمبارزة !؟

فابتسمت جانيت وقالت :

— جميل أن يتبارز الرجال من أجلى .

وقال وليمز وهو يضحك :

— إنه لما يسعد روجي أن أموت في سبيلك .

وقالت جانيت في مرح :

— ما أجمل أيام الفروسية ! الفارس يخطف حبيبته ويعدو بحصانه الأشهب ،
والفرسان يجرون في أثره ، ثم تحتدم المعارك بين الرجال من أجل امرأة .
فقال توفيق مازحا :

— كان للمرأة قيمة في تلك الأيام .

ولم تشأ جانيت أن تفسد أحلامها فلم تعلق على ما قال ، وقالت وهي شاردة :
— وما أكثر ما حلمت بأن توفيق قد جاء على حصانه العربي . وقد ارتدى
زى الفرسان العرب وخطفني ، فقفز مستر جونس على حصانه وراح يعدو
خلفنا لينتزعني منه .

فقال توفيق في إنكار :

— مستر جونس ! رجل التأمين الأصلع ؟! كيف أمكن لخيالك أن يتصور
ذلك المغرور فارسا ؟ خيالك خصيب . ولا شك !

واستمرت جانيت في حديثها ، قالت :

— ولحق بنا الفارس جونس وشهر سيفه ، فأخرج توفيق سيفه من غمده
وراح يبارز جونس بيد ، ويحملني باليد الأخرى ، وإن هي إلا لحظات حتى
طعن توفيق جونس طعنة نفذت من قلبه لتخرج من ظهره .

فقال توفيق في امتعاض :

— لا . لا . إني أرفض أن أبارز هذا الجونس حتى في الخيال .

فقال ويمز :

— لماذا ؟

فقال توفيق :

— إنه كان وضعيا في كل تصرفاته .

وقالت جانيت :

— توفيق يكرهه مذ دخل علينا ونحن نتناول غداءنا يوم أعلن استقلال
الهند ، وضرب المائدة بقبضته وقال : كيف فرط الساسة الأغبياء في الهند ، الهند ،
لنا ، سفكت دماء آبائنا في سبيلها . كيف نتخلي عنها ؟ كيف نتركها ؟ كيف

فعل ذلك ساستنا الحمقى ؟

وأحس وليمز تعاطفنا مع جونس فكأما كان يعبر عن حقيقة شعوره ، فقد بدأت شمس الإمبراطورية تغيب منذ غابت عن الهند ، وقال توفيق :

— كنت أكرهه قبل ذلك . كانت كل تصرفاته معى بغیضة ، كان يحاول أن يدخل الحمام قبلى ، وكان يتعمد أن يغيب فيه ليغيظنى ، وإذا ما ترك أى من النزلاء قدارة فى الحمام أو فى أى مكان كان يسرع باتهامى ومهاجمتى على الملأ ، كان يسره أن يتال منى وأن يذل كبريائى ، كان يصور له وهمه وغروره أنه بإذلالى يذل كل الشعوب التى وضعها الله فى حوزته .
فقال له وليمز :

— لعل إحساسك بالغبرة هو الذى ضخم شعور كراهيته لك .

— أيدا . كنت أتعاطف مع الإنجليز البسطاء من العمال والفلاحين ، وكنت أحترم الإنجليز المثقفين ، إن نكبة بريطانيا فى أنصاف العوام الذين لا يفهمون حقيقة الأمور ، ثم يريدون بغرورهم أن يفرضوا آراءهم الخاطئة على سياسة الدولة .

وساد الصمت برهة ، لم يشأ وليمز أن يستمر ذلك الحديث فما جاء لتزجية الوقت ، بل جاء متعمدا ليخوض معهم فى موضوع خطير شغل باله وحرك كل مخاوفه ، وأراد أن يدير دفة الحديث إلى الوجهة التى يريد بها ، فراح يديم النظر إلى العلم المصرى المرفوع على النادى مدة ، ثم قال دون أن يجيد بصره عنه :

— ألا ترى شيئا جديدا فى هذا العلم يا توفيق ؟

فنظر توفيق إلى العلم نظرة فاحصة ثم قال :

— لا .

والتفت وليمز إلى جانيت وقال :

— وأنت ؟

وفطنت جانيت إلى أنه يريد أن يقول شيئا ، فقالت :

— أنى لا أرى فيه شيئا جديدا ، فماذا ترى أنت ؟

فقال وليمز وهو يهز رأسه :

— أرى علما أحمر يتوسطه منجل ومطرقة .

ونظر إليه توفيق في ضيق ، وقالت جانيت :

— تقصد صفقة الأسلحة التشيكية ؟

فهز وليمز رأسه أن نعم وقال :

— كشف الحياذ عن حقيقة مذهبه . كان حياذا خداعا يحاول أن يخفى ثوبه

الأحمر .

فقال توفيق في حماسة :

— ما كنا شيوعيين ولن نكون في يوم من الأيام شيوعيين .

وقال وليمز في سخرية :

— بهذه الصفقة فتحتم الأبواب للشيوعية لتتدفق إلى المنطقة . إنها دعوة

منكم غير كريمة .

فقالت جانيت :

— أنت تعلم يا وليمز أنهم لم يدعوا الروس إلى المنطقة ، بل أنتم الذين

دعوتموهم إليها يوم أشركتموهم معكم في ضمان مستقبل إسرائيل . إنهم هنا

سواء أتمت صفقة الأسلحة أم لم تتم .

— هذه الصفقة هي التي فتحت لهم الأبواب على مصاريحها ؛ سيعرفون

كيف يضغطون عليكم لينالوا كل ما يريدون .

قالت جانيت :

— وماذا كنت تنتظر منهم أن يفعلوا وقد منعتهم عنهم السلاح وأغدقتهم به على

إسرائيل ؟

— أنا لم نعط الإسرائيليين سلاحا .

قالت جانيت :

— أعطتها فرنسا طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة .

فقال وليمز في ضيق :

— أتصدقين ما يذيعه عبد الناصر ؟

— أنا واثقة من أن كل ما يقوله صحيح .

وقال توفيق في سخرية :

— وماذا أعطيتم لنا ؟

فقال وليمز في زهو :

— أربعين دباة .

— بلا ذخيرة ، بلا طلقة واحدة .

وقال وليمز :

— وكنا على استعداد لنرسل لكم بعثة بريطانية لتدريب جيشكم .

فضحك توفيق ضحكة ساخرة عالية حتى إن جانيت رمقته في دهش ، وقال :

— قد أكون أعلم الناس بما تفعله بعثاتكم العسكرية . كنت مكلفا للعمل

بالقوات الجوية أثناء حرب فلسطين ، وكانت البعثة البريطانية تعمل هناك إلى

ما قبل قيام حرب فلسطين بشهور قلائل . لقد تركت بعثتكم القوات الجوية

وليس بها إلا طائرة واحدة صالحة للاستعمال ، وكنا نذهب إلى المخازن للبحث

عن قطع الغيار لإصلاح الطائرات ، فكنا نجد في المخازن التي سهرت على تكوينها

بعثتكم عجبا ، كنا نجد أن البعثة طلبت تموين المخازن بستة وثلاثين جناحا أيسر ،

بينما لم تطلب إلا جناح طائرة أمين واحدا . وكانت تكدس المخازن بالأجزاء

الكبيرة التي لا تتلف أبدا ، ولا توصى باستيراد القطع الصغيرة سريعة التلف .

تصور يا مستر وليمز أن ثلاثين طائرة كانت معطلة ، لأن المخازن لم يكن بها

حلقات صغيرة من المطاط تمنع تسرب الزيت ، وأظن أن دهشتك ستزيد لو

علمت أن ثمن الحلقة الواحدة لم يكن ليصل إلى ثلاثة قروش ! كانت البعثة

البريطانية تستورد الطباشير والأقماع الصفيح والكبريت من إنجلترا ، كانت

وظيفتها أن تستنفد ميزانية وزارة الحربية دون أن تكون جيشا .

فقال وليمز في ضيق :

— أنت تبالغ يا توفيق .

فقال توفيق في حماسة :

— أقسم أن ما أقوله إن هو إلا بعض مارأته أثناء عملي بالقوات الجوية .
لقد بعنا في المزاد أطنانا من قطع الغيار بعد أن ثبت أن هذه الأطنان لا يرجى منها
فائدة ، وأنها لا تساوى الفراغ الذى تشغله في المخازن .

وقال وليمز :

— أتظن أن الروس سيعطونكم ذخائر كافية للأسلحة التى ستسلمونها ؟

فقال توفيق وهو يبتسم :

— المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وأنا واثق أننا مؤمنون .

وقال وليمز :

— هذه الصفقة لن تمر بخير .

فقال جانيت :

— لماذا ؟

قال وليمز :

— لا إنجلترا ولا أمريكا ولا أية دولة من دول الغرب ستسمح بأن تنتشر
الشيوعية في هذه المنطقة .

قالت جانيت :

— ألم يتحالف تشرشل مع روسيا في الحرب العالمية الثانية ، ألم يقل إنه على
استعداد ليتحالف مع الشيطان ، إن كان في ذلك التحالف نصر للديمقراطية ؟
لماذا لم يقل أحد في ذلك الوقت إن تشرشل فتح أبواب إنجلترا للشيوعية ؟ إن عبد
الناصر لم يتحالف مع الروس ، إنه وقع صفقة مع تشيكوسلوفاكيا ، سيأخذ
أسلحة وسيسد ثمنها قطننا . كان لا بد له أن يتسلح ما دامت إسرائيل تتسلح ،
اشترى بالقطن الذى أعرض الغرب عن شرائه ليخفق به مصر اقتصاديا ، أسلحة
يحمى بها بلاده من أى عدوان .

ونظر إليها وليمز نظرة فيها تأنيب وقال :

— أنت أكثر حماسة لمصر يا جانيت من كثير من المصريين .

فقال في هدوء دون أن تنفعل :
— قد يكون ذلك صحيحا لأنى أحس الخطر المحقق بهذه البلاد أكثر من
أهلها ، إنى أعرف حقيقة ما يكنه الغرب للشرق ، وأعرف الدوافع الحقيقية
للنزاع الناشب بيننا . وأظن أنك تعلم يامستر ولیمز أن أولادى سيكونون
مصريين ، وأنى أحب أن يعيش أولادى فى أمن وسلام .
وهز ولیمز رأسه وابتسم ابتسامة تقطر مرارة ، ثم قال :
— لن تمر هذه الصفقة بسلام . صبرا وسبرى .

كانوا جالسين فى القهوة يتسامرون ، الأغانى تنبعث من الراديو ولا أحد
يصغى إليها ، والأصوات تحتلظ وتمتزج ، والمكان قد عبق بالدخان المتصاعد من
السجاير والنراجيل ، وراح بهنس يروى كعادته بعض النوادر التى وقعت فى
القسم فى أثناء النهار ، وعبود وحسن وصديق يصغون إليه ، قال :
— أفرج اليوم عن سجين فجاء إلى لأستوفى له اجراءات الإفراج عنه ، فأخذ
ينظر إلى ثم بكى . قلت له : « لماذا تبكى وقد أفرج عنك ؟ » قال : « أبكى من
أجلك لأنك ستظل سجينا هنا حتى تموت » .
وضحك بهنس ضحكته الطليقة ، وقال عبود :
— الرجل على حق ، كلنا مساجين فى هذه الدنيا ، أنا سجين ورشتى
وبهنس سجين مكتبه فى القسم .
ولمح فانوس قادما فقال :
— وفانوس سجين دكانه .
ووصل فانوس إلى حيث كانوا جالسين فقال :
— ليلتكم سعيدة .
فقال حسن :
— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
وجلس فانوس وهو يبتسم ، ثم قال :

— لم تعد هناك ضرورة لاستمرارك في التدريب على ضرب النار يا شيخ حسن . سيتم الصلح بين العرب وإسرائيل .

— كلام فارغ .

— قبل العرب أن يتفاوضوا في الصلح على أساس قرارات الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .

فقال حسن :

— قبول العرب لهذا المبدأ ليس معناه أن الصلح سيتم ، لن تقبل إسرائيل أن تتنازل عن شبر من الأرض التي احتلتها طائفة . لا بد من أن تنتزع منها بالحرب .

قال فانوس :

— وإن قبلت إسرائيل ؟

قال بهنس :

— سنكسب منها أراض دون قتال .

قال حسن .

— لن تقبل إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة أبدا ، أنتم لا تعرفون اليهود . قال صديق :

— ولماذا يشغل الناس أنفسهم بأمور من المعروف أنها لن تتم ؟

فقال حسن :

— مناورات سياسية ، العرب يريدون أن يكشفوا للعالم حقيقة نوايا إسرائيل . فقال فانوس :

— ربما أراد إيدن أن يكشف للعرب أن جمال عبد الناصر قبل مبدأ المفاوضة مع إسرائيل .

فقال بهنس :

— ولماذا لا تقول إن عبد الناصر أراد أن يكشف إيدن ويورطه في تصريحات صريحة ، ثم يثبت للعالم أنه لا يستطيع تنفيذها .

والتفت حسن إلى صديق وقال دون مقدمات :

(م ١٢ — السهول البيضاء)

— ماذا فعلت في الخروف ؟

قال صديق :

— لم أجد بعد ما تريده . لا داعي للعجلة أماننا وقت طويل .

وقال بهنس :

— وما هي حكاية الخروف ؟

قال صديق في زهو :

— طلب منى حسن أن أشتري له خروفا يذبحه ليوزعه على الفقراء بعد أن تلد

فتحية .

فقال بهنس :

— وهل في الدنيا أفقر منا ؟ أنا لا آكل إلا الرأس .

والتفت فانوس إلى عبود ، وقال له :

— وأنت . متى ستذبح خروفا ؟ شد حيلك .

فقال بهنس مازحا :

— الظاهر أنه أم يعرف بعد طريق الأولاد .

واربد وجه عبود وارتبك واستشعر ضيقا ، وزاد في ضيقه أنه أحسن أن

اضطرابه قد بدا على تصرفاته ، فأراد أن يخفي ما يعتمل في جوفه فابتسم ، وفطن

إلى أن ابتسامته باهتة مضطربة قلقة فراح يعث في أصابعه ويتلفت ليعبد وجهه

عن النظرات التي صوبت إليه .

وقال بهنس لصديق :

— سأكلفك بأن تشتري لى خروفا مادمت خبيرا في الخراف ، لما عثر على

زوجة جديدة .

وقال فانوس :

— الحصول على زوجة اليوم أيسر من الحصول على خروف .

فقال بهنس وهو يضحك ويمد يده ويمسك كتف فانوس :

— أبدا ، لو أردنا خروفا لمددنا يدنا وأخذناه ، أما الزوجة فقد لا نحصل

عليها حتى لو فتحنا لها قلوبنا .

وشرد بهنس لحظة ، تذكر فيها يوم ذهب إلى المستشفى وادعى المرض ليعرض على إنصاف أن تكون له زوجة ، فطافت بوجهه سحابة من الكدر ، آه لو قبلته إنصاف زوجها لساق إليها ما تشاء من الخراف . وأراد أن يخرج من الخزن الذى كان يغمره فقال :

— نذر على لو وجدت الزوجة التى أتمناها لأذبحنك يا فانوس ليلة فرحى .

وضحك بهنس ضحكته المجلجلة ، وقال حسن وهو يبتسم :

— أمرك لله يا فانوس ، من سوء حظك أن بهنس ممن يوفون بالنذر .

وأراد فانوس أن يجاريهم فى مزاحهم فقال :

— لو كان ولا بد أن أذبح ، فإنى أفضل أن أذبح يوم تلد بهية .

وغضب عبود ، ظن أنه يريد أن يعرض به وهم بأن ينفجر فيه ، بيد أنه كظم غيظه وجاهد ليبتسم تلك الابتسامة التى تتأرجح على شفثيه لتخفى حقيقة ما يعتمل فى جوفه من انفعالات .

وأراد أن يفر من حديث الليلة الذى أخذ يدور حول أشياء تنغص حياته ، إنه بكل جوارحه يتمنى لو أن بهية قد حملت ، فتأخير حملها قد خدش كبريائه ونثر غبارا على رجولته ، فمال على حسن وقال له هامسا :

— مضت خمسة أيام من الشهر ولم ندفع لسليمان ما ندفعه له أول كل شهر .

فقال حسن بصوت عال :

— حرام على أن أحرم نفسى وأحرم بيتى من ثمرة عرقى ، لأعطي عاطلا

ليسكر بما أتصدق به عليه .

وضايق عبود أن حسن أعلن رفضه على الملاء ، فقال له :

— أنت تعلم أنه أرغم على ترك عمله ، لم يسع أبدا ليكون عاطلا .

فقال حسن فى سخرية :

— وما الذى أرغمه على أن يسكر؟ أنا لا أعطي مالى أبدا لمن ينفقه فى المعاصى .

فقال له عبود :

— ألم تكن تقول يا حسن إن ما نعطيه له ليس رزقنا ، بل رزقه ساقه الله إليه على أيدينا .

فقال حسن في حماس :

— كان رزقه قبل أن يكفر بنعمة الله ، فلما كفر بها منعه الله عنه .

فقال له عبود :

— ولماذا لا يكون رزقه وقد بخلنا به عليه ؟

— إننا لم نبخل به ، ولكنه هو الذى كفر بنعمة الله عليه . لماذا يسكر ؟ لماذا

باع نفسه للشيطان ؟

فقال فانوس :

— لعله يريد أن يهرب مما يقاسيه .

فقال حسن :

— لو كان مؤمنا ما هرب من مصيره ، بل لتقبله صابرا .

فقال بهنس :

— ما أضعف البشر يا شيخ حسن . ربك أعلم بهم من عباده . إنه غفور رحيم .

فقال الشيخ حسن :

— إنه مع مغفرته ورحمته قد أمرنا بإقامة الحدود ، برجم الزانى وقطع يد

السارق وجلد السكير .

فقال عبود :

— علينا أن نعطيه ما دمنا نعرف أنه فى حاجة إلى ما نعطيه ، وليس علينا أن

نساله فيم أنفقه .

— إننا لم نساله ، ولكنه أعلن على الملأ أنه ينفق ما نحرّم منه أنفسنا وبيوتنا على

المعاصى ، وأنا لا أعين إنسانا على معصية .

فقال عبود :

— علينا أن نعطيه وحسابه على الله .

فقال حسن :

— لن أعطيه شيئا ، وأرجوك ألا تعطيه وأن تنفض يدك منه .

فقال عبود :

— إذا لم نعاونه فسندفعه إلى أن يسرق ، إلى أن يقتل ، إلى أن يصبح مجرما .

فقال حسن :

— إنه سائر في الطريق .

فقال بهنس :

— أتريد أن تقول يا شيخ حسن إن كل من يسكر يصبح مجرما ؟

فقال حسن في ثبات :

— أريد أن أقول إن الخمر مفتاح كل جريمة .

فقال فانوس ساخرا :

— لا بد أن بيتي قد امتلأ بالمفاتيح دون أن أدري .

وقام عبود واستأذن وانصرف وخرج إلى الطريق ، ولم يتجه إلى بيته بل انساب في الشارع يجرد في السير ، وقد غرق في التفكير ، في طريقه إلى بيت سليمان . ودلف إلى مدخل البيت ، كان الظلام ثقيلًا وقد ملأت أنفه روائح عفنة كريهة ، وصعد بعض درجات متهدمة ثم طرق الباب طرقات وانتظر وهو يتفرز من الرائحة ويحاول ألا يملأ بها رئتيه .

ومرت لحظات ثقيلة خيل إليه فيها أن الحشرات والزواحف تتجه إليه من كل الأركان ، وأنها لن تلبث أن تسقط عليه من السقف ، فعاود الطرق على الباب في شدة ييد أنه لم يسمع لطرقة جوابا ، فخرج هاربا إلى الطريق .

وسار إلى حانة حقيرة قريبة من البيت ، وتقدم إليها في خطوات مضطربة حتى وقف عند بابها مترددا ، ومد عينيه فرأى سليمان ينهض ويحتضن أحدر رفاقه الشراب ثم يقبله ويضحك الآخرون .

وأحس عبود يدا قوية تهصر قلبه ، وامتلأت جوانبه بالشفقة ، ولم يخطر على باله أن يدور على عقيبه وينصرف من حيث جاء ، بل تقدم وانتظر حتى انتهى سليمان من إلقاء ما في الكأس الموضوعة أمامه في جوفه ، ثم قال :

— السلام عليكم .

فقال الجميع في أصوات مخمورة :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . تفضل .

والتفت سليمان ثم قام إليه يحتضنه ويقبله ويقول :

— أهلا عبود . أين كنت يا جميل ؟

وسحبه عبود بعيدا وقال له :

— أنت تقتل نفسك يا سليمان . لماذا تفعل هذا ؟ حرام عليك يا شيخ .

فقال سليمان :

— تعال .. تعال اشرب معنا .

وحاول سليمان أن يجذب عبود ليشرب معه ، ولكن عبود جذبته إليه وقال :

— سليمان ! أنت تضيع نفسك .

وضحك سليمان ضحكة ساخرة وقال :

— كلام جميل . أضيع نفسي . وأين هي نفسي التي أضيعها ؟

ضاعت من زمان يا عبود . ضاعت من يوم أن طردني الدكتور من الشركة .

لماذا طردني ؟ خاف أن أموت .. لقد مات بعدها من عمال الشركة ثلاثة ولم

أمت ، ومن يدري كم سيموت قبل موتي ، هل اكتشف الدكتور أنهم سيموتون

قبل أن يموتوا ؟ لماذا لم يتركني أعمل حتى أموت كما ماتوا ؟ رفض أن يتحمل

نتيجة السماح لي بالعمل . تشكرا يا دكتور . أنا لا أزال حيا يا دكتور للأسف

الشديد ، بينما مات ثلاثة من عمالك الأصحاء ! هل لامك أحد على موتهم !؟ هل

حاسبك أحد على أنهم ماتوا !؟ ضميرك أبيض أن يدعني أموت ، يا ليت ضميرك لم

يستيقظ يوم قررت فضلي شفقة بي . ما أرحمك وما أرق قلبك ! تعال يا عبود .

تعال نشرب كأسا في صحة الدكتور .

وعاود جذب عبود مرة أخرى ، فتشبث عبود بالأرض وقال له :

— آسف أن أبلغك أن أصدقاءك غضبوا مما فعله بنفسك ، أفق يا سليمان

مما أنت فيه .

— غضبوا لأنى أسكر . أليس كذلك؟ لو كانوا يحسون ما أحسه لعذرونى .
إنى أموت كل يوم مائة مرة ، أريد أن أنسى .. أريد أن أنسى أنى أصبحت عائلة على
الناس ، أصبحت حملاً ثقيلاً . أنتظن يا عبود أنى راض عما وصلت إليه؟ حاولت
كثيراً أن أعمل ، أن أجد أى عمل ، أن أثبت لى نفسى أنى أهل لأن أعيش ، لكنى
أخفقت ، أخفقت حتى أن أقوى بأى عمل خسيس .

فقال عبود وهو يرت على كتفه :

— هون عليك .

ومد سليمان يده فى جيبه وأخرج مافيه من نقود ووضعها فى يده ، وقال

سليمان :

— تصور يا عبود أنى عرضت نفسى على بعض مهرى الحشيش فرفضونى ،
أصبحت أرحب بأى عمل ولو كان غير شريف .

ولم يتحمل عبود أن يسمع من رفيق الأمس أكثر مما سمع ، فانسب خارنجا
وراح يوسع من خطوه كأنما يفر من شبح بغيض .

وسار وهو حزين ، وراح يفكر فيما قاله حسن وفيما قاله سليمان ، وفيما
انحدر إليه زميله الطيب الذى كان يطرق خجلاً إذا سمع كلمة تخدش الحياء ،
فامتلاً غيظاً ، وثارت دماؤه وراحت تندفق حارة فى عروقه .

وبلغ شارع الأمين ، وتقدم فيه بخطوات ثقيلة تنم عن وطأة مشاعره التى
تموج بها نفسه ، كانت أضواء المصابيح خافتة ، بيد أن الظلام المنتشر فى أرجائه
جعلله يحس أن الدنيا كلها قد لفت فى السواد .

ووقع بصره على شبح رجل وامرأة ، كانت المرأة تفر من الرجل وهو يتبعها
فى إصرار ، ووقفت المرأة ولطمت الرجل فإذا به يلطمها فى قوة دون أن
يضطرب ، وربما حتى عبود ، فاندفع كالعاصفة الهائجة إليهما ، ودون أن يفكر
سدد ضربة قوية بقبضته إلى وجه الرجل أودعها كل غيظه ، وإذا بالرجل يترنخ
ويستقط على الأرض .

ونظر عبود إلى المرأة وهتف فى دهشة :

— إنصاف؟! —

وراحت إنصاف تفره بنظرها في إعجاب وهي تقول في استغراب :

— أهو أنت؟ —

وقام الرجل وهو يرغى ويزيد ويقول :

— سأعرف كيف أرييك .

ثم دار على عقبه وزاغ في الظلام لا يلوى على شيء ، وقالت إنصاف لعبود :

— ضنايقنى وظل يتابعنى بألفاظ بذيئة فنهرته ، فزاد في مضايقتى ، فلم أجد

إلا أن ألطمه فلم يهرب ولم يتوار من وجهى ، بل رفع يده ولطمنى في جراحة عجيبة .

— رأيت كل شيء .

— والله لا أدرى ماذا كنت أفعل لو لم تنقذنى منه . شكرا لك .

— عفوا .

وتركها وراح يوسع من خطوه ، وجعل يفكر فيما فعله ، فمأذار بخلده يوما

أنه يتهور إلى حد أن يضرب رجلا بقبضته تلك الضربة الهائلة التي لا يدرى كيف

صدرت عنه ! ترى هل أخطأ فيما فعل؟ أما كان من الأجدر أن ينهر الرجل

ويأمره أن يعود من حيث جاء؟ وإذا كان الرجل قد ركب رأسه واعتدى عليه

بالضرب كما اعتدى على إنصاف ، فماذا كان يفعل؟ وراح يمرر يده على وجهه

ويصغى إلى الصوت الذى راح يرن فى أعماقه : « لا يا عبود . ما كان ينبغي أن

تضرب الرجل أبدا . كيف طاوعك قلبك على أن تلکمه تلك اللکمة التي

أسقطته على الأرض؟ إنه اعتدى بالضرب على امرأة عزلاء ، وما أدراك أن

إنصاف لم تشجعه على معاكستها؟ وكيف جرؤت إنصاف على أن تلطمه تلك

اللطمه وهي تعلم أنهما وحدهما فى الطريق ولن ينقذها منه أحد إذا ما هجم عليها؟

ما كانت امرأة من نساتنا تجرؤ على أن تقدم على ما أقدمت عليه إنصاف .

لا يا عبود . كان من الأفضل أن تقبض على الرجل وتسلمه للشرطة تقتص منه .

وما كان لك أن تضربه أبدا . لماذا يعتدى إنسان على إنسان؟ لماذا لا يعرف كل

إنسان حده؟ » .

وراح يفرك يده التي ضرب الرجل بها في غيظ ويستشعر ضيقا في أعماقه ، لم يكن راضيا على ما فعله ، بل كان حائقا على نفسه .

وصعد إلى بيته وهو مشغول ، كان يفكر في إنصاف وهو حائر لا يدري من أي معدن هي : أهي عابثة ؟ إن كانت عابثة لما ثارت لأن رجلا طاردها أو غازها أو أسمعها فحش الكلام . أهي شريفة ، ما كان لفتاة شريفة تتعثر في خفرها أن تقدم على ما أقدمت عليه إنصاف . أهي رجل ؟ ! لن يكون رجلا من يملك كل تلك الأنوثة الفائرة الطاغية . الأنوثة الفائرة الطاغية ؟ وكيف فطنت إلى هذا ياسيد عبود إذا لم تكن نظراتك إليها نظرات ليست منزهة عن الاشتها ؟ وفتحت ببهة له الباب وطوقته بذراعيه وقبلته وقالت :

— ما الذي أحرك يا حبيبي ، لقد برد العشاء .

أيقول لها ما كان بين الرجل وإنصاف ؟ لا . إنه لا يعرف أن ببهة تغار من إنصاف ولا تحب أن تسمع اسمها ، وحتى إن كانت ببهة لا تغار من إنصاف فماذا يقول ؟ أيقول لها إنه ضرب رجلا ؟ أيقول لها إنه وحش كالأخرين ؟ إنه أحد الديوك التي تتقاتل ، لأن ما يحركها هو غريزة القتال ؟ لا . خير له أن ينسى ما كان . ليت إنصاف تسكت ولا تروى ما حدث لفانوس .

لن تسكت إنصاف ، وسيوسع فانوس الأرض إذاعة ، وغدا سأكون هدفا للألسنة الطويلة التي لا ترحم ، وقال لببهة ليفر منها :

— سخني العشاء ، وسأبدل ملابسي .

ودخل إلى غرفته ، وقعت عيناه على بندقية مأمون فسار إليها ورفعها بين يديه ، وإذا به يصوبها إلى نفسه في المرأة ، ورن في أذنيه صوت حسن يقول : لا يمكن أن تعيش في سلام إذا كان الآخرون يعتقدون عليك ، ديننا يا عبود لا يقول : من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن ، بل يقول : فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .

وهز عبود رأسه ليطرد الصور التي كانت تتراءى له في ذهنه ، وأعاد البندقية إلى مكانها وهو يزفر في ضيق .

بيت صديق الفرارجي ينبض بالفرح والسرور ، فقد أنجبت فتحية طفلا جميلا بعث البهجة في كل القلوب . راحت الأم تغدو وتروح بين المطبخ والغرفة التي نامت فيها ابنتها وهي تحمل الينسون والمغات وهي تكاد تطير من الفرح ، فقد أصبحت جدة لأول مرة ، وتفجر في أعماقها نبع جديد من المحبة ، فجره الحفيد الوليد الواهن الرقيق .

وراحت أخوات فتحية يستبقن نحو الباب وهم يتصايحن في بهجة ، فقد جاء الشيخ حسن بالجزار ليذبح الخروف الذي نذر أن يذبحه في السابع من مولد ابنه . ودخل الجميع إلى الحمام يرقبون ما يفعل الجزار بالخروف وهم مسرورون ، ووقف صديق ينظر من بعيد وهو يبتسم ، لم تكن سعادته صافية ، بل كان يشوبها مخاوف أقلقته وعكرت انشراحه .

كان زواج فتحية من حسن كله بركة ، لم يكلفهم مالا طاقة لهم به ، وبرهم وغمرهم بهداياه ، إلا أنه فتح أمام بناته آفاقا جديدة وآمالا عريضة يخشى ألا تتحقق يوما .

كانت بناته قانعات راضيات قبل أن تتزوج فتحية . وكانت أمانهن لا تتعدى ملء البطون . أما وقد تزوجت فتحية وأصبح لها بيت وزوج وأولاد ، فقد اتسعت آفاق البنات ، ورحبت رقعة أحلامهن ، صارت كل منهن تتطلع أن يكون لها زوج مثل حسن ، يرعاها وينفق عليها ويغمرها بحبه وتنجب له أولادا . من أين له أن يجدهن أزواجا من طراز حسن ؟ إن كان حسن قد قبل أن يأخذ فتحية دون جهاز فأين الرجال أمثاله الذين يقبلون الزواج من فتيات لا يملكن إلا أنفسهن ؟ كانت فتحية محظوظة ، وقد غمرها الأصدقاء بالهدايا ، أما أخواتها ترى ما حظهن في الحياة !

الزواج اليوم من نصيب الفتيات العاملات ، فالشباب يتطلع إلى حياة أفضل . لن تتزوج بناتي إلا إذا التحقن بعمل . إنى لم أقصر في حقهن . طرقت لها

الأبواب لأجد لمن عملا .. لأدفع بهن إلى الحياة ، ولكن كل الأبواب أغلقت في وجهي . لا . لا لن أياس ، سأعود البحث لمن عن عمل . ليت الحكومة تعطينا غذاءنا وكسوتنا وتتكفل بالأولاد ! وهل قالت لك الحكومة أنجب خمس بنات ؟ ! وأحس حركة فأفاق من شروده والتفت ، فألقى الجزار وحسن مقبلين وابنته الصغرى في أثرهما ، وسار حسن مع الجزار حتى غادر الشقة ثم عاد ، وإذا بالبنت الصغرى تقول له :

— لماذا ذبحت خروفا اليوم ؟

فقال لها حسن :

— لأن النبي ﷺ نحر في اليوم السابع من مولد سيدنا الحسين خروفا ، وأعطى القابلة فخذة ؛ وأمر ابنته السيدة فاطمة أن تخلق شعر ابنها وأن تتصدق بوزنه فضة .

فضحكت الفتاة وقالت :

— من حسن حظك أن ابنك ليس له شعر .

وابتسم صديق راضيا ، والتفتت إليه ابنته وقالت له :

— هل ذبحت لي خروفا في اليوم السابع من مولدي ؟

وارتبك صديق وأشفق حسن عليه وأراد أن ينقذه من حرجه ، فأخذ الفتاة من يدها وهو يقول لها :

— تعالي نساعدن على تقطيع الخروف .

وذهبا إلى حيث كانت الأم وبناتها ، وأخذ صديق يغلو ويروح في الغرفة وهو مطرق يفكر :

خروف ؟! الخراف لم تعرف بيتنا قبل أن يدخله حسن ، الحمد لله أن استطعت أن أقوم بالإنفاق عليكم حتى اليوم . أنا أوفر لكن شيئا من المتعة . كانت حياتنا جافة قاسية . جافة قاسية ؟! والله لقد مرت علينا أيام كلها بهجة . ليت هذه الأيام تدمم ، ليتني أعيش حتى أزوجكن ، أو أجد لكن أعمالا شريفة . ماذا يكون حالكن لو مت غدا ؟ من من الناس يتكفل بكن ؟

حسن!؟ لماذا؟ لأنه تزوج أختكن؟ هذا ظلم . ظلم .
قال حسن ذات ليلة إن الدولة الإسلامية كانت تجعل لكل مولود نصيبا في
بيت المال ، لماذا لا تعطى الحكومة راتبا لكل من أبنائها؟ ألسنا جميعا أبناءها؟!
وجال بعينه في المكان وقال بصوت مسموع :
— أين سيجلس الذين دعوتهم الليلة يا شيخ حسن ليشاركوك فرحتك ،
وليس عندنا مقاعد لهم ؟
وفي العصر ملأ الشيخ حسن الشقة بالمقاعد ، وحمل إلى زوجته الشموع
لتوزعها على الجارات وأطفالهن ، الذين سيشاركون في الاحتفال بمرور أسبوع
على مولد ابنه البكر .
وجاء عبود وبهية ، ودخل عبود إلى حيث كان حسن وصديق جالسين ،
وسارت بهية إلى حيث كانت فتحية . ولما رأتها قبلتها وجلست إلى جوارها على
السرير ، فقامت الأم وحملت المولود ووضعت بين يدي بهية وهي تقول :
— العقبى لك .
وأحست بهية موجة من الأسى تنتشر في أرجائها . ولم تشأ أن تستسلم
لحزنها وأرادت أن تفر من نفسها ، فقالت وهي تنظر إلى فتحية وتبتسم :
— الحمد لله أن جاء ولدا . فلو كان بنتا لما وجد العريس .
فقالت فتحية وهي ترنو إلى ابنها في حنان ، وترمقه في وله :
— لا يا بهية . إنه قمر .
وقالت الأم وهي ترقب حركات بهية :
— سنرى ماذا سيكون عوضك .
فقالت بهية في ارتباك :
— الحمد لله أن بقيت فاضية حتى الآن ، لا أريد أن أشغل بالأولاد .
وتشاغلت بإعادة الطفل إلى مكانه ، وتبعته الأم بعينها : « يا كذابة ! ولماذا
حفيت قدمك إذن وأنت تدورين على المولودات ؟ » ثم قالت لها :
— لا يا بهية . لست معك . ما أجمل أن تلد المرأة في أول سنة من زواجها .

الأولاد زينة .

وسرى في الغرفة صوت أنثوى يقول للرجال : السلام عليكم . فقالت فتحية :
— هذا صوت إنصاف .

ودخلت إنصاف ، فقامت الأم ترحب بها ، قالت :
— أهلا .. أهلا خطوة عزيزة .

فقالت إنصاف صادقة :

— جئت أساعدكم في هذا اليوم ، فأنا أحب أن أشارك في الأفراح .

وذهبت إلى فتحية وقبلتها ، ونظرت إلى الوليد وقالت :

— جميل ! ما كنت أظن أن الشيخ حسن قادر على أن يأتي بولد جميل مثل هذا .
وضحكت الأم وقالت فتحية في انشراح :

— قولي هذا لبيهة .

فقالت إنصاف وهي تصافح بهية :

— سنرى بماذا سيأتينا عبود ؟

فقالت بهية في تحد :

— ابننا سينال الجائزة الأولى في الجمال .

فقالت إنصاف مازحة :

— الحلو حلو الطبع ، ولا يعيب الرجل إلا جيبه .

وقالت لها الأم :

— العقبى لك . نفرح بك قريبا إن شاء الله .

ولم تستطع بهية أن تكتم شعورها قبل إنصاف ، فقالت لها :

— أنت جميلة يا إنصاف ، فلماذا لم تتزوجي حتى الآن ؟

وقالت الأم في سرعة حتى لا تخرج إنصاف :

— الزواج قسمة يا بنتي . وكل شيء له أوان .

ولم تغضب إنصاف ، وقالت في هدوء :

— لو كنت أقبل أي رجل يتقدم إلى لكنت تزوجت من سنين ، ولكني

لا أريد أن أتزوج إلا رجلاً أحبه ويحبني . أنا لا أريد أن أبيع نفسي لأى رجل كما تفعل أغلب الفتيات .

وأحست بهية ضيقاً ، وغازها ما ظنته غروراً من إنصاف فقالت لها :
— من يسمع هذا يظن أن الخطاب بروا درجات السلم !

فقالت إنصاف دون أن تثور أو تنفعل :

— الرجال يسرون خلفى أينما أسير . ألم يقل لك عبود : إنه ضرب رجلاً كان يضايقنى فى الظلام ؟

ونهبشت الغيرة قلب بهية وجعلت ترمق إنصاف فى حق ، فهذه الفاجرة تلعب بعقول الرجال ، إنها قادرة على أن تسلب عبود له ، وما أدراها أن ليس هناك علاقة بينها وبين زوجها ؟ ، وقالت لها فى ثورة :

— الرجال قد يشتهون النساء اللاتي يسرون خلفهن ، ولكنهم لا يتزوجونهن . فضحكت إنصاف ضحكة طليقة وقالت :

— لا تزالين طفلة ساذجة وإن كنت قد أصبحت زوجة . ما أدراك بما يريدك الرجال ؟!

فقالت بهية وقد بدرت فى عينها بادرة انتصار :

— عندك حق ، أنا لا أعرف إلا ما يريدك عبود ، أما ما يريدك الرجال فأنت أدري به منى وإن لم تتزوجى بعد .

وظلت بهية أن إنصاف ستتناثر شعاعاً وقد تنهار ، بيد أن إنصاف ظلت هادئة وقالت :

— هذا حق . أنا أعمل بين الرجال وأقابل كل يوم منهم ألواناً وأسمع من أحاديثهم فنونا ، حتى أصبحت أستطيع من طول معاشرتي لهم ، أن أقرأ ما يدور فى رءوسهم قبل أن تنطق ببعضه ألسنتهم .

وأحست بهية أنها لن تستطيع أن تنتصر عليها فسكت ، وراحت الأم وفتحية وإنصاف يتحدثن وبهية شاردة وقد انتابها خوف ، خشيت أن تتمكن إنصاف يوماً من أن تحطف منها زوجها ، وراودتها فكرة أن تختلى بغريمها وأن تتوسل إليها

أن تدع لها عبود ، فهي تجبه وتغار عليه ، فالرجال أمامها كثيرون ، إلا أن كبرياءها أثبت ذلك ، فظلت ترقب إنصاف وفي قلبها حريق .

وجلس في الغرفة الأخرى صديق وحسن وبهنس وفانوس يتسامرون .
قال بهنس :

— إننا ندعو إلى القومية العربية ، فهل نحن عرب ؟
فقال فانوس :

— إننا فراعنة .

فابتسم حسن وقال :

— هل قرأت التوراة يا فانوس !؟

— نعم .

— أتعلم أن سيدنا إبراهيم جاء إلى مصر ؟

فقال فانوس في حماسة :

— وقد أهدى إليه ملك مصر هاجر .

— وتعلم أن سيدنا إبراهيم تزوج هاجر وأنجب منها إسماعيل .

— نعم .

— إسماعيل هذا هو أبو العرب ، الذين نزلوا حول بحر زمزم التي تفجرت

تحت قدمه عندما كاد يموت من العطش في الصحراء .

فقال بهنس :

— تريد أن تقول أنا أخوال العرب ؟

فقال حسن :

— عرب الحجاز جاءوا من زواج العراق بمصر .

والتفت حسن إلى صديق وقال :

— هاجر المصرية ، أم العرب ، مدفونة في الكعبة ، لا يقرئها السلام أحد

من الحجاج المصريين .

فقال فانوس :

— أتريد أن نطالب بالكعبة ؟

فابتسم حسن وقال :

— أتذكر ماذا جاء في التوراة عن أمة إسماعيل ، عن العرب ؟

وفكر فانوس طويلا ثم قال :

— لا .

فقال حسن :

— أذكر وعدين جاءا على لسان الله سبحانه وتعالى ، قال لإبراهيم :

« وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه من نسلك » ، وقال لهاجر الجارية :

« مالك يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى .

احملى الغلام وشدى يدك لى لأنى سأجعله أمة عظيمة » .

ودخل مأمون فجأة فصاح الجميع مرحبين فى دهش ، وقاموا إليه يعانقونه .

وضم حسن إليه فى قوة وقال :

— مبارك يا أبا على .

وقال لعبود مازحا :

— شد حيلك وأطل رقابنا .

فقال فانوس فى خبث :

— اطمن . سيصبح عبود أبا عما قريب . عندى فى الدكان ما سيحقق المعجزة .

فقال بهنس فى لهفة :

— قل لى : ماذا عندك ؟

قال فانوس وهو يضحك :

— كتاب : كيف تنجب الأولاد فى ثلاثة أشهر .

وضحك الجميع ، وابتسم عبود ابتسامة مرة ، كان فى قرارته يمقت

الدعابات التى تخزها وخزا ألما ، وكان يزيد فى وقعها على نفسه أنه لا يستطيع أن

يفصح عن غضبه ، أو ينهاهم عن دعاباتهم البريئة .

وقال عبود لمأمون ليدير دفة الحديث وجهة أخرى :

- بهية في شوق إليك .
وفهمها حسن ، فقال لمأمون :
— تفضل . لست غريبا .
وسار حسن ومأمون خلفه حتى إذا ما بلغا الغرفة التي رقدت فيها فتحية
وقف مأمون خارجها ينتظر خروج أخته منها ، قال له حسن :
— ادخل .
قال مأمون بصوت عال :
— شكرا ، سأنتظر بهية هنا .
وبلغ صوته مسامع من في الغرفة ، فخرجت إليه بهية وارتمت في أحضانه
وهي تقول في فرح وانفعال :
— مأمون ! حمدا لله على سلامتك :
وخرجت إنصاف من الغرفة ، وراها مأمون فقال لها :
— إنصاف ! كيف أنت ؟
فقالت في ابتهاج :
— بخير . مادمتم بخير يا مأمون .
— معى لك هدية . لو كنت أعرف أنك هنا كنت أحضرتها معى .
— شكرا لك أنك تذكرتنى .
فقال مأمون وهو يقلب وجهه في إنصاف وبهية وحسن :
— أنتم معنا في كل وقت .
وعكر صفو بهية ترحيب أخيها بإنصاف وحديثه معها حديث ود صريح ،
لا كلفة فيه ولا حواجز ولا عقبات . ترى هل أدارت إنصاف رأس أخيها أيضا ؟ ماذا
فيها يسحر الرجال ؟ ولماذا تهفو قلوبهم إليها ؟ إن عبود لا يذكرها بخير أبدا ولكنه
كثيرا ما يذكرها ، أليس ذلك دليلا على اهتمامه بها ؟ ليتها لا تخاطر له على بال .
وعاد مأمون وحسن إلى حيث كان الرجال ، وما كاد مأمون يستقر في
مكانه حتى قال له حسن :

— لماذا لا تتزوج يا مأمون ؟

— كيف أتزوج وقد أقتل في أية غارة من الغارات التي نشنها على إسرائيل ؟
ماذا تفعل امرأتي إذا قتلت ؟ أتتكفى على طشتت غسيل لتحصل على قوتها ؟
و كأن حديثه جرح صديق وهيج مخاوفه ، فإذا به يعاود التفكير فيما يكون
حال بناته لو قدر له أن يموت ، وإذا به يقول في نفسه : « سأقبل الأقدام حتى أجد له
عملا . لعنة الله على الشركات الإنجليزية والفرنسية التي تغلق أبوابها في وجوههن » .
ودخل توفيق ، دعاه حسن في الصباح بمعاملة وما كان يظن أنه سيأتي ،
ولكنه جاء ولم يأت وحده ، بل كان معه مرجان وقد ارتدى الثياب التي يرتديها
في إحياء الأفراس .

وقاموا جميعا يرحبون بتوفيق أطيب ترحيب ، وذهب بهنس إلى مرجان
وصافحه ، ثم قال له :

— هات قطعة سكر نبات .

فمد مرجان يده في جيبه وأخرج منه قطعة ودسها في يد بهنس ، وفانوس
يرمقه وعلى شفثيه بسمه هازئة ، فقال له بهنس :

— يامس . لا منك ولا كفاية شرك .

وجلسوا جميعا ، ولم يجروا مرجان على أن يجلس مع توفيق في غرفة واحدة ،
فانسحب وجلس خارج الغرفة ، وقال بهنس لمأمون :

— أوحشتنا يا رجل ، أين كنت كل هذه المدة ؟

فقال مأمون في زهو :

— كنت أجوس خلال إسرائيل ، ألقى الرعب في قلوب الصهاينة .

وقال صديق :

— هل اشتركت في غارات مع الفدائيين على إسرائيل ؟

— في كل الغارات . كنا جماعة متجانسة ، وكان معنا راسم ، إنه شاب
فلسطيني يعرف كل شبر في فلسطين . في آخر غارة لنا سار راسم أمامنا ، كان
الليل حالك الظلام ولكن راسم كان ينطلق كالسهم يعرف أين هدفه ، وما إن

توغلنا قليلا حتى وجدنا خيمة أمامها سيارة من سيارات الجيش الإسرائيلي ، لا أدري كيف اهتدى راسم إليها . ووقفنا نتأهب برهة ثم صدرت إلينا الأوامر بالهجوم . كان هدفي تدمير السيارة ، أما راسم فكان هدفه من كانوا في الخيمة . إنه لا ينسى أبدا أنهم بقروا بطن أمه في دير ياسين . ألقيت على السيارة قنبلة فتطايرت أشلاء في الهواء ، وفي نفس الوقت كان راسم يقفز كالليث في وسط الخيمة ، وإن هي إلا لحظات حتى قضى على من فيها ، وما لبثنا أن قفلنا راجعين ، وعدنا خفافا إلى مواقعنا .

ولمح عبود مرجان يجلس وحده فقام وذهب ليجلس معه ، وتذكر في تلك اللحظة سليمان . إنه لن يأتي ، لن يشاركهم أفراحهم فحسن لم يدعه ، وإن جاء فلن يتردد في طرده .

ونظر صديق في إكبار إلى مأمون وقال له :

— إني أحسد شباب هذا العهد ، ما أكثر فرص البطولة أمامكم ! كنا في أيامنا نحشى أن نمر في طريق فيه جندي بريطاني أو أسترالي أو سنغالي خشية أن يطلق النار علينا دون سبب أو يطعننا بخنجر . لم تكن حياتنا تساوى شيئا .
قال توفيق :

— كنتم عزلا من السلاح في دنيا يستمد فيها الإنسان هيئته من هيئة السلاح الذي في حوزته ، فمن لا سلاح عنده لا هيئة له .

قال بهنس :

— أنا لا أفهم سببا لغضب إنجلترا وأمريكا ذلك الغضب الشديد لأننا أبرمنا صفقة الأسلحة التشيكية . إننا لن نحارب بهذه الأسلحة أمريكا أو إنجلترا .

قال حسن :

— يريدون أن نظل ضعافا لا حول لنا ولا قوة ، حتى نخضع لإرادتهم ونظل في منطقة نفوذهم ، نلتمس منهم حمايتنا .

قال صديق :

— نريد أن نقوى لتتفرغ للإصلاح . أيكرون أن نصلح أنفسنا ؟

قال حسن :

— إنهم يخشون هذا الإصلاح .

قال بهنس :

— ماذا يضيرهم لو أصلحنا حالنا !؟

قال توفيق :

— إذا جلب أحدنا الآلات لك الأرض لتشييد عمارة ضخمة ، فماذا

يكون مآل البيوت التي حولها ؟

قال بهنس :

— تنهار كلها .

فابتسم توفيق وقال :

— هذا حالنا وحال البلاد المتداعية حولنا ، كلما دككنا الأرض لنبنى

أنفسنا انهارت النظم البالية من حولنا . من كان يصدق أن الأردن يرفض أن

ينضم إلى حلف بغداد ، ويثور في وجه بعثة تمبلر التي ما ذهبت إلى العاصمة

الأردنية إلا لتبحث مع حكومتها موضوع انضمام الأردن إلى الحلف !؟

— إنهم يخشون يقظة العملاق الذي طال نومه .

ودوت زغاريد النسوة ، وارتفع صوت إنصاف وهي تدق الهاون :

— اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبيك .

ثم أطلقت ضحكة أنعشت بهنس وجعلته يشرئب بعنقه ويفتح عينيه كما

تفتحت نفسه .

وسار الأطفال وفي أيديهم الشموع يصيحون :

— حلقاتك برجالاتك .. يارب يا ربنا ، يكبر ويقي قدنا .

وسار الأولاد فرخين حتى هبطوا في الدرج وهم يتصايحون ، وحملت

إنصاف صينية عليها أكواب المغات وراحت تدور بها على الرجال ، حتى إذا

ما وصلت إلى بهنس تناول منها الفنجان وقال بصوت عال :

— يشربون شرباتنا أنا وأنت يا جميل قريبا إن شاء الله .

وضحك بهنس في فرح ، وتوجهت الأنظار إليها ، وقالت إنصاف في خفة :
— في الجنة ونعيمها إن شاء الله .
وضحك الرجال ، وأدبرت إنصاف وأكثر من عين تجول في مفاتها .

كان الجو شديد البرودة والليل ثقيل الأنفاس ، وكان عبود يفرك يديه ليحلب
الدفء إلى بدنه المقرور ، وينظر إلى هبة فيلمح في وجهها صفرة وذبولاً ، فيحس
عطفاً عليها ورغبة في أن يدللها ، فيحيطها بذراعيه ويضمها إليه في قوة وهو يقول :
— الدنيا برد .

وترف على شفتي هبة بسمة خفيفة ، وتهم بأن تفصح له عن شيء يشغل بالها
ولكنها تحجم خشية أن تكون واهمة فيما تظن ، ويمد عبود عينيه إلى نتيجة
متواضعة معلقة على الحائط ، ويلتفت إلى هبة ويقول مداعباً :
— الظاهر أننا أغنياء هذا الشهر !

— لماذا ؟

فقال وهو يتجه إلى النتيجة :

— لأنك لم تنزعي أوراق ثلاثة أيام مضت منه .

وراح ينزع أيام الرابع والعشرين والخامس والعشرين والسادس والعشرين
من شهر فبراير من عام ١٩٥٦ وهو يقول :

— لم يبق في عمر أمشير إلا أيام قليلة . مع السلامة .

وذهب إلى غرفته يرتدى ثياب الخروج ، فقالت له هبة :

— أخرج في هذا البرد ؟

— لولا أنني واعدت فانوس على أن أقابله في القهوة ما نزلت . سأريه نفسي ثم

أعود . لن أغيب عنك طويلاً .

ومال عليها وقبلها ، وأوجست هبة خيفة من مداعباته ومحاوله تدليلها ، فقد
طاف بذهنها أنه إنما يحاول أن يغمرها بعواطفه ليخفي شيئاً في نفسه ، إنه أمسي

يغادر البيت كل ليلة في مثل هذه الساعة . ألا تكون هذه الساعة هي التي تعود فيها إنصاف من عملها !؟

ودق قلبها في جوفها دقات عنيفة ، وزادت صفرة وجهها ولاح عليها الجهد ، فقد تحركت غيرتها وراحت تحرضها على أن تتشبث به ولا تدعه يخرج أبدا ، بيد أنها خشيت أن تفضح نفسها وتكشف عن غيرتها التي تضننها .

سألته في تلك الليلة التي احتفلوا فيها بمرور أسبوع على مولد ابن الشيخ حسن ، بعد أن عادا إلى بيتهما ، عن الرجل الذي كان يغازل إنصاف ، وعمما أبداه من ضروب الشهامة ، فاضطرب وارتبك وراح يتلجلج في الكلام ، مما أثارها وأكد لها أن بينه وبين إنصاف ما يحاول أن يخفيه عنها . وسألته في حدة : لماذا لم يخبرها بما فعله ، فقال لها في قلق : إن ما فعله كان شيئا تافها حتى إنه نسيه . فقالت له في غيظ : أتضرب رجلا وتلقيه على الأرض يا عبود ، ثم تقول إن ما فعلته شيء تافه نسيته ؟ أتريدني أن أصدق هذا . أنا ساذجة . صحيح . ليس لي خبرة إنصاف . صحيح . ولكني لست ساذجة للدرجة التي أصدق أنك تضرب رجلا ثم تنسى بعد لحظات أمضيتهما في قطع المسافة بين أول الشارع والبيت ، إن كنت حقا قد عدت بعد ما ضربت الرجل إلى بيتك .

وقامت مشادة حامية سافرة بينهما لأول مرة في حياتهما الزوجية ، انتهت بأن تمدد كل منهما في طرف من السرير وهو يلهث من الغيظ والضيق ، وقد التصق لسانه في سقف حلقه ، وعجز تماما عن أن يتحرك أو يتفوه بكلمة قد تقضى على التوتر الذي جثم على أنفاسهما .

إنها تذكر قسوة تلك الليلة ولا تريد أن تعيدها ، إلا أن عقارب الغيرة من إنصاف تلسعها وتغضبها : « لماذا تحب إنصاف أن تخطف رجلا متزوجا ؟ ألا يكفيها مأمون ؟ إنه يعزها وقد أهداها هدية أفخر مما جاءني بها » .

وسار عبود إلى الباب وبهية ترمقه في غيظ ، وخطر لها أن تفضي إليه بسرهما لتشدده إليها وتمنع من أن يخرج الليلة ، بيد أنها أحست خوفا وترددا ، وقبل أن تفتح فمها كان عبود قد أغلق الباب وراءه .

وخفت بهية إلى الشباك لترصد حركات زوجها من خلف خصاص نافذتها ، ولترى إن كان سيتجه إلى القهوة حقا أم سيولى وجهه قبله أخرى .
ووقف عبود على عتبة الباب يتأهب لاستقبال البرد اللافح ، ورمى بصره إلى نوافذ شقة إنصاف فألقى الضوء يشع منها ، فبدت الدهشة في وجهه ، فهو لا يذكر أبدا أنه رأى ضوءا ينتشر فيها ، إنها مغلقة دائما ، غارقة في الظلام والريية دائما . ترى أبلغت الجرأة بإنصاف أنها لم تعد تحفل بالجيران ، ولم تعد تهتم بأن تخفى عنهم عبتها !؟

وراح يهرول إلى القهوة ليفر من البرد ، وبهية في الشباك ترقبه ، حتى إذا غاب في القهوة أحست راحة وتحركت لتغادر الشباك ، إلا أن غيرتها أبت عليها أن تبدأ ، فراحت تنفث سموها : « ما أدراك يا عبيطة أنه يعلم أنك ستراقبينه ، لذلك اتجه أولا إلى القهوة ليخدعك . لو انتظرت قليلا فسترينه وهو خارج من القهوة يتلفت ثم ينسل إليها » .

ولم تقو على مغادرة الشباك وعصيان أوامر غيرتها ، فظلت واقفة ترصد باب القهوة بعيون مفتوحة ، ومر الوقت وهي تتلململ في وقفها ، ودب في ساقها التعب فدارت على عقبيها وذهبت إلى فراشها وارتمت فيه وهي مجهدة .
وخرج عبود وصديق من القهوة وتأهبأ للانطلاق إلى دارهما ، وإذا بصوت استغاثة يشق السكون ، فنظرا ناحية الصوت فوجدا إنصاف قد فتحت الشباك على مصراعيه ، وأطلقت لصوتها عنانه .

ووقف عبود ينظر مشدوها ، ولم يحس إلا بصديق يجذبه من يده ويقول له :
— تعال نرى ماذا جرى ؟

وخفق قلب عبود في رهبة ، وسار مع صديق وهو ذاهل وإن كانت أفكار شاردة تلمع في ذهنه كالبرق وسرعان ما تخفى : « هل قام إليها عشيق مغمور يريد أن يقتلها ؟ أمات رجل في أحضانها ؟ مالى أنا وهذه الفضائح ؟ » . وخيل إليه أن بهية انتصبت أمامه كالمارد — تصرخ فيه قائلة : ما الذى قالك إلى هناك ؟ ما الذى بينك وبين إنصاف ؟ ، فهم بأن ينكص على عقبيه ، إلا أن صديق الفرارجى كان

يجذبه من يده جذبا .

وصعدا في الدرج كأن شبحا يطاردهما ، وانطلقا في الشقة كالعاصفة وهما يتلفتان ، وراح عبود يدير عينيه في المكان وهو مشدوه ، لم يكن في الشقة أثاث إلا حصير بال وبقايا سجادة ممزقة كلح لونها ، وفي ركن من المكان صينية بها ثلاث قفل ، وعلى الحائط علقت بعض ثياب إنصاف ثم لا شيء آخر . إن أغلب البيوت التي يدخلها بيوت فقيرة ، ولكنه لم ير بؤسا مخيما على بيت كما رآه في شقة إنصاف ! .
وهرعت إنصاف إليهما وهي ذاهلة ، وقالت وعيونها زائغة :

— أمى .. أمى .

وجرت أمامهما إلى حيث كانت أمها مسجاة . كانت ممدودة على حشية وتحت رأسها وسادة ، وتحت الحشية بعض أكياس من الخيش فرشت فوق حصيرة ، وكانت السيدة الراقدة في الفراش نحيلة غاية في النحول ، لكأنما كانت جلدا شدا فوق هيكل عظمي ، شعرها أبيض ، ووجهها كله غضون وتجاعيد ، وقد فغر فوها فلم تكن فيه سنة واحدة ، وتهدلت جفونها على عينيها فلم يبد منها شيء . وأطرق عبود خاشعا وإن نزلت الرهبة بقلبه ، فقد استشعر أنه مائل بين يدي الموت ، وصاحت إنصاف مولولة :

— ماتت ! . ماتت .

وركع صديق ووضع أذنه على قلب السيدة وراح يصغى في انتباه ، وجعل عبود يرقبه وهو خافق الفؤاد ، بيد أنه لم يستطع أن يمد عينيه إليه طويلا ، فأضلع السيدة كانت بارزة تحت خد صديق بروزا يثير الشفقة ويعذب الروح .
ورفع صديق رأسه وقال :

— إنصاف ! ناوليني نشادر إن كان عندك .

وأسرعت إنصاف تعاونه وتناولته كل ما يطلبه .

— قليل من الكولونيا من فضلك ..

وراح يضرب السيدة على وجهها في رفق .

ولم يقو عبود على متابعة ما يفعلان فأدار لهما ظهره ، وشرذ بنظره ناحية

الباب ، ولكنه لم يكن يرى شيئا .

وهتفت إنصاف في فرح وأمل ، قالت :

— إنها تتحرك . إنها تفتح عينيها .

ونظر عبود وإذا بقلبه يدق دقات عنيفة ، وتوسع عيناه دهشة ، وينعكس على وجهه ما كان يقاسيه من ألم ، كانت عينا السيدة يضاوين ، ولأول مرة كره البياض ، كانت السيدة عمياء . وجف حلقه وراح ينظر إلى إنصاف في حيرة ويتساءل في نفسه : كيف تستطيع هذه التي تعيش في كل هذا البؤس أن تضحك؟! كيف تمرح كل هذا المرح الذي ينم على أنها خالية الفؤاد ، ناعمة البال؟! ما من فرح في الحى إلا شاركت فيه وبثت فيه روحا كلها خفة وإشراق؟!!

أحقا هذه التي تعيش في هذه المأساة هي إنصاف؟ إنصاف التي تقف عند فانوس وتركب الغادى والرائح بدعاباتها ، إنصاف التي رقصت ليلة زفافه رقصاً أثار السيدات قبل الرجال؟ إنصاف التي أضفت على الحفل الذى أقامه حسن لمولد ابنه روحا مرحة ، حتى إن توفيق خرج عن وقاره وراح يبادلها الدعابات! . لو أن أية فتاة أخرى كانت في مثل ظروفها لشاخت وتحطمت روحها ، وراح عليها الحزن ، وعششت الكآبة في أغوارها .

وقامت إنصاف وقد هدا روعها ، وقالت :

— أرجو كما أن تبقي معها إلى أن أعود بالدكتور حازم .

فقال له عبود :

— سيمكث معها السيد صديق ، أما أنا فعائد إلى البيت بعد أن اطمأنت أنها

بخير .

والتفتت إليه إنصاف وقالت :

— شكرا لك .

وخرجت تهرول ، وسار عبود وهو يفكر : « كنت أظن أن الدكتور حازم عشيقها وأنها كانت تقابله في بيتها؟ أين ذلك الرجل الذى يستطيع أن يمارس الحب في مثل هذا الجو المقبض البغيض؟ كان الدكتور حازم يعالج الأم البائسة

الضريرة ، وكان لا شك يتألم بينما أحسبه غارقا في أحضان الهوى يرشف أعذب القبلات ! .

كانت نوافذها مغلقة دائما ، وكنت أظن أنها ما أغلقتها إلا لتحجب مشاهد الحب المحرم عن أعين الجيران ، يا ويلتى ! لماذا تركزت كل ظنوني حول رغبات الجسد؟ وهل كانت ضحكاتها الخليعة ومشيتها الراقصة توحى إلا بالجحون والعبث؟ جاءت إنصاف إلى حيننا من أكثر من سنة ، فكيف خفى عن الجيران أن لها أما عجوزا ضريرة ؟ حتى فانوس لم يذكر أبدا أن لها أما . كانت إنصاف تزور كل الجيران ، وما كان أحد يزورها بحجة أن ليس لها مواعيد معينة يمكن أن تزار فيها . وما كانت هذه هي الحقيقة .

وتذكر ذلك اليوم الذى تجاوز فيه كل حد واهتمامها فى شرفها ، كيف سكنت على تطاوله عليها؟ ولماذا لم تحقد عليه؟ واستشعر نخجلا من نفسه وأحس أنه قد تضاعل .

وبلغ باب بيته وقال فى نفسه : « لن تصدق بهية أبدا أن لإنصاف أما كادت تموت الليلة . هل ستروى لهية ما حدث؟ إياك ! ستثور وتغضب وتتهمك بأن بينك وبينها علاقة ، وأنت خائن ككل الرجال ، ولن تصدق الحقيقة أبدا . سأقول لها إن صديق الفرارجى كان معى . ها ها ها ها ، وهل وجود صديق معك سيكتم أنفاس غيرتها؟ ستقول لك إنك أنت وصديق اتفقتما على تمضية سهراتكما الحمراء عند إنصاف . خير لك أن تسكت ولا تقول شيئا . إن سكت فلن يسكت صديق ولن تسكت إنصاف ، وستخبر فتحية بهية بما كان ، وتكون المشادة الكبرى التى تذرّف فيها الدموع ، وتشيع فيها الوجوه ، وتمزق الأعصاب ، وتفور مراحل الغضب .

خير لك أن تقول لها كل شيء الآن قبل أن تخبرها فتحية بما كان ، فنقول لك : لو كنت زوجتك ما سمعت أخبارك من الناس ! ، وإذا لم تصدقك فخذها من يدها إلى بيت إنصاف لترى الأم العجوز المحطمة التى تستدر كل شفقة وعطف . وكان قد بلغ باب شقته فمد بصره إليه ، وقال بصوت خافت :

— الناس كلهم يثقون في ، ويعرفون أني رجل شريف مستقيم ، إلا أنت يا بهية ! أمرى الله .

وفتح الباب بمفتاح معه وتقدم في اضطراب ، لم يكن قد استقر بعد على رأى .
وقرر أن يترث حتى يعرف حال زوجه ومقدار تقبلها بما سيفضى به إليها .
وراح يتلفت باحثا عنها ، ثم سار إلى غرفة النوم .

كانت بهية مستلقية في الفراش مسبلة العينين مصفرة الوجه ، فمال عليها
وطبع على شفيتها قبلة ، فهللت أساريرها وقالت وهي تحاول أن تنهض :
— الظاهر أنى غفوت قليلا .

وانتصبت واقفة ، بيد أنها مالبت أن ترنحت وناءت وعادت تستلقى في
فراشها ، فهرع إليها وقال في لهفة :

— بهية ! ماذا بك ؟

فقالت في صوت واهن :

— أحس بدوار .

فركع إلى جوار السرير وقال وهو يمدني وجهه من وجهها :

— أأستدعى لك الدكتور يا حبيبتى ؟

— لا . لا داعى للدكتور .

فنهض وهو يقول :

— سأذهب لأدعوه ، إنه هنا قريب . الدكتور حازم يعود الآن أم

إنصاف ، لقد أغمى عليها فذهبت إنصاف في طلبه .

وتحرك وهو يقول :

— أنا ذاهب .

واستشعر بعض الراحة لأنه أفضى إليها بما كان يخاف أن يثير الزوابع بينه

وبينها ، وقالت بهية في صوت ضعيف :

— لا يا عبود . لا تذهب .. تعال إني أعرف سبب تعبى .

ودار على عقبه واتجه إليها وهو يقول :

— وما سبب تعبك ؟

قالت وهى تسبل جفניה على عينها فى دلال :

— ستصبح أبأ يا عبود .

وكأئما تفجرت مستودعات عواطفه ، فأحس مشاعر غنية تتدفق إلى صدره

بلا حساب ، فقال فى فرح شديد :

— حقأ يا بهية !

فأومأت برأسها أن نعم .

ودار عبود حول نفسه وقلبه يرقص طرباً بين جنبيه ، ثم ارتقى عليها يقبلها ، ووظن

إلى أن ما يفعله قد يضر بابنه الذى فى بطنها ، فرفع نفسه عنها فى فزع وهو يقول :

— آسف إن كنت آئتك يا حبيبتي . استريحى .. لا تتحركى أرجوك .

سأحضر لك العشاء هنا . من الليلة لن أسمح لك بأن تبدلى أى جهد .

ورنا إليها رنوة طويلة زاخرة بالحب ، ثم قال :

— أنا فى شوق إليك يا بنى يا حبيبى .

وقالت بهية :

— قالت لى فتحية إنها ظلت تغسل الغسيل حتى قبل أن تلد بخمس دقائق .

قال عبود :

— حسن لم ينتظر ابنه كما انتظرت ابنى ، لا تجهدى نفسك أرجوك .

وراح يغدو ويروح فى الشقة كالطيف يعد لها العشاء ويحمله إليها وهو غارق

فى بهجة ، يتمنى لو يستطيع أن يفتح النوافذ ويصيح بأعلى صوت : بهية حامل .

بهية حامل .

وفى البكرة خرج إلى فانوس ، لم يطق أن يبقى فى البيت حتى يجين موعد

خروجه ، وما إن رأى فانوس حتى قال له :

— بارك لى .

وظن فانوس إلى أنه يريد منه أن يسأله : علام ؟ فأراد أن يداعبه ، فقال فى هدوء :

— مبارك .

- فقال عبود في مرح :
— ألا تسألني عن السبب ؟ سأصبح أبا . بهية حامل . بعد تسعة أشهر
ستصبح أسرتنا ثلاثة .
فقال له فانوس :
— أخيرا عرفت الطريق . مبارك .
— استعد يا بطل من الآن للزيادة التي ستطراً على بطاقتنا التموينية .
وأقبلت إنصاف متطلقة الوجه ، ضاحكة السن ، مرحة الأرداف ، حتى إن
عبود كاد ينكر ما جرى في بيتها بالأمس ، وقالت في إشراق :
— صباح الخير .
وقال فانوس :
— صباح النور . عيني عليك باردة ، متفتحة كوردة ، أتنام يا جميل على
ريش نعام !
وأحس عبود على الرغم من السرور الطاغى المعربد بين جنباته مرارة ، آه لو
يدرى ذلك المخدوع أين تمام ، ورأى أن عليه أن يسألها عن أمها ، فقال لها :
— كيف أصبحت أمك ؟
— بخير . الحمد لله .
وظن أن سؤاله عن أمها سيدهش فانوس ، بيد أن فانوس لم يظهر عليه أنه
دهش من السؤال ، بل قال لإنصاف :
— باركي لعبود . عرف طريق إنجاب الأولاد . بهية حامل .
فقالت إنصاف في صدق وحرارة :
— مبارك يا عبود . سأعرف كيف أحتفل بمولده .
فقال فانوس :
— بعد تسعة أشهر بإذن الله .
وقالت إنصاف في مرح :
— بهية حملت لما غارت من فتحة ، غيرة النساء تفعل أشياء كثيرة .

فقال عبود في حماس :

— هذا حق . غيرة النساء تزلزل الجبال .

وسارت إنصاف في طريقها ، وقف عبود عند رأس الشارع ينتظر السيارة ، ويعيد ما سيقوله لحسن مرات وهو منشرح الصدر متفتح النفس ، وأقبلت السيارة فصعدت في تودة ، وذهب إلى حيث كان حسن وجلس إلى جواره . وكان حسن مشغولاً في حديث مع بعض الزملاء ، فانتظر عبود على مضض حتى ينتهي حسن من حديثه ، كان يقول :

— وافق البنك الدولي على أن يقرضنا مائتي مليون دولار لتنفيذ مشروع السد العالي ، ولكنه اشترط أن يشرف على ميزانية الدولة ، ومن المؤكد أننا سنرفض هذا الشرط ، لن نقبل أبداً أن نعود إلى صندوق الدين .

واهترزت السيارة هزة عنيفة ، كان سائقها يتفادى شاباً يعبر الطريق ، فانتهر عبود هذه الفرصة ليعلم على الملأ الخبر الذي تعب من كتابته في صدره ، فقام يصيح قائلاً :

— حاذر يا أسطى على . نريد أن نربى أولادنا ، فقد أصبحت في أعناقنا أمانة .
ورمقه حسن في دهشة ، فما كان عبود يثور على السائق مهما ارتكب من أخطاء ، وما كان ممن يلقون الكلام جزافاً ، فالتفت إليه وقال :

— خيراً ! ما الذي جد اليوم ؟

فقال عبود في زهو :

— بالأمس كان في عنقى روح واحدة ، أما اليوم فقد أصبح في عنقى روحان ، هبة وابننا .

فضمه حسن إلى صدره وقبله وهو يقول :

— مبارك .

وسمع الجالسون بالقرب منهما ما دار بينهما من حديث ، فنهضوا يباركون لعبود ، وإن هي إلا لحظة حتى كانت الأصوات تنبعث من جوانب السيارة تدعو الله أن يبارك لعبود في ولده الذي سيرى النور بعد تسعة شهور .

وجاء توفيق إلى عبود في الورشة ، وطلب منه أن يذهب لإصلاح انفجار
أنابيب الماء في الملاحة ، فقال عبود دون مبرر :
— ربنا يستر . أريد أن أعيش لأرئى ابني .
فقال توفيق في دهش :
— ابنك !؟

فقال عبود وهو يبتسم :
— نعم . الذى سينزل إلى الأرض بعد تسعة شهور .
وركب عبود القطار الصغير الذى يجوس خلال الشركة ، وذهب إلى أحواض
الملح المترامية على مدى البصر ، ومد عينيه إلى السهول البيض التى بدت له فى هذا
الصباح ناصعة كالجليد صافية كاللبن ، وملاً رثيته بالهواء ، وطوح ذراعيه فى
مرح ، ونادى بأعلى صوته كأنما يريد أن يسمع الكون كله ، أعظم نبأ :
— سأصبح أباً .. سأصبح أباً .

كان ولينز يجوس بسيارته فى الليل خلال بور سعيد ، فقد كان يلقي عليها نظرة
وداع قبل أن يخرج منها مع الخارجين من الإنجليز . كان الهواء يهب رخاء ، وكانت
الليلة صافية ، بيد أنه كان كسير الفؤاد ، مضعضع النفس ، يحس حزناً ثقيلًا . كان
يستشعر فى أعماقه أنه يطوى آخر صفحة فى حياته الحافلة بالقطرة والكبرياء ،
ليهوى من مكانته الرفيعة المرموقة إلى أرض سواد البشر .
أين هو الآن مما كان فيه ؟ كان إذا ظهر يوماً فى بور سعيد فى زيه العسكرى ،
تلفتت إليه الأنظار وتنحنى له الهامات ، ويهرع إليه الناس لتلبية أية إشارة تبلى
منه ، أما الليلة فقد استأذن فى الذهاب لوداع أصدقائه فى المدينة التى طالما تمنى أن
يبقى فيها صاحب سطوة وسلطان حتى النفس الأخير .
وانساب فى شارع رمسيس وهو يدير عينيه فى المكان ، يحس أن دموعه تبلبل
روحه ، كانت دموع غيظ وقهر ، لأنه عاش حتى أرغم على أن يغادر المدينة التى

خيل له غروره أنها ضيعة من ضياع إنجلترا، أطلقت يده فيها هو وحفنة من زملائه العسكريين .

كان قبلة المقاولين والموردين والطامعين في أموال الإنجليز ، وكان بالمال الذي ينثره هنا وهناك يلعب بعقول الناس ، أما الليلة فهو بلا مال ، ولا نفوذ ولا سلطان ، ترى لو انفجرت عجلة سيارته ، أيتقدم لمعاونته أحد ؟!

وعرج إلى شارع النهضة ، وسار يملاً عينيه بالمشاهد التي كان يمر بها دون أن يحفل بها . إنها الليلة شيء آخر ، سيهفو إليها كلما انفرد بنفسه لتذكره بأيام قوته ، أيام أن كان أسطورة من الأساطير .

وزاد في ضيقه أن كل تفكيره كان يدور حول ماضيه ، لم يجر ذهنه مرة واحدة وراء مستقبله يحاول أن يكشف عنه ستره ، إنه لا يرى نفسه بعين خياله ، بعد عودته إلى بلده ، إلا جالساً في النادي وحوله ثلة من الرجال والنساء ، يروى على مسامعهم ذكريات الفترة التي قضاها في مصر أيام احتلالها ، أو عاكفاً على كتابة تقرير يسرد فيه تجارب ماضيه ، ترى هل ستنتهي حياته بخروجه غداً ؟!

وخطر له أن ينطلق إلى حى العرب ، وسرعان ما رفض الفكرة وضاق بها ، كان يتودد إلى الأهالي ليثقوا فيه وليربطهم إليه برباط المودة ، حتى إذا استأنسوا إليه حلت عقد ألسنتهم ، وكشفوا له عن مكنون نفوسهم ، وما أكثر المعلومات التي جمعها من أفواههم . أما الليلة فما الذي يدعوه إلى الذهاب إليهم ، إنه في قرارة نفسه لا يكن لهم أى حب . بل كانوا بالنسبة له مصادر أخبار لا أكثر ولا أقل .

ونظر في ساعته ، لقد حان موعد زيارة توفيق وجانيت ، فاتجه إلى دارهما وقد قرر أن يودعهما دون أن يخوض معهما أحاديث السياسة ، حتى لا يكشف عن المرارة التي يتجرعها . كان يؤكد دوماً أن إنجلترا ستجد فيما جد من أحداث في المنطقة ذريعة لنقض اتفاقية الجلاء ، ولكن ها هو ذا يتأهب ليجلو عن مصر غداً دون أن يحدث شيء مما توقعه .

ووقفت السيارة أمام بيت توفيق ، وهبط منها وسار في خطى ثقيلة نحو الباب . وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء ، وأن يودع توفيق وجانيت في

التليفون ويعتذر لهما بضيق الوقت ، فهو يحس الهزيمة في قرارة نفسه ، إلا أنه تشبث بما بقى من كبريائه وتقدم وهو يرفع رأسه ، ثم دق جرس الباب .
وفتح له مرجان ، ولما رآه فسح له الطريق وقال :
— تفضل .

— مساء الخير يا مرجان .

— مساء النور .

وقال وهو يسير خلف مرجان إلى غرفة استقبال :

— أنا مسافر غدا إلى إنجلترا . أتأتى معى يا مرجان ؟

وابتسم مرجان هازئا ، أیظن أنه قطعة أثاث أو تحفة من خان الخليلي سيأخذها معه في يده ، وقال :
— لا .

وأراد ولیمز أن يستمر في اللعبة التي صادفت هوى في نفسه ، وإن كان على يقين من استحالة تنفيذها :

— سأعطيك يا مرجان ثلاثة أمثال الأجر الذي تأخذه هنا .

فقال مرجان في انفعال :

— لا ، ولو أعطيتني كل ما عندك من مال . أنا أحب بلادي .

وراح ولیمز يرمقه وهو يجلس وفي نفسه سؤال : « أفهم هذا العبد الأسود حقيقة ما يقول ؟ ماذا يهيمه من دنياه إلا أن يملأ بطنه ويسكر ولا يحمل في هذه الدنيا هما ؟ » .!

وتركه مرجان في الغرفة وحده ، ليس معه إلا أفكاره . وأرضت خياله ولیمز فكرة أن مرجان بجلبابه الأبيض وحزامه الأحمر ومركوبه الأحمر وطربوشه الأحمر سيسافر معه ويقدم له ولضيوفه شاي الساعة الخامسة . آه لو جاء معه مرجان لعاونه على أن يعيش في الجو الذي يذكره بسيادته وعظمته ونفوذه وسلطانه . وتلملم في جلسته وقد اشتد حنقه ، فكل شيء قد تسرب من بين يديه وهو يحاول أن يقفل قبضته على أو هام ، وراح يحرض نفسه على أن يتاسك وأن يكتب
(م ١٤ — السهول البيض)

عواطفه وألا يفقد روحه المرححة أبدا ، وإن أرهق ذلك أعصابه ، حتى لا تتهتز صورته في أذهان آخر من سيرونه قبل مغادرة المسرح .
وأقبلت جانيت وتوفيق إلى جوارها ، فلما رأها نهض يستقبلهما وقد بدا البشر عليه . قال لجانيت :

— أنت رائحة الليلة ، ولولا خوفا من غيرة عطيل لقبلتك .

فقال توفيق وهو يبتسم ويحرك قبضتي يديه كأنما يطبق على عنقه :

— لو فعلت لخنقتها الليلة بيدي هاتين وهى نائمة فى فراشها .

وقالت جانيت لوليمز مداعبة :

— قد يغفر لك القبله ، ولكنه لن يغفر أبدا أن يعثر على منديلك هنا ، أرجوك أن تتأكد قبل انصرافك أنك لم تنس منديلك .

وضحك وليمز وسرعان ما غاضت ضحكته ، غلبه حزنه الذى كان يستولى عليه تلك الليلة ، وقالت له جانيت :

— ماذا تشرب ؟

فقال بلهجة أولاد البلد :

— قهوة سادة .

عبر فى كلمتين عن أشجانه ، وفهمها توفيق فقال مازحا :

— عندنا الليلة شربات ورد .

ورمقه وليمز بعيون مفتوحة ، الجميع فرحون لخروجهم حقا ، ولكنه ما كان يدور بخلده أن توفيقا فى غمرة سروره ينسى أبسط قواعد المجاملة .

وقالت جانيت لوليمز :

— ما كنت أحب أن أتحدث فى السياسة الليلة ، ولكن لى نصيحة أحب أن أقولها .

— قولى .

واعتدل وليمز ليصغى إلى نصيحتها ، قالت :

— أنصح أن نخطب ود هذا الشعب بعد الجلاء ، وأن نعبر له عن حسن

نوايانا نحوه .

— وبماذا تشيرين ؟

— أن نعاون مصر على إقامة مشروع السد العالى .

فابتسم وليمز ابتسامة هازئة وقال :

— ونغضب أصدقاءنا فى هذه المنطقة ؟

فقال توفيق فى إنكار :

— إسرائيل ؟

— لا . نورى السعيد . إنه يطلب منا عدم تقديم أى عون لمصر حتى

لا يفقد هيئته فى المنطقة .

فقال توفيق فى حماسة :

— عيبكم أنكم تساندون دائما البغاة وجلادى الشعوب والخونة . ساندتم

إسرائيل وتساندون اليوم نورى السعيد وعبد الإله ويفصل .

— إنا نساند أصدقاءنا . نساند العرب فى المنطقة .

— بل تساندون خدامكم ، الذين ينفذون سياستكم ويمكنون لكم من

استغلال المنطقة .

قالت جانيت :

— نورى السعيد لا يمثل الشعب العراقى ، ولا عبد الإله ويفصل .

فقال وليمز :

— السياسة ليست بهذه البساطة .

فقال توفيق :

— تقصد السياسة المتلوية ، السياسة التى فتح لها الساسة البريطانىون مدرسة

يلقنون فيها من يريد أن يتلقى العلم فيها ، الغش والخداع وفساد الذمة و..

فقال له وليمز فى ثورة :

— لا يا توفيق ، هذه إهانة .

فقالت جانيت على الفور :

— أتعرف يا ويلز ماذا قال جوردون : الرجل الطيب الذى كان يحكم السودان ، والذى زج به السياسة فى مازق ليقتل وليستغلوا دمه فى تحقيق مآربهم الاستعمارية ؟ قال « الشعب البريطانى طيب القلب ، أما ساسته فهم أوغاد مراوغون جبناء لا خلاق لهم » .

فقال ويلز فى إنكار :

— لم أسمع أن جوردون قال هذا القول أبدا .

فقال له جانيت :

— اقرأ كتاب « النيل » لإميل لودفج ، وستقرأ فيه هذا القول وزيادة .

وقال له توفيق :

— ما الذى بيننا وبينكم ؟ لماذا تكرهوننا كل هذه الكراهية ؟

— ليس بيننا وبينكم إلا هذا الرجل ، لو أزعناه من طريقنا لم يعد بيننا وبينكم

شئ . إنه ييئ الكراهية لنا فى كل مكان . فى باندونج ، فى الهند ، فى يوغسلافيا .

قال توفيق :

— لو كان وحده الذى يعتنق الآراء التى يعلنها لهان أمره ، ولكنه يعبر عن

آراء الناس جميعا فى منطقته ، ومن هنا كان خطره . ما من عربى واحد لا يؤمن بما

يقوله عن القومية العربية .

فقال ويلز :

— ليتك تسمع ما يقوله نورى السعيد والحكام العرب عن القومية العربية

التى يدعو إليها ناصر .

فقال توفيق :

— هؤلاء تجار سياسة ، لا يعبرون إلا عن آرائهم التى تحقق لهم مصالحهم

الشخصية . هل أثرت آراء نورى السعيد فى الوطنيين فى البحرين مثلا ؟ انظر ماذا

فعلت آراء عبد الناصر فيهم . من كان يصدق أن تقوم فى البحرين ثورة ضدكم .

قالت جانيت :

— من الخير لإنجلترا أن تمد له يدها ، أن تقف مرة فى صف أمانى الشعوب .

إنه يطلب معونة إنجلترا وأمريكا لتمويل إقامة السد العالي . وهذه فرصة يجب ألا تفوت بريطانيا .

فقال وليمز ساخرا :

— على بريطانيا أن تمدّه بالقوة التي تمكنه من طردها من المنطقة كلها ، وعلى أمريكا أن تعاونه على أن يزيد الرقعة المنزرعة من الأرض ليزرع قطننا ، وينافس قطنها . هذا ليس منطقا يا جانيت .

فقال جانيت :

— إن رفض الغرب أن يمول السد العالي فستموله روسيا .

— إن رفضت إنجلترا وأمريكا تمويله ، فلن يقوم هذا السد أبدا .

فقال توفيق :

— كان هذا هو الوهم الذي بنيم عليه سياسة حظر توريد الأسلحة لنا ، بينما كنتم تغرقون بها أعداءنا ، وقد استطعنا أن نفلت من حصاركم ونشتري الأسلحة من روسيا .

فقال وليمز في شماتة :

— زرعتم الحنظل ولن تجنوا إلا المر الذي زرعتموه . لا أظن أن صفقة الأسلحة هذه ستتم بسلام .

فقال توفيق :

— لقد مرت يامستر وليمز ، وسيأتي الروس لتمويل السد العالي إن رفضتم

معاونتنا .

وقالت جانيت :

— ليس من الحكمة في شيء أن ترفض أمريكا وإنجلترا تمويل هذا المشروع بعد أن أصبح مشروعا شعبيا تعلقت به قلوب الجماهير . لن يترك الرفض إلا المرارة في قلوب الناس ، وستقبل مصر المعونة السوفيتية .

فقال وليمز في غضب :

— لو فعلت لكان معنى ذلك الحرب ، فلن نسكت أبدا هذه المرة على دعوة

الشيوعية إلى المنطقة ، وفتح أبواب البلاد العربية لها .

فقال توفيق في غيظ :

— اسمح لي يا مستر ولیمز أن أقول لكم : إنكم بغبائكم وغباء أصدقائكم
الأمريكان تدعون الشيوعية إلى المنطقة .

فقال ولیمز في ثورة :

— لماذا كل هذه الإهانات الليلية ؟ جئت لأودعكم وقد عزمت على أن يكون
وداعا هادئا بلا جدال ولا جروح ، ولكنك ياسيد توفيق أبيت إلا أن تلقي
قفازك في وجهي ، فأسف إن اضطررت إلى التقاط قفازك . كنتم ياسيد توفيق
شيوعيين مقنعين وقد آن الأوان لترفعوا القناع عن وجوهكم ، أبرمتم اتفاقيات
سرية مع الشيوعيين واعترفتم بالصين الشعبية وتفاوضوننا على تمويل السد
العالي ، بينما تفاوضون في نفس الوقت روسيا سرا .

قال توفيق :

— لو كنتم أذكاء لقبلمتم تمويل السد العالي وضيعتم علينا فرصة الاتفاق مع
روسيا إن كان ما تزعمه حقا . إن صحافتكم كلها تجاهر بعدائنا حتى إن بعض
المتوسين اقترحوا إقامة سد في كينيا لمنع ماء النيل عنا !

— صحافتنا تكره ما تقومون به لجر الشيوعية إلى المنطقة .

فقال توفيق :

— للأسف الشديد تخضع أغلب صحافتكم لنفوذ اليهود .

— هذا كذب .

— هذه هي الحقيقة ، وعلى كل حال فأنتم أسعد حظا من أمريكا ، فإن كان

اليهود يسيطرون على صحافتكم فهم يحتلون أمريكا .

فابتسم ولیمز وقال في دهاء :

— كنت أظن أنك جاد في حديث الليلة ، وإذا بي أكتشف أنك تريد أن ترفه

عني .

قال توفيق :

— إن حاولت بهذا الأسلوب الساحر أن تنكر هذه الحقيقة فكثير من
الأمريكان يعترفون بها . قلت ذات يوم لصاحب مصنع في أمريكا : لماذا
لا تقاطع اليهود ؟ فقال لى : كيف أقاتعهم وكل الخامات التى أستخدمها فى
مصنعى فى قبضة أيديهم ؟

وجاء مرجان وأعلن أن العشاء قد أعد ، فنهض ولبمز وقال دون تفكير :
— العشاء الأخير .

فقالت جانيت :

— فى بور سعيد لا فى أورشليم ، ومعنا لا مع الحواريين .

فقال ولبمز :

— ألا ما أروع صبر السيد المسيح على الآلام التى تحملها !

— وما أكثر الذين يتحملون آلام السيد المسيح فى هذه الأرض .

وقالت جانيت وهى تسير إلى جوار ولبمز :

— أبى ، لماذا كتبت على أن أتجرع هذه الكأس ؟!

والثفت توفيق إلى مرجان وقال له :

— إذا جاء عبود فأخبرنى .

وساروا ليتناولوا مع العشاء الأخير .

ومر الوقت وهم يتسامرون ، ودخل مرجان فمال على أذن توفيق وهمس قائلاً :

— عبود جاء .

فقال له توفيق :

— أدخله غرفة النوم ليصلح الأباجرة الكبيرة .

وذهب مرجان وقاد عبود إلى غرفة النوم ، ولمح عبود وهو فى طريقه ولبمز

يضحك وجانيت متلهلة الأسارير فامتعض ، إنها تحتفى برحيل ذلك الرجل

البغيض ، ومن يدرى لعله ما جاء إلا ليتفق معها على أن تقوم بما كان يقوم به قبل

أن يرغم على مغادرة البلاد .

وعكف عبود على إصلاح الأباجرة وذهنه شارد : « لا يا عبود ! لا أظن

أن جانيت تقبل أن تعمل جاسوسة . وما الذى يمنعها من ذلك ؟ إنها إنجليزية ، فإن تجسست علينا فهي تخدم مصالح بلادها . وتوفيق ؟ زوج ككل الأزواج المصريين الذين تزوجوا أجنبيات ، إن وقف فى طريق تحقيق مآربها ضربته بالرصاص . حرام عليك يا عبود ، حرام ؟ وهل افترت عليها ؟ ما أكثر الأجنبيات اللاتي ضربن أزواجهن المصريين بالرصاص ، أو اللاتي هجرنهم بعد أن امتصصن دماءهم . ليت وليمز يأخذ جانيت فى يده وهو راحل ويريحنا منها ، سيحزن عليها توفيق ، وأنا لأحب أن يساء ذلك الرجل الطيب . سيحزن قليلا ثم يعوضه الله مصرية خيرا منها تنجب له أولادا . ما الذى يعجبه فى هذه المرأة العاقر ؟ إن كانت بهية ظلت عاقرا حتى اليوم أفكنت تطلقها يا عبود ؟ لا . لست وضيعا لأفكر فى شئ من ذلك ، ما ذنبها ؟! وما ذنب جانيت إن كانت لم تحمل حتى اليوم ، وما أدراك أنها لم تتفق هى وتوفيق على ألا ينجبا أولادا حتى الآن ؟ هل يمكن أن يحتمل زوجان مرور السنين دون أن يكون لهما ولد ؟ مالك أنت يا عبود وللناس ؟ لماذا لاتدع كل إنسان يدبر أموره ؟ إني أحب توفيق وأشفق عليه من هذه الإنجليزية التي تشع عيناها مكررا ودهاء ، هو أدرى بمصالحه . قد يكون حبه إياها أعماه عن أن يراها على حقيقتها ؟ أترى أنت بهية على حقيقتها ؟ أعرفها أكثر مما تعرف نفسها ، إنها غيور ، تغار من خيالها فى المرأة ، وإني أحبها على الرغم من هذه الغيرة التي كثيرا ما تعكر على صفو حياتي .

وظل عبود يعمل بيديه وعقله دائب فى التفكير فى وليمز وجانيت وتوفيق وبهية ، وقفز إلى ذهنه سليمان ، وفكر فيما وصل إليه وما ينتظره من مستقبل كله متاعب وآلام .

وانتهى عبود من إصلاح الأباجرة فغادر غرفة النوم ومرجان يسير معه . وما إن سار خطوات حتى وجدا أنفسهما أمام وليمز وجها لوجه ، كان يودع جانيت الوداع الأخير ، ووقعت عيناه عليهما فقال لعبود :

— مساء الخير .

فقال له عبود :

— مع السلامة .

وقال وليمز لمرجان :

— أراك بخير .

وتذكر مرجان فجأة ما قالته إنصاف لهنس لما عرض عليها الزواج ليلة الاحتفال بأسبوع ابن حسن ، فقال له كما قالت :

— في الجنة ونعيمها إن شاء الله .

وانصرف وليمز وتوفيق وجانيت يسيران خلفه حتى الباب ، والتفت عبود إلى مرجان وقال له :

— لن تتقابلا أبدا بعد اليوم ، ولا في الآخرة ، فأمثال وليمز لا يدخلون الجنة أبدا .. اللهم إلا إذا كانت أعمالك في لون وجهك فستلتقيان في جهنم .

وابتسم مرجان ابتسامة عريضة ، فلاححت أسنانه ناصعة البياض في رقعة وجهه السوداء وقال :

— إن الله لا ينظر إلى وجوهنا ، بل ينظر إلى قلوبنا .

فقال له عبود مازحا :

— لو أفاد في هذا بياض الأسنان ، لضمنت لك الجنة .

سار توفيق وعبود وحسن في طرقات الشركة لا يلوون على شيء ، كانوا يتحدثون حديثا يقطر مرارة ، فقد أحسوا أن ما فاضت به صحف الصباح مهين كل المهانة ، وإنه إساءة وجهت إلى كل المصريين ، قال حسن :

— كيف قرر دالاس سحب القرض الأمريكي بعد أن أعلن موافقته على تمويل مشروع السد العالي ؟ وكيف رضى وهو وزير خارجية مرموق أن يتبع هذه الطريقة المزرية ؟

قال توفيق :

— ظن أنه بهذه الطريقة يوجه ضربة قاضية إلى عبد الناصر .

فقال حسن في انفعال :

— إنه بما فعل وجه الإهانة لنا، إنه سمح لنفسه أن ينقدنا وأن يلومنا وأن يتدخل في أخص شئوننا الداخلية ، لماذا كل هذه الإهانات ؟
قال توفيق :

— ليرد على الحياض الإيجابى الذى يدعو إليه الرئيس ، فهو يرى أن الحياض الإيجابى مفهوم غير أخلاقي ، وليرد على صفقة الأسلحة التشيكية .
فقال عبود في بساطة :

— إنه بما فعل سيخسر كل العرب ، لن يرضى أى عربى عن هذه الإهانة .
فقال توفيق وهو يبتسم في مرارة :
— يظن مستر دالاس ومستر إيدن أنهما بهذا الإجراء يؤيدان صديقهما نورى السعيد .

فقال حسن في غيظ :

— ولماذا لا يكونان بهذا الإجراء يعملان على التعجيل بنهايته ؟
فقال عبود في تخاذل :

— وهل يستطيع الرئيس أن يصمد في وجه أمريكا وإنجلترا ؟ إنا لا نملك إلا أن نستسلم لإرادتهما .
فقال حسن في ثورة :

— لو استسلمنا لهذه الإهانة فقدنا كرامتنا إلى الأبد .
وقال توفيق :

— لا أظن أننا نسكت على هذه اللطمة .

فقال عبود :

— وماذا نستطيع أن نفعل ؟ ليس أمامنا إلا أن نرضخ لمشيئة دالاس وإيدن ونورى السعيد ، للأسف الشديد .

فقال حسن في انفعال :

— لن يطأطأ عبد الناصر رأسه لهذه الإهانة .

وقال عبود في أسى :

— لا أفهم لماذا يؤلب زعيم عربى أعداء العرب على زعيم عربى آخر ،
لمصلحة من ؟

فقال توفيق :

— لتحقيق مآرب شخصية . للإبقاء على نفوذه وسلطانه وابتزاز من أوقعهم
سوء طالعهم تحت حكمه . لقد كانت هذه الآفة سبب تمزق العرب . إنها هى التى
أضاعت الأندلس ، التنافس بين بغداد وقرطبة كان سبب نكبة العرب فى الأندلس ،
وأخشى أن يكون التنافس بين بغداد والقاهرة سببا فى القضاء على العروبة .
فقال حسن فى حماسة :

— لقد استيقظت العروبة ، ولن تسمح شعوبها للمستغلين من حكامها أن
يقضوا عليها .

وقال عبود لتوفيق :

— وكيف أضاع التنافس بين بغداد وقرطبة الأندلس ؟

— كان هارون الرشيد يتقرب إلى شارلمان ملك فرنسا ويهديه الهدايا ، لأنه
كان يحارب أعداءه العرب فى الأندلس . كنا نقرأ ونحن تلاميذ فى المدارس فى
سرور عظيم أن هارون الرشيد أهدى ساعة إلى شارلمان ، وأن شارلمان خاف منها فى
أول الأمر ثم أعجب بها ، وما كنا ندرى أن هذه الهدايا إن هى إلا الخنجر المسموم
الذى يطعن به العربى أخاه العربى ، لالشيء إلا لإرضاء الجشع والطمع والغرور .
— وكيف كان العرب فى الأندلس أعداءه وهو خليفة المسلمين ؟

— كان الأمويون الذين انتزع العباسيون الملك منهم فى الشرق يحكمون
الأندلس ، فكان هارون الرشيد ومن جاء بعده من الخلفاء العباسيين ، يرون فى
بقاء الدولة الأموية فى الأندلس خطرا عليهم ، فكانوا يشجعون ملوك الفرنجة على
القضاء على العرب فى أسبانيا .

وقال حسن فى مرارة :

— ولم يسكت الأمويون على هذه العداوة بالطبع ؟

قال توفيق :

— هذا ما كان ، فالأمويون في الأندلس كانوا يتقربون من ملوك القسطنطينية ويجرضونهم على التحرش بالعباسيين في بغداد .

فقال حسن في أسى عميق :

— وكان أن وهن العرب أجمعون ، واشتد ساعد الأوروبيين .

وقال عبود في حيرة :

— إني في دهشة من أمر الناس ، لماذا يفنون أعمارهم في عداوات ومشاحنات وحروب وأيامهم على الأرض معدودة؟! لماذا لا يعيشون في سلام ، إخوانا متعاونين متحابين ؟

فقال له حسن :

— لأنهم بشر .

وانقضى النهار ولم تهدأ ثورة النفوس : لماذا وجهت أمريكا إلينا هذه الإهانة على أعين الناس ؟ لماذا أعلنتها من أعلى منبر على الملأ ؟ لا يمكن أن تكون هذه الإهانة بلا هدف ؟ أهى مؤامرة بين إنجلترا وأمريكا ؟ ترى ماذا وراءها ؟ ماذا سيفعل الرئيس عند عودته من بريوني ؟ كان الله في عوننا ، وعوننا ، فما كنا نحسب أن الخداع قد يصل إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط !

ووقفت بهية في النافذة ترقب عودة زوجها وقد بدأت الغيرة تنهشها ، أقبل الليل وأضيت الأنوار في الشارع ولم يعد عبود بعد ، ترى أين هو الآن ؟ وخطر لها أنه قد يكون ذهب إلى سليمان ، فتحرك غضبها .

ما الذى يربطه بذلك الشريد الذى لا يفيق من سكره أبدا ؟ إن الشيخ حسن قطع كل ما كان بينه وبين ذلك السكر ، لأن الشيخ حسن رجل مستقيم ، فما الذى يربط بين عبود وبين سليمان ؟ عبود لا يشرب الخمر . ولكن ما أدرها أنه لا يذهب معه إلى النساء ؟

ومشى التعب إلى أوصالها فغادرت الشباك وراحت تدور في الغرف ، ولم تطق البعد عن نافذتها طويلا ، فما لبثت أن عادت وفي جوفها ثورة وقلق

وضيق ، وأخذت تمد عينها إلى الطريق وهي تكاد تبكي من الغيظ .
ولحمت عبود قداما وحده . فهدأ قلقها وبدأت نفسها تصفو ، وتأهبت لاستقباله
إلا أنها رأت إنصاف خلفه فدق قلبها حنقا ، وتطاير الشرر من عينها ، وضربت
قاعدة الشباك بقبضتها ، وراحت تشهق وتزفر في صوت مسموع ، وزاد في
كرها أن شيطانها راح يوسوس لها أن عبود ما تأخر إلا لأنه كان مع الفاجرة .
واقتربت إنصاف من عبود وحيته فرد عليها التحية بابتسامته ، وسارت إلى
جواره وكتفه يلمس كتفها . ياللعار ! لم يعد عبود ينجل من أن يظهر معها في
الطريق على أعين الناس ، إنه أمسى يستخف بها ، إن ما يفعله إهانة لها ولن
تسكت على هذه الإهانة أبدا . ستصرخ في وجهه ، وستقول له إنه يخونها ، إنه
يحتقرها ، ولن تسمح له بعد الليلة أن يمرغ كرامتها في الوحل . إنها لن تتردد في أن
ترك له البيت غاضبة إن لم يبرر لها مسلكه هذا تبريرا يرضيها ، ولكن إلى أين
تذهب إذا غضبت وليس لها أحد بعد أن ماتت أمها وطال غياب أخيها ؟
وأحست قهرا وودت لو تبكي ، بيد أنها خشيت أن تمتلئ عينها بالدموع
فيفوتها حركة من حركات زوجها مع المرأة التي تتطلع إليه تكاد تأكله بعينها .
وبلغا باب البيت . ياللدهشة ! عبود لم يدلف إلى بيته بل سار معها . إلى أين ؟ لعله
يسير إلى جوارها حتى يصل إلى القهوة ثم يودعها ويتركها تنطلق إلى دارها .
واشأبت بعنقها ، وخفق قلبها رهبة ونز بالأسى ، وأطبقت قبضة الحنق تكتم
أنفاسها فجعلت تلهث ، ودمأؤها الثائرة تندفق كاللهب تكاد تشوى وجهها .
وأشرفا على القهوة ولم يعرج عبود إليها ، بل سار مع إنصاف إلى بيتها . أبلغ
بهما الاستتار أن يصعد مع الفاجرة جهارا دون أن يتستر أو يتوارى عن أعين
الناس أو ينسل خفية إليها !؟

ودارت الدنيا بها وأظلمت في عينها ، وصارت كلبوة جريجة تريد أن تنشب
أظفارها فيمن طعنها ، فغادرت الشباك واندفعت كالعاصفة نحو الباب ، وراحت
تهبط في الدرج قفزا وقد أنستها ثورتها ما في بطنها ، وانسابت في الطريق وهي
تجزر وتوعد وترغى وتريد ، وتصيح في غضب شديد صيحات زلزلتها وإن لم

تصل إلى مسامعها :

— أبلغت بك الجرأة يا عبود أن تخونني وأنا أنظر؟! هذه وقاحة لن أسكت عنها، سأفضحك وأفضحها وسأدك البيت على رأسك ورأس المومس دكا دكا .
لماذا أبقى عليك بعد أن سفحت كرامتي، بعد أن مزقت أحشائي، بعد أن جرعتني كهوس المذلة!؟

ووصلت إلى بيت إنصاف وقد توترت أعصابها وتفجرت مراجل غضبها وأفلتت منها ضوابط نفسها، فصارت في ضراوة وحش كاسر وجد الخطر أحرق به من كل جانب ففقد كل سلطان له على عقله، ولم تعد تحركه إلا غريزة البقاء.
وصعدت في الظلام كأنما كانت تعدو في سباق، ودقت باب شقة إنصاف دقات عنيفة ثائرة . وما لبث أن انفرج الباب عن إنصاف، فلما رأته بهية لاح في وجهها دهشة، وزاد في دهشتها أن بهية هجمت عليها تنحبها من طريقها وهي تقول في صراخ وانفعال وغضب :

— أين هو؟ أين هو؟

فقالت إنصاف في استغراب :

— من؟

فقالت بهية وهي تدفعها من أمامها :

— أين أخفيتته؟ السافل . المنحط .

فقالت إنصاف في غضب :

— أنا لا أخفي أحدا .

وانفجرت بهية صائحة :

— إنه عندك . إنه هنا .

ونفذ صبر إنصاف فصاحت فيها :

— قلت لك : لا أحد عندي . ماذا تظنيني؟ إني لا أسمح لك أبدا أن

تهينيني هذه الإهانة .

— إني رأيته . رأيته بعيني هاتين وهو يصعد معك .

- اعقلى يا بهية واخفضى صوتك .
- تخافين الفضيحة ! لو كنت تخافين الفضيحة ماجئت به إلى هنا .
- لا يا بهية ! لا تدفعينى إلى ضربك . حاذرى .
- تخفين زوجى عندك يا فاجرة .
- اخرسى . أنا أشرف منك .
- ودفعتها بهية فى قسوة ، واندفعت كالمجنونة تنقب عن زوجها فى الغرف وهى
تصيح وقد خنقتها عبراتها :
- عبود ! .. عبود ! .. عبود !
- فقال لها إنصاف :
- عبود سار معى حتى باب البيت ، كان يسألنى عن صحة أمى ثم عاد إلى
القهوة . اذهبى إلى القهوة وستجدينه هناك ، وكفى إهانات .
- وظلت بهية تدور وتلتف دون أن ترى شيئا وهى تنادى فى غيظ شديد :
- عبود ! .. عبود ! .. عبود !
- ولم تعد تحتمل شدة وطأة عواطفها الثائرة الحانقة الحانقة المشككة القاسية ،
فانهارت على أريكة محطمة ، وأخفت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . وزاد فى
أساها أنها أحست أنها ضعيفة خائرة منهاره .
- وأشفقت إنصاف عليها ، فمالت عليها وراحت تربت فى حنان على ظهرها :
- لماذا تعذبن نفسك كل هذا العذاب يا بهية ؟
- فقال بهية وهى مطرقة :
- ليس لى فى هذه الدنيا إلا عبود ، فهو أبى وأمى ، وأخى وأختى ، وهو
أبو ذلك الذى فى بطنى ، فأرجوك يا إنصاف أن تتركه لى ، إن لم يكن إكراما
لخاطرى فمن أجل الطفل البرىء الذى أحمله .
- وبللت الدموع عينى إنصاف فقالت فى تأثر :
- أقسم لك يا بهية ليس بينى وبين عبود شيء مما تفكرين فيه .
- فقال بهية فى تأثر :

— الرجال كثير يا إنصاف ، أكثر من رجل يتمنى أن يتزوجك . مأمون
أخى يعزك ، ولولا سفره ما أحجم عن أن يخطبك ، أما أنا فليس لي غير عبود .
اتركيه لي .

وصممت بهية قليلا ثم قالت :

— عندما يأتي مأمون سأعرض عليه أن يتزوجك .

وأحست إنصاف أنها أمام طفلة ، صغيرة غريرة وإن انتفخ بطنها ، فقالت لها :
— اطمئني يا بهية . أقسمت لك أن ليس بيني وبين عبود شيء . وأقسم لك
أنى لم أفكر يوما فى أن أخطفه منك ، ولو كنت أريد أن أتزوج كما تتزوج الفتيات
لتزوجت من سنين ، ولكنى عزمت ألا أتزوج إلا رجلا يستطيع أن يجعلنى
أحس أن حياتى بدونه لا تساوى شيئا ، رجلا لا أصبر على بعده لحظة .

فعدت بهية تقول لترضيها ولتحول أفكارها وجهة أخرى غير زوجها :

— وما رأيك فى مأمون ؟

فقالت إنصاف فى صدق :

— شاب لطيف ، ولكنى أقول لك إنى لم أحس نحوه ذلك الإحساس الطاغى
الذى يجعلنى أربط حياتى بحياته ، ولو تقدم إلى يخطبنى لرفضت طلبه .

فقالت بهية فى إنكار :

— لماذا ؟

فقالت إنصاف وقد شردت بنظرها ولاح فى وجهها الجذ :

— لأنى لو كنت أحببته ذلك الحب الذى أتصوره ما أطق فراقه كل هذا

الزمن ، ولذهبت إليه لأسعد بقربه أينما كان .

فقالت بهية وهى ترنو إليها لعلها تقرأ ما تحاول أن تخفيه :

— تعلمين أن ذهابك إليه مستحيل .

فقالت إنصاف وهى تبتسم :

— الذهاب يا بهية قد يكون بالروح ، لو كان هو الرجل الذى أتمناه لظلت

روحي ترفرف حوله بالليل والنهار .

وأحسست بهيبة بعض الراحة ، إن كانت إنصاف صادقة فيما تقول فلم تعد هناك ضرورة بأن تضحي بأخيها في سبيل هئاءتها ، وأرادت أن تجاملها بعد الإهانات التي سددها إليها فقالت لها :

— ترى من ذلك الرجل الذى سلب قلبك ؟

فقالت إنصاف فى ثقة :

— قلبى لا يزال فى مكانه ، ولو خفق يوماً بالحب فلن أتردد لحظة فى أن ألبى

نداءه .

وانقضعت ثورة بهيبة واستشعرت راحة . سرها أن ما أحنقها وزلزل كيائها كان أوهاما ، وبدأت ترى فى وضوح كل ما حولها ، رأت البؤس المنتشر فى المكان ، وسرت شفقة طاغية إلى كيائها لما وقعت عينها على أم إنصاف ممدودة فى فراشها كمومياء ، ولم تستطع أن تصير على ما تراه فنهضت لتفر من المكان ، وقالت لإنصاف :

— أسفة ، أرجو أن تصفح عني . عذرى أنى رأيت عبود معك ، فخفت

أن أفقد الرجل الذى أسير به فى الحياة .

فقالت لها إنصاف :

— اطمئنى ، عبود رجل طيب ، ليس له فى هذه الدنيا إلا بيته .

وسارت بهيبة خطوات ، وسرعان ما التفتت إلى إنصاف وقالت فى توسل :

— لى عندك رجاء .

فقالت لها إنصاف وقد تفتحت لها :

— تفضلى .

فقالت بهيبة وهى تدنو منها حتى تكاد تلتصق بها :

— أرجوك ألا تقولى لعبود إنى جئت إلى هنا أبحث عنه عندك .

فقالت لها إنصاف وهى تبتسم كما تبتسم لطفلة صغيرة ، لتسكن الطمأنينة قلبها :

— لن أقول له :

وخرجت بهيبة وإنصاف تقول لها :

— أرجوك ألا تكون هذه آخر زيارة لك . أحب أن أراك ولكن في ظروف أحسن .

فقالت بهيبة وهي تهبط في حذر :

— إن شاء الله .

وخرجت إلى الطريق خائفة تترقب ، كانت تخشى أن يلمحها عبود فيسألها أين كانت ، ترى ماذا تقول له إن رآها ووجه لها هذا السؤال ؟ وانسلت من أمام القهوة وقلبا يدق رهبة ، حتى إذا بلغت دارها في أمان زفرت في راحة ، واتجهت إلى سريرها وارتمت فيه وهي تتوارى خلف كفيها من الخجل .

تمدد عبود في سريره وأسبل جفنيه وراح يفكر فيما عرضه عليه حسن . فأحس أنه يتضاءل وينكمش ، فقد طلب منه حسن أن يخبر توفيق أنهما قررا ترك الشركة إن لم تنظر في تحسين حالتها ، فقد عرض عليهما العمل في شركة أخرى بشروط أفضل من الشروط التي يعملان بها .

إنه يرى فيما عرضه عليه حسن استغلالا لعطف توفيق عليه ، فما تأخر توفيق أبدا عن أن يخدمه إذا ما أتاحت له أية فرصة ، « حتى إن أكثر من شكوى من مجهول قدمت إلى كل الجهات تهم توفيق بمحاباة لأني أقوم بصنع أشياء له في الورشة » . وثار الدماء حارة في عروقه واستشعر ضيقا ، وإذا به يقسم لنفسه ليريحها من القلق الذي ساورها : « والله ما فعلت له شيئا في الورشة ، والله ما قمت له بعمل في بيته إلا ودفع لي أكثر مما أستحق » .

وتذكر شكوى همس بها أحد أصدقائه في أذنه ، ولم يفاتحه أحد من المسئولين فيها لأنها كانت شكوى دنيئة خسيسة كانت تغترى عليه وعلى زوجة توفيق الإنجليزية وتؤكد وجود علاقة بينه وبين السيدة ! يا للسفالة ويا للحطة ! إن قلبه لم يفتح يوما لجانيت فهو لا يكرهها ولكنه لا يرتاح إلى وجودها ، ويا طالما تمنى لو أن توفيق لم يتزوجها .

إن هذه الشكوى الحقيرة أحنقته ، حتى إنه ضاق بها وهم أكثر من مرة أن يفتح حسن فيها ، بيد أنه كان يمسك لسانه بعد صراع مرير مع نفسه حتى لا يسىء إلى سمعة السيدة دون قصد منه ، وتصور مرات أن هذا الاتهام الظالم وجه إلى بهية وأن بعض من لا نخلاق لهم كتب أن هناك علاقة شائنة بينها وبين توفيق ، فكاد يموت من الكمد والغیظ ، وود لو يعرف هؤلاء السفلة ليشرب من دمائهم .

وضايقه أن خطر على باله أن يقتل أحدا من البشر ، فهو لا يطمع في أكثر من أن يعيش أيامه في هذه الدنيا في سلام ، وهو يحسب أن ذلك مطلب يسير ، بيد أن الناس لا يتركونه يحقق أحلامه المتواضعة ، بل يقتحمون عليه عزله ويحاولون أن يمرغوه في الأوحال . لماذا يفعل الناس ذلك ؟

الناس يجدون متعة في الخوض في أعراض الآخرين ، إنه هو نفسه ما كان يتردد في أن يلقي التهم جزافا على من يعرف ومن لا يعرف ، وكان يسره أن أصدقاؤه يصغون إليه وقد أرهفوا آذانهم ولاح في وجوههم الاهتمام الشديد ، كان ذلك حاله إلى أن دخل ذات ليلة ونام ، وإذا به يرى فيما يرى النائم أنه يأكل لحم إنسان ميت ، وهب من نومه مذعورا ، وزاد في خوفه أنه بعد أن استيقظ ظل يحس أن لحم الميت ما يزال عالقا بأسنانه ، وتفززت نفسه واستولى ذلك الحلم الرهيب على كل تفكيره ومشاعره ، وبقي طعم الميت في فمه وفي روحه ، ومرت عليه ثلاثة أيام رهيبة ، وأراد أن يشاركه أحد في حمل عبء ذلك الحلم الذى نغض عليه حياته ، فذهب إلى حسن وقصه عليه ، فقال حسن في فرح :
— أعوذ بالله ! أمسك لسانك عن الناس .

ومنذ تلك الليلة سلم الناس من لسانه ، ولكن ما أكثر الألسنة التى لا تتحرك إلا لتدنيس كل شريف ، وهتك كل مستور !
وعاد يفكر فيما عرضه عليه حسن فقرر ألا يقول لتوفيق شيئا ، فهو يحب عمله ويحب أصدقاؤه ويرضى بما قسم الله له ، وراح يرى بعين خياله الشركة بطرقاتها ، بأكداس الملح على جانبيها ، بمكاتبها الخشبية المتواضعة ، بطواحينها

العتيقة التي تمن في سيرها أنينا ، بقطارها الصغير الذي ينساب كشریان الحياة في جنباتها ، بأحواضها الكثيرة التي تتدفق المياه فيها لتغسل أدران الملح كما تغسل التوبة ذنوب البشر .

ووقعت عين خياله على السهول البيض ، فأحس أن نقاوتها قد سرت في روحه وانتشرت في صدره وجعلت وجدانه ناصعا حتى كاد يضيء .
ومس أذنيه وقع أقدام بهية فراح ينظر من بين أهدابه وإن كانت جفونه مسبلة ، إنها تتقدم منه في خفة الطيف ، ثم تميل وتطبع على فمه قبلة ، فيطوقها بذراعيه ويضمها إليه في حرارة ويأخذ في تقييلها هنا وهناك .
وتضحك بهية وتحاول أن تفلت منه في دلال وهي تقول في رقة :

— عبود ! عبود !

— روح عبود .

وأرادت أن تثير اهتمامه فقالت :

— بطنى ! بطنى يا عبود .

فتركها وهو يقول :

— سلامة بطنك وما في بطنك .

وقفز من سريره وذهب إليها وقال لها :

— آسف ! استرجي أزجوك . كنت بجهلى سأفحص ابنى .

فقالت بهية في عتاب :

— بنتك يا عبود ! أريدها بنتا يا عبود . ليس لى أخت وستكون أختى .

فقال عبود في حرارة :

— أريده ولدا يا بهية ، أنا مقطوع من شجرة ، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا عم ولا خال . سيكون أبى وأمى وأخى وأختى وعمى وخالى وكل أهلى . سيكون قلبى ونور عينى وذراعى ورجلى وكل دنياى .

وصمت بهية وسكت عبود ، كانت المشاعر الخنون التي سرت فيهما رقيقة ساحرة أخاذة ، استولت عليهما وعطلت كل ما عداها من وسائل التعبير .

وسار عبود إلى قميصه وتناوله وراح يستبدل ثيابه .

فقال له بهيبة :

— خارج الليلة ؟

فقال وهو يخلع جلبابه :

— ذاهب إلى القهوة أستمع إلى خطاب الرئيس .. سيخطب في ميدان المنشية .

فقال بهيبة في عتاب :

— أما كان من الأفضل أن نشترى راديو لنسمع معا كل ما يذاع ؟

فقال لها عبود وهو يدرس رجليه في البنطلون :

— إن شاء الله نشترى راديو لما نقبض المكافأة السنوية .

فقالت بهيبة وهي تتطلع إلى وجهه :

— لو كنا اشتريناه بالتقسيط كنا انتهينا من تسديد أقساطه .

فقال عبود وهو يحاول ألا تلتقى عيناه بعينها :

— ومن أين لنا ما نسدد به الأقساط ، وما نأخذ من الشركة ندفعه في أجر

الشقة ونأكل به ؟

فقالت بهيبة في ثورة مكتومة :

— ما ندفعه لسليمان كل شهر كان يسدد أقساط الراديو وزيادة !

ولاذ بالصمت ، أحس أن ما قالت إن هو إلا فتح باب معركة تريد من زمن

طويل أن تخوض غمارها ، ولكنه لا يهيب لها هذه الفرصة أبدا ، وضايقها أنه لم

ينطق بشيء ، ولم يرضها سكوته فقالت :

— ما يريد البيت يحرم على الجامع .

ودس رجليه في حذائه ، وقال لها وهو يفر من هذه المشادة التي أوشكت أن

تتدم :

— سأعود بعد أن تنتهي خطبة الرئيس . لن أتأخر عنك الليلة .

وأغلق باب الشقة خلفه ، وراح يزفر مشاعر الضيق التي كان يكتمها في صدره .

وسار إلى القهوة فألقى صديق وحسن وبهنس وفانوس قد جلسوا في مكانهم

بالقرب من الراديو ، ورأى مرجان جالسا معهم فتعجب ، فما كان مرجان ممن يقدون إلى القهوة أبدا ، فسلم على أصدقائه وعلى مرجان ، ثم جلس وهو يقول لمرجان :

— شرفتنا .

وقال بهنس :

— طردته الست .

فقال عبود في خوف :

— طردته ؟ لماذا ؟

فقال صديق في هدوء :

— طردته الليلة فقط ، لتستمع إلى خطاب الرئيس دون أن يعكر عليها خلوتها .

وقال مرجان :

— إنها تنهاني عن أن أعلی صوت الراديو ، وأنا أحب أن أسمع الخطب من الراديو

وهي تلقى بصوت عال ، لثير حماستي . أنا لا أطيق أن أسمع خطيبا وهو يهمس .

وقال له حسن :

— أتحب السياسة يا مرجان ؟

فقال فانوس ساخرا :

— إنه سياسى خطير ، وإن كنت لا أفهم فى السياسة .

وفهمها مرجان فقال فى صراحة :

— من لا يفهم فى السياسة حمار .

وضحك الجميع حتى فانوس ، وارتفع صوت ابن صاحب القهوة حتى

غطى على كل الأصوات . كان يطرد زبونا لم يدفع الحساب ، والتفتت إليه أنظار

الجميع ، وقال بهنس :

— ولد ابن حلال مصفى ، نذل مثل أبيه !

وتداخلت الأصوات حتى إن صوت الراديو لم يعد يسمع ، فنهض مرجان ،

فالتفت إليه صديق وقال له :

— إلى أين ؟

قال مرجان في كبرياء :

— لا أستطيع أن أسمع الخطبة في هذا الجو ، سأعود إلى البيت . نار الست
ولا هذه القهوة .

وقال فانوس :

— صاحب مزاج . ابن عز صحيح .

وانسل مرجان من المكان وراح يعلو حتى لا تفوته كلمة من الخطاب ،
وظل حسن ينظر إلى حيث انطلق مرجان وشرذ يفكر ، فقال له عبود :

— من أخذ عقلك يتهنى به .

وقال فانوس مازحا :

— لا بد أن مرجان أخذه معه .

فقال حسن وهو لا يزال يفكر :

— هذا حق . كنت أفكر في مرجان ، في أنه وإن كان يعمل في بيت توفيق
فهو يعيش في وسط أرقى من الوسط الذي نعيش فيه ، وهو معذور إن ظن نفسه
من طبقة أرقى من طبقتنا .

وقال بهنس في إنكار :

— مرجان أرقى منا ؟

وقال فانوس :

— إنه يعرف بعض كلمات إنجليزية ، ويعرف كيف يطبخ طعاما على
الطريقة الإنجليزية .

وقال حسن :

— إنه يعيش في بيئة أفضل من بيتنا .

وقال صديق :

— ويأكل طعاما أفضل مما نأكله .

وقال بهنس :

— وتقع عيناه في كل وقت على امرأة أجمل من النسوان التي نخفيها في بيوتنا .
وخشى عيود أن يتطرق الحديث إلى الخوض في أعراض الناس ، فقال :
— اتق الله يا بهنس .

فقال له بهنس :

— لا تغضب . أنا لا أتحدث عن نسائكم ، بل أتحدث عن النسوان اللاتي
يجرسن بيتي ، وفزوجتاي لا تختلفان كثيراً عن خفراء الريف .

وضحك بهنس ، وقال فانوس :

— الظاهر أنك خطبتهما من القسم ، اخترتهما من دورية الليل .

فقال له بهنس مازحاً :

— في المرة القادمة سأختارها من دكانك .. حلوة طحينية .

فقال حسن :

— أحسن صنف عنده الزيتون الأسود .

فقال بهنس :

— شبت من هذا الصنف ، أريد أن أحلى ولو بقالب سكر .

وأعلن المذيع أن سيادة الرئيس يتقدم إلى المنصة ليلقي خطابه السنوي الذي
يلقيه كل عام في السادس والعشرين من يوليو ، في ذكرى طرد فاروق من
البلاد ، فساد الصمت المكان ، وأرهف الناس سمعهم والتفتوا ناحية الراديو ،
وراح الرئيس يخاطب الشعب ويقص عليهم كل شيء . فأحس كل من في القهوة
أنه يجادته وحده ، وهمس حسن :

— جميل أن يذكر الرئيس مصطفى حافظ الذي اغتالته إسرائيل .

وقال بهنس :

— حققت عليه لأنه أنشأ جيش فلسطين .

وقال الشيخ حسن :

— ياليت الأحلام تتحقق وتتحد سورية معنا .

قال عيود :

— قال الرئيس إن سوريا تريد أن تتحد معنا .

وقال صديق :

— المندوب السامى ! لا أعاد الله أيامه . أذكر أنى كنت يوما أسير بجوار قصر الدوبارة ، مقر المندوب السامى ، فهجم على جندى بريطانى وراح يطردنى من الشارع كله فى غلظة وقسوة .

والتفت إلى بهنس وقال له :

— أتذكر أيام أن كان الجنود الإنجليز فى ثكنات قصر النيل ؟

فقال بهنس :

— أنا أصغر من هذا ياسيد صديق ، ولكن يخيلى إلى أنى رأيتهم وهم ينظرون من نوافذ الثكنات كما تنظر القردة من أقفاصها فى حديقة الحيوان . لقد ألقيت إليهم ذات يوم برتقالة .

وقال حسن :

— هس . أريد أن أسمع ماذا يقول الرئيس عن الجزائر .

وصمتوا قليلا ، وما لبث أن قال حسن :

— أنا معجب بالأبطال الجزائريين ، لو فتح لنا باب التطوع للحرب معهم ،

لما ترددت لحظة ..

وعادوا إلى الصمت مرة أخرى ، وأعاروا الرئيس سمعهم ، وإذا بصديق

يهتف فى حماسة قائلا :

— سلمت يارئيسنا ، حقا السلاح هنا سلاح مصر لا سلاح روسيا

ولا سلاح تشيكوسلوفاكيا .

وقال بهنس :

— والله أنا فى حيرة ، لا أفهم سببا معقولا للضجة التى تقوم بها أمريكا

وإنجلترا حول صفقة الأسلحة .

قال حسن :

— ستظل مصالحهم مصونة مادامت إسرائيل فى المنطقة .

وقال عبود :

... أكانوا يريدون أن يفرضوا وصايتهم على ميزانيتنا حقا ؟

قال صديق :

— الرجل يقول كل شيء في وضوح . لا يخفى عنا شيئا .

قال فانوس :

— ما هي الدولة التي في الشمال ، ويشرفون على اقتصادياتها ، واقتصادها

بالرغم من ذلك منهار ؟

قال حسن :

— الرئيس يقصد تركيا .

ثم أصاخ حسن سمعه وقال :

— فرق تسد ، هذه سياسة الإنجليز ، ويا طالما نجحوا في أن يفرقوا بيننا ،

ولكنهم لن ينجحوا هذه المرة في أن يفرقوا بيننا وبين إخواننا السودانيين ، حسنا

فعل بكشف مؤامرتهم . لو بعدوا عنا فما أيسر أن نتفق مع إخواننا حول مياه

النيل والسد العالي .

وقال صديق :

— أوه اللورد كليرن ! ألا يزال على قيد الحياة ، والله ظننت أنه قد انتهى لولا

أن ذكره الرئيس . لقد نسيناه ونسينا تهديداته ودباباته وتنفيذ أوامره بالقوة ،

وإن أذلنا .

وساد الصمت مرة أخرى إلى أن قال فانوس :

— الرئيس اليوم يكثر الكلام عن دلسيس وعن شركة القناة .

قال حسن وقد شرد بذهنه :

— يخيل إلى أنه يمهد لشيء ، شبه مستر بلاك مدير البنك الدولي بدلسيس ،

ثم أخذ يسرد التوضيحات التي تكيدناها في القناة . إنها قناة مصر . إنه معلم

الشعوب ، استفاد من الفترة التي كان يدرس فيها في الكلية الحربية وفي كلية

أركان الحرب .

ومال صديق بأذنه حتى لا تفوته كلمة من الخطاب ، ثم قال الحسن :
— ماذا قال ؟

— قال سنستعيد حقوقنا في قناة السويس .

وقال بهنس :

— وقال سنبنى السد العالى بأموالنا في شركة القناة .

وهب صديق واقفا ، ودنا من الراديو وهو يصغى إلى الشاب الذى راح يعلن
أخطر قرار اتخذته حكومة مصرية : « .. ولهذا قد وقعت اليوم ، ووافقت
الحكومة على القانون الآتى :

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :
باسم الأمة — رئيس الجمهورية .

مادة ١ — تؤم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية — شركة مساهمة
مصرية — وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات
وتحل جميع الهيئات القائمة حاليا على إدارتها » .
وأرهفت الناس آذانهم لسماع باقى القرارات وقد جاشت عواطفهم وامتثلوا
عزة وكرامة وغبطة وزهوا ، وكان التأثر قد بلغ من صديق مداه ، فلم يستطع أن
يتحكم فى عواطفه ، وإذا به ينفجر بالبكاء .

وانتهى الرئيس من خطابه ، فنهض حسن وعبود وصديق وبهنس وفانوس
وهم مأخوذون وتأهبوا للإنصراف ، قال حسن :
— هذا أجراً خطاب سمعته فى حياتى .

وقال فانوس :

— ترى ماذا ستفعل إنجلترا وفرنسا ؟ لن يسكتنا أبدا على هذه اللطمة .

وقال حسن فى غيظ :

— وماذا نستطيعان أن يفعلنا ؟

قال فانوس :

— سنرى .

قال بهنس :

— أصبحت القناة لنا . ولن يستطيعوا أن يستعيدها أبدا .

قال فانوس :

— إلا بالحرب .

قال عبود :

— قال الله ولا فالك . إننا نريد أن نعيش في سلام .

وكان صديق لا يزال مسحورا بما سمع فقال :

— ما كنت أظن أن يمتد عمري لأرى هذا اليوم المجيد . من كان يصدق أن

سيأتي يوم يقف فيه شاب منا ، يعلن على الملأ في قوة أننا قررنا أن نسترد حقوقنا

في القناة ، وأنا سنارس سيادتنا على كل شبر من أرضنا ؟ إني إن مت اليوم

فسأمت وأنا قدير العين ، فما أحسب مهما طال عمري إني سأعيش لأرى يوما

أحمد من هذا اليوم .

أسرع توفيق إلى صحف الصباح يتابع أبناء مصر المثيرة التي شغلت أذهان

العالم ، وهرعت جانيت إلى الراديو تصغى إلى محطات الإذاعة التي كانت كلها

تعلق على قرار تأميم القناة ، وخف مرجان يصغى إلى أحاديث الزوجين لعله

يلتقط ما يروى ظمأه إلى الأخبار .

قال توفيق في صوت عال لسمع جانيت :

— كل الشعوب العربية تؤيد قرار التأميم ، وشعوب دول مؤتمر بانطوخ

كلها تقف إلى جوار الحق .

وقالت جانيت :

— للأسف لا تزال إذاعة فرنسا وإنجلترا تتوعدان .

وذهب توفيق إلى حيث كانت زوجته وقال :

— إني أستطيع أن أرى صديقنا الأصلع ، رجل التأمين الإنجليزي . وهو

واقف ناثر في لندن يصيح في عجرفة وكبرياء :

« سرق ناصر منا القناة . القناة قناتنا . لا بد أن نسترد القناة وإلا ضاعت هيبتنا . إن تهاون إيدن هذه المرة في حقوقنا فلن ينال صوتي في الانتخابات » .
وسيطل يولول ويتحسر ويتهدد ويتوعد كأن قناة كيبي سلبت من إنجلترا .
فقالت جانيت :

— تعلم يا توفيق أن ليس كل الإنجليز مثل مستر جونس .

وقال توفيق في مرارة :

— ولكن للأسف الحمقى من أمثال مستر جونس هم الذين يسرون السياسة البريطانية . فهم الطبقة التي تعمل الحكومة لها كل حساب .
قالت جانيت :

— والجنود العائدون من مصر سيكون لهم أثر في هذه الأزمة .

قال توفيق في مرارة :

— هذه فرصة طيبة سنحت لويليمز لينفت سموم حقهده على من أخرجه من مصر . وسيزيد في عداوته أن آخر فرصة كانت تداعبه ليعود ثانية إلى هنا قد قضى عليها ، فلم يعد له أى أمل في أن يعمل في شركة القناة بعد أن أمت .

قالت جانيت وهي تدير أزرار الراديو :

— سييندل المستحيل لإقناع المسئولين بضرورة استرداد السيطرة على شركة القناة ، حتى يعود إليه أمله في العودة إلى مصر .
— الأعصاب متوترة في كل مكان ، أخشى أن يفلت زمام الموقف من أيدي الساسة .

ترى ماذا بعد أن قدمت إنجلترا إلى مصر احتجاجا ، وبعد أن تجاوز مستر بينو حدود اللياقة مع سفير مصر في باريس ؟
— أعتقد أن الأمر لن يتجاوز صيحات من هنا وصيحات من هناك ، ثم تهدأ العاصفة .

— الجو السياسي مشحون بالاحتمالات ، وهذا السباب المتدفق من كل

الأفواه قد يكون الشرارة التي يندلع منها اللهب .

وأراد مرجان أن يسمع هذه المحاوره فتقدم خطوات ، وقالت جانيت :
— أى لهب ؟

— لهب الحرب .

فقلت جانيت فى ثقة :

— لا أظن أن مجنوننا واحدا من مجانين السياسة يجب أن يشعل نار الحرب فى
المنطقة .

— ما أكثر الذين يريدون أن يكتموا أنفاس هذه الانتفاضة الثائرة .

قلت جانيت وهى تفكر فى سرعة :

— الجوم ملبد بالغيوم . إسرائيل تطمع فى أن تتوسع على حساب مصر ، تريد
أن تستولى على سيناء ، فإن لسيناء لدى اليهودى سحرا ، ففيها الجبل الذى تلقى
من فوqe موسى من ربه الوصايا العشر . وفرنسا تقاسى الأهوال من حرب
الجزائر ، وهى تعتقد أنها تدار من قلب القاهرة ، وقد أيد الرئيس ذلك لما قال فى
رده على بينو : أما فرنسا ووقاحة فرنسا ووقاحة وزير خارجية فرنسا ، فأنا لن
أرد عليها ، بل أترك للجزائر أن ترد على فرنسا ، وتعطيها درسا فى الأدب .
ونورى السعيد يأكل صدره الحقد على عبد الناصر ، وكل هدفه أن يقضى عليه
ويزيحه من طريقه ، وفى هذه الأزمة فرصة لتحقيق مأربه . ومستريدين يريد أن يعيد
النفوذ البريطانى إلى المنطقة ، ولن يتمكن من تنفيذ ذلك إلا إذا عقد زعماء الشرق
لنورى السعيد . وعلى الرغم من كل هذه الرغبات والأمانى والأحقاد والمصالح
المشتركة فإنى أجزم أن أحدا لن يجرو على إشعال نار الحرب فى هذه المنطقة .
ولحت جانيت مرجان واقفا فقالت له :

— ماذا تريد يا مرجان ؟

فقال مرجان فى ارتباك :

— ماذا تريد السيدة أن تتناول فى الإفطار اليوم : بيضا أم فولا ؟

وقالت جانيت وهى تنظر إلى توفيق :

— لا أريد بيضا اليوم .. الدنيا حر .. وأنت يا توفيق ؟
— مرى جزر وفنجان شاي .
وسار مرجان على مهل وقد أرهف أذنيه ، وقال توفيق :
— وإذا أشعل نار الحرب مجنون ؟
قالت جانيت في ثقة :
— لن يستطيع أى إنسان مهما بلغ جنونه أن يتحدى العالم كله . الناس
لا يريدون حربا .
— لنفرض أن مجنوننا أقدم على إشعالها .
— سيثور العالم كله في وجهه .
ومرت لحظات قصيرة ، وما لبث أن عاد مرجان وقال :
— الإفطار أعد .
كان يتلهف على أن ينقلهما سريعا إلى غرفة السفارة ، ليسمع كل ما يدور
بينهما حول الموقف القلق الذى كانت البلاد تجتازه .
وتناولوا طعامهما ، ثم نهض توفيق وقبل جانيت وخرج ، وانطلق إلى المعديّة
لتحميله إلى بور فؤاد . وأحس وهو في طريقه رغبة في أن يمر على تمثال دلسيس ،
واستهوته الفكرة فاتجه إلى هناك .
وتطلع إلى التمثال ، وأحس لأول مرة في حياته عزة وهو ينظر إليه ، فقد كان كلما
مر به قبل اليوم يستشعر مهانة المخدوع ، وأن دلسيس القائم عند مدخل القناة هو
الذى خدعه ، وأنه بوجوده يعلن على الملأ في غطرسة قصة ذلك الخداع .
واضطربت انفعالاته ، واثارت ذكرياته حتى تصور أن دلسيس بلحمه ودمه
شاخص أمامه ، فندت منه صيحة عبرت عن المشاعر التى كانت تتفجر في أعماقه !
— سيد دلسيس ، قناتنا ردت إلينا . لم يعد لك مكان هنا ، من الخير لك أن
ترحل قبل أن نثار للآلاف من آبائنا الذين ماتوا في سبيل بناء مجدك .
والتفت إلى القناة وإلى قوافل السفن التى تتأهب للمرور منها فأحس كأنها
صارت شريانا من شرايين جسمه ، وهفت روحه إليها حتى راحت تلثم صفحة

مائها ، وتحتوى المكان كله فى أحضانها .
وسار وهو نشوان ، وراح يرنو إلى علم مصر الذى كان يرفرف فى زهو فوق
مبنى شركة القناة ، فشاعت فيه غبطة ، ورفع رأسه ، وخيل إليه أن قامته طالت ،
وأن كرامته سلمت من كل عار .

وانساب إلى حيث كانت المعديّة راسية وصعد إليها وهو غارق فى أفكاره :
كيف قبل سعيد باشا أن يقدم لمسيو دلسيس صديقه الحميم كل ما قدمه من
خدمات على حساب بلاده؟ وكيف توطدت بينهما الصداقة؟ إنى لا أكأأصدق
ما قالته لى جانيت ، وإن أكدت لى أنها قرأت ذلك فى كتاب « النيل » لإميل
لديفيج ، قالت : كان سعيد باشا مريضا بمرض السرقة ، وقد حدث أن كان
مدعوا فى فرنسا فى وليمة أقيمت لتكريمه ، وعقب الانتهاء من تناول الطعام
أعجب سعيد باشا بالشوك والسكاكين فسرقها ودهسها فى جيبه ، وضبطه مسيو
دلسيس وهو متلبس بالسرقة ، فتغاضى عنه وتستر عليه ، وقد حفظ له سعيد
باشا هذه المكرمة . فلما جاء يعرض عليه مشروع قناة السويس تحمس له ،
وأعطى المسيو دلسيس كل ما طلبه وزيادة اعترافا منه بجميله . باع سعيد باشا
بلاده من أجل نزوة شريرة زينت له سرقة بعض الشوك والسكاكين . أيعقل
هذا؟! لو كان ذلك صحيحا لكان مرض السرقة فى أسرة محمد على وراثه ، فقد
اشتهر عن فاروق أنه كان يتلثم كما يفعل لصوص السينما ويقتحم المستشفيات
والقصور والمصارف ليلا يسرق بعض الأدوية أو التحف ، أو يفتح خزانه ثم يفر
هاربا وهو فى قمة النشوة والسرور . شذوذ ! ولقد ضاعت البلاد بسبب شذوذ
إسماعيل وتوفيق وسعيد وفاروق .

ورفع توفيق رأسه فلمح عبود وحسن جالسين فى الناحية الأخرى فحياهم
بيده ، وسرعان ما عاد ليعيش فى أفكاره وتأملاته وآماله وأمانيه .
وكان حسن وعبود آخذين بأطراف حديث الساعة ، حديث تأميم القناة ،
وتهديد إنجلترا وفرنسا باستخدام القوة لإعادة الشركة إلى مصاصى الدماء
والمستغلين .

قال حسن :

— إننا لم نفعل أكثر مما فعلوه في بلادهم ، فقد أمت إنجلترا صناعة الصلب كما أمت النقل البحري ، ولم يهددها أحد بإعلان الحرب عليها لإعادة شركات الصلب إلى أصحابها .

فقال عبود :

— ربما لأن شركات الصلب يملكها بريطانيون ، أما أسهم شركة القناة فهي بين أيدي بريطانيين وفرنسيين وسويسريين ويونانيين وكل الأجناس الأخرى .

قال حسن :

— قلنا على أعين الناس إنا سندفع لحملة الأسهم حقوقهم ، كان امتياز الشركة سينتهي بعد ١٢ سنة ، وكنا سنفعل بعد هذه المدة نفس ما فعله اليوم ، أكانوا يثورون علينا ويهددوننا بالحرب إن لم نمد أجل الامتياز ؟ والله إن أمرهم غريب .
قال عبود وهو يلوى شفته في زراية :

— فلماذا كل هذه الضجة مادام ما حدث اليوم كان سيحدث بعد ١٢ سنة ؟
قال حسن وهو يبعد عن الشمس التي بدأت ترسل أشعتها الحامية أشعة شهر أغسطس :

— الجشع . الطمع . الأنانية . حب الاستغلال . حب السيطرة . إعادة نفوذ الغرب إلى المنطقة ، الإطاحة بعبد الناصر لأنه يؤيد ثورة الجزائر ويمدها بالسلاح .

قال عبود وهو يحاول أن يحجب الشمس الحامية بصحيفة في يده :

— لماذا لا يحاول الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عادلة فيرجحوا ويستريحوا ؟

قال حسن وهو يتنسم :

— عيبك يا عبود أنك رجل أو هام ، الإنسان لا يمكن أن يتخلص من أطماعه ولا من أنانيته ولا من القيود التي تربطه بالدنيا . فلو أنه استطاع أن يحطم قيوده التي تشده إلى الأرض للحلق كالملائكة ، ولأمكنه أن يرى الحق ببصيرته النفاذة . قرأت أن أحد المتصوفين كان يبحث عن الله ، وقد تملكته حيرة قاسية حتى إنه قال لينفس عن القلق الذي استبد به : يارب . كيف أراك ؟ فخيّل إليه أن صوتا يرن (م ١٦ — السهول البيض) .

في ضميره يقول : خل نفسك وتعال . نفوسنا هي التي تعذبنا ، هي التي تحجب عنا الحقيقة ، فإن أردنا أن نصل إلى ما يحتاج إلى سمو ، إلى ارتفاع ، فعلينا أن ننسى أنفسنا ، أن نقضى على شهواتنا ، أن نكتم أنفاس رغباتنا ، أن نصمم آذاننا عن نداءات عواطفنا . الأنبياء والمصلحون والقادة الذين وهبوا أنفسهم لأوطانهم قطعوا كل الأواصر التي تربطهم بالأرض ، بعرض الدنيا ، فاستطاعوا أن يحققوا رسالاتهم ؛ أما إيذن وموليه ودالاس ونورى السعيد وبن جوريون وحملة أسهم القناة ، فالأطماع تملأ قلوبهم ، والأحقاد تعمى بصائرهم ، والظلم يقبح نفوسهم ، فلا يخطر على أذهانهم إلا استخدام القوة ، والتهديد بشن الحرب وسفك الدماء .

قال عبود في مرارة :

— أتظن يا حسن أنهم صادقون في تهديداتهم ؟

قال حسن في قوة :

— إنهم قراصنة .. تجار حروب . وسواء أكانوا صادقين في تهديداتهم أم أنهم يريدون تخويفنا لنرضخ لمشيئتهم ونقبل ما يملونه علينا من شروط ، فعلى العاقل أن يستعد لهم ليقابل القوة بالقوة . إني قد عزمت على أن أستأنف تدريباتي . وقال له عبود :

— وماذا تستطيع أن تفعل إذا جاءوا بطائراتهم وأساطيلهم ومدافعهم

ودباباتهم ؟

— لو تسلحت أنا وأنت وكل الشعب لأصبحنا قوة تستطيع أن تقهر عدوانهم ، ولحاربهم الله معنا ، فالله يقف إلى جانب الحق ، والحق في جانبنا . ألم ينصر الله الفئة القليلة في غزوة بدر على الفئة الكثيرة ، لماذا ؟ لأنه أراد أن يظهر الحق . اسمع يا عبود ، من اليوم سنتدرب على القتال ، سنتأهب للقائهم إذا جاءوا ليعتدوا علينا .

قال عبود في فزع :

— لا . لا . أنا أكره الحرب ، لا أحب سفك الدماء .

— ومن منا يحب الحروب ؟ كلنا مثلك نحب السلام ونتمناه . ولكن ماذا نفعل إن كان الآخرون يجروننا إلى القتال ؟ أندعهم يقتلوننا دون أن ندافع عن أنفسنا لأننا من أنصار السلام ؟ ستخرج معي اليوم لتتدرب على القتال .
— لا .

— لا بد أن تكون مستعدا يا عبود لتدافع عن عرضك . كان أبى فى الحرب الماضية يخفى فى بيتنا سكيناً كبيرة طولها نصف متر ، وقضيب حديد ، ليقتل بهما من يوسوس له شيطانه من جنود الحلفاء أن يقتحم بيتنا ليعبث بشرف من فيه .
وامتعض عبود وقال له فى استياء :

— من أين تأتيكم مثل هذه الأفكار البشعة ؟

فقال حسن وهو يصرف أنيابه :

— من الواقع ، من الأحداث التى جرت فى أثناء الحروب . كم امرأة خطفها جنود الحلفاء فى الحرب الماضية وفى الحرب الأولى ؟
وصمت حسن قليلاً ثم قال :

— ماذا تفعل يا عبود إن اقتحم عليك دارك جندى فرنسى ، وهجم على بهيمة يريد أن ..

وصاح عبود فى فزع :

— لا . لا . لا تقل هذا ؟ اسكت يا حسن . اسكت أرجوك .

ورفت على شفتى حسن ابتسامة مريرة وقال :

— فزعت من مجرد فرض ، ثرت لمجرد وهم ، فماذا تفعل إذا انقلب ذلك الوهم حقيقة ؟

قال عبود وهو يشهق ويزفر بصوت مسموع :

— كنت أقتله بيدى .

— أتظن أنه سيقتمح دارك وهو أعزل ؟ سيكون مسلحاً وسيقتلك شر قتلة إن بدرت منك بإدارة استياء .

— هذا فظيح .

— لا بد أن تتسلح يا عبود لتصون عرضك ، لن يخشاك الناس مادمت
أعزل من السلاح . ستصبح هدفا لأطماعهم ، أما إذا تسلحت فسيرهبونك
ويعملون لك ألف حساب ، وسيفكرون كثيرا قبل أن يعتدوا عليك . السلاح
يا عبود يحميك حتى وإن لم تستعمله .

وقال عبود في ضيق :

— إلى متى سنظل كالوحوش في الغابة ، يقتل بعضنا بعضا ؟

— إلى أن نخلي أنفسنا ونذهب إلى الله .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال عبود :

— ما رأيك يا حسن في أن نأخذ سليمان معنا ؟

قال حسن في حدة :

— سليمان انتهى .. لا تفكر فيه .

— إنما يقضى عليه الفراغ ، لو أمكننا أن نشغله بشيء ، بأى شيء فسننتشله

مما هو فيه .. لن يجد الوقت الذى يمضيه في الحانات .

— سليمان فسد .. تعفن .. لم يعد يرجى منه .. ليته يموت ويستريح .

— ماذا علينا لو حاولنا ؟

— لو كان هناك أمل لوجب علينا أن نحاول ، أما ونحن واثقون من أنه لا أمل

يرجى منه فحرام علينا أن نضيع وقتنا . لو قلت له تعال لتتدرب على القتال

فسيقول لك : قلبي ضعيف . أتريد أن تستريح منى ؟ وإن جاء فسيكون عبثا

علينا ، سيشغلنا بمرضه عن تدريباتنا . وقد يرغمنا على أن نقدم له السم الذى

أصبح يسرى في عروقه ، إذا ما تماوت وطلب منا أن نرد روحه بكأس من الزفت

الذى يشربه .

وأصاخ الشيخ حسن سمعه ، كانت الأخبار تزداع من راديو بعيد ، وتلون

وجهه ، وتزوى ما بين حاجبيه ، ثم قال في صوت خافت :

— قرر وزراء خارجية إنجلترا وفرنسا وأمريكا تجميد أموالنا .

وقال عبود في رهبة :

— يريدون أن تموت من الجوع !

— أو نخضع لإرادتهم .

وشرد حسن ببصره قليلا ثم قال :

— يستخدمون نفس السلاح الذى استخدمه كل المعتدين منذ الأزل ، ولكنه سلاح مفلول لا يفث عزائم من يؤمنون بحقوقهم . أتعرف يا عبود أن كفار قريش ضربوا الحصار على النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، وحبسوهم فى شعب أبى طالب ، وقرروا ألا يبيعوهم شيئا ولا يتعاون منهم ، وأن الجهد بلغ بالمسلمين مبلغا كبيرا ، ولكنهم لم يستسلموا ، وأرغموا قريش بصبرهم على أن ترفع الحصار ، وقد خرج المسلمون منه أشد قوة وأمضى عزيمة .

وقال عبود فى تخاذل :

— ولكنه الجوع يا حسن .

فقال حسن :

— بل الجوع والحرب معا .

— ليتهم يصلون إلى تسوية سلمية ويريجوننا مما يهددوننا به .

— لن نقبل أية تسوية سلمية تمس حقوقنا أو نحاول أن نتال من كرامتنا ، أو

تخفض رعو سنا بعد أن رفعناها .

وقرأ حسن فى وجه عبود القهر ، فقال له ليسكن الظمأنينة قلبه :

— قلت لك أكثر من مرة إنى لا أخاف على مصر ، فالله يحميها ، فمن رفع

عنا غمة الملائيا ، وغمة الكوليرا ، وحجز روميل عن الإسكندرية ، سيرفع عنا

غمة فرنسا وإنجلترا ودالاس وإسرائيل والخونة من العرب .

— ٢٧ —

- خف عبود إلى بهية وقال لها في خوف :
 — ماذا تفعلين ؟
- قالت وصوت آلة الخياطة يدوى في المكان :
 — أخيط بعض ملابس لابنتي .
 فقال لها وهو ينحيا عن مقعدها :
 — قومي . يجب ألا تجهدي نفسك . أنت في الشهر السابع . يجب أن تستريحى .
 — ومن ذا الذى سيخيط هذه الملابس ؟
 قال وهو يجلس على الكرسي :
 — أنا . أبوه .
- ورفعت ثوبا صغيرا وقالت في فرح :
 — سيكون جميلا عليها .
- ثم ضمت الثوب إلى صدرها في حنان ، كأنما كانت تضم وليدها ، وقال عبود :
 — ترى ما شكله ؟ كم أنا في شوق إليك يا بنى .
 وقالت بهية في خوف وشوق :
 — بعد شهرين سنراها ، ستكون جميلة إن جاءت في شهك ، إن أخذت
 تقاطيع وجهك . ما أجملها إن كانت عيناها كعينيك ، وأنفها كأنفك ، وفمها
 كفمك ، وكان لها شعر أسود ناعم .
- وأسدلت شعرها فوق رأسه ودلته حول وجهه ، وقالت له في انشراح وهى
 تميل بصدرها تنظر من فوق رأسه إلى شكله بعد أن أعارته شعرها .
 — أخف شنبك بأصبعك يا عبود .
- واستجاب لها وهو مسرور ، فعادت ترنو إليه ثم قالت :
 — اطمئن . ستكون جميلة .
- وقال عبود وهو ينظر إليها بطرف عينه :

— ولكنى أريده ولدا .

وقالت بهية في دلال :

— سأضع ما وضعت في ، فلا حقد على إن جاء بنتا .

فقال وهو يضمها إليه في حب ويقبلها بروحه :

— أنا لا أستطيع أن أحقد عليك أبدا ، فالمحب لا يمكن أن يحقد على من

يحبه . كل ما أرجوه أن تظلى لى .

وساد الصمت بينهما فترة ، ثم راح عبود يدير بيده آلة الخياطة ، وبهية تصلح

في وضع القماش تحت الإبرة وتحركه كما تشاء ، وراح عبود يدير اليد في سرعة

فقالت له زوجه :

— تمهل يا عبود . نريد أن نعيدها إلى أصحابها سليمة . هذه آخر إبرة عندنا .

— عندما أخرج سأشترى لك عشر إبر .

والتفت إليها وقال :

— إذا جاء ولدا فماذا نسميه ؟

فقالت بهية في سرعة :

— نسميه مأمون ، فالولد لخاله .

فقال عبود في انشراح :

— ما أكثر ما سيجلب لنا من مشاكل لو جاء مثل خاله ، سيضرب كل

أولاد الجيران ، وسيحرضهم على الهرب من المدرسة كما كان خاله يغربني على أن

نهرب من المدرسة ونذهب إلى السينما في حفلة الصباح ، سيكون جنا مصورا .

فقالت له مداعبة في نبرة هازئة :

— أتريده مثلك ؟

فتوقف عبود عن إدارة آلة الخياطة ، وقال وهو يرمقها بنظرة :

— وماذا في من عيوب ؟

قالت وهي تضحك :

— القطة تأكل أكلك ولا تقول لها : بس .

ولم يضحك ، ضايقه أنها تنتقده وإن كانت تداعبه ، وقال لها :
— وماذا أيضا ؟

قالت وهي تطوقه بذراعيها من خلفه :

— قلبك طيب ، والناس تستغل فيك هذه الطيبة .

— قصدك أن الناس تستغفني ؟

— أبدا يا عبود . قصدى أن لا مكان في هذه الدنيا لمن كان قلبه طيبا

مثلك ، سيطمع الناس فيه ، وسيشقى من أجلهم دون أن يحسوا به بعد أن
يستغلوه ، أريد أن يعيش ابني لنفسه .

— لا يا بيهية . لن أكون سعيدا إن جاء ابني أنانيا .

وصمت وقال في نفسه : آه لو ورث عنك حرصك وحبك لنفسك ،

وغيرتك !

وانفجرت ضاحكة وقالت :

— عندما تغضب تصبح رجلا حقا .

فنهض وأمسكها من ذراعها وثناها في رفق وقال :

— لولا ذلك الذى فى بطنك لأدبتك على ما قلت .

واهتزت من الضحك وقالت :

— اطمئن يا عبود ، ما فى بطنى قد أثبت أنك رجل .

وقبلته وأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، فعاد يجلس على الكرسي ويدير يد آلة

الخيطة فى تودة وهو يفكر : ماذا تحب فيها يا عبود ؟ إنها مشاكسة ، أنانية ، تغار

من النسيم . أحب فيها مشاكستها وأنانيتها وغيرها . من يدري فربما لو كانت

مسألة ساذجة طيبة لما أحببتها هذا الحب . لعلنى أحب فيها حيويتها .. دفعتها ..

الأشياء التى تنقصنى . أنا سلك كهربا وهى السلك الآخر ، لو كنا متماثلين لما

تولد شيء ، أما وقد اختلفنا فقد تولدت منا الكهربا .

وقالت وهى تحرك القماش تحت الإبرة :

— قالت لى جارأتى لا بد أن أمشى كثيرا فى شهورى الأخيرة . ما رأيك أن

نخرج نتمشى على شاطئ البحر ؟

فقال في ارتباك :

— غدا يا بهية أخرج معك .

— ولماذا لا تخرج الليلة ؟

— لأنني واعدت حسن على أن ألقاه .

فقالت في ضيق :

— كثرت مواعيدك أنت وحسن هذه الأيام ، والله لا أدرى أين تذهبان إن

كنتما لا تذهبان إلى القهوة ! ياخوفي من أمثال الشيخ حسن !

وأحس في صوتها رنة اتهام ، تحركت غيرتها فأمدتها بأوهام ، إنه يعرف كل ما يدور في رأسها فهي دائما تقول : لا يتلف الرجل إلا رجل مثله ، ولا تتلف المرأة إلا امرأة مثلها ، إنها لا يمكن أن تتصور أن يتصادق رجلان إلا لتحقيق نزوة من النزوات ، ولا يستطيع عقلها أن يقتنع أن اثنين يمكن أن يتحابا في الله . وهي ترى أن ما يبيده بعض الرجال من تقوى وصلاح إن هو إلا رياء لإخفاء حقيقة أفعالهم الدنيئة . إنها تكره أن يكون له أصدقاء ، وتتمنى أن تستخلصه لنفسها ، وهو لا ينسى ما قالته له ذات ليلة بعد أن انصرف حسن وفتحية عقب زيارتهما لهما ، قالت له : لاحظت أن نظرات الشيخ حسن إلى نظرات غير بريئة . ثار ثورة عارمة في تلك الليلة ، وكادت تنجح في أن تفسد بينه وبين أعز أصدقائه ، إلا أنه كبح جماح غيظه ، وراح يفكر في كل كلمة قالها الرجل ، ويستعيد كل نظرة صوبها إليها ، فلم يجد في أقواله ولا في نظراته ما تدعيه . لم يبالغ في ملاحظتها كما قالت ، ولم يبتسم الابتسامة اللماحة التي لا يفهمها إلا النساء ، إن الرجل بريء من كل ما أرادت أن تلصقه به لتبعد بينه وبين زوجها ، وعلى الرغم من اقتناعه ببراءة صديق طفولته فقد نجحت في أن تغرس في قلبه بذرة الشك ، فقد أصبح لا هم له كلما اجتمع حسن وبهية في مكان إلا أن يرقب كل حركة من حركات الرجل ويحاول أن يحلل دوافعها .

« لماذا لا أقول لها إلى أين نذهب أنا وحسن كل ليلة ؟ هذا من حقها . أقول

لها كل شيء؟ ألا أحتفظ لنفسى بأسرارى حتى إن كانت هذه الأسرار لا تمسها؟
أتحب أن تحتفظ بهية بأسرارها ، أتحب أن تخفى عنك شيئا؟ ما أدرانى أن ليس لها
أسرار وأنها لا تخفى عنى بعض تصرفاتها . لا يا عبود ، إن هذه الأفكار إهانة لها ،
ولو عرفت ما يدور فى رأسك لثارت وغضبت ولمزقت وجهها بأظافرها ، قل لها
يا عبود .. ستسخر منى ، لن تستطيع أن تفهمنى . ألا تفهمك خير من أن يظل
الشك ينهش قلبها . قل لها وأمرك لله وتلق وعذك . ولماذا أقول لها ما ستسخر منه ؟
لأنى مغفل لا أطيق أن أتركها لعذاب وهمها . أحب أن أريها » .

وقال لها وهو يحاول ألا تلتقى عيناه بعينها :

— إني أذهب أنا وحسن وبعض الأصدقاء لتتدرب على استعمال الأسلحة .

ودوت فى المكان ضحكة ساخرة زلزلت كيانه ، وقالت بهية :

— أتريدنى أن أصدق هذا؟ أنت الذى ترتحف وتشيح بوجهك إذا ما توسلت

إليك لتمسك لى أربنا لأذبحها تتدرب على استعمال الأسلحة؟! قل قولا غير هذا

يا عبود . اختلق عذرا مقبولا . أنت لا تعرف كيف تكذب يا حبيبى .

فقال فى غضب :

— أنا لا أكذب يا بهية . هذه هي الحقيقة .

— ولماذا تتدرب على استعمال الأسلحة ؟

— لنحمى أنفسنا إذا اعتدى أحد علينا .

وعادت تضحك ضحكها التى تمزق أعصابه وقالت :

— ومن ذا الذى سيعتدى علينا؟ ولماذا يعتدى علينا؟ ليسرق الخزائن ،

ليستولى على الجواهر . ماذا سيظمغه فينا؟

وتحلم وقال لها :

— الإنجليز والفرنسيون يهددوننا بالحرب ، يقولون إننا نخطفنا منهم القناة ،

سرقناها منهم .

فقالت بهية فى سخرية :

— يفتشوننا . ليس فى جيوبنا شيء .

- بهية ا. أنا لا أمزح . قد نستيقظ يوما ونجد أعداءنا يهاجمونا .
— الله يجازيك يا شيخ حسن . أفسدت عقل الرجل .
— وإذا جاءوا فستحاربهم ؟
— أنا أمقت الحرب يا بهية ، ولكن ماذا نفعل إذا اعتدى علينا أحد ؟ إذا جاء
رجل غريب إلى هنا ؟
— وما الذى سيأتى به إلى هنا ؟
فقال فى غضب :
— شيطانه . إذا جاء أحد إلى هنا فسأقتله .
قالت له هازئة :
— إذا جاء أحد منهم إلى هنا فستموت من الخوف .
فقال عبود فى ثورة :
— أنا لست جباناً يا بهية ، ولكنى أمقت العنف .
— ومن بمن أعرفهم يتدرب معكم ؟
— مرجان .
واتمعت عيناها بيريح الشك فقالت :
— أليست بين الأسلحة التى تتدربون عليها جوزة ؟
فقال فى غضب :
— ماذا تقولين يا بهية ؟
— مادام مرجان معكم فسيغنى لكم أثناء الانسجام .
فقال فى ثورة وهو يهيب فى جلسته منفعلا :
— أتريدن أن تقولى إني حشاش !
— لا تغضب يا عبود ! الشيخ حسن يرى أن الحشيش ليس حراما .
— أقال لك حسن ذلك ؟ لماذا تفترين على الرجل دائما ؟ لماذا تكرهينه ؟
— الحق على . لن أهرز معك مرة أخرى . عيبك يا عبود أنك لا تفرق بين

الضحك والجد .

ورأت أن خير ما تفعله لتقهره أن تظهر أنه أساء إليها ، وأنه أغضبها وجرح كرامتها .

فأشاحت بوجهها عنه وأولته ظهرها ، ثم غادرت الغرفة وانسابت إلى غرفة النوم وارتمت في فراشها وراحت تجهش بالبكاء في صوت عال ليصل إلى مسامعه . وراح عبود يتلفت في قلق لا يدري سببا لبكائها ، إنها أهانته وأهانته صديقه ، ثم بكّت دون سبب . ترى ما الذى أجرى دموعها ؟ وشرد يفكر : « هل أنا جبان ؟ لماذا تسخر بهية منى ؟ لو طوعت نفسى لضربتها ؟ لماذا لم أضربها ؟ إنها غضبت وبكّت دونما سبب ، فما بالك لو كنت قد ضربتها ؟ ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى . أنت الذى تفسدها يا عبود بكثرة تدليلك إياها . دعها تبكى ولا تهتم بها .. قم ارتد ملابسك واتركها واخرج . المرأة إذا كسرت لها ضلعاً نبت لها عوضاً عنه ثلاثة ! ترى يا حسن أتطبق نصائحك لى مع فتحة أم أنك معها ضعيف مثل مع بهية ؟ لا . أنا لست ضعيفاً ولكنى أوثر اللين ، أحب السلام . لا ، أنت تخشى مواجهة العواصف تطأطئ لها رأسك ، هذه قوة . ما أيسر أن أقوم الآن فأذهب إلى بهية وأصيح فيها : لماذا تبكين الآن ؟ تريدن أن تغطى أخطأك بدموعك ؟ أنا أحذرك يا بهية أن تعودى إلى الاستخفاف بى أو تحقير أصدقائى . الزمى حدودك . أتظن ذلك سهلاً ، لو كنت رجلاً حقاً لقلت إليها ووضعتها فى مكانها الصحيح .

لو كنت مغفلاً لفعلت ذلك ، سأحطم برعونتى كل الجسوز التى تصل بينى وبينها ، وسأحيل حياتنا إلى جحيم - إنها قوة يا عبود أن تسيطر على عواطفك وأن تكبح جماح غضبك ، وأن تنقذ حياتك الزوجية من أن تتعفن . قم إليها يا عبود وتودد إليها وامسح دموعها ، فهى مهما تكن امرأة ضعيفة ، ناقصة عقل ودين . أليس ذلك رأيك يا حسن ؟ خذها كما هى ، إنها خلقت من ضلع أعوج ، إن حاولت أن تقومه كسرتة » .

وعز عليها أن يدعها تبكى دون أن يهرع إليها يستعطفها ، فراحت تن فى

حرقة ، وتنشج بالكاء ، ولم يعد يحتمل ما صارت إليه ، وخشى على ما في بطنها فقام وسار إليها ، ثم جلس على حافة السرير وراح يمر يده على ظهرها في حنان ويقول :
— بهية ! قومي اغسلي وجهك .

وشاع السرور في كل جنباتها ، بيد أنها رأت أن تستمر فيما هي فيه لتندل كبرياءه وليكون نصرها عليه كبيراً ، ولتلقنه درسا حتى يفكر طويلاً قبل أن يثور أو يجرحها بكلمة ، فأخفت وجهها في الفراش وراحت تضربه بقبضتها في عصبية ، وقال لها :

— كفى يا بهية . كفى لإكرامالي .

ومال عليها ورفعها بين يديه في رفق وهو يقول :

— قومي . لا تغيري دمك .

ورفع خصلة الشعر التي تهدلت على عينيها ، وقال وهو يجذبها من يدها في رفق :
— تعالي معي . تعالي نلق عين الشيطان .

وذهبت بهية تغسل وجهها وهي في قرارة نفسها مسرورة بانتصارها ، ولكن عكر ذلك السرور رغبة قامت فيها راحت تمنى لو أنه قسا عليها ولم يحفل بدموعها ، وأثبت لها أنه رجل ، وأنه أقوى من أن يخور أمام عبرات كاذبة . ورن فيها صوت يقول : ليتك يا عبود تضربني مرة . وأنكرت ذلك الهاتف وقالت لنفسها في حدة : والله لو مد يده وضربني لأضربنه .

وعاد الصفو إليهما ، وجلسا يستأنفان حياكة ملابس المولود المنتظر ، ورفعت بهية ثوبا بين يديها ، وأخذت ترمقه في سرور ، ثم قالت :

— لو جاء بنتا ، فماذا نسماها ؟

فقال دون تفكير :

— إنصاف .

واربد وجهها وانقلبت سحنتها وتفجرت غيرتها ، وشعر هو أنه أخطأ خطأ فادحا ، فلو فكر لحظة ما جرى ذلك الاسم على لسانه ، ولم تستطع أن تخفى حقيقة مشاعرها فقالت في ثورة :

— ولماذا نسئها إنصاف ؟

فقال في صوت متهدج :

— اسم جرى على لساني .

لم يكن اسم أمك ولا اسم أمي حتى تذكره ، تريد أن يذكرك هذا الاسم بمن
تحب . تريد أن يعيش معك دواما .

فقال عبود في انفعال :

— بهية .

— لو لم يكن هذا الاسم عزيزا عليك لما جرى على لسانك .

— اعقلى يا بهية .

— الإنسان يردد دائما اسم من يحب ، ينتهز أية فرصة ليذكره .

ورأى أن يطعنها كما تطعنه وإن كان ذلك يضايقه ويرهقه ، فقال لها :

— منذ أن جلسنا وأنت تذكرين دائما اسم حسن ، أهو عزيز عليك ؟

— أنا لم أذكره بخير .

— المهم أنك تذكرينه ، وأن اسمه دائما يجري على لسانك ، أتريديني أن أفهم ..

فقالت في غضب :

— عبود أنا لا أسمح لك أن تهيننى .

— وأنا لا أسمح لك بإهاتنى يا بهية .

فقالت وهي تزفر في انفعال :

— أنا أقرر حقيقة ، أما أنت فتريد أن تهرب منى بما تزعمه ، أن تشغلنى

باتهاماتك عن أن أكشف سرى ، أنت تحب إنصاف يا عبود . تحبها ، لا تنكر .

— أنت مجنونة . مجنونة . قلت لك يا بهية أكثر من مرة إن غيرتك هذه

ستفسد حياتنا . لماذا تحاولين يا بهية دائما أن تحطى حياتنا ؟

— أنا لا أحب أن يقوم بيتنا على خداع . إن كنت لا تحبى فاتركنى

واذهب إليها .

وقال وهو ينطلق ليرتدى ثيابه وينصرف :

- لا . هذا البيت لم يعد يطاق .
فذهبت خلفه وهى تقول فى عناد :
— قلها . قل إنك كرهتنا . إنك سممت عشرتنا .
وراح يرتدى ثيابه فى انفعال وهو يقول :
— بهية . اسكتى وإلا فستندمين على ما تقولينه . لمى لسانك أحسن .
فقال فى غضب :
— وإذا لم أله ، ماذا ستفعل ؟
وقبل أن ينفجر فيها صائحا بما سيفعله ، غادرها وخلفها وراءه واندفع صوب
الباب ، وإذا بها تصيح :
— اذهب . اذهب إليها ولا داعى لأن تثير خناقة لغضب وتهرب .
وأغلق الباب خلفه فى عنف ، وهبط فى الدرج وهو يكاد يتمزق غضبا ، وما إن
بلغ الطريق حتى وجد الشيخ حسن ينتظره وهو متهلل الأسارير ، فكبت مابه
واغتصب ابتسامة ثم سارا معا فى الطريق ، وما قطعاه فيه خطوات حتى قال حسن :
— الليلة سنتدرب على استعمال المدفع الرشاش .

- أغلق توفيق الراديو فى حلق وغضب ، فقالت له جانيت :
— لم أغلقته ؟
فقال توفيق وهو يطوح ذراعه فى الهواء نائرا :
— ضقت بحملة الأكاذيب ، لندن تفتري علينا ، باريس تهاجمنا ، إسرائيل
تنفث سمومها وتبث كراهيتها فى كل النفوس .
— وهل أسكت الافتراءات لما أغلقت الراديو ؟
— كيف يقبل الزعماء أن يخدعوا شعوبهم ؟ أن يباركوا حملة الأكاذيب ؟ أنا
واثق أن إيدن وموليه وسلوين لويد يعلمون أنهم يكذبون .
— إنها السياسة يا توفيق .

— لعنة الله على السياسة إن كان المقصود بها السفس والخداع ،
والكذب والبهتان وإخفاء وجه الحقيقة .

— الحقيقة في عرف السياسة هي ما يحقق أغراضك . إيدن وموليه
وبن جوريون يهدفون إلى هدف واحد ، تحطيم عدوهم المشترك ، وهم
يحاولون أن يخدعوا شعوب العالم بأكاذيبهم ليكونوا معهم على عدوهم .
فقال توفيق وهو يجلس غاضبا :

— كيف يتحدث إيدن عن تدويل القناة وهو يعلم أن هذا التدويل
لا قيمة له إلا إذا كانت هناك قوة دولية تسانده ؟ لنفرض أن التدويل
فرض على مصر ، وجاءت هيئة دولية لتدير القناة ، ثم قررت مصر عدم
مرور سفن دولة من الدول كما فرضت في الماضي الحظر على مرور سفن
إسرائيل . فهل تستطيع الهيئة الدولية أن تنفذ قوانينها رغم أنف مصر ؟
قالت جانيت وهي تبسم :

— كان إيدن على يقين من أن الرئيس سيرفض هذا الاقتراح ، كل
ما يهدف إيدن إليه باقتراحه أن يظهر عبد الناصر في صورة من يرفض
التسوية السلمية ، وقد رفض الرئيس مناقشة اقتراح التدويل وقال :
الإشراف الدولي نوع من الاستعمار المشترك .
— وحقق إيدن هدفه !

فقالت جانيت وهي تنظر إلى زوجها النائر :
— وأعلن إيدن على الملأ : نحن لا نثق في عبد الناصر .
ولم يطق توفيق البقاء في مقعده ، بل هب واقفا وقال وهو يغدو
ويروح في الغرفة :

— لم يكن جيتسكل موفقا لما شبه عبد الناصر بهتلر ، وشبه ما فعله
في السويس بما فعله هتلر عندما نقض معاهدة فرساي واحتل الراين .
— ولكن جيتسكل ثاب إلى رشده وعاد هو وحزب العمال الذي
يرأسه يعلنون أن ليس في تأميم قناة السويس أية مخالفة للقوانين الدولية .

— بعد أن تلقف إيدن قوله وراح يذيعه على ملايين البشر من مستمعيه .
أنا لا أتصور كيف يجد إيدن في نفسه الشجاعة ليقول مثل هذا البهتان ، وهو
أعلم الناس أن عبد الناصر لما أمم القناة لم ينقض معاهدة ، ولم يطلق رصاصة
واحدة ، بل استعمل حق الدولة في تأمين ما تشاء من المرافق العامة .

قالت جانيت وهي تبتمس :

— إيدن هو الذي وقع معاهدة الجلاء وقد جاء فيها أن القناة أرض مصرية ،
وأنها جزء لا يتجزأ من مصر .

— ثم يأتي في هذه الأيام ويعلن على أعين الناس أن مصر اغتصبت القناة ،
سرقها ، ويقول البغل الأسترالي في التليفزيون البريطاني إن عبد الناصر أمم القناة
نفسها لا شركتها .

قالت جانيت وهي تضحك :

— تقصد منزيس .

— وهل هناك بغل أسترالي غيره ؟ ما لرئيس وزراء أستراليا .. وهذه الأزمة
التي يحاول إيدن أن يشوه حقيقتها ؟

— إنه أداة من أدوات التشويه في يده ، فلماذا لا يستخدمها ، لن يتورع
إيدن وموليه وبن جوريون ، ونورى السعيد من وراء ستار ، عن استخدام كل
السبل الدنيئة لتحقيق هدفهم . هل سمعت ما قاله سلوين لويد في إذاعة له عن
كتاب « فلسفة الثورة » ؟

— لا .

— قال : كنت أقرأ في هذا اليوم كتيباً وضعه عبد الناصر عن الثورة ،
يكشف فيه صورة تفكيره ومطامعه ، فهناك ثلاث مراحل واضحة كل
الوضوح ، أولاً السيطرة على البلاد العربية ، وثانيها السيطرة على إفريقيا
كلها ، والثالثة السيطرة على العالم الإسلامى كله .

وقد أطلق موليه على هذا الكتاب اسم « كفاحى » بقلم عبد الناصر .
— دعاية مسمومة .

(م ١٧ — السهول البيض)

— دالاس نفسه تأثر بها حتى أنه شبه كتاب « فلسفة الثورة » بكفاحي هتلر .

— ماذا يريد إيدن منا ؟

— يخيل إلى أنه يحلم بأن يكون جلاستون آخر في تاريخ بريطانيا ، يحلم بهزيمة عبد الناصر كما هزم جلاستون عراقي وقضى على ثورته .

— وما سبب هذه العداوة كلها التي يكنها إيدن لعبد الناصر ؟

فقالت جانيت وهي تشير له بيدها أن يجلس :

— ماذا تظن أنه السبب في هذه العداوة ؟

— مهاجمة عبد الناصر لحلف بغداد ، وطرد جلوب من الأردن ، وتقرب

الأردن من مصر ، وخشية إيدن أن تدور الدولة التي رسم تشرشل حدودها لأول مرة على غطاء مائدة طعام في أحد مطاعم لندن في عام ١٩٢١ في فلك مصر ، وأن تنتهج سياستها .

إن إنجلترا لا تسكت أبدا على أن تصبح الأردن في صف الدول المناهضة لسياستها ، لأنها تعتبرها مفتاح العراق ، والعراق مركز السياسة البريطانية في المنطقة .

قالت جانيت وقد شردت ببصرها :

— أنت تلف حول مركز الموضوع ، إني فكرت في أسباب عداوة الغرب لعبد

الناصر ، وقد اهتديت إلى فكرة أعتقد أنها توضح الأمر كله . بعد أن تهزم أمة في حرب من الحروب تتركز المرارة في نفوس أبنائها ، وتتطلع إلى محو العار الذي لحقها ، وتتلقت تبحث عن ابن من أبنائها كوى بنار الهزيمة وذاق مرارة الانكسار ليقبلها من عثرتها ، وما إن يظهر هذا الابن البار حتى تتعلق به كل الآمال ، وتلتف حوله كل لقلوب ، فهو المعبر عن آلامهم وآمالهم . فبعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى قام مصطفى كمال يضمّد جراح الشعب التركي ، ويلم شمله ، وينتشله من عثرته ، وقد نجح أتاتورك في أن يحقق آمال الشعب المنهزم .

وبعد هزيمة العرب في فلسطين ، كان الغرب يخشى أن يقوم رجل من العرب

ذاق مرارة الهزيمة ، يعبر عن آلامهم وآمالهم ، وينجح في أن يلم شملهم ، وأن

يقودهم إلى مجدهم . وكادت مخاوف الغرب أن تنقشع لما مرت سنوات بعد حرب فلسطين ، وملوك العرب وحكامهم غارقون في ملذاتهم ، يتناحرون فيما بينهم على مطاعمهم الذاتية . وقامت ثورة مصر ، وكان الغرب واثقا من نفسه من قدرته على أن يفرق بين حكام العرب فلم يفرغ ، بل كان على يقين من أن الشبان الذين تولوا مقاليد الحكم في مصر سيكونون لعبة في يد سياسة الغرب الدهاء . ومرت الأيام ، وتمت صفقة الأسلحة الروسية ، وقوض حلف بغداد بعد أن رفضت الأردن أن تنضم إليه ، وطرد جلوب منها . وانتشت الشعوب العربية كلها بدعوة القومية العربية ، وذاقت فرنسا الأمرين من ثوار الجزائر وتأييد عبد الناصر لهم ، فتأكد الغرب أن عبد الناصر هو الرجل الذي قام بعد هزيمة فلسطين ليعبر عن إرادة الشعوب العربية ، وليجمع شملهم تحت راية القومية العربية ، فكان على الغرب أن يطيح به ويقضى عليه قبل أن يستفحل خطره ، ويحطم كل نفوذ لهم في المنطقة .

وقال توفيق وهو يهز رأسه موافقا :

— معقول .

ثم التفت إليها وقال :

— في رأيك أن التسوية السلمية التي يتحدث عنها إيدن إن هي إلا خداع ؟

— نعم .

— وأن غضة إيدن وموليه من هذا التأميم واقتراحات التدويل وسيلة

لا غاية ، وسيلة للإطاحة بعبد الناصر .

— أصبح التخلص منه هدفا من أهداف سياسة الغرب بعد أن اتضحت

خطورته على مصالحهم . إنه نجح في أن يجعل مشكلة القناة مشكلة عربية ، فالشعوب

العربية كلها اليوم تقول : إنها ليست قناة السويس ولكنها قناة العرب .

— إذا كان العدوان قد تقرر ، فلماذا يرسل إيدن منزيس للتفاوض مع مصر ؟

— إنه يعلم علم اليقين من أن سفارة منزيس ستخفق ، وأن الشروط التي

يحملها سترفض ، وهو لذلك يبعث به حتى يظهر للعالم أن عبد الناصر لا يقبل

الحلول السلمية ، وأنه قد اضطر اضطرارا لاستخدام القوة لحل الأزمة . إنه يعبئ شعور الكراهية الآن لعبد الناصر في العالم بأسره ، ولو حللت الأسئلة التي يلقيها عليه الصحفيون الأجانب في هذه الأيام لكشفت عن خبيثها ، وإن بدت بعضها ساذجة في ظاهرها . قال له واحد منهم : هل أنت دكتاتور؟ وقال له آخر : هل أنت فرعون؟ يريدون بهذه الأسئلة أن يثبتوا هذه المعاني في أذهان قرائهم . وسأله سائل منهم : هل في النية تأمين شركات البترول في البلدان العربية؟ ولم يكن بأية حال ينتظر ردا ، فهو يعلم أن ذلك من أحص شعون تلك البلدان الداخلية ، ولكنه كان يريد بهذا السؤال أن يلقي الرعب في قلوب المهتمين بالزيت العربي ، وأن يبذر في صدورهم بذور العداوة للرجل الذي قام ليوفظ العرب من سيئاتهم .

— أعتقد أن إيدن سيلجأ إلى استخدام القوة ؟

— هذه أمنيته ، ولكني أعتقد أنه لو أقدم على الحرب فسيكون أكبر مجنون في هذا العصر ؛ فظروف اليوم تختلف عن الظروف في أيام جلادستون ، فلن يقبل أحد أن تندلع شرارة الحرب في هذه المنطقة .

— وإذا ركب رأسه ونفذ حلمه .

— على من سيعتمد في تأييد عدوانه ؟

— على فرنسا وأمريكا وحكام العرب الموالين للغرب .

— أظن أن مستر دالاس حاقد على إيدن ، فهو الذي أغراه بسحب تمويل السد العالي وأكد له أن عبد الناصر لن يفعل شيئا ، وأن إهانة سحب التمويل إن وجهت إلى عبد الناصر فستضعف نفوذه في المنطقة ، فسمع لنصح ، وإذا بالآية تنعكس ، ويصبح عبد الناصر محط أنظار الشعوب العربية كلها بعد أن ضرب ضربته الجريفة وأم القنائة ، وإذا بدالاس يشعر في قرارة نفسه أن هيئته قد طعنت طعنة نجلاء ، وأن إيدن هو الذي عرضه لهذه الطعنة .

— ولو أعرض عن كل هذا وقام بمغامرته ليطيح بعبد الناصر ، ويقضى على

القومية العربية في مهدها ..

— لو فعل فلن يقضى على القومية العربية ، بل سيعاونه على تقويتها ، على أن تصبح حقيقة واقعة . فما من شيء يقوى المبادئ ويعين على انتشارها قدر اضطهادها ومحاولة القضاء عليها بحمد السيف .
ودوى فى سكون الليل رنين جرس الإسعاف ، فأرهب توفيق سمعهُ وقال :
— ترى ماذا هناك ؟

ومالت جانيت برأسها تصغى ثم قالت :
— يحيل إلى أن سيارة الاسعاف وقفت عند بيتنا .
فابتسم توفيق وقال :
— ترى ستسعف من منا ؟ الحقيقة أئى فى حاجة إلى من يسعفنى من اللوامه التى نعيش فيها .

وساد الصمت برهة ، وإذا بجرس الباب الخارجى يدق ، فالتفت توفيق إلى زوجته فى دهش ، ثم ذهب ليرى ماذا جرى وهو فى حيرة . وانطلقت جانيت خلفه وقد ارتسم فى وجهها شيء من القلق والاستغراب .
وفتح توفيق الباب فألقى أمامه صديق الفرارجى فى ثياب الإسعاف ، وقد أسند بذراعه مرجان ، وكانت الضمادات البيضاء تلتف حول رأسه فى إحكام ، وهتفت جانيت قائلة :

— مرجان ! ماذا أصابك ؟

وقال مرجان وهو يبتسم :

— حادث بسيط ، قد أسعفنى السيد صديق .

وقال صديق وهو يحاول أن يروغ قبل أن تكثر الأسئلة والاستفسارات :

— مساء الخير .

وقال له توفيق :

— تفضل .

— شكرا .

وانسل صديق ، ودخل مرجان وجانيت تقول له :

— لم تقل لي ماذا حدث ؟

قال مرجان وهو يتحاشى أن تلتقي عيناه بعينيها :

— كنت أسير في شارع سعد زغلول وحدى ، وخطر لي أن أعبر الطريق لأتمشى بالقرب من البحر ، وما أن قطعت في عبور الشارع بعض خطوات حتى جاءت سيارة مسرعة كادت تدهمني ، فهربت من طريقها ، ولكن رفرفها صدمني ، فسقطت على الأرض ، وارتطم رأسي بالرصيف وسال دمي .
قال له توفيق :

— وماذا فعل سائق السيارة ؟

قال مرجان وهو يدور بعينه في المكان :

— هرب . لم يقف ليري ماذا حدث لي .

قالت جانيت وهي تفحصه بعينيها كأنما تحاول أن تقرأ ما في ضميره :

— ومن الذى استدعى الإسعاف ؟

قال مرجان :

— جاء العسكري يهرول بعد أن سمع صوت الفرملة ، فوجد أن السيارة قد هربت وأنى ملقى على الأرض ودمى يسيل ، فأسرع باستدعاء الإسعاف .
وتبادل توفيق وجانيت النظرات ، وكانت عيونهما تؤكد أنهما لم يصدقا شيئا مما قال .

وعمز توفيق لجانيت أن تسكت وأن تدعه ينصرف ، وقال له توفيق :

— ادخل يا مرجان لتسترخ .

وتنفس مرجان في راحة ، انتهت الأسئلة التي كان يخشاها ، ودلف إلى غرفته

لينام ، وقال توفيق لجانيت :

— لماذا كل هذه الأسئلة ؟

— كنت أريد أن أعرف حقيقة ما وقع له .

— الرجل لا يستطيع أن يخفى شيئا من أدق شؤون حياته ، انتظري حتى ينام ثم

يبدأ في إذاعة كل ما حدث في يومه .

وعادت جانيت تدون مذكراتها ، وراح توفيق يقرأ كتابا عن السويس ،
وبعد أن قرأ فقرات رفع رأسه وقال لجانيت :

— لم أكن أعرف قبل اليوم أن مدينة السويس كانت تسمى بالقلزم ، وأنها
مشتقة من كليزما اللاتينية ومعناها المرفأ ، وأن العرب أطلقوا عليها القلزم
تحريفا ، لأن القلزمة في اللغة العربية معناها ابتلاع الشيء ، ولأنهم يعتقدون أن
عندها عبر موسى البحر ، وأن البحر هناك ابتلع فرعون .

وصمت قليلا ثم قال وهو يضحك :

— البحر قلزم فرعون !

وقالت له جانيت :

— ما أكثر ما في الكتب من حقائق وخيالات .

وصمتت جانيت وأرهفت سمعها ، فتيقنت أن مرجان قد راح في سبات ،
وبدأ يتكلم في نومه .

فقالت وهي تهض :

— بدأت محطة إذاعة مرجان في إذاعة نشرتها اليومية .

ورمى توفيق الكتاب وانطلق خلف زوجته إلى غرفة مرجان وقد بدأ يفضي
بكل أسراره دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، وفتحت جانيت باب الغرفة في
رفق واحتراس حتى لا تحدث صوتا قد يوقظ مرجان ، ووقف توفيق خلفها
وهو يصغى ، وقال مرجان :

— لا يا سليمان . هذا فرح لا يليق بي أن أغنى فيه . لماذا جئت بي إلى أناس
لا يقدرון الفن ؟ جئت بي إلى هنا لتشرب كما تشاء وتملأ بطنك بالطعام .

— لا ياسيد سليمان . شكرا . أنا لا أشرب . اشرب أنت . أنا خائف
ياسليمان . لن تمر هذه الليلة على خير . الناس الجالسون هناك وفي أيديهم
المراوات في عيونهم الشر . أتقول إن بينهم وبين أصحاب الفرغ عداوات
ودماء؟! لا ياسليمان . أنا لأحب هذا المزاح . سأنصرف .. أنا لا أخرجك
ولكنك أنت الذى أخرجتني . لماذا جئت بي إلى هنا؟ إذا كنت تريد أن تشرب

وأن تأكل فما أكثر الأفراح التي تستطيع أن تشرب فيها على هواك .
سليمان ! لقد بدأت المعركة . اتركني . دعني أنصرف أرجوك ..
أنا لأدري لماذا أطاوعك وأنقاد معك إلى حيث تشاء من الأفراح .
العيب عيبي لأني أتبعك . لن أصغى إلى توسلاتك بعد الليلة .
وى ! الكراسي تطير في الهواء ، إنهم قادمون نحونا وهم يحطمون كل شيء .
آه .. آه يارأسى .. رأسى . لعنة الله عليك يا سليمان .. الدم ! الدم ! الدم !
وجذب توفيق جانيت من يدها وانسلا من المكان ، وأغلق باب الغرفة
خلفهما ومرجان يصيح ويتألم ويتدفق من فمه أقدع السباب لسليمان الذي غرر
به ليلاً بطنه بالطعام ، ويطفئ ظمأه للشراب .

كان حسن يتقلب في فراشه ، فقد طار النوم من عينيه وراحت الأفكار تتناثر
على رأسه وتتزاحم ، وتريد في قلبه الذي انتابه ، وتحرضه على أن ينهض ويخرج
ليكون على مقربة من الأحداث الهائلة التي تجري في بلده ، بيد أن الظلام الذي
كان ناشراً جناحيه على المدينة كان يدفعه إلى أن يتريث حتى مطلع النهار .
انحصر كل تفكيره في المشاكل التي خلقها الغرب بعد تأميم القناة : « مسيو
بيكو مدير شركة القناة سافر منذ شهر إلى واشنطن ، ليبدل كل جهد ممكن
ليحمل الدول الكبرى على الضغط علينا لقبول مد امتياز الشركة . أنت مغفل
يا مسيو بيكو . كيف خطر على بالك أننا نقبل أن نمد أجل الامتياز يوماً واحداً ؟
لألم تكن مغفلاً . أنا أعذرک لأنك وجدت من يستمع إليك . فمستر بلاك مدير
البنك الدولي اقتنع برأيك وعرض أن يعطينا مليون دولار كقرض لتوسيع قناة
السويس ، واشترط أن نبحث موضوع مد امتياز الشركة . هل عندك ابنة
يا مستر بلاك ؟ لو كنت والدا وعرض عليك رجل ثرى أن يلبس ابنتك الحرير
وأن يزينها بالجواهر والأحجار الكريمة على شريطة أن تتنازل له عنها ، أكنت تقبل
ذلك يا مستر بلاك ؟ القناة يا مستر بلاك ابنتنا ، انتزعت من بين أحشائنا ليلة

ولادتها ، وقد عشنا السنين ونحن في لوعة نكتوى بنار فراقها ، فلما عادت إلينا بعد طول غياب ، أظن يا مستر بلاك أننا نفرط فيها ؟ لو فكرت يا مسيو بيكو ويا مستر إيدن ويا مسيو موليه تفكيرا إنسانيا لتيقنتم أنكم تطلبون منا المستحيل . أهون علينا أن نموت من أن نفرط فيها .

توعدوننا بالحرب . لماذا ؟ الأنا استرددنا منكم حقنا ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أبدا أن تقوم كل هذه الضجة ، وأن تنقل الجيوش من إنجلترا إلى قبرص ، وأن تحرك القوات الفرنسية ، وأن تنفق كل هذه النفقات من أجل أن تسترد شركة القناة سيطرتها على القناة ، ماذا في رعو سكم ؟ ماذا قال إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد لما اجتمعوا معا في باريس ؟ ماذا قال بيكو لوزير خارجية إنجلترا لما اجتمع به في لندن ؟ نجحت يا بيكو في أن تدبر سحب المرشدين الإنجليز والفرنسيين والبلجيكين والطلليان . غدا سنعمل بلا مرشدين أجاتب . غدا ؟ لا . بل اليوم ، فقد ولد يوم الجمعة ، الخامس عشر من سبتمبر من عام ١٩٥٦ منذ أربع ساعات .

هذا يوم له ما بعده ، يوم يجب علينا فيه أن نفوت على الغرب غرضه . وما هو غرضه ؟ يريد أن تشل الحركة في القناة فيعلن للعالم أجمع أننا أخفقنا في إدارتها . لن نخفق يا مستر إيدن ، ولن نمكنك من أن تحقق هدفك . أستطيع حقا أن ندير القناة وحدنا ؟ على إخواننا المرشدين المصريين والمرشدين اليونانيين الذين وقفوا معنا أن يبذلوا جهود الجبارة ويبذلوا كل ما في طاقة البشر ليحطموا المؤامرة الدينية . وإذا أخفقنا يا حسن ؟ لا . يجب ألا نخفق أبدا وإلا انتهينا . ليتنى كنت مرشدا بحريا لأعمل حتى يغمى على من الجهد والتعب .

ماذا يريدون منا ؟ أريد أن أعرف .. أن أهتدى . ألا تعرف يا حسن ماذا يريدون منا ! إن أسئلة صحفيهم تكشف عن خبيثة نفوسهم . لماذا سأل أحدهم عما إذا كانت الدول الإسلامية ترضى بأن يسيطر عليها دول غير إسلامية ؟ ما الذي دس الإسلام في هذا السؤال ؟ أو ترضى أية دولة سواء أكانت إسلامية أم مسيحية أم بوذية أم ملحدة أن تخضع لسيطرة دولة أخرى ؟!

ذكر الإسلام لأن في أعماق شعوره خوفا منه ، يخشى أن يستيقظ بعد أن أطل نومه ، يخشى أن يتحد قومه ، إن بعض كتابهم يظهرون خوفهم من يقظته صراحة ، أذكر أنى قرأت رأيا غريبا يقول : لو علم المسيحيون حقيقة الدور الذى لعبه معاوية لتمزيق وحدة المسلمين لصنع كل مسيحي مخلص لمعاوية تمثالا ، فهو الذى أوقف تيار الإسلام الذى كان سيجرف العالم كله . من من كتابهم الذى قال ذلك يا حسن ؟ نسيت . ولكن هذا القول نقش في قلبى منذ أن قرأته ، وألقى ضوءا على الدوافع الحقيقية التى تحرك أغلب الساسة الغربيين . لا . أنا لست متعصبا . أنا أفهم حقيقة ما تدعو إليه كل الأديان ، إنها تدعو إلى المحبة والتعاون والتضافر لتحقيق رفاهية البشر أجمعين . هل العدوان الذى يدعو إليه إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد من الدين فى شىء ؟ إن ديننا ودينهم وكل دين يدعو إلى السلام ، ويذم الظلم والبغى والعدوان .

هل جاءوا حقا لحقن الدماء وإقرار السلام ؟ منزيس لم يأت ليتفاوض بل جاء يملئ شروطا مجحفة ، جاء لينفخ فى نيران العداوة والبغضاء ، وتجميد أموالنا فى مصارفهم هل أريد به لإقرار السلام ؟ وتحركات القوات المسلحة إلى قبرص أقصد بها السلام ؟ هل من الدين فى شىء أن يلتم القوى الضعيف ، وأن يسود قانون الغابة !؟ » .

وهب من فراشه وفى جوفه صيحات غاضبة تدوى : اسمع يا إيدن واسمع يا موليه ، اسمع يا دالاس : لن نقبل الدل الذى تريدون أن تضربوه علينا أبدا . خير لنا أن نفنى كلنا من أن نمكنكم من أن تدوسوا كرامتنا . وراح يغدو ويروح فى الغرفة وهو يزفر فى ضيق ويضرب كفه بقبضته ويغمغم :

— ليتنى أستطيع أن أفعل شيئا . ليتنى كنت مرشدا . ليتنى أستطيع أن أرشد كل السفن التى ستفد لتعبير القناة .

ولم يستطع أن يبقى فى الدار ، خيل إليه أنه سجين عواطفه وأوامه ومخاوفه ، أحس رغبة فى أن ينطلق إلى ميدان المعركة ، أن يشاهد عن كثب آثار المؤامرة ، فراح يرتدى ملابسه . وشعرت فتحية به فقالت فى دهشة :

— حسن ! ماذا تفعل عندك ؟

— أرتدى ملابسى .

— لماذا ؟ اليوم يوم الجمعة والمؤذن يؤذن بالفجر .

وهم بأن يقول لها : إنه خارج ليصلى الفجر ، ولكنه كره أن يكذب عليها وعلى الله ، فهو خارج ليذهب إلى مدخل القناة ليرى ما يحدث هناك ، فقال لها :

— ذاهب لأرى ماذا يجري فى القناة .

فقال فى انكسار :

— مالك أنت وما يحدث هناك ؟

وصمت ، فسكتت فتحية ، وكانت تعلم أنه إذا عزم على شىء فلن يمكن لأحد أن يشبهه عنه ، إنها تذكر أن بهية شكت إليها يوما من أن زوجها يغرى عبود على السهر وعلى الذهاب إلى حيث لا تدرى فى أيام الإجازات ، ففأخفته فى الأمر والتمست منه أن يدع عبود لزوجته ، فقال لها فى حزم : هذه مسائل لا تدخل للنساء فيها ، وأنى أن يستمع إليها أو يسمح لها بأن تناقشه فى الموضوع .

وخرج حسن فى عماية الصبح ، وانساب فى الطريق وهو يحس أن فى صدره طاقات تدفعه إلى أن يغذ السير . وانطلق إلى شاطئ البحر ، وسرى خفيفا إلى مدخل القناة ، وجعل يترقب وهو خائف قلق ، كان يخشى أن تفتح عيناه على حقيقة مؤلمة ، وكان القلق يستبد به ويمده بأوهام قاسية تكاد تنزل إيمانه بقدرتنا على أن نجتاز الأزمة المريرة فى سلام .

ورأى سفنا كثيرة ، أكثر مما اعتاد أن يراه كل صباح ومساء تنتظر المرور فى

القناة ، فهتف فى حنق :

— يا للأبالسة ، ساقوا كل ما يستطيعون أن يسوقوه من السفن إلى القناة فى

هذا اليوم ليعرقلوا حركة الملاحة ، وليدمغونا أمام العالم بأننا لسنا أكفاء للنهوض بهذا العمل . آه لو قصرنا اليوم ، أو حدث — لا قدر الله — ما يعوق مرور السفن ، إذن لانطلقت الحملات المسعورة من أبواق إذاعات العالم ، ومن أجهزة التلفزيون ، ولظهرت العناوين المثيرة فى صحافة العالم التى يسيطر عليها اليهود ،

تعلن على الملأ أننا عاجزون عن حمل هذه الأمانة .
ورفع بصره إلى السماء وراح يدعو في حرارة :
— يارب . تخلى عنا من ظنوا أنهم عظماء ، ولكنك أعظم وأجل ، ليس لنا
سواك فلا تتخل عنا .

وتعلقت أنظاره بالسفن ، وظل شاخصا ينظر في قلق وصمت وقد أرهفت
حواسه كأنما كان ينتظر أن تنفجر فجأة قذيفة من القذائف لتودى به وبكل
ما حوله . وراح يعد السفن التي تمر في القناة .
— واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

وأشرقت الشمس وأرسلت أشعة الصباح ، ثم راحت ترتفع وتألق حتى
صارت فوق رأس حسن وهو في مكانه لا يريم ، واستمر في عد السفن التي كان
يرشدها المرشدون المصريون واليونانيون .

— خمسة عشر . ستة عشر .. يارب .. يارب سترك .. عونك يارب ..
اللهم امنحهم القوة . اللهم أمدهم بروح من عندك . إن ينصر كم الله فلا غالب
لكم .. اللهم نصركم ..

وطافت برأسه فكرة : لماذا يقف مكتوف اليدين ينظر ويبتهل دون أن يتقدم
لفعل شيء ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل يا حسن ؟ تستطيع أن تمد يدك إلى
هؤلاء الأبطال الذين يبذلون ذوب نفوسهم لتظل رعوسنا مرفوعة ، لكيلا
تتمرغ كرامتنا في الوحل ، ماذا أفعل ؟ . ماذا أفعل ؟ . اذهب إليهم وقل لهم إنك
معهم ، تضع نفسك تحت إمرتهم ... ولم ينتظر بل انطلق إلى شركة القناة وهو محموم
بحرارة ما في جوفه من انفجالات وتقدم إلى أول مكتب قابله وقال في حماسة :
— وجدت من واجبي أن أقدم نفسي إليكم ، فإنه لما يسعدني أن أبذل روحي
حتى نتصر على ما يديره لنا الأعداء . لسوء حظي أني لست بحارا ولكني أستطيع
أن أعاون في الورش ، فأنا ميكانيكي في شركة الملاحات .

وقال له الرجل الجالس خلف مكتبه وقد بدا عليه الجهد والإعياء :
— شكرا لك . تستطيع أن تأتي غدا صباحا .

وأراد حسن أن يطمئن على الأحداث الهائلة التي تجري في الشركة فقال :
— كيف حال العمل اليوم ؟
فقال له الشاب :

— يسير على ما يرام .

فقال حسن وهو ينصرف :

— وفقنا الله ، فعيون العالم كلها مفتوحة اليوم على ما يجري هنا ، في القناة .
وسار حسن وفي عقله أصوات تردد : القناة قناة العرب .. القناة قناة
العرب .. لسنا في المعركة وحدنا .. لسنا في المعركة وحدنا .. كل الشعوب
العربية معنا .. كل الشعوب العربية معنا .. كل الشعوب العربية معنا .. أصدقائنا
يؤيدوننا في كل مكان .. أصدقائنا يؤيدوننا .

وراح يسير على ما يتردد في أعماقه من هتافات ، وإذا به يصيح فجأة :

— سنقاتل .. سنقاتل حتى آخر رفق . حتى آخر رجل . حتى نتنصر .

وعاد هامس يهمس في جوفه : والله يا عمى لو وضعوا الشمس في يميني
والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته .

وبلغ شارع الأمين ، فخرج إليه ، وسار دون أن يحس شمس الظهيرة الحامية
حتى وصل إلى دكان فانوس ، فقال له :

— السلام عليكم .

— سعيدة مبارك ، كيف حالك يا شيخ حسن ؟

قال حسن وهو يبتسم :

— ألم تفكر يا فانوس أن تأتي معنا يوماً لتتدرب على استعمال السلاح ؟

— قلت لك أكثر من مرة يا شيخ حسن : أنا رجل لا أعرف في السياسة

ولست رجل قتال . كل ما أريده في دنياي أن أحصل على لقمة العيش ،

وآلا أحتاج إلى أحد يوماً .

— إن رجلاً من جنسيات كثيرة أرسلوا إلينا يطلبون أن يتطوعوا للقتال معنا

إذا ما حاربنا الذين يتربصون بنا . نحن أولى منهم بالدفاع عن بلادنا .

قال فانوس ساخرا ليهرب من حديث حسن :

— أرسلوا إليكم ؟

فقال حسن في ثبات :

— نعم أرسلوا إلى وإليك وإلى صديق وعبود ويهنس ، وإلى كل الناس هنا .
إنهم يتطوعون ليحاربوا إلى جانبي وإلى جانبك ، وإلى جانب كل المصريين ، إنهم
يتطوعون ليقفوا إلى جانب الحق .

قال فانوس :

— أنا واثق أن الحرب لن تنشب بيننا وبين الإنجليز والفرنسيين .

— ومن أين جاءتك هذه الثقة ؟

— الإنجليز لهم مصالح كثيرة في الشرق العربي ، ولا أظن أنهم يعرضون هذه
المصالح للخطر بشن الحرب علينا .

— هذا رأي وجيه وإن كنت تدعى أنك لا تفهم في السياسة ، وهناك رأى آخر .

— وما هو ؟

— إنهم إذا لم يحاربوا ضاعت مصالحهم في المنطقة ، ستلتهمها دعوة القومية
العربية ويقظة الشعوب العربية . إنهم بين نارين ، إن حاربوا تعرضت مصالحهم
للخطر ، وإن سكتوا عن الدعوة الجديدة تعرضت مصالحهم للخطر ،
فمصلحهم في خطر في كلتا الحالتين .

— لو كنت من السياسة الإنجليز لآثرت المسألة حتى لا أفقد أصدقائي
العرب .

— قد يرى الإنجليز في حربنا إرضاء لبعض أصدقائهم من ساسة العرب
وحكامهم .

المهم ، متى ستأق لتتدرب معنا .

— لاتس يا شيخ حسن أنى كنت في الجيش .

— ولو . لا بد من أن تعاود التدريب على استعمال الأسلحة .

— أنا رجل فقير يا شيخ حسن ، لو أغلقت هذا الدكان مت من الجوع ،

والذين يسحبون حاجاتهم على الحساب حتى يأتي أول الشهر سيموتون أيضا من الجوع .

— قل إنك لا تحب أن تأتي معنا ، فالوقت الذي ستضيعه معنا لن يزيد على الوقت الذي تضيعه في لعب الطاولة . السلام عليكم .
— مع السلامة يا شيخ حسن .

وسار الشيخ حسن حتى بلغ منزل عبود ووقف قليلا يفكر ، إن عبود قد اعتذر في الأيام الأخيرة عن التدريب ، كان في كل مرة يعتذر بأن بهية في شهرها الأخير وأنه لا يستطيع أن يتركها في هذا الشهر وحدها . إنه على يقين من أن بهية لن تلد قبل شهر أكتوبر فلماذا يكذب عبود ؟ لماذا يهرب من التدريب ومن السهر مع أصدقائه ؟ لماذا يقاطعهم ويفضل أن ينزوى في بيته ؟

وقرر أن يصعد ليقابل عبود ، فخرج إلى بيته وصعد في الدرج ثابت الخطو ثم طرق الباب ، وما مرت لحظات حتى فتحت له بهية ، ولما رأت انقبضت بيد أنها جاهدت حتى لا تنعكس مشاعرها على وجهها وقالت :

— تفضل .

ثم التفتت خلفها لتخفي انفعالاتها عنه ونادت :

— عبود ! حسن جاء .

وخف عبود لاستقبال صديقه وسار به إلى مكان بعيد ، وتظاهرت بهية أنها تركت الصديقين يتناجيان ولكنها توارت في مكان تستطيع أن تلتقط منه كل ما يدور بين الرجلين من حوار .

وقال حسن :

— خسارة يا عبود أن تنقطع عن التدريب معنا في هذه الأيام المشحونة

بالاحتمالات .

يخيل إلى أن المؤامرات من حولنا يأخذ بعضها برقاب بعض ، وأنا قد نجد أنفسنا فجأة في قلب المعركة .

فقال عبود في صوت متخاذل :

— تعلم يا حسن أنى أمقت الحروب ، وأنى لم أقبل أن أتدرب معكم على استعمال الأسلحة إلا لأدافع عن شرفى إذا ما حاول أحد أن يعتدى عليه .
— من يأتى ليغزونا إنما يعتدى على أغلى شرف ! شرف الوطن يا عبود .
وقال عبود فى ضيق :

— لا يمكن أن أتصور نفسى وأنا أحمل سلاحا لأقتل به إنسانا .

فقال حسن فى سخرية :

— ولكن يمكن أن تتصور إنسانا أتى من بلاده البعيدة يحمل سلاحا ليقتلك ، وأنت تنظر مكتوف اليدين . لن يقول أحد فى تلك الساعة إنك شهيد السلام ، بل سيقال إنك جبان .

فقال عبود فى قلق وعيناه لا تستقران فى مكان من الاضطراب :

— حسن !

— آسف يا عبود ولكنها الحقيقة وإن كانت مرة .

وقال عبود فى ضعف :

— أنت لا تفهمنى يا حسن .

وهم حسن أن يقول له : أنا أفهمك أكثر مما تفهم نفسك . أنت أضعف من أن تعصى لزوجتك أمرا . ترتجف من ثورتها وتخاف من غضبها ، أنت لم تنقطع عن التدريب معنا إلا لأنها لا تمك لكثرة غيابك عن البيت ، بيد أنه آثر الصمت وراح يميضغ غيظه دون أن تتحرك شفتاه بكلمة .

ومر بعض الوقت وبهية تصغى فى اهتمام ، وخطر لها أن تذهب لتقدم لحسن شيئا ولكنها خشيت أن يفوتها طرف من الحديث الدائر بين الزميلين ، فأثرت البقاء فى مكانها . وقال حسن :

— فكرت اليوم بعد انسحاب المرشدين أن أضع نفسى فى خدمة شركة القناة ، أن أعاون على إحباط المؤامرات التى دبرها الغرب ، فذهبت وقدمت نفسى ، فطلب منى أن أنتظر حتى الغد . وقد جئت يا عبود أقول لك إن الواجب يقضى بأن تقدم نفسك للشركة غدا .

فقال عبود في إنكار :

— ماذا يستطيع أمثالنا أن يفعلوا في مثل هذه الآونة ؟

قال حسن في ثقة :

— أى جهد مهما قل في مثل هذه الظروف له قيمته . لا لتردد يا عبود .

فقال عبود في ضعف :

— أفكر .

وقام حسن واستأذن وانصرف ، وما إن أغلق الباب وراءه حتى قالت بهية

لعبود في نبرة غاضبة :

— لماذا لم تقل له يا عبود إنك لن تترك عملك في شركتك أبداً ؟ لماذا لم تطلب

منه أن يتعد عنك ويتركك لتعيش في أمان ؟

— أنا لم أعد بشيء .

— وهل كنت تريد أن تعده بشيء ؟ لم تعد حرا يا عبود تتصرف على هواك .

ستصبح بعد شهر أبا لذلك الذى فى بطنى . ستصبح فى رقبتهك أسرة أنت مسئول

عنها ، فحرام عليك أن تضعها . لا تصغ يا عبود للشيخ حسن ، إنه متهور ، ولن

تكسب من تهوره إلا الضياع .

وآثر عبود الصمت ، وانقضى بعض الوقت ثم ذهب مع بهية يعاونها على

التأهب لاستقبال ابنهما الذى سبرى النور بعد شهر .

وشرد عبود وراح يسأل نفسه : لماذا سمعت كلامها يا عبود ، وقاطعت

أصدقاء القهوة ، وانتحلت الأعذار الكاذبة لتتخلف عن التدريب ؟ لماذا قبلت

يا عبود أن تستخلصك لنفسك دون سائر أصحابك ؟ وأن تشدك إليها وتضعك

لسلطانها ؟ لماذا احتملت غيرتها وبذلت كل جهد لتقتلع من نفسها كل شك

خامرها ؟ لماذا لا تتور وتتحزر ؟ أتحرر من ماذا ؟ أنا أحبها ؟ أهواها . وهل

يستطيع المحب أن يتحرر ممن يجب . كلنا عبيد .. عبيد .

لا . حسن ليس عبدا ، فهو حر يفعل ما يشاء وما يريد . يخرج عندما يحلوه له

أن يخرج ، ويعود إلى بيته وقتما يشاء ، ويترك عمله ليلتحق بعمل آخر دون أن

(م ١٨ — السهول البيض)

يعقب على إرادته معقب . إنه حر .. حر .. لا . ليس حرا . إنه عبد مثلي ، عبد لفكرة تستولى عليه وتملى عليه كل تصرفاته ، وتكبله بقيود من حديد ! كلنا عبيد . وقالت بهية في دلال :

— ملابس ابتنا كلها بلا أزرار . يا عبود .
فقال عبود مداعبا :

— سأذهب لأشترى أزرارا إذا قلت : ابتنا .
فقالت وهي تبتمس :

— ملابس ابتنا .

فقام إليها وقبلها وهو سعيد وقد تبخرت انفعالات القلق والحيرة ، ثم غادرها ليشتري لها ما طلبت وهو فرحان .

وخرج إلى الطريق ، ولمح إنصاف والدكتور حازم مقبلين من بيت إنصاف فخطر له أن يترث حتى يسألها عن صحة الأم ، ولكنه خشى أن تراه بهية وهو واقف معها فتتحرك غيرتها فينطلق لسانها باتهاماتها الظالمة ، فانساب في طريقه وتظاهر بأنه لم يرهما .

وراحت بهية تعرض ملابس وليدها المنتظر أمام عينيها وهي خافقة القلب ، منتشية بالفرح . ومس أذنيها طرق خفيف على الباب فالتفتت في دهش ، فما كانت تتصور أن يعود عبود هكذا سريعا .

وخفت إلى الباب وفتحته فرأت سليمان أمامها فقالت :

— نعم ؟

فقال سليمان في ارتباك :

— عبود موجود ؟

— ماذا تريد منه ؟

فقال سليمان وقد أطرق إلى الأرض :

— بقاى هنا أصبح مستحيلا . أريد أن أعود إلى بلدى لأمكث هناك حتى

أموت .

— وماذا يستطيع أن يفعل لك عبود ؟

— كل ما أريده ، أجر تذكرة السفر .

فقلت بهيبة في انفعال :

— حرام عليك أن تحرمننا من اللقمة التي نأكلها لتسكر بثمانها ، ولكن العيب ليس عيبك . العيب عيب عبود الذى يسمح لكم بأن تستغفروه . هذه ليست طيبة . هذا تغفيل ، ولن أسمح لأحد بعد اليوم أن يستغفله . . . لن أسمح أبداً بأن نقتطع من قوتنا لنعطيك لتصرف ما نعطيك على مزاجك .
إننا بعد شهر سيكون لنا ولد ، وهو أحق بكل مليم يكسبه أبوه بعرق جبينه .
من قال إن رجلاً يشقى ويتعب ليعطى من لا يعمل ليشرب خمراً ، حرام عليك .
حرام عليك .

وفر سليمان من أمامها ، وهبط في الدرج مسرعاً وهى تزجر وتثور ، وانطلق لا يلتفت خلفه ولا يلوى على شيء .

كان الجو بارداً ، فقد أشرف الثلث الأخير من أكتوبر ، وكان حفيف الشجر يعكر سكون الليل ، والأنوار خافتة كأنما كانت أنفاس مصاييح تحتضر ، وسار حسن قاصداً النادى وهو غارق فى أفكاره : كان يرجو أن يأتى اليوم الذى تفتح فيه له وإخوانه أبواب أندية بور سعيد وبور فؤاد ، ليلجوا منها إلى الجنات التى وعد بها الفرنسيون والإنجليز وكل من كانوا فى بلاط أباطرة شركة القناة ، بينما كانت محرمة على الوطنيين المنبوذين ؛ وإذا بما تحقق يفوق كل ما كانت تهفو إليه أحلامه وأمانيه .

ما كان يحسب أن الإطاحة بأباطرة الشركة أمر ميسور ، وما دار بخلده أن وكر الدسائس والتجسس وخدمة الأعداء يمكن أن يتقوض . كان على يقين من أنه ثابت كالطود ، كل ما كان يحلم به أن يأتى اليوم الذى يسمح فيه الأباطرة بفتح أبواب الرحمة للمساكين من أبناء بور سعيد ؛ ولكن تمخضت الأيام عن حقائق

مذهلة ، فقد هان أمر الأباطرة لما عرفنا حقوقنا ، وثرنا لكرامتنا . فروا من وجوهنا كأرانب مذعورة ، وراحوا يستعدون علينا أعداءنا ، وخلفوا وراءهم وكر سائسهم المظلم الذى كانت تتردد فيه أنفاس خبيثة محمومة . تنفتح نوافذه ، فيتجدد هواؤه وينسكب فيه النور .

وسار فى النادى مرفوع الرأس ، مزهوا بنفسه ، وخطر له خاطر أرضاه : سيدخل ابنه حيث يشاء من أرض بلاده ، دون أن يحس المهانة التى كان يحسها كلما وقف بعيدا يمد بصره ليخترق الحواجز التى ضربت بينه هو وأمثاله من المصريين وبين السادة الأجانب المترفعين المتغطرسين ، الذين كانوا ينعمون وخذهم بكل ما فى البلاد من متاع .

وتقدم ثابت الخطو وراح يتلفت فى سرور ، وإذا بصوت يناديه :
— حسن ! حسن !

فالتفت ناحية الصوت ، فألقى توفيقا وزوجه جالسين إلى مائدة وحدهما ، فذهب إليهما وحياهما ، وقال له توفيق وهو يقدم له كرسيا :
— تفضل .

وجلس حسن فى بساطة وهو يقول :
— شكرا .

وراح حسن يدور بعينيه فى المكان وقد لاح البشر فى وجهه ، ثم التفت إلى توفيق وقال :

— وأورثناها قوما آخرين .

فابتسم توفيق وقال له :

— ماذا تأكل ؟

فقال حسن وهو يطرق إلى الأرض :

— شكرا . السيد صديق وبهنس مدعوان للعشاء عندنا الليلة .

ثم ضحك وقال :

— السيد صديق لا يحلو له أن يتعشى إلا بعد الساعة الحادية عشرة .

وقالت جانيت :

— ماذا تشرب ؟

قال حسن مازحا :

— شربات .

وفهمها توفيق فضحك . وجاء الجرسون فقال له حسن :

— قهوة سكر زيادة .

وقال توفيق لحسن :

— ما الأخبار ؟

— الأخبار هذه الأيام كلها مثيرة . إننا نعيش في دوامة . لم أعد أفهم بعقلي

البسيط كيف يفكر الساسة الغربيون .

فقالت له جانيت في اهتمام :

— لماذا ؟

— تضارب في القرارات . سداجة في التفكير . تخطب معيب . ومما يزيد في

حيرتي أن الساسة يجدون من يصغى إلى تفاهاتهم ، ويصدقون ما يفترونه

وما يدلون به من أكاذيب مفضوحة .

قال له توفيق :

— لا تأخذا حسن الأمور بظواهرها ، فما أكثر الأشياء التي تبدو سادجة

وهي عميقة كل العمق .

فقال حسن في ثبات :

— قل لي : ما الذى كان يقصده دالاس لما اقترح إنشاء هيئة المنتفعين ؟ كيف

يمكن أن يتصور رجل سياسى مثل دالاس ، أن تقوم هيئة في مكان ما بعيدا عن

القناة لتجيب الرسوم لمصلحة المنتفعين ، وأن تقف مكتوفة اليدين تنظر وهي

راضية إلى من يسلبونها بغير حق عوائد قناتها ؟!

فقالت جانيت :

— لعله أراد بهذا الاقتراح أن يخفت الأصوات التي تنادى بالحرب .

قال حسن :

— الأصوات ترتفع في كل مكان ، والاستعدادات قائمة على قدم وساق ؛ القوات الفرنسية تحتشد في منطقة مرسيليا — طولون ، وقوات إنجلترا تتأهب في قبرص ومالطة وليبيا والأردن و عدن والعراق ، وأعلن بن جوريون في الكنيست من يومين صراحة أن مصر هي عدو إسرائيل الحقيقي ، وأنه لن يصبر على أعمال الفدائيين المصريين الذين يتسللون إلى قلب إسرائيل . إن طبول الحرب تفرع في كل مكان .

قالت جانيت :

— لازلت على ثقة من أنه ليس هناك مجنون يجروء على إشعال نار الحرب في هذه المنطقة .

قال توفيق :

— والأموال الطائلة التي تنفق على تحريك كل هذه القوات ، أتذهب هباءً؟ .

قالت جانيت في هدوء :

— ما أكثر الأموال التي تنفق دون مبرر ، ولكنها هنا لها ما يبرر إنفاقها .

قال الشيخ حسن :

— وما هو هذا المبرر ؟

قالت جانيت :

— تحطيم الروح المعنوية العالية لهذا الشعب التي سرت فيه بعد تأميم القناة ، حتى يقبل التسويات السلمية المعروضة .

قال توفيق :

— المجحفة .

وقال حسن :

— ولماذا هاجم بن جوريون الأردن ، وألحق الدمار بقلعته العربيتين ؟

قالت جانيت :

— ليبرهن سادة الغرب للأردن أن مصر مشغولة عنه بمشاكلها ، وأنها لن

تحف لنجدته إذا ما هاجمته إسرائيل ، ولتثنيه عن الطريق الذى بدأ يسير فيه :
طريق مصر وسورية .

قال حسن :

— فى اعتقادى أن هذه عملية تضليل أريد بها تحويل الأنظار إلى الأردن ، فى
حين أننا الهدف الحقيقى لهجوم إسرائيل .

قال توفيق :

— هذا الهجوم أريد به إخضاع الملك حسين لرغبات نورى السعيد ، إنه
يريد أن يرسل قوات عراقية إلى الأردن ، حتى يحول دون أن تسفر الانتخابات
التي ستجرى فى ٢٨ أكتوبر عن نجاح المؤيدين للسير فى طريق التحرر والوحدة
مع مصر وسورية .

قال حسن :

— وأين مصلحة إسرائيل فى هذا الهجوم ؟

قال توفيق :

— يعتقد نورى السعيد أن تسوية مشكلة فلسطين وتصفيها أمر ضرورى ،
قبل أن يصبح هورجل العرب الأول الذى يشدهم إلى عربة الغرب ، وهو يرى أن
هذه التسوية يمكن أن تتم على حساب الأردن : يتنازل لإسرائيل عن الضفة الغربية
للأردن فيحقق لها حلما من أجمل أحلامهم ، ويضم الضفة الشرقية إلى العراق .

قال حسن وهو يهز كتفيه استنكارا :

— أمر إنجلترا بحيرنى فى هذه الأيام ؛ لم تتخبط فى سياستها من قبل كما تتخبط
الآن . إنها حليفة إسرائيل وحليفة الأردن ، فهل إذا استنجد الأردن بها لتقف
معه فى وجه إسرائيل ، تحارب إنجلترا حليفها إسرائيل ؟

فقالت جانيت وهى تبتسم :

— ما أيسر تسوية الموضوع إذا ما بلغ هذا الحد . من مصلحة إنجلترا فى هذه
الأيام أن تدع إسرائيل تؤدب الأردن ، حتى يعود ليرتمى فى أحضانها كما كان .

فقال حسن وهو شاردا :

— يجوز . كنت أعلل النفس بأن ساسة إنجلترا في هذه الأيام ليسوا دهاة
كأسلافهم ، وكان ذلك يطمئنتنى .

قالت جانيت :

— لأنهم لو كانوا كأسلافهم ، فإنهم سيجدون المبرر القانوني ليعودوا إلى القناة .

قال توفيق :

— كيف ؟

قال حسن في مرارة :

— المعاهدة التي وقعناها معهم تنص على حق العودة إلى القناة في حالة نشوب

حرب بيننا وبين أية دولة أخرى ما عدا إسرائيل ، في بحر سبع سنين .

أليس كذلك ؟

قال توفيق :

— نعم .

قال حسن :

— إن فرنسا تمقتنا لما حاق بها من هزائم في الجزائر ، فهي تعلم أننا ساعد
الجزائر الأيمن ، وقد أبرمت معاهدة بين فرنسا وإسرائيل ، وأعلنت إسرائيل أنها
وجدت أخيرا حليفا صادقا ، فما أيسر أن تشيرهما إنجلترا علينا ، حتى إذا ما بدأ
عدوانهما المسلح ، طلبت إنجلترا العودة إلى القناة ، مستندة إلى اتفاقية الجلاء ،
وساعتها لن يكون أمامنا إلا أحد أمرين : أن نسلم لها بهذا الحق فتعود إلى القناة
لتحتلنا مرة أخرى ، أو نرفض عودتها وبذلك نعطيها الحق في استخدام القوة
لتنفيذ الاتفاقية التي تنكرنا لها ، وسيؤديها العالم كله في هذه الحرب .

قالت جانيت :

— أعتقد أن إنجلترا لو فكرت في حرب مصر فستلجأ إلى هذا الأسلوب .

قال توفيق :

— ولماذا لا تتفق مع إسرائيل وفرنسا على حربنا ؟

قالت جانيت :

— إنجلترا تحاول دائما أن تضيف على ماتفعله المظهر القانوني . إن ماقاله حسن يتفق مع العقلية الإنجليزية كل الاتفاق ، فالإنجليز يعلمون أن وقوفهم مع إسرائيل جنباً لجنب سيغضب أصدقاءها العرب ؛ فهي على يقين من أن العرب لم يتفقوا على شيء إلا على كراهية إسرائيل .
قال حسن في مرارة :

— كنت أوجس خيفة من نص حق العودة إلى القناة منذ اليوم الذي وقعت فيه الاتفاقية ، وكنت دائم التفكير في هذا النص ، حتى إنى عدت لقراءة نصوص اتفاقية الصلح التي أبرمت بين المسلمين وبين قريش في الحديبية . كان المسلمون المتحمسون يكرهون هذه الاتفاقية ، لأنها أعطت القرشيين حقوقاً ما كانوا يحصلون عليها أبداً لو ظلت الحرب ناشبة بينهم وبين المسلمين ؛ ولكن النبي ﷺ بارك هذا الصلح ورضى به ، وجاءت الأيام محققة لرأى النبي ، فقد نقض القرشيون بعدوانهم ذلك الصلح ، وكان الفتح المبين .

عشت السنتين الماضيتين اللتين انقضتا منذ توقيع اتفاقية الجلاء حتى اليوم ، وأنا أرجو أن ينقض الإنجليز هذه الاتفاقية كما نقض القرشيون صلح الحديبية ، ليكون لنا الفتح المبين إن شاء الله .

قال توفيق في حسرة :

— أظن أن الإنجليز أخبث من كفار مكة ، ولن يقعوا في هذا الشرك أبداً . ونظر حسن إلى جانيت وارتبك ، ولاحظ توفيق ارتباكها فقال له وهو يبتسم :
— هون عليك فقد تعلمت سب الإنجليز منها .

قالت جانيت وهي تضحك :

— إننا عندما نسب الإنجليز نقصد الساسة الحمقى منهم .

قال توفيق :

— آه لو كانت هذه خطة إيدن لضعنا .

قال حسن في ثقة :

— لن يضيعنا الله أبداً مادما ندعو إلى العزة والكرامة والعدل والتحرر

والمساواة ، وهو قادر على أن يعمى إيدن عن هذا كما أعمى القرشيين من قبل ،
وما أكثر الأشياء التي أعمى الله الغرب عنها ليمنع عنا أذاهم حتى هذه الساعة .
قالت جانيت :

— مثل ماذا ؟

فقال حسن :

— مادام أن الغرب كان ينوى سحب المرشدين ليعرقل الحركة في القناة ليجد
له مبررا للتدخل المسلح ، فلماذا لم يسحبهم عقب التأميم مباشرة قبل أن نتأهب
لكل الاحتمالات !؟

قالت جانيت :

— كان التأميم مفاجأة أطاشت بعقولهم وتركتهم حيارى لا يدرون ماذا
يفعلون .

وراح حسن يرتل في رضا وقد شاعت بين جنباته طمأنينة وأمن :
وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين .
قالت له جانيت :

— أتخفظ القرآن يا حسن ؟

— بعض آياته ، وإن كانت تموج في جوانبي معانيه .

— هل تلقيت العلم في الأزهر ؟

قال توفيق :

— أبدا ؟

وقال حسن في بساطة :

— رشفت العلم من الكتب ومن الحياة . لم أمكث في المدارس طويلا ، فقد
كان أبى أفقر من أن يدفع لي مصاريف التعليم .

وقال توفيق :

— هذا من حسن حظك ، فقد ظلت سليقتك سليمة ، لم تفسدها النظريات .

قالت جانيت :

— لا يا توفيق ، الاستعداد الطيب يفيد العلم ، كالأرض الطيبة تزهر وتزهر إذا ما وجدت الماء الذى يروىها .

قال توفيق :

— ولو كان الماء ملحا ؟

قالت جانيت :

— لا يروى الأرض الطيبة بالماء الملح إلا المفسدون .

قال توفيق :

— وما أكثر المفسدين فى هذه الأيام .

قال حسن فى هدوء :

— بل ما أكثر الخدوعين ، فلا أظن أن أحدا يقدم على شىء دون أن يكون

مقتنعا بأن الخير فيه .

ونظر فى ساعته ثم نهض وهو يقول :

— آسف إن كنت أثقلت عليكم .

قالت جانيت فى صدق :

— أبدا . إنا سعداء بهذا اللقاء .

وقال توفيق :

— ألا تجلس قليلا ؟

— شكر الكما ، لا بد أن أذهب الآن لأنتظر بهنس والسيد صديق . مساء الخير .

قالت جانيت :

— مساء الخير . ونرجو أن نراك قريبا .

— إن شاء الله .

وانصرف ، حتى إذا ابتعد عنهما قالت جانيت لزوجها :

— كنت على يقين من أنكم أذكىاء ، ولكن ما كان يدور بخلدى أن تبلغ

رجاحة العقل عند البسطاء منكم هذا القدر .

قال توفيق وهو مرفوع الرأس :

— في رأيي أن حسن أرجح عقلا وأوسع أفقا من صديقنا جونس ، رجل التأمين الأصلح المتعجرف .

— لماذا تذكره دائما يا توفيق ؟

— لأنه يذكرني دائما بأنصاف المتعلمين من الإنجليز ، الذين يكادون يتفجرون غرورا ، والذين يتحكمون بجهالاتهم في سياسة بلادهم . أين غطرسة جونس من تواضع حسن ؟ أين تعصب جونس من سماحة حسن ؟ إنه لم يشأ أن يعترف أن هناك مفسدين يتعمدون الإفساد في الأرض ، بل يقول عنهم إنهم مخدوعون ، وأن الخديعة قد تغلغلت في نفوسهم حتى باتوا يعتقدون أن الخير فيما يفعلون .

ورفع توفيق رأسه في غطرسة وقال بالإنجليزية مقلدا جونس :

— الهند لنا . كيف سمح الساسة لأنفسهم أن يفرطوا فيها ؟ قناة السويس قناتنا .. لا بد أن نستردها ، لا تسكت يا إيدن على الإهانات التي وجهت إلينا .. الحرب .. الحرب .. الحرب ..

كانت الشمس تميل للمغيب وقد خفت الحركة في أبو عجيله — فأغلب جنود الكتيبتين المصريتين اللتين كانتا هناك ذهبوا إلى خيامهم ليستريحوا بعد جهد النهار ، وبدأ الهواء البارد يهب على الصحراء ، فأوى مأمون إلى سريره وتمدد فيه . وجاء راسم من أقصى المعسكر يسعى ، بقامته الطويلة النحيله ، ووجهه الصارم الذي لا تبدو فيه لحة إشراق . كان يبدو كأنما ولد شيخا ، وإن كان لا يتجاوز الثانية والعشرين .

واتجه راسم إلى سرير مأمون وقال له في عبوس :

— هل سمعت الأخبار ؟

— أية أخبار ؟

— أخبار اعتداءات إسرائيل .. يتجه الآن لواء من إسرائيل نحو الأردن .

— هذا غير معقول .

— لماذا ؟

— لا أصدق أن إسرائيل تهاجم الأردن بعد أن حذرها إيدن من ذلك ، عقب غاراتها الانتقامية على قلقيلية .

— وما أدراك أن إنجلترا لم تتفق مع إسرائيل على ذلك ، لترهب الأردنيين ولتبعدهم من التقرب من مصر .

— وفيما كان اجتماع إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد في باريس في السادس عشر من هذا الشهر؟ لقد اجتمعوا لدراسة الوضع الأردني ، حذر إيدن بن جوربون من الاعتداء على الأردن بعد هذا الاجتماع .

فقال راسم في ضيق :

— أنا لأستطيع أن أصدق أن رئيس وزراء إنجلترا ورئيس وزراء فرنسا ووزير خارجية إنجلترا ووزير خارجية فرنسا يجتمعون اجتماعا سريا لا يحضره أحد سواهم ، لدراسة الوضع الأردني .

— وفيما كان اجتماعهم ؟

قال راسم وهو يجلس على حافة السرير :

— لا أدري ، ولكن ما أنا واثق منه أني لأستطيع أن أثق في هؤلاء الذين باعونا لليهود .

وصمت قليلا ثم قال :

— وما أدراك أن بن جوربون لم يكن هناك .

واعتدل مأمون في سريره وقال :

— المسائل كلها معقدة ، إنى لأرى شيئا بوضوح . أليس اليوم يوم الاثنين

التاسع والعشرين من أكتوبر ؟

— نعم .

— كان من المنتظر أن تجتمع مصر وفرنسا وإنجلترا في جنيف اليوم لإيجاد حل

لمشكلة القناة ، بعد اقتراح هرشولد هذا الاجتماع . وقد قبلت مصر ذلك ،

ولكن إنجلترا وفرنسا تلكتاتا في قبول هذا الاقتراح .

ترى ما الذى دعاها إلى هذا التلكؤ والتهرب من الموعد ، فأوماتا إلى أنهما تسعيان إلى تسوية كلية لمشكلة القناة .

— أتصدق يا مأمون أن إنجلترا وفرنسا تسعيان حقا لاجتاد تسوية سلمية لمشكلة القناة ؟

إن صدقت ذلك فأنت واهم . الأمر ليس أمر القناة .

— إذا لم يكن الأمر أمر القناة ، فما الذى ذهب بعقول الإنجليز والفرنسيين ؟

— الانتفاضة العربية التى سرت فى المنطقة .. الخوف من أن تصبح القومية

العربية والوحدة العربية حقيقة واقعة . ألم تسمع ماذا تقول إنجلترا ؟ إنها تقول :

إن نفوذ مصر السياسى يهدد نفوذ بريطانيا .

وصمت راسم قليلا ثم قال :

— أخشى أن يكون تحرك اللواء الإسرائيلى صوب الأردن ، وتصريحات إيدن

وتحذيره لإسرائيل من معاودة مهاجمة الأردن ، إن هى إلا حملة خداع اتفق بن

جوربون وإيدن وموليه على تنفيذها .

ودبت فى المعسكر حركة وسرى الهمس وانتشر انتشار الريح ، وبلغ الهمس

مسامع مأمون وراسم . كان الهمس يؤكد أن كتيبة من الهايطين بالمظلات

الإسرائيليين هبطت عند مضيق سدر الحيطان ، والتفت مأمون إلى راسم وقال :

— إن صدق ما يقولون فما الذى يدعوا إسرائيل إلى إسقاط جنودها فى منطقة

ليس لنا فيها جنود ؟

قال راسم وهو يفكر :

— إن كان هدف إسرائيل القيام بغارة ، فيجب أن يكون اتجاهها إما إلى قطاع

غزة أو إلى مواقعنا الأمامية على الحدود ، فهناك يمكن إلحاق خسائر بنا ،

يطنطون بها ويتحقق لهم الهدف من الغارة ، أما أن يهبطوا فى منطقة جرداء

فما هو الغرض منه ؟

وهب مأمون من سريره وقال :

— لماذا هبطوا فى جنوب سيناء ؟ ماذا يمكنهم أن يفعلوا هناك ؟

قال راسم وهو شارد :

— يمكنهم أن يقوموا بحركة التفاف حول الطريق الأوسط المؤدى إلينا .

قال مأمون في دهش :

— إنها ليست غارة .

— إنه هجوم عام ، وإلا ما أسقطت إسرائيل جنودها في هذه المنطقة ليفنوا

عن آخرها .

— أتجرؤ إسرائيل على أن تشن علينا هجوما عاما ؟

— لعلها أرادت أن تستفيد من الوضع في سيناء ، بعد أن سحبت مصر معظم

قواتها منها عقب تهديد إنجلترا وفرنسا باستخدام القوة لحل أزمة القناة ؟

— بن جوريون مغامر .. هذا لا شك فيه ، ولكن لا تبلغ به المغامرة حد الهوس ،

إنه لو شن علينا الحرب فما أيسر أن تتحرك قواتنا إلى سيناء لتقبض عليه .

قال راسم وهو يهز رأسه في مرارة :

— ما من يهودى يقدم على شيء إلا بعد أن يحسب له ألف حساب ، وأن

يدرس كل الاحتمالات ، حتى إذا اطمأن إلى سلامة العملية أقدم عليها وهو واثق

من نتائجها ، لا أحسب بن جوريون يختلف عن بنى جنسه ، بل أن عيبه أن أسوأ

خصائصهم بارزة فيه .

— كيف يجرؤ بن جوريون على أن يقوم بهجوم على مضر ؟ ألا يخشى دخول

سورية إلى المعركة ؟ ألا يخشى أن يتحرك الأردن ؟ إنه يعلم ولا شك أن قيادة

الجيش العربية اليوم موحدة ، وأن القائد العام يستطيع أن يلقي بقوات الأردن

وسوريا في المعركة !

— والشعب العراقي لن يسكت على هجوم إسرائيل على مصر ، سيثور

ويطلب من حكومته أن تتحرك . لو كان ما بدأ الآن هجوما عاما على مصر لكان

ذلك لغزا لا أقوى على حله ، بن جوريون يقف وحده في الميدان متحديا أمام

جيش مصر ؟ بن جوريون وحده ؟! لا أستطيع أن أصدق .

وفي ذلك الوقت طارت أربعون طائرة من طائرات النقل الفرنسية من مطار

تيمبو في جزيرة قبرص ، واتجهت إلى سيناء ، وراحت تلقى إلى الهابطين بالمظلات سيارات الجيب والمؤن والعتاد والذخيرة .

ودوى في المعسكر صوت النداء للتأهب للدفاع عن « أبو عجيلة » ، فخف الرجال إلى مواقعهم ووقفوا خلف أسلحتهم وآذانهم مرهفة ، وعيونهم مفتوحة ، وراحت المعاول تعمل لحفر الخنادق ، وارتفعت وجوه ترصد السماء ، وشخصت المدافع بفوهاتنا إلى الأفق البعيد الذى انتشر فيه الظلام ، وفى سواد الليل كانت تتألق عيون عقدت العزم على أن تدافع عن مواقعها ، أو أن تهلك دونها .

ودنا راسم من مأمون وقال له :

— ألم أقل لك إنى لا أصدق أن القوات الإسرائيلية متجهة إلى الأردن؟! لقد عادت أدراجها واتجهت إلى سيناء واخترقت خطوط الهدنة كل ما أظهرته كان خداعا .

وقال مأمون وهو ينظر أمامه وقد أرهفت كل حواسه :

— وما هو طريقها الآن ؟

— يقال إنها تحركت من إيلات إلى الكونتيل إلى ثامد ، وهى فى طريقها إلى نخل .

— لن تلقى أية مقاومة ، فليس لنا فى هذه المنطقة إلا نقط حدود للإنذار .

وصمت مأمون قليلا ثم قال :

— عما قليل سيهاجمونا ، فهم يعلمون أنهم إذا انتصروا علينا انفتح أمامهم

الطريق إلى الإسماعيلية .

فقال راسم فى غيظ :

— أجن بن جوريون حتى يشن علينا هجوما عاما؟!

وراح راسم يغدو ويروح كليث هائج ثم قال :

— أحس إحساسا عميقا أن أملا من أمالى الكبار أوشك أن يتحقق .

— أى أمل ؟

— الأمل الذى أعيش من أجله ، أن أدخل تل أبيب ، وأن أنتقم لأمى وأختى

وأهلى الذين جرت دماؤهم الزكية لتروى أرض دير ياسين ، ولتظل وصمة عار في جبين البرابرة الصهيونيين . إن صور العجائز القتلى والأطفال الأبرياء الذى مزقوا قلوبهم ، والحيالى اللأى بقروا بطونهم لا تغيب عن خيالى ، وأصوات الفرع وأنات الألم وحقشرجات الموت ترن دواما في وجدانى ، عشت السنين وأنا أتلوى من العذاب أكاد أموت كمدا ، لولا أنى كنت أتشبث بالحياة لأذيق الذين أذلونا من نفس الكأس التى أرغمونا على أن نتجرعها .

ودبت الحياة في الصحراء في سكون الليل ، وأخذت العزائم القوية تمد الأجسام بطاقات رائعة من النشاط ، فكان الجميع يتحركون في خفة وهم يجسسون في أعماقهم عظم المسؤولية التى ألقىت على عواتقهم ، فهم سيدافعون عن شرف الوطن ، وسيعملون على تطهيره من الدنس الذى أصابه هذه الليلة ، ساعة أن وطقت أرضه الطاهرة أقدام أعدائه النجسة .

وذاع في العسكر أن نقطة الحراسة عند سدر الحيطان أصلت الهابطين بالمظلات الإسرائيليين نارا حامية ، وأنها أرغمتهم على أن يحفروا لأنفسهم خنادق في الجبل ليتحصنوا فيها ، فرفع راسم رأسه إلى السماء وراح يتهل إلى الله في حرارة :

— اللهم نصرك . اللهم نصرك . اللهم نصرك .

وامتلاً صدره بمشاعر حارة ثائرة ، وماجت نفسه بكراهية شديدة لأعدائه ، حتى ود لو ينطلق إليهم ليشتبك معهم في قتال ينفث فيه سمومه التى ضاق بها . وراح يردد في عزم وأنفاسه محمومة :

— سأقتلهم . سأقتلهم . سأقتلهم جميعا .

والتفت إلى مأمون وقال له :

— ليت إسرائيل كلها كانت رجلا واحدا لأقتله وأستريح ، فلن تعرف الراحة طريقها إلى مادام صهيونى واحدى يسعى في الأرض . إنهم شردونا ، طردونا من بيوتنا ، أذلوا كبريانا وجعلونا نحن الذين كنا سادة مكرمين أمة من اللاجئيين . وعاد ينظر إلى بعيد ، وصمت وطال صمته وارتسمت على وجهه انفعالات

عنيفة ، وتقلصت أساريه ومالبت أن انبسطت ، ودار بكل جسمه حتى أصبح أمام مأمون وجها لوجه ، ثم قال :
— أتدرى أين كنت الآن ؟
فقال مأمون وهو يحدج فيه بعينه :
— أين ؟

— كنت أسير مع الجيوش العربية المظفرة في شوارع تل أبيب ، ورأيت مبنى عاليا فأسرعت أعلاه ، حتى إذا بلغت سطحه نظرت إلى السماء وهتفت قائلا :
أمى ! لقد عدنا يا أمى ، عدنا يا أمى . يمكنك الآن أن ترقدى مستريحة الفؤاد .
وأفاق فجأة من حلمه الجميل فقال في ضيق :
— متى نعود ؟ متى نعود ؟ متى ؟ متى ؟

ورمى ببصره بعيدا ثم قال :
— لماذا لا يأتون ؟ لماذا لا يأتون ؟
فقال له مأمون :

— ارحم نفسك يا راسم . سيأتون .
— وسنتنصر عليهم ؟
فقال له مأمون :
— وسنتنصر عليهم .

وراح راسم يغدو ويروح ، يحس رغبة طاغية في أن يفرغ مامعه من رصاص في قلب شبح إسرائيل البغيض الذى كان يملأ آفاق الظلام الذى ران على الصحراء ، وطفق يصرف أنيابه في غيظ شديد ، ويستشعر كأن الدماء التى كانت تجرى في عروقه قد استحالت إلى صديد .

ومر الوقت والمعسكر يدوى كخلية نحل . الأوامر تصدر ، والاستعدادات على قدم وساق ، وقد أمست المدافع تتحكم في الطريق ، وأحس مأمون فجأة أن أمه معه ، وأن روحها ترفرف حوله ترعاه وتسهر عليه وتسكب بين جنباته طمأنينة وأمنا .

وشخص يبصره في الفضاء فاستشعر وجدا وهياما ، وسرت فيه مشاعر رقيقة حركها إحساسه بأن روحه اتصلت بروح أمه الحبيبة ، فإذا بأفاق رحبية تضاء في وجدانه كأن مصباحا أضاء في جوف بيت مظلم .

كانت مشاعره الحاملة لا تتسق مع قعقعة السلاح ، ولأصوات أدوات الحرب التي تتحرك هنا وهناك ، ولا العرق المتصبب من الجباه ، ولا قلق ترقب ظهور الأعداء ، وانقاد إلى ما فتحت له نفسه فراح يفكر في بهية وعبود ، فبرقت عيناه بيريق حنان . بهية ! هذا هو شهرها ، لعلها قد وضعت ما في بطنها ، ولعلها وضعت ذكرها ، ولعلها أسمته مأمون .

وتذكر ما قالته له أخته آخر مرة رآها فيها ، قالت له إن عبود يخشى أن يأتي ابنه شيطانا مثل خاله ، فابتسم في رضا ، وقال كأنما يخاطب عبود وأن تتحرك شفتاه بكلمة : « أنت تعلم يا عبود أن خاله رجل طيب . يا طالما قلت لي يا عبود إن قلبي قد من صخر وأنى لأعرف معنى الخوف ، ليتك تعرف يا عبود أن قلبي أرق من قلوب الأمهات ، وأنى ما أقدمت على عمل من أعمال الشجاعة التي كانت تبهرك إلا وأنا أرتجف من الخوف . الشجاعة يا عبود أن تقهر خوفك وألا تستسلم له . »

وترقرقت في عينيه دمعتان مسحهما بظهر يده . وهو يتلفت خشية أن يلمح أحد ضعفه ، وهو يمقت أن يرى في موقف ينم عن الرقة ، كان يفخر أمام إخوانه بأنه عصي الدمع ، بينما كان كثيرا ما ينزوى بعيدا ويجهش بالبكاء إذا أحس حنيننا إلى أهله وأصدقائه وإلى الحى الذى عاش فيه .

ورأى الشيخ حسن وبهنس وصديق وفانوس ، وإذا به يرى نفسه عائدا منتصرا بعد أن هزم الأعداء وهم يستقبلونه بالعناق والترحيب والفرح والسرور ، ورن في أعماقه صوت يصيح : سنتنصر ، سنتنصر ، سنتنصر .

وأفاق من شروده لما وضع راسم يده على كتفه وقال في صوت متهدج :
— لو كتب على أن أستشهد ونحن في الطريق إلى تل أبيب ، فأوصيك أن تقرأ الفاتحة على يروحي في مسجد العجمى يوم تدخلون يافا . فقد أمضيت أسعد أيام

طفولتي في هذا المسجد ؛ كنت أذهب إليه كل يوم مع أبي أمرح فيه ، وأصعد إلى منبره وأنا مسرور ، كان ذلك قبل أن نرحل إلى دير ياسين .

قال له مأمون وهو يربت عليه :

— ستدخل إن شاء الله يافا، وستقرأ الفاتحة في مسجد العجمي على روح أبيك .

وشرد راسم ببصره وقال في مرارة :

— العجمي ؟ ترى ماذا أصبح الآن ؟ ألا تزال مئذنته قائمة ؟! وإذا كانت

لا تزال قائمة ، فلم يعد المؤذن يدعو الناس من فوقها إلى الصلاة ، اختفى الأذان

الجميل من حياة بلادنا المحتلة ، وخرست أصوات النواقيس ، وتقطعت الأواصر

النبيلة المقدسة التي كانت تربط قلوب أهل الأرض بالسماء .

ورفع راسم رأسه وقال :

— يارب ! لماذا كتبت علينا هذا العار ؟!

فقال له مأمون :

— لنستيقظ ، لنقوم من سباتنا الذي طال .

وراح راسم يقلب وجهه في الأفق البعيد ويقول :

— لماذا لا يأتون ؟ لماذا لا يأتون ؟

— صبرا . سيأتون .

كانت جانيت تتأهب لاستقبال من دعتهم الليلة للاحتفال معها بعيد ميلادها ، والتفتت إلى توفيق وقالت :

— لأدري كيف زاد عدد المدعوين هذا العام عن دعوتناهم في العام الماضي؟

فقال توفيق وهو يضحك :

— اقتصرت في العام الماضي على دعوة أصدقائك .

فقالت وهي تبتسم ابتسامة خاصة :

— من الإنجليز ، أليس كذلك ؟

— دعوت ويلمز وبعض نزلاء الحى الأفرنجى من الرجال والنساء من ذوى الوجوه الحمر والشعر الأصفر والعيون الزرقاء . أماضيوف الليلة فسمرو الوجوه ، عيونهم وشعورهم سوداء وقلوبهم بيضاء .
وضحكت جانيت وقالت :

— ترى أين ويلمز الليلة ؟

فقال توفيق وهو يرتدى الجاكتة :

— لعله الآن يطارد الثوار اليونانيين فى قبرص .

— لماذا تكرهه يا توفيق ؟

— لأنه يكره الأحرار فى كل مكان ، فلو فتشنا قلبه لوجدنا فيه مقت أحرار جماعة أيوكا جنبا إلى جنب مع مقت أحرار مصر ، ومقت أحرار أيرلندا ، ومقت الأحرار الذين ثاروا على نفوذ بريطانيا فى أية بقعة من بقاع الأرض . لو فكروا يوما فى أن يصنعوا تمثالا للاستعمار فلن يجدوا خيرا من ويلمز يرمز إليه .
— مادمت تكرهه إلى هذا الحد فلماذا كنت تقبل أن تستقبله فى دارك ؟ وأن

تخرج معه فى رحلات الترفيه والصيد ؟

— كنت لأحب أن أجرح شعورك .

— لا يا توفيق ، لا تظن أن ذلك يرضينى . إنى أحس الآن شيئا من الأسى لأنى كنت أعكر أيام راحتك بإرغامك على مصاحبة من تكره مصاحبته . لماذا لا يصارح الرجال زوجاتهم بما يحبونه وبما يكرهون ؟

ولاحظ توفيق موجة من الكدر تنتشر فى وجه جانيت ، فقال لها :

— لأنهم يحبون زوجاتهم حبا يجعلهم يفضلون تحمل بعض ما يضايقهم على أن يبذلوا ما قد يسبى إلى شعور زوجاتهم .

— لا يا توفيق ، هذا ليس حبا ، هذا خضوع . الحب الذى يبنى على المصارحة لا شك أقوى من الحب الذى يقوم على الرياء .

— الحب يا جانيت هو نسيان كل إساءة تبدر من المحبوب ، والصفح عن كل خطأ يصدر منه .

— فرق كبير بين الحب والذل يا توفيق ، الحب قد يكون أقسى من سائر البشر على من يحب إذا ارتكب خطأ من الأخطاء ، والمحبوب كثيرا ما يغفر قسوة المحب إذا أيقن أن هذه القسوة لم يحركها إلا الحب .

وأراد أن ينهى هذا الحوار الذى قد يطول دون ثمرة فقال لها :

— أتعرفين المثل العامى الذى يقول : ضرب الحبيب زى أكل الزبيب ؟
— سمعته وحفظته ، وإني معجبة بالأمثال العامية ففيها كثير من الحكمة والذكاء .

فقال لها وهو يتجه إليها :

— كنت أعتقد أنها تعبر عن سوداوية فى المزاج .

فقالت وهى تبتسم :

— إنها تعبر عن طبيعة البشر .

فضمها إليه فى شدة وقال لها :

— الظاهر أن نفوس كل النساء تهفو إلى القسوة .

وقبلها قبلة طويلة فبرقت عيناها سرورا ، ثم قالت مداعبة :

— لو شئت أن تنجح فى الحياة فأصغ إلى الأمثال ولا تصغ إلى ثقافتك ،
فالثقافة لا تجلب إلا الشقاء .

فقال لها وهو يرمقها بعينين مفتوحتين :

— حقا ؟

— أنا لا أمزح . الثقافة تعقد الناس وتزيد فى عبوسهم ، كلما كنت أدنى إلى

الفطرة كنت أقرب إلى السعادة . لا أظن أن الحيوانات تقاسى من العقد .

وسرح خيال توفيق ، وفطنت جانيت إلى شروده فقالت له :

— فيم تفكر ؟

فانتهى والتفت إليها ثم قال :

— ذكرنى حديثك بمحادثة كدت أن أنساها ؛ جاء إلى ذات يوم زوج إحدى

العاملات بالشركة وقال لى : إنه غاضب من زوجته لأنها تمهله وتمهل أولادهما

وتعود إلى البيت وقتما تشاء وتخرج فى أى وقت دون أن تستأذنه ، والتمس منى أن

أنصحها بأن ترعى بيتها ، فقلت له : ولماذا لا تسوى معها هذا الأمر دون أن يتدخل بينكما رجل غريب ؟ فأطرق ثم قال : إني أحبها ولا أستطيع أن أنهرها ، وأخاف أن أقسو عليها .

وبعد أن ذهب الرجل استدعت السيدة ونصحتها أن تلتفت إلى بيتها وأن تحترم زوجها وألا تهينه بإهماها إياه ، فقالت لى : شكاني إليك ! قلب لها : كل ما يطمع فيه أن يحس أنه رجل البيت . قالت وهي تبتسم هازئة : وهل منعه من أن يكون رجل البيت ؟ قلت لها : لا تخرجى قبل أن تقولى له إنك خارجة ، وإذا اضطرتت إلى أن تتأخرى فى العود فأخبريه بسبب تأخرك . فقالت فى ضيق : أخرج وقتما أشاء وأعود وقتما أشاء ، أنا حرة .

فقلت لها : لو كنت زوجك لضربتك . فقالت : ياليت ! ياليت يضربنى . ياليت ينهانى عن فعل شيء ! ياليت يشعرنى أنى فى كنف رجل . قالت جانيت :

— إنها على حق . المرأة تمقت أن تذوب شخصية زوجها فى شخصيتها ، يضايقها كأنشى أن يخضع لها . قال توفيق :

— يسرها أن يروضها . سأعرف كيف أحطم ضلوعك . وعاد يضمها فى قوة ، ثم رفعها بين ذراعيه وقبلها وهو يقول لها : — كل عام وأنت بخير يا قطنى الجميلة . وسارا ليلقيا نظرة أخيرة على الترتيبات التى أعدت للحفلة ، وقالت جانيت وهى مسرورة :

— أحس أن هذا العام سيكون عاما هاما فى حياتى . فقال لها توفيق وهو يحاول أن يتذكر شيئا : — ألم تقولى هذا القول فى السنة الماضية ؟ — لا أظن .

— يخيل لى أنى سمعت هذا منك فى العام الماضى ، فى مثل هذا اليوم بينا كنت

تسرين بينى وبين وليامز .

— كثيرا ما يتصور المرء أنه رأى من قبل شيئا يراه لأول مرة ، أو سمع من قبل قولاً يسمعه لأول مرة . ألم تحس يوماً أنك عشت على هذه الأرض حياة أخرى قبل هذه الحياة ؟

— أبدا .

— يخيل إلى أحيانا أن حياتى هذه ليست أول حياة لى على الأرض ، ولن تكون آخر حياة .

فقال توفيق وهو يضحك :

— عيبك أنك تتأثرين بكل ما تقرئينه ، جاءت إليك هذه الفكرة بعد أن قرأت كتابا عن مذهب تناسخ الأرواح .

فقالته وهى تنظر إلى التوراة :

— جائز .

وراح توفيق يعد الشموع التى غرست فى التوراة ، وما لبث أن ضحك وقال :
— يعجبنى فىك محافظتك على كلمتك . عدد شموع هذه السنة نفس عدد شموع السنة الماضية ، وأنا واثق أنه سيكون نفس عدد شموع السنة المقبلة . يحيا الثبات على المبدأ .

فقالته فى إنكار :

— أبدا يا توفيق ، شموع هذه السنة تزيد على شموع السنة الماضية .
وذهب توفيق وسرعان ما عاد وفى يده شمعة ، وهم بأن يفرسها فى « التوراة » فصاحت جانيت فى فزع وهى تحول بينه وبين ما يريد أن يفعله :
— لا لا . حرام عليك .

وقال توفيق :

— كل بنات حواء سواء ، سواء أكانت مصرية أم هندية أم بريطانية ، كلهن يحشين الكبر .

فقالته جانيت وهى ترنو إليه فى حب :

— كل البشر في هذا سواء . كل شمعة تضاف في عيد الميلاد تقربنا خطوة من النهاية .

وقال توفيق وهو شارد البصر :

— أيقاس العمر بالسنتين ؟

فقالت وهي تحاول أن تقرأ ما يدور في رأسه :

— وبم يقاس إن لم يكن يقاس بالسنتين ؟

فقال لها في بساطة :

قد يموت إنسان في الأربعين ويموت آخر في الستين ، وعلى الرغم من ذلك يكون من مات في الأربعين قد عاش عمرا أطول ممن مات في الستين .

— وكيف ذلك ؟

— الأمر بسيط . يكون من مات في الأربعين قد عاش حياة عريضة زاخرة ، بينما يكون من عاش ستين عاما قد قضاها في حياة فارغة خالية من الإثارة والمتعة .

فصمتت جانيت قليلا ثم قالت :

— معقول .

وجاء مرجان وقال :

— اشترت اليوم أشياء كثيرة ، وأظن أن عندنا الآن وقتا للتحاسب .

قال توفيق :

— غدا صباحا يا مرجان .

قال مرجان في تبرم :

— ولم لا يكون الآن ؟ أخشى أن أنسى شيئا وأن يطير الحساب من دماغي .

قال له توفيق في هلع :

— اطمئن ، إذا نسيت شيئا فسأذكرك به .

وقالت جانيت في سخرية :

— واطمئن إن طار من دماغك سعر شيء ، فقد أصبح توفيق خبيراً في الأسعار .

ولاحت في عيون توفيق وجانيت بسمة وإن ظلت الشفاه مطبقة ، وانصرف

مرجان وهو لا يدري سر إصرارهما دواما على إرجاء محاسبتها على ما يشتره حتى الصباح .

وتألق المكان بالأنوار ، وتوافد المدعوون وتوفيق وجانيت يستقبلانهم ويرحبان بهم ، حتى إذا ما وافي ميعاد الاحتفال ساروا جميعا إلى حيث مدت الموائد ، وأطفأت الشموع بين صيحات الفرح ، وصاح توفيق مع الصائحين ، وتركزت عيناه على الشموع المطفأة وسرح خياله وراح يتساءل في نفسه : إلى أى شيء يرمز إطفاء الشموع ؟ إلى أن سنى العمر التي كانت مشتعلة بالحياة قد مضت وولت وانطفأت لنفاذ زيتها ؟! أتستحق هذه المناسبة أن نحتفل بها فرحين ؟ أنفرح لأن سنين من أعمارنا القصيرة ولت وأدبرت ؟ لا إنا نحتفل بسنة جديدة سعيدة من سنى حياتنا قد أطلت على الدنيا ، أليس ذلك خداعا ؟! إن ميلاد سنة جديدة معناه موت سنة انقضت ، فلماذا نفرح بالسنة الجديدة ولا نبكى على السنة التي فاتت ؟

وأنكر على نفسه أن يخوض في مثل هذه اللحظة السعيدة في خضم أفكار متشائمة يائسة ، وإذا بصوت يرن في جوفه : أليست هذه هي الحقيقة للأسف ؟ ولماذا تفتح عينيك على الحقيقة إذا كانت مرة ؟ تفاعل . اضحك . تمتع بلحظات صفوك ، وأدر وجهك عن هذه الحقيقة الساخرة الأليمة ، وخير لك ولكل البشر أن يجدوا أنفسهم فجأة أمام النهاية من أن يعيشوا في فزع منها يترقبون مجيئها .

واندفع بكل كيانه بين مدعويه الذين انطلقت ضحكاتهم واغرورقت عيونهم بدموع الفرح ، كأن ليلة الصفو ليس لها نهاية ، وراح يضحك ويشرب حتى كاد ينسى نفسه .

وأقبل شاب ممن دعاهم توفيق فنخفت إليه جانيت نرحب به ، وقادته إلى حيث كان زوجها ، فلما وقعت عيناه عليه قال له :

— ما الذى أخرك ؟

قال الشاب معتذرا :

— كنت أدور على محطات الراديو العالمية لأقطع الوقت حتى يجين موعد حضوري إلى هنا ، وإذا بي أسمع من راديو إسرائيل بلاغا حربيا يعلن أن القوات الإسرائيلية أشرفت على قناة السويس .

وساد الوجوم ، وراح الناس يتلفتون زائغي العيون ، وخف توفيق إلى الراديو وفتحته ، فألقى الجميع محطات الأذاعة المصرية تذيع الأغاني والأحاديث ، فقال :

— ليس معقولا أن تكون القوات الإسرائيلية على مشارف القناة دون أن نحس الخطر المحقق بنا . لو كان ما أذاعته إسرائيل صحيحا لظهر أثر ذلك العدوان فيما تذيعه محطات الإذاعة .

وقال قائل :

— لا أتصور أن إسرائيل تقدم على هذه المغامرة في هذا الوقت ، وهي تعلم أن قيادة الجيوش السورية والأردنية والمصرية أصبحت قيادة واحدة . ما أيسر أن يصدر القائد العام أمرا للجيوش السورية والجيوش الأردنية لتتحرك لخوض المعركة .

قالت جانيت :

— أخشى أن تكون إسرائيل تهدف إلى القيام بحرب خاطفة لتصل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس في أسرع وقت ، لتوهم العالم بأنها قادرة على تهديد مصر وتهديد الملاحة في القناة .

وظل توفيق يتابع الأخبار في محطات العالم ، حتى إذا وصل إلى محطة تذيع أخبار تحركات إسرائيل وقف يصغى إليها ، ووقف المدعوون خلفه يصغون ، وراحت المحطة تذيع أن اليهود طردوا مراقبي الهدنة من منطقة العوجة واحتلوها ورفعوا عليها علم إسرائيل .

فصاح صائح :

— إنها منطقة محايدة . كيف يحتلوها ؟

— ومتى احترمت إسرائيل أية اتفاقية ؟ إنها على يقين من أن كل خطاياها

مغفورة لها .

— وماذا ستفعل إنجلترا إذا اتضح أن هدف إسرائيل قناة السويس حقا ؟
— بريطانيا مشغولة في قبرص بمطاردة الثوار اليونانيين .

وقالت جانيت :

— إذا تحركت بريطانيا فستتحرك إلى فلسطين ، لضمان تنفيذ التصريح
الثلاثي الذي تعهدت فيه بإقرار السلام في المنطقة .

— كانت أمريكا على علم بنوايا إسرائيل ، فقد طلبت من رعاياها مغادرة
البلاد ، وقد عملت على ترحيلهم قبل أن تسفر إسرائيل عن نواياها العدوانية .

وقالت جانيت :

— السفير البريطاني السير همفري تريفيان لم يطلب من رعايا بريطانيا أن
يرحلوا عن المنطقة .

— هذا يطمئنني . فبريطانيا أعلم بظروف المنطقة من أمريكا ، فلو كانت إنجلترا
تخشى نشوب حرب شاملة بيننا وبين إسرائيل لطلبت من رعاياها مغادرة مصر .
قال توفيق :

— أشك في أن تتطور الاشتباكات بين مصر وإسرائيل إلى حرب ، إنها مجازفة
محفوفة بالمخاطر أن تبدأ إسرائيل بالعدوان وأن تتوغل في الأراضي المصرية . إنها لو
هزمت في الصحراء فستقتفى آثارها الجيوش العربية ، وقد تكون نتيجة هذه
المغامرة زوال إسرائيل من الوجود .

قال قائل :

— لا يمكن أن أصدق أن قادة إسرائيل بهذه السذاجة . لا بد أنهم على يقين من
نتيجة هذه المغامرة .

قال توفيق :

— لعل إسرائيل تبغى من هذه الحركة كسب الدعاية والتظاهر بالقوة .

وقال جانيت :

— ربما أغرى إسرائيل على هذا الهجوم معرفتها أن مصر لم تستكمل بعد

تدريب قواتها على الأسلحة الروسية . إنها وجدت أن الزمن ليس في مصلحتها ، فعزمت على الإقدام على هذه المخاطرة .

قال توفيق وهو يهز رأسه :

— رأى محتمل .

وقال قائل :

— لماذا لا يكون سبب هذا الهجوم توقيع الحلف العسكرى بين مصر والأردن؟ إنها لو انتظرت حتى تقوى الأواصر بين مصر والأردن فسيكون ذلك تطويقا كاملا لها يهدد كيانهما .

وقال توفيق وهو يدير أزرار الراديو :

— لماذا لا تقول مصر شيئا؟ لماذا هذا الصمت؟

وفي الساعة الحادية عشرة مساء بدأ المذيع يقول : « صرح ناطق باسم القيادة العامة للقوات المسلحة أن قوات الحدود المصرية أبلغت عن نشاط للقوات الإسرائيلية في منطقة « الكونتيتلا » جنوب صحراء سيناء ، داخل الحدود المصرية . وأضاف الناطق أنه لم يحدث اشتباك بين القوات المصرية والإسرائيلية حتى الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم . ولاح الأسى في وجوه الجميع ، كان إعلان ذلك مفاجأة لهم ، وكأنهم لم يكونوا يخوضون في هذا الموضوع ، كان التصريح يؤكد أن أرض الوطن انتهكت حرمتها أقدام الغزاة ، وأى غزاة؟! الصهانية . يا للعار! . لبطن الأرض خير من ظهرها .

وقالت جانيت :

— لعنة الله على بن جوربون . أفسد ليلتنا . لماذا اختار يوم مولدى ليشن

هجومه الغادر؟

وانصرف المدعوون مطأطئى الرعوس ، يحسون مرارة ، فما كان يدور بخلدكم أن يأتى اليوم الذى تسير فيه إسرائيل لغزوهم .

وبقى توفيق وجانيت وحدهما ، فقال توفيق وهو يهز رأسه فى أسى :

— لا بد أن اليهود الذين يسرون فى سيناء الآن يملكهم هوس دينى ، لأنهم

يسيروا في الأرض التي سار عليها موسى .

ثم قال في ثورة :

— لماذا تنهم بالتعصب وبالرجعية إذا تحدثنا عن ديننا ، بينما البشر يتمسكون

بالدين الذي يؤمنون به ؟ لماذا لم يتمتع الغرب من قيام إسرائيل ، الدولة التي قامت

على فكرة دينية ، بينما يناصب أغلب كتاب الغرب ديننا العداة ؟

وراح الراديو يذيع :

« البلاغ الحرفي رقم واحد » .

صرح ناطق باسم القيادة العامة للقوات المسلحة تعليقا على البلاغات

الإسرائيلية بأن منطقة الكونتيللا التي وصلت إليها القوات الإسرائيلية هي منطقة

صحراوية خالية إلا من نقطة مراقبة الحدود ، ولم تشتبك قواتنا مع القوات

الإسرائيلية حتى الساعة الواحدة صباحا .

وقال توفيق في صوت خافت :

— بلاغ حربي ؟ إنها الحرب .

وأحس توفيق غصة وبدموعه تترقق في عينيه ، وقامت جانيت وذهبت

وما لبثت أن عادت وفي يدها خريطة للمنطقة بسطتها أمامها لتدرس عليها مواقع

القوات التي تتأهب للمعركة التي ستدور رحاها لأول مرة بين القوات المصرية

والقوات الإسرائيلية على أرض سيناء .

وصاح توفيق في غضب :

— لا بد أن نظردهم وأن نظهر أرضنا منهم ، لا بد أن ننقل المعركة إلى قلب

إسرائيل .

وقف عبود ينظر إلى أحواض الملح المترامية أمامه ، وكانت صافية صفاء

الجليد ، بيد أنها عجزت عن أن تغسل الكآبة التي رانت على روحه ، كانت

نفسه منقبضة حتى إنه كان يحس وخز الألم في صدره .

وراح يستنشق الهواء في قوة وهو يرجو أن يزيل الضيق الذي نزل بصدره ،
إلا أنه كان يفره حاراً كأنما كان ينفث ناراً من جوفه ، وزاد في قلقه ذلك الخوف
الذي انتشر في جنباته فجعله يتلفت وهو زائف البصر ، يترقب أن ينقض عليه
شبح يكتم أنفاسه ويسلبه الروح .

وسمع صوتاً يقول :

— السلام عليكم .

فانتفض والثفت مرعوباً ، فرأى الشيخ حسن والمهندس توفيق ينظران إليه في
إنكار ، وقال له حسن :

— مالك منذ الصباح ساهم حزين ؟ ما الذي يشغل بالك ؟

قال عبود في قلق :

— لا شيء . لا شيء .

وقال توفيق :

— يبدو عليك أنك مهموم .

وأحس عبود شيئاً من الراحة فقد وجد من يفيض إليهما بما يقلقه ، ففى البوح
بالآلام راحة لنفسه ، فقال وعيناه لا تقويان على أن تستقرا على شيء :

— قامت هبية من نومها باكية حزينة .

وقبل أن يتم عبود روايته قال حسن :

— البكاء في المنام فرج .

قال عبود :

— لم تكن تبكي في المنام ، بل بكيت بعد أن فهمت ما رأته في أحلامها .

قال حسن في اهتمام :

— وماذا رأيت ؟

قال عبود في صوت حزين :

— لم تقل لي ، ولكنها قالت وهي تنسج بالبكاء إنها فهمت من حلمها أنها لن

ترى مأمون .

قال توفيق :

— شغلت بأخيها بعد أن علمت أن قتالا يدور بيننا وبين اليهود في سيناء ، وفكرت فيه وهى خائفة عليه قبل أن تنام فرأت مارأت . لا تقلق يا عبود إنها أضغاث أحلام .

قال عبود وهو يتلفت في حيرة :

— نمنا بالأمس قبل أن نعلم شيئا عن هجوم إسرائيل ، وفي الصباح استيقظت بهية وهى تبكى فطبيت خاطرها ، ولكن ما إن وقعت عيناي في الصباح على مافاضت به الصحف حتى انقبضت ، تيقنت أن مأمون يخوض معركة مع إسرائيل ، وزاد في خوفي أن أحلام بهية تتحقق كلها .

فابتسم توفيق في استخفاف وقال :

— قرر فرويد ، وهو أعظم من حلل الأحلام ، أنه لا توجد رؤيا تنبأ بما قد يقع في الحياة .

قال حسن في حماسة :

— فليقرر فرويد مايشاء ، ولكن كل من يؤمن بالأديان يؤمن بالرؤيا الصادقة . كان صلى الله عليه وسلم يرى الرؤيا فما تلبث أن تتحقق كفلق الصبح ، ومارأى فرويد اليهودى فى رؤيا يوسف الصديق ، ورؤى أنبياء بنى إسرائيل التى تموج بها التوراة !

قال توفيق :

— أعتقد أنه أنكرها كلها .

— ليثبت نظرياته ، فلو أنه اعترف بالرؤيا الصادقة لهدمت كل ما بناه عن

الأحلام من أساسه .

والنفت توفيق إلى حسن وقال في دهش :

— من أين لك هذه المعلومات يا شيخ حسن ؟

قال الشيخ حسن فى بساطة :

— من الكتب . العلم فى الكتب ولم يعد فى الصدور كما كان يقال .

والنفت حسن إلى عبود وقال :

— مأمون في ضيق ، ونحن كلنا في ضيق في هذه الأيام ، وليس أمامنا إلا أن نبتهل إلى الله .

ورفع وجهه إلى السماء وقال في حرارة :

— يارب ! إنا لانسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

وقال توفيق في ثقة :

— أنا لست متشائما ، أنا واثق أن الموقف في الساعات القادمة سينقلب في

مصلحتنا .

طائرات سلاحنا الجوي تشتبك مع طائرات الأعداء في معارك دائمة وتقصف مواقع تجمعات الأعداء ، والإمدادات تندفق إلى سيناء لطرد اليهود منها .

وقال عبود في ضيق :

— لماذا حاربتنا إسرائيل ؟ ولماذا هذا الغدر ؟

كان عبود يستنكر فكرة الحرب ، وظن توفيق أنه يستفسر عن الدوافع التي

دفعت إسرائيل إلى شن هذا الهجوم الغادر ، فقال :

— تدعى إسرائيل أنها هجمت على منطقة سيناء لأنها كانت وكرا للنشاط

الفدائيين المصريين .

وقال حسن :

— بررت إسرائيل عدوانها بأنها تخشى من عدوان مصر عليها ، وقد اتهمتنا

بأننا نتأهب لتدميرها حتى تكسب باعتدائها عطف الرأي العام عليها .

قال توفيق في ضيق :

— كيف يصدق العالم هذا الزعم وهو يعلم أن الدول الكبرى تفرض حصارا

اقتصاديا علينا ؟ كيف نحارب وإنجلترا وفرنسا وأمريكا لا تبيعنا شيئا ولا تتابع منا .

قال حسن في مرارة :

— العالم دائما يفهم ما يجب أن يفهمه ، لا الحقيقة ولا المنطق ولا العدل لها

دخل فيها يريد أن يفهمه العالم .

وقال توفيق :

— لو استمرت هذه الحرب فستكون وبالاعلى إسرائيل ، فقد طلبت سوريا رسمياً أن تشتترك قواتها اشتراكاً فعلياً في المعركة ، وطلب الأردن أن يخوض مع مصر المعركة بعد أن اتضحت نوايا إسرائيل .
قال حسن :

— نوايا إسرائيل أن تصل إلى القناة بأسرع ما يمكن . وصولها إلى القمر أهون عليها من هذا . سنردها على أعقابها ، و سنحول بينها وبين ما تريد وإن جعلنا من أجسامنا سداً بينها وبين قناتنا .
وقال عبود في غضب :

— لماذا لاتقف هذه الحرب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟
وقال توفيق وهو ينظر في ساعته :
— وافي موعد نشرة الأخبار .

وساروا إلى حيث كان العمال متجمهرين حول جهاز الراديو ، وعزفت المقدمة الموسيقية للنشرة فإذا بالقلوب تخفق ، وبالأعناق تشرئب ، وبالأذان تصغي ، وبالقلوب ينتشر في الصدور ، وبالخوف من المجهول يستولى على النفوس ، وراح المذيع يذيع الأخبار والعيون زائغة والأنفاس متلاحقة .
وراح يقرأ في صوت يهز المشاعر :

— بدأ العدو يستخدم قواته الجوية للضغط على قواتنا البرية ، وقد تدخل سلاحنا الجوي في الحال فأسقط طائرتين نفائتين للعدو كما دمر ١٢ عربية مصفحة ، وقد أصيبت قوات العدو بخسائر جسيمة في منطقة الثامد . وهكذا أوقف تحرك العدو تماماً .

وحدث هرج بين العمال ، وأحس حسن عبراته تخنقه ، وخشى أن تجرى دموعه على أعين الناس فانسل بعيداً وهو يجاهد انفعالاته ليرد إلى نفسه ، وانصرف العمال إلى أعمالهم وقد سكنت الطمأنينة أفئدتهم ، وذهب توفيق وعبود إلى حيث كان الشيخ حسن ، وأحس قدمهما فالتفت إليهما .
وقال توفيق :

— إنى لأستطيع أن أتصور حتى الآن مواقع القوات الإسرائيلية واتجاهاتها .

قال توفيق :

— تمكنت أنا وجانيت هذا الصباح بعد أن سمعنا كل أذاعات العالم تقريبا أن

نحدد مواقعها واتجاهاتها على خريطة سيناء .

أسقطت بعض قوات المظلات أمس بمنطقة سدر الحيطان وممر ميتلا ، هذه القوات ليست قادرة وحدها على الوصول إلى القناة ، فكان لابد أن تتحرك قوات إسرائيلية من الحدود وتجتاح منطقة مراقبة الحدود المصرية عند الكونتيللا ثم تتقدم إلى ممر ميتلا ، وبعد أن تستولى على نخل تتصل بالقوات التى أسقطت بالمظلات فى سدر الحيطان ، ثم تندفع هذه القوات كلها إلى السويس ، هذا محور من محاور الهجوم .

وهناك محور آخر : يتقدم المشاة الإسرائيليون ليستولوا على القسيمة ثم

يتجهون إلى أم قطف وأبو عجيلة ، ومنها يتقدمون إلى الإسماعيلية .

فقال حسن فى غيظ :

— ماشاء الله ! وأين نحن ؟!!! إذا كان اليهود يتصورون أننا سنقف مكتوفى

الأيدى أمام هذا الاستفزاز فهم خاطئون .

— إنهم يبنون آمالا كبارا على المفاجأة . يحسبون أنهم ماداموا قد أخذونا على

غرة فلن نفيق من المباغته قبل أن يكونوا قد قضوا علينا .

وقال عبود فى صوت متهدج :

— ترى أين مأمون الآن ؟

فقال حسن فى حماسة :

— يقوم بأشرف واجب . ليتنى كنت هناك .

ثم دنا من عبود وقال :

— إنه يدافع الآن عن أعراضنا ، يدافع عن شرف بهية وفتحية وإنصاف وبناتنا

وأخواتنا . يدافع عن كرامتنا . ليتنى أستطيع أن أجود بدمى لأخو هذا العار .

وصمت قليلا ثم قال :

— بقاؤنا هنا عبث .

وقال له توفيق :

— ماذا تريد أن نفعل ؟

قال وهو يزفر في قوة :

— نحمل كلنا سلاحنا ونخرج إليهم .

وقال توفيق :

— صبرا يا حسن حتى تنكشف الأمور ، إننا لا نستطيع أن نقر ما يجب علينا

أن نفعله . فلننتظر ما نؤمر به .

فقال حسن في ثورة :

— لماذا لا نخرج كلنا إليهم ؟ لماذا لا نقابلهم في الفضاء ونقضى عليهم ؟

— قد تكون المصلحة في أن ننتظرهم حتى يتعبوا من التوغل في الصحراء ،

فيصبح أمر اقتناصهم ميسرا . سنصيدهم كما تصاد الأرناب .

وشرد حسن قليلا ثم قال :

— أنخرج إليهم أم نتحصن في المدينة ؟ هذا ما اختلف عليه أصحاب رسول

الله ﷺ يوم غزوة أحد . ترى اختلف كما اختلفوا أم نأخذ من تاريخنا عبرة ؟ إذا لم نعتبر

بتاريخنا فما فائدة ذلك التاريخ ؟ إننا أغنياء به ، فياليتنا نعرف كيف نستغل كنوزه !

وانقضى الوقت بطيئا ، وأعرض الناس عن أعمالهم ، كان لا هم لهم إلا تتبع

الأخبار . تركز كل تفكيرهم في الخطر الداهم الذي يتقدم في الصحراء ليقضى

على آمالهم ، وليرغمهم على أن ينكسوا رءوسهم في ذلة ، ويلطخهم بالعار .

وصاح حسن في غضب :

— أن أقتل وأحيا لأقتل مائة مرة ، أهون على نفسي من أن أرى يهوديا يسير

منتصرا على أرض وطني . لا . لا . بقاؤنا هنا لا طائل تحته ، بقاؤنا ذل وهوان .

وسار حسن وقد عزم على أن يحمل سلاحه ، وإذا بمقدمة نشرة الأخبار

تعزف فتسمر في مكانه وأصبح كله آذانا ، وسرت في بدنه رعدة فانتفض

انتفاضة المحموم وتفصد منه العرق .

وراح المذيع يقرأ :

— تمكنت قواتنا بعد ظهر اليوم من تطهير قوة العدو غرب نخل وقضت .
تماما ، واشتبكت أربع طائرات من قواتنا الجوية بثماني طائرات إسرائيلية من طراز
ميسير ، وقد تمكنت طائرتنا من إسقاط طائرة من هذه الطائرات الإسرائيلية
الثان ، ويحتمل أن تكون طائرة أخرى قد أصيبت أصابة مباشرة . كما أسقطت
نيران المدفعية المضادة للطائرة للعدو من طراز أورجون ، وأسقطت طائرة أخرى
في قطاع غزة .

وجار تطهير باقى قوات العدو فى أرض العمليات .

وصاح العمال فرحين مستبشرين ، وقال توفيق :

— كنت واثقا من أننا سنردهم على أعقابهم .

وقال حسن فى عزم :

— لا . يجب أن تكون أهدافنا أبعد من أن نردهم عن بلادنا بعد أن اتضحت
نواياهم الخبيثة . يجب لتأمين سلامتنا أن نسحقهم ، أن نمحقهم ، أن نزيلهم من
الوجود . إنهم جرثومة خبيثة فى جسم الوطن العربى ، إنهم خطر يهدد حياتنا
وحياة أبنائنا ، فعلينا — نحن العرب — أن نتكفل وأن نقضى على عدونا المشترك
قضاء مبرما .

والتفت إلى توفيق وقال :

— لماذا لم يصدر القائد العام أوامره بأن يتحرك الجيش السورى والجيش
الأردنى ليخوضا هذه المعركة المقدسة ؟

فقال عبود فى دهش :

— المعركة المقدسة !؟

قال حسن فى حماسة :

— أجل ، إنها معركة مقدسة ، لأنها دفاع عن أرض العروبة وحسب ، بل
لأن إسرائيل هى التى شنتها علينا ، هى التى بدأت بالعدوان . وفى مثل هذه
الحرب العدوانية للمسلم إذا انتصر على عدوه أن يسبى النساء ليرهب عدوه ،

ويجعله يفكر طويلا قبل أن يعتدى عليه .

قال عبود في امتعاض :

— لا يمكنني أن أتصور هذا ؟

فقال حسن في سخرية :

— ما أكثر الأشياء العادلة التي لا يمكن أن تتصورها . إن من شرع القتال ،

وشرع القصاص ، وأقام الحدود أعرف بنفوس البشر .

ثم قال لتوفيق :

— لم تقل لي : لماذا لم يصدر القائد العام أو امره للجيش السوري والجيش

الأردني بخوض هذه المعركة المقدسة ؟

قال توفيق :

— لعل الوقت لم يحن بعد . أو لعل الأمر لا يستحق إشعال نيران الحرب في

كل المنطقة .

وقال عبود :

— ما من شيء يستحق إشعال نيران الحروب ، كل شيء يمكن أن يحل

بالتراضي ، بالمفاوضة .

فقال له حسن في ضيق :

— اسكت بالله عليك يا عبود .

وقال توفيق :

— سمعت هذا الصباح إشاعة تقول : إن المشير عبد الحكيم عامر انتهت زيارته

للأردن وسورية أمس ، وأنه استقل هو وهيئة أركان حربه طائرة للعودة من

دمشق إلى القاهرة ، بينما خصصت طائرة أخرى لضباط الحرس والصحفيين .

وقامت طائرة الضباط والصحفيين في موعدها وتأخرت طائرة القائد العام بعض

الوقت ، فوصلت طائرة المشير إلى القاهرة بعد إعلان الهجوم الإسرائيلي ، بينما

اختفت الطائرة الأخرى .

قال حسن :

— كان اليهود يرصدون حركاته من غير شك ، وما دام أن العدوان كان مبيتا فقد قرروا إسقاط طائرته ليعلمن النبأ في الوقت الذى تعلن فيه أخبار عدوانهم ، ليفت في عضد الدول العربية ولينزل على القوات المسلحة نزول الصاعقة . وانقضى النهار وانقلب كل منهم إلى أهله ، وما إن دخل توفيق على جانيت حتى قالت له في فرح :

— أعلنت بريطانيا أنها لا تنوى استغلال القتال الذى نشب فجأة في سيناء لصالحها . لكم أثلج صدرى هذا النبأ . إنه يؤكد أننا لا نزال أناسا شرفاء . وأراد توفيق أن يشاكسها فقال لها :

— أنت واثقة من أن إيدن سيحافظ على وعده هذا ؟
قالت في حماسة :

— كل الثقة . إنه قطع على نفسه عهدا أمام العالم . إنه وعد من تلقاء نفسه وما من أحد أرغمه على أن يصرح هذا التصريح . إنه تصریح رائع يبرهن بلا جدال على أننا خصوم شرفاء . وتعلقت بعنق توفيق :

— ألسنا خصوما شرفاء يا توفيق ؟

قال توفيق وهو يهز كتفيه في إنكار :

— لا أستطيع أن أقول شيئا قبل أن تنكشف الأمور .

— لقد وضع كل شيء بعد هذا الإعلان ، وضع أننا نبلاء .

وقربت شفيتها من شفتيه وقالت :

— ليت بلادك وبلادى يتحابان هكذا .

ولشمت شفتيه بشفتيها .

وراحت بهية تدرع الغرفة جيئة وذهابا وبطنها منتفخ ، وعبود يحمل رأسه على كفه لا يدري ماذا يفعل ، فزوجته تولول وتبكي كأنما جاءها نبأ مصرع مأمون ، راحت تقول :

— يا خسارة شبابك . لماذا كتب على أراك يا حبيبي ؟ ترى أين أنت ؟ أين أنت يا مأمون ؟ مأمون ! مأمون !

كان النهار يجتضر وقوات « أبو عجيله » في أماكنها تتأهب لاستقبال قوات العدو المدرعة ومدافعه ومشاته ، فقد هاجمت القسيمة منذ الصباح الباكر ، وحاولت بكل مالديها من أسلحة متفوقة أن تقضى على حاميتها لتندفع سريعا إلى « أبو عجيله » وتطعن حاميتها طعنة قاتلة ، ثم تنساب إلى الإسماعيلية لتحقيق نصرا سريعا خاطفا تتيه به ، وتؤكد للعالم أن إسرائيل استطاعت أن تنتصر على مصر ، أخطر أعدائها ، وتهدد سلامتها .

ووقف مأمون وراسم ينتظران مع إخوانهم المنتظرين ، وقال مأمون :
— كيف لم تصل إلينا حتى الآن قوات العدو؟! إن قواتنا في القسيمة لا تستعمل إلا السيارات الجيب ، فكيف تقوى مثل هذه السيارات على أن تعرقل تقدم الدبابات والمدافع والمشاة نهارا كاملا ؟

— قواتنا لا تلتحم معها في معركة ، ولكنها تحاول أن تعرقل تقدمها .
— أعرف ، ولكنني أعجب من قدرتها على عرقلة إسرائيل نهارا كاملا ، والقتال بينها وبين تلك القوات يدور على الطريق الأسفلت الموصل بيننا وبين القسيمة .
كنت أظن أن قوات القسيمة لن تصمد في وجه قوات إسرائيل أكثر من ساعة .
وقال راسم وهو قابض على سلاحه متأهبا ليستخدمه في أية لحظة :
— إسرائيل تعلم أن كل دقيقة تمر ليست في مصلحتها ، فالإمدادات العربية ستندفق إلى أرض المعركة .

قال مأمون وهو يرقب الأفق البعيد :

— أتظن أن قوات إسرائيل ستهاجمنا الليلة ؟

— إذا قضت على مقاومة حامية القسيمة فلن تضيع ثانية ، وستشن علينا هجوما ليليا .

— لو فعلت فستكون خسائرها جسيمة ، فإننا أعرف منهم بطبيعة هذه المنطقة ومسالكتها ، لكثرة التدريبات العسكرية التي قمنا بها هنا .
وغاص قرص الشمس في رمال الصحراء ، وثار الغبار فوق الطريق المعبد وارتفع إلى السماء ، وصاح صائح :

— طلائع قوات القسيمة المتقهقرة ظهرت .

ودبت في معسكر « أبو عجيلة » حركة نشاط ، وصدرت الأوامر فخف بعض الفنين لفتح طريق للقوات المتقهقرة بين الألغام ، وأسرعت بعض القوات لتغطية الانسحاب ، وتدفقت سيارات الجيب التي تحمل الأبطال لتنضم إلى قوات أبو عجيلة .

وراح العدو ينظم صفوفه ليشن هجوما ليليا على القوات التي تعترض سبيله وتحول بينه وبين الاندفاع إلى الإسماعيلية .

وساد الظلام وأرهفت الحواس ، وحدثت تحركات في كلا المعسكرين ، وبات السكون مسيطرًا على المكان ، وفجأة أطلقت المدفعية المصرية نيرانها ، واتجهت الأنظار إلى حيث تصوب قذائفها ، وقال مأمون في غضب :

— يحاول الملاعين أن يستولوا على التبة الحمراء .

قال راسم في عزم :

— لن نسمح لهم أبدا بأن يستولوا عليها . أسمح لهم أن يضعوا أيديهم على

مفتاح الطريق ؟

وصدرت الأوامر إلى سرية المشاة أن تحطم هجوم الأعداء على التبة ، فراح الرجال يتقدمون متسترين بالظلام ، حتى إذا دنوا من المواقع تفرقوا وراحوا يزحفون على بطونهم ، ورفع مأمون رأسه فرأى دبابات العدو تتقدم ، والسيارات المصفحة تحاول أن تصل إلى التبة ، والجنود اليهود يتقدمون خلف الدبابات ، وقذائف المدفعية المصرية تصلهم نارا حامية تنير بقذائفها أرض المعركة ، فتناول قذيفة وألقاها فأصاب إحدى الدبابات إصابة مباشرة ، وإذا بالقذائف تلقى على الدبابات والسيارات المصفحة من كل جانب ، وإذا

بصيحات فزع تغطي على أصوات المدافع ، وتقدم راسم حتى دنا من الأعداء ، وراح يطلق رصاص مدفعه الرشاش في انفعال وهو يصيح :
— يوم بيوم دير ياسين . أمى .. أمى .. إنهم يصرخون .. إنهم يسقطون ،
اختفت ضحكاتهم البغيضة الهازئة . أمت . أمت . أمت .

وخف مأمون يغطي هجوم راسم ، وتقدم المشاة يقذفون قذائفهم من كل جانب ، وركزت المدفعية المضادة للدبابات قذائفها على الوحدات المدرعة ، واتضح أن الدبابات الإسرائيلية أصبحت هدفا طيبا للقوات التي أسرعت لتصددها وتردها على أعقابها ، وإذا بطائرات العدو تظهر في سماء المعركة وتلقى قذائفها على قوات « أبو عجيله » ، لتنفذ دبابات إسرائيل من مصيرها المحتوم . وأسرع راسم ومأمون ورجال سرية المشاة بإلقاء أنفسهم على الأرض والزحف على بطونهم صوب ملاجئ تعصمهم من قذائف الطائرات الإسرائيلية . وركزت الطائرات هجومها على المدافع المضادة للدبابات فشغلتها عن الفتك بالوحدات الإسرائيلية المدرعة ، التي كانت تترنح تحت وطأة القذائف التي تسدد إليها من كل جانب .

وصوبت البطارية الوحيدة المضادة للطائرات التي كانت مع قوات أبو عجيله مدافعها إلى الطائرات المغيرة ، ويرقت قذائفها في السماء ، وإذا بطائرة تنفجر في الجو على مرأى من المعسكرين ، فصاح المصريون بصيحات فرح ، ونزل بقلوب اليهود غم .

وحاولت الدبابات الإسرائيلية والسيارات المصفحة أن تعاود زحفها في حماية الطائرات ، فإذا بالقناصة المصريين يزحفون على بطونهم في الظلام — وقنابل الطائرات تنفجر من حولهم والرصاص يقز في كل مكان — حتى أمست الدبابات في نطاق قنابلهم فأمطروها بقذائفهم ، وراحت المدافع تلقي حممها فتضطر الدبابات إلى أن تتقهقر وأن تتعد عن شرها .

ومست سيارة مصفحة لغما فتطايرت في الهواء ، وأصيبت طائرة أخرى إصابة مباشرة فأخذت تهوى وقد اشتعلت فيها النار ، وارتطمت بالأرض

فانفجرت وارتفعت ألسنة اللهب لتتير أرض العمليات . وضايق القوات المهاجمة ، وكانت تتألف من لواء مدرع ولوائين من المشاة ، أن تقف في وجهها قوات قوامها كتيبتان وآلاى مدفعية ميدان وأورطة سيارات خفيفة وبطارية مدفعية خفيفة مضادة للدبابات وأخرى مضادة للطائرات وكتيبة من الحرس الوطنى لا يزيد عدد أفرادها على مائتين .

وعاودت الدبابات الشيرمان والدبابات الفرنسية هجومها ، وأطلقت الهاونات الثقيلة قذائفها ، وراحت الطائرات الإسرائيلية والفرنسية تضرب الجنود الذين تحصنوا فى الخنادق ضربا مركزا ، بيد أن القوات المصرية ظلت ثابتة فى مكانها لا تتزعزع ، تدافع عن أماكنها دفاعها عن شرفها ، فقد كانت تعلم عظم الدور الذى تلعبه فى هذه المعركة ، فلو تهاونت أو تمكن العدو من أن يفتح فى صفوفها ثغرة ، لتدفع منها إلى الإسماعيلية ، ولحقق الحلم الذى دفعه إلى خوض غمار هذه المغامرة .

وراح مأمون وراسم ومن معهما من الرجال يعاودون الزحف لينقضوا بقذائفهم على الدبابات والسيارات المصفحة التى تتقدم فى إصرار لتستولى على التبة الحمراء ، وصاح مأمون صيحة مكتومة :

— آه .

وقال له راسم :

— ماذا بك ؟

— لا شىء . تقدم .

وأضاعت قذيفة المكان ، ولمح راسم الدم يسيل من كتف مأمون فقال له :

— هل أصبت ؟

— خدش بسيط . حاذر !

والتفت راسم فألقى دبابة تدنو منه ، وفى لمح البصر ألقى عليها قنبلة فانفجرت بجوارها ، وأسرع مأمون وألقى عليها قنبلة أخرى ، وألقيت عليها القنابل من هنا وهناك فاضطرت إلى أن تتقهقر .

وقال مأمون لراسم :

— تمكنت قواتنا من القضاء على قوات العدو غرب نخل .
وهوت طائرة من الطائرات الإسرائيلية وفي مثل لمح البصر كانت حطاما
مشتعلا ، فقال راسم في فرح :

— نحن سنكبد العدو خسائر لا قبل له بها .

وقال مأمون :

— سنظل سادة الموقف مادامت التبة الحمراء بعيدا عن أيدي العدو .

وقال راسم :

— سنرغمهم على أن يظلوا في الوحل ، ولن نمكثهم من أن يخرجوا منه .

وراح مأمون يتلفت في حذر ، ولمح في الظلام أشباحا تتحرك في خفة فهمس :

— راسم انظر ! إنهم يتسللون ليستولوا على التبة الحمراء .

وفي خفة الأطياف كان رجال الصاعقة يزحفون نحو التل كالأسود

الكواسر ، وطوقوا المتسللين من كل جانب ، ثم انقضوا عليهم انقضاض النسور

والخناجر تغوص في قلوب من حسبوا أنهم خارجون في نزهة !

واشدت القتال ، ومس التعب الأجسام ، بيد أن عزائم المدافعين عن شرف الوطن

كانت قوية ، فكانوا يكرون على الأعداء كالليوث وهم يصيحون صيحات تلقى

الفرع في قلوبهم . وتيقنت قيادة القوات الإسرائيلية أن القضاء على هذه القوات

المستميتة في الدفاع عن مواقعها ليس أمرا ميسورا ، وأنها ستقف كالصخرة العاتية

تحول دون تقدمهم . إنهم يعلمون أن الوقت ليس في مصلحتهم ، وقد أعلنوا في

أول بلاغ حربي أنهم أصبحوا على مشارف قناة السويس ، وقد انقضت ليلة

الأمس ونهار اليوم وسواد ليله ولم يحققوا شيئا مما أعلنوه على الملأ ، فليلجئوا إلى

إضعاف روح هذه القوات المعنوية لعلهم يحققون عن طريق الدعاية ما عجزوا

عن تحقيقه بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم وطائراتهم .

وطارت الطائرات الإسرائيلية طيرانا منخفضا وراحت تلقى منشورات على

المدافعين ، وانطلقت من مكبرات الصوت من الطائرات نداءات تدعو المدافعين

البواسل إلى التسليم ، فلا أمل لهم في أن يثبتوا في أماكنهم أمام القوات الطاغية التي تحشدتها إسرائيل والتي اعتزمت أن تحتاح بها كل المواقع المصرية مرة واحدة . وكان رد القوات المصرية على هذه النداءات الساذجة أن صوبت كل الأسلحة إلى الطائرات التي تطير طيرانا منخفضا ، وكانت صيدا سهلا ، حتى الأسلحة الصغيرة كان لها من الصيد أوفر نصيب .

وجن جنون القيادة الإسرائيلية ، فقد بدأ الصبح يتنفس في الصحراء وقوات « أبو عجيلة » ثابتة كالطود ، وعلى أرض المعركة ثلاث دبابات شيرمان وأربع سيارات مصفحة قد دمرت ، وجث القتلى الإسرائيليين تكاد تغطي الوديان وسفوح التلال ، وحطام إحدى عشرة طائرة من الطائرات الفرنسية تناثرت ذليلة على الرمال تعلن اندحار قوات الطغيان .

وعزمت القيادة الإسرائيلية أن تشن هجوما يائسا لعلها تحقق في عمية الصبح قبل أن تشرق الشمس وتفضح كل مواقعهم ، ماعجزت عن تحقيقه طوال الليل ، فرمت في أتون المعركة كل قواتها ، وحركت كل دباباتها ، وفتحت فوهات كل أسلحتها ، فأطلقت قوة « أبو عجيلة » نيرانها من كل مواقعها ، وراحت أطقم المدفعية والرشاشات تغير مواقعها إمعانا في الخداع ، فحسب اليهود أن إمدادات جديدة وصلت لنجدة إخوانهم ، فتملكهم حنق شديد ، وراحوا يطلقون نيرانهم في ثورة وغضب وعصبية .

وصاح راسم صيحة ألم وسقط على الأرض ، فأسرع مأمون إليه ، ولما رأى الدم ينزف من صدره حمله وسار به إلى الخطوط الخلفية ووابل من الرصاص يتساقط من حوله ، واستمر في زحفه حتى إذا بلغ هدفه وضعه بين أيدي من يضمدون له جراحه ، ثم تناول جرعة ماء وأسرع يعدو ليلود مع زملائه الصناديد عن التبة الحمراء ، حتى لا يقع مفتاح الطريق في أيدي من جاءوا بدباباتهم ومصفحاتهم وطائراتهم وغرورهم يستعجلون النصر .

وفطنت قيادة القوات الإسرائيلية إلى أن الهجوم المباشر على المواقع المحصنة لا طائل تحته ، وأنها إن دكت القيادات المصرية لأنهارت المقاومة ، فركزت

نيران مدفيعيتها والهاونات على مراكز الرئاسات ، وأطلقت طابورا ميكانيكيا ليطوق المواقع من الخلف ، وفطنت القوات المصرية إلى خطة العدو فراحت تعمل على إحباطها .

أسرع رجال المدفعية المصرية يصوبون مدافعهم إلى الطابور الذى انطلق ليقوم بحركة التفاف حول مواقع القوات ، وخف المشاة والسيارات الخفيفة لكسر الطوق الذى أراد العدو أن يضربه حولهم ، واندفع مأمون ورفاقه كالشياطين يصوبون النيران على الطابور الميكانيكى ويزلزلون الأرض تحت جنازير دباباته ، وأخذ مأمون يرغى ويزبد ومدفعه الرشاش ينفث نيرانه كألسنة الأبالسة ، ولح أحذ ملامته يتقدم إلى جواره وقد اختلط عرقه بالتراب فاخفت ملامحه . ومضت قذيفة أضاءت المكان وعلى ضوءها تمكن مأمون أن يعرف زميله الذى يتقدم معه وقد التصق كتفه بكتفه ، فصاح فى فرح :

— راسم !

ثم عاد وقال فى عتاب :

— راسم . عد لتستريح . أنت جريح .

قال راسم وهو يبتسم :

— أنا بخير . تقدم .

وضمه مأمون إليه فى حنان ، ثم قال :

— اضرب .

وراح راسم يصيح على طلقات الرصاص :

— أمت .. أمت .. أمت ..

ثم التفت إلى مأمون وقال :

— هذا يوم له ما بعده .

وقال مأمون وهو يتقدم فى خفة :

— يوم فخار لنا ويوم عار لهم .

ووقف تقدم الطابور الميكانيكى ، ثم راح ينسحب ، وأخذت كل القوات

الإسرائيلية في الانسحاب لتعلق جروحها وتصلح خطوطها وتعاود هجومها .
ورأى الجنود المصريون انسحاب قوات الأعداء فصاحوا في فرح :
— الله أكبر . الله أكبر .
وراحوا يتأهبون للجولة الثانية التي قرر العدو أن يخوضها في وضح النهار .

كان توفيق ثائرا غاضبا حانقا وكانت جانيت ترنو إليه في وجوم ، كان
ما حدث محيرا حتى أنها عجزت عن أن تفكر تفكيرا منطقيا مدة طويلة ، فقد
كان ما تجرى به الأحداث غير منطقي ولا معقول .
وراح توفيق يهدر ويزجر ويصب لعنات غضبة على الإنجليز وهي لا تجد
لسانها لتخفف من حدة غضبه ، فقد كانت في قرارة نفسها حزينة تستشعر
الحزى والعار وإن أبى بصيص من الأمل أن ينطفئ حتى لا يتركها في دياجير
اليأس المرير .
قال توفيق في سخرية قاتلة :

— « نحن شعب شريف لن نستغل الحرب التي نشأت فجأة في سيناء بين
مصر وإسرائيل لمصلحتنا » ، كان هذا بالأمس فقط . لا تزال ذبذبات التصريح
النبيل تتردد في فضاء دنيانا التي هانت ، والليللة توجه إلينا الدولة الشريفة النبيلة
أخس إنذار في التاريخ : على مصر وإسرائيل وقف العمليات الحربية وسحب
قواتهما مسافة تبلغ عشرة أميال على جانبي القناة في خلال ١٢ ساعة . ماشاء
الله . أتعرفين ما يعنى هذا الإنذار ؟ . إنه يحرض إسرائيل على أن تتقدم حتى تصل
إلى مسافة عشرة أميال من القناة . أنه يقول لها : شدى حيلك وتوغلى في
الأراضى المصرية وأنت مطمئنة فلن يلومك أحد . إن إيدن يعلم أن بين إسرائيل
وبين القناة أراضى قفراء وعرة ، وأنه ليس من المعقول أن تقطع إسرائيل هذه
الأراضى في يوم و ليلة ، ولكن إيدن رجل مخادع كذاب .
لماذا لم يطلب إيدن من إسرائيل أن تعود إلى ما وراء خطوط الهدنة ؟ لماذا

يبارك إيدن هذا الاعتداء ؟ كل تصرفاته تصرخ معلنة أنه خلف هذا العدوان .
شكا الأردن إلى مجلس الأمن من العدوان الإسرائيلي على مصر ، وقال إنه يهدد
السلام في المنطقة . واجتمع مجلس الأمن وطلب كابوت لودج مندوب أمريكي
في المجلس أن تسحب إسرائيل خلف خطوط الهدنة ، وأن تمنع عنها كل
مساعدة ؛ ولكن ذلك لم يرض إيدن ولا موليه لأنه يفوت عليهما خططهما التي
دبرت في الظلام ، فإذا بمندوب إنجلترا يعلن دون خجل فيتو ، وإذا بمندوب
فرنسا يؤيده في شل إرادة مجلس الأمن . إنها مهزلة ! فضيحة ! كنا ونحن أطفال
إذا أردنا ضرب طفل اتفقنا مع غريمه على أن يتحرش به ، حتى إذا ما انقلب
التحرش إلى قتال تظاهرننا بأننا نفصل بين المتشاجرين بينما نقوم في الواقع بتكثيف
من نكره لنيسر لغريمه ضربه في حرية واطمئنان . ترى أتكتفي إنجلترا وفرنسا
بتكثيفنا لتمكنا إسرائيل من ضربنا كما تشاء ؟ لا أظن ، فكراهية فرنسا لنا تفوق
كل حد ، فالمر الذي تتجرعه في الجزائر تعلم أننا نحن الذين نورده .. العداوة التي
بيننا وبين فرنسا سافرة لا غش فيها ولا رياء ، ولا تحجل فرنسا من أن تضع يدها
في يد إسرائيل على أعين الناس ، أما إنجلترا فلا تزال لها مصالح في المنطقة ولها فيها
أصدقاء ، فإن وضعت يدها في يد إسرائيل فستخسر كل شيء ، ترى أيعمى
الحقد إيدن ويضع يده في يد إسرائيل معرضا كل مصالح بلاده للخطر ؟

وانقشع ذهول جانيت وتلاشى الوجوم الذلي عقد لسانها ، فقالت :

— لا أظن أن عاقلا يقدم على هذه المغامرة !

فقال توفيق في حنق :

— من قال إن إيدن لا يزال متمالكا لقواه العقلية بعد كل هذا التخبط الذي

يتخبطه ؟

— وهل إيدن يسير أمر الإمبراطورية وحده ؟

— لأنه رئيس الوزراء ، وهو قادر بأكاذيبه على أن يجعل حزب المحافظين يرى

ما يراه .

— والعمال ؟

— ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ سيعترضون وسيحاولون خذلانه ، ولكنه سيسير في طريقه وينفذ كل ما في عقله المريض .
— لا يمكن أن أقتنع أبداً بأن إيدن يجروء على أن يضع يده في يد إسرائيل على الملأ .
— والإنذار الذي وجه إلينا ؟

فقال جانيت وعيناها حائرتان لا تستقران على شيء :

— ربما وجد إيدن وموليه أن حليفتهما عجزت عن أن تتقدم لتهديد القناة بعد أن شلت تحركاتها الأرضية ، وبعد أن سيطر السلاح الجوي المصرى على سماء المعركة ، فرأيا أن يوجها هذا الإنذار حتى لا تلقى مصر بكل قواتها في المعركة ، فيخف الضغط على القوات الإسرائيلية فتستمر في تقدمها حتى تصبح على بعد عشرة أميال من القناة . ستعلم إسرائيل أن هذا العدوان مبارك من إنجلترا وفرنسا ، فتبذل كل ما في طاقتها لتحقيق الآمال المعقودة عليها .
— وإن عجزت ؟

— تنضم إليها القوات الفرنسية ، وتتوغل القوتان في الصحراء حتى تدنو الحرب من القناة ، وهنا تظهر بريطانيا وتطالب بالعودة إلى القناة تنفيذاً لاتفاقية الجلاء .
فقال توفيق في غيظ :

— لا . لا . لا أظن أن مثل هذا التدبير في الحسبان ، فلو كانت هذه هي نية إنجلترا ما قدمت أبداً هذا الإنذار . هناك مؤامرة ملعونة ، مؤامرة تزكم روائحها الأنوف .
— وما هدف هذه المؤامرة ؟

فقال توفيق وهو يديق صدره بقبضته :

— القضاء علينا ، على قواتنا المعنوية والمادية ، وعلى ما أصبحنا نؤمن به ، وعلى ما صار في أيدينا من أسلحة . على القومية العربية ، وعلى جيشنا بطائراته ودباباته ومدافعه وعرباته المصفحة .

وشرد توفيق قليلاً ثم قال :

— نفرين أخرى . لما قوى أسطولنا في أيام محمد على وخرج يقرع أبواب القسطنطينية ، فزعت إنجلترا وفرنسا وروسيا ودول الغرب كلها ، لا خوفاً على

سلطان تركيا وخليفة المسلمين بل هلعا من القوة الفتية التي أصبحت خطرا يهدد نفوذ أوروبا ، فخرجت كل الأساطيل لتقضي على الأسطول المصرى فى نفازين . واليوم أصبح لنا جيش وسلاح جوى متفوق وقوى معنوية هائلة ، ولا أحسب أن الغرب يغفل عن هذه القوى . إنها تهدد مصالحها كلها فى المنطقة ، ولا بد من أن تنشأ بيننا وبين الغرب نفازين أخرى لنظل تحت رحمته وفى منطقة نفوذه .

قالت جانيت وهى تفكر فيما قال :

— لكل عصر أسلوبه .

— أساليب الحقد واحدة . أعلنت إنجلترا عندما نشبت الحرب بيننا وبين إسرائيل فى سيناء أنها لن تستغل هذه الحرب لمصلحتها ، ولكنها منذ اللحظة الأولى كانت تستغل هذه الحرب لتحقيق مصالحها ، وراح صوت بريطانيا فى قبرص يذيع الأكاذيب ويختلق المقتريات ويؤيد إسرائيل فى عدوانها ، وراحت السفارات البريطانية فى الدول العربية تبذل كل الجهود لتحرض تلك الدول على أن تترك مصر وحدها لتلقى مصيرها ، وباليتمها اقتصر على نصيح الحكومة بل شاءت إثارة الرأى العام العربى . اسمعى يا جانيت .. سيسجل التاريخ أن سياسة بريطانيا الذين يسيرون أمورهم فى هذه الأيام كانوا أغبياء . كيف دار بأخيلتهم أن منشورات هزيلة تفرق بين الشعب المصرى والشعب السورى ؟ منشورات ساذجة تقول : أيها الشعب السورى .. لا تتورط مع مصر فى مشاكلها التى خلقتها .. إن من مصلحتك أن تباشر سورية سياستها وفق مصالحها دون أن تتقيد بمصير السياسة المصرية التى قد تجلب فى أثرها أشد الأخطار . يادم ! أى عقل ضامر فكر فى مثل هذا الأسلوب من النصيح والتهديد . إنه جاهل بنفسية الشعوب .

وقالت جانيت مقاطعة :

— وجاهل بحقيقة شعور العرب نحو إسرائيل ، إنهم لم يتفقوا على شىء منذ قيام إسرائيل إلا على كراهيتها ، حتى إنهم ينسون كل خلاف بينهم إذا ما لاح فى الأفق وجه إسرائيل البغيض .

— وجاء رد الشعب السورى أسرع مما كان يظن العقل الضامر الذى فكر فى

المنشورات التي لا تبعث إلا التقزز في النفوس ، أعلنت الحكومة السورية استعدادها لخوض غمار الحرب مع مصر الشقيقة . وتأهب الفدائيون السوريون لاجتياح إسرائيل كلها عند أول إشارة .

— أرجو ألا يفلت زمام الموقف من أيدي الزعماء ، وأن يتغلب العقل على السياسة البريطانييين ، وأن يظلوا كما عرفهم العالم باردين .

فقال توفيق في مرارة :

— لقد أفلت الزمام وأعمى الحقد قلب إيدن . إن نار الحقد التي تتأجج في جوفه تكفى لتدفئة لندن ، بل بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها التي غربت عنها الشمس .

وصمت توفيق برهة ثم قال :

— إنها الحرب يا جانيت .

وقالت جانيت في حماسة :

— لا . لا زلت أعتقد أن إيدن لا يمكن أن يقدم على هذه حماقة أبدا ، لا يمكن أن يعلن الحرب على مصر في الوقت الذي تشبك فيه في حرب مع إسرائيل ، إنه لو فعل لقضى على نفسه ولقضى على مصالح بلاده .

— لقد أقدم عليها .

— أعتقد أن الإنذار الذي قدمه إلى مصر وإسرائيل . .

فقال توفيق مقاطعا :

— إلى مصر فقط ، إنه إنذار لمصر ، ولوم لإسرائيل على أنها لم تنفذ ما يبيتوه بليل ولم تتقدم لتصبح على بعد عشرة أميال من القناة ليجد المبرر للتدخل ، إنه يقول لها : اصبري وصابري واثبتي ، إنا قادمون لنجدتك لنريحك ونريح أنفسنا من السلاح الجوى المصرى الذى أثبت تفوقه وساد سماء المعركة ولما يتم طياروه تدريبيهم .

وقالت جانيت :

— الإنذار « بلفة » ، حرب أعصاب . أتهم إيدن بأنه نجح لما كان ينفذ سياسة غيره ، نجح في وزارة الخارجية عندما كان ينفذ سياسة تشرشل ، أما بعد أن أصبح رئيسا للوزارة فقد أخفق لأنه لم يعرف كيف يرسم سياسة يسوس بها

الإمبراطورية بنجاح ، فأراد أن يثبت لناقديه أنه سياسى داهية ، فراح يقلد دالاس ويتبع سياسة حافة الحرب مثله ، إنه سيدفع الأزيمة إلى حافة الحرب حتى إذا ما ملأ الهلع النفوس وتعلقت به أعين العالم لان وترك الأزيمة تمر .

— كيف وقد أغلق كل الأبواب التى يمكن أن تمر منها الأزيمة ؟ الإنذار دليل على أنه يريد الحرب ، لقد صيغ بطريقة تحمل فى طياتها الرفض ليجد مبررا لعدوانه الذى عزم عليه . من من المصريين يقبل أن تحتل القوات البريطانية والفرنسية بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، وأن تتقهقر فى الصحراء عشرة أميال ، ماذا يكون رد الإنجليز لو نشبت بينهم وبين الألمان حرب ، ثم تسلمت إنجلترا من روسيا إنذارا بسحب جميع قواتها العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة كييل ، وأن تقبل إنجلترا احتلال القوات الروسية للمواقع الرئيسية فى المدن التى تقع على قناة كييل ، وإذا لم تجب إنجلترا على روسيا فى ظرف ١٢ ساعة فستدخل روسيا بالقدر الذى تراه ضروريا لضمان إجابة مطالبها ؟

إن ما تطلبه إنجلترا من مصر بدعة فى علاقة الدول بعضها ببعض ، إنه شىء لا يقبله عقل حتى فى شريعة الغاب .

— هذا ما يؤكد أن الإنذار إن هو إلا حرب أعصاب .

— إنه إعلان الحرب التى يتوق إليها إيدن ليثبت للعالم أنه هتلر الجديد ، هتلر الذى يستطيع أن يجتاح مصر كلها فى بضع ساعات .

— أنت تبنى استنتاجاتك كلها على أن إيدن قد جن ، وأنا لأزال أعتقد أنه أعقل من أن يرتكب مثل هذا الجنون .

— كل شىء ياجانيت يؤكد أنها الحرب . القوات التى ضاقت بها قبرص ، الطائرات التى تتأهب للانقضاض علينا من مالطة ، الحرب الدائرة فى سيناء التى لم أكن أعرف حقيقة أهدافها قبل أن يوجه إلينا الإنذار ، اتضح الآن دور إسرائيل ، إنها ليست إلا مخلب القط ، إلا الجسر الذى سيعبر عليه الاستعمار ، إنها الزناد الذى أطلق أول رصاصة فى الحرب .

الشياطين الحمر .. حاملات الطائرات .. الأسطول البريطانى .. غارات

الاستكشاف .. أكان كل هذا عبثا؟ أتتفق إنجلترا كل هذه الأموال لتشن علينا حرب أعصاب .؟ إن توقيت الحرب الدائرة بيننا وبين إسرائيل والإنذار الدنيء الذى وجه إلينا يدل أكبر دلالة على أن الهدف من التحرش بنا هو القضاء علينا قضاء مبرما .. القضاء على الأفكار الثائرة قبل أن تمتد جذورها فى الأرض ويصعب اقتلاعها .

وشردت جانيت قليلا ثم قالت :

— تقصد انشغال الولايات المتحدة فى معركة انتخابات الرئاسة ؟

قال توفيق فى إنفعال :

— وانشغال روسيا فى إخماد ثورة المجر . اختار إيدن هذا الوقت لعلمه أن أيزنهاور سيكون عاجزا فيه عن أن يتخذ أى إجراء يعرقل به نزول القوات الفرنسية الإنجليزية إلى الموانئ المصرية ، إن كان حقا غير راض عن تصرفات حلفائه الإنجليز والفرنسيين .

وأطرت جانيت تفكر ثم قالت :

— لو كان أيزنهاور راضيا عن تصرفات إنجلترا وفرنسا ، ولو كان على ثقة من أن هدف الإنذار الفرنسى البريطانى تفريق المتحاربين وعودة كل منهما إلى خطوط الهدنة ، فلماذا لم يشترك معهما فى توجيه هذا الإنذار ؟ لماذا لم ينسق الحلفاء سياستهم فى هذه المنطقة الحساسة التى قد تندلع منها شرارة حرب ذرية لا تبقى ولا تذر ؟

فقال لها توفيق وهو يدنو منها ويصوب عينيه إلى عينيتها :

— أرايت ؟ كل شئ يدل على أن إنجلترا تريد الحرب ، تريد أت تعود لاحتلال بلادنا .

فقالت جانيت فى إصرار :

— لا . كل الظواهر تدل على أن هناك خلافا بين أمريكا وبين حلفائها حول ما يجب اتباعه فى هذه المنطقة . أما الحرب فإنى أستبعد أن تصبح سافرة بين مصر وإنجلترا .

— إننا سنرفض هذا الإنذار ، وبعد ساعات تتحرك القوات الإنجليزية والفرنسية لقتالنا .

— إن تحركت القوات الإنجليزية ، وإن كنت أستبعد ذلك ، فستتحرك لتبسط في سيناء لتحول بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية .
فقال توفيق في إصرار :

— ستتحرك القوات الإنجليزية لتبسط في الموانئ المصرية ، فإيدن يعتقد أن الشعب سيثور على عبد الناصر عقب نزول القوات الإنجليزية في الإسكندرية أو السويس أو الإسماعيلية أو هنا .

— لا أظن أن يبلغ الوهم بإيدن هذا الحد ، أو تبلغ به الغفلة هذا المدى . أين مخبراته ؟ لا خير فيها إن لم تقدم له صورة صادقة عن حقيقة شعور الشعب نحو قائده . — أنسيت يا جانيت أن المخبرات البريطانية أخفقت في أكثر من مناسبة ، وعجزت عن أن تنقل صورة صحيحة عما يجري في هذه الأيام في الوطن العربي ؟ من الذى أعطى للغرب عنا صورة مشوهة ؟ من الذى يتهمنا دائما بالشيوعية المقنعة ؟ من الذى أشار على إنجلترا وأمريكا بسحب تمويل مشروع السد العالى ؟ من الذى اتهمنا بأننا نحاول أن نبني إمبراطورية مصرية ؟ كنت يا جانيت حسيمة دائما عندما كنت تدرسين موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالشرق الأوسط ، وكثيرا ما كنت تضعين أصبعي على ممكن الخطر ، فما بالك لا ترين المؤامرة وقد أطلت بوجهها البغيض في وضح النهار ؟

وصمتت جانيت وإن لاحت الحيرة على وجهها ، وقال لها توفيق :

— إنك ترين يا جانيت كل شيء ولكنك تحاولين أن تخدعي نفسك ، أن تكذبي عينيك . عزيز عليك يا جانيت أن ترى بلدك يتآمر مثل هذه المؤامرة الدنيئة ويتمرغ في الدنس وأنت تنظرين .

فقال جانيت في صوت خافت :

— عيبك يا توفيق أنك لا تثق في إيدن .

— وأنت يا جانيت متى وثقت فيه ؟

فرمت ببصرها بعيدا وقالت :
— إنى لأثق فى كفايته السياسية ، ولكنى أربأ بنفسى أن أتهمه بالإجرام . فلو
قام إيدن بما يدور بخاطرك لكان أكبر مجرم فى القرن العشرين .
— إنه يريد الحرب ويعمل لها ، وقد واثته الفرصة ، أو بمعنى أصح لقد خلقها
لتحقيق ما يريد . غدا سترين .
فقالت جانيت وهى ساهمة :
— لاجاء ذلك الغد إن كان سيتمخض عن حرب بين وطنى وبلدى .
وأحس توفيق ما تقاسيه من انفعالات ، فذهب إليها وطوقها بذراعيه وضمها
إلى صدره فى حنان .

أرسلت الشمس أشعتها تكشف آثار المعركة المريرة التى دارت فى الصحراء
عند « أبو عجيلة » .. كانت بعض الدبابات الإسرائيلية صريعة ، والطائرات التى
هوت على مرأى من الطرفين تناثر حطامها وأكلت النيران هياكلها وتداعى
حديدها فبدت كعجوز تسربت بالسواد انكفأت على وجهها ، والسيارات
تعطلت وثلت حركتها فقبعت على الرمال ذليلة ، أما جثث القتلى اليهود التى كانت
تغطى أرض المعركة فقد اختفت ، سحبها اليهود لتدفن فى الأرض المغتصبة .
وراح المدافعون المصريون يلتقطون أنفاسهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، كان
أمامهم نهار طويل يستريحون فيه ويتأهبون لهجوم اليهود الليلي ، فما كانت
الجيش تتحرك بالنهار ، حتى لا تكون هدفا سهلا للمدافع والقذائف وغارات
المغيرين والطائرات التى تنقض من السماء انقضا الصواعق المحرقة .
وذهب مأمون ورأسم إلى الخطوط الخلفية مع من عادوا ليضمدا جروحهم
وليرجوا قليلا أجسامهم التى تحن إلى الأرض ، وتمدد مأمون وعلى مقربة منه تمدد
راسم ، وإذا بخدر لذيد يسرى فى الأجسام ليمسح التعب والإرهاق ، وقبل أن
تسعد النفوس بالراحة تطايرت الأخبار فعلا الوجوه وجوم ، وفاضت الصدور

بالخفق والغضب ، وانسكبت في الوجدان مرارة ، وقال قائل :
— وجهت إنجلترا وفرنسا إلينا إنذارا بإيقاف جميع العمليات الحربية في البر والبحر والجو ، وسحب جميع القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس .

والتفت مأمون إلى راسم وقال :

— هذه مؤامرة .. دناءة !

فقال راسم والدموع تطفر من مآقيه :

— هذا هو أسلوب بريطانيا ، تتظاهر دائما بصداقتنا ، وفجأة تلقى القناع عن وجهها وتسدد إلينا الطعنة القاتلة . خذلتنا في فلسطين ، وتحاول اليوم أن تخذلنا في الصحراء .

— إنها تريد أن تقضى علينا ، أن نتخلص منا .

— لماذا ؟

— قال المسئولون البريطانيون في مجلس العموم إن قوة مصر العسكرية أصبحت خطرا يهدد بريطانيا ، ونفوذ مصر السياسي أصبح خطرا يهدد نفوذ بريطانيا .
— وتريد فرنسا أن تستعيد هيبتها بعد الهزائم المتلاحقة التي منيت بها في الجزائر .
— بل تريد أن تتأثر منا ، لأنها على يقين من أننا وراء ثورة الجزائر .
— طلبوا أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية بوسعيد والإسماعيلية والسويس .

— إنهم يتحرشون بنا ، فما من مصرى واحد يقبل هذا الذل .

— استدعى الرئيس مساء أمس سفير بريطانيا في القاهرة والقائم بأعمال السفارة الفرنسية بها ، وأبلغهما رفضه للإنذار وقطع علاقتهما السياسية مع بريطانيا وفرنسا .

— طلبت إنجلترا وفرنسا الإجابة على الإنذار في خلال ١٢ ساعة .

— لقد أجبنا بالرفض .

— انتهت المهلة من ساعتين ، ترى أتنفذ إنجلترا وفرنسا تهديداتهما ؟

— منذ أمس الأول وفرنسا تشترك مع إسرائيل في هجومها علينا . أبلغ الطيارون المصريون أن طائرات فرنسية يقودها طيارون فرنسيون تشترك مع الطائرات الإسرائيلية في كل المعارك .

— وعلى الرغم من ذلك فإن سلاحنا الجوي قد سيطر على سماء المعركة .
— أبلغكم ماذا قال إيدن في مجلس العموم أمس ؟ قال إن القتال يدور على مقربة من قناة السويس ، بل لعله يدور الآن في القناة نفسها .
— وما الذى دعا إيدن إلى أن يكذب ؟

— هناك احتمالان : لعله كان يقدر أن القوات الإسرائيلية ستنتصر علينا هنا في يسر ثم تنطلق إلى الإسماعيلية ، أو لعل موقفنا وثباتنا في مواقعنا وتفوق سلاحنا الجوي هو الذى دفع إيدن إلى أن يكذب هذه الكذبة المفضوحة ، ليجد مبررا للتدخل في المعركة لينقذ إسرائيل قبل أن تتجمع قواتنا وتسدد إليها ضربة قاضية .
— الرأى عندى أنه ليس هناك إلا مبرر واحد لهذا الإنذار ، هو خشية إنجلترا وفرنسا من انهيار إسرائيل بعد أن سيطرنا على الموقف ، وبعد أن فقد عنصر المفاجأة أثره ولم يحقق الغرض منه . إن إيدن يعلم علم اليقين أن المسالك فى الصحراء وعرة ، وأن إسرائيل حتى إن انتصرت فى معركة أمس الليلية فلن تستطيع أن تصل إلى نقطة قريبة من قناة السويس فى الساعة التى أعلن فيها إنذاره متذرعاً بأن القتال أصبح يدور عند القناة ، مما يهدد سلامة الملاحة فيها .

— وهل تقف أمريكا مكتوفة اليدين إذا شنت إنجلترا وفرنسا هجوماً علينا ؟
— كل ما تفعله أمريكا هو تحذيرنا من روسيا : « افتحوا عيونكم ! روسيا تريد أن تستولى عليكم . حاذروا ! روسيا ستلتهمكم » ثم لاشئ غير التحذير ، وفى نفس الوقت تغمر إسرائيل بالأسلحة والهبات . إنها لا تستطيع أن ترى التغير الهائل الذى طرأ على عقلية المنطقة .

— شترى كل شئ فى وضوح بعد خراب مالطة .
— وجاء جندى من أقصى المعسكر يسعى ، وما أشرف على الجمع حتى قال :
— قتل قائد الحملة اليهودى فى معركة أمس الليلية .

— لعل ذلك يكون رادعا لهم .

وسرت إلى الآذان مقدمة النشرة الإخبارية ، كانت آتية من راديو في خيمة قريبة ، فهب الجميع وأسرعوا يصغون إلى نشرة الأخبار ، وراح المذيع يقرأ : — « إن القوات المصرية قد سيطرت على الموقف الذى نشأ عن العدوان الإسرائيلى المفاجئ فى خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة . وإن قناة السويس غير مهددة على الإطلاق بأى تهديد عسكرى ، وليس هناك ما يهدد سلامة السفن المارة بالقناة أو حرية الملاحة فيها . والقوات المسلحة المصرية قادرة فى كل الظروف على حماية القناة » .

والفتت مأمون إلى راسم وقال :

— هذا خير رد على ما يزعمه إيدن .

وقال راسم فى مرارة :

— هذه هى الحقيقة ، ولكن ماذا تفيد الحقيقة ومن ذا الذى يصدقها ؟ صوت بريطانيا يؤكد أن إسرائيل أصبحت على مشارف القناة ، وإسرائيل تعلن للعالم عن انتصاراتها المزعومة ، وصحافة العالم وكل وسائل الدعاية فى أيدي اليهود ، وإيدن فى إنجلترا وموليه فى فرنسا ووزراؤهما يؤيدون مزاعم إسرائيل ، ويهود أمريكا يطبلون ويزمرون للنصر العظيم الذى حققته إسرائيل .
وقال مأمون فى ضيق :

— لن يهمنى كل ما يدعون ولن يفتر عضدى كذبهم ، بل سيزيدنى إيمانا وتصميما على القتال . سأقاتل حتى آخر قطرة من دمي .
— هذا جميل ، ولكن مضى يا مأمون الزمن الذى كانت تكسب فيه المعارك فى ساحات القتال وحدها . أصبحت الدعاية أمضى أسلحة عصرنا .
وتردد فى جنبات المعسكر نداء التأهب للقتال فهرع الجنود إلى مواقعهم ،
وقال مأمون لراسم وهو يعدو إلى الخطوط الأمامية :

— أيها جموننا فى النهار ؟

— إنهم لا يريدون أن يضيعوا وقتنا ، يريدون أن يقضوا علينا ليتقدموا إلى

القناة حتى لا يخيبوا أمل حلفائهم فيهم .

وصمت راسم قليلا ثم قال وقد لوى شفته السفلى في زراية :

— كان هجوم إسرائيل الفجائي علينا يخرني ، ولكنه كان هجوما حسب حسابه . كنت على ثقة من أن اليهود لا يقدمون على مثل هذا الهجوم إلا بعد أن يحسبوا الأرباح والخسائر ، فإن اطمأنوا إلى الصفقة أقبلوا عليها . لقد وضع الآن أنهم ما أقدموا على الحرب إلا بعد أن تأمروا علينا مع إنجلترا وفرنسا بعد أن تأكدوا أن النتائج ستكون في مصلحتهم ، بعد أن ضمنوا الصفقة .

وقال مأمون وهو ينظر إلى جحافل الإسرائيليين التي راحت تتقدم في وضع النهار لتخوض غمار الجولة الثانية :

— ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وراحت الدبابات الإسرائيلية تزحف على رمال الصحراء ، والسيارات نصف الجنزير تتقدم ، والمدافع اليهودية تغطي ذلك الهجوم . عاودت القوات الإسرائيلية الهجوم لتستولى على التبة الحمراء ، وبدأت المدافع المصرية تسدد قذائفها إلى الأهداف المتحركة .

وأخذت قوة مشاة الأعداء تتقدم ، وصدرت الأوامر للجنود المصريين أن يشبوا ويترثوا وألا يطلقوا قذائفهم قبل أن تصدر إليهم الأوامر . راحت القوة المعادية تزحف ، والجنود المصريون يترقبون وقد ملكوا زمام أعصابهم ، في أيديهم أسلحتهم وبين جوانحهم قلوب آمنت بما تحارب من أجله . وأخذ مأمون يرقب دنو الأعداء وهو مبهور النفس مشدود الأعصاب ، وكان راسم يستشعر رغبة طاغية في أن ينقض عليهم وأن يفرغ كل ما معه من رصاص وقنابل يدوية في صدورهم وهو يصيح تلك الصيحات التي تشيع الرضا في صدره وتزلزل الأعداء : الله أكبر .. الله أكبر .. بيد أنه كبح جماح رغبته ووقف ينظر مفتوح العينين وأصبعه على الزناد .

وأضحى العدو على بعد خطوات منهم وهم مستلقون على بطونهم على منحدر التل يرصدون إشارة قائدهم ، وكان يتبع تقدم الأعداء في يقظة وانتباه وحذر .

وأعطى القائد إشارة الهجوم ، فإذا بهم يهبون على أقدامهم كشياطين مردة ، وإذا برصاص المدافع الرشاشة يحصد الإسرائيليين حصدا ، والقنابل اليدوية تسدد في مهارة وإحكام فترتفع صيحات الفرع في صفوف الإسرائيليين المتسللين وتتطاير الأشلاء في الهواء .

وقفز راسم في خفة الغزال ، واندفع بجحوض في صفوف الأعداء والرصاص يندفع من مدفعه مزجرا غاضبا كأنما استعار غضبه من صيحات ثورته التي كانت تدوى في جنبات الصحراء ، وأسرع مأمون يغطي تقدمه ، ولمح جنديا إسرائيليا يسدد إليه ليرديه فاستقرت رصاصات مأمون في صدره قبل أن يحقق هدفه ، فخر صريعا يخبط في دمه .

والتحم الفريقان ودارت الحرب بينهما بالسلاح الأبيض ، وكان الرعب يمزق أفئدة اليهود قبل أن تغوص فيها الأسلحة المشرعة ، كانت رؤية السونكي وهو يتألق كضوء الشمس تجعل قلوب الإسرائيليين تبلغ حناجرهم من الفرع ، وارتفعت الأنات وتهاوت الجثث ، ودار المتسللون على أعقابهم ليلوذوا بالفرار فأعملت الأسلحة البيضاء في رقابهم ، وغاصت الحناجر في ظهورهم ، ودوى المدافع يدوى كهزيم الرعد ، وقد غطيت أرض المعركة بمظلة من الرصاص ، وبضجة هائلة لم يتردد مثلها في جنباتها منذ أن طلعت عليها الشمس لأول مرة . وقضى على الهجوم الذي كان هدفه التبة الحمراء بعد أن نال التعب من الجنود

المدافعين وخلصت إليهم الجراح ، والثفت مأمون فرأى الدماء تنزف غزيرة من رأس أحد الضباط ، فهرع إليه بمسح الطين عن وجهه ويضمده له جرحه ، وفيما هو يحاكف على عمله حانت منه التفاتة فرأى ضابطا يسقى أحد جنوده الجرحى ماء ويمسح عن وجهه العرق الذي امتزج بالتراب وراح يتساقط في عينيه ، فاستشعر رضا ينتشر في صدره ويغسل النصب الذي سرى في أوصاله .

وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم بعد أن كسروا موجة من موجات القوات التي كانت تفوقهم عددا وعتادا ، ولكن قبل أن ينعموا بقليل من الراحة لاحت في الأفق الطائرات المغيرة ، فانبطحوا على وجوههم وراحوا يزحفون لبيتعدوا

عن الأرض المكشوفة ويختفوا خلف الصخور وفي الجحور ، وليصوبوا أسلحتهم إلى السماء .

وامتلاً الجوّ بالقذائف فاضطرت الطائرات إلى الارتفاع ، ثم ألقت قنابلها في المعسكر ولكن إصاباتهما لم تكن مباشرة ، وانقضت طائرة لتسكت المدافع التي تزعجهم إلا أنها أصيبت إصابة مباشرة في أثناء انقضاضها ، فراحت تهوى كشعلة ملتهبة ، ثم ارتطمت بالأرض وتوهجت وارتفعت ألسنة النيران بكأنياب الكلاب . وضج معسكر المصريين بالتهليل ، وسرعان ما تهاوت طائرة أخرى فقوى ذلك من عزائم الذين يدافعون عن أرضهم وشرفهم وأعراضهم ، وغازب اليهود أن صمدت قوة لا تكاد تبلغ ربع قوتهم في وجه طائراتهم ومدافعهم ودباباتهم ومصفحاتهم فألقوا في المعركة بكل ما لديهم . الجنود والعدد والعتاد ليقضوا على قوات « أبو عجيله » التي سفهت أحلامهم وقوضت كل ما أذاعوه من مزاعم كاذبة .

زعموا في الساعة التاسعة من مساء يوم الاثنين أن قواتهم على مقربة من القناة ، والساعة الآن الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ولا تزال قواتهم مغروسة في أماكنها أمام « أبو عجيله » ، عاجزة عن أن تتقدم لتقتحم عرين الأسود . لقد طلب منهم إيدن أن ينسحبوا إلى مسافة عشرة أميال من القناة ، فأين هم الآن من القناة؟! أراد إيدن أن يحفظ لهم ماء وجوههم بخديعة العالم وإيهامه أنهم حقا على مشارف القناة ، وسيعلم العالم كله مهما طال الزمن أن إيدن كذاب ، وأنه كتب في سجل التاريخ مع الكذابين .

وتقدمت الدبابات والسيارات المصفحة في حماية الطائرات ، واستهان المدافعون بالخطر المحلق فوق رؤوسهم ، وأخذوا يصوبون إلى الدبابات نيران مدافعهم في إحكام ، فتعطلت الدبابات وانقلبت المصفحات وخرت سيارات نصف الجنزير صريعة ، وخرج الجنود من محابثهم ليخوضوا غمار المعركة الرهيبة القاسية ، التي أراد العدو أن تكون فاصلة وصمم المدافعون أن تكون مقبرة للأفواكين الأفاقين الذين اعتمدوا في عدوانهم على المؤامرة التي نسجت

بخيوط الدناءة في الظلام .

وحى القتال واضطربت ناره واشتدت ضراوته ، وسال العرق والدماء ،
وزابت القوى ومشى التعب في الأجسام ؛ ولكن العزائم ظلت صلبة لا تلين .
ومالت الشمس للمغيب والمدافعون البواسل ثابتون في أماكنهم ، كلما حاول
العدو أن يفتح ثغرة في صفوفهم أو يذق إسقينا ينتشر منه كما تنتشر المروحة ،
أطبّقوا عليه وأزالوه وأرغموه على أن يتقهقر إلى مواضعه .
وأوشك النهار على الزوال ، وإيمان ثابت قوى يصارع وهما كبيرا وصل إلى
الآذان ولم ينفذ إلى سويداء القلوب ؛ فقد زعم لليهود المقاتلين أنهم يسرون في
أعقاب موسى عليه السلام .

كان المصريون يدافعون عن كل مقدس لديهم ، وكانوا يحاولون أن يردوا
الغارقين في الإثم على أعقابهم حتى لا يندسوا بأقدامهم النجسة الوادى المقدس .
وأحس مأمون التعب يسرى في كيانه ، ورغبة جامحة في أن ينهار ويرتمى على
الأرض ويملاً رئيته من الهواء ، بيد أنه كان في قرارة نفسه على ثقة من أنه إن غفل
أو نامت عين يقظته فسيقضى عليه العدو ، فراح يجالذ ويلوذ بإرادته فيشد
جسمه ويسدد إلى الأعداء القنابل والرصاص .

ودوى في أذنه صوت يقرأ : « إن يمسنكم قرح فقد مس القوم قرح
مثله » . فتلفت فلم يجد أحدا على مقربة منه ، وعجب من أين جاء ذلك
الصوت ، وخيل إليه أنه صوت الشيخ حسن ، ولكن أين هو من الشيخ
حسن ؟ ولكن من أين جاء ذلك الصوت ؟ لعله جاء من أعماقه .
وراح يطلق قذائفه وهو يهذى :

— شيخ حسن ! أين أنت ؟ . كيف حال عبود ؟ كيف حال إنصاف ؟ ليتها
كانت هنا تعرض جرحانا . بهية .. بهية .. يا أختي العزيزة كيف أنت ؟ . بهنس
بهنس .. تعال .. تعال اقبض على هؤلاء الأوغاد .. اقبض على هؤلاء
اللصوص .. اللصوص .. اللصوص .

واندفع في ثورته إلى الأمام واندفع رفاقؤه معه ، وأطلقت المدافع المصرية

تحصد الأرواح وتصيب كل ما تسدد إليه قذائفها، واشتدت وطأة الهجوم المصرى فلم تجرد القوات الإسرائيلية بدا من أن تتقهقر لتعود إلى حيث كانت ، فراحت تنسحب وقت أن كان قرص الشمس الملتهب يغوص فى رمال الأفق الغربى .
وارتمى مأمون على الأرض وهو يلهث ، وانهار الرجال من التعب فماذا قوا
طعم الراحة ولا غادر رجل منهم موقعه منذ أن نشبت الموقعة طوال ليلة أمس
ونهار اليوم ، ترى أيتركهم العدو ينعمون بالراحة ؟ هيهات ! إنه ينظم صفوفه
ليكر عليهم ويخوض الجولة الثالثة فى الليل لعله يحقق ما أحقق فى تحقيقه منذ أن
نشبت معركة « أبو عجيله » الرهيبة القاسية .

لم ينقض على غياب الشمس أكثر من ساعتين إلا أن سكونا عميقاً خيم على
بور فؤاد ، ولولا أضواء المصابيح الخافتة ووسوسة أوراق الشجر التى انبعثت من
مداعبة هواء الليل البارد لأحس السارى فى شوارع المدينة وحشة ، ولانتشرت
بين جنباته رهبة ، فقد كان الهدوء يوحى بأن المدينة لفظت أنفاس الحياة .
وانسابت فى الطرقات الهاجعة سيارة توفيق وكانت منطلقة إلى العوامة التى
ستحملها إلى بور سعيد . كان توفيق خلف عجلة القيادة وإلى جواره عبود وقد
شرد يفكر فنبت بين جوانحه قلق . إنه غادر بهية فى الصباح وهى تحس آلام
الوضع ، وكان يرجو أن ينطلق إليها بعد انتهاء ساعات العمل ، إلا أن توفيق
طلب منه أن ينتظر معه بعد انصراف العمال والموظفين ليقوما بإصلاح طاحونة
تعطلت فى أثناء النهار .

وهم أكثر من مرة أن يعتذر لتوفيق وأن يقول له إن زوجته تضع وهى وحدها
فى البيت ، بيد أن حياءه منعه من أن يفتح رئيسه فى مثل هذا الأمر ، وعلل
النفس بأن إصلاح الطاحونة قد لا يستغرق وقتاً طويلاً ، ولكن الساعات مرت
وهو غارق فى عمله ، ولما رفع رأسه ليلتقط أنفاسه بعد إصلاح الخلل ألقى الكون
كله غارقاً فى الظلام .

وربا قلقه وراحت الهواجس تهجس في صدره ، وأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، واحتلت رأسه صورة بهية وقد أمسكت وسطها بيدها وراحت تتلوى من الألم وتناؤه وتذرف الدمع ، فأخذ يخاطب خيالها والأسى يعتمر قلبه : « صبرا يا بهية . أنا قادم . آسف يا حبيبتى إن كنت تركتك وحدك ، تأخرت عنك رغم أنفى ، إنها لقمة العيش » .

ودوت فجأة صفارة الإنذار ، وسرعان ما أطفئت الأنوار فانخلع قلب عبود ، وشعر توفيق بالرهبة إلا أنه لم يستسلم للخوفه ، وراح يجاهد ليشق طريقه في الظلام ، وقال عبود في فزع :

— ما هذا ؟

وقال توفيق دون تفكير :

— غارة .

— ستهاجمنا الطائرات الإسرائيلية ؟

— لأظن .

وقال عبود في قلق :

— بهية ! بهية وحدها . ستموت من الخوف .

— بعد دقائق سنصل إلى العوامة .

وراح عبود يتطلع إلى السماء ، كانت الأنوار الكاشفة تمسح السماء بحثا عن الطائرات المغيرة ، وتقاطع نور كشافين فوق رأسه ، وثبت التقاطع مدة فأحس قلبه يقفز إلى حنجرتة وراح يتمم دون وعى :

« بهية ! بهية ! بهية ! يارب ! يارب ! يارب ! يارب ! ألهما الصبر » .

واتخذت السيارة طريقها إلى العوامة ، وما لبثت العوامة أن سارت بهم على ضوء الكشافات قاصدة بور سعيد . وحبست الأنفاس وزاغت الأبصار ، ومزق السكون القلق أصوات انفجارات ، وترنخت العوامة ، فذهبت النفوس شعاعا ، ونسى عبود كل شيء إلا نفسه ، إن هي إلا قبلة واحدة ثم يتطاير في الجو أشلاء . وأصاخ توفيق سمعه فسرى إلى أذنيه صوت فحيح كفحيح الأفاعى . فقال

— قاذفات قنابل نفائة . إنها قاذفات إنجليزية .

وامتزج دوى القنابل بأصوات قذائف المدافع التي كانت تحاول اصطياذ الطائرات المغيرة ، فجرى كل من في العوامة يختفون في جوفها ويبحثون عن عاصم يعصمهم من الموت الذى يخلق فوق رؤوسهم ، فراحوا يتدافعون بالمناكب في رعب ، وكان يزيد في خوفهم أضواء القنابل التي كانت تنوهج في السماء قبل سماع دويها ، وقد صور لهم الوهم أنهم الهدف الوحيد لأنفواج الطائرات المغيرة .

ومالت العوامة على جنبها فارتفعت أصوات الهلع والفرع ، وراح أحد رجال العوامة يلتمس منهم ألا يتجمعوا في ناحية واحدة ولكنهم صموا أذانهم عن نصحه ، كان التصاق بعض ببعض يوحى إليهم بشيء من الطمأنينة على الرغم من قشعريرة الخوف التي كانت ترج كل الأجسام . وقال قائل :

— لأنهم يضربون بطارية مبنى هيئة القناة .

وقال آخر :

— لو طاشت قبيلة هلكننا .

— إنهم يضربون استحكامات المدينة ، يضربون الطوابى على رصيف

دليسبس ورصيف حجر سعيد ، يضربون الرسوة وبور فؤاد .

وغمغم عبود في وجوم :

— بور فؤاد !

ورفع رأسه ونظر فلم ير القذائف التي كانت تنفجر ككرات من اللهب في السماء ، بل رأى بعين خياله سهوله البيض الحبيبة وقد جرت فيها أنهار من الدماء ، وفاضت حتى غمرت أحواض الملح كلها .

وأخفى عبود وجهه براحتيه وأحس رغبة في أن يجھش بالبكاء ، بيد أنه كبج جماح عواطفه فوقفت في حلقة وقدة نار .

ورأى على مدى البصر السنة اللهب ، وصاح صائح :

— إنهم يقذفون مطار الجميل .

(م ٢٢ — السهول البيض)

« مطار الجميل ! إذا طاشت قذيفة فستحرق الحى العربى كله ، لماذا لا تكون هذه الحرائق فى الحى العربى ؟ لماذا لا تكون فى بيتى ؟ ما أدرانى أن السنة النيران لا تتراقص الآن حول بهية ! » .

وخيل إليه أنه يشم رائحة لحم آدمى يشوى فامتعض وراح يمرر يده على وجهه فى قلق ، ولم يحتمل وطأة المشاعر التى ضاقت بها صدره فراح يصيح فى فرع وهو يطوح رأسه فى انفعال ويسبل عينيه حتى لا يرى ما فى خياله :
— لا . لا . لا .

ووصلت العوامة إلى شاطئ بور سعيد فأخذ من فيها ينسلون منها وهو يترقبون ، وركب توفيق سيارته وركب إلى جواره عبود وراح يمخر عباب الظلام ، وانطلق إلى بيته والانفجارات تدوى وفحيح الطائرات ينذر بالخطر والدمار . ووقفت السيارة أمام البيت وقفز منها توفيق وهو يقول :
— هيا يا عبود . أسرع .

وخرج عبود من السيارة وهو مذهول وسار خلف توفيق ، وانطلقا فى الظلام حتى إذا ما وصلا إلى حيث كانت جانبى ألفياها تغدو وتروح وهى نائرة غاضبة ، وما إن أحست بهما حتى أخذت تصيح :
— جن إيدن . جن إيدن . لا بد من أن تقف هذه المهزلة . إنه يلعب بالنار . يلعب بالنار .

واندفعت إلى الباب وتطلعت إلى السماء وراحت تصيح :
— مجانين . مجانين .. لا بد أن يقف هذا العدوان . لا بد أن يقف هذا العدوان . وخف إليها توفيق وراح يجذبها ليدخلها حتى لا تصيها شظية من الشظايا التى تتناثر وهو يقول :

— جانبى . ادخلى أرجوك .

وصاحت جانبى فى يأس :

— ضاعت إنجلترا . ضاعت إنجلترا .

ووقف عبود ينظر فى بلاهة ، لم يكن يتصور كيف تضع إنجلترا وطائراتها فى

السماء تلقي قنابلها حيث تشاء . وأفاق من ذهوله فلام نفسه على وقوفه هنا بينما
بهية وحدها تقاسى ألم الوضع والوحدة والظلام فاتخذ طريقه نحو الباب ، ولحمة
توفيق وهو ينصرف فقال له :

— إلى أين ؟

— إلى البيت . بهية وحدها .

— انتظر حتى تنتهى هذه العارة .

فقال وهو يخرج :

— لا . بهية وحدها . إنها فى حاجة إلىّ ، كيف طاو عنى قلبى أن أبقي هنا ؟!

وخرج إلى الطريق وقد امتزج دوى المدافع بانفجارات القنابل بدقات قلبه ،

وراح وهج القذائف ينير الظلام ، فأخذ يعدو فى انفعال وهو يصيح :

— بهية .

وانطلق كالسهم المحموم حتى إذا ما بلغ شارع الأمين غمره خوف شديد ،

وأحس أن دوى انفجالاته يفوق دوى المتفجرات التى كانت تدك المدينة دكادكا .

وصعد فى الدرج وهو لا يسمع إلا طنين أذنيه ، وفتح الباب ثم اندفع

كالعاصفة وهو يصيح فى لطفة :

— بهية ! بهية !

فجاءه صوت خافت تخنقه العبرات ويلونه الفرع يناديه :

— عبود .

واندفع صوب الصوت وراح يتحسس فى الظلام حتى لمستها يدها فضمها

إليه وهو يقول :

— بهية ! حبيبتى .

فقالت وهى تبكى فى حرقة :

— لماذا تركتنى وحدى ؟ لماذا تأخرت ؟

— جئت يا بهية .

— بعد أن كدت أموت وحدى . لماذا غبت عنى ؟ لماذا ؟

فقال ودموعه تبلبل عينيه :

— إذا كنت غبت عنك ساعات فقد عدت إليك . ما أكثر اللاقى ينتظرن
وחדهن عودة رجاهن الأيام الكثيرة والليالي الطوال . الحياة قاسية يا بهية ، ونحن
بغائنا نزيد في قسوتها . ماذا سيكسب الطيارون الذين يلقون علينا الآن قنابلهم
إذا قتلونا ؟ لن يكسبوا إلا العار . ماذا فعلنا لهم حتى يقتلونا ؟

وتأوهت بهية وقالت وهى تبكى :

— وسطى .

— بماذا تحسين ؟

— أحس كأن أحدا يدق ظهري دقا .

فقال وهو يتحرك :

— سأذهب لأستدعى من يعاونك في أثناء ولادتك .

وألقيت قذيفة هزت الحى كله ، فتشبثت بهية به وهى تقول :

— لا . لا تتركنى وحدى .. عيود لا تتركنى وحدى .

واضطر إلى أن يمكث إلى جوارها ، ومرت لحظات ثم عادت تتأوه وتصرخ
وتضغط على يده بيدها فى قوة ، ثم قالت :

— وسطى . وسطى يا عيود .

— أنت تلدين .

ثم بكى وهى تقول :

— كيف سألد ؟ كيف سألد ؟ لأدرى كيف سألد .

— سأذهب لأستدعى فتحية لتمكث معك حتى أحضر الطبيب .

— لا . لا .

وتخلص منها فى رفق وراح يسير صوب الباب وهى تصيح فى رعب :

— عيود ! عيود ! لا تتركنى وحدى .

واستمر فى سيره وإن كان قلبه يرفرف فى رقة ، وقالت بهية :

— لم أكن أريد أولادا يا عيود . أنت الذى كنت تشتبههم .. يا ظهري ..

آه .. آه ..

وأغلق عبود الباب خلفه والأسى يعتصر فؤاده ، وهرع إلى بيت الشيخ حسن وقرع الباب ، فسمع صوت فتحية تقول :
— من ؟

— أنا عبود . الشيخ حسن موجود ؟

— لا . خرج بعد زمارة الإنذار .

— بهية تلد ولا أحد معها .

— سأذهب إليها حالا .

— أنا ذاهب لأحضر من يولدها .

ودار على عقبيه وانساب في الطريق وهو يفكر فيمن يلجأ إليه في هذه الساعة ، وإذا برجليه تحملانه إلى المستشفى الأميري ، كان المستشفى يوج بالحركة ، وسيارات الإسعاف تحمل إليه المصابين ، ولمح صديق الفرارجي يحمل طرف نقالة وخطر له أن يهرع إليه ويقول له بهية تلد ونحن في حاجة لمن يولدها ، إلا أنه أعرض عن ذلك الخاطر ، فماذا يستطيع أن يفعل لها صديق .
— واندفع إلى المستشفى وهو يتلفت ، ورأى على الضوء الخافت إنصاف تسير في الممر الطويل ، فأسرع إليها وهو ينادى :
— إنصاف . إنصاف .

فالتفتت إليه وما أن رآته حتى قالت في لهفة :

— عبود ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

صور لها وهما أن عبود ما جاء إلا لأن مكروها أصاب أمها ، فتعلقت عيناها بشفتيه ، قال :

— بهية تلد ولا أحد معها .

— انتظر . سأذهب معك .

وغابت بضع دقائق وهو يتململ ويترقب ، ثم عادت تحمل حقيبة وقالت :
— هيا .

وراحت توسع خطوها وهو يسير إلى جوارها ، وتذكر يوم أن كان يسير إلى جوار مأمون وقابلاها فقال مأمون : لو فكرت في الزواج يوما لتزوجت إنصاف ، وقال هو : لو كنت أموت من العطش في الصحراء وجاءتني إنصاف بكوب ماء ما تناولته من يدها ؟ وراح يتساءل : لماذا يتسرع الإنسان في حكمه على الناس ؟ لماذا يقدم الشر على الخير ؟ لماذا يتلذذ بأن يحط من شأن الآخرين وأن يمرغهم في الطين ؟

لم ير من إنصاف ما يشين ، كل ما بدر منها أنها تحب المزاح ، فلماذا لم يكن يتصورها إلا بغيا تبيع جسدها للرجال ؟

وعلى الرغم من الظلام الثقيل الذي كان يكتم أنفاس المدينة رأى بعين خياله في وضوح شقة إنصاف التي ينتشر البؤس في جنباتها وأمها الضريرة وقد تمددت على الأرض واهنة نحيلة كأنها هيكل عظمي شد عليه جلد أصفر لا تجرى من تحته دماء . وأحس تعاطفا معها ، ولو طواع نفسه للذراع حو لها وضمها إليه ليعبر لها عن حقيقة مشاعره نحوها ، وسقطت قبلة في مكان قريب فأحدثت دويا هائلا واهتزت المباني ، وقفزت إنصاف في فزع والتصقت بعبود وتطلعا في خوف إلى السماء ، وقال عبود في ضيق :

— طالت هذه الغارة الملعونة ، طائرات تذهب وطائرات تجيء .

أأنت خائفة يا إنصاف ؟

— تملكني خوف شديد لما سمعت صفارة الإنذار ، وكدت أموت من الرعب عندما دوى في أذني صوت القذائف الأولى ، أما بعد أن كثرت الانفجارات فلا أدري أألفت صوتها أم تبلدت حواسي .

— ولماذا فرغت من القنبلة الأخيرة ؟

— خيل إلي أنها تسقط فوق رأسي .

وبلغا دكان فانوس فألفياه قد أغلق وانقطعت عنه الرجل . ومدت إنصاف بصرها إلى بيتها فأحست رغبة في أن تنطلق إلى أمها لتطمئن عليها وتسكن روعها ، ترى ماذا تفعل الآن ؟ أما تزال تتنفس أم قضى عليها خوفها ؟ بيد أنها

راحت تقاوم هذه الرغبة الملحة ، وعرجت على بيت عبود وصعدت تتحسس طريقها في الظلام .

واستقبلتها فتحية وهى تقول :

— إنها تلد ، الطلق يتتابع الآن فى سرعة . أسرعى يا إنصاف . أسرعى .
وندت صرخة من بهية تمزق لها قلب عبود ، وراح يغدو ويروح وهو قلق ،
وزاد فى ضيقه الظلام الذى ساد المدينة وفحيح الطائرات الذى يمزق الأعصاب
وهزيم القذائف الذى يخلع قلبه .

ومر الوقت وتبيدا ثقيلًا ، ثم فتحت إنصاف الباب وقالت :

— عبود . أريد ماء ساخنًا .

وذهب عبود إلى وابور الجاز ودون أن يفكر أشعل عود ثقاب ، وإذا
بأصوات نائرة ترتفع فى كل مكان .
— أطفىء النور . أطفىء النور . أطفىء النور .

وأطفأ عبود عود الثقاب فى خوف وراح يفكر ماذا يفعل ليشعل عود الثقاب
دون أن يتسلل نوره إلى الخارج ، فراح يغلق النوافذ فى حنق ويسدل عليها
الملاءات وكل ما يصل إلى يديه من الثياب ، ثم عاد يشعل عود الثقاب فى حرص
وعلى الرغم من كل ما اتخذته من احتياطات ارتفعت أصوات الفزع تأمره أن
يطفىء النور .

ووقف ينظر إلى وعاء النار الذى وضع فوق وابور الجاز وهو يفكر فى عود
الثقاب الذى أفرغ الجيران ، فلطالما أشعل آلاف العيدان دون أن يحس به أحد ،
وقبل أن يسترسل فى تفكيره صرخت بهية صرخات جعلته يطرق فى أسى وقد
فاضت نفسه بالشفقة وكادت تذوب من الرقة .

وتتابعت القذائف واهتزت المنازل وارتفعت أصوات الفزع والمهلح من بيوت
الجيران ، وضاعت تأوهات بهية فى ضجيج الرهبة الذى طغى على كل صوت
حتى كاد يخفى أصوات الانفجارات ، وجاءت فتحية وقالت :

— ناولنى الماء الساخن .

وقال عبود في لهفة :

— كيف حال بهية ؟

فقالت فتحية في رقة :

— جاءت لك بولد .

وانشرح صدره ، ولكن لم يدم فرحه طويلا فقد أضاءت الحى ألسنة النيران
التي كانت تتراقص قريبا من نافذته فذهب ينظر ، وقبل أن يصل إلى النافذة فتح
باب غرفة بهية ، وخرجت إنصاف تهرول وتصرخ :

— أمى ! أمى ! .. أمى !

ونظر عبود فإذا بالنيران قد اندلعت في بيت إنصاف ، فتنازعته رغبتان :
رغبة في أن يذهب إلى بهية وإلى ابنه الوليد ، ورغبة أن ينطلق في إثر إنصاف ،
ووقف برهة ثم راح يعدو إلى الطريق واندفع إلى حيث كانت النار تتأجج ، فألقى
الناس يحاولون أن يحولوا بين إنصاف وبين اقتحام النيران ، بيد أن إنصاف أفلتت
منهم واندفعت وهي تصرخ :

— أمى .. أمى .. أمى ..

ومرق عبود خلفها كالسهم وهو يخفى وجهه بذراعيه خشية أن تحرقه النار ،
وراح ينادى :

— إنصاف .. إنصاف :

واستمر في تقدمه حتى بلغ غرفة الأم ، فوجد إنصاف تحاول أن تحمل أمها
وحدها — لتنقذها من النيران التي تتراقص حولها ، فهرع إليها ولف الأم في
فراشها جيدا ، ثم حملها هو وإنصاف وسارا بها وألسنة النيران تلسع وجوههما
وأيديهما وهما يتأوهان في صمت ويهرولان ليفرا من الموت الذى يخلق فوقهما
ويحوم حولهما .

وسمعا قرقرة أخشاب وانبيار جدران ، وزاد اندلاع اللهب ، فأرهفت
المشاعر وزاغت القلوب والأبصار ، وكادت إنصاف أن تنهار بيد أنها لاذت
بعزميتها فلم يبق بينها وبين مغادرة الدار إلا بضع درجات .

ولم يعد عبود يحتمل لسع النار ، وبلغ به الجهد منتهاه فكاد يفقد وعيه وينوء بحمله ، إلا أن رجلا اقتحم النار وبين يديه ملاءة مبللة بالماء لفها حوله فأحس كأن روحه ردت إليه ، وراح الرجل يعاونهما على الخروج ، وعلى ضوء اللهب رأى عبود الرجل فهتف في راحة :
— فانوس !؟ شكرا لك .

وخرجوا إلى الطريق فخف الناس إليهم يتلقفون أم إنصاف منهم ، وانهار عبود يلتقط أنفاسه ، وأسرع صديق يعالج الحروق التي أصابت إنصاف ، وقبل أن يفيق الناس من هول ما هم فيه انفجرت قذيفة زلزلت الحى العرنى كله .

كان الفجر لم يولد بعد وقوات إسرائيل تضغط على قوات « أبو عجيله » في قسوة وضراوة لتشق لها طريقا بين صفوفها المتماسكة قبل أن تشرق شمس يوم الخميس ، فقد انقضت ليلة رهيبة بعد أن قذفت الطائرات الإنجليزية الموانى المصرية والمطارات والمدن بقنابلها الغادرة وقوات « أبو عجيله » تستमित في دفاعها ، لم يفث في عضدها أنباء العدوان البريطاني الفرنسى .

وشعرت القوات الإسرائيلية بالعار الذى لحقها ، فجاء موسى ديان قائد الجيش الإسرائيلى ينظم صفوفه ويحمس قواته ويلقى بهم في أتون المعركة ، لعله يحقق نصرا يطنطن به بعد أن خرست أصوات الدعاية الإسرائيلىة يومين كاملين ، فالمعارك الدائرة في الصحراء لم تحقق شيئا من الزعم الذى زعموه في أول بلاغ حرنى أذاعوه في الساعة التاسعة من يوم الاثنين ٢١ أكتوبر ، ادعوا في ذلك البلاغ أن قواتهم على مشارف قناة السويس بينما قواتهم الرئيسية في فجر يوم الخميس لا تزال في أماكنها أمام « أبو عجيله » .

وراح وعاظ اليهود يحدثون يهود روسيا وبولندا ، ويهود إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، ويهود العراق واليمن ، ويهود الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، ويهود البلاد العربية ، عن موسى وعن تلك الأيام التى خرج فيها من مصر إلى سيناء

المقدسة ويذكرون لهم أنهم سيطأون بأقدامهم الأراضي التي وطأها بأقدامه الشريفة نبهم ، ليثيروا حماسهم وليبثوا فيهم قوة روحية تشد أزر القوى المادية التي عجزت عن أن تحقق أمانى السياسة المتأمرين المختفين في مخائى تل أبيب هربا من قصف الطائرات المصرية ، التي كانت تجتاح إسرائيل طوال الليل والنهار معلنة سيطرتها على سماء المعركة على الرغم من اشتراك القوات الجوية الفرنسية مع القوات الجوية الإسرائيلية في الدفاع عن الدولة القميئة التي تزهر بعضلات حلفائها .

وأثارت المواظ حماسه المهاجمين فراحوا يشددون الضغط على القوات المصرية التي لم تذق طعم الراحة منذ أن نشب القتال في هذه المنطقة ، واندفعت المدرعات في إصرار وعناد لتتضع حدا للمعركة ، فانبرت لها المدفعية المصرية تصليها نارا حامية ، وتقدمت سرايا المشاة تهاجم المدرعات في بسالة ، وسقط القتلى على جانبي الدبابات ، وتفجرت الدماء من الجراح ، وارطم الحديد بعزائم من حديد ، وراح مأمون يلقي قذائفه على قوات العدو المتقدمة وقد ذهل عن كل شيء إلا عن المعركة التي أراد العدو أن تكون فاصلة .

وبدأ مولد الشمس في الأفق الشرقى ، وبدا أن العدو نجح في أن يفتح ثغرة في سرايا المشاة بعد أن استشهد كثير من الجنود دفاعا عن مواقعهم ، فاتجهت القوات المصرية لسد تلك الثغرة ، فمكن ذلك الأعداء من أن يفتحوا ثغرة ثانية ، فخف المدافعون لسد تلك الثغرة ورد المعتدين على أعقابهم ، واشتد أوار القتال وراحت جميع المدافع والبنادق تهدر وتزجر ، وبلغت المعركة أوجها ، وما أشرقت الشمس حتى كان العدو قد فتح ثلاث ثغرات في سرايا المشاة الأمامية . ونفذت الشحنة الروحية التي بثها وعاظ اليهود في صدور المهاجمين ، وأحس الجنود المصريون الخطر المحدق بشرفهم من جراء الثغرات الثلاث التي فتحت في صفوفهم ، فشنت الفصائل الاحتياطية للسرايا هجوما مضادا ، وراحت تلقي قبيلها اليدوية في مهارة ودقة وتندفع وقد شهرت أسلحتها البيضاء لتلتحم مع القوات التي تسللت في صفوفهم في قتال مرير .

ودارت مبارزات وراح « السونكى » يغوض فى الصدور ، فانخلعت قلوب اليهود من الرعب ، وزاد فى فزعهم صيحات التكبير التى زلزلت أرض المعركة زلزالا شديدا .

وانقضت نصف ساعة وأصوات القنابل اليدوية الرهيبية تقذف الرعب فى نفوس اليهود الذين تسللوا إلى الثغرات الثلاث ، وضحايا السلاح الأبيض يتهاونون على الأرض كأوراق الخريف ، والدبابات الشيرمان تتعطل ، والعربات المصفحة تغوص فى الرمال وتشل حركتها .

وراح اليهود يتقهقرون والمقاتلون المصريون فى أثرهم يطبقون عليهم ، طردوهم من الثغرات التى فتحوها وأخذوا يتبعونهم إلى مواقع تجمعهم ليقتلعوهم من الأرض التى شنوا منها هجومهم .

وجاءت الطائرات المعادية ، وراح رجال المدافع المضادة للطائرات يسددون إليها قذائفهم ، لقد ظلوا فى أماكنهم أربعة أيام كاملة ساهرين يرعون السماء ، ويقفون للطائرات المغيرة بالمرصاد ليشتتوها حتى لا يتحكم طياروها فى قنابلهم وصواريخهم .

وراحت الطائرات الإسرائيلية والفرنسية والإنجليزية تضرب الدبابات والعربات الإسرائيلية التى تركت فى أرض المعركة حتى لا تقع فى أيدي قوات « أبو عجيله » .

وانتهت طائرات الأعداء من تأدية هذه المهمة فاتجهت إلى قوات « أبو عجيله » وراحت تهجم عليها هجمات حائقة . كانت تنقض على المدافع المصوبة إليها لتسكتها وتضرب الرجال بالصواريخ . وراحت الطائرات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية تحوم فى السماء هادرة مزججة وقذائفها تلقى بغير حساب على المدافعين الذين أقسموا على ألا يزولوا من أماكنهم .

وركزت طائرات الأعداء الضرب تركيزا شديدا ، فصارت أرض المعركة أتون نار ، انفجارات على الأرض فى كل مكان ومن كل اتجاه ، وانفجارات فى السماء ، وطائرات تهوى ، ودبابات تعطل ، ورجال من هنا ورجال من هناك

يسقطون صرعى العدوان ، والدماء تسيل أنهارا ، وأشلاء الرجال تتطاير في الهواء كأنها ذرات رمال أو نقع أثارته القذائف الآثمة .

وراح راسم يصول ويجول مع إخوانه الذين استماتوا في الدفاع ، على الرغم من العرق المتصبب وعذاب التعب والإرهاق والموت الذي يلقي حممه عليهم من المغيرات صباحا وضحا وظهرا وعصرا ومساء ، وأخذ يمشى مشى الوعول ويصوب رصاص مدفعه إلى الطائرات المنقضة وهو يصيح في ثورة وعصبية وغضب :

— لعنة الله عليكم يا أوغاد ! خبيكم الله .

ويلتفت إلى من حوله ويصيح :

— اثبتوا يا رجال . هذا يوم له ما بعده . هبى يا رياح الجنة .. هبى يا رياح الجنة .

واختفى مأمون خلف ساتر وطفق يسدد طلقاته ودمه الحار يسيل من جرح في وجهه وهو لا يكاد يحس به ، وراحت القذائف تتفجر حوله وهو ثابت القدم والجنان ، وعلى الرغم من الدوى الهائل الذي كان يهدر هديرا متواصلا في أرض المعركة فقد مس أذنيه أين خافت وصوت واهن يردد :

— أشرب ! أشرب ! أشرب !

والتفت مأمون خلفه فرأى أحد رفاقه ممددا على الأرض وقد اختلط عرقه بدمه بالتراب ، وجحظت عيناه وتدلى لسانه من العطش وكان يلهث من الجهد ، فهرع مأمون إليه في العراء دون أن يحفل بقذائف الأعداء التي تسقط من السماء ، ومال عليه وأخذ يمسح الوحل عن وجهه ثم رفع رأسه بذراعه وراح يسقيه .

وزفر الشاب في راحة ثم قال :

— عندما تعود يا مأمون اذهب إلى شبرا تنا و قابل زينب ابنة عمى و قل لها : بدوى

آسف لأنه لم يعد ، كان أمله أن يسعدك ، ولكن اليهود قتلوه وهو يحلم بليلة زفافه .

وصمت قليلا ثم قال :

— قل لها إني كنت رجلا . ألم أكن رجلا يا مأمون ؟

فقال له مأمون وهو يحاول أن يحمله لبيعه عن القنابل والقذائف والرصاص

المتطاير من كل مكان وفي كل مكان :

— كنت رجلا حقا .

وحمله مأمون وهو مثبت بمدفعه وسار به إلى الخطوط الخلفية، وقال بدوى :
— وقل لها : بدوى مات ومدفعه في يده . لم يلقه ولم يتخل لليهود عن شبر من
الأرض .

— إننا لنحارب اليهود وخدمهم يا بدوى . إننا نحارب إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .
— قل لها : بدوى مات رجلا .

— أنت بخير يا بدوى . وستعود إليها وستقص عليها كل شيء، وسيكون لكما
أولاد تروى لهم ذكريات بطولاتك .

فابتسم بدوى ابتسامة باهتة ثم قال :

— سأحذر أولادى من مكر اليهود، فالخيانة تجرى في دمائهم .

ونزف الدم غزيرا من صدره، فوسع مأمون من خطوه حتى إذا بلغ الخطوط
الخلفية وضعه في تودة إلى جوار زملائه الذين أصيبوا إصابات بالغة، وخف إليه
رجل من رجال المستشفى يضمده له جراحه .

وألقى مأمون نظرة سريعة على الجرحى، ثم قفل راجعا إلى المعركة الرهيبة
التي تأججت نيرانها وحمى وطيسها، وراحت أدوات الدمار التي اخترعها
الإنسان تحصد أرواح البشر الذين كانوا يموجون في أرض العمليات حصدا،
وتدكهم دكا دكا .

وحلقت فوق رأس مأمون طائرة فرنسية، فانبطح على الأرض حتى لا يكون
هدفا سهلا لها . وتجاوزته الطائرة وانقضت على الجرحى وفتحت مدافعها
الرشاشة فاخترق الرصاص صدورهم ومزقهم إربا إربا .

وجن جنون مأمون فهب منتصبا على قدميه، وراح يسدد رصاص مدفعه
الرشاش إلى الطائرة وهو يصيح في غيظ وغضب :

— نذل ! جبان ! جبان .

وسدد أكثر من مدفع قذائفه إلى الطائرة، وأصيبت بضربة مباشرة، فإذا بها
تنفجر في الجو ثم تهوى إلى الأرض، ولم يشف ذلك غليل مأمون فأسرع إليها

ليفرغ في حطامها رصاص مدفعه .

وتقدمت الدبابات الإسرائيلية وراحت تقصف مواقع القوات المدافعة بقذائفها، وتفجرت الألغام وأخذت الطائرات تؤيد الدبابات في تقدمها، فراحت المدافع المصرية تصوب قذائفها إلى المدرعات والطائرات وقوات المشاة التي كانت تتقدم لفتح ثغرة في قوات أبو عجيبة . وراح الموت ينقض من فوق ويتفجر من تحت ومن أمام ومن خلف ، وعن يمين وعن شمال ، وبقيت قوات « أبو عجيبة » ثابتة في مكانها لا تتحرك قيد أنملة .

واتصلت القيادة بقائد قوات « أبو عجيبة » وقالت له :

— عليك أن تحاول الانسحاب دون أن يشعر العدو وأن تستر ذلك الانسحاب .

ورد قائد « أبو عجيبة » :

- العدو يحاصر مواقعنا من كل ناحية ولكن مواقعنا كلها متأسكة .
- الأوامر أن تنسحب قواتك وأن تغطي ذلك الانسحاب .
- انسحاب قواتنا قد يكون متعذرا . أفضل الدفاع عن مواقعنا .
- انسحاب قواتك جزء من خطة عامة .
- سأنقل الجرحى أولا إلى الغردقة بقوارب تعبر البحر الأحمر عند مدخل خليج السويس .

وراح سعد الدين متولى قائد قوات « أبو عجيبة » يحمل الجرحى إلى القوارب والمركبة تلدور في قسوة وضراوة . وراح الظلام يخيم على أرض المعركة فعاد القائد يتصل بقيادته ويقول لها :

— سأمر بعض قواقي أن تتسلل خارجة من مواقعها حاملة أسلحتها الخفيفة حتى تنضم إلى قوة العريش وتنسحب معها . وسأدمر كل ما لدى من سلاح ثقيل حتى لا يقع في يد العدو .

وأصدر أوامره بتدمير الأسلحة الثقيلة ، فقابلت القوات الأمر في دهش ، فقوات إسرائيل لم تنتصر عليهم ، لقد غرست في الوحل مائة ساعة ولم تكسب

أرضاً ولم تحرز نصراً، فلماذا يصدر القائد مثل هذا الأمر؟
وقال لهم :

— صدرت الأوامر بانسحابنا . انسحابنا جزء في خطة عامة .
وراح الرجال يدمرون الأسلحة الثقيلة ، وفي القلوب أسي وفي الحلق غصّة
وفي العيون دموع .
والتقى راسم بمأمون وكان ساهما حزينا ، وما إن التقت عيناه بعيني صديقه
حتى انفجر باكياً ، فقال له مأمون في أسي :
— تأمروا علينا !

فقال وهو يصرف أنياه في غيظ :
— ما كنت أظن أن يأتي يوم تقف فيه إنجلترا مع إسرائيل جنباً إلى جنب ضدنا
على أعين الناس .

— كانت عدوتها لنا سافرة في الأيام الأخيرة .
— مهما بلغت العداوة بينها وبين مصر فما كان لها أن تقف مع إسرائيل في
حرب سافرة ، حتى لا تخرج أصدقاءها العرب .
وصمت راسم ثم تنهد في ضيق وقال :

— لما اعتدت إسرائيل علينا حسبت أنها أخطأت التقدير هذه المرة ،
وراودتني آمال العودة إلى وطني . كانت رائحة البرتقال تملأ أنفي ، وبيارات
البرتقال تتراعى لي في يقظتي ونومي ، وفي الأيام الأخيرة صليت أكثر من مرة
بروحى في بيت المقدس وفي مسجد العجمي .
— يا ليت ! إني أحن حنيناً إلى فلسطين .

وصدرت الأوامر إلى الرجال أن ينسلوا واحداً واحداً من خلال مواقع العدو
الذي كان يحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، فحمل الرجال أسلحتهم الخفيفة
وفي جنح الليل راحوا يتسللون فرداً ، بينما المعركة دائرة والقذائف المصرية
تترادف وتتتابع لتغطي عملية الانسحاب .
والتفت مأمون إلى راسم وقال له :

— هيا يا راسم .

فقال راسم في عزم :

— سأبقى هنا .

وقال مأمون وهو يجذبه من ذراعه :

— سنسحب لنكر عليهم مرة أخرى .

فقال راسم في حزن :

— اذهب أنت يا مأمون ، أما أنا فلن أتقهقر خطوة واحدة .

— لماذا ؟

فقال راسم والدموع تترقرق في عينيه :

— لأني بعدت عن بلادى ، ولا أطيق أن أبعد عنها أكثر مما بعدت .

اذهب يا مأمون وسأعرف كيف أعطى انسحابكم .

— إذا قررت أن تبقى فسأبقى معك .

— لا . لا يا مأمون اذهب لتدافع عن بلادك حتى لا يقتل الشيوخ

والأطفال وتقر بطون الحوامل من النساء . أسرع لتحمي أهلِكَ قبل أن

يفضحهم أعداؤنا . ليتنى كنت رجلاً يوم نكبة دير ياسين لأقاتل عن أعراضنا .

كانوا سيقتلوننى . كان ذلك أهون من العار الذى رأيتُه بعينى والذى كان يعذبنى

كلما طاف بخيالى ، وما أكثر ما كنت أعيش في ذكريات الماضى .

ورفع عينيه إلى السماء وقال في حزن :

— يارب ! لماذا كتبت علينا أن نتجرع هذه الكأس ؟!

ثم التفت إلى مأمون وقال :

— الوداع يا مأمون .

وضمه مأمون في حب وقال في انفعال :

— بل إلى اللقاء . سنلتقى هناك وندخل معا تل أييب .

وراح راسم يرتل في صوت خافت :

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾

وافترق الصديقان ، وراح راسم ينظر إلى مأمون حتى أطبق عليه الظلام ، ثم اندفع إلى غمار المعركة ليغطي انسحاب الذين انسولوا لينحازوا إلى إخوانهم في مصر ، ليصدوا عن بلادهم الدول الباغية ، وليتأهبوا للوثبة التالية لينتزعوا الشوكة التي غرسها الاستعمار في جنوبهم .

وثبت الذين وهبوا أنفسهم للموت وراحوا يصلون الأعداء نارا حامية ، وطفق راسم يسدد قذائفه في مهارة وهو يصيح صيحات عالية تنفس عن المشاعر الفائرة التي تموج بين جوانحه ، وراحت قذائف الأعداء تتساقط حوله وتدوى في أذنيه دويا هائلا ، يبد أن صوتا عاليا كان يرن في أعماقه يغطي على كل ما عده من أصوات ، كان الصوت يجلجل في نفسه صائحا :

— إن كتب على أن أستشهد فلن تعرف روحى الاستقرار إلا إذا دخلت فلسطين مع جيوش العرب الظافرة .

كانت جانبيت تسير في الطريق عندما فاجأتها صفارة الانذار فراحت توسع من خطواتها لتصل إلى البيت قبل أن تبدأ الغارة ، ولكن ما إن قطعت بضعة خطوات حتى دوت قذائف الطائرات فراحت تحتسى في الجدران وهي ترقب السماء في غضب .

والتقت عيناها بعيون كثير من المصريين ولم تقرأ فيها رعبا ولا هلعاً بل إيمانا وعزيمة ورباطة جأش . إنها عاشت في لندن في أثناء الحرب وإنها لتذكر صرخات الفرع والخوف الشديد الذى كان يرتسم على الوجوه عندما كانت طائرات النازى تجتاح بريطانيا . لقد أعجب العالم بصلابة عود الشعب البريطانى في ذلك الوقت ، بيد أن الشعب المصرى الذى لم يعلن الحرب على أحد والذى استيقظ فجأة ليرى طائرات دولتين كبيرتين تصب عليه جام غضبها بلا ذنب ، أثبت أنه أصلب من الشعب البريطانى عودا .

وخطر على ذهنها خاطر ، إن شعرها الأصفر وعينيها الزرقاوين وبشرتها (م ٢٣ — السهول البيض)

البيضاء التي تتوهج بالدم وكل ملاحظتها تنطق بأنها إنجليزية ، ومع ذلك تسير مطمئنة في الطريق بينما طائرات بلادها تصب الموت على رعوس الناس الآمين ، ترى ماذا كان يفعل الشعب البريطاني لو أن توفيقا كان يسير في شوارع لندن بينما كانت الطائرات المصرية تقصفها بقنابلها ؟ كان الشعب البريطاني يمزقه إربا إربا .
حقا إن الشعب المصرى شعب عريق .

والتهمت أضواء القذائف كالبرق ، وجلجلت أصوات الانفجارات كهزيم الرعد ، وراحت المدافع المضادة للطائرات تحاول أن تصطاد المغيرات التي ركزت هجومها على بطاريات المدافع التي تسدد إليها قذائفها وعلى المواقع العسكرية وعلى الحى العرى .

وراح عقل جانيت يعمل في سرعة ، إلى متى يستمر هذا العمل الإجرامى ؟ كان الإنذار مفاجأة لأمريكا حقا ؟ قال الساسة الأمريكان : إن الإنذار كان مفاجأة لهم ، إنه بيرل هاربر أخرى . ترى أيقول الساسة الأمريكان الحق أم أن هذا القول إن هو إلا ضرب من ضروب السياسة التي تخفى حقيقة وجهها ؟ ويل للناس من السياسة وأطماعها ! ورن في أذنيها ما قاله موليه في باريس للجمعية الوطنية بعد أن عاد من لندن عقب إعلان أقدّر إنذار : « قيسوا ما فعلناه على نتائجه . إننا نأمل أن نحطم عبد الناصر بقليل من إراقة الدماء . إننا نعلم أن الخطأ قد يكون من جانبنا ، بيد أن الخطأ الأكبر أن نقف من مصر موقفا سلبيا .
وترادفت الانفجارات ، وصاح في أعماق جانيت صوت غاضب يقول :
« إن ما فعلته يا مسيو موليه شيء بغيض ، شيء ستخجل منه الإنسانية وتبرأ من نذاته . لن تحقق ما تريد لا بإراقة قليل من الدماء ولا بإراقة كثيرها . أنت وإهم يا مسيو موليه ، وقد يكون لك عذرك أنك تريد بهذا العدوان الدنى أن تسترد الهيبة التي فقدتها في الجزائر وفي أحراش الهند الصينية ، ولكن ما عذر مستر إيدن ؟
لماذا استجاب لنوازع نفسك الشريرة ؟ » .

وراحت مدافع الأسطول البريطانى والأسطول الفرنسى تقصف بطاريات السواحل المصرية وتضرب مباني الميناء ، ورن في ضمير جانيت صوت إيدن وهو

يعلن في مجلس العموم : « إن ما فعله ليس حربا ، إنه إجراء بوليسى للحيلولة بين القوات المصرية والإسرائيلية » . آه لو كنت في لندن الآن لوقفت مع الذين قابلوك بصفير الاستهجان ولصحت في وجهك وقلت : « أنت كذاب يا مستر إيدن . كذاب .. كذاب ، كذاب » .

واستمرت الغارة وجانيت في مكانها ثابتة وإن كان ذهنها يطوف بكل أنحاء العالم . إن كانت المانشستر جارديان وصفت الإنذار بأنه عمل يدل على البلاهة وليس له ما يبرره فماذا ستصف هذه الوحشية ؟

حقا لقد مرغ مستر إيدن بهذه النذالات التي يقترفها كل ساعة الشرف البريطاني في الوحل . إن جيتسكيل زعيم العمال عبر عن حقيقة شعورنا الذي نحسه عندما قال في مجلس العموم : لقد صدم الملايين من الإنجليز وجلههم الخجل لأن إلقاء القنابل البريطانية على مصر لم يكن في حالة دفاع عن النفس أو من أجل دفاع مشترك ، بل كان تحديا ونقضا واضحا لميثاق الأمم المتحدة » . إنى أكاد أموت من الخجل مما فعله إيدن ، ولكن عزائى أن شعب إنجلترا أضرب من أجل مصر ، بل إن شعب فرنسا نفسه أضرب وأعلن استيائه من سياسة موليه .

وأحست في أعماقها أنها تتمزق من الغيظ والحلق ، وراحت تردد . « جن إيدن ولا شك . جن إيدن . جن إيدن » وكانت مظاهرات الاحتجاج في سورية والأردن ولبنان وليبيا تطوف برأسها ، وبرز وجه بولجانين حتى غطى كل ما في خيالها من صور وغمغمت : هذه فرصة الدب الروسى ليصول ويجول . ألم يفكر إيدن قبل أن يشن هذه الحرب الظالمة فيما يمكن أن تفعله روسيا من هذه الحماقة التي يرتكبها ؟ ترى هل أطمئن إلى أنها قد ارتكبت في المجر نفس الإثم الذى يرتكبه في مصر ، وأن الآثم لا يخاف آثما مثله ؟ » .

ورن في ضميرها صوت توفيق وهو يقول لها : « إنى أرى في وضوح عدونا وعدو كل دولة متحررة مستر جونسن رجل التأمين الأصلحة يرقص طربا في لندن لأن إيدن أرسل طائراته لتدك بلادنا على رعوسنا » .

وهزت رأسها استيائه وراح صوتها يصيح في جوفها : « لا . لا . أنت تظلمه

يا توفيق لأنك تكرهه ، إنه بغيض حقا ولكن سفالته لن تصل أبدا إلى هذا الحد .
ولماذا تستنكرين يا جانيت أن يرقص مستر جونس وأمثاله طربا لا اعتداء إيدن على
مصر ؟ . إن رجالا يحسبون أنفسهم ذوى ضمائر من رجال المحافظين أبوا أن
يخذلوا إيدن وحكومته لما طرحته الثقة به . في إنجلترا يا جانيت أناس يؤيدون
هذا العدوان العاشم ، بل يباركونه . لماذا يؤيدون هذا الظلم والتجنى ؟ أنت
أعرف الناس بدوافع هؤلاء المتعصبين يا جانيت . هذا بغيض ! بغيض أن يبلغ
الحقد حد أن تهتز أعظافنا طربا لإراقة دماء أناس أبرياء . أكان إيدن يعلن هذه
الحرب لو عرف أن هناك أدنى احتمال لأن يلقى فيها حتفه ؟ أكان مؤيدوه يؤيدونه
لو عرفوا أنهم سيلقون في هذه الحرب مصارعهم ، إنهم سعداء لأنهم سيزينون
صدورهم بأوسمة من أرواح جنود أبرياء غرر بهم ليخوضوا غمار حرب ملعونة
لا تجلب إلا العار .

وأطلقت صفارة الأمان فانطلقت جانيت إلى بيتها وهي تلعن رئيس وزراء
بريطانيا المجنون في صوت عال ، ودخلت تنادى :

— مرجان ! مرجان !

وراحت تبحث عنه في كل مكان فلم تجده . إنه خرج كما خرج كالأمس
يرصد الطائرات المغيرة ويهبل للطائرات التي تنفجر في الجو ويجرى في اتجاه
الطائرات الهاوية ليراها وهي تسقط في البحر . فرؤية الطائرات المعتدية وقد
اشتعلت فيها النيران تريح صدره الذي تأكله الثورة والحق والضيق .

قال بالأمس لجانيت :

— ليت هؤلاء الطيارين يهبطون إلى الأرض لأكم أنفاسهم بيدي . أين
الشجاعة في أن يركب رجل طائرة ثم يلقى بقذائفه على الأمنين المسلمين ، وبعد
أن يقتل الرجال والنساء والشيوخ والعجائز والأطفال ويشعل النيران يولى
الأدبار . إن كان شجاعا حقا فليات ليقاتلني يدا بيد .

أدهشها بالأمس هذا القول ، فالرجل الأسود الذي كانت — على الرغم من
سماحتها — تراه كأنما نحت من الغباء قد تبدل ، كشف عن ملامح ذكاء وعن منطق

سوى قد يفوق منطق كثير من بيض الوجوه زرق العيون! إن قلبه يجيش بعواطف نبيلة ترفعه إلى مرتبة سامية من مراتب البشرية، فقد قال لها فيما قال: إني لا أكره كل الإنجليز لأن الطائرات الإنجليزية تضر بنا بقنابلها، ولكنى أكره الذين أمروا هذه الطائرات بضرب بلادنا. سأقتل كل من يحاول أن يحتل أرضنا وأنا آسف. فما أكثر الذين يرغمون على الحرب وهم لها كارهون.

لا يمكن أن يصدر مثل هذا القول عن مرجان. لو أن توفيقا قال لها هذا القول لأثلج صدرها، أما أن يصدر هذا الكلام عن مرجان فهذه هي المعجزة. ترى أصار مرجان رجلا آخر أم كشفت الظروف عن حقيقة معدنه؟ يا طالما ظلمنا القارة السوداء!

وسارت جانبيت إلى الراديو وأدارته وهي تقول:
— هذا هو البعث.

وانبعث صوت المذيع من محطة صوت بريطانيا يقول:
— لقد رأيتم كيف أثار عليكم عبد الناصر هجوم إسرائيل، وها أنتم أولاء ترون كيف نستطيع قصف مطاراتكم بمنتهى الدقة. وما لم يذهب عبد الناصر فسنلقى قنابلنا عليكم ونقتلكم.

وأغلقت جانبيت الراديو في حنق وهي تقول في غضب:
— أهذه دعاية يا أغبياء؟ أمثل هذا القول الذى يثير الاشمئزاز فى النفوس تحرضون المصريين على الثورة؟ إن كان هذا القول السخيف أسخطنى فماذا هو فاعل بالمصريين الذين تطفح قلوبهم بالحقد عليكم؟

وانطلقت صفارة الإنذار مرة ثانية، وأقبلت المغيرات الإنجليزية والفرنسية وطائرات حلف الأطلنطى تلقى حممها على المدينة، وفتحت المدافع المضادة للطائرات نيرانها من كل مكان، وارتجت بور سعيد وزالمت زلزالا شديدا، ودخل توفيق وهو ساهم، ولما رأته جانبيت قالت:
— إني معجبة ببسالة رجال المدفعية.

فقال توفيق في مرارة:

— يخشى أن تنصهر المدافع فهي تعمل ليل نهار منذ أول غارة شنها الأعداء علينا.
وشرد ببصره ثم قال :

— إلى متى تستطيع أن تصمد هذه المدافع ؟
فقالت جانيت في حرارة :

— أرجو أن تصمد حتى يفيق العالم من صدمة العدوان ويقول للمعتدين :
ارفعوا أيديكم عن مصر وأوقفوا إطلاق النار .
فقال توفيق وهو يزفر :

— يا ليت !

— أنا واثقة أن العالم لن يسمح أبدا بأن يلقي به بعض الحمقى في أتون حرب
لا تبقى ولا تذر .

— إيدن يريد أن يستولى على مصر في حرب خاطفة وبجابه العالم بالأمر الواقع .
— لو حسب أن الأمر بهذه السهولة لكان واهما . إن عمله العدوانى يلقي
معارضة في كل مكان ، وقد تحركت روسيا ونادت بدعوة مؤتمر باندينج
للانقصاد ، وعارضت أمريكا هذا الغدر .
وقال توفيق في ثقة :

— لن نسمح لأحد أن يعود لاحتلالنا مرة أخرى .

وحان وقت الغداء ، فذهب توفيق وجانيت إلى غرفة السفارة وراحا يتناولان
طعامهما وهما يصغيان إلى الراديو ، وعزفت مقدمة نشرة الأخبار فأرهما السمع
ودق قلب توفيق رهبة وتوقف عن المضغ ، وراح المذيع يقرأ :

— أغارت الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية على قواتنا البرية وهي تعبر
قناة السويس في عدة نقط ، وخاصة عند كوبرى الفردان ، وقامت بضرب
إحدى سفن الأسطول المصرى وهى السفينة « عكا » فى أثناء عبورها قناة
السويس بالقرب من بحيرة التمساح . وقد غرقت هذه السفينة فى القناة ونتج عن
هذا إيقاف الملاحة فيها . وهكذا تقوم بريطانيا وفرنسا بإيقاف الملاحة فى القناة فى
الوقت الذى أقامتا فيه الدنيا وهما يقومان بالعدوان على القناة ، وقد قامت

الطائرات البريطانية والفرنسية أيضا طوال اليوم في الإغارة على مطاراتنا في القاهرة والإسكندرية ومنطقة القناة .

وسرحت جانيت قليلا ثم قالت :

— سيكون شتاء قاسيا على أوروبا .

وقال توفيق وقد عافت نفسه الطعام :

— هذه جناية إيدن .

— سمعت أن السفينة عكا كانت محملة بأسمنت وحديد خردة ، وأن رجال هيئة قناة السويس كانوا ينتظرون الأحداث حتى إذا ما تخرجت سدوا بها القناة .

— كانت الملاحه منتظمة في القناة قبل أن يعتدوا علينا ، أكانت إنجلترا وفرنسا تنتظران أن تظل القناة مفتوحة بعد الغارات الجوية الغادرة ؟

قالت جانيت في مرارة :

— تصور لندن في ديسمبر ويناير وفبراير بلا تدفئة في البيوت ! سترتحف العجائز من البرد وقد تتصلب أطراف الصغار من الزمهرير . هذا بشع ، هذا شئ عرهب .

فقال توفيق في انفعال :

— ورجالنا الذين يموتون برصاص مدافع الطائرات الرشاشة ، والنساء والأطفال والعجائز والشيوخ الذين يموتون تحت الأنقاض ، هل فكر فيهم أحد ؟ هل تحركت قلوب الغرب شفقة عليهم ؟ أم أن رجالنا ونساءنا وأطفالنا لا وزن لهم في هذه الحياة !؟

— إني يا توفيق مشفقة على الناس هنا والناس هناك . لا أدري لماذا يعذب

الناس بعضهم بعضا .

— إننا يا جانيت لم نعذب أحدا . إننا المضطهدون ، إننا الذين نتلقى العذاب

من الآخرين ، ولكننا لا نرضخ للقوة أبدا ، ولن نستكين للاضطهاد .

وأقى المساء وأعلن صوت بريطانيا في زهو أن الطائرات البريطانية والفرنسية قد أغارت على المدن المصرية خمس عشرة غارة . وراح يجرس المصريين على الثورة . بيد أن المصريين جميعا كانوا حول أجهزة الراديو ينصتون إلى البيان الذي

كان يلقيه الرئيس على شعبه .

قالت بهية لعبود وهي ترضع وليدها :

— افتح الشباك يا عبود . أريد أن أسمع الراديو .

— الدنيا برد يا بهية ، ولا زلت طرية .

— غطنى جيدا وافتح الشباك .

وغطاها ببطانية فوق اللحاف وأحكم الغطاء حولها ، ثم ذهب وفتح الشباك

فسرى الصوت إليها ، وأرهفت سمعها وظلت صامته وهي تصغى ثم قالت :

— ماذا قال يا عبود عن اللواء عبد الحكيم عامر ؟

— قال : كلف القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة

والعمل على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب ، والعمل على إحباط محاولات

بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في عزل وتدمير قواتنا الرئيسية في صحراء سيناء .

وقالت بهية في صوت خافت :

— مأمون .

وأشاحت بوجهها عنه حتى لا يرى الدموع التي ترقرت في مقلتيها ، وفطن

عبود إلى حقيقة مشاعرها فدنا منها وقال :

— صدرت الأوامر إلى قواتنا في سيناء بالانسحاب لتساند القوات المسلحة

الشعب .

مأمون الآن في طريقه إلى هنا .

ولم تستطع أن تكبح جماح عواطفها فقالت وهي تبكى :

— لن أراه . لن أراه . لن أراه .

فقام إليها وضمها إلى صدره وقال :

— لا يا بهية . لماذا هذا الجزع ؟ مأمون بخير .

وفي القهوة كان الشيخ حسن وفانوس يصغيان إلى البيان .

قال الرئيس :

— أيها الإخوة ..

إن كل فرد منكم جندي في جيش التحرير .
لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح ، عندنا منه الكثير ، وسنقاتل في معركة
مريرة ، سنقاتل في معركة من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان ، ليكن كل فرد
منكم أيها المواطنون جنديا في القوات المسلحة حتى ندافع عن شرفنا ، وحتى
ندافع عن كرامتنا ، وحتى ندافع عن حريتنا .
وليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .. سنقاتل . سنقاتل ولن نسلم .
وخرج حسن من القهوة وانطلق إلى حيث كانت الأسلحة توزع وهو يقول
في الشهيقي وفي الزفير :

— « ح نحارب . ح نحارب . ح نحارب » .

وتناول حسن سلاحه ودار على عقبيه لينصرف ، فرأى سليمان يختبر بندقيته
فلوى شفته السفلى في سخرية ، فما كان يستطيع أن يتصور أن مثل ذلك السبكي
الذي لا يرحم قلبه الضعيف يستطيع أن يخوض غمار المعارك وأن يدافع عن
شرف الوطن وكرامته !

كان مأمون يخوض غمار الظلام في الليل السرمدي ، وكان الهواء البارد يلفح
وجهه وقد أنهكه المشى ودب في أوصاله التعب ، فهو منذ ساعات طويلة يطوى
الصحراء هو ورفاقه الذين أفلتوا من الحصار الذي ضربه الجيش الإسرائيلي على
قوات « أبو عجيله » ، وكان أمله أن يصل إلى العريش لينضم إلى قواتها المنسحبة
في طريق القنطرة . بيد أن الصحراء منبسطة أمامه كأن ليس لها نهاية .
وأحس أن حذائه أطبق على قدميه كأنما صار منجولة من حديد تهصرهما
هصرا ، فتأوه ، وجاهد ليسمو على آلامه وتقدم خطوات إلا أن الألم فاق كل
احتمال ، فجلس على الأرض وخلع حذائه ثم نهض ليسير حافي القدمين ، وشعر
ببعض الراحة بعد أن خلع حذائه ، ولكن ما إن سار بعض الوقت حتى عاد يحس
آلاما مضنية ، كان الشوك الذي ينبت في الصحراء يخره وخرزا قاسيا ، وارتطمت

فدماه بأكثر من حجر صلد فسالت منهما الدماء . كانت جروحه تؤلم بيد أن جرح نفسه كان أقسى وأمر .

ولماذا يهيم على وجهه في الصحراء؟ لماذا غادر « أبو عجيبة » وهو يتربق؟ لماذا فرض عليه الفرار؟ لأن إنجلترا وفرنسا غدرتا به وبفراقه ورفعت اللثام عن وجه العداوة . لو أن الدولتين الأمتين أعلنتا الحرب كما يعلنها الأعداء الشرفاء لهان الخطاب ، أما أن تبعا أساليب الخسة التي اتبعناها في هذه الحرب فهذا ما يحز في النفس ويملؤها مرارة .

سبعطن اليهود في خيلاء المنتصرين أنهم هزمونا في سيناء وأذلوا كبرياءنا . ألا ليت الإنجليز والفرنسيين تريثوا قليلا لنلقى بهم في البحر . وتذكر راسم ، ترى ألا يزال ثابتا كالطود كعهدي به أم جرح صريع الغدر والخيانة؟ لا . لا . راسم لن يقتل ، إنه أكبر من الموت وأكرم عند الله من أن يقتله اليهود .

ورفع عينيه إلى السماء وكانت ملبدة بالغيوم تبعث الرهبة في القلوب ، فقال متضرعا :

— يارب ! احفظه وأبقه وحقق أمنيته الغالية . نجه يارب ليظاً بقدميه إسرائيل ويدخل فلسطين مع جيوشنا المظفرة . كانت أمنيته العزيزة يارب أن يعتلى أعلى مبنى في تل أبيب وأن يصيح : أمي ! نامي مستقرة . لقد عدنا . لقد عدنا .

وصاح مأمون دون وعي :

— لقد عدنا .. لقد عدنا .

ودنا منه أحد الرفاق وقال له :

— لا يزال أماننا الكثير ، تجلد يا مأمون . وسنصل بإذن الله .

وبلبل مأمون شفثيه ببعض ما معه من ماء ، ثم سار يحمل نفسه حملا ويمجر رجليه كأنما كان يجر كيسين من الرمال ، وعاد ذهنه يعمل : « لماذا تركت راسم ؟ لماذا لم أصمد معه ؟ أكان من الأفضل أن نبقي جميعا حتى يبيدنا الأعداء عن آخرنا ؟ قد يكون الإفلات من الحصار كسبا للمعركة . رسول الله لما رأى

أن بقاءه في مكة يهدد حياته فر من الاضطهاد وهاجر إلى المدينة، وكان ذلك الفرار بداية نصر المسلمين . أين نحن من رسول الله؟ إن لنا في حياة الرسول أسوة حسنة ، إنها منارات تنير سبل البشرية . هذا ليس قولي . هذا ما تعلمته من الشيخ حسن . الشيخ حسن؟ أين أنت الآن؟ هل سنلتقي؟ لا بد أن نلتقى لأفص عليك ما فعله الإنجليز بنا .

كنت أضحك ملاء شدي لما كنت تقول : حلفاء الإنجليز من العرب لن يردوا الجنة أبداً لأن حلفاء الشياطين في النار ، كنت أضحك لأنني لم أكن أفهم حقيقة ما تعنيه ، أما الآن فإني أقسم بأن حلفاء الإنجليز من العرب في جهنم .
وأحس أنه لم يعد يقوى على السير وأنه يريد أن ينهار ، فوقف لحظات يستجمع قواه ويسترد أنفاسه ، ثم سار وهو يتخيل أن كل أعزائه على بعد خطوات منه وقد بسطوا أذرعهم ليلتقوه في أحضانهم ، فراح يردد أسماءهم ليقوى عزيمته :
— بهية . بهية . إنصاف . إنصاف . عبود عبود . حسن حسن . بهية بهية .
إنصاف إنصاف . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون .

وإذا به يجد نفسه يتقدم في خطوات عسكرية .

ولاح في الأفق الشرقي ضياء فضي ، وبدأت الملاء السوداء تنحسر عن الصحراء على الرغم من السحب التي كانت تحجب قرص الشمس الذي راح يعرج إلى السماء ، فأخذ الرجال يتلفتون في خوف ، كان الظلام يسترهم أما النور فسيكشف مواقعهم لعيون الأعداء .

وسمع فحيح طائرات فنزلت الرهبة في القلوب والتوت الأعناق وشخصت الأبصار إلى السماء ، وتبعثر الرجال في الفضاء وقد قبض كل منهم على سلاحه بيدين قويتين .

وأرهفت الحواس ومرت لحظات قلقة واتضح الصوت ولاحت في الجو طائرات فرنسية وإنجليزية وإسرائيلية ، فهرع الرجال الذين أنهكهم التعب يبحثون عن مأوى بعضهم من النيران ، ولكن الطائرات انقضت عليهم

ورصاص المدافع الرشاشة ينطلق في تتابع رهيب كأنما كان السنن الأبالسة .
ووقف بعض الرجال منتصبين على أقدامهم وقد صوبوا مدافعهم الرشاشة إلى الأعداء . وانبطح بعض الرجال على وجوههم وقد استسلموا للقضاء ، وظل الرصاص يترأى أزيزا والطائرات تنقض انقضاض الصواعق وقبل أن تلمس الأرض تعود لتحلق إلى السماء ، ثم لا تلبث أن تنقض مرة ثانية وهى حانقة تنفث نيران مدافعها لتقضى على الجيش قبل أن ينضم إلى الشعب الذى يرقب عودته .
أفسد الانسحاب خططهم ، كانوا يريدون أن يسحبوا الجيش إلى سيناء ليقضوا عليه ويخلو لهم وجه مصر ، فإذا بخديعتهم قد كشفت . وإذا ببعض وحدات الجيش ودباباته ومصفحاته قد عادت إلى أرض الوطن تتأهب للقائهم ، وهى ذى باق وحداته تشق طريقها فى الصحراء لينضم جنودها إلى إخوانهم فى كفاحهم . إن كل رجل من هؤلاء الرجال يعود إلى قاعدته سيكون خنجرا مسنندا إلى قلب جيوش العدوان ، فراحت الطائرات تهجم عليهم فى ضراوة وحقد لاستئصال شأقتهم ، إلا أن رصاص الصناديد الذين وقفوا يدافعون عن أنفسهم بأسلحتهم الخفيفة جعل أغلب رصاص الأعداء يطيش عن أهدافه .
وانقضت طائرة على مأمون فسدد إليها رصاص مدفعه الرشاش ، ولم تحد الطائرة عنه بل ظلت فى انقضاضها الرهيب ، فألقى بنفسه على الأرض وصبت عليه رصاصها صبا .

ومرت لحظات لم يحس فيها شيئا ، ثم رفع رأسه فى حرص ونظر فرأى الطائرة ترتفع فى الجو وصوتها يدوى دويارهييا يوحى بالموت والدمار . وبعدت الطائرة عنه فراح يحرك ذراعيه ثم رجليه ثم انقلب على ظهره ، كان سليما إلا أنه كان مجهدا فلم يقو على أن ينهض .

وراح يقلب عينيه فى المكان فألقى الصحراء قد غطيت بأجسام الضحايا ، فسرى فى جوفه أسى وأمتلأ قلبه حنقا ، فنظر إلى السماء وقال :
— أقسم بك وبجبروتك ، لو كتب لى أن أعود أقاتل هؤلاء الأوغاد لأنتمن هؤلاء الشهداء شر انتقام !

وأسبل عينيه من التعب وكاد يغيب عن الوجود، إلا أن ذهنه كان يقظا، رأى أمه ليلة زفاف أخته بهية تتحامل على نفسها وتسير بين المدعوات ترحب بهن، ورن في أذنيه صوت بهية تقول: « قال الدكتور حازم: يجب ألا تتحرك أبدا وألا تغادر فراشها. حتى السرير يجب ألا تصعده أو تنزل من فوقه. من الأفضل أن تنام في فراش على الأرض ». ورأى أمه وهي تنهض وقد أعرضت عن نصيح الطبيب، وسمع صوتها واضحا يقول: « أرح قلبي يا مأمون، وأقسم لي بشرفك أن زفاف بهية سيكون يوم الخميس » ورن صوته في جوفه: « أقسم لك بشرفي أن بهية ستتزوج يوم الخميس ».

ورأى نفسه يصعد مع إنصاف إلى حيث كانت أمه بعد أن ذهب عبود بهية إلى بيت الزوجية. كانت أمه ممدودة على الأرض فراح يهتف: أمى .. أمى .. الدكتور .. الدكتور يا إنصاف.

وجاء الدكتور حازم فألقى أمه جثة هامدة.

وراح مأمون يقلب رأسه على رمال الصحراء ويغمغم:

ضحيت بنفسك يا أمى لتسعدى بهية. كان لا بد من التضحية .. لا بد من التضحية.

وكاد يستسلم للوهن الذي دب في جسمه، وأطبق جفنيه ليروح في سبات، إلا أنه سمع صوت أمه يصرخ به:

— مأمون! أرح قلبي يا مأمون وانهض. انهض.

وراح صوت في أعماقه يردد في وهن:

— التضحية .. التضحية.

وإذا بصوت أمه يدوى دويا في جوفه:

— لم يكن بعد وقت التضحية. مأمون! انهض. أرح قلبي يا مأمون. انهض.

انهض.

وقام مأمون وهو يحس كأن مناشير تنشر وسطه، وأن قدميه لم تعودا من لحم

ودم، بل أصبحتا قالين من رصاص، ونظر أمامه وهتف:

— بهية! إنصاف! عبود! حسن! أنا قادم. أنا قادم.
وسار خطوات، وإذا بكل شيء يتراقص أمام عينيه.

* * *

وانطلق عبود وحسن بعد صلاة الجمعة إلى القهوة، كان حسن يرتدى ثياب
الحرس الوطني وقد حمل بندقيته، بينما كان عبود يسير إلى جواره ساهما، كان
يفكر فيما قاله الرئيس في الخطاب الذي ألقاه في الأزهر: إن الجيش سليم
وسينضم إلى الشعب. تم انسحاب قواتنا المسلحة من منطقة سيناء. وصلت
قواتنا الرئيسية إلى القناة تاركة القوات الانتحارية في شبه جزيرة سيناء. وغمرته
موجة من الأسى، ورأى أن بنفس عن مخاوفه فقال:

— ترى هل قتل مأمون أم لا يزال يحارب مع القوات الانتحارية؟
فالتفت إليه حسن في دهشة وقال:

— لماذا لا يكون قد عاد مع القوات التي وصلت إلى القناة.

فأطرق عبود لحظة ثم قال:

— رأيت بهية في المنام أنها لن تلتقي به أبدا، وكلما ذكرته ترحمت عليه وبكت.
— لقد رأيت مخاوفها.

وسرت فيه مشاعر خوف وقلق، وأراد أن يبعد عن ذهنه فكرة أن مأمون قتل
فقال:

— ماذا سميت ابنك يا عبود؟

فابتسم عبود وقال:

— فكرت في أن أسميه حربا.

— لا. بل سمه حسنا أو حسينا.

— لماذا؟

— لأن علي بن أبي طالب لما أنجب وليده الأول أراد أن يسميه حربا فقال له

النبي ﷺ: بل حسنا، ولما أنجب وليده الثاني أراد أن يسميه حربا فقال له النبي

ﷺ: بل حسينا.

وفكر عبود قليلا ثم قال :

— سأسميه حسينا .

ثم قال في نشوة :

— حسين عبود . اسم جميل . أليس كذلك ؟

ودون تفكير قال حسن :

— اخترت أن يكون شهيدا .

وصمت حسن فجأة وعجب من نفسه ، كيف لم يفكر فيما قال قبل أن ينطق به ؟ وما الذى جعله يقول هذا القول ؟ ونظر من طرف عينيه إلى عبود فألفاه شاردا وقد كست وجهه مسحة من الخوف والقلق ، أيقول له إنه آسف وأنه لم يفكر فيما قال ؟ — إن فعلت فسيزيد ذلك من مخاوف عبود . سيظن أن القدر هو الذى أنطقنى بما نطقت به .

لو أن أحدا قال لى : إن محمدا ابنى سيموت شهيدا أكنت أحزن كما حزن عبود ؟ لا شك أن فكرة موت الأبناء تمزق القلب ، لماذا لم أمسك لسانى ؟ حقا زلة القدم خير من ذلة اللسان .

وسارا وقد غشيتهما كآبة ، وظلا صامتين إلى أن التقى بهما فانوس فقال له حسن :

— إلى أين ؟

— ذاهب لأسير فى جنازة أم إنصاف .

فقال عبود فى دهش :

— ماتت ؟

قال فانوس وهو يهز رأسه :

— لم تحمل الحروق التى أصابتها .

وقال حسن :

— سيخرج النعش من المستشفى ؟

— نعم .

قال عبود:

— ومتى ستسير الجنازة؟

— الآن.

وانطلقوا إلى الباب الخلفى للمستشفى ووقفوا ينتظرون مع الواقفين، وقال

عبود:

— مسكينة.

قال حسن:

— أكرمها الله. وجدت من يحملها إلى قبرها، أما نحن فلا ندرى إذا كنا

سنجد من يوارى سوءتنا.

ورمقه عبود وفي جوفه صوت يهمس: « حتى الأموات يحسدون ». وجاء مرجان وكان يرتدى ثياب الحرس الوطنى وصافح حسن فى حرارة، وصافح عبود، ووقف يتحدث إلى حسن يروى أحداث اليوم ويعلق عليها. وحانت منهم التفاتة فرأوا سليمان واقفا ينظر إليهم فى تردد، والتقت عينا حسن بعينيه فأشاح بوجهه عنه. ولاحظ عبود ما فعل حسن فاستشعر كأن شيئا حادا وخز روحه، ولم يحتمل نظرة الأزراء التى سددت إلى سليمان فهرع إليه وقال له:

— أهلا سليمان. أين أنت؟

وابتسم سليمان ابتسامة باهتة ولم ينطق بكلمة، وخرج النعش ولم يكن خلفه إلا صديق الفرارجى وإنصاف وبهنس، فخف الرجال إلى إنصاف يعزونها، وقال لها عبود وهو يصافحها:

— شدى حيلك.

وقال حسن:

— أمر الله ولا تملك إلا الصبر.

وسارت الجنازة إلى المقابر، وما أن بلغت طريق الجميل حتى أطلقت صفارة الإنذار، فأطلق كثير من المشيعين سيقانهم للريح، وبعد قليل دوت الانفجارات

وراحت الطائرات تقصف المطار قصفا شديدا، فارتج الحى وزلزل زلزلا شديدا، وانخلعت القلوب ووضع الرجال النعش على الأرض وفروا هارين، وصاحت إنصاف في حزن شديد:

— أمى .. أمى .

وارتمت على النعش تبكى وتتنحب، وخف مرجان وعبود وسليمان إلى النعش وحملوه على أكتافهم وساروا به والطائرات تخلق فوق رعوسهم والقنابل تنفجر تحت أقدامهم.

ونظر حسن إلى سليمان فتحركت شفقتة وراحت نفسه تؤنبه وتقول له: « كان السكر أسرع منك تلبية لنداء الشهامة » وأحس خجلا فوسع من خطوه حتى لحق بسليمان فربت على كتفه ثم دخل مكانه ليضع على عاتقه مؤخر النعش الذى كان يحمله الرجل الذى طرد من عمله لأن قلبه كان ضعيفا!

وسار النعش يشق طريقه بين الانفجارات المدوية، وأزيز الطائرات يمزق الصمت ورائحة البارود تملأ الجو وحفنة الرجال يتناوبون حمل النعش. كان موكب الموت يتحدى الموت.

جانيت عاكفة على مذكراتها، ودوت انفجارات قذائف الطائرات ومدافع الأسطول فألقت القلم، وشردت تفكر في ذلك العدوان الذى أصم أذنيه عن صيحات الاستنكار التى انبعثت من أرجاء العالم واستمر في طريقه المقيت . كان جواسيس إيدن وعميونه يؤكلون له أن الشعب المصرى سيثور في وجه حكومته عقب إلقاء أول قذيفة على القاهرة، وقد أغارت الطائرات الإنجليزية والفرنسية على القاهرة والإسكندرية ومدن القناة إغارات وحشية، فماذا كان رد الحكومة المصرية على هذا العدوان؟ قامت بتوزيع الأسلحة على الشعب كله، وهب الشعب ينتظر إيدن وجنوده وموليه وجنوده ليذافع عن شرف وطنه، ويقاثل ليحافظ على استقلاله الذى ناله بعد كفاح السنين.

وخرج عبد الناصر يوم الجمعة في سيارة مكشوفة إلى الجامع الأزهر بعد أن وزع على الشعب السلاح، فلم يثر أحد في وجهه كما زعم الجواسيس الخائنون، بل استقبله الناس استقبالا حماسيا حارا أكد التفاهم حوله وتصميمهم على خوض المعركة معه حتى يكتب الله لهم النصر على المعتدين.

لاشك أن ذلك الاستقبال الرائع أحنق إيدن وحلفاءه، وزاد في حنقه الاستقبال المهين الذي قابله الشعب البريطاني به وهو في طريقه إلى مجلس العموم بعد أن أذره حزب العمال بالإضراب.

ورأت جانيت إيدن بعين خيالها وهو يسير في شوارع لندن مكفهر الوجه، ترن في أذنيه استقالة وزير الدولة الشاب « أنتوني ناتنج » الذي أجرى مفاوضات الجلاء مع مصر: « كنت قد قدمت النصائح بشكل خاص وقوى ضد قرارات الحكومة وإجراءاتها الخاصة بالحرب التي تدور الآن بين مصر وإسرائيل، ولهذا فإنني صادق الشعور بأنه لم يعد في استطاعتي أن أدافع عن موقف الحكومة سواء في البرلمان أو الأمم المتحدة، وعلى ذلك فليس لي خيار في أن أطلب إليكم أن تقبلوا استقالتي ».

ورأت موليه في شوارع باريس وهو غاضب بعد أن تكتل الحزب الشيوعي مع الحزب الاشتراكي وقررا أن يتبعا خطة موحدة لمقاومة سياسته العدوانية. وفكرت في موقف مصر.. إنها صمدت أمام إسرائيل وفرنسا وإنجلترا أسبوعا، بينما ركعت فرنسا كلها منهزمة في الحرب العالمية الثانية أمام النازي في أقل من هذه المدة.

أذاعت الصحف البريطانية أن فرقة بريطانية وفرنسية سريعة تقف على بعد خمسة عشر ميلا من بورسعيد وهي مؤلفة من ١٨ ألف رجل ينتظرون الأوامر للنزول إلى أرض مصر، وأن ثلاثة آلاف من جنود المظلات البريطانيين والفرنسيين ينطلقون من قبرص على ظهر البوارج الحربية، وأن مقدمة هذه القوة مؤلفة من ألفي رجل — من الرماة البحريين الفدائيين الذين عهد إليهم احتلال بورسعيد. إن كل المصادر تؤكد أن القوات احتشدت فعلا استعدادا لاحتلال

مصر ، فأيدن مصمم على أن يستمر في مغامرته حتى النهاية . كل شيء يؤكد ذلك ، إن محطة صوت بريطانيا منذ أعلنت نبأ أول غارة جوية على القاهرة أكدت تصميم الإنجليز على العودة إلى مصر ، فقد أذاعت عقب النبأ مباشرة أغنية : « راجعة . و حياة عنية راجعة » .

هل ستثنى إيدن عن عزمه المعارضة الشديدة لسياسته الخرقاء المنبعثة من كل مكان ؟ روسيا لا تؤيد هذا العدوان وقد احتجت عليه ، وأمريكا تقاوم الروح العدوانية في فرنسا وبريطانيا ، والهند تهدد بالخروج من الكومنولث ، ويوغسلافيا وإندونيسيا والصين وكل شعوب العالم استنكرت هذا العدوان . إن اللورد أتلي زعيم حزب العمال السابق صرح قبل أن يركب الطائرة إلى كراتشي بأن أول عمل يجب أن يحدث في قناة السويس هو : وقف هذا المجنون ! وكرت ذاكرة جانيت إلى يوم الخميس ، إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة . لقد تقرر في ذلك اليوم وقف إطلاق النار ولكن إيدن في عناد يصمم على عدم احترامه ، إنه قرر أن يقضى على اليقظة التي انتابت الشرق الأوسط ، أن يكتم أنفاس القومية العربية قبل أن يشتد عودها . فيقدم هرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة استقالته من منصبه ، إلا أن عبد الناصر يرسل له قائلاً : إننا لا نريدك أن تستقيل ونريد منك أن تقف لتحارب معنا في معركة الإنسانية والسلام . وراح خيال جانيت يجرى وراء ما يحدث في مجلس العموم ، فقد رفض إيدن قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار على الفور في مصر .

ومع دوى قنابل الطائرات وقذائف الأسطول وما بقي من المدافع الساحلية والمدافع المضادة للطائرات راحت تدوى في أذنيها كلمات جيتسكيل زعيم حزب العمال « ما من شك في أن ما فعلته بريطانيا من التدخل ضد مصر التي اعتدت عليها إسرائيل ، وضرب المدنيين والمنشآت بالقنابل إن هو إلا حماية المص و قتل صاحب البيت ، إنى أطالب بحكومة جديدة ورئيس وزراء جديد » . ورأت جانيت ميدان الطرف الأغر وييفان يخطب في الشعب البريطاني منددا بما يقوم به إيدن من عدوان ، ورأت المتظاهرين ينطلقون إلى دوانج سنريت ، إلى

رئاسة الوزراء يطرقون بابها، وخيل إليها أنها تسمع صيحات الغاضبين: « استقل يا سفاح .. اخرج يا مجرم! » .

وسمعت صوت انفجار هائل فانطلقت تنظر، فرأت طائرة قد توهجت في السماء وانهارت لتسقط في البحر، فقالت في ثورة:

— من أجل ماذا يموت هؤلاء الشبان يا سفاح؟! لماذا يموتون غرباء أيها الحاقد الجبان؟ ما هو عزاء أمهاتهم عندما يحمل إليهن نيا مصرع فلذات أكبادهن، عندما يقال هن إن أبناءهن لقوا حتفهم في حرب عدوانية، في حرب ظالمة ليس لها سند من الشرف أو الأخلاق؟ ماتوا في سبيل رفعة شأن النذالة، في سبيل إطفاء نار حقد اندلعت في صدر حاقد كان من سوء حظ إنجلترا أن أصبح رئيسا لمجلس وزرائها .
وسارت في الغرفة وهي غاضبة وضربت كفها بقبضتها وهي تقول:
— ما من عاقل رشيد يرضى عن هذا العدوان .

وعادت إلى مقعدها وصدرها يعلو وينخفض في غيظ، وسرح خيالها فرأت المتظاهرين أمام رئاسة الوزارة يفسحون الطريق لرجال الدين، وتقدم كبير أساقفة كنتبري ودخل على إيدن وقال: إن المسيحيين في بريطانيا قد انتابهم قلق شديد بسبب العدوان على مصر .» .

وزاد حماسة المتظاهرين أصوات الغضب تتجاوز الحى والتهافتات تردد:
استقل يا سفاح .. استقل يا سفاح .

أطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين في لندن .

وقفز خيال جانيت إلى العراق، رأت نوري السعيد يطلق الرصاص على الهاتين لمصر، أحقته أن صمد غريمه في المعركة، وخشى أن تخفق المؤامرة التي اشترك في تدبيرها والتي وسوس بها في صدر إيدن أيام أن كان ضيفا عليه في لندن . واختلطت الصور في رأسها حتى إنها كانت ترى إيدن في العراق يطلق الرصاص على العراقيين ونوري السعيد يطلق الرصاص في إنجلترا على الإنجليز وبن جوريون يطلق الرصاص على الناس أجمعين!

وشبت حرائق في حى العرب واندلعت ألسنتها وارتفع صراخ النساء

والأطفال حتى غطى على هزيم القنابل وقصف المدافع . ووقفت جانيت تنظر وهي ذاهلة ، وإذا بأصوات قوية ترن في أذنيها تغطي على كل أصوات الرعب والهلع التي تشق الأجواء وتمزق أقمى القلوب .

راح صوت ييفان يرن في أغوارها كأنما كان صدى صوت يتردد في كهف عميق : أنت لست أقوى الحيوانات في الغابة .. أنت لست أقوى الحيوانات في الغابة .

وارتفع صوت جيتسكيل مخذرا : « إن هذا العدوان الذي يتستر بعمل بوليسى هو غدر لا يؤمن به أحد . ولا شك في أنه ستبعه أعمال عدوانية كثيرة في العالم . وسنكون نحن أكثر الناس تعرضا لهذا العدوان الذي بدأته الحكومة » . وغطت صفحة ذهنها صورة إيدن وهو يغطي وجهه بيديه خجلا وعارا فصاحت فيه : يا سفاح ! يا سفاح ! . ثم دارت على عقبها وراحت تغدو وتروح في الغرفة تكاد تنفجر من الغضب وهي ترى ألسنة النيران تتراقص وتعلو لتبلغ عنان السماء .

وعادت صورة إيدن تحتل كل تفكيرها فصاحت فيه في ثورة :
— أنت لست أقوى الحيوانات في الغابة .

وانطلق طوريب هز المدينة ، فسقطت جانيت على الأرض وسقطت إلى جوارها مذكراتها ، وظلت لحظات وهي شاردة ثم نهضت حانقة والمذكرات في يدها ، وكأنما أرادت أن تتأر من هذه الوحشية القاسية فأطلقت لخياها العنان ، راحت تتصور نسف أنابيب البترول في قطر والبحرين وبنى غازى وسورية واندلاع النار في خزانات وقود القوات البريطانية المعسكرة بالدول العربية ، وانفعلت بأفكارها ورأت على أضواء النيران التي كانت تعلو في الجو كأنياب الكلاب صورة واضحة للمستقبل ، فراحت تكتب في مذكراتها : « اليوم أصبحت الوحدة العربية حقيقة واقعة » . وطافت بذهنها صورة نوري السعيد وهو يطلق الرصاص على طلبة الجامعات والشعب العراقي الذي تظاهر ليعلم تأييده لمصر فلم يهتز إيمانها بالفكرة التي وضحت في ذهنها بل راحت تكتب في

إصرار : « اتحدت الشعوب العربية وستسحق كل من يقف في سبيلها من ساستها » .
واشدت وطأة الغارات على الحى العربى ، واندكت الدور على سكانها
والنيران تندلع لتحرق كل شىء ، والتمعت فى ذهن جانيت فكرة انقبضت لها :
أوضعت الخطة لإبادة الحى العربى وإحراق كل ما فيه ومن فيه حتى إذا ما نزلت
القوات المعتدية إلى الأرض أمنت من الأمراض والأوبئة ؟ وصاحت فى غضب :
— هذا إجرام . ما أبشع هذا لو كانت هذه هى الخطة ؟ بل هذه هى الخطة
الجرمة ، إبادة الحى العربى كله وإحراق الموقى حتى لاتنبعث من الجيف الروائح
الخبثية وأفتك أنواع الأوبئة ، ماذا كان يقول العالم لو كانت هذه هى خطة هتلر
أيام كان يدك لندن بطائراته وصواريخه الموجهة لو أنه استخدم « النابالم » الذى
يحرق كل ما يسقط عليه ويشعل فيه النار الحامية ؟ ولكن النابالم لم يكن قد
اكتشف أيام هتلر ، إنه هدية حلف الأطلنطى للشعب الوداع الأمين ، للشعب
الذى وجد نفسه فجأة هدفا لجيوش دولتين عظيمتين ودولة رعدية قبلت أن
تكون مخلب قط لتبدو أسدا من الأسود التى تكشر عن أنيابها فى الغاية .
وانقبضت جانيت وذهبت إلى الشباك ومدت عينها إلى السماء وراحت
تصيح فى الطائرات :

— أنتم مخدوعون . مخدوعون . لحساب من هذا العدوان ؟ استقل يا إيدن ،
استقل يا من جللتنا جميعا بالعار .

وسمعت صوت طائرة منقضة وإطلاق رصاص مدافعها الرشاشة ، فراحت
تقلب وجهها فى المكان فرأت طفلا صغيرا فى وسط الطريق يبكى ويرتجف من
الفرع والرصاص يتساقط من حوله ، فأحست كأن قلبها يكاد ينخلع خوفا
عليه ، ودارت على عقبها واندفعت تهرول ولم تعد تشعر إلا بالخطر الذى يحيط
بالطفل البرىء من كل جانب .

ووقفت سيارة توفيق أمام البيت وقفز منها يحنمى بالجدران من القذائف
والرصاص المنهمر بغير حساب ، خرج عبود من السيارة ، وفيما هو يغادرها لمح
الطفل الصغير وهو يبكى مفزوعا ، فانقبض صدره وخطر له أن يجرى إليه

ليحمله ويفر به من الموت الذى يريد أن يتخطفه ، بيد أن الضرب اشتد فوقف مترددا لحظات وهو حائق على نفسه ذلك الخور الذى يسرى فى أوصاله وهمس فى جوفه هامس : « لو أن ذلك الطفل كان ابنك حسينا أكنت تتردد هذا التردد الجبان؟! » وقبل أن يقرر شيئا كانت جانيت تندفع وسط القذائف والانفجارات إلى حيث كان الطفل وقد وقف توفيق يرصدها فى دهش وعبود يرقبها فى إعجاب يشوبه حسد ، كان يتمنى لو أنه هو الذى انطلق لينقذ الغلام . ومالت جانيت على الطفل الصغير وخطفته وهمت بأن تعود به وهى تحمله ، وإذا بشظية من شظايا القنابل تصيبها فى رقبتها فتصرخ صرخة هائلة ثم تسقط هى والطفل على الأرض تتخبط فى دماؤها .

واندفع توفيق وعبود إليهما وقد نسيا كل شيء عن الغدر الرهيب الذى يلقي المتفجرات ليحصد أرواح الأبرياء ، وحمل توفيق جانيت على ذراعيه والتقط عبود الطفل وضمه إلى صدره وراح يحميه بكل جسمه من شظايا القنابل والمدافع والرصاص المنهمر من كل مكان .

وسار كل منهما بحمله إلى البيت ، توفيق يتمزق قلبه أسى ويملؤه خوف من أن تكون إصابة زوجه قاتلة ، وعبود زائغ البصر يترقب وقد تركزت كل مشاعره على أن يبعد ذلك الطفل البريء عن جحيم الغارة الكاسرة .

وأقبلت أم وهى تجرى فى ذهول وتصيح فى ولولة :

— ابنى ! ابنى !

وراحت تدور فى الطريق وتتلقت دون أن تحفل بالانفجارات وأصواتها المرعبة ، ولحمت عبود يحمل ابنا فانطلقت إليه وأخذته منه فى لفة ، وضمته إليها وراحت تطمره بقبلايتها وهى تغمغم :

— ابنى ! حبيبى !

وغسلت دموعها وجهها .

وراح توفيق يصعد فى السلم وهو واله حزين ، وسار عبود خلفه وهو لا يدرى ماذا يفعل . كانت الدماء تسيل غزيرة من رقبة جانيت على ذراع توفيق

وترسم خطا على الدرج الرخامى الأبيض، وفي مثل ملح البصر كان عبود يرى بعين خياله أحواض الملح المترامية، سهوله البيض الحبيبة، قد غمرت بدماء تفور كما يفور الماء في القدور فنزل بصدرة حزن نفيل .

ودخل توفيق مسرعا إلى غرفة النوم وعبود في أثره، ووضع جانيت في السرير ثم حاول أن يوقف تدفق الدماء من رقبتها بيده دون جدوى، غرقت يده بالدماء وسالت على الفراش .

وراح عبود يتلفت وهو في ذهول وخوف، فرأى فوطة على حاملها فخطفها وناولها لتوفيق الذى راح يكتم بها الدماء المتدفقة في غزارة .

وفتحت جانيت عينين واهيتين ثم غمغمت في صوت خافت :

— قوموا هذا الطغيان .

وزفرت زفرة أخيرة، ومال رأسها وألقى على الوسادة دون إرادة، فصاح توفيق في هلع :

— جانيت ! جانيت !

وراح يمرغ وجهه في دمائها .

ووقف عبود ينظر فأحس وقدة نار في حلقه وقد تحجرت دموعه في عينيه، وشعر برغبة شديدة في أن ينفس عن الآلام المبرحة التى تغشى روحه وتعذب فؤاده فذهب إلى النافذة ومد بصره إلى الطائرات التى كانت تتدفق على بور سعيد في أسراب متتابعة . وصاح في غضب :

— وحوش ! وحوش ! قتلتم يا مجانين أختكم . قتلتم الخير فيكم . لا . لم يعد في

الدنيا خير . لا . لم يعد في الدنيا سلام .

وانطلق نائرا ليخوض مع إخوانه غمار المعركة .

كانت بهية تنتظر عودة زوجها، انتصف الليل ولم يعد عبود، والمدينة غارقة في الظلام والغارات مستمرة والانفجارات تزلزل المدينة ونيران الحرائق تشب

وتتطاول وتنير ما حولها بنور أحمر يغشاها سواد الدخان .
ونظرت إلى وليدها الغارق في نومه فشاع في صدرها الحنان ، وتحركت
عواطف الأمومة فمالت عليه وقبلته قبلة مسحت كل المخاوف التي رانت على
نفسها القلقة الحائرة وأنزلت عليها سكينه وأمنا .
وسمعت جلبة وضوضاء وأصواتا حادة عالية منبعثة من الشارع ، فهرعت إلى
الشباك ونظرت من خلف الزجاج فألفت الشيوخ والنساء والأطفال قد غادروا
دورهم وانطلقوا هائمين على وجوههم لا تدري إلى أين يذهبون؟!
وتدسس الخوف إليها وعاد ليستولى على كل مشاعرها فوقفت شاردة حائرة
لا تدري ماذا تفعل ، حتى إذا ما أحسست البرد يسرى في بدنها عادت إلى ابنها
وراحت تضع فوقه أغطية أخرى خشية أن يصل إليه زمهرير الشتاء الذي كان
يخرم عظامها .

كان بريئا براءة الملائكة ، فغمغمت في انشراح وقد تفتحت نفسها :
— والنعمة الشريفة أنت جميل يا حسين .

ولم تدم سعادتها طويلا فقد سقط طوريبه هز الحى كله وخطف مهجتها ،
وخطرت لها فكرة كان وقعها على نفسها أشد من وقع الطوريبه لو أنه سدّد إلى
قلبها ، ماذا يكون حالها لو أصيب حسين في هذه الغارات الطائشة؟ وكأنما كان ما
طاف بذهنها حقيقة واقعة ، فخطفت ابنها من فراشه في فرع ، وضمته إلى صدرها
في حنان ، ومالت عليه تحميه بكل كيائها وعواطفها وخفقات فؤادها .
وأخذت تتلفت في خوف وأرهفت حواسها ، فراحت أذناها تلتقطان أزيز
الطائرات وطلقات الرصاص وصرير الباب ، فقالت في صوت متهدج مخنوق :

— من؟

— أنا عبود .

ودخل عبود إلى حيث كانت واقفة وحسين بين أحضانها ، ودنا منها فرأته
يحمل بندقية وفاحت منه رائحة البارود والعرق ، فقالت له :
— ما الذى أخرج حتى هذه الساعة؟

- فلم يفكر في أن يرد عليها وقال لها :
- هيا يا بهية وخذي ملابسك وملابس حسين .
- إلى أين ؟
- كل الشيوخ والنساء والأطفال تركوا المدينة وخرجوا لبيتعدوا عنها .
- لماذا ؟
- أذاع راديو لندن وصوت إنجلترا وإسرائيل أن جيوش إنجلترا وفرنسا ستنزل إلى بورسعيد ، وطلبت من الأهالي الابتعاد عن مواقع الغزو .
- ستذهب معنا يا عبود ؟
- لا . سأبقى مع إخواني هنا .
- سأبقى معك ، لن أترك بيتي أبدا .
- لا بد أن تخرجي مع الخارجين .
- لا سأبقى هنا . سأبقى هنا .
- بل لا بد أن تخرجي ، هيا يا بهية ولا تضيعي وقتنا .
- وراح يخرج ثيابها وثياب ابنه وبهية تصيح :
- عبود ! لن أغادر بيتي . لن أغادر بيتي .
- ستذهبين يا بهية من أجل حسين .
- ولان قلبها وكسرت مخاوفها حدة عنادها فقالت :
- وإلى أين نذهب ، ولمن ستركننا ؟
- وأحس غصة في حلقه ودمعة تجرى إلى عينيه ، ولكنه راح يجاهد ليكبح عواطفه وقال :
- ستكونين مع أهل حيننا ، مع فتحية وأمها وأخواتها ، وإن هي إلا أيام حتى نلحق بكم لنعود معا إلى دورنا .
- ولاحت لها بشاعة ما هي مقدمة عليه فصاحت في فرع :
- لا . لا . سأبقى هنا .. سأبقى هنا .
- بقاؤك هنا مستحيل ، هيا يا بهية .

ولف حسينا في بطانية لفا محكما وحمله بين ذراعيه كأنما كان يحمل كنزائنا ،
وراح يدفع بهية بكتفه في رفق فسارت مطرقة ، حتى إذا ما بلغت الباب فاضت
شجونها وانفجرت أحزانها فتعلقت برقبة زوجها وأخذت تنسج بالكاء وتصيح :
— لا تتركنا يا عبود . عبود . دعنا معك . أرجوك .

وراحت قبله ودموعها تبلل خديه ، فأشعلت في حشاياه نار حامية وقال لها
في رقة :

— هيا يا بهية . لن يطول فراقنا .

وبعدت عنه ، فرفع ابنه وقبله قبله كانت ذوب نفسه الحانية ، ثم راح يهبط في
الدرج وبهية إلى جواره حزينته والهة .

وساروا في الطريق وقد سدته أنقاض الدور المتهدمة ، فراح عبود يعاونها على
أن تتجاز الأحجار التي تعترض سبيلها ، وكان مشفقا عليها فما أقل الأيام التي
مرت منذ أن وضعت ولدها ، كان يحلم بأن يحتفل بمولده احتفالا كبيرا فإذا
بأعداء السلام يأبون إلا أن يعتدوا على الآمين الوداعين ليزهقوا أرواحهم أو
يرغموهم على أن يفروا من الطغيان ويهيموا على وجوههم .

ورن في أذنيه صوت جانبته وهي تجود بروحها : « قوموا هذا الطغيان » ،
فأحس أسى وامتلا حنقا على المعتدين الذين يطفئون في قسوة آمالا جميلة مشرقة ،
ويفرون بين قلوب محبة هائنة .

وانطلقوا في الظلام وقد غشى عبود وجوم وقد أخذت بهية تقنع نفسها بأنه
لولا ابنها ما قبلت أبدا أن تقدم على هذه التضحية ، ولحقوا بأفواج الشيوخ
والنساء والأطفال المنطلقين إلى المنزلة وخالطوهم ، فأحست بهية بعض الراحة ،
ورأى عبود أن يترك زوجته وابنه مع الأعراء الذين أرغموا على الخروج من
دورهم ، فمال على ابنه وقبله قبله طويلة وهو يضمه إلى صدره ، ثم مد يديه إلى
بهية ، ونظرت بهية إلى زوجها وإلى ابنها نظرات زائغة ثم مدت يدها وتناولت ابنها
وهي في ذهول ، وقبل أن تضمه إليها كان عبود يضمها هي وحسين إلى صدره
ويقبلها في لوعة ، ثم ابتعد عنهما وقال في صوت خافت :

— مع السلامة يا بهية . مع السلامة يا حسين .

ودار على عقبيه وبهية تنادى :

— عبود ! عبود !

واندفع لا يلوى على شيء وصوت بهية یرن فی أذنيه :

— عبود ! عبود !

وابتعد عنها واختفى الصوت فی ضجيج الأصوات وبكاء الأطفال وسعال الشيوخ والعجائز واللغات التي كانت تنطلق من الأفواه التي فاضت بالمرارة ، بيد أن صورتها وهي تحتضن حسينا كانت تملأ ما بين الأرض والسماء فتؤجج نار حقدہ على من بيتوا الغدر وأصروا على العدوان .

وبزغت الشمس وعبود فی طريقه إلى مطار الجميل فقد طلبت إذاعات الأعداء من الأهالی أن يتعدوا عن المطارات وعن مواقع نزول القوات ، وكان رد أهالی بور سعيد وقوات الجيش والبوليس أن هرعوا بأسلحتهم إلى تلك الأماكن ليكونوا فی استقبال المغرورين الذين قدروا أنهم ذاهبون إلى نزهة حربية !

وبلغ الجبانة فألقى الأهالی قد اختبئوا بين القبور وفي أيديهم أسلحتهم وغيونهم على مطار الجميل ينتظرون أعداءهم ، فأسرع ليأخذ مكانه ، وقابل وهو فی طريقه إلى ما يختفى وراءه صديقه بهنس فی ثيابه الرسمية فربت على ظهره وقال :

— صباح الخير .

— صباح الخير يا عبود .

وتلفت لعله يرى أحدا من أصحابه ولكنه لم ير منهم أحدا . كان الشيخ حسن بين المدافعين عن بور فؤاد ، وقد قابل هناك سليمان وهو يحمل سلاحه وهم بأن يحييه ولكن التحية لم تجر على لسانه ، أجمته فكرة أنه إنسان مستهتر ينفق ما يجود عليه الخيرون فی الشراب دون أن يرحم ضعف قلبه .

وكان فانوس ومرجان فيمن خرجوا للدفاع عن الرسوة ، أما توفيق فقد كان حائرا لا يدري أين ينتظر ، كان ينتقل من مكان إلى مكان في ثورة يتلهف على لقاء من مزقوا قلبه ، لعله يطفئ نار الحقد المتأججة في صدره .

وجاءت الطائرات المغيرة وهي آمنة بعد أن سكتت البطاريات المضادة للطائرات وبطاريات السواحل بعد تدميرها، وأخذت تمهد للغزو بإلقاء قنابلها الحارقة وشديدة الانفجار والنابالم، وتنقض على الناس وتطلق عليهم مدافعها الرشاشة لتلقى الرعب في قلوبهم.

وظهرت في سماء بور سعيد مع الشمس الصاعدة طائرات ضخمة تحمل جنود المظلات، اتجه بعضها إلى بور فؤاد وراح بعضها يحوم حول مطار الجميل وحلق بعضها فوق كوبرى الرسوة، وإن هي إلا دقائق حتى كانت مظلات الشياطين الحمر تملأ السماء، وراح عبود مع إخوانه يطلقون الرصاص على الهابطين. كان بهنس يسدد رصاصاته في إحكام وكانت طلقاته تنفذ إلى القلوب، وبلغ بعض الشياطين الحمر أرض المطار سالمين فأطلقوا نيرانهم صوب المدافعين وراح الفريقان يتبادلان إطلاق الرصاص، وأراد الشياطين الحمر أن يتحصنوا بسور المطار بيد أن المدافعين راحوا يشددون عليهم الهجوم ويصبون عليهم قذائفهم صبا. وأصيب رجل في كتفه فمال على الحجر الضخم الذى كان يحتبىء خلفه، وهم عبود بأن يذهب إليه ليضمده جراحه، وقبل أن يغادر مكانه وقعت عيناه على صديق الفرار جى يتقدم إليه ويضعه في رفق فوق النقالة ويحمله هو وزميل آخر لبيتعدا به عن أرض المعركة.

وتقدم بهنس خطوات وأطلق رصاصتين سقط بعدهما جنديان من الشياطين الحمر يخبطان في دمائهما، وتقدم خلفه المدافعون، وأيقن الهابطون من الجو أن نهايتهم دنت بعد أن فتحت عليهم نيران جهنم، فطفقوا يضربون المتقدمين للإجهاز عليهم في جنون اليأس فسقط بعض الصناديد مثخين بالجراح، وشعر عبود بأن طيفا مر به وانثنى على الجرحى يعالج جروحهم، فالتفت في سرعة وبما ارتد إليه طرفه حتى هتف في صوت خافت:

— إنصاف.

ورمقته بنظرة خاطفة وسرعان ما عادت إلى العناية بالذين اشتعلت بطولاتهم وتألفت بعد أن ألقوا بأنفسهم في جوف المعركة كما يتوهج التبر إذا ما وضع في النار.

وفي ذلك الوقت الذي احتدم فيه القتال كان الفرنسيون يلقون جنود المظلات من الجو في بورفواد، وأخذ المدافعون يتلففونهم ويصرعونهم وهم معلقون بين السماء والأرض.

ووصل بعض الهاطلين إلى الأرض سالمين وتأهبوا للقتال، وإذا بالشيخ حسن يرتبك ولا يدرى ماذا يفعل غير إطلاق الرصاص. كان سليمان إلى جانبه وكان يسدد طلقاته في مهارة وثبات حتى إن الشيخ حسن حسده في نفسه واستكثر على سكير مثل هذه الصلابة التي بدت منه، ترى ماذا كان يفعل لو لم يكن قلبه ضعيفا؟ وصاح سليمان صيحة هائلة ارتج لها المكان. هتف وهو يندفع وحده صوب الأعداء:

— الله أكبر! الله أكبر!

وانطلق المدافعون خلفه وهم يكبرون تكبيرات أنزلت الرعب بقلوب الفرنسيين، واندفع الشيخ حسن يكبر تكبيرة فتح وكان في قرارة نفسه يتمنى لو أنه هو الذي بدأ بالتكبير.

وأكبر في نفسه سليمان السكير ضعيف القلب.

وراحت الإذاعة تذيع على الشعب: « في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم أنزلت قوة من جنود المظلات في بورسعيد في ثلاثة مواقع هي: « الجبانة وبورفواد ومطار الجميل » وقد أبادت قوات الجيش والبوليس والشعب جنود العدو عن آخرهم.

وأقبلت طائرات نقل الجنود وراحت تسقط فوق كبرى الرسوة موجة أخرى من جنود المظلات، فخف المدافعون يستقبلون الهاطلين برصاصهم، وشد انتصار إخوانهم في مطار الجميل على الشياطين الحمر أزرهم فأخذوا يطلقون النيران في ثقة وثبات وهم يعلمون أهمية الدفاع عن مواقعهم، ففي هذه المنطقة محطة المياه، فإذا ما استولى عليها العدو تحكّم في الشريان الذي يمد المدينة كلها بالحياة.

واندفع المدافعون إلى حيث سقط جنود المظلات ليجهزوا عليهم، فطفقوا

بركزون نيرانهم الحامية على الأجساد التي ارتطمت بالأرض، ولم يهب جندى واحد من الجنود الذين تساقطوا كالطر من السماء على قدميه، ولم يسدد إلى صدور المهاجمين رصاصة واحدة. كان ذلك شيئا يدعو إلى الدهش، فتقدم فانوس في حذر ومرجان يحمى تقدمه وراح يتحسس أحد الأجسام التي غطت الأرض فظهرت له الخدعة، إن ما أسقط من الطائرات لم يكن جنودا بل كان دمي ترتدى ثياب الجنود للتضليل، وصاح فانوس:

— خدعوننا.. خدعوننا.. هيا يا رجال لنعود إلى مواقعنا.

وقفل الرجال عائدين ليحتلوا أماكنهم قبل أن يستغل العدو خدعته. وأقبلت موجة أخرى من الطائرات وراحت تسقط شياطينها الحمر على الجبانة، فراح المتحصنون بالمقابر يركزون النيران عليهم ليوردوهم موارد الهلاك قبل أن يلمسوا بأقدامهم النجسة الأرض الطاهرة، وراح عبود يطلق الرصاص في ثبات بعد أن أُلّف جو المعركة، وعلى الرغم من برودة الجو تفصد العرق من وجهه وأخذ يسقط في عينيه، فكان يمسحه بذراعه ثم يعود ليستأنف اصطياذ الهابطين ليلقوا مصائرهم.

وأحس يدا تمتد لتجفف العرق المنبثق من وجهه ليجرى على صدره، فالتفت فألقى إنصاف إلى جواره في قلب المعركة، فقال لها:

— شكرا لك. أرجوك يا إنصاف أن تتعدى عن رصاصهم.

فقالته وهى تذهب إلى جريح سقط على بعد خطوات منها:
— أتخاف علىّ؟

فقال وهو يسدد طلقاته إلى الأعداء:

— إننا فى حاجة إليك.

واستمر القتال فى كل مكان عنيفا مريرا قاسيا، وسالت دماء الخدوعين الذين قضوا نحبهم غرباء لا يجدون من يصلى عليهم، وسالت دماء زكية دماء جرت فى سبيل كرامتها، دماء الشهداء.

وراحت سيارات تطوف بالمدينة ومكبرات الصوت المركبة بها تعلن فى

حماس يهز المشاعر ويمد القلوب بالقوة .. كانت بصيحاتها تجلجل هاتفة :
— أيها الأبطال ! لقد أبدنا العدو إبادة كاملة . كونوا على استعداد للقاء عدوكم إذا
ما عاد ، لقد بدأت المعركة والنصر لنا بإذن الله . هيا إلى الكفاح . إلى الكفاح .
يا أبطال !

وخف أبطال بور سعيد لقيموا المتاريس في الشوارع وليتأهبوا لخوض غمار
معركة الشرف والكرامة والفداء .
وفي مجلس العموم البريطاني وقف السر أنطوني إيدن يعلن في خيلاء
المغرورين :

— إن القوات البريطانية والفرنسية تنزل إلى أرض مصر في سهولة ويسر دون
أن تلقى أية مقاومة .

وتلفت أعضاء البرلمان البريطاني بعضهم لبعض ، كانت نظرهم تستنكر هذا
القول ، وتجاوز الاستنكار النظرات فقام المستر دايفز عضو حزب العمال وطلب
الإذن بالكلام .

ووقف دايفز وفي وجهه ثورة وفي نظراته التي كان يواجهها لإيدن احتقار ثم
قال :

— سيدى الرئيس .. هل من الممكن أن تدلنى على تعبير برلماني أستطيع أن
أستعمله لأقول ما معناه أن رئيس وزراء الإمبراطورية كذاب !

سرى بين أبطال بور سعيد نبأ خديعة العدو للمدافعين عى الرسوة بإسقاط
دمى وهايكل على هيئة جنود وانطلاق المدافعين فى أثر تلك الدمى . وانتهاز العدو
هذه الخديعة فأسقط جنودا حقيقيين خلف القوات الشعبية التى هبت كالعاصفة
للقضاء على من حسبتهم الشياطين الفرنسيين .

وسمع توفيق أن الهاطين بالمظلات يتأهبون لاحتلال محطة المياه وكوبرى
الرسوة فانطلق يعدو كالجنون ، أحس الخطر الدايم الذى يهدد المدينة كلها لو

وقعت خزانات المياه العذبة في أيدي الفرنسيين، وراح صوت يرن في جوفه :
« الموت أهون من أن أرى الإنجليز والفرنسيين منتصرين . الموت أهون من أن
أرى الإنجليز والفرنسيين منتصرين . الموت أهون من أن أرى ... » .
وملأت صورة جونز رجل التأمين الأصلع رأسه، ورآه بعين خياله
يضحك في لندن ضحكته البغيضة وهو يقول : لقد هزمتنا المصريين ، فثارت
الدماء حارة في عروق توفيق وعزم على أن يقاتل حتى النصر أو يموت .
ووصل إلى الرسوة ، كان المدافعون الذين خدعهم الفرنسيون قد عاودوا
القتال ضد الجنود الذين أسقطوا خلف ظهورهم ، فانضم إلى إخوانه وراح يطلق
الرصاص على الجنود الذين ثبتوا أقدامهم على الأرض والطائرات تدمم بالعتاد
وأدوات القتال .

وراح توفيق يتقدم وهو يسدد الرصاص إلى صدور الأعداء وصوت جانيت
يدوى في أذنيه : « قاموا هذا الطغيان » وما لبث أن سمع صوت عبود يقول :
« قتلتم الخير فيكم » . ولم يشف الرصاص المتدفق من البندقية جرح قلبه فراح
يصيح في انفعال :

— يا كلاب . قتلتم خير من فيكم ، جانيت ! جانيت ! جانيت !
وتأججت نيران الثورة في صدره ، فظل يصيح في حقد : « موتوا ! . موتوا ! .
موتوا » .

واشتد القتال واحتدم وراحت القذائف تزجر ، وخاض الموت المعركة وراح
يحصد الأرواح حصدا ، وضغط الأعداء على المدافعين فتقهقروا ليكونوا بعيدين
عن الرصاص المنهمر . وظل توفيق ثابتا يطلق رصاصه في عناد وقد قرر ألا يزول
من مكانه حتى لو مزقته قذائف الأعداء شرمزق .

ورأى مرجان أن توفيقا قد ثبت كليث يدافع عن عربنه ، فهرع إليه ووقف
إلى جواره وطفق يطلق الموت من بندقيته ، والتقت عيونهما في لحظة بصر بيد أنها
كانت كافية للتعبير عن جلال المعاني التي تزخر بها ، فهم توفيق أن مرجانا يعاهده
على أن يموتا معا أو يكسب الله لهما النصر على المعتدين .

وخف فانوس إليهما ووقف معهما يشد أزرهما: ورأى المدافعون ثباتهم فصاحوا صيحة رجل واحد: « الله أكبر! الله أكبر! » وتقدموا ليكروا على الأعداء ليطردوا من الأرض التي احتلوها ويقضوا عليهم .

ودارت رحى معركة رهيبية: الفرنسيون مستميتون في الدفاع عن أنفسهم، والمصريون أصروا في عناد على أن يقضوا عليهم وعلى أن يطهروا بورسعيد منهم وألا يدعوا خزانات المياه تسقط في أيديهم .

ومرت لحظات قلقة، إن هي إلا كرة واحدة وتصبح القوات الفرنسية كأمس الدابر، ودوت صيحات المدافعين تشق عنان السماء: « الله أكبر! الله أكبر! » وألقى الرعب في قلوب من بقى من الفرنسيين .

— اثبتوا يا رجال . النصر لنا .

— الله أكبر! الله أكبر!

وأوشكت معركة الرسوة أن تنتهى بالنصر المبين، بيد أن طائرات الأعداء ظهرت في السماء وراحت تلقي دفعة أخرى من الهابتين بالمظلات فوق كوبرى الرسوة وبورفؤاد .

وأطلقت مدافع الأسطولين الإنجليزي والفرنسي نيرانها وراحت تقصف المدينة قصفا شديدا، وجاءت أفواج من الطائرات تدك الحى العربى على من فيه وتضرب الأهالى برشاشاتها وتلقى النابالم لتشب الحرائق التى تحرق الدور وأجساد القتلى .

ولم يفت ذلك في عضد المدافعين، بل زادهم إصرارا على القتال والزيادة عن شرف بلادهم .

وانضم الهابتون في الرسوة إلى إخوانهم الذين كاد الرعب يخلع قلوبهم، فصيحات التكبير تمزق أعصابهم ورضاص المصريين يحصد أرواحهم والتعب والنصب والكلال يكاد يودى بهم، فعاد الأمل في الحياة إلى النفوس التى سرى اليأس إليها وأوشكت على البوار .

واشتد قصف أسلحة الدمار، وراح الفرنسيون يزحفون في تودة وحرص

صوب خزانات المياه وكوبرى الرسوة، ويتقدمون وهم يترقبون، وسقط رجالهم على الأرض كأوراق الخريف، صرع خيرة جنودهم برصاص الذين أخذوا يشنون عليهم أقسى الهجمات وأمرها، ولم يحفلوا بفداحة خسائرهم فقد وطئوا العزم على احتلال المكان.

ورأى توفيق طلائعهم على بعد خطوات من محطة المياه فثارت نائثرته وامتلاً غضبا، فاندفع في جنون ليرد المعتدين على أعقابهم، راح الرصاص يتدفق من فوهة مدفعه الرشاش وصيحات التكبير تنطلق من خنجرته فتدوى دويا هائلا يخلخل مفاصل الأعداء، وينزل الرعب في قلوبهم:

— الله أكبر! الله أكبر!

ونسى في غمرة حماسته نفسه فراح يتقدم في غير حرص، وأضحى على بعد خطوات من الأعداء فصار صيدا سهلا للجنود الفرنسيين الذين كانوا يرصدونه في دهش واستغراب.

وصوب إليه أحدهم بندقيته فأصابه في كتفه، وانثق منه الدم الحار فلم يحس ما أصابه وظل في إطلاق الرصاص في عناد وصلابة، وسدد إليه جنديان آخران من الفرنسيين مدافعهما ليجهزا عليه ليستريجا من الصوت المجلجل الذى يلقى الرعب في قلوبهم، وقبل أن ينطلق الرصاص من مدفعيهما كان رصاص فانوس ومرجان يستقر في قلوبهما.

وظل توفيق في زحفه المقدس وهو لا يشعر بما أصابه، وراح يهتف: تقدموا.. تقدموا.. أبعدهم عن الخزان. أبعدهم عن المياه.. يا أبطال بور سعيد. هذا يومكم.

وخارت قواه وأحس الأرض تميد به وكل شيء يتراقص أمام عينيه. فراح في غيبوبة وانهار على الأرض.

وأخذ الفرنسيون يتقدمون في بطء شديد، كانت مقاومة المصريين شديدة لا تلين لهم قناة، وكانت صيحات التكبير تفزع الأعداء الذين كانوا ينددون عن أرواحهم.

ورأى مرجان أن توفيقا أصبح تحت رحمة بنادق الأعداء، فالتفت إلى فانوس وقال له:

— احم تقدمي .

— ماذا ستفعل؟

— سأبعد الباشمهندس عن أرض القتال .

وقبل أن يتحرك مرجان كان صديق الفرار جى يشق الصفوف في شجاعة ورباطة جأش، واندفع في ثياب الإسعاف والمركبة دائرة إلى حيث سقط توفيق والرصاص يثر من فوقه وعن يمينه وعن شماله .
ومال صديق على توفيق وحمله وسار به ثابت الخطو إلى حيث يضمده له جرحه ليعود إلى الكفاح .

وأحنق القيادة المتحالفة ثبات قوات بور سعيد وقتلهم خيرة جنود الدولتين العظيمتين بريطانيا العظمى وفرنسا، فصدرت الأوامر إلى الطائرات والأسطولين الواقفين عند مشارف المدينة بإطلاق نيرانها على الأهالي الذين حملوا السلاح لمقاومة الغزو مع رجال الجيش والبوليس، فأخذت أمواج من الطائرات تشن غارات مستمرة على الحى العربى وتلقى قنابلها المدمرة وقنابلها الحارقة والنابالم وتهاجم السائرين في الطرقات بمدافعها الرشاشة، وطفقت مدافع الأسطولين تقصف المدينة قصفا شديدا فدكت الدور على سكانها وأشعلت النيران واختلطت صرخات الفزع بمحسرة الموت بانهيار الدور بصليل أجراس الحريق برنين عربات الإسعاف .

وهام الشيوخ والنساء والأطفال على وجوههم يحاولون أن يفروا من الموت، بيد أن قذائف الطائرات كانت تبعثرهم أشلاء، وتأججت النيران واندلعت ألسنتها لتبلغ عنان السماء، والنساء مفزوعات بعد أن أحاط بهن سرادقها، يهرولن دون هدف ويصرخن مفزوعات صرخات تفتت الأكباد فالنار ترعى في أجسادهن .
وحلقت الطائرات فوق بحيرة المنزلة، كان بعض الشيوخ والنساء والأطفال الذين خرجوا ليفروا من المدينة في قوارب تحملهم إلى شاطئ البحيرة الآخر، وكان

البعض ينتظرون أوبة القوارب لتحملهم بعيدا عن أرض المعركة .
والتفت المهاجرون إلى السماء في ذعر شديد ، وضمت بهية حسينا إلى صدرها
كأنما تحاول أن تحميه من غدر الغادين ، وراح الشيوخ والنساء والأطفال يخاولون
أن يفروا من الطائرات ، إلا أنها ألقّت عليهم قنابلها وانقضت تحصدهم بمدافعها
الرشاشة .

وانفجرت القنابل وطارت الأجسام في الهواء وخر العزل صرعى وقد ارتسم
الهلع في وجوههم ، وألقيت القنابل على القوارب والمراكب الشراعية فسقط من فيها
في الماء والصراخ والعيويل وصيحات الفرع تدوى في الفضاء ، وغطت الدماء
الزكية شاطئ البحيرة ولونت ماءها باللون الأحمر ، وزاد في ضراوة المشهد انعكاس
النيران المشبوبة على سطح الماء لكأنما نفخ في الصور وكأنما البحيرة قد سجرت .
ولم يفث ذلك في عضد المدافعين وظلوا مشتكين في قتال شديد مع الهاطين إلى
بور فؤاد ومطار الجميل والجبانة وكوبرى الرسوة . وتمكن الفرنسيون بعد جهود
مضنية من أن يحتلوا محطة المياه ، أصبحت الخزانات في أيديهم فرأى قائد المظلات أن
يساوم المدافعين عن بور سعيد بالماء الذي بات يتحكم فيه .

أرسل يطلب الاجتماع بالمسؤولين في المدينة ، فاجتمع الحكمدار ببعض
مستشاريه وراحوا يتشاورون . كان من رأى البعض ألا يذهب إليه أحد ، وكان
هناك رأى بأن ليس من وراء هذه المقابلة من ضرر ، ومن يدرى فقد يطلب قائد
المظلات التفاوض على الرخيل ، وانتصر هذا الرأى .

فذهب خمسة من المدنيين والعسكريين على رأسهم الحكمدار وهم مدججون
بالسلاح ، لمقابلة قائد القوات المحصورة وكانت لا تستطيع أن تتقدم خشية أن
يتخطف أفرادها الموت الذى يطل من بنادق الصناديد الذين وقفوا في وجه الغزو
مكشرين عن أنيابهم .

واجتمع مجلس العموم البريطاني وكان الجو مكفهازا والجميع يتأهبون لمهاجمة
إيدن والصياح في وجهه : استقل يا سفاح . ودخل إيدن في خيلاء وأعلن في غرور :
— إن القوات البريطانية والفرنسية قد احتلت بور سعيد ، وإن قائد حاميتها

المصري قد طلب شروط التسليم، وإنه نتيجة لذلك توقف إطلاق النار في السويس !
وذابت المعارضة، ونسى الجميع ما كانوا يتشدقون به عن الأخلاق، وبرزت
روح الاستعمار الكامنة في الجميع، فدوت قاعة مجلس العموم بالتصفيق، وقام
جيتسكيل يقول:

— إن وقف إطلاق النار يدعو إلى الارتياح.

كان ذلك وهما، فطلقات المدافع والقنابل والبنادق كانت تجلجل في مطار
الجميل والجبانة والرسوة وبور فؤاد.

وخرج المصريون بعد مقابلة قائد المظلات وهم في دهش مما سمعوه، قال
أحدهم:

— إنه مجنون. كيف يطلب منا التسليم !؟

وقال آخر في سخرية:

— يهددنا بتدمير المدينة! العزيمة في الصدور لا في الدور.

واستمر القتال وعادت الطائرات لك ذلك ما بقي من الحى العربى، وراحت القنابل
الحارقة والنابالم والقنابل المدمرة تهوى على الأهلين، وقذفت مدافع الأسطولين
المدينة بقنابلها، كانت الخطة تهدف إلى الانتقام من الأبطال الذين أذاقوا الغزاة
الموت وإلى حرق جيث ضحايا العدوان حتى إذا ما نزل الجنود الفرنسيون والإنجليز
إلى البر أمنوا من الأوبئة التى قد تفتك بهم.

وارتفعت الصيحات والصراخ والعويل وبكاء الأطفال ونحيب الشيوخ
وولولة النساء وصليل أجراس الحريق ورنين أجراس الإسعاف، والناس يهزلون
مرعوبين مفزوعين لا يلوون على شيء، وقد شبت النيران في بعضهم وذاق بعضهم
عذاب الحريق.

ومالت الشمس للغروب، وأقبلت أفواج من طائرات الجنود وراحت تلقي
فوق بور فؤاد والجميل إمدادات من الهابطين بالمظلات لتعزيز القوات المعتدية التى
كادت أن تنهار أمام تصميم المدافعين على القتال العنيف.

وعلى ضوء الحرائق كان المدافعون يصوبون نيرانهم إلى الهابطين. وقد وصل

بعضهم إلى الملاحات في بور فؤاد بعد أن جرت عليها دماء القوات التي أيدت في الصباح وعند الظهر، وكانت ألسنة النيران تعكس على سهول الملح المختلطة بالدماء، وصبغ الشفق الأفق بلون أرجواني فبدا كأن الكون كله أتون نار متوهجة تعلوها ظلال من الدخان .

ورأى المدافعون عن مطار الجميل والجبانة أن القوات الهابطة في المطار تتحصن في حماية المعيرات التي تحوم فوقهم ، فأشار قادة القوات الشعبية باستدراج الهابطين بعيدا عن الطائرات التي تحميهم ، فراح المدافعون يتقهقرون ، فأطمع ذلك الشياطين الحمر فأسرعوا يفتنون أثرهم حتى إذا ما وصلوا إلى الجبانة كانوا قد وقعوا في الشرك ، فالمكان هناك يضيق حتى ليتعذر على الطائرات تغطيه المهاجمين .

وفجأة يدوى صوت المصريين كهزيم الرعد :

— الله أكبر ! الله أكبر !

ويلتحم الفريقان في قتال مرير ، ويشند القتل وتسيل الدماء أنهارا ، ثم يتقهقروا بقى من الشياطين الحمر ليعودوا إلى مواقعهم خلف أسوار مطار الجميل ليلعنوا جروحهم .

ووقف عبود يلتقط أنفاسه ، وأقبلت إنصاف تمسح الدماء التي سالت على وجهه ، وجاء رجل يسعى ويقول في غيظ :

— أغار الأندال على بحيرة المنزلة وقتلوا في خسة الشيوخ والنساء والأطفال .
جث الأبرياء مبعثرة على الشاطئ هنا وهناك تفتت الأكباد . وصاح عبود في فرع :
— بهية ! حسين !

وراح يعدو كالمجنون ، وانطلقت إنصاف في أثره .

ووصل إلى الشاطئ وألسنة النار تثير المكان ، ووقف ينظر مشدوها ويتلفت في ذهول ، ثم اندفع إلى الجث يقلبها يبحث عن زوجته وابنه الحبيب .

وراح يهتف والأسى يعصر قلبه :

— بهية ! حسين ! بهية ! حسين !

واستمر يجوس خلال الجث . الرعب في العيون والفرع ارتسم على الوجوه ،

أجساد مشوهة وأطراف مبتورة وأدمغة مشجوجة و بطون مبقورة وأمعاء منشورة
ودماء كأنها ماء يمور .

وراح يخوض بقدميه في الدماء ويتفرس في وجوه الشيوخ والنساء والأطفال
ضحايا الغدر الحسيس ، والغیظ يمزقه تمزيقا ، واستمر يهيم بين أشلاء الأعراء وهو
واله حزين ، ووقف أمام جثة امرأة احتضنت ابنها في حرص شديد فخفق قلبه في
شدة ، ولم يستطع أن يصلب عوده فانهار إلى جوارها ومد يده يقبلها ، فندت منه
صرخة هائلة مزقت السكون :

— بهية ! حسين ! ابني .

وارتمى عليهما يمرغ وجهه في دمائهما الزكية ، ودار في نفسه الحديث الذي
جرى بينه وبين الشيخ حسن والأسى يكاد يمزق نياط قلبه :

— بل سمه حسنا أو حسينا .

— سأسميه حسينا . حسين عبود . اسم جميل . أليس كذلك ؟

— اخترت أن يكون شهيدا .

وجاءت إنصاف وجذبتة في رفق ، بيد أنه كان متشبثا بهما يضمهما إلى قلبه
الذي تأججت فيه نيران الأسى والحقد والغضب . ومالت إنصاف عليه وراحت
تنترعه منهما انتزاعا ، فقام وهو مطرق وظل صامتا برهة ، ثم رفع وجهه الذي مرغه
في دمائهما إلى السماء ويديه اللتين كانتا تقطران بدمائهما العزيرة الغالية وصاح :
— سأعرف كيف أنتقم لهما .

كان الظلام يحيم على بحيرة المنزلة ، وكانت السحب تتجمع لتحجب النجوم
المتلألئة في زرقة السماء ، وكان زورق صغير يشق عباب الماء متجها إلى بور سعيد .
كان الجو باردا ولكن الأجسام الفتية القوية المفتولة العضلات التي ملأت فراغ
الزورق ما كانت لتحفل بزمهرير الشتاء ولا حر الصيف ، فقد مرت بتجارب قاسية
جعلتها في مرونة المطاط وصلابة الفولاذ .

وفي سواد الليل تألق بريق العيون . كان ينم عن حزم وعزم ، ورن صوت مأمون يقول :

— ترى ماذا يجري في بور سعيد؟

وقال ضابط من ضباط الصاعقة :

— عما قريب سنكون في قلب المعركة وسنعرف كل شيء .

وإذا بضابط آخر يقول :

— المهم أن ننقل إلى القاهرة صورة صادقة عن حقيقة ما يحدث في بور سعيد .

وقال ثالث :

— الإذاعات الخارجية بلبت الأفكار ، إنها تذيب سلسلة من الأكاذيب .

— ماذا ننتظر من صوت بريطانيا وإسرائيل ولندن غير هذا ؟

— وراديو العراق ؟

— إنه صوت سيده . نوري السعيد يتمنى من غير شك أن تتحقق آماني إيدن

وأكاذيبه .

— كيف يواجه إيدن العالم بعد أن أعلن على الملأ أن بور سعيد طلبت التسليم ، ثم

جاء كيتلي قائد القوات الإنجليزية والفرنسية وقال في بيانه بعد الظهر : إن مصر لن

تسمح للإنجليز والفرنسيين باحتلال القناة ، وأن قتال المصريين في بور سعيد عنيف

جدا .

— سيواجهه بأكذوبة جديدة . فهو صفيق .

ونظر أحدهم إلى ساعته في الظلام ثم قال :

— حان موعد نشرة الأخبار .

والتقطت يده جهاز الراديو الصغير وأدارته ، فانسابت مقدمة النشرة الموسيقية

فإذا بالقلوب تخشع وإذا بالأذان ترهف وإذا بقلبي يتدسس إلى النفوس .

وأخذ المذيع يقرأ :

— في الساعة السابعة والنصف من مساء اليوم نزلت قوة من جنود المظلات

البريطانية والفرنسية في منطقة «الجميل» غربى بور سعيد ومنطقة «بور فؤاد» وقد

تمكنت قواتنا والشعب من إبادة هذه القوة ، ولقد تعرضت مدينة بور سعيد لغارات جوية عنيفة مستمرة كان هدفها الأول الضغط على الأهالي . وبالرغم من هذا الهجوم العنيف عليهم فإنهم شاركو القوات المصرية في مقاتلتهم للعدو . وقرب غروب الشمس تمكن العدو من تعزيز قواته مرة ثانية في نفس هاتين المنطقتين ، وقد تكبد العدو خسائر جسيمة اعترف بها في بلاغاته الرسمية ، ولا زالت قواتنا مسيطرة سيطرة تامة على بور سعيد ، عدا منطقة «الجميل» وجزء من بور فؤاد .

وساد بينهم صمت رهيب وعلا جوههم وجوم ، فقد فطنوا جميعا إلى أن العدو تمكن من أن يثبت أقدامه في الأماكن التي نزل فيها على الرغم من فداحة خسائره ، وإن لا بد من الاشتباك معه في قتال مرير حتى لا ينتشر في المدينة وراح الضابط الذي كان يحمل جهاز الراديو يبعث في أزراره دون هدف ، كانت حركة أصابعه توحى بالحيرة المنتشرة بين جوانحه ، وإذا بإحدى محطات الإذاعة تذيع نبأ عظيما فانتصبت القامات واتسعت العيون ولاح فيها الاهتمام البالغ وأخذ بريق من الأمل يتولد فيها زويدا زويدا ، قال المذيع :

— أرسلت الحكومة السوفيتية مذكرة إلى كل من فرنسا وبريطانيا .. هذا نصها :

« ترى الحكومة السوفيتية ضرورة لفت نظركم إلى الحرب العدوانية المشبوبة على مصر من بريطانيا وفرنسا ولها أخطر العواقب على قضية السلام .. ما هو المركز الذي تجد بريطانيا نفسها فيه لو أنها هوجمت من دولة أقوى تمتلك كل نوع من الأسلحة الحديثة المدمرة ، إن هناك الآن دولا ليست في حاجة إلى إرسال أساطيل بحرية أو جوية إلى شواطئ بريطانيا ، ولكنها تستطيع استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ الموجهة .

ونحن عازمون عزمًا أكيدا على سحق المعتدين وإقرار السلام في الشرق الأوسط باستخدام القوة . ونحن نأمل في هذه اللحظة الحرجة أن تستعملوا الحكمة المناسبة وتستخلصوا النتائج المترتبة على هذا . »

وراح المذيع يعلن أن بولجانين أرسل إلى دافيد بن جوريون رسالة جاء فيها أن

روسيا قررت سحب سفيرها في إسرائيل ، لأنها تنظر بعدم ارتياح إلى تصرفات حكومة إسرائيل التي تجعل كيان إسرائيل موضع بحث في نظر الاتحاد السوفياتي . وقال مأمون :

— إنذار عنيف ! إنه يهدد بقذف بريطانيا بالقذائف الموجهة وضربها بالقنابل الذرية .

وقال أحد ضباط الصاعقة :

— كان بيفان يحس هذا الخطر لما حذر إيدن قائلا : « إذا كانت الحكومة تريد إعادة فرض « قانون الغابة » فيجب عليها أن تذكر أن بريطانيا وفرنسا ليستا أقوى الحيوانات في الغابة ، فهناك حيوانات أشد خطرا بكثير تتحرش بهما » . وقال آخر :

— لماذا لم تقدم روسيا هذا الإنذار العنيف عقب الإنذار الإنجليزي الفرنسي الذي وجه إلى مصر ؟ لماذا انتظرت حتى الليلة ؟
— ربما لأنها وجدت أن الأزمة اشتدت وأنها تخشى أن تتطور هذه الحرب إلى حرب عالمية .

— صمودنا أمام الغزاة هو الذي لفت أنظار العالم إلينا ، لو أن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل أكلتنا في أول يوم من أيام القتال لكانت الآن تهضمنا دون أن تلتفت إلى صياح العالم واستنكاره .

— ما من أحد يستطيع أن يدافع عن حق مثل صاحبه . دفاعنا عن حقنا هز الآخرين فجعلهم يسارعون للوقوف إلى جوارنا ، لو أننا انهزمنا أمام بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لما كان أمام الدول الصديقة إلا أن تترحم علينا وتذرف دموعا على قبورنا .

وانطلق الزورق يشق عباب مياه البحيرة والرياح تصفر والسحب تتكاثف والزمن يطوى والليل يكاد أن ينتصف ولا يمشی الوسن إلى الأجناف ، فقد استيقظت العيون وأرهفت المشاعر وتوترت الأعصاب ، فعلى الشواطئ الشمالية للبحرية تجرى معارك رهيبه تسطر بالدماء صورة المستقبل .

ولاحت في الظلام أشباح مراكب وزوارق مقبلة من بعيد وأصوات المجاديف تشق السكون . وندت طلائع المراكب حتى أصبحت على بعد ذراع من الزورق فراح كل من في الزورق يتفرسون في وجوه من غصت بهم المراكب . كانوا شيوخا ونساء وأطفالا في وجوههم هلع وفي عيونهم فزع وفي تلفتهم رعب شديد كأنما الموت يجد في أثرهم ليتخطفهم وينتزع الأرواح من صدورهم .

وأقبلت أفواج من المراكب والزوارق وارتفعت الأصوات تروى الفزع الأكبر والموت الذي كادوا أن يذوقوه ، وفهم كل من في الزورق الذي كان يتجه في عكس اتجاه المراكب والزوارق الهاربة من الجحيم أن الضعفاء الذين أخرجوا من ديارهم تعرضوا لغارات وحشية خسيصة هدفها فت عضد الصناديد الذين وقفوا في وجه الإنجليز والفرنسيين .

وعاد الزورق يشق طريقه بين المراكب التي فرت من الطغيان ، حتى إذا ما أشرف على المطرية مد مأمون بصره فألقى النار قد اندلعت في بورسعيد وألسنة اللهب تتراقص كالشياطين ، فأحس كأن خنجر اغاص في قلبه ثم راح يمزق أحشاءه وجعل يصرف أنيابه في غيظ شديد .

وانعكست ألسنة اللهب على سطح البحيرة ، وألفت النيران لونها الأحمر على الزوارق والمراكب الشرعية فبدت كأنها قطع من اللهب تمخر في بحر من الدماء ، ورأى مأمون بعين خياله ما فاساه الأحية من كرب شديد فغمغم :
— لك الله يا بهية ! ترى ماذا فعلت في هذا البلاء ؟

وخطر له أن بهية قد تكون في أحد هذه المراكب التي كادت تخفي سطح الماء فراح يتلفت في انفعال ، وارتفع بكاء طفل وليد فاستشعر مأمون حنانا يفيض بين جوانحه وحرنا يسرى في روحه ، وتمنى لو يستطيع أن يمشی على الماء لينقب عن أخته التي يحس حنينها طاغيا إليها .

وخطر له أن ينادى بأعلى صوته : بهية ! بهية ! بيد أنه وجد ألا جدوى من نداءه فأطبق فمه ولم تتحرك شفتاه ، إلا أن النداء كان يدوى في أعماقه دويا يهزه من الرأس إلى القدم .

وقال قائل :

— لن نستطيع أن نهض بمهمتنا ونحن في هذه الثياب ، إننا في حاجة إلى ملابس مما
يرتديها أهالي بور سعيد .

فقال مأمون :

— أنا من بور سعيد وأستطيع أن أجمع ما نحتاج إليه من الملابس في يسر .
ووصل الزورق إلى الشاطئ . كان الجو دافئا فالنيران المتأججة في كل مكان
تبعث الحرارة في أرجاء المدينة ، وقفز ضابط الصاعقة وصف الضباط إلى الأرض
فإذا بحشود من الشيوخ والنساء والأطفال يتدافعون بالمناكب ليركبوا في المراكب
والزوارق فرارا من الهول الذي أحسوه وعانوه وتجرعوه ، فراح مأمون يجوس
خلال الناس يقليب وجهه فيهم لعله يجد بهية ، وقبل أن يغوص في أمواج البشر
التلاطمة الصاخبة الباكية المولولة سمع من يناديه :

— مأمون ! مأمون !

فدار على عقبه ليعود إلى رفاقه ، فإذا بقدمه ترتطم بحثة عمجوز بترت ساقها
وشوهت النيران وجهها فامتعض وأحس حقدا على المعتدين وتمنى لو يستطيع أن
يسحقهم سحقا .

وسار النار تلقى ظلالات على وجهه وعلى حشود الناس المتدفقة من البحيرة ،
فزاد اضطرام كراهية الغزاة في نفسه وجعل يطبق يده في غيظ شديد .

وقال قائد السرية :

— أين سنجتمع بعد أن يقوم كل منا بما عهد إليه ؟

فأشار مأمون بأصبعه إلى معمل ألبان وهو يقول :

— سنجتمع هناك . مالكة صديقي ويمكننا أن نبني فيه .

وتفرقوا واتجه كل منهم إلى مكان من أماكن المعركة ليرى رأى العين حقيقة ما
يجرى في الميدان ، وانطلق مأمون إلى شارع الأمين وهو يرجو أن يلقي فانوس وعبود
والشيخ حسن وصديق ليعاونوه على ما جاء من أجله .

وظفق يفكر وهو في الطريق : «أريد ملابس صياد ، بل أريد ملابس صيادين ،

فما أكثر ما سنحتاج إليها . من أين تستطيع أن تحصل على صدارى يا مأمون ؟
فانوس ؟ ومن أين يحصل فانوس عليها ؟ . لا . ستحصل من القهوة على كل ما
تريد . ماذا سيأكل الضباط وزملائى الليلة ؟ ليت بهية تستطيع أن تقدم لهم شيئا من
صنع يديها . أهلا بهية ! كم أوحشتنى يا بهية .. والنعمة الشريفة يا مأمون أكاد أطير
من الفرح لأنى رأيتك الليلة . اسأل عبود كم كنت خائفة أن يصيبك مكروه . كيف
أنت يا عبود ؟ كيف أنت يا رجل ؟ ماذا تفعل هنا فى البيت والرجال كلهم فى الميدان
يقاتلون ؟ لا لا لا تتحجج بهية . أنت تمقت الحروب .

وبلغ مشارف الحى العربى فوقعت عيناه على أنقاض ، لم يجد بيتا واحدا قائما ،
فدق قلبه فى صدره رهبة وراح يتقدم وهو مذ هول ويتلفت فى بلادة كأنما عطل عقله
عن التفكير .. وأفاق من هول الصدمة ففطن إلى الحقيقة البشعة ، فانطلق يعدو بين
الأنقاض كالجنون والأنوار المنبعثة من النيران المشتعلة تزيد الواقع رهبة ، وجعل
يصيح :

— بهية ! بهية ! عبود ! عبود !

ولم يسمع سوى صدى صوته المفزوع .

ووقف بين الأنقاض يترقب والحزن يعصر قلبه ، وطفرت من عينيه دموع الغيظ
والغضب فقد دكت دور الحى ، صار بيته وبيت بهية وبيت إنصاف ود كان فانوس
والقهوة أكواما من الحجارة والخشب المحروق .

وأحس أنه ضائع بلا أهل ولا بيت وقد انتزع من ماضيه ليعيش شريدا طريدا
وحيدا ، ودارت به الأرض وكاد أن ينهار بيد أنه راح يقاوم ضعفه ويشد أزر نفسه :
« لست وحدك الذى نكبت يا مأمون . كل من بقى حيا فى بور سعيد أصيب بجرح
عميق . جرح !! أهذا جرح ؟ هذه مصيبة . لا تستسلم لهذا الحزن يا مأمون . أنت
جندى . حقا أنا جندى يشرفنى أن أموت فى القتال ، أما أن يقتل الأبرياء وأن تدك
بيوت الامنين فهذا شئ يغيظ .

عليك يا مأمون أن تقاوم هذا العدوان ، أن تقف فى وجهه حتى لا يحيق مثل هذا
الدمار الرهيب بكل البلاد ، حتى لا يدفن الرجال والنساء والأطفال تحت

الأنقاض . هيا يا مأمون ، زملاؤك في الجهاد يرقبون عودتك ، هيا لتنتقم لكل دم زكى سفك غدرا ، لتثار لكل شهيد .

ودار على عقبيه وقفل عائدا وهو حزين ، وطاف بذهنه أن يذهب إلى بيت توفيق يسأله عن هبة وعبود ، إلا أنه قاوم هذا الخاطر فالوقت متأخر وليس من اللياقة أن يدق الباب بعد منتصف الليل .

وسخر من فكرة أن توفيقا وجانيت نائمان في هذه اللحظة ، أيقل أن ينام أحد في بور سعيد وابل من قنابل الأساطيل يسقط عليها وزئير الطائرات المغيرة يتجاوب في أرجائها وطلقات المدافع والبنادق لا ينقطع دويها !

وهاله الدمار الذى حل بالحي العربى جميعه فراح صوته يرن فى أغواره غاضبا :
— وحوش . أنذال . برابرة .

وامترجت الأفكار فى رأسه وتداخلت وهو فى طريقه إلى حيث يحتمل أن يجث الملابس التى وعد بها زملاءه ليتنكروا فيها : « لست وحدك يا مأمون الذى أصبحت بلا بيت ولا مأوى ، كل أهالى الحي العربى أصبحوا مثلك . لماذا لا تذهب يا مأمون إلى المستشفى الأميرى لتقابل إنصاف فهى خير من تستطيع أن تعاوناك على جمع ما تريد من ملابس وستخبرك بأخبار هبة وعبود . لا . لا تكن أنانيا ، إنها ولا شك مجهدة والمصابون فى حاجة إلى كل دقيقة من وقتها ، إنها تقوم بواجبها فقم بواجبك يا مأمون » .

وانطلق فألقى الأهالى قد حفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ووقفوا ساهرين فى أيديهم بنادقهم ومدافعهم الرشاشة ، وحمل بعضهم مدافع البازوكا وفى وجوههم عزم أكيد على القتال حتى النفس الأخير ، وما سار فى وسط الناس حتى ذهبت عنه وحشته وشغل عن نفسه بالأحداث الهائلة التى بات يعيشها .

وخطر إيدن على باله ، أعلن مرة أن جنود الإمبراطورية ينزلون إلى أرض بور سعيد فى سلام واتضح أنه كاذب ، ثم عاد وأعلن أن بور سعيد طلبت التسليم وها هى ذى بور سعيد تقاوت قتال الأبطال وتصلى قوات الغزو نارا حامية وتلهب أرواحهم بأسواط العذاب !

ترى كيف تلقى إيدن إنذار بولجانين؟ إنه نزل على رأسه نزول الصاعقة، نقض غزله وأفسد كل ما دبر. ماذا سيفعل مجلس العموم بالحاقد المغرور بعد أن وضع الإمبراطورية التي بدأت الشمس تغرب عنها في هذا المأزق؟

كان إيدن يدخل مجلس العموم مكفهر الوجه مضطرب الأعصاب فقوبل بعاصفة من الاستهجان، وطلب النائب العمالي دايفز الكلمة، وتقدم إلى المنصة وهو ناثر والتفت إلى إيدن ورماه بنظرة احتقار هائلة ثم قال:

— سيدى الرئيس.

قبل يومين سألتكم عن تعبير برلماني أستعمله لكى أقول ما معناه أن رئيس وزراء الإمبراطورية كذاب. ولكنى الآن أقولها مباشرة ودون أية مواربة أو دبلوماسية برلمانية: إن أنطونى إيدن الذى وضعه القدر رئيسا لوزارة الإمبراطورية كذاب من الطراز الأول.

كان ضوء النهار يحاول أن ينفذ من خلال السحب، وجاءت الطائرات تستأنف هجومها على المدينة التي باتت طوال الليل هدفا للمدافع الأسطول المزججة، وأخذت الأحداث الجسم تتحرك في كل مكان، ففي بور فواد كانت السفن تقترب من الشاطئ، وفي الجميل كانت قوات الهابطين بالمظلات تتقدم على الساحل، وفي الرسوة استولت القوات المعادية على محطة المياه وجعلت تهدد أهالى بور سعيد بحبس المياه عنهم.

وفي بحيرة المنزلة كان مأمون وضباط الصاعقة فى زورق وقد ارتدوا ثياب الصيادين وراحوا يتوغلون أميالا لينقذوا ما عقدهوا العزم عليه ويسددوا إلى القوات المعتدية ضربة تترخ من وطأتها.

كان منع السفن من الاقتراب من الشاطئ مستحيلا، فبطاريات المدفعية الساحلية قد سكنت بعد أن ألقت عليها الطائرات المغيرة وابلا من قنابلها وضربتها بصواريخها ومدافعها الرشاشة، بيد أن قوات المقاومة الشعبية ظلت تسدد قذائف

أسلحتها الصغيرة إلى البوارج المتقدمة .

راح سليمان يتقدم حتى أشرف على البحر، وأخذ يرد على قصف مدافع الأستول بقذائفه التي كانت تسقط في الماء، إلا أنه ظل يطلق الرصاص في ثبات وإصرار وعناد . ورأى الشيخ حسن ما يفعله السكرير ضعيف القلب فثارت دماؤه في عروقه وتقدم تقدم الوعول حتى لمس كتفه كتفه سليمان وطلق يطلق نيرانه، وانتشر رجال الكتيبة الرابعة المشاة على الشاطئ واشترك رجال الحرس الوطني في مقاومة الغزو، إلا أن أسلحة قوات المقاومة كانت أعجز من أن تسكت المدافع التي كانت تقصف كل ما على الشاطئ قصفا .

واشتد الضرب وركز على بور فؤاد تركيزا شديدا، وكان لا بد أن يتقهقر قوات المقاومة أمام طاقات الجحيم التي فتحت لتحصد كل من يقف في سبيلها حصداً، ورأى الشيخ حسن أن من الحكمة أن يتقهقر ولكنه أثار أن يثبت بعد أن رأى سليمان قد قرر ألا يزول عن مكانه .

وسقطت قذيفة بالقرب منهما، وفيما كانت تنفجر كان سليمان يلقي بنفسه على الشيخ حسن في لمح البصر، ودوت القنبلة دويًا هائلا وانتشرت شظاياها وسليمان يحمي الشيخ حسن بكل جسمه . ومرت لحظات رهيبه كان حسن لا يحس خلالها إلا بأنفاسه التي تتردد في صدره، ثم بدأ يحس ثقل جسم سليمان فوقه فخيّل إليه أنه قد صرع، إلا أن سليمان راح ينهض ويلتقط سلاحه، وقام حسن واقترب من سليمان وقال له :

— شكرا .

وكانت أول كلمة يوجهها حسن إلى سليمان منذ أن رآه يتسلم سلاحه يوم وزعت الأسلحة على الشعب، فرفت على فم سليمان ابتسامة، ثم راح يتقدم ليستأنف ضرب السفن المتقدمة بكل ما في حوزته من قذائف .

وسار حسن إليه وقال له :

— لن نستطيع أن نمنع اقتراب السفن بهذه الأسلحة .

فقال سليمان في عزم :

— والله لو لم أجد معي إلا الطوب لقدفتمهم به .
وراح يطلق ما معه من رصاص وهو يصيح :
— الله أكبر . الله أكبر .

وانتقلت الحماسة من صدر سليمان إلى صدر الشيخ حسن ، فراح يسدد
الرصاص إلى سفن الأعداء وهو يصيح :
— هبي يارياح الجنة . هبي يارياح الجنة .

وسقطت قذيفة على الكبائن الخشبية الممتدة على الشاطئ فاشتعلت فيها النيران ،
وهبت الرياح فحملت النار وعاونت على انتشارها وإذا بجميع الكبائن الخشبية
تصبح قطعة من اللهب ، وارتفع الدخان وراح ينتشر حتى غطى الشاطئ وحجب
الرؤية ، ووجد الشيخ حسن أن لا طائل من وقوفهما بعد أن ملأ الدخان عيونهما
ونفذ إلى خياشيمهما ولسع خنجر تيمها ، فجذب سليمان وراح يتعد به عن
الدخان الذي كانت سحبه تنجمع وتتراكم لتحجب سحب السماء الداكنة ، وزرقة
الماء التي كانت تتوهج بنيران قذائف تقصف كالرعد وتبرق في تتابع كالبرق
الخاطف .

واقتربت الأساطيل تحت ستار الدخان ، وانطلقت طرادات تحمل فدائين
بحريين من الإنجليز ، وفتحت مقدمة « البعابع » ليتدفق منها الجنود الذين وعدهم
إيدن بنزهة بحرية في بور سعيد .

وخرج الجنود البريطانيون من الدخان فإذا بالمدافعين ينقضون عليهم انقضاض
النسور ؛ طلقات سريعة تسدد من كل مكان ، وقذائف تنفجر ، ودماء تسيل ،
وأجسام تنهار ، وأرواح تزهب ، وأصوات المدافعين تجلجل كالرعد فتزلزل قلوب
المعتدين :

— الله أكبر . الله أكبر .

ومشى سليمان ليشدد الضغط على المهاجمين ليرغمهم على أن ينقلبوا على
أعقابهم أو يرووا الأرض بدمائهم ، واقتفى الشيخ حسن أثره ، وتقدم رجال الجيش
والحرس الوطني ليلقوا بالفدائيين البريطانيين في البحر قبل أن يثبتوا أقدامهم على

الشاطيء، فراحت أسلحة الدمار تقذف كل ما في جوفها من حمم، فأخذ الرجال من الجانبين يسقطون كأوراق الخريف.

وانتشرت النيران وزحفت حتى هددت بالتهام كل بور سعيد، وعلى أضواء اللهب الذى كان يبرق كأنياب الكلاب كانت المعركة تدور، واخترقت السحب الكثيفة طائرات فرنسية وراحت تسقط مجموعات من الهابطين بالمظلات ليختلوا الجانب الشرقى للمدينة حتى لا يتسلل إليها إمدادات من سيناء.

وصاح الشيخ حسن:

— هذا يوم له ما بعده، اثبتوا يا رجال.

وصاح سليمان:

— الله أكبر! الله أكبر! اهجموا عليهم. إنهم يترنحون.

وصاح الشيخ حسن وقد بلغت حماسته أوجها:

— يا منصور أمت. أمت.

وعلى الرغم من تقدمهم المظفر كانوا يتلفتون خلفهم خائفين، فالنيران تنتشر

وتنتقل في سرعة الريح، وقال قائل:

— بور سعيد ستأكلها النيران.

وقال آخر:

— أهون علينا أن تحترق من أن يستولى عليها هؤلاء الأوغاد، اهجموا يا رجال.

— صونوا أعراضكم.

وبدأ سليمان يحس ضيقا في صدره ووخزا في ذراعيه ودوارا في رأسه ووهنا في

نظره ورغبة ملحة في أن ينهار، إلا أنه كان يقاوم ضعف جسمه ويستعين بروحه

القوية ليصلب عوده، ويطلق على الأشباح التى تتراقص أمام عينيه الرصاص.

وراع الشيخ حسن كثرة أجسام إخوانه الذين سقطوا صرعى العدوان، فسرى

فيه تيار من القلق كاد ينقلب إلى خوف، وخشى أن يفلت منه زمام نفسه فراح يقرأ:

— إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله.

وهتف في صوت عال لينزع آخر ما بقى من آثار التردد في نفسه:

— هبى يارياح الجنة، هبى يارياح الجنة .
ثم ألقى بنفسه مرة أخرى في أتون المعركة، وراح مع إخوانه يشدد النكير على الجنود الذين أذهلتهم المفاجأة .

واشتد توهج الحريق، وحمى القتال واشتدت ضراوته، ولم يعد سليمان يحتمل آلام جسمه وعجز قلبه الضعيف عن أن يمد روحه بما تتمنى، فسقط على الأرض وهو يلهث وصدره يعلو وينخفض وفي وجهه جهد وإعياء .

واستراح قليلا فاتضح له الرؤية بعض الشيء، إن السنة النيران تكاد تبلغ السماء، بور سعيد كلها قد تصبح في غمضة عين شعلة ملتهبة، واستشعر الخطر الهائل الذى يهدد الناس، فغام ووجهه بسحابة من الأسى، ودق قلبه الواهن دقات خوف وفزع، وراح يتوسل في صوت خافت :

— يارب ! يارب !

وسقط من السماء رذاذ ثم اشتد قليلا حتى أصبح مطرا خفيفا، وأحسن سليمان بالماء يسقط على وجهه ففتح عينيه وانبسبت أساريره .. وانتشر السرور في صدره ونزلت الفرحة في قلبه الضعيف لما رأى أن قطرات المطر كانت تكتم أنفاس النار .
وارتج المكان بصيحات الفرح والتهليل، وانطلقت التكبيرات من الحناجر :

— الله أكبر ! الله أكبر !

— تقدموا يا رجال إن الله معنا .

واندفع المدافعون وقد عمر الإيمان قلوبهم حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من النصر المبين، وإذا بقوات المظلات التى هبطت في مطار الجميل والتي كانت تتقدم على الساحل لتلقى بالفدائيين البحرين الذين نزلوا إلى الشاطئ والذين كانت قوات المقاومة الشعبية تحصدهم حصدا وتضغط عليهم لتلقى بهم في البحر الذى لفظهم، فاشتد بهم ساعد الغزاة المترشحين .

وشغل كل بنفسه عما يدور حوله، فالرصاص ينهار ويتدفق وينطلق من كل اتجاه وفي كل اتجاه، والقذائف تبرق ثم ترعد وتتناثر شظايا تذبح وتبتثر وتجرح، واختلطت الصيحات بالأناث بحشرة الموت بهزيم المدافع بدمدمة الرصاص بأزيز

الطائرات . والتحمت جبهات القتال فأضحت خطا واحدا ، الأعداء على طول الساحل ، وقوات المقاومة الشعبية والجيش والبوليس أمامهم . وعلى الرغم من القتال المرير الدائر بين قوى الظلم والطغيان والقوات المدافعة عن بلادها وشرف أراضيا ، راح الشيخ يتلفت بين لحظة وأخرى بحثا عن سليمان بيد أن عينيه لم تقعا عليه ، فأوجس خيفة وأحس لأول مرة في حياته أنه لو فقد سليمان فسيفقد شخصا عزيزا .

وظهرت الدبابات على الشاطئ فشعر المدافعون بالمرارة ولكن لم يدب اليأس في قلوبهم ، رجحت كفة قوات الغزو إلا أن صناديد المصريين عقدوا العزم على ألا تمر الدبابات إلا على أجسادهم .

وتقهقرت قوات المقاومة الشعبية بحثا عن حصون يختمى بها الرجال ليصلوا منها قوات الغزو نارا حامية ، وفيما كان الشيخ حسن يتقهقر لمح سليمان يجاهد لينهض على قدميه ويحمل سلاحه ، فهرع إليه وحمله وانطلق به بعيدا قبل أن تدهمه الدبابات التي بدأت تتحرك .

وفي هذا الوقت كان الزورق الذى يحمل مأمون ورجال الصاعقة قد أشرف على كوبرى الرسوة ، فراحوا يتظاهرون باللقاء شبا كههم استعدادا للصيد إلا أنهم كانوا يرصدون الكوبرى فى اهتمام فقد كانت مهمتهم أن ينسفوه بعد أن احتلته القوات المعتدية .

كانت الحراسة شديدة فوق الكوبرى وتحتة ، والدنو منه فى ظل هذه الحراسة مغامرة مخوفة بالمخاطر . بل عمل انتحارى ، وراح قائد القوة يفر رجاله بعينيه ثم قال :

— لا يمكن أن ننسف الكوبرى إلا إذا استولينا عليه .

وقال أحد الضباط :

— الاستيلاء على الكوبرى يحتاج إلى قوة هائلة ، لا قبل لنا بكل هذه القوات .

وفكر قائد القوة مليا ثم قال :

— لا فائدة من إضاعة الوقت هنا ، فلنعد سريعا لننضم إلى إخواننا .

وراحت المجاديف تضرب الماء في قوة، واندفع الزورق يشق طريقه إلى اليابسة بعيدا عن السواحل التي احتلتها قوات الأعداء.

وأخذت الدبابات الإنجليزية والفرنسية تتقدم وقد رفعت على أبراجها العلم المصري والعلم الروسي، ورأى الأهالي الأعلام ترفرف فاندفعوا يستقبلون الدبابات فرحين مستبشرين، يهتفون لإخوانهم وأصدقائهم الذين خفوا النجدتهم. وأضحى الرجال والشيوخ والنساء والأطفال على مرمى حجر من الدبابات، وفجأة انطلقت المدافع تحصد الأبرياء في نذالة وقسوة، وفرشت الأرض بأجساد الضحايا.

وراحت الدبابات تشق طريقها في شارع محمد على متجهة إلى الجنوب، كانت تهدف إلى أن تنطلق بأقصى سرعتها إلى الإسماعيلية، وفطن المدافعون إلى غرضها، فالقيادة البريطانية تريد أن تحقق نصرا سريعا بعد أن تقرر في هيئة الأمم المتحدة وقف إطلاق النار في الساعة الثانية من صباح الغد.

وهبت قوات المقاومة الشعبية تعترض سبيل الدبابات الزاحفة، وقف فانوس يحمل مدفعه «البازوكا» ينتظر في حرص تقدم الدبابات، وكان مرجان يترصد في الناحية الأخرى، وتوفيق واقفا بين المدافعين يقول: — هذه لحظات حاسمة في تاريخنا. اثبتوا يا رجال، لو اخترقوا هذا الشارع لحققوا أهدافهم، فعلينا ألا ندعهم يمرون مهما كان الثمن.

وظهرت أول دبابة وإذا مدافع «البازوكا» تسدد إليها طلقاتها وتعطلها، وظهرت الدبابة الثانية فعاجلها فانوس بطلقة من مدفعه وأطلق مرجان طلقات متتابعة وتجاوبت الطلقات من كل جانب وانهار الرصاص من فوق أسطح المنازل، وراحت دبابة تحاول أن تشق طريقها بين الجموع الثائرة المزججة فإذا بعبود ينقض عليها ويلقى قذيفة تعطلها، وسدد توفيق إلى قائدها طلقة قاتلة.

واضطرب نظام الدبابات وأخذت تدور في الشارع لا تستطيع أن تتقدم، وراحت بعض الدبابات تنطح الدور وتخرقها فتتهار على من فيها، ولكن مقاومة القوات المدافعة لم تكن بل ازدادت صلابة وعنادا.

وراح الوقت يمر والمدافعون في أماكنهم والدبابات لا تستطيع أن تصل إلى منتصف شارع محمد علي، وسقط رجال ومات أبطال وسالت دماء وحل بالمدينة الباسلة دمار رهيب، بيد أن قلوب المدافعين كانت مؤمنة بالنصر، فكل لحظة تمر وهم ثابتون تدنيهم من الساعة الثانية من صباح الغد، الساعة التي فرض فيها وقف إطلاق النار.

وظهر في ميدان المعركة مأمون وزملاؤه الفدائيون، وتقدموا في حذر من دبابه ستوريان، وفي مثل لمح البصر كان بعضهم قد استولى على الدبابه بكل من فيها. وعادوا يستأنفون ما فعلوه فتمكنوا من خطف أربع دبابات ستوريان بأطقمها فبثوا الهلع في قلوب البريطانيين.

وجن جنون قادة الدبابات، القذائف تنهال عليهم وهم يدورون حول أنفسهم لا يكسبون أرضا ولا يقضون على المقاومة التي تزداد شدة وصلابة، ورأوا أنهم أعجز من أن يشقوا طريقهم في وجه الذين استخفوا بالموت وباعوا أرواحهم للوطن، فاستنجدوا بالطائرات لتخلصهم من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه. وجاءت الطائرات تدك المنازل وتحاول أن تكس الناس بمدافعها الرشاشة، بيد أن الأبطال احتموا بالجدران واستمروا في تسديد ضرباتهم للدبابات والمصفحات والقوات الإنجليزية والفرنسية التي احتشدت خلف المدرعة لتتقدم في حمايتها! ألقت الطائرات كل ما تحمل من قنابل وأطلقت ما شاءت أن تطلق من مدافعها الرشاشة، وحلفت ضحايا وأحجبت نيران الكراهية في نفوس المدافعين وزادتهم إيمانا بعدالة القضية التي يدافعون عنها.

وجاءت ثلاث سيارات تسعى إلى ميدان المعركة، وراحت تذيع من مكبرات الصوت نداء للمدافعين:

— يا رجال بور سعيد أسلحتكم ولكم الأمان، إننا لم نأت لنحاربكم، ليست بيننا وبينكم عداوة...
وزد الرجال على النداءات بطلقات من أسلحتهم فأسكت الرصاص كل من في السيارات إلى الأبد.

وراح توفيق ينتقل من مكان إلى مكان في خفة وحرص، وفيما هو يرصد دبابات الأعداء إذ لمح ضابطا كبيرا في سيارة جيب، فارتاع كأنما رأى شبحا، وصاح في غضب:

— وليمز! وليمز.

وراح يصوب الرصاص إلى وليمز رجل المخابرات الخطير الذي يعرف كل حجر في بور سعيد، وتفقهق وليمز بسيارته مبتعدا عن الرصاص الذي انهمر حوله.

جاءت سيارات بريطانية تخترق شارع الجمهورية واتخذت طريقها إلى « البيت الحديد »، وعند الباب وقفت السيارات وهبط منها بعض كبار الضباط الإنجليز، وكان وليمز أحدهم، ودخلوا منتفخي الأوداج شامخي الأنوف، وتقدموا إلى قاعة الاجتماع في صلف وغرور؛ فالأساطيل المعتدية على الشاطئ، والدبابات في الطرقات، والفدائيون البحريون والشياطين الحمر والمشاة خلف المدرعات والمصفحات وأسلحة حلف الأطلنطي تريدهم عتوا وجبروتا.

وكان في قاعة الاجتماع محافظ بور سعيد وحكمدازها وحكام المدينة، وبدأ الوفد البريطاني يتكلم، طلب القائد البريطاني من المحافظ تسليم المدينة، وجاء رد المحافظ قويا، رفض أن يجلل وطنه بالعار وأبى التسليم وقال:

— ليس بيننا وبينكم إلا القتال.. لو لم يكن معنا إلا الحجارة لحاربناكم بها.

وتوعد القائد البريطاني وأنذر وأرغى وأزبد، ثم انقلب الوفد البريطاني على أعقابها وهو جانق مغیظ، وعاد إلى مبنى القيادة المشتركة الذي كان قصر عبد الرحمن لطفى قبل ساعات، قبل أن يطرد منه صاحبه ليستولى عليه الفرنسيون والإنجليز.

ورأى القائد البريطاني أن ينتقم من المدينة العنيدة التي قوضت آماله وكادت تلتطخه بعار الهزيمة، فأصدر أوامره للأسطول وللطائرات أن تدك المدينة ذك لعل الرعب يعرف طريقه إلى قلوب المستميتين في الدفاع عن كل شبر من أرض

بور سعيد .

وراحت مدافع الأسطول تلقي حممها على المدينة، وجاءت الطائرات ودمرت مستودعات البترول في الميناء، وسرعان ما اندلعت النيران وارتفعت ألسنة اللهب وانتشرت سحب الدخان تغطي البحر والمدينة، وأغار على ما بقي من الحى العربى، ألقت قنابلها ونايلها فاشتعلت النيران في المناخ وعبادى وعباس والأمين، ولم يكن في دور هذه المناطق إلا الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال فار تفع الصراخ والعيويل واندفع الضعفاء مفزوعين لا يدرون أين المفر، كانت النيران تشوى وجوههم، والدور تدك فوق رؤوسهم، والموت يتخطفهم بعد أن يذوقوا عذاب الهون .

صراخ وغيويل وفرع ورعب ورنين عربات الحريق، بيد أن الماء لا يتدفق من الخراطيم فالقوات المعتدية تحول بين رجال الحريق وإطفاء النار المشبوبة التي كانت تلتهم الدور والأبرياء من الطير والحيوان وبنى البشر .

واندفع صديق الفرار حى بين ألسنة اللهب، وصرخات الفرع التي تصلك أذنيه تمزق نياط قلبه، يحاول أن ينتشل من يستطيع انتشاله من برائن النار، لكن ماذا يستطيع أن يفعل هو وحفنة من زملائه، إنه إن حمل شيخاً أو طفلاً أو عجوز اليفر به من الفرع الأكبر، فمئات ممن لا حول لهم ولا قوة يذوقون العذاب ويتلقفهم الموت .

وفرشت أرض الحى العربى بأجساد تفحمت ووجوه شويت وحطام دور وقطع من الخشب ملتهبة، وظلت النار تتراقص كالأبالسة لا تجد من يخمد أنفاسها . وزادت النار المشبوبة في ضراوة المعركة الناشبة بين الدبابات والمصفحات وقوات المقاومة الشعبية التي سدت عليها الطريق بقذائفها المدمرة وبطولتها النادرة . وتقدمت دبابة تشق طريقها في عناد ونجحت في أن تندفع في الشارع، وتحركت دبابات أخرى تقتفى أثرها، وإذا برجل يعترض طريقها، وصاح عبود صيحة هائلة :

— حاذر يا فانوس ! حاذر .

بيد أن فانوس ألقى بنفسه على الدبابة، وإذا بانفجار هائل يدوى، وإذا بالدبابة تتعطل، فتعطل كل الدبابات خلفها، وإذا بفانوس يتطاير أشلاء .
وصرف عبود أنيابه في غيظ وغضب وأخذ يطلق قذائفه على الدبابات التي أصبحت هدفا للقوات المتحصنة في الطريق وفوق أسطح المنازل وفي شرفاتها .
وأحس عبود يدا ترتب على ظهره فالتفت فرأى حسنا وفي وجهه آثار مرارة المعركة، فقال له :

— أرايت ما فعل فانوس ؟

فهز حسن رأسه أن نعم، ثم قال في صوت خافت :
— كان بطلا، وما أكثر الأبطال الذين ظهروا في هذه المعركة .

وطاف بذهنه سليمان، أنى أن يحمله إلى المستشفى، استراح قليلا حتى إذا ما استرد أنفاسه هب ليخوض غمار القتال دون أن يحفل بما يقاسى من آلام، أو يشفق على نفسه من ضعف قلبه .

كان لا يثق في سليمان ولا يرتاح إلى فانوس، وإذا بالأيام تثبت سوء ظنه، فقد أثبتا أنهما خير من آلاف ممن أعجب بطلاوة أحاديثهم وطلاقة ألسنتهم .
وهمس في نفسه هامس :

— كانا خيرا منك .

فرفع رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم ارزقنا الشهادة .

وفيما هو يتأهب ليمشى إلى الدبابات كما مشى إليها فانوس سمع عبود يقول له :

— هل سمعت بما يهمس الناس ؟

— لا .

— يقولون إن القائد العام ضرب رئيس هيئة أركان حرب الطيران بالرصاص .
— هذه إشاعة .

وصمت عبود قليلا ثم قال :

— لماذا تركتنا القاهرة نحارب وحدنا ؟

ولم يحرج حسن جوابا وإن راح ذهنه يعمل ، ضربت الطائرات المغيرة محطة إذاعة القاهرة فأسكتتها ، وقامت محطة إذاعة دمشق تذيع : هنا القاهرة .. صوت العرب من دمشق ، هذا جميل ! ولكن ماذا يجري في القاهرة ؟

انتشرت إشاعات كثيرة عما يجري هناك ، إشاعات مفرضة كادت تفت في عضد المدافعين عن المدينة التي أمست طعمة للنيران ، وهدفا لمئات الغارات الوحشية وتدافع الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والدبابات التي تصر على الانطلاق إلى الإسماعيلية لولا الذين وطدوا العزم على أن يقدوا بلادهم بأرواحهم ، فراحوا يلقون بأنفسهم عليها ، أو يطلقون عليها قذائف مدافع «البازوكا» وهم على بعد أمتار منها .

قالت الشائعات : إن بعض السياسيين القدامى ذهبوا إلى عبد الناصر وطلبوا منه أن يترك لهم أمر إدارة البلاد في هذه الآونة العصيبة ، وقالت شائعات أخرى : إن في صفوف القاهرة انهزاميين يرون التسليم وإنقاذ البلاد من التخريب ، وانتشرت إشاعات أخرى تؤكّد أن الإنجليز والفرنسيين لن يصغوا إلى نداء وقف إطلاق النار إلا بعد أن يستولوا على منطقة القناة ويضعوا العالم أمام الأمر الواقع .

وعغمم الشيخ حسن وهو يطلق قذائفه على الدبابات :

— ليت القاهرة تقول شيئا !

وظهرت في سماء بورسعيد طائرات الميج ، وانقضت على سفن الأسطول البريطاني والفرنسي وألقت عليها قنابلها ، وصاح المدافعون في فرح :

— طائرات مصرية .. طائرات مصرية .

وقال حسن العبود في نشوة :

— القاهرة لم تتركنا نحارب وحدنا .. القاهرة معنا .

وتطلع الفرنسيون والإنجليز إلى السماء في رعب وقالوا :

— طائرات روسية ! طائرات روسية .

وراحوا يذيعون على العالم والخوف يرجمهم رجاء إن روسيا اشتركت بطائراتها في المعركة .

كانت الطائرات المصرية استخدمت الطريق الزراعى الذى يربط القاهرة بالإسكندرية مطارا بعد أن ضربت الطائرات الإنجليزية والفرنسية كل المطارات المصرية .

خرجت إلى بور سعيد لتؤكد للمدافعين عنها أن القاهرة معهم ، ولتعلن على أعين الناس أن ما كانت تذيعه قيادة الحلفاء المشتركة من أنها قضت على جميع الطائرات المصرية كان وهما كبيرا .

وأضاء ظهور الطائرات المصرية فى سماء بور سعيد الظلام الذى كاد يطبق على نفوس المدافعين عنها وبث الأمل فى صدورهم ، فكروا على الدبابات والمصفحات والقوات التى غص بها شارع محمد على كرة شديدة ، وقد وطنوا أنفسهم على أن يجمدوا كل هذه القوات فى أماكنها ، وألا يدعوها تتقدم خطوة واحدة .

وراح عبود ينتقل فى حرص شديد من محباً إلى محباً لتكون الدبابات فى متناول قذائفه ، كان العرق يتفصد منه على الرغم من بردوة الجو ، وتلبد السماء بالغيوم ، وكان الجهد يلوح فى وجهه فلم يذق طعم النوم منذ أسقطت الطائرات أول موجة من جنود المظلات فى مطار الجميل .

وفى ما هو يتقهقر فى حرص ليختبئ خلف جدار ارتطم برجله ، قالتفت دون إرادة ، وإذا بالرجل يصيح فى فرح :

— عبود !

وهتف عبود فى دهش :

— مأمون !؟

ولم يستطيع مأمون أن يكبت عواطفه فضم عبود إلى صدره ضمة قوية أو دعها كل ما عجز لسانه عن أن يعبر عنه ، وأحس دموعاً تبلبل عينيه ونشوة تنتشر فى كل كيانه ، وظل برهة كاد ينسى فيها المعركة الرهيبة الدائرة على قيد خطوات منهما ثم قال :

— كيف حال بهية ؟

وتقلص وجه عبود وغام بالأسى والحزن وانقبض قلبه ، وأطرق فحركات

الانفعالات التي ارتسمت على محياه مخاوف مأمون فقال في انفعال :

— أأصابها مكروه؟

وظفرت دمعة من عين عبود ، فقال مأمون بعد أن فطن إلى كل شيء :

— ماتت؟ قتلت!

وقال عبود في صوت خافت مشحون بالأسى والحزن والغضب :

— قتلها الوحوش هي وحسين والأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال عند

شاطئ المنزلة .

ومد مأمون يده وقبض على ذراع عبود وراح يضغط عليها في شدة ويصرف

أنيابه في غيظ لينفس عن النار التي راحت تشوى كبده ، وفي مثل لمح البصر تذكر

عبود حلم بهية ، كانت تبكي لأنهارأت في المنام أنها لن تقابل مأمون بعد يومها ذاك ،

فحسبت أنه سيلقى مصرعه في معارك سيناء وما دار بخلدتها أنها هي التي كتب عليها

أن تكون ضحية للعدوان الأثم!

وانطلقت قذيفة من مدفع إحدى الدبابات فانفجرت بالقرب منهما

وأخرجهما من دنيا مشاعرهما الخزينة إلى العالم الذي يعج عجيجا بدوى القتابل

وجعجعة الدبابات وصيحات الفرع وأنات الألم وحشرجات الموت ، وقفز مأمون

خلف حائط ثم اندفع في غمار المعركة وقد أخذت تترادف على ذهنه صور صديقه

راسم وهو يودعه وصورة أخته بهية وهي تقول له يوم وداعها آخر مرة : « مع

السلامة . مع السلامة » .

وحانت من عبود التفافة فرأى النيران التي تلتهم الحى العربى جميعه ففرع ، إنه

رآها مشبوبة تكاد أن تبلغ السحب منذ أن انتصف النهار إلا أن وقعها في نفسه لم يكن

مثل وقعها بعد أن قابل مأمون وأحس عمق الجرح الذي خلقه في روحه موت بهية

وحسين ، فراح يعدو صوب الحى الذي اندلعت فيه النيران وبين جنباته صوت

يهتف :

— بهية! حسين! بهية! حسين!

وأخذ الصوت يرتفع رويدا حتى أصبح في أذنيه دويا .

وأشرف على النار المتأججة وأحس حرارتها تكاد تشوى وجهه، ووقف يتلفت والغيظ يأكل صدره . ورأى بعض الرجال يخرجون من الجحيم وهم يحملون بعض النساء والأطفال وقد تركزت النار آثارها في وجوههم وأذرعهم وأرجلهم وارتمى الهلع في أعينهم ، وكادت تمزق أذنيه صيحات الرعب وصرخات الفرع وزفرات الأئين فاندفع وسط اللهب الذي ارتفع كعمد من نار تنفث من جوفها دخانا أسود يعلو وينتشر ويطوى كل ما في المدينة بين جناحيه طيا .

وظفق يحاول أن يروغ من الفرجات بين ألسنة اللهب المتراقصة وهو يترقب ، وأحس النار تلسع عينيه فأسبل جفنيه وحاول أن يحميها بذراعيه ، وسمع صراخا وعويلا وقرقعة أخشاب تتكسر ففتح عينيه ونظر فرأى أناسا كأنما قطعت لهم ثياب من نار يجرون ويعولون مرعوبين لهم شهيق وزفير يخلع القلوب من الصدور ، فانطلق إليهم دون تفكير حتى إذا ما أضحى على بعد خطوات منهم انقض عليهم جدار فدقهم تحته .

وارتد إلى الخلف خطوات وهو يرصد النار التي أحاط به سرادقها ، وإذا ببكاء طفل يرتفع فانطلق صوب الصوت فألقى امرأة تحشرج حشرة الموت تضم طفلها إلى صدرها وهي تقيه النار بجسمها الذي كادت تأكله الحزوق ، فمال عليهما وانتزع الطفل من بين يديها وهم بأن يفر به ، بيد أنه أشفق عليها من الحريق فخطفها خطفا وحملها على كتفه وانساب يروغ من اللهب الذي كان يحضره ويلسع وجهه وذراعيه وساقيه يريد أن يلتمه .

وراح يشهق ويزفر والعرق يتفصد من كل جسمه ، وزاد في إرهاقه العرق الذي ملأ عينيه وألسنة اللهب التي كانت تلحسهما لحسا يؤلمه ويضنيه ويجعل روحه تنن وتناؤه .

وكاد ينوء من العذاب أكثر من مرة إلا أنه كان يجاهد ليسمو فوق كل آلامه ، واستمر يزحف حتى خرج من الجحيم فاذا بأيدي تمتد لتلقف الطفل وأمه . ووقف مبهور النفس يحس جفافا في حلقه وراح يتلفت ثم قال :
— قليل من الماء .

ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقد لاح الحزن في قسمات الوجوه ، فقد حبس الفرنسيون الماء عنهم بعد أن استولوا على محطة المياه في الرسوة وراحوا يساومونهم عليه ، يعرضون عليهم أن يطلقوه إذا ما قبلوا التسليم . وظل صدره يعلو وينخفض وهو ينظر إلى النار المشبوبة التي كانت تلتهم الدور والتي أمسى وقودها الناس والحجارة . وعادت أصوات الفرع والهلع تصك أذنيه صكاً وتعذبه عذاباً أشد من العذاب الذي قاساه وهو بين براثن النار ، فلم يستطع أن يصبر على ذلك الضنى الذي يمزقه تمزيقاً فعاد يقتحم النار ليتنزع من أنيابها أبرياء دهمهم عدوان قاس لا يعرف الرحمة .

واندفع يخوض الحريق وهو يتلفت في حذر ، الأرض فرشت بأجسام تفحمت وعمد ممددة تندلع فيها النار ، وألسنة اللهب كأنياب الكلاب تراقص ، وقرعة وعويل وأنين وصرخات هلع تفتت الأكباد ، وأحس قهراً فهو أعجز من أن ينقذ كل هؤلاء المفزوعين المرعوبين الذين أذهلتهم النيران عن كل شيء إلا عن آلام الحروق التي كانت تشوى جلودهم شيئا .

ووجد نفسه أمام أسرة كاملة حاصرت أفرادها النيران ، ذهل كل منهم بنفسه عن أمه وابنه وأبيه ، رأى شيخاً يجرى وقد قطعت ثيابه من نار وهو يصرخ صرخات مرعبة ثم ينكفي على وجهه . ورأى امرأة عجوزاً وقد اشتعلت النار فيها تندفع إلى شابة لتحتمي بها وإذا بالشابة تفر منها خشية أن تمسك فيها النار ، ورأى أطفالاً صغاراً يبكون ويصرخون صرخات تمزق نياط القلوب . رأى كل ذلك في لحظة بصر فعمل فكره بسرعة ، وسرعان ما قرر أن ينقذ الأطفال .

وانقض على الأطفال يحملهم وإذا بأمهم تتشبث به ، وسار والأم تعوق حركته وكاد أكثر من مرة أن يدفن هو والأطفال والمرأة التي تعلقت بعنقه تحت الأنقاض ، إلا أن الجدران كانت تنقض خلفهم كأنما كانت تنتظر مرورهم . وأرهقته صرخات الأطفال وأنزلت بقلبه هما ثقيلًا ، فإن كان قد أنقذ حفنة ممن حاصرتهم النيران ، فمن لآلاف الشيوخ والنساء والأطفال الذين تلتهمهم النار التهاماً؟

وقبل أن يخرج بمن معه من الحريق انهمرت الأمطار وراحت تتمد النيران التي أشعلتها الطائرات الإنجليزية والفرنسية، وعلى الرغم من أن قوات الحلفاء حالت بين سيارات المطافئ وبين إطفاء الحرائق المشبوبة في كل مكان فإن السماء كانت رحيمة، أنزلت ماء غزيراً كتمت به أنفاس اللهب الذي كان يتراقص في أرجاء المدينة.

ورأى الناس تأييد السماء فهتفوا في انشراح:
— الله أكبر! الله أكبر!

انصف الليل ولم يبق إلا ساعتان على وقف إطلاق النار، فراح الفرنسيون والبريطانيون يقاتلون قتالاً لا هوادة فيه ليحققوا ما زعمه موليه في الجمعية الوطنية من أن القوات المتحالفة قد احتلت بور سعيد ووضعت يدها على الإسماعيلية والقنطرة.

كانت الدبابات والمصفحات وسيارات الجيب لا تزال في شوارع بور سعيد، وكان الشياطين الحمر والفدائيون البحريون وقوات المشاة يقاسون من دقة تصويب المصريين الذين أبوا أن يتقهقروا أمام ضغط الدبابات والمصفحات، وهال القيادة المشتركة ثبات المدافعين واستخفافهم بالחסائر الجسيمة التي أصابتهم فأصدرت أوامرها بأن تتقدم القوات المتحالفة إلى الإسماعيلية مهما كان الثمن. وصاح الشيخ حسن فيمن حوله:

— اثبتوا يارجال! ليس بيننا وبين النصر إلا ساعتان.

وقال توفيق في نفسه:

— لو ثبتنا ساعتين لمرغنا الشرف البريطاني والشرف الفرنسي في الوحل ولأنقذنا مصر، علينا أن نضحى.. أن نجود بأرواحنا.. فأية تضحية مهما بلغت تبون إذا ما أوقفنا هذا السيل الجارف المدمر عن أن ينتشر في البلاد.
وراح مرجان يقفز في ساحة الوغى كنمر أسود يصوب قذائفه في إحكام ويحسن

في أعماقه زهوا ، فقد كشفت المعركة عن حقيقة معدنه . إنه معدن نفيس طمرته اضطهادات السنين ورائت عليه افتراءات الأجيال إلا أن نار التجربة صهرته فتألق وتلألأ .

وكان بهنس يرتدى ثيابا مدنية ، فالشياطين الحمر والفدائيون البحريون كانوا يصطادون رجال الجيش والبوليس ليقضوا على من قاسوا من إحكام تصويبهم ، على من جدلوا جنودهم بطلقاتهم السديدة التي كانت تعرف طريقها إلى الرعوس أو القلوب .

وراح مأمون ورفاقه يتظاهرون بالتقهقر أمام جماعة من الفرنسيين ، فأطمعهم ذلك فيهم وشدوا عليهم ليشقوا طريقا بين الحاجز البشرى الذى صمد صمود الطود وأبى أن ينكسر أو يلين .

وتوغل الفرنسيون في اندفاع وإذا بهم يجدون أنفسهم محوطين برجال يصيحون صيحات تلقى الرعب في الصدور وتجعل القلوب تبلغ الخناجر :

— الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

ودوت القذائف من فوق الأسطح ومن الشرفات ومن مفارق الطرق ومن خلف الجدران ، وامتزجت صرخات الهلع بهزيم الرصاص ، وسقط الفرنسيون صرعى ، وبعد أن باتوا كأمس الدابر خف مأمون ورفاقه ليقوعوا آخرين في كمين آخر .

ووقف سليمان يلتقط أنفاسه في جهد وقد شحب لونه ووهنت عيناه وأخذ لسانه يمر على شفتيه الجافتين بيد أنه لم يكن يرطبهما ، كان العطش يكاد يخربط حلقه وقد تآزر مع ضعفه عليه ، إنه ينوء من الإعياء ، إلا أنه أبى أن ينسحب من المعركة أو يلقى سلاحه .

وراح ولينز يجوس بسيارته الجيب بين القوات الإنجليزية ويأمرهم أن يتقدموا ويخبرهم أن خلف هذا الطريق طريقا مفتوحا يقودهم إلى الإسماعيلية ، وقال في إصرار :

— يجب أن نستولى على منطقة القناة قبل أن نكف عن إطلاق النار .

وراح كل من الفريقين ينظر إلى عقارب الساعة نظرة تختلف عن نظرة الفريق الآخر، كان المصريون يرون أنها تتحرك في بطء شديد وكانوا يستحثونها للإسراع ويتمنون أن تطوى الزمن طيا، بيد أن الإنجليز والفرنسيين كانوا يرون أنها تطير وكانوا يرجون أن تتريث حتى يحققوا أحلامهم ويحفظوا ماء وجوه زعمائهم الذين أعلنوا أن بور سعيد قد سلمت، وأن القنطرة والإسماعيلية فتحتا للقوات المتحالفة. وأصدر استوكويل قائد القوات البريطانية أوامره لقواته بأن تشق طريقها إلى الإسماعيلية، فراحت الدبابات والسيارات المصفحة تمر على أجداث القتلى من المصريين، وأخذ الجنود البريطانيون والفرنسيون يقرون بطون الشهداء ويبترون أطرافهم ويعثون بوجوههم، لعل التمثيل بالموتى يخيف الأحياء الذين ضحوا بمدنيتهم وقدموها قربانا لإنقاذ الوطن العزيز، بيد أن هذه القسوة بثت في نفوسهم طاقات من الكراهية والاستياء زادتهم استبسالا في دفاعهم وتصميما على الصمود حتى الرمي الأخير.

واستمرت المعركة الرهيبة في الظلام الدامس الثقيل فقد قطع تيار الكهرباء عن بور سعيد، ودار قتال مرير إزداد ضراوة كلما مر الزمان ودنا من الساعة الثانية من صباح اليوم السابع من نوفمبر.

وارتفع عدد الضحايا وسالت الدماء وعبق الجو برائحة البارود واستمرت المعركة قاسية تسودها أسلحة الدمار ويسيطر عليها الفناء بينما يحصد الرجال حصدا، إلا أن رجالا كانوا يعرفون لماذا يموتون، بينما أن رجالا آخرين كانوا يموتون دون أن يعرفوا في سبيل أى شيء باعوا أرواحهم.

وحانت اللحظة المرتقبة ووافت الساعة الثانية وقد أخفقت القوات الإنجليزية والفرنسية بأساطيلها ودباباتها ومصفحاتها وطائراتها وشياطينها الحمر والقذائين والقناصة والمشاة وركاب السيارات في أن تحتل كل بور سعيد، وتنفس المصريون الصعداء وهللا وكبروا ووضعوا السلاح احتراما لقرار وقف إطلاق النار. وانقلبوا على أعقابهم ليضمدوا جروحهم وليتقطوا أنفاسهم وليستريحوا بعد التعب الذى تغلغل فيهم حتى النخاع.

كان الشيخ حسن يشخص ببصره إلى السماء ويغمغم في حرارة :
— شكرا لك يارب . شكرا لك يارب .

وكان توفيق يقلب وجهه فيما حوله وهو ذاهل لا يكاد يصدق أن زحف القوات الإنجليزية والفرنسية قد توقف ، وكان مرجان يحس في أعماقه سرورا طاغيا ، أسعده أنه هو وإخوانه صمدوا للإنجليز والفرنسيين ولم يفروا منهم مرعوبين . كان بالأمس القريب يقدم إلى ويمز أصناف الطعام وكانت تسعده كلمة إطراء تخرج من بين شفثيه ، وإذا به بعد العدوان يهب في وجهه ويمز ثائرا ويصليه هو ورفاقه السادة الإنجليز والفرنسيين ناراحامية ! صار ندا بل أمسى يشعر أنه أكثر منهم رجولة وفروسية .

وكان سليمان لا يقوى على أن يظل قائما على قدميه ، فجلس على الطوار يلهث يحس وخزا شديدا في ذراعيه وكان يدا قوية تضغط عنقه تكاد تكتم أنفاسه ، وعلى الرغم من برودة الجو كان العرق يتفصد من وجهه ويجرى إلى صدره .
وران على أرض المعركة سكون ما لبث أن مزقته أصوات عجلات تتحرك ، وأرهفت الآذان واشربت الأعناق وأخذت العيون تحاول أن تحترق حجب الظلام ، وإذا بصائح يصيح :

— لم يضع الإنجليز والفرنسيون سلاحهم .. إلى أسلحتكم يارجال .
وأسرع الرجال ليحتلوا أماكنهم ، إلا أن القوات الإنجليزية والفرنسية كانت قد توغلت في مسالك بورسعيد .

ونشب القتال مرة أخرى وثبت المصريون في وجه الخيانة ، ولاح الفجر ولم يؤذن لمطلعه ديك ، فقد التهمت النيران كل الدواجن والحيوانات مع من التهمت من أهالي الحي العري .

وأشرفت الشمس وراحت ترسل أشعتها من خلال السحب والحرب دائرة لم يحب أوارها ، وارتفع زئيد الضحايا ، وحال المدافعون بأجسامهم وأرواحهم بين القوات الزاحفة وبين أن ينطلقوا إلى الإسماعيلية .

وفي الساعة العاشرة صباحا كف الجانبان عن إطلاق النار بعد أن احتل الإنجليز

والفرنسيون بالخدیعة أحياء عجزوا عن احتلالها بالمدافع والدبابات والمصفحات
والنابالم والصواريخ.

وجاءت إنصاف تقلب عينيها في وجوه الناس وفي تلفتها خوف وقلق، كانت
تتفرس في القتلى الذين حملوا على عربات اليد أو كدسوا في سيارات النقل أو بعثرت
جثثهم في كل مكان، وقد لاح عليها أنها تنقب عن عزيز غاب عنها.
وظافت بها موجة من الأسى وزاد هلعها وظلت تتلفت زائغة البصر،
واستشعرت رغبة في أن تبكى لتنفس عن الضيق الذي نزل بها إلا أنها أخذت تهزول
وتنسب بين حشود الرجال وهي تتطلع إلى وجوههم التي كانت تعكس آثار
المعركة الدامية الرهيبة التي خاضوا غمارها.

ولحت ثلة من الرجال يدفنون بعض القتلى في ملعب النادي المصري، فخيّل لها
وهمها أنها ترى الشيخ حسن بينهم، فانطلقت خافقة القلب مبهورة النفس تكاد تنوء
من الخوف إلى حيث كان الرجال، وراحت تفرهم بعيون غامت بالدمع فلم تجد
بينهم أحداً ممن تعرفهم، وهرعت تنظر إلى الشهداء الذين لم يقبروا بعد ثم دارت على
عقبها تعاود تلفتها يتنازعها اليأس والأمل.

وراحت تهزول في أثر سيارة كانت دماء الشهداء تقطر منها وترسم على أرض
الشارع خطأ، وهمت بأن تهتف بالسائق أن يقف لتبحث بين الضحايا عن العزيز
الذي يكاد يمزق قلبها غيابه، إلا أنها لحت مأمونا أغبر أشعث فهتفت في وله وهي
تنجيه إليه:

— مأمون! مأمون!

فالتفت مأمون ناحية الصوت، ولما وقعت عيناه عليها خف إليها وهو ينادى في

وجد:

— إنصاف. إنصاف.

وكاد ينسى نفسه وكل من حوله ويضمها إلى صدره، إلا أنها قالت في لهفة:

— ألم تر عبود يا مأمون؟

— رأيت.

— أين؟

— كان يحارب معنا في شارع محمد علي ومنذ الغروب غاب عن عيني .
وانطلقا معا يبحثان عنه ، كان الأخ يحمل أخاه القليل على ظهره ، وكان بعض
الرجال يحملون بعض القتلى على ألواح من الخشب ، وفضل بعض الناس أن يدفنوا
الشهداء بملابسهم ودمايهم حيث قتلوا . وظل مأمون وإنصاف يجوسان خلال
المدينة التي كان الناس يموجون فيها كيوم الحشر ، ومما زاد الأمر تعقيدا أن الشيوخ
والعجائز والنساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون عند شواطئ المنزلة ليفروا من
المدينة اضطروا إلى العودة إليها بعد أن احتلت القوات الإنجليزية والفرنسية مرفأ
البحيرة وفرضوا عليه حراسة شديدة .

ورأى مأمون مرجانا فهرع إليه وإنصاف في أثره ، ثم قال له :

— ألم تر عبود؟

فراح مرجان يفكر برهة ثم قال :

— لا ، ولكنني رأيت فانوس لما ألقى بنفسه على الدبابة ، كان رائعا . ودق قلب
إنصاف دقات خوف وأخذت تنظر إلى لاشيء نظرات زائغة قلقة ، ثم قالت :

— وماذا فعل فانوس؟

قال مأمون في صوت خافت حزين :

— استشهد .

وانطلقوا ينقبون عن عبود ونادت إنصاف :

— شيخ حسن . شيخ حسن .

كان الشيخ حسن وسليمان يسيران لا يلويان على شيء ، لا يعرفان إلى أين
يذهبان وقد ذلك الحى العربى كله ولم يعد لهما مأوى يأويان إليه . كانا يشعران بشعور
اللاجئين وإن كانا ينسابان في طرقات مدينتهم .

والتفت الشيخ حسن ، ولما رأى إنصاف ومأمون ومرجان أحس شيئا من
الراحة ، لم يعد وحيدا ، سيدوق راحة البال حتى إن عاش معهم في الخلاء .
وقالت له إنصاف في نبرات واجفة قلقة :

— ألم تر عبود؟

وتلفت الشيخ حسن في قلق ولم يجر جوابا وطاف به ضيق، وراح يسأل نفسه في تأنيب: كيف لم يفكر في أن يبحث عنه؟! وراى على الوجوه وجوم، وتقدم سليمان وقال:

— رأيتة يجرى ناحية حى العرب لما كانت النار مشتعلة فيه .

وهرعوا جميعا إلى الحى العربى ينقبون عن عبود بين الأجسام التى تفحمت والتى أكلتها النار أو شوهتها، واستمروا فى بحثهم حتى إذا ما وصلوا إلى شارع الأمين رأوا من بعيد شبعا قائما على أنقاض ما كان يوما ما بيت عبود، ورأته إنصاف بقلبها قبل أن تراه بعينها فجرت نحوه وهى تنادى فى وجد ولهفة:

— عبود! عبود!

وتلفت عبود فرأت إنصاف فى عينيه دموعا وقد لسعت النيران وجهه ونمت قساماته عن أسى عميق، فسرت فى بدنها رعدة خفيفة وهفت روحها إليه، ولو ظاوعت نفسها لضمته إلى صدرها الملهوف .

وقال الشيخ حسن وهو يلف ذراعه حوله ويضمه إليه برفق:

— قلقنا عليك، خفنا أن يكون أصابك مكروه .

وراح مأمون يدور بعينيه فى المكان، ولأول مرة أحس هول الفجعة، ماتت بهية اغتالها الإنجليز والفرنسيون، صار فى الدنيا وحيدا . كانت بهية كل أهله، بل كل ما يربطه بالبشرية بوشائج القرى، كان كلما خلا بنفسه يحلم بأن أبناءها سينادونه يا خالى، وكان رنين النداء يفتح عوالم رحيمة رحيبة من المحبة فى نفسه، وإذا بموتها يطمر كل إشراقة رقيقة حانية تنبعث من سويداء قلبه .

ووقع بصره على إنصاف فإذا بشعاع من النور يتدسس إلى الظلام الثقيل الذى جثم على روحه، وإذا برحمة كأنها البلسم تمس جروح وجدانه .

ووقف مرجان بعيدا، كان يشعر وهو فى قلب المعركة أنه سيد عظيم من حقه أن يجدل السادة زرق العيون، كانت طلقاته ترددهم أو تلقى الرعب فى قلوبهم، أما الآن فقد كان يحس أنه ضئيل، لا أحد يحفل به أو يقدر شأنه، وهم بأن يدور على عقبيه

وينصرف إلى بيت توفيق، وإذا بإنصاف تقول :

— هيا يا عبود . هيا يا مأمون . هيا يا شيخ حسن . هيا يا مرجان .
هيا يا سليمان .

وشعر مرجان بشيء من الراحة ، فإنصاف تدعوه مع من دعت من أصحابها إلى
أن يذهب معها ، إنه راض وإن كان لا يدري إلى أين يذهبون .
وقال مأمون :

— إلى عيادة الدكتور حازم لتستريحوا .

وساروا وكانت إنصاف تختلس النظر إلى عبود بين لحظة وأخرى . إنه مرهق ،
لا تكاد ساقاه تقويان على حمله ، ليتها تسنده بذراعيها ، أو تمد له يدها يتوكأ عليها !
وكان مأمون يسير إلى جوار إنصاف يحادثها وهي تتظاهر بالإنصات ، إلا أن كل
مشاعرها كانت ترفرف حول ذلك السائر في صمت وفي وجهه لسع النار ، وفي
قلبه ، وفي عينيه وجوم وشجن ، وكان سليمان يضع يده على قلبه كأنما كان يرفعه
ليحول بينه وبين أن يسقط في قدميه ، بينما كان الشيخ حسن مشغولاً بالحديث مع
مرجان .

ووصلوا إلى عيادة الدكتور حازم وإنصاف تسند ظهر عبود بصدرها وتلف
ذراعها حوله ، كانت مشفقة عليه من قسوة الآلام التي يقاسيها ، إلا أنها كانت
تستشعر نوعاً من الرضا لأن عبود بين ذراعيها وصدرها ؟ لا بل لأنها كانت تحوطه
بروحها .

ودخلوا العيادة ووضعت إنصاف عبود في سرير ، ثم ذهبت تفتح صنوبر الماء
دون تفكير ، ولم تنزل منه نقطة واحدة . وفي لمح البصر تذكرت كل شيء فلاماء في
المدينة كلها منذ أن وضعت القوات الغازية يدها على محطة المياه في الرسوة .

ونظر الرجال إلى صنوبر الماء الذي جف ولاحت في وجوههم آثار ما كان
يعتمل في رعو سهم من أفكار ، وإذا بمأمون يقول :

— لا بد أن نسقى المدينة رغم أنف قوات الإنجليز والفرنسيين المنتشرة في كل
مكان .

وخرج مأمون وخرج مرجان في أثره ، وتحرك سليمان ليخرج معهما فقال له
الشيخ حسن :

— امكث هنا . إنك مجهد ، أنت في حاجة إلى الراحة . ارحم قلبك .
فقال سليمان وهو منطلق نحو الباب :

— لا . إني ذاهب معكم .

وخرجوا ليحملوا الماء إلى أهل المدينة في غفلة من القوات الإنجليزية والفرنسية
التي انتشرت في أرجاء بور سعيد ، تحرس المرافق وتسد المنافذ وترصد حركات
الناس .

وعادت إنصاف حيث رقد عبود فألفته قد راح في سبات ، فأخذت تتخلل
بأصابعها شعره ، وأحست رغبة طاغية في أن تضع شفتيها على شفتيه .

وضع توفيق سلاحه خلف الباب وسار يجرجليه إلى غرفة النوم ، وأخذ يخلع
ملابسه وهو مسبل العينين من التعب ، ثم انطلق بين النائم واليقظان ليغسل رأسه فلم
يجد ماء ، فعاد وارتمى في فراشه وراح في سبات .

وغط في نومه غطيطا ، حتى إذا ما أحس جسمه بالراحة جعل يتقلب ويدور في
السرير ويغطي وجهه بوسادة وسرعان ما يقذف بها بعيدا ليسحب الغطاء ويخفي به
رأسه ، وسمع في منامه دوى انفجارات وأزيز طائرات ، ورأى كأن دبابه تهم بأن
تدهمه فهب من نومه مفزوعا وهو يصرخ في هلع ويتلفت في رعب ، ويحس جفافا في
حلقه وبقلمه يدق دقات عنيفة استجابة للرغبة التي سرت فيه من الرأس إلى القدم .
واستمر مدة يحاول أن يسترد أنفاسه المبهورة بعد ذلك الكابوس المخيف الذي
كاد يمزقه تمزيقا ، وعجب من نفسه : كيف يستولى عليه كل هذا الخوف وهو في
فراشه بينما لم يستشعر بمثلته لما كان في حومة الوعى والقذائف تتساقط حوله
والدبابات تزحف نحوه والطائرات تنفض فوق رأسه وتلقى بقنابلها وتطلق
صواريخها !؟

وبدأ الخوف ينقشع ويعود الهدوء إلى نفسه فتمدد في فراشه مرة أخرى ، إلا أن النوم لم يعرف طريقه إلى عينيه على الرغم من أنه أطبقهما لعل الوسن يطوف بهما . ونشط ذهنه وراح يمدّه بالأحداث الهائلة التي وقعت في فترة وجيزة وبدلت الحياة تبديلاً ، كانت جانيت تشاركه هذا الفراش منذ أيام قليلة وإذا بها في غمضة عين تذهب وتتركه وحيداً .

ومديده وراح يتحسس وسادتها الخالية في رقة ، فغام وجهه بسحابة من الأسى وتدفقت في جوفه مشاعر حزينة وطافت بذهنه لحظات الصفو التي برقت في حياته ، فزادت آلامه وجعلته يحس بشاعة الفراغ الذي أصبح فيه .

ولم يستطيع أن يستمر ممدداً في فراشه فنفض ، وإذا به يتجه إلى صورة جانيت وهو شارد يفكر ، ووقف أمام الصورة يتفرد فيها وما لبث أن استحضر ذهنه مشهد نهايتها الأليمة .. رآها تجرى صوب غلام يبكي في عرض الطريق والقنابل تنهمر حوله وصواريخ الطائرات تنطلق إلى الأرض كالصواعق ، ورآها تحمل الغلام وقبل أن تتعد عن الخطر تنهار به والدم يتفجر منها .

ومسح وجهه بيده كأنما يحاول أن يمحو الصور البشعة التي احتلت ذهنه ، ليته يستطيع أن يمحو ذلك الماضي البغيض كله بما فيه من مآسى وكوارث وفواجع . هيهات أن يعود الأحبة . من يذهب لا يعود . يا للأسف !

ودار على عقبيه وهو بائس حزين ، يا لهذا الفراغ ! يا لهذه الوحدة القاتلة ! وسار في الغرفة ووقع بصره على قميص نوم لها كان معلقاً بالقرب من السرير ، فارتجف كأنما رأى شبحاً واتسعت عيناه رعباً واشتد وجيب قلبه وسرت فيه قشعريرة . وتسمر في مكانه والاضطراب يرجه والأسى يغمره . وما لبث أن كبح جماح نفسه القلقة فإذا بجنين ينتشر في كيانه فينسب إلى القميص كالمأخوذ وتعبت أصابعه فيه ، وتركزت كل مشاعر الوجد والمحبة في أنامله فإذا بها تفجر كنوز الرقة في جوفه ، فدفن وجهه في القميص وأجهش بالبكاء ، وأفلت منه زمام أمره فعلا صوته بالنعيب وراح يغمغم : جانيت .. جانيت .. جانيت .

وعاد ليجلس على حافة السرير وحمل رأسه بكفيه وهو حزين ، وإذا بصورة

مستر جونس رجل التأمين الأصلع المغرور تحتل كل ذهنه ، وخيل إليه أن قهقهاته الكريهة ترن في أذنيه زاخرة بالشماتة فياضة بالحقد البغيض ، وصاح وهو يشير بأصبعه إلى مستر جونس الذى خيل إليه أنه قائم أمامه :

— أنت وأمثالك الحاقدون يا مستر جونس سبب تعاسة البشر ، لو خلت الدنيا من أمثالك لما عرفنا الشقاء . أنتم الذين تنفخون نار الكراهية والبغضاء بين الشعوب ، أنتم وقود الحروب ، أصاغت دماء جانيت والأبرياء المسالمين قلائد مجد فى صدرك ؟ أنت يا مستر جونس حقير .. حقير .

وزفر زفرة شديدة من صدر مكروب وراح يجوس خلال الغرف وهو يتلفت ، إن كل قطعة من قطع الأثاث وكل ركن من أركان البيت يذكره بجانيت ، وأراد أن يهرب من انفعالاته التى كانت تؤجج نار حزنه فراح يهتف بصوت عال ليشغل نفسه عن الرؤى التى راحت تحتل أفكاره :

— مرجان ! مرجان ! أين أنت ؟

ليت أحدا يأتي ليخرجه من العذاب الذى يعيش فيه ، وخطر له أن يدير الراديو ليفر من وحدته القتالة التى تضنيه فاتجه إليه وأداره وانبعث نشيد «الله أكبر» بهز المكان هزا ، فراح يصغى إليه وهو منفعل به مندمج فيه .

ورنا إلى الراديو رنوة طويلة ثم غمغم :

— والله لقد لعبت دورا هائلا فى المعركة ، كنت السلاح الذى يطعن الأعداء طعنات نجلاء فى الأماسى والأصايح .

وراحت أم كلثوم تعنى : «والله زمان يا سلاحى» فتذكر سلاحه الذى تركه خلف الباب فقام إليه ليقطع الوقت بتنظيفه .

حمل سلاحه وهم بأن يعود به ليكون بالقرب من الراديو وإذا بطرقات عنيفة على الباب ، فذهب ليفتح وهو فى دهش من تلك الطرقات ، وما أن فتح الباب حتى رأى ويمز وحوله بعض الجنود البريطانيين ، فزوى ما بين حاجبيه ولاح الامتعاض فى وجهه ، وقبل أن يتحرك هجم عليه جنديان بريطانيان وانترعاهما السلاح ونحياه من الطريق ، فتدفق الجنود إلى الشقة وراحوا يفتشون عن الأسلحة فى كل مكان .

ودخل وليمز وراح يقلب وجهه في كل مكان في صلف وخيلاء، ووقف توفيق يصرف أنيابه في غيظ، ثم قال لوليمز:

— لا مرحبا بك في بيتي .

وسكت صوت الراديو فجأة فهرع توفيق ليرى ماذا حدث فألقى أحد الجنود يحمل الراديو بين ذراعيه، فهجم عليه لينتزعه منه وإذا بالجنود الآخرين يدفعونه بعيدا . وسمع صوت وليمز يقول له:

— اهدأ خيرا لك . وإلا أمرتهم أن يستعملوا الشدة معك .

فقال توفيق في غضب:

— هذه سرقة .. أنتم لصوص .

— إننا نجمع كل أجهزة الراديو .

— لماذا؟

فابتسم وليمز ابتسامة استخفاف ثم قال:

— أنا واثق أنك أعرف الناس بالسبب .

وراح الجنود يعثون بكل شيء، يلقون بالسائد والحشايا على الأرض ويفتحون الأدراج ويخرجون كل ما بها، وفتح أحدهم صوان الملابس وراح يطوح ثياب جانيت بعيدا، فثار توفيق ولم يستطع أن يكظم غيظه فهجم على الجندي يمنعه مما يفعل ويصيح به بالإنجليزية:

— أنت سافل .. حيوان .

واستدار إليه الجندي ولكمه لكمة شديدة أطارت صواب توفيق، فهجم عليه وسدد إليه ضربات يمينه وشماله، وإذا بالجنود الآخرين يهجمون عليه ويوسعونه ضربا ولكما .

وأمر وليمز جنوده أن يتركوه، ثم قال له بالعربية:

— نصحتك فلم تستمع لنصحي، اهدأ خيرا لك، لولا أنك صديق لأمرتهم

بالقاء القبض عليك .

فقال توفيق في غضب وهو يمسح الدم الذي سال من فمه بظهر يده:

— ما يحز في نفسي أنى عرفتك يوما .

ورفع أحدهم قطعة دقيقة من ثياب جانيت الداخلية ونشرها بين يديه وجعل يهزها هنا خفيفا فضح رفقاًؤه بالضحك ، ورأى توفيق ما يفعلونه فثارت دماؤه في عروقه وهجم عليهم وهو يصيح :

— يا أوغاد ! يا سفلة !

ونشبت بينه وبينهم معركة ، وقبل أن تستخدم صاح وليمز :

— اتركوه . إنه صديق . فهو من أصحابنا .

ورأى الجنود صورة جانيت ففهموا أوامره . وأحس توفيق عظم الإهانة التي رماه وليمز بها فمسح الدم الذى يسيل من فمه بكفه ثم مد به يده وقال :

— هذا الدم مصرى وسيظل إلى الأبد ماطنيا . إنى ما تميت شيئا يا مستر وليمز قدر ما تميت أن أصرعك لما رأيتك فى سيارتك الجيب فى صفوف أعدائنا . فنظر إليه وليمز فى شذر وقال :

— مغفل . كنت أعلق عليك آمالا كبارا .

فقال له توفيق فى زراية :

— لأنك غبى .

واستشاط وليمز غضبا ، ولم يعد قادرا على أن يتحكم فى أعصابه ، فضرب توفيق على وجهه بظهر يده . فقال توفيق بالإنجليزية :

— هذه أفعال الجبناء :

والنفت وليمز إلى جنوده وقال :

— إنى أبحت لكم البيت بكل ما فيه .

وراح الجنود يسلبون البيت ويحملون التحف ويدسون فى جيوبهم كل ما تصل إليه أيدهم من القطع النادرة التى جمعها توفيق من البلاد التى طاف بها . ومد أحدهم عينيه إلى صورة جميلة لجانيت وسرعان ما أخفاها فى جيب من جيوب ملبسه .

وظفق وليمز ييحث وينقب فى الغرف جميعها ، واندفع إلى المطبخ وراح يعث

بكل ما فيه ، ثم عاد إلى توفيق وقال له :

— قل لي : أين أخفيت الأسلحة ؟

فرماه توفيق بنظرة هازئة ثم قال :

— أنت لا تبحث عن أسلحة هنا يا مستر وليرز ، أنا أعرف عن تبحر .

وصمت قليلا وظهر الارتباك في وجه وليرز ، ثم قال توفيق :

— إن كنت تريد أن تعرف أين جانيث فأني أقول لك إنها قتلت ، قتلها طائر اتكم
فيمن قتلت عدوانا وظلما . وإن كنت تريد أن تعرف رأيها فيما فعلتم فأني أقول لك
إنها كانت تتمزق غيظا من الحماسة التي ارتكبتها ، كانت تبرا منكم ومن
وحشيتكم . إنها لم تصدق أبدا أن بلادها ترتكب مثل هذه الحماسة ، وكان تعليها
لهجومكم علينا الذي لم يكن له ما يبرره إلا الحقد ، إن إيدن قد جن .

لم تكن تريد أن تصدق أن الإنجليز من أمثالك يا مستر وليرز الذين عاشوا معنا
وخرجوا من ديارنا مع قوات الجلاء هم الذين أتوا يوقدون نار الحرب ، هم الذين
أحرسوا صوت ضمائرهم وباركوا قتل آلاف الأبرياء ليعودوا للنعيم الذي كانوا
فيه .

لتعود يا مستر وليرز لمجدك الضائع وسلطانك الذي حرمت منه ، قبلت أن تقتل
جانيث وأن تقتل زوجة عبود وأن يقتل فانوس وأن يقتل الرجال والشيوخ والنساء
والأطفال الأبرياء ، من آباءنا وأمهاتنا وأزواجنا وفلذات أكبادنا . قد لا تهلك
أكبادنا ، قد لا تهلك يا مستر وليرز كل هذه الدماء الزكية التي أريقت ، فبماذا تقنع
ضميرك إذا استيقظ يوما وسألك عن أرواح الشبان من أبناءكم الذين غررتم بهم
وسقتموهم ليموتوا غرباء معتدين آثمين لا يجدون من يترحم عليهم أو يصل على
أجدانهم ؟

وصاح وليرز فيه :

— كفى هراء يا توفيق أفسدتك الدعاية التي تنفثها إذاعتكم ، إننا ما عدنا إلا
لنعيد إليكم حريرتكم ، لنحول بينكم وبين أن تردوا في مهاوى الشيوعية .
ودنا من توفيق وقال له في لين :

— اسمع يا توفيق ، إن كنت تحب بلادك حقاً فتعاون معنا على أن نحقق الأهداف
الطبية التي ضحينا بأبنائنا في سبيل تحقيقها .
فقال توفيق في انفعال :

— أتعرف ماذا كانت وصية جانيت لنا قبل أن تموت ؟ قالت : قاوموا هذا
الطغيان . كانت جانيت يا مستر وليمز تحب بلادها أكثر من حبك إياها ، كانت ترى
في هذا العدوان خسارة لكم وخفضاً من هيبتكم وتحقيراً للشأنكم . قالت لي يوماً :
إن الأسد البريطاني فقد هيئته بعد أن لوى مصدق ذيله وأخشى أن يرتكب حماقة
أخرى فتنزع أنيابه .

لقد تحققت مخاوف جانيت بفضل مشورتك ومشورة أمثالك الطامعين في
العودة إلى بلادنا يا مستر وليمز . انتزعت أنياب الأسد البريطاني هنا في بور سعيد .
وضيعتم إمبراطوريتكم ولم تجنوا إلا مقت الشعوب لكم .
ونفذ صبر وليمز فصاح فيه :
— اخسأ .

وقرب توفيق وجهه من وجه وليمز وقال :
— أنتم الذين جنيتكم على بلادكم ، جنائتكم علينا أهون من جنائتكم على أنفسكم ،
جروحنا ستندمل ، أما السوس الذي بدأ ينخر فيكم فسينتهى به الأمر إلى أن
يقوضكم . إننا يا مستر وليمز الشمس الصاعدة ، أما أنتم فشمس مالت للغروب .
ولم يجد وليمز ما يرد عليه إلا أن يلطمه بيده ، ودوت اللطمة حتى إن الجنود الذين
كانوا منهمكين في سلب الدار هرعوا ينظرون ماذا جرى .
كان صدر وليمز يعلو وينخفض في غيظ ، وكان توفيق يتحسس وجهه بيده ،
كانت اللطمة قاسية إلا أن وقع كلام توفيق على نفس وليمز كان أقسى وأمر .
ورفع توفيق رأسه ورمى وليمز بنظرة احتقار ثم قال :
— كم كنت أتمنى أن تكون جانيت هنا إلى جوارى في هذه اللحظة لتقول لك
معى : اخرج من ديارنا .

وهم وليمز أن يأمر جنوده بأن يلقوا القبض عليه إلا أنه آثر أن يتريث أن يتركه

خيطا يقوده إلى زملائه المتحمسين مثله، ويومئذ لن يتردد في أن يلقي القبض عليهم جميعا .

وأمر ويلمز جنوده بأن يتأهبوا للانصراف . فجاءوا يحملون تحف الدار، ولا حظ توفيق أن صورة جانبية قد اختفت، فذهب إلى ويلمز وقال له :

— قل لجنودك الأشراف أن يعيدوا إلى صورة زوجتي .

ولم يحرك ويلمز شفثيه، ولم تبد من أحد الجنود بادرة توحى بأنه سيخرج الصورة من مخبئها، فقال توفيق في غيظ :

— كنت أشرف منكم لما كنت في بلادكم، كنت أستطيع أن أسرق جانبية، أن أعث بها ثم أعود إلى بلادى ! ولكنني آثرت أن أكون شريفا، تزوجتها ولم أخدعها، حملتها إلى بلادى مكرمة ولم أسرقها . كنت أظن أنى أستطيع أن أبني جسرا من المحبة بين بلادى وبلادكم، ولكنكم أفسدتم كل شىء، حطمت كل جسور المحبة التي أقيمت بيننا وبينكم، حتى الصورة التي تذكرنا بالجانب الطيب فيكم أيتيم إلا أن تسرقوها .

ومد أحدهم يده في صدره وأخرج الصورة، ولم يقو على أن يقدمها إلى توفيق بل وضعها في صمت على نضد قريب، ثم انسلوا خارجين لا يقوى أحدهم على أن يواجه نظرات توفيق، حتى ويلمز سار وهو يتحامى أن تقع عيناه عينييه .
وراح توفيق يغدو ويروح وهو غاضب، وسمع حركة خلفه فالتفت وهتف في راحة :

— مرجان ؟

وذهب إليه ولفت نظره الوعاء الذي يحمله فقال له :

— ما هذا ؟

فقال مرجان وقد انفرجت شفثاه عن أسنانه البيضاء :

— ماء وزعناه على المدينة كلها على الرغم من حراسة الإنجليز والفرنسيين

المشددة، ثم جئت بنصيينا منه .

وسار مرجان بالماء صوب الحمام، ثم التفت وقال :

— اختبأت حتى انصرف وليمز وجنوده ، ماذا جاء يفعل هنا؟
فقال توفيق وقد ضيق عينيه وزوى ما بين حاجبيه : جاء يبحث عن المتاعب .

كانت بور سعيد غارقة في الظلام ، المحال كلها مغلقة والسكون يسيطر عليها ،
ولم يكن يسمع في طرقاتها إلا وقع أقدام الجنود الغزاة الذين يقرمون بالحراسة ،
وأصوات عجلات عربات اليد واللوريات التي كانت تحمل جثث الشهداء .
وانطلقت إنصاف تغذ السير وهي تسد أنفها بيدها لتتحامى الروائح الكريهة
التي تنبعث من الجثث ومن طفح الحجارى بعد أن انفجرت أنابيبها .
ومس أذنيها مناجاة رجلين ، كان أحدهما شابا والآخر شيخا ، قال الشاب :

— هل وجدته يا أبى ؟

وقال الشيخ : لم أعثر على جثته بعد .

قال الشاب : لعله لم يقتل ؟

فقال الشيخ : قال لى أكثر من شاهد إنه قتل هنا .

وابتعدت عنهما ، وإذا بأحد الجنود البريطانيين يعترض سبيلها ويلقى على
مسامعها بعض كلمات بالإنجليزية لم تفهم معناها ، إلا أنها خمنت أنه يسألها : إلى أين
أنت ذاهبة ؟ فأشارت له إلى ثوبها الأبيض لتقول له : أنا ممرضة . ثم انسابت في
طريقها في خطوات ثابتة .

وبلغت عيادة الدكتور حازم ففتحت الباب في رفق ، كان الظلام ثقيلًا حتى إنها
لم تستطع أن ترى طريقها ، وسمعت الشيخ حسن يقول :
— يجب عليك يا سليمان أن ترحم نفسك ، أنت في حاجة إلى سرير وإلى
ممرضة .

فقالت إنصاف في رقة :

— السرير موجود والمرضة موجودة .

فقال الشيخ حسن :

— إنصاف؟ كيف جئت والتجول في هذه الساعة محظور؟

— ثيابی جواز مرور .

وتقدمت قليلا ثم قالت :

— لماذا تقعدون في الظلام؟

فقال سليمان :

— هل عادت الكهرباء إلى المدينة؟

— لا . عندكم مصباح جاز .

واتجهت ناحية دورة المياه وهي تقول :

— العمليات كلها تجرى الآن على أضواء الشموع والمصابيح .

وقال سليمان :

— ترى كم أما وضعت مولودها الآن في هذا الظلام؟

وانتفض عبودي في سريره ، نكأ قول سليمان جروحه فقفزت إلى ذهنه أحداث

تلك الليلة الرهيبة التي وضعت فيها بهية حسينا في أثناء الغارات .

وأقبلت إنصاف تحمل المصباح فإذا بالنور ينتشر في أرجاء المكان .

كان الشيخ حسن جالسا على الأرض وقد بسط رجليه ، وكان سليمان إلى

جواره يلف ذراعيه حول صدره كأنما يمنع قلبه من أن يفر من بين جنبيه ، وكان عبود

جالسا على حافة السرير ورجلاه متدلّيتان .

وسارت إنصاف إليه ورأت في وجهه عبوسا وقرأت في عينيه قصة أساه ، فخفق

قلبها رقة وقالت له :

— أتشرب شايا؟

ونفض سليمان وقال في فرح :

— أعندك شاى هنا؟

فقال إنصاف وهي تضع المصباح على نضد يتوسط الغرفة :

— سأعد لكم شايا بكرا .

فقال سليمان :

— شايا بكرا!؟

— أى شأى لم يمسه بشر قبلك .

فقال سليمان وهو يضحك :

— أعتقد أن مثل هذا الشأى لا يوجد فى المقاهى ، إننا نشرب شايا استعمل أكثر

من مرة .

فقال الشيخ حسن :

— ذلك شأى ثيب .

و غابت إنصاف عن عيونهم ، ذهبت لتعد لهم الشأى ، وظل عبود صامتا وإن ضايقه هذا المزاح . أحس غيرة تتحرك فى حشايه وتتدفق إلى صدره حادة تؤلم مشاعره ، وأراد أن يوجه غيرته ووجهه يرضاها فراح ينكر على الشيخ حسن أن يمزح وهو لا يدرى أين زوجته وابنه وماذا أصابهما ، إن اسم فتحية لم يجر مرة على لسان زوجها ، ترى أخطر على قلبه ؟

وكأئما أراد أن ينهيه إلى أهل بيته الذين نسبهم فقال :

— هل رأى أحدكم السيد صديق ؟

وسمعت إنصاف ما قال ، كانت أذناها معه فقالت فى صوت عال :

— رأيتة اليوم . جاء بأكثر من جريح إلى المستشفى .

وربت سليمان على ظهر الشيخ حسن ثم قال :

— حماك بطل .

فرفت ابتسامة خفيفة على شفتى الشيخ حسن ثم قال :

— كان يتحسر على أنه أنفق شبابه فى حياة رتيبة بلا ثورات ولا انفعالات ، كان

دائما يقول أيامكم خير من أيامنا . أيامكم مليئة بالبطولات والتضحيات والأعمال الحميدة .

قال سليمان :

— ها هو ذا قد عاش أوقات مثيرة .

وسمع طرق على الباب فهب عبود والشيخ حسن وسليمان منتصبين ، وخف

عبود إلى بندقيته، وقال سليمان :

— ترى من ذا الذى يدق الباب فى هذه الساعة؟

وقال الشيخ حسن وهو يحاول أن يخفى سلاحه :

— إنهم يبحثون عن الأسلحة، أخفوا أسلحتكم .

وقالت إنصاف وهى تذهب إلى الباب :

— ناموا . المرضى لا يستطيعون حتى هذه الساعة .

وهرعوا إلى الأسرة وتمددوا فيها وتظاهروا بالنوم وإن أرهفت حواسهم وراحوا يرقبون ما يحدث من بين أهدابهم المسبلة على العيون، وفتح الباب وصاحت إنصاف :

— مأمون؟! أهلا بك .

وقفز الرجال الثلاثة من الأسرة وانطلقوا إلى مأمون، لم يكن وحده بل كان فى رفقة صديق يرتدى ثياب الصيادين، قال له الشيخ حسن :

— ادخل . حماتك تحبك . الشاى حاضر .

وقال سليمان فى سرور :

— شاى بكر .

وجلسوا وراحت إنصاف تدور عليهم بأكواب الشاى، والتقت عيناها بعينى مأمون وكان عبود يرصدهما فرأى البريق الذى التمع فى عينى مأمون والبسمة التى توجت شفتى إنصاف، فانقبض ولاح فى وجهه الضيق، وكأئما خشى أن تفضحه نظراته فأطرق والغيرة تزحف إلى صدره .

وأمسك سليمان بوسطه وراح يتلفت ثم قال :

— برد . من أين يأتى هذا البرد الشديد؟

قالت إنصاف :

— جميع الشبايك مغلقة .

والتفت مأمون إلى صديقه وقال :

— عملها اليهود، ألوا علينا الإنجليز والفرنسيين .

وضع الشيخ حسن كوب الشاي على الأرض وقال :

— هذه ليست أول مرة يؤلبون فيها أعداءنا علينا ، فعلوا في السنة الخامسة من الهجرة ما فعلوه هذه الأيام . كان اليهود يعيشون في المدينة مع رسول الله ﷺ .. كانوا يعيشون معه في سلام ظاهري ، إلا أنهم كانوا يحقدون عليه أشد الحقد ، وكما خرج بن جوربون يؤلب علينا إنجلترا وفرنسا خرج زعماء اليهود من المدينة وذهبوا إلى قريش وقالوا لساداتها : نحن معكم حتى نستأصل محمدا وصحبه . ثم ذهبوا إلى زعماء القبائل العربية الذين كانوا على دين آبائهم وقالوا لهم : نحن معكم حتى نستأصل محمدا وصحبه . وخرجت جيوش قريش وجيوش القبائل العربية في عدد عظيم وفي عدة لم تعرف الصحراء مثلها ، وسمع المسلمون بخروج هذه الجيوش فحفروا حول المدينة خندقا . وأقبلت جموع العرب لقتال المسلمين واستئصالهم ولكنهم لما رأوا الخندق أحسوا خيبة أمل ، فما كان حفر الخندق من أساليبهم في القتال .

كان رسول الله يعد المسلمين بالنصر بعد الحصر ، وكان في ذلك العصر منافقون كما هو الحال في كل أوان ، فقالوا : « ألا تعجبون ؟ يحدتكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا ، وما وعدنا رسول الله إلا غورا » . وقال المؤمنون : « الحمد لله ، موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر » . وانقضى شهر ولم ينشب حرب بين الفريقين إلا رميا بالنبل ، وفي ذات يوم دعا رسول الله على الأحزاب ، على الذين جاءوا للقضاء عليه وعلى المسلمين :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

وهبت الرياح تقتلع خيام الكفار وتطرح أنيتهم ، فدبت الفوضى في معسكرهم ولم يجدوا إلا الرحيل .

وذهب المسلمون إلى اليهود الذين ألبوا الأحزاب عليهم وانتقموا منهم ، وفتح الله على المسلمين قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وصدق وعد الله ورسوله ، ولم يهدأ

للمسلمين بال إلا بعد أن أجلوا اليهود عن المدينة .

فقال سليمان :

— أتمنى أن أجود بروحى فى سبيل إجلاء اليهود عن فلسطين .

وقالت إنصاف :

— ليتنا نموت كلنا فداء لها .

وقال الشيخ حسن :

— كلنا نعيش على أمل واحد ، أن نلقى الصهانية يوما فى عرض البحر .

وشرد مأمون ، احتل راسم كل تفكيره ، كانت أمنيته الغالية أن يدخل تل أبيب مع الجيوش العربية الظافرة ، وأن يتسنم أعلى ما فيها وأن يناجى أمه التى قتلت فى دير ياسين .

وقطب جبينه وهمس فى جوفه هامس : « إن كانت أمنية راسم لم تتحقق بعد فسيأتى اليوم الذى تتحقق فيه ، وستردد آلاف الأصوات فى جنبات فلسطين هاتفة مع أهازيج النصر : أيتها النفوس التى قتلت فى سبيل فلسطين ، أيتها الأرواح التى ماتت شريفة بعيدا عن وطنها ، اطمئنى وعودى إلى ربك راضية مرضية ، فقد عدنا إلى ديارنا » .

وتحركت إنصاف فأفاق مأمون من شروده وقال :

— ما يغىظنى أن اليهود يدعون أنهم همزونا فى سيناء .

فقال زميل مأمون :

— وماذا بهم الادعاء ما داموا فى قرارة أنفسهم يعلمون أنه لولا دخول إنجلترا

وفرنسا الحرب لنجدتهم لكننا الآن فى قلب إسرائيل ؟

كان يعبر عن رأى ارتاه وما دار بخلده أن بن جوريون وقف فى الكنيسة يقول :

— إن قواتنا لم تحرز أى انتصار أمام الجيش المصرى .. وأنا أعتبر تدخل بريطانيا

وفرنسا فى القتال يوم الأربعاء الماضى العامل الرئيسى فى تمكيننا من الاستمرار فى

العمليات الحربية . وأحب أن أقول إن القوات المصرية كانت هائلة ومزودة بأحدث

الأسلحة ، وقد ظهر لنا أن الجيش المصرى قوى جدا ، أسلحته كثيرة وعملياته

الحرية ممتازة .

ووقفت إنصاف وقالت :

— سمعت في المستشفى إن هناك مفاوضات بيننا وبين الإنجليز على نقل الجرحى إلى القاهرة .

وراح مأمون وزميله يتبادلان النظرات كأنما كان يقول كل منهما لرفيقه : هذه فرصتنا ، وقالت إنصاف :

— ليتهم يوافقون فقد نفذت الأدوية والأربطة وامتلاء المستشفى بالجرحى حتى لم يعد فيه موضع لقدم .

وكان مأمون يرنو إليها في إعجاب ، فلما التقت عيناه بعينها قال لها :

— أنت مجهدة يا إنصاف ، اذهبي لتستريحى .

وأراد سليمان أن يداعبها فقال :

— كنت تقول لى يا حسن إنى فى حاجة إلى ممرضة و كنت أعارضك . كنت مغفلا . الحقيقة أنا فى شدة الحاجة إلى ممرضة .

وابتسمت إنصاف وقالت :

— مساء الخير .

وألقت نظرة على عبود فإذا به لا يقوى على أن يتلقى نظرتها الصريحة فأسبل

عينيه ، وقال الجميع ما عدا عبود :

— مساء النور .

وغابت إنصاف فى غرفة أخرى ، وقام عبود وذهب إلى السرير وتمدد فيه وإذا بكل تفكيره يدور حول إنصاف ، كانت أبغض الناس إلى قلبه ، وكان لا يطيق رؤيتها أو سماع صوتها ، وإذا بالأيام تظهر له أنه كان يظلمها ، ورن فى أذنيه صوت صادر من أعماقه يقول : « أكنت تكرهها حقا يا عبود ؟ » وضايقه ذلك الصوت فراح يتململ فى الفراش ويتقلب ويدور ويصيح فى نفسه فى حق : « كيف تدور فى رأسك هذه الأفكار ودم بهية وحسين لم يحف بعد ؟ إن كنت لا تزال على قيد الحياة ، فإتما تعيش لتشار لهما » .

وانقضى الليل وعبود لا ينام إلا حطفا، كان يفكر في حسين وجمية وسرعان ما تجرى أفكاره إلى إنصاف، وكان ذلك يضايقه، وكان يزيد في ضيقه شخير أصحابه الذين غلبهم التعاس .

وأصبح الصباح وإذا بسيارة تجوب الشوارع، ينبعث من مكبر صوت فيها نداء لم يميزه عبود في وضوح، فهب من سريره على أطراف أصابعه حتى لا ترتطم قدمه بأجساد النائمين، وانطلق نحو الباب ثم فتحه في رفق وراح يصغى إلى النداء، فإذا بسحابة من الغضب تطوف به، وإذا به يصرف أنيابه في غيظ شديد، وأيقظ النداء النائمين ومدوا أبصارهم إلى عبود فألفوه قد عاد وهو ساهم، فقال له الشيخ حسن :

— ماذا هناك ؟

فقال عبود في استياء :

— يطلب المنادى من الأهالي أن يسلموا أسلحتهم ويقول إن هذه رغبة السلطات المصرية .

فهب زميل مأمون منتصبا وقال :

— هذه خدعة .. خدعة ذنيعة قد تنطلي على الشعب . علينا أن نحذر الأهالي . ثم التفت إلى مأمون وقال :

— اذهب يا مأمون حالا إلى إخواننا وقل لهم أن يحذروا الأهالي من تسليم أسلحتهم للأعداء .

وخرج مأمون يعدو، وتأهب زملاء للخروج ليندسوا بين الناس ليحذروهم من ذلك النداء الخبيث، وانطلقوا صوب الباب وزميل مأمون يقول :

— إننا لم نضع السلاح .

وقبل أن يغادروا العيادة صاحت إنصاف :

— انتظروا إني ذاهبة معكم .

فقال لها عبود في إنكار :

— والمستشفى ؟

فابتسمت إنصاف وقالت :
— أظن أنى أستطيع أن أؤدى هذه الخدمة وأنا فى طريقى إلى المستشفى .

كانت المتاجر كلها مغلقة ، بيد أن الشوارع كانت غاصة بالناس الذين خرجوا يصغون إلى النداء الذى ينبعث من مكبر الصوت فى نبرات مصرية سليمة ، وكاد بعض الناس يصدقون أن ذلك نداء من السلطات المصرية حقا ، وهموا بأن يسلموا الإنجليز أسلحتهم ، لولا أن رجال المقاومة الشعبية انتشروا بين الجموع سريعا وراحوا يقولون للناس :

— هذه خيانة لا تسلموا أسلحتكم .

وسار عبود وإنصاف إلى جواره . وكانا كلما التقيا بأحد حذروه من أن يصغى إلى ذلك النداء الخائن ، ووقعت علينا عبود على الجنود الإنجليز والفرنسيين فأحس كأنهم قذى فى عينيه ، والتفت إلى إنصاف وقال :

— كنت أحسب أن البشر يستطيعون أن يعيشوا فى سلام ، أن يحب بعضهم بعضا ، إلى أن جاء هؤلاء الغزاة وهجموا علينا ظلما وعدوانا ، وقتلوا الأحبة والأبرياء فعرفت أنى كنت واهما . كنت أتعلق بأحلام ، لا يمكن أن تعيش فى سلام إذا كان الآخرون يطمعون فىك ولا يحترمون ذلك السلام . لم أكن أعرف الحقد فعلمونى كيف أحقد . كنت أفزع من الدماء فأرغمونى على أن أتمنى أن أخوض فى دمائهم ، إن كل قتلاهم لم يشفوا غليلي . أحس الآن رغبة شديدة فى أن أقتل كل الإنجليز والفرنسيين الذين نزلوا أرضنا ، بل لن يرضينى القضاء عليهم ، أشعر بكرهية لهم تسرى فى كل عروقى حتى إنى أتمنى أن أقتفى أثرهم لأستأصلهم من كل بقعة من بقاع الأرض نزلوا فيها ليستغلوا أهلها . ما أبشع أن يتحكم شعب فى شعب آخر .

وراح عبود يرمى جنود الحلفاء بنظرات غاضبة ثم قال :
— سأقتل منهم كل من تصل إليه يدي .

فمدت إنصاف يدها وأمسكت بيده وقالت :
— وأنا معك .

وانسابت السيارة ذات مكبر الصوت في شوارع بور سعيد تنفث نداءها الخبيث ، وخرج توفيق ومرجان ينظران ، فلاح الغضب في وجه توفيق وقال :
— ألا يسكت أحد هذا الصوت الخائن .

وامتلاً مرجان بالغضب ولاح في وجهه أنه عزم على أمر ، ولم يتردد طويلاً فأخذ يعدو خلف السيارة وقد قرر أن يسكت صوت ذلك الخائن إلى الأبد .

ووقف الناس ينظرون ماذا يفعل ذلك الأسود ، وإذا بسيارة إسعاف فيها شيخ أبيض الشعر تركت السنون آثارها في وجهه تنطلق كالسهم خلف السيارة وتلحق بها قبل أن يلحق بها مرجان ، ودنت سيارة الإسعاف من السيارة الأخرى حتى ليكاد جنباهما أن يحتكا ، والتفت الشيخ وقد استشاط غضباً إلى الشاب الأسمر الذي أمسك مكبر الصوت في يده ، وكان أول ما فعله أن بصق في وجهه ، ثم لطمه لطمات سريعة ، وخطف منه مكبر الصوت وراح يعلن على الملأ :
— هذا خائن لا تصفوا إليه ، لا تسلموا أسلحتكم . ليحفظ كل منكم بسلاحه .

واندفع الخائن بسيارته ليفر من غضب الناس ، إلا أن مرجانا كان قد لحق بالسيارة وتشبث بها وراح يتسلقها ليكتم أنفاس أول خيانة ترددت في بور سعيد . وظهر ولهمز في الشوارع ، كان يحاول أن يبدو هادئاً وأن يبتسم تلك الابتسامة التي ما كانت تفارق شفثيه ، إلا أن الأناشيد الحماسية التي كانت تنبعث من أجهزة الراديو في البيوت كانت تثير غضبه وتحرك مخاوفه ، كان الصوت يدوى في كل مكان :

أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى بلدى ونور الحق يسطع في يدي
قولوا معنى .. قولوا معنى .. الله أكبر .. الله أكبر
الله أكبر فوق كيد المعتدى

وأصدر ولهمز أوامره فإذا بجنوده تندفع إلى البيوت وتنزع أجهزة الراديو وتلقى

بها في الطريق ثم تحطمها تحطيمًا، واستمر ويمز في تفتيش البيوت والأناشيد تلاحقه كاللعنة .

دع سمائي فسمائي محرقة
دع قناتي فمياهي مغرقة
واحذر الأرض فأرضي صاعقة
هذه أرضي أنا
وأني ضحّي هنا
وأني قال لنا
مزقوا أعداءنا

وشعر ويمز أن زجيرة سرت بين الناس لما رأوا آلاف أجهزة الراديو تحطم بظهور
البنادق وأقدام الغزاة، وأحس حركة تأهب للعدوان فشهر مسدسه، ثم انسل
كالأفعى ليبتعد عن الجموع الغاضبة، والتفت الشيخ حسن إلى سليمان وقال :
— أتمنى أن أقتل ويقتل معي ويمز .
وقال سليمان :

— لو كان سلاحي معي ما ترددت في قتله .
— ليس قتله أمرا سهلا كما تتصور ، إنه ثعلب كثير التلفت . لا يتردد في أن يطلق
النار على أي إنسان إذا ما طاف بذهنه ظل من الشك في أنه يريد به سوءا .
وشرد سليمان قليلا ثم قال :

— أتعرف معنى تجواله في شوارع بور سعيد مرة أخرى ؟
— أعرف ، إنه يؤكد قوة بريطانيا .
— بل يؤكد عودتها إلى القناة .
— عادت لتتيح لنا الفرصة لتجليبها عن أراضينا بالسلاح ، ليكون لنا حق تمزيق
اتفاقية الجلاء . إني لم أبارك هذه الاتفاقية في يوم من الأيام .
— إني لا أريد أن يخرج ويمز من بلادنا حيا .
— المهم أن ينسحب من بلادنا .

— لا . لو قتل ولهمز لكان في ذلك تأكيد منا على كل من تسول له أطماعه أن يغزونا فلن يكون مصيره إلا الهلاك .

وجاءت سيارة تحمل مكبرا للصوت وراحت تذيع :
— أيها العمال هيا إلى العمل ! إلى تطهير القناة ! سيعطى كل عامل مائة قرش ، ولن يعمل إلا ست ساعات .

وراح الشيخ حسن يرقب سليمان بطرف عينيه ، إنه لم يعمل منذ أن قرر الطبيب فصله وكان حاقدا على طرده من عمله ، ترى ماذا يفعل سليمان وقد أتيتحت له فرصة العمل ؟ إنه يذكر أن سليمان قال يوما : لو وجدت من يشغلني في تهريب الحشيش ما ترددت .

وراح سليمان يتلفت بعيون زائغة ، وأحس أن الشيخ حسن يرصد حر كاته فزاد اضطرابه وشعر كأن الدنيا كلها صارت عيوننا موجهة إليه . لماذا ترقبه كل هذه العيون ؟ لماذا تخصني عليه أنفاسه ؟ ووقفت السيارة ولم يتقدم أحد ليعمل مع الأعداء ، وكان لا بد أن يزيد الإغراء فراح المذيع يعلن :

— أيها العمال سيعطى كل عامل مائة وخمسين قرشا في اليوم . هيا إلى العمل . هيا إلى تطهير القناة .

وزاد ضيق سليمان ، خيل له وهمه أن آلاف العيون المفتوحة صوبت إليه ، فغض من بصره ، وأطرق وانتشر القلق بين جوانحه . وأراد أن يقول شيئا لينفي عن نفسه اتهام هذه العيون الظالمة ، بيد أنه لم يجد لسانه وأحس جفافا ورعدة خفيفة تسرى في كل كيانه .

ومر بعض الوقت وقد تسمر الناس في أماكنهم وشرأبت أعناقهم وأرهفت حواسهم ، كان كل منهم واثقا من نفسه ، إلا أنه كان يخشى أن يضعف الآخرون بعد أن تعطلت الأعمال ونقص القوت وعز الماء .

وازداد الاختبار قسوة وضراوة ، راح المذيع يعلن :
— أيها العمال ، سيأخذ كل عامل جنبيين على أن يعمل ست ساعات ، سيأخذ أجر خمسة عشر يوما مقدما .

ولم يعد سليمان يحتمل أذى كل هذه العيون التي خييل إليه أنها مصوبة إليه ،
فالتفت إلى الشيخ حسن وقال :

— والله لو تقدم نحائن ليعمل معهم فلن أتردد في قتله .

وزفر الشيخ حسن في راحة ، وتفجرت مشاعر رقيقة في جوفه كانت كلها تهفو
إلى سليمان وتجله ، فراح يعبر عما يحسه بأن لف ذراعه حول سليمان وضمه إليه
ضمة حانية ، نقلت كل إحساساته النبيلة إليه فملأت قلبه بالرضا .

ولم يتقدم رجل واحد ليتعاون مع الإنجليز فراحت السيارة تنسحب من الميدان
تجر أذيال الخيبة ، وأحرق ذلك البريطانيين فجاء وليمز وبعض جنوده وقبضوا على
بعض العمال ، وساقوهم ليرغموهم على أن يعملوا معهم قسرا .

وسرت بين الناس همهمة ثم ارتفعت أصوات الاستنكار ، وتحرك الرجال
لينتزعوا إخوانهم من بين أيدي الذين أرادوا أن يلطخوهم بالعار ، فالتفت الجنود إلى
الزحف الذي بدا من كل جانب ، فانتهاز العمال المقبوض عليهم هذه الفرصة وفروا
في غفلة ممن قبض عليهم .

ورأى الناس فرار إخوانهم وأن تحركهم قد أتى ثمرته ، وأن ذلك الزحف لم يعد له
ما يبرره ، فعادوا أدراجهم ثم راحوا يتفرقون ، ووقف وليمز وهو غاضب ، ضايقه أن
سخر منه من كانوا بالأمس يرتحفون خوفا إذا ما وقعت عليه عيونهم ، فوطد العزم
على أن يعذبهم ويرهبهم ليعيد إلى نفسه هيئته .

وانطلق الشيخ حسن وسليمان يتحدثان ، قال الشيخ حسن :

— بعض الناس لا يعترفون بالحقيقة إلا إذا صفتهم ، وقد كنت من هؤلاء
الناس ، فما كنت أصدق أن تتاح لك مثل هذه الفرصة للعمل ثم ترفضها .

فقال سليمان وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— سأمحك الله يا شيخ حسن . أفكرت أني أخون وطني لأن طبيبا من أهلي أساء

إليّ؟ إنه قرر ما يعتقد أنه صواب ، وقد شرذني ذلك القرار .

أدار بخلدك أني سأحقد على كل أهلي لأن أخا من إخواني ألقى بي في الطريق خوفا
عليّ من أن أموت من الإرهاق؟ لا يا شيخ حسن ، إني أحب وطني ، أحب أهلي وإن

جاروا عليّ ، إني أفضل أن أموت جوعاً على أن أضع يدي في أيدي الأعداء .
وظفرت الدموع من عيني حسن وقال :

— آسف يا سليمان . آسف إن كنت قد أسأت فهمك مرات .

وشغل الناس بسيارات الإغراء وبمراقبة الجنود الذين كانوا في ضيق بعد أن
أغلقت حوانيت المدينة كلها أبوابها في وجوههم ، وفي غفلة من الجنود والناس انسل
مأمون وصحبه إلى مبنى قناة السويس .

وانتشروا بالقرب من الباب الحديدي الخارجى ، كان أحدهم يرتدى ثياب
الصيادين ، وكان آخر يحمل صندوق مسح الأحذية ، وكان ثالث يرتدى ثياب
طالب ، وارتدى رئيس السرية ثياب كناس ووقف يتلفت حتى إذا ما ألقى الطريق
خاليا راح يتقدم ثابت الخطو وأخذ زملاؤه يرصدون كل حركة في الطريق .
سار وعيناه تتجولان في كل مكان ، وتنتقلان في سرعة من مراقبة الأبواب
والتوافذ الواقعة على الجانب الأيمن إلى مراقبة الأبواب والتوافذ الواقعة على الجانب
الآخر ، وقد أراهفت حواسه وتوترت أعصابه حتى إنه كان يسمع صوت الهواء وهو
يداعب أوراق الشجر كأنما يسمع أيادى عابثة تدق طبولاً .

وبلغ نهاية الطريق ، وأصبح على بعد خطوات من الباب الداخلى فتلفت خلفه
ويده على مسدسه ، ثم ألقى نظرة خاطفة على الفناء الذى يفصل بينه وبين الباب ، ولما
اطمأن إلى كل شىء راح ينسل كالطيف حتى غاب في جوف مبنى القناة .

وصعد في الدرج الخشبي في خفة ، ثم راح ينسل إلى غرفة خزائن المستندات ،
كانت هذه أول مرة تطأ قدمه مبنى إدارة القناة ، بيد أنه كان يعرف طريقه فقد درس
خراطم المبنى دراسة عميقة وعاش فيها بخياله ليلال وأياماً .

وفتح الخزائن المعدنية وراح ينقب عن المستندات ، وكان رنين الأوامر التى
تلقها تدوى في أذنيه :

— إنها مستندات هامة لا بد من الحصول عليها وإرسالها إلى هنا مهما كان الثمن .

وراح ينقب عنها وهو مفتوح العينين مرهف الحواس ، وصوت يهمس في

سريره .

— لا بد من الحصول عليها ، لا بد من أن تصل إلى القاهرة ولو دفعت ثمن ذلك حياتي .

وراح زملاؤه يغدون ويروحون بالقرب من المبنى وقد تركزت عيونهم على الباب الخارجى ، ومراقبة الطريق الطويل الموصل بينه وبين المبنى الذى يطل على القناة والذى يحوى فى جوفه المستندات المنشودة التى جاءوا ليستولوا عليها .

ولمح مأمون جنديا بريطانيا مقبلا نحوه ، فأخرج من جيبه مسدسا على هيئة علبة سجائر وفتح غطاءها وأخرج منها سيجارة ، ودنا الجندى منه وقال بالإنجليزية :
— ماذا تفعل هنا ؟

فقدم إليه مأمون العلبة وأصبعه على الزناد وقال بالعربية :

— تفضل .

وهم الجندى بأن يتناول سيجارة إلا أن مخاوفه حذرته من أن يفعل فقال بالإنجليزية :

— شكرا .

وسار مأمون متظاهرا بالانصراف والجندى يرقبه ، حتى إذا ما غاب عن عينيه عاد الجندى ليستأنف تجواله .

وغاب رئيس السرية طويلا ، وبدأت المخاوف تساور رجاله حتى إنهم اجتمعوا وقرروا أن يذهب أحدهم ليرى ماذا يجرى فى جوف ذلك المبنى الغارق فى الصمت المتسربل بالأسرار .

واقترح الرجل الباب الحديدى وسار فى الطريق الطويل ، وما قطع فيه خطوات حتى انقلب على عقبه وقال لزملائه :
— إنه قادم .

ولم يخفوا الاستقباله ولم يذهب الفرع بعقولهم ، بل تفرقوا وراحوا يبتعدون عن المبنى وإن تركزت عيونهم على بابه الخارجى . وخرج رئيس السرية يتلفت فى حذر ثم انطلق لا يلوى على شئ ، واندفع رجاله خلفه حتى إذا ما ابتعدوا عن المنطقة لحقوا به وقالوا :

— هل عثرت عليها؟

فقال وقد لمعت عيناه بريق الانتصار :

— نعم ، إنها في جيبى .

ثم التفت إلى مأمون وقال :

— اسمع يا مأمون ، سيغادر قطار الجرحى بور سعيد اليوم .. لا بد أن أذهب إلى

القاهرة في هذا القطار .

وفهم مأمون ما يقصده فقال له :

— سأدبر كل شيء ، بعد ساعة يمكنك أن تأتي إلى مستشفى الميرة .

— سأتي بعد أن تنتهى من كتابة تقرير عن الحالة في بور سعيد ، فالقاهرة متلهفة .

على معرفة صورة حقيقية عما يجرى هنا .

وانطلق مأمون إلى المستشفى وراح يتلفت في دهش ، فقد كان غاصا بالجرحى

حتى إن الأسرة وضعت في ممراته ولمح ممرضة فذهب إليها وقال :

— الآنسة إنصاف من فضلك .

— في الطبقة الثانية .

وراح يشق طريقه في جهد ، وصعد في الدرج فإذا بالطبقة الثانية كخلية نحل ،

أناس يجيئون وأناس يروحون ، وجرحى في الطرقات ، وجلبة وضوضاء ، وجموع

تموج في جموع ، واندس بين أمواج البشر وهو يتلفت ، ولمح إنصاف فأخذ يدفع

الناس بمنكبيه ليصل إليها .

وأصبح على بعد خطوات منها فإذا بها تتحرك لتصرف فناداها :

— إنصاف . إنصاف .

وميزت صوته فالتفت إليه وقالت :

— ما الذى جاء بك إلى هنا يا مأمون ؟

فقال في لهفة :

— أريد أن أقابل الدكتور حازم في أمر هام .

— تعال .

وسارت به إلى الدكتور حازم ولم يكن في الغرفة وحده .. كان معه أناس كثيرون ، فدنا منه مأمون وقال :

— أريدك على انفراد دقيقة واحدة .

فنهض الدكتور وذهب بمأمون إلى ركن بعيد وقال :

— خيرا ؟

فقال مأمون وعيونه زائغة :

— معنا مستندات هامة ، لا بد من أن ينزل بها أحد ضباطنا في قطار الجرحى ..

إنها مستندات تطلبها القاهرة .

وشرد الدكتور حازم قليلا ثم قال :

— حسنا .

ثم أشار إلى إنصاف بأصبعه أن تعالي ، فلما اقتربت منه قال لها بصوت خافت :

— جهزي سيارة إسعاف ممن نثق في رجالها .

وقال للمأمون :

— أنا في انتظار صديقك .

ووقف مأمون أمام المستشفى ينتظر ، وجاء رئيس السرية وزملاؤه فأسرع

يستقبلهم وهو يقول في انشراح :

— كل شيء على ما يرام .

والتفت رئيس السرية إلى زملائه وقال :

— انتظروا هنا .

وذهب مع مأمون إلى حيث كان الدكتور حازم ، وما هي إلا دقائق حتى كان

الضابط في غرفة العمليات وقد عرى ساقه ووضع المستندات والتقارير فوقها ، ثم

راح الدكتور وإنصاف يلفان الجبس حولها .

وشرد الدكتور حازم قليلا ثم قال :

— اليوم الثامن من نوفمبر ، كسرت ساقه يوم ٤ نوفمبر .

وراح يكتب فوق الجبس ٤ / ١١ / ١٩٥٦

ورنت إنصاف إلى الدكتور وقالت :
— الجيس طرى ، لو فحص أى طبيب الجيس فسيشك فى الأمر .
فابتسم الضابط وقال :
— ربنا يستر .
وقال لها مأمون :
— اطمئنى . سنكون هنا .
وقالت إنصاف للدكتور :
— أسمح لى أن أذهب معه ؟
فقال لها ضابط الصاعقة :
— شكرا . لا داعى لهذا التعب .
وقال لها مأمون :
— إنهم يحتاجون إليك هنا .
— أريد أن أشارك بنصيبى فى هذه المغامرة .
فقال لها مأمون مداعبا :
— لقد شاركت فيها وكفاك ما قمت به . ماذا تستطيعين أن تفعلى أكثر مما فعلت ؟
فقالت إنصاف وهى تبتسم :
— قد أستطيع أن أشغل الدكتور البريطانى عن أن يكتشف أن الجيس جديد والتاريخ قديم :
فقال مأمون مازحا :
— أنا واثق أنك تستطيعين ذلك .
وقال لها الدكتور حازم :
— سيارة الإسعاف جاهزة ؟
وأشارت إنصاف برأسها أن نعم ثم خرجت ، وما لبثت أن عادت ومعها رجلان يحملان نقالة . كان أحدهما صديق الفرارجى ، وما إن وقعت عينا مأمون (م ٢٩ — السهول البيض)

عليه حتى صاح في ترحيب :

— السيد صديق؟ مرحبا بك .

وهتف صديق في ابتهاج :

— مأمون؟ حمدا لله على السلامة .

وحمل ضابط الصاعقة على النقالة ووضع في السيارة وزملاؤه يرقبونه من بعيد ،
وركبت إنصاف معه ، وأغلق مأمون الباب خلفها ثم خف إلى زملائه وقال :
— إلى القابوطي ، سيجرى تفتيش الجرحى هناك قبل وضعهم في القطار .
وركبوا سيارة أجرة وانطلقوا خلف سيارة الإسعاف .

وصلوا إلى القابوطي وكانت سيارات كثيرة تحمل الجرحى ، وكان جنود
شاهرين أسلحتهم عند أبواب عربات القطار ، وجنود آخرون يحولون بين الأهالي
وبين السيارات التي كانت تقف بعيدا عن القطار .

واندس مأمون وزملاؤه بين الجماهير ، وجاءت السيارة التي تحمل ضابط
الصاعقة ودخلت ونزل منها صديق وفتح الباب الخلفي ، ثم خف زميله وعاونه على
حمل النقالة ، وسارت إنصاف معهما .

وجاء الطبيب البريطاني يفحص الجبس فلاح في وجهه الدهش ، فالجيس طرى
والتاريخ قديم ، وظهر الارتباك في وجه صديق ، وفطن الزملاء إلى أن الأمر
سينكشف فوضعوا أيديهم على مسدساتهم وتأهبوا لخوض غمار مخاطرة يائسة .
وسمعت جلبة في المكان ، ووقفت سيارة جيب نزل منها استوكويل ، فهرع
الطبيب لاستقباله ، وانتهزت إنصاف هذه الفرصة وقالت لصديق :

— تقدم !

وسار صديق وزميله وهما يحملان النقالة صوب القطار ، وراحت إنصاف
توزع الابتسامات على كل من تقابله من الجنود حتى وضع الضابط في القطار .
وظل الزملاء ينتظرون وهم يحسون قلقا كان يشتد كلما طال مرور الزمن ،
وانطلقت أخيرا صفارة القطار ، ثم راح يتحرك في ببطء شديد ، حتى إذا ما غاب عن
الأنظار زفر الرجال في راحة ، فالمستندات الغالية في طريقها إلى القاهرة .

السكون نعيم على بحيرة المنزلة، والظلام يلف كل شيء، هواء الشتاء البارد يلفح جنود الحراسة فيشغلهم بأنفسهم عن كل ما حولهم، وبيوت الصيادين في القابوطة أغلقت أبوابها إلا أن الهواء كان يتسرب من فرجات الأخشاب التي صنعت منها أغلب الدور.

وعلى الشاطئ انتشرت بعض قوارب صغيرة نشرت فوقها شباك الصيد، وفي أحد هذه القوارب اختفى مأمون وراح يرصد البحيرة وقد أرهفت حواسه كلها. ومس أذنيه صوت مجاديف تضرب الماء في حرص شديد، فمد بصره فأرى زورقا قادما من بعيد، فراح يرقبه وهو يشق طريقه في سواد الليل صوب مدينة الصيادين.

واقرب أحد الجنود البريطانيين المكلفين بالحراسة من الزورق الذي اختفى فيه مأمون وألقى نظرة على البحيرة، فحقق قلب مأمون وراح يفكر سريعا، فقرر أن يقتل الجندي إذا ما بدرت منه بادرة توحى بأنه رأى القارب الذي يدنو من الشاطئ، إلا أن الجندي عاد أدراجه وهو ينفخ في يديه من البرد الشديد.

وقفز مأمون من الزورق، وجرى في خفة الطيف متسرلا بالظلام يستقبل القادمين. كان أحدهم يحمل جهازا أشبه بأجهزة الراديو، وكان يضمه إلى صدره في حرص شديد، فقد كان جهاز لاسلكي لربط قوات المقاومة في بور سعيد برئاسة القوات في القاهرة، وكان الآخرون قد جاءوا معهم بأسلحة مفككة لتركب ثم توزع على الشعب الذي أرى أن يضع السلاح قبل خروج آخر جندي من جنود الأعداء من البلاد.

وقال مأمون:

— أسرعوا. كل شيء معد.

وقال قائل:

— إلى أين سنحمل هذه الأسلحة؟

فقال مأمون :

— إلى بيت شيخ الصيادين ، اتركوا كل شيء في الزورق وأسرعوا .

— ومن الذى سيقوم بنقلها وتركيبها ؟

فقال لهم مأمون وهم فى طريقهم إلى بيوت الصيادين :

— اطمئنوا . أعددت كل شيء .

وفتحت أبواب بيوت الصيادين لتستقبلهم ، وراح رجال الصاعقة يصعدون

فى الدرجات الخشبية القليلة التى تفصل بين الأرض الرطبة ومداخل الدور ، وخف

بعض الصيادين إلى الزورق وحملوا الأسلحة المفككة إلى بيت شيخ الصيادين .

وسرعان ما أغلقت الأبواب وعاد الصمت الرهيب ليطبق على القابوطى .

وطلع الفجر وانتهى موعد حظر التجول ، ففتحت أبواب دور الصيادين

وخرج منها الرجال ، وانتشر الوافدون بالليل فى أرجاء المكان ، كانوا يرتدون ثياب

الصيادين إلا أنهم كانوا يحملون آلات التصوير .

وراح أحدهم يلتقط كل ما يستطيع التقاطه من الصور ، والتفت يدير عينيه فى

المكان فرأى دورية مسلحة قادمة نحوه ، فألقى آلة التصوير وأخفاها بالطين ، ثم

أخرج من جيبه علبة سجائر وتناول منها سيجارة ، إلا أن أصبعه كان على الزناد .

ودنا منه أحد جنود الدورية وقال له بالإنجليزية :

— ماذا تفعل هنا ؟

وقال الضابط بالعربية :

— أنا لا أفهم ماذا تقول .

وإذا بالجندى يقول له باللغة الإنجليزية :

— ماذا تفعل هنا ؟

وأشار للضابط إلى جامع القابوطى وقال :

— أنا ذاهب إلى الجامع .

وسار إلى الجامع ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفتيشه ، وراح من الجامع يرقب آلة

التصوير التى دفتها .

ووقف العم محمود، وهو رجل مسن يملك قاربا للصيد يمزح مع البريطانيين،
ويصغى إليهم ثم يطلق الضحكات المجلجلة، فأحس رجال الصاعقة ضيقا حتى إن
أحدهم قال :

— أحس أنى سأقتل هذا الرجل يوما .

وانصرفت الدورية، وخرج المختبىء في الجامع يعدو صوب آلة التصوير التي
أخفاها بالطين، وبينما كان يلتقطها ألغى مأمونا واقفا عند رأسه، فابتسم ثم انتصب
قائما وقال :

— يجب أن ينقل جهاز اللاسلكى في حرص شديد .

— اطمنن .

— وأن يوضع في مكان أمين .

— أعددت كل شيء .

— لن يستقر الجهاز في مكان واحد أكثر من ليلة حتى لا ينكشف أمره .
فقال مأمون في ثقة :

— بيوت بورسعيد كلها مفتوحة لاستقباله .

وكان مأمون يتلفت بين الفينة والفينة كأنما كان ينتظر أحدا، وقال الضابط :

— القوة كلها ستصل إلى هنا في أيام قليلة .

— هنا أقواس منجدين، وصناديق مسح الأحذية، وحقائب حلاقين،

وملابس صيادين، سيجد كل منهم ما يناسبه .

— يجب ألا يبيت أكثر من اثنين منهم في بيت واحد .

ووقعت عينا مأمون على من كان ينتظرهم فصاح في ترحيب :

— مرحبا بكم .

وراح يصافح الشيخ حسن وسليمان ومرجان ورجالا آخرين، ثم انطلقوا

جميعا إلى بيت شيخ الصيادين .

وراح بعض رجال الصاعقة يطوون المدافع الصغيرة ويضعونها في أكياس مطلية

بالشحم، وأخذ البعض الآخر يضع الأكياس في أكياس أخرى نظيفة، بينما كان

بعض الصيادين يضعون الأجزاء المفككة في أكياس أخرى ، ثم وضعت الأكياس في أجولة الأرز وأقفاص الطماطم و سلال السمك .

وقال مأمون لمرجان :

— مهمتك أخطر من كل هذه المهام .

ثم التفت إلى جهاز اللاسلكي وقال :

— سنذهب بهذا الجهاز إلى بيت السيد توفيق . حاذر يا مرجان .

فابتسم مرجان وقال :

— اطمئن .

ووضع الجهاز اللاسلكي في كيس كبير وملاً الكيس بزجاجات البيرة ، وقال الضابط الذي كان يشرف على العملية وكان يرتدى جلباب الصيادين :

— هذه الزجاجات هي مفتاح الطريق .

وقالوا مرجان في زراية :

— لو كانت زجاجات شمبانيا لسلمونا مفاتيح بلادهم ..

وحمل كل من الرجال حملة وخرجوا يتلفتون في حرص شديد ، و مروا على العم محمود فراح يتفرس فيهم في إمعان ، ورأى بعض الضباط نظراته فهموا بأن يفتكوا به إلا أنهم خشوا أن يفتضح أمرهم .

وساروا في طريقهم . كان الشيخ حسن يحمل الأرز على ظهره ، وسليمان يحمل الطماطم على رأسه ، أما أوعية السمك فقد كانت كثيرة .

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان بطرف عينه فأشفق عليه وإن كبر في عينيه ، وألقى نفسه يفكر في الطبيب الذي ألقى به في الطريق رافة به خشية أن يموت في أثناء العمل . هل خطر بباله أن صاحب القلب الضعيف تسرى فيه روح قوية ترأبأ صدع كل احتلال في البدن ؟ وراح صوت يرن في أعماقه ، لا ، من قال إن سليمان ضعيف القلب ؟ الطبيب ؟! وكيف فطن إلى ذلك الضعف ؟ وضع أذنه على صدره وأمسك معصمه وضغط بأصبعه على نبضه ثم قال وقد قطب جبينه ولاح في وجهه الجذ : آسف . لا أستطيع أن أتحمّل مسؤولية استمرارك في العمل . ووجد سليمان نفسه

طريدا شريدا رحمة به الا . لا يمكن أن يكون سليمان مريضا بالقلب . إن ما احتمله حتى هذه الساعة ينوء به أشد الرجال . أصدر عليه الطبيب حكما أقسى من حكم الإعدام ، ولم يرده فيه أحد . إذا ما انتهت هذه الحرب ، وإذا ما عدنا إلى الشركة فسأقف إلى جوارك يا سليمان وأطرق كل الأبواب لتعود إلى عملك . آه لو أنصفوك لعوضوك عن الأيام المريرة التي قاسيتها بلا ذنب .

وكان الرجال قد افترقوا وراح كل منهم يسلك سبيلا للدخول إلى المدينة . ومروا بنقطة الحراسة ووقفوا فتقدم الجنود يفحصون ما معهم ، وكان أول من سمحوا بمرورهم بائعو السمك ، كانت رائحته تؤذى أنوفهم فكانوا يفرجون عنم يحملونه سريعا .

وراح جندى يمد ذراعه في جوال الأرز وعيناه تفحصان الشيخ حسن ، كانت في نظراته ريبة ، إلا أن رباطة جأش حسن وعدم عثور يد الجندى في الجوال إلا على الأرز جعلت الجندى يسمح له بالمرور .

ووقف مرجان للتفتيش وكان على قرب منه مأمون وز ملاؤه وقد وضعا أيديهم على مسدساتهم ، كانوا يتأهبون لخوض معركة خاطفة إذا ما افتضح أمر جهاز الإرسال .

ومد الجندى يده وأخرج زجاجة بيرة وأخذ ينظر إليها وقد سال لعابه ، فقال له مرجان في إنجليزية ركيكة التقطها من أحاديث جانبية معه أول ما جاءت إلى مصر :
— بيرة أبيعها لأصدقائي الإنجليز .

وابتسم الجندى ولاحظ أسنانه البارزة إلى الأمام ، وقال مرجان وهو يقدم له زجاجة أخرى .

وقال الجندى في فرح :

— شكرا .

ثم صمت قليلا وقال :

— أين تعلمت الإنجليزية ؟

فقال مرجان وهو يشمخ بأنفه في زهو :

— كنت طاهيا في بيت مستر جون وليمز .
وأفسح له الجندي الطريق ، فقال مرجان بالإنجليزية :
— شكرا .

ثم سار في خطوات ثابتة ومأمون وصحبه يرقبونه وقد أثلجت صدورهم . مر
جهاز الإرسال ومنذ اليوم سيعود الاتصال بين القاهرة وبور سعيد . وانطلق مرجان
بحملة الثمين إلى بيت توفيق .

بلغ مرجان الشارع في الوقت الذي كان يمر فيه وليمز في سيارته الجيب وإلى
جواره « جرای » ضابط المخابرات ، فاختبأ في جدار بيت حتى اختفى وليمز ثم راح
يتقدم صوب الدار ، وقبل أن يبلغها كان مور هاوس الضابط البريطاني يسير في
سيارته وقد اضطجع في مقعدها الخلفى وشمخ بأنفه وراح يدير عينيه في غطسة
وخيلة ، فتمهل مرجان قليلا .

ورأى مور هاوس شاهين مصريين ينظران إليه ثم يضحكان ، فخيل إليه أنهما
يتغامزان عليه ، فأمر سائقه أن يقف ، ثم هبط من السيارة وذهب إليهما ، ودون أن
ينبس بكلمة راح يلطمهما بيديه . وهم أحدهما أن يهجم عليه فأسرع وأخرج
مسدسه ، فأحجم الشاب على مضض ، وراحت ثورة عارمة تتفجر في صدره .
وانتهز مرجان انشغال الناس بقحة الضابط البريطاني المتعجرف فانسل إلى
البيت وراح يقفز في الدرج قفزات جنى الأساطير وهو يحمل صندوق الجواهر
والبواقيت والذهب ، وقبل أن يصل إلى الباب رأى توفيق يفتح له ويقول :
— أحسنت يا مرجان . أسرع .

ودخل مرجان وأغلق الباب خلفه .

ووضع الشيخ حسن الأرز على عربة يدوسار يتلفت حتى عثر على سليمان فرمز
له بعينه ، فأسرع سليمان ووضع ما يحمل فوق العربة ثم ابتعد ، وانطلق حسن إلى
الحى العربى ومد بصره فرأى إنصاف تشير له أن تقدم فالطريق خال ، فأخذ يدفع
العربة أمامه حتى وقف عند بيت متهدم ، ثم حمل الأرز ودخل فإذا بعبود يتلقى منه
حملة .

وجاء مأمون وبعض زملائه ونظر فألقى إنصاف تشير لهم أن الطريق خال .
تقدموا . فأسرعوا بما معهم وراحوا يسلمونه لعبود ، ثم عاد مأمون إلى إنصاف وقال
لها :

— أريد مكانا لاثنين .

— اذهب بهما إلى زميلتي أم على ، لقد هيأت لهما المكان .

— أين ؟

— في عيادة طبيب الأسنان .

ونظر إليها في إعجاب ثم قال :

— لو كنت صاحب شركة لعينتك مديرة لأعمالى .

وظل يرنو إليها برهة وهو صامت وإن أفصحت عيناه عما يكنه لها ، ثم قال :

— لا بأس . سأعينك يوما مديرة لبيتي .

وابتسمت إنصاف ولم تخر جوابا .

وتأهب الرجال للانصراف فقالت إنصاف للمأمون :

— أين أجذك ؟

— إن احتجتم إلى شيء فأنا في عيادة الدكتور حازم ، أرجوا أن أنام قليلا .

وانطلقوا وأسرعت إنصاف إلى عبود وراحت تعاونه على إخراج الأكياس من
الأرز ومن بين الطماطم ومن تحت السمك ، وقد غمرتها سعادة عارمة أصبحت
تنتشر بين جوانحها كلما كانت بقربه .

وراح عبود يخرج المدافع الصغيرة من الأكياس المملوطة بالشحم ، وأسرعت
إنصاف تعاونه وكانت بين لحظة وأخرى تنظر إليه وتتفرس في وجهه ، ورفعت
بصرها إليه فألقت خصلة من شعره تهدلت على جبينه وتدلّت على عينه ، فمدت
يدها لترفع خصلة الشعر فإذا بأصابعها تترك آثارا من الشحم فوق جبينه ، وفطنت
إلى ما فعلت فانفجرت ضاحكة وهى تشير بأصابعها إليه ، وإذا بعدوى الضحك
تنتقل إليه فيبتسم دون أن يعرف السبب .

وتناول القطع المفككة وأخذ يجمع بعضها إلى بعض ، فإذا بالمدافع الصغيرة

والبنادق وأشرطة الرصاص وأكداس الرصاص تغطي الأرض ، فالتفت عبود إلى إنصاف وقال :

— من الخير أن توزع هذه الأسلحة الآن قبل أن يعثر عليها الإنجليز . ولينز يفتش كل بيت وينبش عن الأسلحة في الجحور .

وشردت إنصاف قليلا ثم قالت :

— ستوزع هذه الأسلحة الآن .

وتحركت لتتصرف ، ثم عادت وتلفتت كأنما تذكرت شيئا هاما ، والتفتت إلى

عبود وقالت : — لقد جعت . ماذا أحضر لك معي ؟

— أى شيء .

فقالت إنصاف وهي تهز إصبعها مؤكدة حديثها :

— تستحق اليوم رطل كباب .

فقال عبود في بساطة :

— لم يعد في بور سعيد إلا البطاطس .

— سأحضر لك كبابا ولو سرق اللحم من الجيش الإنجليزي وشويته بنفسى .

وانصرفت إنصاف وعكف عبود على عمله ، وما مر بعض الوقت حتى أحس

أن شيئا ينقصه ، كانت إنصاف تملأ ذلك الفراغ الذى أصبح فيه .

وراح يرقب الباب بين لحظة وأخرى وفي صدره أمنية أن تقبل ، أن يراها وقد

أشرفت بقامتها عليه .

وانصرم الوقت وييدا وييدا ، وأخيرا هتك السكون رنين جرس سيارة إسعاف

فهب مفروعا ، روعته المفاجأة ثم ما لبث أن خرج يعدو ليرى ما هناك .

رأى سيارة الإسعاف يهبط منها صديق الفرار جى ومأمون ، ثم فتح بابها الخلفى

وهبطت إنصاف منه ثم مرجان .

ونظر عبود إلى إنصاف في إعجاب ، وأسرع مأمون وصديق الفرار جى فأحضر

النقالة وذهبا بها إلى حيث كانت المدافع والبنادق والذخائر ، ثم وضعها على النقالة

ما أمكن حمله من الأسلحة وعادا بها إلى السيارة .

وأمر مأمون مرجان أن ينام فوق الأسلحة ففعل ، وخفت إنصاف تغطيه ببطانية ، وأغلق باب سيارة الإسعاف ، وركب مأمون إلى جوار صديق ، وبدأت السيارة تتحرك فأخذ مأمون يلوح لعبود وإنصاف مودعا .

وأخرجت إنصاف من تحت إبطها لفافة قدمتها إلى عبود وهي تقول :
— تفضل .

وفتح عبود اللفافة ثم هتف في فرح :

— كباب ؟!

وقسم الطعام قسمين وقدم إليها قسما وقال :

— هذا لك .

فقالت وهي تدفع يده المملودة إليها بيدها :

— والنعمة الشريفة لن يأكل هذا أحد غيرك .

واضطرب عبود اضطرابا شديدا فقد ملأت صورة ببهة رأسه ، وخيل إليه أنها في كل ما حوله ، فتقلص وجهه وأحس كأن سكاكين تمزق أحشائه ، وفطنت إنصاف إلى تبديله فقالت له :

— ماذا بك ؟

فقال دون أن ينظر إليها :

— أحس كأنى سيغمى علىّ .

فاقتربت منه وقالت في عطف :

— أرهقت نفسك . أنت في حاجة إلى الراحة .

وظل قلبه يدوى بين ضلوعه دويا ، واستمر زائغ البصر يستشعر وخزا في ضميره ، ومدت إنصاف يدها لتسندنه فانسبل بعيدا عنها . فأخذت تنظر إليه بعيون مشدوهة ، وقبل أن تفتح فمها بكلمة دوى صوت بوق سيارة آتية فوجد عبود فيه الخلاص من مشاعره الأليمة التي كانت تلهبه بسوط عذاب ، فأخذ يعدو فرارا من نفسه .

رأى سيارة تاكسي والشيخ حسن يهبط منها فهرع إليه كأنما يلوذ به وقال له :

— هذه الأسلحة كأنها شبح يطاردني ، خذوها .. خذوها .
ورمقه الشيخ حسن بعين فاحصة وقال له :
— أنت مجهد يا عبود . سأحمل ما أستطيع حملة منها الآن ، وسليمان وتوفيق
سيأتيان بعدى ليحملا ما تبقى منها .
ودخل الشيخ حسن ومن معه وراحا ينقلان الأسلحة إلى السيارة ، وبقي عبود
في الطريق وقد قرر ألا يعود إلى حيث كان لعله يفر من رؤاه ، إلا أن شبح بهية وشبح
حسن كانا يلوحان له ويشيران أشجانه ويقفان حائلا بينه وبين إنصاف التي جاءت
لتقف إلى جواره .

وقفت سيارة الإسعاف أمام منزل توفيق وهبط منها صديق الفرارجي ومأمون ،
وانطلقا ثابتي الخطو وصعدا بضع درجات وإذا بتوفيق يفتح لهما الباب ويقودهما إلى
حيث كان جهاز اللاسلكي ، وقال توفيق :
— ضابط الإرسال رجل ظريف والجهاز هنا في أمان ، دعه يا مأمون .
فقال مأمون وهو يميل ليحمل الجهاز :
— التعليمات ألا يبيت الجهاز في مكان واحد أكثر من ليلة .
ونظر صديق إلى مأمون وهو يحمل الجهاز وقال :
— ألم يكن من الأفضل أن نحمله على نقالة ؟
فقال مأمون مبتسما :
— إنه أصغر من أن يحمل على نقالة ، وإن رآه أحد معي فسيحسبه راديو .
فقال توفيق في سخرية :
— جهاز الراديو يفزعهم أكثر من قنبلة ، لقد حطمت ولينز وجنوده حتى أمس أكثر
من خمسة آلاف جهاز .
والتفت توفيق إلى مكان الراديو الخالي وقال :
— حتى جهازى كان من الضحايا .

ووقعت عيناه على صورة جانيت فانقبض وطافت به سحابة من الأسي، وهمس في جوفه هامس يقول : « ليت أجهزة الراديو وأثأنا ودورنا كانت كل الضحايا » .
وخف مرجان ليحمل الجهاز بيد أن مأمون قال له :
— شكرا لك . اهتمامنا به سيلفت الأنظار إليه .
ثم قال لصديق :

— افتح باب العربة الخلفى وانتظرنى ، حتى إذا ما قفزت إلى داخلها أغلقه في سرعة ثم انطلق إلى الحى العرنى .
فقال صديق :

— من رأى أن بيت الليلة فى غرفة الدكتور حازم .
فشرذ مأمون قليلا ثم قال :
— لا ، غرفة الدكتور غير مأمونة فقد يقتحمها أحد المرضى .
فقال توفيق :

— والحى العرنى كله غير مأمون ، ولينز وجنوده يقومون بتفتيشه كل يوم .
فقال مأمون :

— إلى بهنس ، قسم البوليس مكان لا تخوم حوله الشبهات .
فقال صديق موافقا :
— فكرة طيبة .

وأسرع صديق ليفتح باب سيارة الإسعاف الخلفى ، وتقدم مأمون فى حرص ، وهرع توفيق ومرجان إلى النافذة ينظران ، وإن هى إلا لحظات حتى غاب مأمون بحمله فى جوف السيارة ، وجلس صديق خلف عجلة القيادة ، وقبل أن يتحرك لمح ولينز وبعض جنوده قادمين نحوه .

خفق قلبه فى شدة وراح يعمل فى سرعة ، إن انطلق فى طريقه فقد يأمره ولينز بالتوقف ويقوم بتفتيش السيارة ثم يستولى على الجهاز ويقبض على مأمون ، وإن اضطرب فسيثير شكوك الإنجليز ، فرأى أن خير ما يفعله أن يتظاهر بأنه وصل لتوه وأن يهبط من السيارة ويصعد إلى بيت توفيق ، فقد تباح لمأمون فرصة الهرب .

وهبط من السيارة وهو يحمل حقيبة الإسعاف في الوقت الذى هبط فيه وليمز من سيارته الجيب ، وأوماً برأسه محبباً فقال له وليمز :
— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟
— استدعانى السيد توفيق .

— لماذا ؟

— لم يقل لى . طلب منى أن أحضر على عجل .

كان توفيق ومرجان يريان صديق ووليمز وهما يتقدمان صوب الباب ، وفطنا إلى كل شيء ، فراح مرجان يعدو صوب المطبخ ، ووقف توفيق متوتر الأعصاب مرهف الحواس يفكر فيما يقوله وما يفعله ، حتى إذا ما عاد مرجان من المطبخ سكنت مخاوفه وأحس كأنما خرج من مأزقه .

ودق جرس الباب فأسرع توفيق يفتحه ، وقبل أن يرى القادمين صاح :
— أسرع أرجوك . قطع مرجان يده .

ووسع صديق من خطوه وقد خف وجيب قلبه ، وانطلق إلى مرجان وفي عينيه إعجاب ، كانت يده تقطر دما فراح صديق يضمده جرحه وهو يهمس :
— لم يكن هناك ما يدعو لأن نجرح نفسك كل هذا الجرح .

قال وليمز لتوفيق :

— فيم جرح يده ؟

فقال توفيق فى هدوء :

— كان يحاول أن يفتح علبة المرعى بالسكين .

ثم أطرق توفيق وقال :

— لم نعد ندرى أين نجد ما نحتاج إليه بعد جانيت .. حتى فتاحة العلب لم نعثر عليها .

حسب أن ذلك القول قد يؤثر فى وليمز ويجعله يدور على عقبيه وينصرف ، إلا أن وليمز تقدم صوب مرجان وفك الرباط الذى كان يلفه صديق ونظر إلى الجرح فألفاه قطع سكين ، فهز رأسه وقال :

— كنت أظن أنه جرح من العيب في بندقية أو إصابة رصاصة مرتدة .
و غاظ توفيق قوله فقال له :

— ومن أين لنا بالبندق بعد أن جمعتم ما كان عندنا منها ؟
فنظر إليه ولهمز طويلاً ثم قال :
— توفيق . لا تحاول أن تخدعنى .

وراح ولهمز ومن معه يجوسون خلال الغرف ، وبقي توفيق ومرجان و صديق
مكانهم ، وأراد توفيق أن يوهم ولهمز أنه غاضب مما يفعله فقال صائحا :
— لست في حاجة يا مستر ولهمز لأن أطوف بالبيت معك ، من حسن الحظ أنك
تعرف طريقك .

وانتهى صديق من تضميد جرح مرجان وجمع حوائجه وتأهب لينصرف ،
فقال له توفيق هامسا :

— تريث حتى ينصرفوا .

— ترى ماذا فعل مأمون ؟

فنظر توفيق من النافذة ثم قال :

— لم يستطع أن يفعل شيئا ، هناك حراسة عند السيارة .

وانتهى ولهمز من تفتيش البيت وانصرفوا ، فحفف الرجال الثلاثة إلى النافذة
يرصدون سيارة الإسعاف فرأوا ولهمز يتجه إلى بابها الخلفى وينظر إلى داخلها من
خلال الزجاج ، فلاح الذعر في وجوه الواقفين في النافذة ودقت قلوبهم رهبة
واتسعت عيونهم من الخوف ، وتعطل تفكيرهم جميعا ، فقد استسلموا لما تسفر عنه
الأحداث .

وابتعد ولهمز عن مستطيل الزجاج الصغير الذى فتح في ضلقة باب سيارة
الإسعاف وتأهب للانصراف ، فزفر الرجال في راحة وتلفت بعضهم إلى بعض
كأنما يتساءلون ترى أين مأمون ؟ فظن مأمون إلى أن أحد جنود الحراسة قد يمد عينيه
إلى داخل السيارة من خلال زجاج الباب الخلفى فزحف على بطنه وجهاز
اللاسلكى معه ، وتمدد عند الباب تحت فتحات الزجاج بحيث لا يراه أحد إذا ما نظر

إلى جوف السيارة .

وقال قائل لوليمز :

— ماذا كنت تنتظر أن ترى داخل سيارة الإسعاف ؟

— خفت أن يكونوا يستعملون عربات الإسعاف في نقل أسلحتهم

وذخائرهم .

فضحك الرجل وقال :

— هذه أفكار وليمز ، إنهم أغبي من أن يفكروا في شيء من ذلك .

وابتسم مأمون وهو راقد على بطنه ابتسامة عريضة كأنما كانت تنطق بأفصح

لسان :

وركب وليمز سيارته الجيب وركب رجاله سيارتهم وانطلقوا يجوبون

الطرق ، وفيما كان وليمز يسير في شارع محمد على سمع صوتا يناديه :

— وليمز . وليمز .

فالتفت فرأى مصرى يتجه إليه ، فأخرج مسدسه في سرعة البرق وأخذ يرقبه في

حذر واقترب الرجل منه وأسر إليه ببعض كلمات فقال له وليمز وهو يفسح له مكانا

إلى جواره :

— اركب .

وركب الرجل وسار وليمز ورجاله إلى الحى العربى ، وقد لفت نظر الناس

ركوب مصرى إلى جوار وليمز وأثار ذلك فضولهم ، فأسرع بعض من يركبون

الدراجات في اقتفاء أثر ذلك الراكب .

ووقفت السيارات الجيب خلف جامع علوان ، وهرع الناس يتلفتون ، وسمع

عبود والشيخ حسن وسليمان ضجة فخرجوا ينظرون ، فالفوا الرجل يرشد وليمز

ومن معه إلى دكاكين خلف المسجد . فحطم الجنود أبوابها فإذا بأكداس من

الأسلحة تملأ جنباتها .

وارتفعت أصوات الاستنكار من كل جانب ، وراحت العيون الغاضبة تصوب

نظرات نارية إلى الخائن ، وقال سليمان في ثورة :

— لا بد أن يقتل .

وأمسكه الشيخ حسن من يده وقال :

— انتظر .

وأخذ الجنود البريطانيون ينقلون الأسلحة إلى سياراتهم ، وراحت نيران الغضب تتأجج في صدور الجماهير الحانقة ، وليمز يلف هنا وهناك ويصدر أوامره في غطرسة ، كان الناس يحسون حزننا لاستيلاء الإنجليز على أسلحتهم ولكن نيران الغضب كانت نائرة على الحيانة .

ومرت لحظات زاحرة بالقلق والغضب والحقد والثورة الفواردة بين الجنوح ، وانتهى البريطانيون من نقل الأسلحة إلى سياراتهم ، وأمر وليمز جنوده بالانصراف فتحركت السيارات وقد صوب الجنود بنادقهم إلى صدور الأهالي .

وأسرع الخائن ليركب مع وليمز فلم يجد مكانا ، وراح يهرع إلى السيارات ليركب فإذا بها كلها غاصة بالأسلحة ، وطلق يتلفت في ذعر والسيارات تغادر المكان سيارة في إثر سيارة وهو لا يزال واقفا وحده ، وفكر في أن يجري خلف آخر سيارة ليفر بنفسه من الجموع الغاضبة ، فراح يعدو خلفها إلا أن الناس تركوا السيارة تمر ثم أغلقوا الطريق في وجهه .

وألقى نفسه في وسط جموع مزججة حانقة غاضبة فوقف يتلفت في رعب ، وصاح سليمان صيحة كأنها الرعد :

— خائن .

وإذا بأصوات الرجال والنساء والأطفال تردد كلها :

— خائن . خائن .

وأحس الخائن أنه فأر وقع في المصيدة ، فراح يجري هنا وهناك وهو يصيح في فرع ، وأخذت الدائرة تضيق حوله وهو يزداد رهبة ، حتى إن عينيه كادت أن تقفزا من وجهه ، وصاح سليمان فيه :

— جبان . جبان .

وصرخ الخائن صرخة مفزوعة وأطبق الناس عليه ولم يتركوه إلا جثة هامدة ،
(م ٣٠ — السهول البيض)

وجاء سليمان بعربة يد ووضع فوقها الجثة ثم كتب عليها « خاتن » وراح يدفع العربته أمامه ويطوف بها في شوارع بورسعيد .

والتفت الشيخ حسن إلى عبود وقال :

— كان حكمك على سليمان أسلم من حكمي ، حكمت عليه بفطرتك السليمة بينما حكمت عليه بفقهي فأخطأت في حكمي ، كنت على صواب يا عبود لما قلت لي : سليمان في حاجة إلى معونتنا فلنبذلها له سواء أكان في طريق الله أم في طريق الشيطان ، إن حسابه على الله .

وصمت الشيخ حسن قليلاً ثم قال :

— غضبت لأني رأيت سليمان ينفق ما أعطيه إياه في الشراب ، عز عليّ أن أعاونه على معصية أن تنفق أموال التي اكتسبتها بعرق الجبين في الإثم ، يخيل إليّ الآن أنني لم أكن محققاً فيما فعلت ، كان عليّ أن أعطيه مادام محتاجاً ثم لأحاسبه فيما أنفق ما أعطيته .

فقال عبود وهو شارد :

— ما أصعب أن نفرق بين الخطأ والصواب ، فما أراه خطأ عن اقتناع قد تراه أنت صواب عن اقتناع .

وقال حسن وهو يمرر يده على وجهه :

— يذكرني سليمان بأبي محجن في معركة القادسية ، كان أبو محجن بطلاً من أبطال المسلمين وقد ضبطه سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش وهو سكران قبل المعركة ، فأمر بحبسه .

وتأهت جيوش الفرس وجيوش العرب للقتال ، ثم دارت المعركة الرهيبة ، وسمع أبو محجن صليل السيوف وقعقة السلاح فراح ينشد الشعر ويقول إن الرجال في الحرب وهو في سجنه ذليل ، وسمعت زوجة سعد شعر أبي محجن فقالت له : إنها ستطلق سراحه ليخوض غمار المعركة ثم إذا ما انتهت يعود إلى سجنه . ونزل أبو محجن يلعب بسيفه ويخوض في صفوف أعدائه ، حتى إن المسلمين قالوا : لكأنه أبو محجن .

وانتهى اليوم الأول من أيام المعركة وعاد أبو محجن إلى سجنه، وفي اليوم الثاني أطلقت زوجة سعد سراحه وأبلى أبو محجن في المعركة بلاء حسنا لفت إليه أنظار الجيوشين، وانتهى اليوم الثاني وعاد أبو محجن إلى سجنه، وفي اليوم الثالث اكتشف الناس أن البطل الذي يجدل الأعداء ويزلزل الأرض تحت أقدامهم هو أبو محجن نفسه.

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان الذي كان يدفع عربة اليد أمامه ثم قال :
— أبلى سكير العرب في القادسية بلاء حسنا، كما أبلى سكيرنا بلاء حسنا في هذه المعركة.

فقال عبود وهو يزفر :

— أظن أني أحس مادفع سليمان إلى الشرب .

فشخص الشيخ حسن إلى السماء وقال :

— ما أقسى أن يحكم إنسان على إنسان، والله وحده هو القادر على الحكم على

السراير .

وسرح خيال عبود وساد الصمت بينهما، وانطلقا مع الناس إلا أن كلا منهما كان

غائبا عن الصخب المدوي حولهما بما في رأسه من أفكار . حتى إذا ما أفاق الشيخ

حسن مما كان فيه والتفت إلى عبود ورأى في وجهه الشرود قال له :

— فيم تفكر؟

فقال عبود في بساطة :

— أحسست حينئذ إلى العمل فرأيت نفسي في الورشة . كان الله في عون

سليمان . كيف أطاق البعد عن عمله كل هذه المدة؟

ولم يجر الشيخ حسن جوابا، بل جرت أفكاره إلى فتحية ومحمد واستشعر حينئذ

طاغيا إليهما، وراح يقول في نفسه : « ترى ماذا يفعلان الآن؟ ماذا يأكلان ومع من

ينامان؟ إننا ونحن في قلب المعركة نجد ما نأكله ونجد أكثر من مأوى نأوى إليه،

أفسيغز عليهما المأوى والطعام وهما بين أهلهما . كيف سنلتقى إذا ما انتهت هذه

الحرب؟ وأين يمكن أن نتقابل؟ سيعود أهالي بور سعيد الهاربون من وجه الطغيان

إلى مدينتهم وسيلتعم شملهم ، ولكن الدور هدمت والأحياء دمرت ، سنعيش في
خيام ، سنكون لاجئين في بلادنا ، لا يا حسن لن نكون لاجئين أبدا ، إننا منكموبون
حقا إلا أننا أعزاء .. كرماء .. أحرار .

احمد الله يا حسن فأنت أسعد حالا من عبود ومن توفيق ومن آلاف ممن فجعوا
في آباتهم وأمهاتهم وزوجاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، ومن ثكلوا أبناءهم» .
ونظر إلى عبود وقد تحركت له شفقتة وكل مشاعره الرقيقة ، وإذا بعبود يقول :
— ترى ماذا فعل الفرنسيون بالمصنع ؟ أخشى أن يكونوا حطموه .
فابتسم الشيخ حسن ابتسامة رقيقة وقال :
— إن كانوا حطموه فقد فعلوا خيرا ، أتأخروا لنا فرصة إقامة مصنع حديث .

كانت بيوت الصيادين غاصة بالفدائيين الذين تستروا بالظلام وانسابوا فوق
مياه بحيرة المنزلة حتى بلغوا القابوطى في سلام ، وكانت الأسلحة توضع في أكياس
وتدس بين الأسماك والأرز والطماطم والبطاطس ، وفي ثنايا كل ما يمكن نقله إلى
قلب بور سعيد .

وفي سكون الليل سمعت حركة غريبة ، فأطلت الرعوس وانتشر الهمس بين دور
الصيادين انتشارا الريح :
— إنجليز .. تفتيش .

وخرج الرجال والنساء والأطفال من بيوتهم ينظرون ، كانت الريح تصفر وكان
البرد شديدا والضباب كثيفا ، إلا أن الرغبة في معرفة ما جرى في المنطقة جعل الناس
لا يحفلون بشدة البرد ، بل راحوا يجرون صوب الجلبة وأضواء الكشافات التي
كانت تقهر الظلام .

ورأى الناس في وضوح العم محمود الصياد يقود الجنود البريطانيين إلى مكان
قصي خبثت فيه بعض الأسلحة فغضبوا وثاروا ، وقال قائل :
— نذل .

وصاح آخر:

— خائن.

وجمع ثالث شجاعته وبصق في وجهه، وأحس الإنجليز أن الناس سيفتكون به فسددوا بنادقهم إلى صدورهم وأمرهم بالانصراف، فراحوا يتقهقرون في بطاء شديد وبين ضلوعهم نار، وفي صدورهم ثورة وفي عيونهم غضب، ويخرج من أفواههم سباب ولعنات، وأطرق بعضهم خزيا وعارا، حز في نفوسهم أن يكون بين الصيادين خائن أو جبان.

ورأى أحد الفدائيين وهو في مكنمه هذه الخيانة، فحمل بندقيته وصوبها إلى العم محمود وهم أن يصطاده وهو ينسحب مع الإنجليز الذين جاء معهم، وقبل أن يضغط على الزناد انقض عليه ضابط من ضباط الصاعقة وخطف منه بندقيته وهو يقول:

— كنت سترتكب خطأ جسيما.

فقال الفدائي:

— كنت سأقتل هذا الخائن.

— كنت ستكشف أمرنا.

— لا بد أن يقتل هذا الخائن.

— سيقتله الشعب يوما.

وانصرف العم محمود الصياد مع الجنود البريطانيين وأصوات الاستنكار تدوى في أذنيه، واللعنات تصب فوق رأسه، والسياب يقذف في وجهه قذفا.

وفي سكون الليل تسرب الفدائيون إلى الأماكن التي أعدت لهم، وهربت أسلحة كثيرة في السلال وأوعية السمك، وانتشرت من القابوطى إلى كل الأحياء، حتى بور فؤاد التي كانت تغص بالجنود الفرنسيين وصل إليها نصيبها.

وأصبح الصباح، وإذا بسعد صاحب معمل الألبان يعد طعام الأفطار لمن اتخذوا من معمله مسكنا، وفتح بابا فألقى مأمونا ممددا على الأرض وقد سحب أحدهم الجلباب الذي حشاه قشالينام عليه من تحته، ورأى الآخرين ينامون على جلايبهم

المحشوة قشا، ووقعت عيناه على شاب ينام فوق حشيتين فظن إلى أنه هو الذى سرق حشية مأمون، فابتسم ثم صاح:
— الإفطار يا سادة .

فهبوا جميعا من نومهم وقاموا مسرعين، وقال مأمون لصديقه سعد:
— صباح الخير يا صول سعد .

وقال له آخر:

— أنت خير صول تعين رأيتته فى حياى .

وقال ثالث:

— ماذا سنفطر اليوم؟

— فول وبيض .

— ألا تفكر فى أن تعد لنا مرة الإفطار كبابا؟ أنا فى شوق إلى الكباب يا حضرة الصول .

وضربه مأمون على ظهره وقال:

— أصبحت الصول سعد بعد أيام قليلة، أما أنا فقد بذلت العرق فى سبيل هذه الرتبة .

وراحوا يتناولون طعام الإفطار، وقال سعد:

— سأعد لكل منكم سندويتش كباب فى الغداء .

وقال أحدهم فى إنكار:

— سندويتش واحد!

وقال مأمون:

— سندويتش فى مقابل كل إنجليزى تقتله .

وقال قائدهم:

— معنى هذا أن يعد الصول سعد سندويتشات كثيرة .

وقال سعد فى انشراح:

— أنا قابل وإن كانت السندويتشات بعدد القوات المحتلة .

ونظر قائدهم في ساعته وقال :

— بعد ربع ساعة سنبدأ في العمل ، وبعد أن ننتهى من العملية نعود إلى هنا .
فقال مأمون وهو ينظر إلى سعد :
— لنأكل الكباب .

وخرجوا من معمل الألبان في المنزلة وتفرقوا في بور سعيد لينفذوا الخطة التى رسموها .

كان مأمون وقائد السرية يسيران معا في شارع محمد على ، ووقع بصرهما على
وليمز وقد وقف يستجوب اثنين منهما كانا في ثياب الطلبة وقدار تاب في مظهرهما .
والتفت مأمون إلى قائده كأنما يسأله ماذا يفعل فقال القائد :
— استمر في طريقك .

وسار مأمون وهو يتحاشى أن يلمحه وليمز فهو يعلم أنه من القوات المسلحة ،
ولورآه لقبض عليه وعذبه ، واستمر في سيره حتى إذا مارأى جنديا بريطانيا يسير
وحده راح يدنو منه في حذر ، ثم طعنه بخنجر معه طعنة سقط بعدها مجذلا .
وسقط أربعون جنديا من الجنود المحتلة قتلى ، ثم اندس الفدائيون بين الناس ييثون
فبهم روح المقاومة .

وجاءت سيارة إنجليزية بها مكبر للصوت وراحت تذيع على الأهالى :
— ستضطر القوات المتحالفة إلى القيام بإجراءات تأديبية إذا استمرت أعمال
الاغتيالات الغادرة .

ولاح البشر في الوجوه ، فهناك أبطال لم يضعوا بعد سلاحهم يعتبرون أن المعركة
بينهم وبين الغزاة لم تنته ما دام في بور سعيد جندى واحد من جنود الاحتلال ،
وأغرى ذلك التحذير بعض الأهالى أن يجنوا حذو هؤلاء الذين قتلوا أعداءهم
وأعداء بلادهم .

وعاد الفدائيون إلى الدور التى نزلوا فيها ، وعاد مأمون وزملاؤه إلى معمل
اللبن ، وراح كل منهم يطلب من سعد سندو يتشبات بعدد ما قتل من الأعداء .
وراحوا يأكلون وهم يضحكون ، إلا أن قائدهم كان ينظر صوب الباب بين

وقت وآخر.

وفطن أحدهم إلى غياب اثنين منهم فقال :

— لم يعد الأسد ولا الفهد .

وأخذ الآخرون يتلفتون كأنما يستنكرون أنهم لم يفطنوا إلى ذلك من قبل ، وقال

أحدهم في صوت خافت :

— لعل مكروها أصابهما .

فقال قائدهم وهو يحاول أن يبدو هادئا :

— قبض عليهما وليمز .

— ولماذا لم تقل لنا ؟

وساد الصمت القلق وأخذت العيون ترقب الباب ، ومر الوقت بطيئا ، وقبل

الغروب سمع وقع أقدام فهبوا جميعا وتأهبوا لما قد تسفر عنه الأحداث ، وإذا بهم

جميعا يصيحون :

— أهلا بكما .

ودخل الأسد والفهد يلوح عليهما الجهد ، وهرع إليهما قائدهم وقال :

— ماذا فعلتما مع وليمز ؟

فقال الأسد في غضب :

— عذبنا الكلب . لم يصدق أننا طالبان ، قدمت له البطاقة المدرسية فقلعها بين

يديه ثم لوى شفته في سخرية ، وقال بالعربية : « أين زورتها ؟ » قلت له : « أنا لم

أزورها ، أنا طالب في التوجيهية وقد حصلت عليها من المدرسة » . قال لي وهو يتسم

استخفافا : « وستلتحق بالكلية الحربية بعد أن تحصل على التوجيهية ، أليس كذلك ؟

لا . سنك أكبر من أن تكون طالبا بالتوجيهية » . قلت له : « أنا في التاسعة عشرة » ،

وقال : « هذا ما تقوله هذه البطاقة المزورة ، انس هذه البطاقة وقل لي : متى جئت من

القاهرة ؟ » قلت له : « لم أذهب إلى القاهرة أبدا . أمنيته أن أراها » . وأمر جنوده أن

يفتشوني فلم يعثروا معي على شيء .

وقال قائدهم :

— والخنجر الذى معك؟

— غافلتهم وأنا أسير معهم وتخلصت منه . ألقيته فى الطريق .

— وعلة السجائر؟

— لم يفتنوا إلى أنها مسدس ، كنت أخشى أن يفحصها الجندى جيدا فيكتشف

أمرها ، ولكنه ما أن أخرجها من جيبى حتى أعادها ثانية .

ثم أمرهم بتعذيبى . وراح أحدهم يلطمنى بيد قوية وهو يستجوبنى ، ثم لکمنى
لكمة فى وجهى أطار صواى ، وياليتة اكتفى بذلك بل كان يقبض على شعرى بيده
ثم يجذبه جذبا شديدا يجعلنى أتلوى من الألم .

وقال ولينزلى :

— إن لم تعترف فسأمزق ظهرک بالسياط وسأنزع أظافرك من أصابعک

وسأکويک بالنار .

وقلت له :

— قل لى : بماذا تريدنى أن أعترف وأنا أعترف لك؟

— أريد الحقيقة .

— الحقيقة أنا طالب فى المدرسة الثانوية .

ويبس من أن ينتزع منى أية معلومات فتركنى وراح يستجوب الفهد .

واتجهت الأنظار كلها إلى الفهد ، وقال له قائدهم :

— ماذا فعل معك؟

فقال الفهد فى ثورة :

— والله لن يهدأ لى بال قبل أن أقتل ولينز .

— لم تقل لنا ماذا فعل معك .

فعرى ظهره فإذا بالسياط قد مزقت جلده ، وقال :

— هذا هو قولى .

وغامت الوجوه كلها بالأسى ، ولم يستطع سعد أن ينظر طويلا فانسل خارجا ،

وأراد أحدهم أن يبدد جو الكآبة الذى ران على المكان فقال له :

— تستحق كل ما بقى من الكباب وإن لم تقتل جنديا واحدا .

فقال قائدهم :

— سيكون للأسد والفهد نصيب في الخير ، علينا أن نؤكد لأعدائنا أننا لا نخشى تهديدا ، وسيقوم الأسد والفهد بهذا التأكيد .

فقال الفهد مازحا :

— إن كل جندى أقتله من جنودهم سيطفىء نار ظهرى .

والتفت القائد إلى زملائه وقال :

— لا بد أن نغير هذا المكان الآن .

فقال سعد فى دهشة :

— لماذا ؟

قال القائد لزملائه :

— استعدوا للرحيل .

ثم التفت إلى سعد وقال :

— من يدري لعلمهم اقتفوا أثر الزميلين بعد أن أطلقوا سراجهما .

فقال الأسد :

— جعلنا نلف وندور فى المدينة لنضللهم ونهرب من رقابتهم .

فقال القائد :

— الحرص أسلم .

والتفت الرجال إلى سعد وقالوا :

— سنفتقدك .

وقال مأمون مازحا :

— سنشتاق إلى فولك وسمكك وكبابك .

وقال سعد فى تأثر :

— كانت الأيام القليلة التى أمضيها معا من أسعد أيام حياتى .

والتفت القائد إلى مأمون وقال له :

— إلى أين نذهب؟

— إلى بيت السيد توفيق .

— ومتى سنعد لضربتنا القادمة؟

فقال مأمون في ثقة :

— الليلة .

— أتظن أن الدكتور حازم يستطيع أن يمدنا بما نحتاج إليه غدا .

— غدا سيكون كل شيء معدا .

وراح الرجال يضافحون سعدا واحدا واحدا ، حتى إذا ما وضع مأمون يده في

يده جعل يضغط عليها ليعبر عن حقيقة مشاعره ، ثم قال :

— شكرا لك يا صول سعد .

وقال قائل :

— والله لقد كنت يا سعد خير من أفضل صول تعيين في وحدتنا ..

ولوحوا له بأيديهم مودعين فقال لهم :

— مع السلامة . في حفظ الله .

انطلق مأمون ليرتب للضربة القادمة ، كان يستطيع أن يذهب إلى الدكتور حازم ويتفق معه على ما يريد ، فالدكتور يعرفه جيدا وقد قدم له أكثر من مساعدة عن طيب خاطر ، وكان عقب كل معاونة يقول : أنا في خدمتكم دائما ، بيد أنه أحس حينئذ إلى إنصاف واشتاق إلى حديثها .

ستسير معه من عيادة الدكتور حازم إلى المستشفى ، وستحدثه حديثها العذب الذي ينعش روحه ويفتح له قلبه ، وستلتقي عيناه بعينها في لحظات ساحرة حاملة ، وسيخفق قلبه خفقات ناعمة تسكب في روحه كل ما في الحياة من جمال . أصبحت إنصاف تترأى له في يقظته ومنامه ، صارت كل دنياه التي يفكر فيها ، إذا أقدم على عمل أقدم عليه لوجه إنصاف ، وإذا أعرض عن عمل أعرض عنه لكيلا

يغضبها ، وإذا مسه التعب أشرقت صورتها في ذهنه وهي تبتسم فتبتدئ كل الآلام .
ليته يتخذ عيادة الدكتور حازم مسكنا له ليكون دائما بقربها ، لتطول فترات
سعادته ولحظات إشراقه ، وهجس في جوفه هاجس يقول : «أنا أولى بتلك
الساعات من عبود أو الشيخ حسن أو سليمان» .

ووقعت عيناه على جندي بريطاني يسير وحده فخطر له أن يقتله ليعاون الأسد
والفهد على زيادة رصيدهما من الخير الذي خرجا في سبيله ، بيد أنه آثر أن يسير في
طريقه لينفذ ما خرج له .

وعاد يفكر في إنصاف ، سيحملها إلى داره عقب أن يخرج الغزاة ، ولكن أين
تلك الدار؟ بيته تهدم وبيت إنصاف التهمته النار ، ودور كل أصحابه تقوضت
واندكت وعاث في جنباتها الدمار .

«هل لا بد من دار يا مأمون لتمارس الحب؟ لو اتخذنا أنا وإنصاف من غصون
شجرة دار اورفرف عليها الحب لكانت أروع عش للغرام . أن تكون مع من تحبه
ويحبك في صحراء جرداء أو بين الأنقاض والأطلال تصبح في جنة الحياة . إنصاف يا
مأمون هي ماء الحياة ، ولا رى لك إلا إذا رشت منها . أقدم ولا تتردد . أأطلب منها
أن تتزوج الآن؟ ولماذا تؤجل هذا الطلب؟ كيف أتزوج وأنا لا أستقر في مكان؟
كلما عدت من عملية ستجد من تسكن إليها . وإذا ذهبت ولم أعد؟ ستكون
إنصاف واحدة من آلاف الأراامل اللاتي تقبلن فقد أزواجهن في شجاعة . لا . لا .
هذه أنانية منك يا مأمون . لا . لم أكن في يوم ما أنانيا ، إن غاية حبي لها أن أسعدها» .
وكان قد بلغ عيادة الدكتور حازم فطرق الباب طرقا خفيفا ، فقال الشيخ
حسن :

— هذا مأمون .

وخف عبود يفتح له الباب ، وما أن دخل حتى أدار عينيه في المكان ، رأى حسن
جالسا على وسادة وسليمان ممددا في سريره ولم تكن إنصاف معهم ، فأحس راحة .
وهم بأن يقول لهم : «نحن في حاجة إلى هذه العيادة بعد أن اضطررنا إلى ترك
معمل ألبان سعد» إلا أنه أمسك لسانه فقد نبض في ذهنه أن وجود إنصاف مع

أصدقائه وأصدقائها أفضل من أن تجد نفسها فجأة بين غرباء .

والتفت إلى عبود وقال :

— إين إنصاف ؟

ورن في أذنيه صوت إنصاف تقول :

— أنا هنا .

والتفت فرآها مقبلة تحمل صينية عليها أكواب الشاي ، فطفق يرنو إليها في حب

ويرقبها في إعجاب وهي تتقدم وتقدم الشاي إلى الشيخ حسن .

وقال مأمون للشيخ :

— تفضل . أنت في بيتك .

وقدم إليه الشيخ حسن كوب الشاي وهو يقول :

— تفضل . أنت ضيفنا .

فقال مأمون في إنكار :

— لا لست ضيفا . بيت إنصاف بيتي .

ونظر إلى إنصاف وقد انتشرت في وجهه السعادة ، أرضاه أنه قال ما قال ، وراح

عبود ينقل عينيه بينهما ثم أطبق جفنيه ، بيد أن النظرات التي حركت غيرته كانت

تومض في خياله ، ومضات تخزروحه ، وأنكر على نفسه حقها في أن تنفعل كل هذه

الانفعالات كلما التقت عينا مأمون بعيني إنصاف ، فهو يعلم علم اليقين أن مأمون

لو فكر في الزواج فلن يتخذ له زوجة غير إنصاف ورن في أذني خياله ما قاله مأمون

يوما :

« لو فكرت في أن أتزوج فلن أتردد في الزواج من إنصاف » وتذكر ما قاله

حينذاك : لو كنت أنا وإنصاف في صحراء و كنت أموت من العطش وقدمت إليّ

كوب ماء ما تناولته منها . فأحس أنه تضاءل وانكمش في مقعده .

وقال مأمون للشيخ حسن :

— أتستطيع يا شيخ حسن أن تعقد عقد قران ؟

وضحكت إنصاف ضحكة زلزلت كيان عبود حتى إنه فكر في أن يفر من ذلك

الجو الذى يعذبه، إلا أنه أخذ يقاوم رغبته، وقال الشيخ حسن :
— يكفى فى الشرع أن يقول الرجل للمرأة : « هل تقبلينى زوجا » . فتقول له :
« قبلت زواجك . وهبتك نفسى » ليكون الزواج صحيحا .
أما العقد الذى يحمر فذلك لحفظ الحقوق .

فقال سليمان مازحا :

— أنا لا أهتم بالحقوق .

ثم التفت إلى إنصاف وقال :

— أتقبلينى زوجا ؟

وضحكت إنصاف ولم تحرجوابا، وقال له مأمون :

— عيبك يا سليمان أنك طماع .

ووقعت عينا إنصاف على عبود فألفته مطرقا وفي وجهه امتعاض وأمامه كوب
الشاي لم يمس ، فأرضاه أن ضايقه ذلك المزاح ، وأحست بغيريتها إنه يغار عليها
فقالت له :

— لم تشرب الشاي يا عبود .

فارتبك عبود ومد يده إلى كوب الشاي وهو يقول :

— كنت أنتظر حتى يبرد قليلا .

وقال مأمون لإنصاف :

— هيا معى لنقابل الدكتور حازم .

— لماذا ؟

— نحن فى شدة الحاجة إلى جثة .

ونظرت إنصاف إلى عبود بطرف عينيها فألفته قد أطرق وراح يدارى ارتباكه
بالعبث بأصابعه .

فقالت لترضيه :

— لن يكون الدكتور حازم فى المستشفى .

فقال مأمون :

- نذهب إليه في بيته . الأمر هام .
- ذهب ليسترخ قليلا . من الإنصاف أن ندعه الآن .
فقال لها مأمون :
- ومتى نذهب إليه ؟
- دع لي هذا الأمر . أين ستبيت الليلة ؟
- في بيت السيد توفيق .
- قبل الفجر سأتى إليك لأقول لك إن كل شيء قد أُعد .
والتفت الشيخ حسن إلى مأمون وقال له :
- ماذا ستفعل بالجثة ؟
- فقال مأمون في بساطة :
- سنحملها على أعناقنا ثم نسير كلنا خلفها .
فقال سليمان :
- لن أسير معكم .
فقالت له إنصاف :
- لماذا ؟
- فقال سليمان :
- لأن الجنازات تذكرني بالموت ، وأنا أكره الموت .
فقال له الشيخ حسن :
- أمرك عجيب يا سليمان إننا نعيش في أحضانه .
فقال سليمان وهو يبتسم في مرارة :
- إني لا أخاف الموت الذي يأتي فجأة ، لا أخشى الرصاص الذي ينفذ إلى القلب ولا القنابل التي تبعثر الجسم أشلاء ، ولكنى أرتجف فرقا من الموت الذي يحمل على الأعناق .
ونفض مأمون وقال :
- سأنتظرك يا إنصاف في بيت السيد توفيق .

فأومأت له إنصاف برأسها دون أن تنطق حرفاً .
وذهب مأمون وراح الآخرون يتسامرون ، اشتركوا جميعاً في الحديث
إلا عبود ، كان يتظاهر بالإنصات بيد أنه كان مشغولاً بالأفكار التي كانت تنبض في
رأسه وكانت جميعها تدور حول إنصاف ، وقد كادت النظرات التي يجتلسها
تفضح حقيقة مشاعره النابعة من أغوار نفسه المتعطشة للحب ، الهفافة إلى من
تسكن إليه .

وتأهبوا للنوم ، وقبل أن تنصرف إنصاف إلى غرفتها قال لها سليمان مداعباً :
— متى تحبين أن أوقظك لتذهبي لمقابلة الدكتور حازم ؟
فقال له إنصاف :

— إذا نمت يا سليمان فإن المدافع لا توقظك .

— وما أدراك ؟

فقال في براءة :

— عيبك أنك ترفس الغطاء في أثناء نومك ، وقد قمت بتغطيتك أكثر من مرة .
حاذر .. ستموت بنزلة شعبية .

فقال سليمان دون أن يتبسم :

— كل الناس يتهددوني بالموت كأنهم لن يذوقوا الموت أبداً .

وأحس الشيخ حسن مرارة قوله فتحركت عواطفه وثار شفقته ، وكأنما أراد
أن يواسيه فقال له :

— يخيل إليّ أنك آخر من سيموت يا سليمان .

فقال سليمان في ضيق :

— أوه ! ليست هناك سيرة في أفواههم قبل النوم غير الموت .

وأحس أنه كان ثقيلًا عندما تدمر فالتفت إلى عبود وقال له :

— ألا تروى لنا نكتة لطيفة ؟

وابتسم عبود وقالت إنصاف وهي تنظر إلى سليمان :

— سأروى لك نكتة تعجبك : قابل رجل كثير المشاغل صديقه في جنازة عمه ،

فسأله : مم مات عمك ؟ فقال صديقه : من الإنفلوانزا . فقال الرجل : بسيطة .
وراح سليمان ينظر إلى إنصاف نظرة عتاب فيها كثير من المبالغة ، حتى إن عبودا
لم يستطع إلا أن يشارك الآخرين في ضحكهم .

وتركهم إنصاف ليناموا ، فراح الشيخ حسن يفكر في فتحية ومحمد ، وراح
سليمان يصغى إلى دقات قلبه .. خيل إليه إنها عالية فأبعد أذنه عن الوسادة حتى لا
يسمع ذلك اللوى الذى يفزعه ، وأخذ عبود يستعيد في ذهنه كل ما كان بين
إنصاف ومأمون من نظرات ويتململ في رقدته ، وظلوا يجرون خلف أفكارهم
حتى حطفهم النوم .

ومر الوقت وارتفع غطيظهم ، وأحس عبود يدا تزهه في رفق ففتح عينيه ، ولما
وقعتا على إنصاف خفق قلبه في شدة وسرت قشعريرة في بدنه ولفه خوف ، وزادت
رهبته لما سمع إنصاف تقول له همسا :

— تعال معى .

فقال لها في صوت مبحوح خافت :

— أين ؟

— نذهب إلى المستشفى لنقابل الدكتور حازم .

فنهض لينطلق معها ولما يسكن روعه ، وسارا على أطراف أصابعهما وانسلما من
العبادة إلى الطريق .

كان الهواء يهب باردا حتى إن إنصاف التصقت به ، وكان الضباب كثيفا فلم
يستطيعا أن يريا إلا مواطن أقدامهما ، وانطلقا وقد أرهفت حواسهما ، كانا يعلمان
أنهما يسيران في وقت حظر التجول وأنه سيقبض عليهما إذا ما عثر عليهما جندى من
جنود الجراسة ، وكان كل منهما يحصى حركات الآخر ويعد عليه أنفاسه ويحاول أن
يستشف ما تعبر عنه ، وأن يفهم حقيقة خليجات النفس التى تأتى أن تسفر عن جوهر
مكونها وكنه رغباتها .

وسارا صامتين إلا أن كياتهما كان مسرحا لانفعالات رقيقة حانية تغمرهما
بنشوة طاغية . تركز الكون كله فيهما ، كانا كطيفين يسريان في الضباب وإن
(م ٣١ — السهول البيض)

رفعتهما أحلامهما المجنحة إلى السماء ، وسمعا وقع أقدام تقترب ، إنها أقدام جندي ،
وفي مثل لمح البصر هبطا إلى واقع حياتهما وأحسا الخطر المحقق بهما فجعلتا يتلفتان ،
وهما بالفرار إلا أن الرجل كان على بعد خطوات منهما ، فإن بدرت منهما أية بادرة
فسيطلق عليهما النار .

والتمعت فكرة في رأس إنصاف كالبرق الخاطف ، فلقت ذراعيها حول عنق عبود
وراحت تقبله قبلة طويلة في الوقت الذي كان الجندي قد وصل إليهما .
وفطن عبود إلى اللعبة التي لعبتها فلف ذراعيه حول وسطها وراح يبادلها القبيل ،
كانا يتظاهران بأنهما عشيقان يتسربلان بالظلام وأن الجندي فاجأهما ، إلا أن
قبلاتهما كانت حارة ينفعل لها الجسم جميعه على الرغم من الخطر المحقق بهما .
وقال الجندي بالإنجليزية :

— ماذا تفعلان هنا؟

ونظرت إليه إنصاف بعينين مضعضعتين ، ثم أسبلت جفنيها على عينيها وأدارت
وجهها من الخجل ، واستمر الجندي يرقبهما برهة فقرأ الحب في العيون ، فقال لهما :

Go on —

ثم تركهما وانصرف ، فانطلقا وكل منهما يحس طعم القبلة التي استقرت في
سويداء القلب وسكبت في الروح دنان النشوة .

وبلغا المستشفى فانطلقت إنصاف إلى الدكتور حازم وقالت له :

— الفدائيون في حاجة إلى جثة .

فنظر إليها الدكتور في دهش وقال لها :

— ماذا سيفعلان بها؟

— سيقومون بدفنها في الجبانة .

وفطن إلى ما يريدونه فقال لها :

— غدا يمكنهم أن يحصلوا على الجثة .

وصمت قليلا ثم قال :

— من معهم الذي سيتسلمها؟

— مأمون .

وعادت إلى عبود وقالت له :

— غدا ستكون الجنة جاهزة .. هيا لنخبر مأمون .

— ألا تنتظر حتى تحين الساعة السادسة وينتهي حظر التجول ؟

فقالت له وفي عينها بريق خاطف :

— ما ألد المغامرة !

وسارا في جوف الضباب حتى بلغا بيت توفيق ، فتقدمت إنصاف ثابتة الخطو
وعبود في أثرها ودقت الجرس .

وانفرج الباب عن توفيق ، ولما رآهما قال لهما :

— تفضلا . مأمون في انتظاركما .

ودخلا ، كان مأمون في انتظارهما وكان يحسب أن الفرصة ستتاح له ليحدثها
عن رغبتة وأن يعرض عليها أن تكون له زوجة ، وما دار بخلده أن تأتي في رفقة عبود ،
وكان ظهور عبود أمامه مفاجأة قوضت قصور الأمانى التى بناها في خياله .

وفي الصباح كان النعش يخرج من المستشفى يحمله مرجان والشيخ حسن
والأسد ، وكان توفيق وسليمان وعبود ومأمون والفهد والإخوان يسرون خلفه ،
حتى إذا ما اقتربوا من الجبانة اعترض الجنازة بعض الجنود البريطانيين وقال أحدهم
بالعربية :

— لا يسمح بالدخول إلا للترابى واثنين من أقارب الميت فقط .

وراح توفيق يعترض ويقول :

— كلنا أقاربه ، كلنا نريد أن نودعه الوداع الأخير ، كانت وصيته أن أوسده

التراب بيدي .

— لالن يسمح إلا بدخول الترابى واثنين من أقاربه .

فصاح الشيخ حسن فيه :

— حتى الموت لا تحترمونه !

ورأى القائد ألا جدوى من الجدل فأشار لاثنين من رجاله أن يدخلوا مع النعش ،

فتقدموا وحملاه وعاونهما الترابى فى حملته ، وسمح الجنود لهم بالمرور ثم سدوا الطريق فى وجه الآخرين .

وتقدم الثلاثة بالنعش حتى إذا ما بلغوا الجبانة ترك الفدائيان الجثة للترابى ووفقا يفحصان المكان بعينون خبيرة . ها هي ذى المزرعة .. ها هي ذى مواقع الأعداء بالقرب من مطار الجميل .. الهدف واضح .. إن هي إلا ثوانى ثم يسددان الضربة التى تجشموا جميعا فى سبيلها كل هذا التعب . وفى مثل لمح البصر ألقيا على الهدف ما يحملان من قنابل ، فإذا بأجسام تنطائر ، وإذا بصيحات رعب وهلع تنطلق من الحناجر ، وإذا بجنود يجرون فى كل مكان لا يلوون على شىء ، وقبل أن يفيقوا من المفاجأة انطلق الفدائيان هاربين يسابقان الريح .

كان عبود والشيخ حسن ومرجان مشغولين بنقل الأسلحة التى جمعت فى الحى العربى ، كانوا يقومون بنقلها إلى سيارة صديق وإذا بسليمان يقبل مسرعا ويقول :
— الجنود البريطانىون يفتشون هذا الشارع بيتا بيتا ، أسرعوا بالهرب .
وقال توفيق :

— لن تقع هذه الأسلحة فى أيديهم أبدا . كدسوها فى سيارة الإسعاف .
فقال سليمان :

— لن تستطيع السيارة أن تخرج من هذا الشارع . ستقع فى أيديهم لا محالة .
فقال الشيخ حسن :

— لو وقعت فى أيديهم فلن يسمحوا بمرور سيارة إسعاف بعدها أبدا إلا بعد أن يفتشوها تفتيشا دقيقا .

قال توفيق :

— ضعوا كل الأسلحة فيها وسأقوم أنا بقيادة السيارة ، إنى أعرف الطرق من هنا إلى بيتى جيدا .

وراحوا يكدسون الأسلحة فى سيارة الإسعاف تكديسا ، حتى إذا ما انتهوا من

إغلاق بابها الخلفى قفز توفيق خلف عجلة القيادة وراح يسير بها إلى الخلف ويدور بها في مهارة فائقة في الطرق الضيقة الملتوية ، وفي اللحظة التي غاب فيها عن عيونهم سمع وقع أقدام جنود قادمين ، فانسل الرفاق وتفرقوا ، وبقي مرجان واقفا ليمتدح ببسمة السخرية العريضة التي تنتشر في صدره بعد أن يقوموا بتفتيش البيت الذي كان يموج بالأسلحة منذ لحظات ، ثم يخرجوا منه فارغين .

وانتشروا في شوارع بور سعيد ، وإذا بسيارة بها مكبر صوت تستأنف محاولة إغراء الناس بالعمل معهم في تطهير القناة بأجور سخية ، فراحوا هم والفدائيون الذين دخلوا المدينة يدسون في أيدي الناس منشورات تحضهم على عدم التعاون مع الأعداء والثبات على مقاومتهم السلبية الرائعة .

وراح وليز يذرع الشوارع بسيارته الجيب ، وأخذ مورهاوس ينافسه في صلفه وطغيانه ، وجاء بعض الجنود وقد ألقوا القبض على العم محمود الصياد ، فأخذ الناس يتطلعون إلى الشيخ الذي سار معهم مطأطئ الرأس ، أشفق عليه من لا يعرفه ، أما من شاهدوا خيانتهم من الفدائيين فقد كانوا في دهشة من أمره .

وسبق العم محمود حتى وقف أمام مورهاوس فألقى في وجهه اتهامه ، قال له :
— أنت تتعاون مع الفدائيين .

فقال العم محمود في فزع وإنكار :

— أنا ؟ لم أتعاون إلا معكم . كاد الصيادون أن يقتلوني أكثر من مرة ، لولا حمايتكم لي .

فقال له مورهاوس في زراية :

— لا تحاول أن تخدعني .

فقال العم محمود في تواضع :

— من أنا حتى أخدع بريطانيا عظيما مثلك ؟

وانتفخت أوداج مورهاوس وقال :

— لا تظن أن تملك هذا سيدير رأسي . أنت متهم بخيانتنا .

— لقد أرشدتكم يا سيدي إلى الأسلحة المخبأة في القبوطة .

فأشار مورهاوس برأسه إلى جندي كان يقف إلى جوار العم محمود، فسدد الجندي إلى وجه الشيخ لكمة قوية أسالت الدماء من أنفه، وقال له مورهاوس: — وجهت أنظارنا إلى هذه الأسلحة الهزيلة لتتيح للفدائيين فرصة تهريب كميات ضخمة من الأسلحة، لم يكن عملك خدمة لنا بل كان خديعة.

فراح العم محمود يقسم:

— والله يا سيدي كنت أقدم هذه الخدمة وأنا مخلص، لم يكن في قلبي غش ولا خديعة.

ورمز مورهاوس لجندي آخر بعينه فإذا بسوط يرتفع في الهواء ليهوى على العم محمود فينهار وهو يغن ويتأوه، ومد إليه جنديان أيديهما ورفعاه بينهما فوقف وهو يترنح، وقال له مورهاوس:

— أريد الحقيقة.

فقال العم محمود:

— الحقيقة أني أستحق هذا العذاب.

فقال مورهاوس:

— لأنك خدعتنا.

— بل لأنني وثقت فيكم.. لو لم يكن مستروليمز صديقي لما تعاونت معكم.

وعاد مورهاوس يرمز لأحد الجنود فتقدم خطوة ثم راح يكييل للعم محمود

ضربات متلاحقة في وجهه جعلته يغيب عن الوجود لحظات.

وألقى على وجهه ماء بارد ففتح عينيه فألقى كل شيء يتراقص أمامه، وراح

يلتقط أنفاسه في جهد، وأخذ ينتفض من البرد، ومد الجنود أيديهم إليه وجذبوه

ليقف على قدميه.

ورماه مورهاوس بنظرة قاسية ثم قال:

— إن لم تقل الحقيقة فسأمرهم بأن يحرقوا جلدك وأن يدقوا المسامير في يديك

وأن ينزعوا أظافرك.

وقال العم محمود في وهن:

— اسألوا وليمز : أنا رجل من رجاله .

فقال مورهاوس في غضب :

— سأعرف كيف أحل عقدة لسانك .

والتفت إلى الجنود الواقفين وقال باللغة العربية :

— هاتوا النار .

وجاء جندى وفي يده قضيب من الحديد المحمى ، وأسرع جنديان وقبضا على العم محمود وشداذراعيه إلى الخلف وقام آخران بتعرية ظهره ووضع قضيب الحديد المتوهج على جلده ، فصاح العم محمود صيحة مفزوعة عبرت عن قسوة الألم الذى يفوق احتمال البشر .

وجاء وليمز وقد مزقت أذنيه الصرخة المرعوبة ، ونظر إلى وجه الرجل الذى أغمى عليه من شدة الألم فانسعت عيناه دهشة ، ثم التفت إلى مورهاوس وقال :

— هذا رجل من خيرة رجالنا . لماذا تعذبه ؟

فقال مورهاوس :

— لأنه خدعنا ، دلنا على بعض الأسلحة ليعمى عيوننا عن أسلحة أخرى كثيرة

كانت تهرب فى نفس الوقت الذى شغلنا فيه بتلك الأسلحة الهزيلة .

— من قال لك ذلك ؟

— عيونى المنبثة فى كل مكان .

— لقد أوقع به خصومه ، خدعوا رجالك ، قلت لك يا مستر مورهاوس

المصريون أذكى مما تظن .

فقال له مورهاوس بالعربية :

— أعرفهم كما تعرفهم يا مستر وليمز ، فقد عشت بينهم سنين طويلة .

وأفاق العم محمود من غشيته فخف إليه وليمز يقول له :

— كيف أنت الآن يا محمود ؟

فقال العم محمود فى صوت خافت :

— وليمز ! هذا بسبيك ، لولا صداقتى لك ما ذقت هذا العذاب .

— آسف يا محمود .

— كنت أبحث عنك لما قبضوا عليّ .

— ماذا كنت تريد مني ؟

فأشاح محمود بوجهه عنه وقال :

— لا . انتهى كل ما كان بيني وبينك — لن أقول شيئا .

— قلت لك آسف يا محمود . أعدك ألا تتكرر هذه الغلطة . قل ماذا كنت تريد

أن تقول لي .

فأطرق العم محمود ثم قال :

— لولا محبتي لك ما قلت شيئا .

— تعرف كم أنا أحبك يا محمود .

وأحس مورهاوس ضجرا فقام من مقعده وهو يغدو ويروح في الغرفة ، وراح

العم محمود يتكلم فدنا منه ليسمع ما يقول ، قال :

— في منتصف هذه الليلة سيأتي مركب به ذخيرة وفدائيون .

والتفت وليمز إلى مورهاوس نظرة انتصار ، فقال مورهاوس في ضيق :

— أتصدق هكذا سريعا ؟ لماذا لا يكون هدفه أن يسوقنا إلى كمين ؟

— العم محمود كان مخلصا لنا دائما . إني أحكم عليه بماضيه .

وفي منتصف الليل كان ليمز ومورهاوس وبعض الجنود واقفين على شاطئ

المنزلة يرقبون ، وكان الظلام دامسا والبرد قارسا والسحب الداكنة أخفت كل

النجوم ، وسمع صوت ارتطام مجاديف بالماء فانسعت العيون وشهرت الأسلحة ،

وعلا صوت الموج على صوت المجاديف إلا أن المركب اتضح للأنظار ، فحبس

الواقفون على الشاطئ أنفاسهم ، وهبط من المركب رجلا ن يحملان بين أيديهما

صندوقا كبيرا ، وفارقت أحد الجنود شجاعته فأطلق النار رعبا ، فوضع الرجلان

الصندوق على الأرض وأطلقا سيقانهما للريح .

وأطلق الواقفون على الشاطئ عليهما الرصاص وهم يجرون خلفهما ، إلا أن

الهارين غابا في جوف الظلام ، وعاد الجنود إلى الصندوق وفتحوه في حرص

شديد، فإذا بمدافع سريعة الطلقات وبنادق وأكداس من الرصاص .
والتفت ولبزم إلى مورهاوس، وعلى الرغم من الظلام الثقيل قرأ مورهاوس في
عينيه ما يريد أن يقوله، فقال في صوت خافت :
— آسف .

وحمل الجنود البريطانيون الصندوق وقفل الجميع راجعين إلى مركز قيادتهم،
وعاد الصمت ليطبق على الشاطئ مرة أخرى .
كانت الرياح تمهب شديدة وكانت بيوت الصيادين غارقة في الصمت لأنامة ولا
حركة وكان الظلام طبقات بعضها فوق بعض، ومن جوف الليل الدامس خرج
رجال يتسللون في خفة إلى الشاطئ .
كان مركب شراعى وبعض قوارب صغيرة تنتظرهم، ولما وصلوا إليها قفزوا في
خفة إلى ظهورها، ونظر أحدهم إلى الصياد الذى كان فى انتظارهم وصاح فى
دهشة :

— العم محمود !

وابتسم العم محمود وظل الرجل يتلفت وهو لا يكاد يصدق عينيه، ودنا منه
قائدهم وقال :

— جزى الله العم محمود خيرا فقد أدى لنا خدمات جلييلة .
فقال الفدائى :

— لقد هممت فى تلك الليلة أن أقتله .

وقال قائدهم :

— ولقد خطفت منك بندقيتك وقلت لك : كنت سترتكب خطأ جسيما .
فأشرق وجه الفدائى وقال :

— لم أفهم ليلتها، ولكنى فهمت الليلة .

وقال مأمون للعم محمود :

— أتعرف إلى أين وجهتنا؟

— أعرف هدفنا الليلة : الجبانة .

— بل مطار الجميل يا عم محمود .

وراح المركب الشراعى يشق طريقه وكان يقطر القوارب الصغيرة ، كان عبود وسليمان ومرجان فى قارب ، وتوفيق وبعض الفدائيين فى قارب آخر ، ورجال الصاعقة فى قارب ثالث ؛ وكان كل منهم يعرف هدفه جيدا .

وأشرفت المركب على مطار الجميل ، وكانت المنطقة كلها غارقة فى ضوء شديد يبهى العيون وكانت الحراسة شديدة ، وقد أحس الجنود بدنو المراكب فراحوا يطلقون أعيرة نارية فى جنون .

وقال العم محمود :

— يحسن بنا أن نعود .

وقال القائد :

— بل لا بد من النزول إلى الشاطئ وتأدية الغرض .

وقال العم محمود :

— إن كنتم قررتم الانتحار فإنى سأنتحر معكم .

وقفز بعض من كانوا فى الزوارق إلى المركب ، فقال العم محمود .

— لوركب أربعة فى المركب فستتكشف العملية .. عودوا إلى زوارقكم .

ثم التفت إلى القائد وقال :

— هجومنا فى هذه الساعة لا جدوى منه ، أرى أن نصطاد بعض السمك أو أن

نشترى سمكا من الصيادين وأن نترث حتى ينتهى حظر التجول ، ثم نهبط إلى الشاطئ لنبيع السمك .

وراح الرجال يحاولون أن يصطادوا السمك ، بيد أن ما اصطادوه كان قليلا ، فأخذوا يشترون بعض الأسماك من الصيادين .

ووافت الساعة السادسة صباحا ، وانتهى ميعاد حظر التجول ، فقفز بعض

الرجال إلى الشاطئ وأخذوا يبيعون السمك للجنود ، وحن ميعاد تبديل

الدوريات ، فانصرفت دورية الليل ، وانتبه المختبئون فى القوارب هذه الفرصة

فقفزوا إلى الشاطئ وراحوا يلتقطون صورا لكل ما تقع عليه عيونهم ، ثم تقدموا

وهم يلتفتون إلى مطار الجميل .

كانت الشمس تحاول أن ترسل أول خيط من خيوط النهار ، وكان الجنود البريطانيون مطمئنين ، وإذا بقنابل تلقى عليهم ، وإذا بطلقات مدافع سريعة تنز في الجو تنذر بالموت والفناء .

وحدث هرج شديد ، وأفاق البريطانيون من وقع المفاجأة فحفوا إلى أسلحتهم ليردوا العدوان . وتبادل الفريقان إطلاق النار ، ثم أخذ المهاجمون يتقهقرون بعد أن حققوا هدفهم ، وفيما هم يتأهبون للفرار أصابت رصاصة كتف عبود فسقط على الأرض .

وثبت الشيخ حسن وتوفيق وسليمان ومأمون ومرجان في أماكنهم ، وأخلوا يصلون الذين يقتفون أثرهم نارا حامية لكي يتيحوا العبود فرصة أن ينهض ليلحق بهم ، إلا أن عبود لم يقو على النهوض .

وانطلق مرجان ومأمون إليه وخطفاه من على الأرض خطفا وعادا به إلى حيث كان إخوانهم .

وراح الجميع يتقهقرون وهم يطلقون القنابل اليدوية والرصاص حتى اجتازوا منطقة الخطر .

كان عبود يهدى وإنصاف جالسة إلى جوار سريرته تصغى إلى كل ما يقول ، راح يصيح :

— أنت مجنونة . مجنونة . قلت لك أكثر من مرة يا بيه : إن غيرتك هذه ستفسد حياتنا . لا . هذا البيت لم يعد يطاق .. والنعمة الشريفة أنت ظريفة يا بيه .. بيه أقسم لك أني لم أحب أحدا سواك .

وأحسست إنصاف غيرتها تتحرك ، وساءها أنها أضحت تغار من امرأة ذهبت ولم تعد إلا ذكرى .

وصاح عبود :

— أقسم لك يا بهية أن ليس بيني وبين إنصاف شيء مما تظنين .
وراحت إنصاف تتذكر تلك الليلة التي اقتحمت فيها بهية دارها وقالت لها :
« تخفين زوجي عندك يا فاجرة » وأطرقت تصغى إلى الحوار الذي دار بينها وبين
بهية في تلك الليلة ، وكان يرن في أغوارها رنيناً كصلصلة الجرس :

— لماذا تعذبين نفسك كل هذا العذاب يا بهية ؟
— ليس لي في هذه الدنيا إلا عبود ، فهو أئى وأمى وأختى ، وهو أبو ذلك الذى فى
بطنى ، فأرجوك يا إنصاف أن تتركه لي ، إن لم يكن إكراماً لخطارى فمن أجل
الطفل البريء الذى أحمله .

— أقسم لك يا بهية أنه ليس بيني وبين عبود شيء مما تفكرين فيه .
— الرجال كثير يا إنصاف ، أكثر من رجل يتمنى أن يتزوجك ، مأمون أخى
يعزك ولولا سفره لما أحجم عن أن يخطبك ، أما أنا فليس لي غير عبود ، اتركه لي .
وتعلمت إنصاف فى جلستها ، سخرت من بهية فى تلك الليلة ، وزاد فى سخريتها
أن دار بخلد بهية أن مثلها تقع فى حب عبود ، أما الآن فهى تحس أن حبه تغلغل إلى
سويداء قلبها ، كيف حدث هذا ؟ إنها لا تدرى ، كل ما تدريه أنها لم تعد تحتل بعده ،
وأن وجودها بقره يملؤها غبطة ويبعث فيها مشاعر رقيقة حانية ، إن روحها تهفو إليه
وتتمنى لو تفنى فى روحه .

ونهضت ورن فى جوفها صوت يقول :

— من كان يصدق أنك يا إنصاف تقعين فى حب هذا الغريب .
وذهدت إليه ومررت يدها على شعره ، وأحست إنجذاباً إليه فمالت عليه وقبلته
قبلة أودعتها كل حبها .

وتذكرت تلك القبلة التى بادها إياها ليلة أن فاجأهما فى الليل أحد الحراس ،
كانت قبلة صادقة أنعشت روحها ، لم يضع شفثيه على شفثها ولكن روحه النابضة
بالحياة لثمت روحها .

وقال فى صوت خافت :

— بهية . أشرب .

فالتفتت إليه وفي عينيها أسى ، ليته يناديها . إن اسمها لم يجر على لسانه إلا لينفى لبيهة أن بينه وبينها أية علاقة ، ترى ما الذى يكره قلبه لها ؟ إنه وهو تحت تأثير البسج ليس له سلطان على نفسه ، آه لو تحدث عنها لعرفت مكانتها عنده .

وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهوبا وهي تغمغم :

— ما أنا واثقة منه أنى أحبه ، وأنه أول رجل خفق له قلبى ، وأحبه هذا الحب الكبير ، لو أمرنى أن أتبعه إلى آخر الدنيا لأطعته وأنا راضية .
وذهبت تنظر إليه وهي تعجب من نفسها . أهذا الواهن الضعيف هو الذى أسر قلبها ؟! أهذا هو الذى تعلق به فؤادها دون سائر البشر ؟!

ألا ما أعجب قلوبنا ؟

وطاف بذهنها يوم دخل بهنس المستشفى ليخطب ودها ويعرض عليها أن تقبله زوجا ، فابتسمت فى سخرية ، إلا أن سخريتها ما لبثت أن غاصت لما فتح عيون عينيها وهتفت فى صوت واهن :

— إنصاف .

فهرعت إليه وهي تقول :

— عيون إنصاف .

— أين أنا ؟

— أنت معى . وأنا إلى جوارك .

وراح يقلب عينيها فى المكان فرأى صورة جانيت معلقة على الحائط ، وبدأت الغيبوبة تنفشع عن ذهنه فقال لها :

— ما الذى جاءنى إلى بيت توفيق ؟

— كان لا بد أن نخرج الرصاصه التى استقرت فى كتفك .

— ولماذا لم تذهبوا إلى المستشفى ؟

خاف توفيق أن يقوم الإنجليز بتفتيشه فحملك إلى هنا ، واستدعى الدكتور

حازم ليخرج الرصاصه من كتفك .

ونظر إلى إنصاف وقال لها :

— إني أتعبك كثيرا .

ورأى يدها قريية منه فرفع يده ومررها على يدها وهو يقول :

— شكرا لك .

وأحست كأن مساكهر يياسرى فى بدنها ، لم يكن أول رجل لمس يدها فمما أكثر الرجال الذين مروا أيديهم على يدها ، إلا أن أنامله كانت تزخر بسحر عجيب لم تشعر بمثله من قبل ، سحر دغدغ كل مشاعرها وحواسها وسكب نورا فى روحها .

وقال فى صوت ضعيف :

— إنصاف . أشرب .

ومرت يدها على وجهه فى حنان وقالت :

— اصبر قليلا يا عبود .

وهمس هامس فى نفسها : « يا حبيبي » .

وقال وقد أسبل جفنيه على عينيه :

— رأيت نفسى وأنا صغير أعيش مع أمى ، ورأيت أمى تحمل حسينا وتقبله ، وكانت بهية تقول لها وهى تكاد تطير من الفرح : أليس حسين أجمل الأطفال كلهم ؟ ورأيت بهية وهى قتيلة على شاطئ المنزلة فبكيت كثيرا ، وقابلت فانوس وذهبت إلى الورشة ورأيت أحواض الملح ناصعة البياض كالجليد ، وعشت مع الشيخ حسن وسليمان وصديق .

وكانت تصغى إليه وهى مطبقة الشفتين إلا أن صوتها كان يسرى فى نفسها يسأل : « ألم يكن بينى وبينك شيء ؟ ألم تر القبلة التى كانت بيننا . تكلم . لماذا تعذبني ؟ » .

وقال :

— رأيت كل حياتى ، كل ما كان فيها من تفاهات وأحداث هامة .

ثم التفت إليها وقال :

— يخيل إليّ أنى كنت أتكلم .

فأومأت له برأسها أن نعم ، فقال :

— هل قلت شيئا معيبا؟

فابتسمت وقالت :

— لا . اطمئن وإن كنت أحب أن أسمع الأشياء المعيبة .

وهم بأن يتكلم فوضعت يدها على فمها وقالت :

— لا تجهد نفسك . أرجوك .

وصمت وعادت عيناه تتجولان في الغرفة حتى استقرتا على صورة جانبية .

واستمر يرنو إليها مدة طويلة ثم قال :

— مسكين توفيق .

فقالت إنصاف في استغراب :

— ماذا جرى له؟

— ما أقسى أن يفقد الرجل زوجه كان يحبها!

وخفق قلب إنصاف وشعرت كأن يدا تضغط على عنقها ، خيل إليها أنه يندب

حظها ، وضايقها أنها لم تستطع أن تنسيه زوجه فقالت في حدة :

— لعل الله يعوضه خيرا منها .

وحنقت على نفسها ، ما بالها انفعلت كل هذا الانفعال وهي تنطق بما قالته ، ما

بال صوتها كان زاخرا بالحقد نابضا بالغيرة . أتغار من ذكرى؟

أليس من حقه أن يبكي من شاركته حياته؟

« إن قلبه جريح يا إنصاف وعليك أن تكوني البلسم الشافي لهذا الجرح . أكتب

عليّ أن أعيش بحبه ويعيش بحبها؟ . ألم تقرر يا إنصاف أن تهبي نفسك لمن يخفق بحبه

قلبك سواء أكان شابا أم شيخا ، غنيا أم فقيرا ، لم يتزوج بعد أو زوجا لثلاث

زوجات؟ ألم توطدى العزم على ألا تبغى نفسك لأى رجل يدفع مهره؟! ها هو ذا

قلبك تعلق به ، فلم الغيرة؟ احترمى ذكرياته ، وحاولى أن تمسحى الآمه . كنت

أتمنى أن أحب رجلى وأن يبادلنى حبا محب ، ولكنى هويته ولا أدرى إن كان لى فى

قلبه مكان .»

وقامت إليه وعرت ذراعه ثم غرزت إبرة فيه ، وما أن أخرجتها حتى راح فى

سبات ، فأتت بكرسي وجلست إلى جواره تديم النظر إليه وهي تحس نفس إحساس
الرضا الذي كانت تحسه لو أنها كانت تتطلع إلى صورتها في المرآة .
ومدت يدها وجعلت تمررها على شعره وهي شاردة ، ولاحت في عينيها أحلام ؛
كانت ترى نفسها وعبودا معها ، وقد أغلق عليهما باب بيتهما ، ولجت الأحلام فرأته
يطوقها بذراعيه ويلثمها في كل مكان ، وسمعت في وضوح يقول لها : أحبك . أحبك .
يا إنصاف .

واشتعلت عواطف الحب بين جنباتها فنهضت ومالت فوقه وقبلته في حنان ، ولو
طاوعت رغباتها لألقت بنفسها على صدره وبكت من الوجد ، إلا أنها كبحت
جماح عواطفها وعادت إلى مقعدها تنظر إليه .
وسمعت وقع أقدام فالتفتت فرأت مأمون قادما ، فنهضت لاستقباله ، ولما وصل
إليها قال :

— كيف حال عبود الآن ؟

— بخير .

ودنا منه وأدام النظر إلى وجهه ، فقالت له :

— إنه نائم .

— ألم يفيق من البنج بعد ؟

— كان يكلمني الآن ، وقد أعطيته حقنة لينام حتى لا يجهد نفسه .

ونظر إليها مليا في إعجاب وقال :

— أنت ملاك يا إنصاف .

وربت على ظهرها في حنان .

وقدمت إليه كرسيها وهي تقول :

— تفضل .

فجلس وظل صامتا مدة وجعل يتلفت ثم قال :

— والله لأدري من أين أبدا يا إنصاف . فكرت أكثر من مرة أن أفاتحك في

الموضوع ولكنني لم أجد لساني . كنت وأنا في «أبو عجيبة» أحسب أن الأمر سهل ،

لقد قلت لك آلاف المرات ما أريد أن أقوله الآن .
وفظنت إنصاف إلى ما يريد أن يقوله ، فأرادت أن تعاونه على الإفضاء به
لتواجه هذا الأمر الساعة وتنتهي منه ، فقالت :

— وماذا كنت تقول لي وأنت في « أبو عجيبة » ؟

فراح مأمون يجمع شجاعته ثم قال :

— كنت أقول لك : يسعدني أن تقبلي يا إنصاف أن تكوني زوجة لي .

وصمت وراح ينظر إليها نظرات زائغة لا تستقر على شيء ، وأرادت أن تقضى
على التوتر الذى ساد بينهما حتى تتأهب للرد عليه فقالت له :

— وماذا كنت أقول لك ؟

فقال وهو مطرق :

— كانت أمانى هى التى تتكلم .

— ماذا كانت أمانيك تقول ؟

— تقول : « كانت أمنيى دواما يا مأمون أن أكون زوجة لك » .

وارتسم في وجهها الجذ ولمعت عيناها ببريق نحاطف ثم قالت :

— تعرف يا مأمون أنى لا أحب أن أهدعك أو أهدع أحدا ، سأصارك

بكل شيء .

وصمت قليلا ، وأحس مأمون أنها ترفضه ، فخفق قلبه في أسى وزاغ بصره

وأرهفت حواسه .

قالت :

— أنت طيب القلب يا مأمون وكنت دواما أميل إليك ، وقد قررت

ألا أتزوج إلا الرجل الذى يذيقنى لوعة الحب ، الرجل الذى أفتقده إذا ما غاب

عنى لحظات ، الرجل الذى يرغمنى على أن أبارك كل ما يفعل ، وأن أتبعه أينما

سار ، كنت أرجو أن تكون هذا الرجل ، كانت أعز أمانى أن يتعلق بك قلبى ،

ولكن أمر قلبى لم يكن بيدى ، تمرد على كل رغباتى وأمانى وتعلق برجل آخر .

خفق بحبه . صار يهفو إليه . يرقص طربا إذا أشرق وجهه بالابتسام ، وينز بالأسى

(م ٣٢ - السهول البيض)

إذا عيس، ويذرف الدموع إذا تألم.

فقال مأمون في حزن:

— لم يخفق قلبك بحبي.

— افهمني يا مأمون. هل لنا سلطان على قلوبنا؟ أتستطيع أن ترغم قلبك على أن يحب من تريد؟ يا ليتني يا مأمون أستطيع أن أنزع بيدي هذا الحب وأغرس حبك مكانه.

— أأنت سعيدة به؟

— ومن ذا الذي لا يسعد بحبه؟ ولكني أخشاه.. أخاف أن يعذبني.

— لماذا؟

— لأنني أكاد أموت من الوجد وهو لا يحس بي.

— إنصاف. انسى هذا الوهم. فرى بنفسك من هذا الخيال وتعالى نتزوج.

— يا ليتني أستطيع يا مأمون.

— لا تضحى بنفسك يا إنصاف. أوأثقة أنت من حقيقة مشاعرك؟

— كل الثقة للأسف العميق.

— وإلى متى ستنتظرينه؟

— إلى آخر رمق في حياتي. سأعيش بحبه، وسأكرس هذا الحب له، ولن

أخذع رجلاً آخر.

فقال لها مأمون:

— إنني قابل أن تخدعيني هذه الخديعة يا إنصاف.

— لا. لن أَرْضَى أبداً عن نفسي لو قبلت أن أدخل بيت رجل ارتضاني له

زوجة بقلب مجروح.

وأطال مأمون النظر إليها، وبرقت عيناه ببريق إعجاب على الرغم من الحزن

الثقيل الذي نزل بقلبه، ثم قال:

— أنت نبيلة يا إنصاف.

وساد بينهما الصمت برهة ثم قال مأمون:

— من ذا الذى سلب قلبك؟

— لماذا؟

— قد أستطيع أن أفعل شيئا .

— ماذا ستفعل؟ هل ستحاول أن ترقق قلبه . إنى لن أخجل من أن أركع عند

قدميه وأقول له : أحبك . أعبدك .. ولكنى راضية بحبى إياه ، سعيدة بأن عرف

قلبى الحب ، يكفينى أن أرقبه من بعيد .

والتفتت خلفها ، وألقت على عبود نظرة خاطفة فياضة بالحب ، وفى مثل لمح

البصر مال عليها مأمون وقبلها ، ثم دار على عقبيه وسار لا يلوى على شيء .

وأخذت إنصاف تتحسس مكان القبلة ، ثم انهمرت من عينها الدموع .

— ٥٧ —

فى سكون الليل فتحت أبواب بعض الدور فى حرص شديد وانسل منها بعض
الأشباح ، وفى لحظات انتشر الفدائيون فى كل شوارع بور سعيد ، وراح الشيخ
حسن يوسع من خطوه ويجرى متسترا بالجدران ، كان هدفه الوصول إلى
بور فؤاد .

وكان يحمل كلبا يخفيه فى طيات ثيابه ، وكان بين وقت وآخر يمر يده على
شعره مداعبا حتى لا ينبح ويكشف أمره .

ووصل إلى مدخل القناة ، حيث كانت المعدة ترسو لتتنقل الركاب إلى الضفة
الأخرى ، فأخرج قاربا من المطاط وراح يملؤه بالهواء بضمه وعيناه تتجولان فى
كل مكان ، وفى غفلة من الحراسة وضع القارب فى الماء وركبه فى أناة ، ثم أخرج
مجدافا من المجاديف التى لا تحدث صوتا إذا ارتطمت بالماء وراح يجدف منطلقا
إلى بور فؤاد .

كان البرد شديدا فأحسن كأن أطرافه تكاد تتجمد ، وأن وجهه بات قطعة من
الجليد ؛ وشعر بالكلب ينكمش ويلتصق به هربا من الهواء البارد الذى يتسرب
إلى عظامه ، وعلى الرغم من توتر أعصابه والخطر المحدق به من كل جانب ، كان

يفكر في المخاطرة التي تطوع للقيام بها.

كانت أمنية عبود أن ينهض لتتاح له فرصة أن ينسل إلى الشركة ويلقى عليها نظرة، بيد أن جرحه حال بينه وبين تحقيق أمنيته. إن كلمات عبود له قبل أن يخرج لا تزال تتردد في كيانه: « إذا أتحت لك يا شيخ حسن فرصة أن تجوس خلال الشركة وأن تلقى عليها نظرة فلا تتركها، إني أحسن حيننا إلى الشركة، أتمنى أن ألقى نظرة على سهولها البيض. ترى ألوثت بياضها الناصع دماء العدوان؟ ».

ورأى بعين خياله عبودا وهو يلتفت إلى إنصاف ويقول لها:

« أتعرفين يا إنصاف ماذا سأفعل أول ما تنسحب القوات المعتدية عن بلادنا؟ سأعدو إلى الشركة لأكون أول من يدخلها » وسمع بأذن خياله إنصاف تقول: « أتحب يا عبود الشركة إلى هذا الحد؟ » « إنها قطعة من نفسي يا إنصاف. سأقبل أرضها، ستلثم روحى كل ذرة من ذراتها ».

وملأت رأسه صورة سليمان وهو يصغى إلى هذا الحديث، إنه يتلفت زائغ البصر وقد لاح في وجهه الأسى العميق، كأنما كان قلبه يدمى.

وغمغم الشيخ حسن:

— مسكين يا سليمان، ظلمتك جميعا.

وراح الزورق يشق طريقه والشيخ حسن يتلفت كالصقر، وخيل إليه إنه يسمع أصواتا على الشاطئ فنام في الزورق، وسدد نظره الحديدي إلى مصدر الصوت ولكنه لم ير إلا النخيل ولم يسمع إلا زيف الريح وحفيف الشجر، وعاد الاطمئنان إلى قلبه، وراحت الذكريات تطفو على سطح ذهنه فرأى سليمان واقفا إلى جواره يصغى إلى أصوات الإغراء المنبعث من مكبر الصوت: ثلاثة جنبيات لمن يعمل في اليوم ست ساعات، وأجر خمسة عشر يوما مقدما، ورأى أحد العمال يتقدم، أسأل الإغراء لعابه، وإذا بسليمان ينتفض غضبا ويقول: هذا الخائن لا بد أن يقتل.. إنه متعفن. لو تركناه سرت عفونته إلى الآخرين. ورأى في إكبار سليمان وهو يقتفى أثر الخائن، لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا،

حتى إذا ما شرد بعيدا عن عيون الإنجليز قتله وحمله على عربة يد وكتب فوقه «خائن» وراح يدور به في الشوارع وهو يقول: « هذا جزاء من يتعامل مع أعدائنا» .

وهز الشيخ حسن رأسه وهمس:

— سليمان الذى طرد من عمله وكان يبحث عن أى عمل شريف أو غير شريف يقتل من يضعف ويتقدم للتعاون مع أعدائنا!

والتفت إلى ناحية بور سعيد وقال:

— أنت عظيم يا سليمان .. أنت عظيم .

ونهض فى ذهنه خاطر: لو أنك يا حسن الذى طردت من عملك، وهنت حتى حاولت أن تهرب الحشيش، ثم أتيت لك فرصة العمل مع الإنجليز، أكنت تتردد فى أن تتعاون معهم؟

وأفزع ذلك الخاطر، فراح يضرب الماء بالمجداف فى قوة ليشغل نفسه عن الفكرة البشعة التى نبتت فى رأسه .

وبلغ الشاطئ فقفز إلى الأرض، وحمل الزورق ثم راح يفرغ منه الهواء ويطويه ويدسه فى جيوبه وهو يتلفت .

وراح يسترق الخطى ويقوم بما غامر من أجله فى حرص شديد، وينتقل فى خفة من مكان إلى مكان فى غفلة من الفرنسيين الذين ظنوا أنهم فى مأمن من غارات الفدائيين .

واستيقظت بور سعيد و بور فؤاد وقد غطيت جدرانها بالمنشورات، وكتب فى كل مكان: بور سعيد مقبرتكم، الموت للقتلة، كلنا جمال .

وخف أهالى بور فؤاد يقرعون المنشورات:

— يا أهل بور فؤاد .

لا تهنوا ولا تحزنوا إن يوم الخلاص قريب .

عاش رئيس مصر العظيم .

« هاتا شاما »

واندس الشيخ حسن بين جموع الناس يصغى إلى تعليقاتهم، ويقرأ الأمل
الذى انتعش في الوجوه، والتفت رجل إلى آخر يقف إلى جواره وسأله:
— ما معنى « هاتا شاما » .

فقال له الشيخ حسن:

— « هيئة تحرير شعب مصر » .

وفي بورسعيد، اجتمع الناس يقرءون:

الشرف البريطاني!

هذه هي الخرافة التي ما فتئنا نسمعها منذ عرفنا الحياة!

هذه هي الأسطورة التي كان يرددتها دائما على أسماعنا الإنجليز وأصدقاء
الإنجليز! حتى لقد وصل الأمر بأحد زعماء مصر الأقدمين إلى أن يقول قولته
الكاذبة: الإنجليز خصوم شرفاء معقولون.

هذه هي الأسطورة!

فهل صحيح أن الإنجليز لهم « شرف » يتحدثون عنه الآن وقبل الآن؟

الحق. لو كان للإنجليز شرف لما تظاهروا بالوصول إلى حل سلمى لمشكلة
القناة ثم ما لبثوا أن هاجموا مصر بهذه الخسة والنذالة.

ولو كان للإنجليز شرف لما أحرقوا منازل بورسعيد! ولما شردوا أهلها، ولما
قتلوا الأطفال والنساء.

ولو كان للإنجليز شرف لما لجأ رجال مخبراتهم الأذكياء «جدا» إلى تعذيب
هذا الرجل الشجاع لأنه لم يرض أن يوقع على اعتراف حشوه بالأكاذيب.

ولو كان للإنجليز شرف لقرر أطباؤهم له علاجا في مرضه ولما كذبوا وقالوا:

إنه ليس بمريض!

لقد سمعنا الكثير عن نذاتهم وخستهم مع جميع المعتقلين، بل رأينا بأعيننا ما
يفعلونه مع غير المعتقلين في الشوارع، ولم نذكر هذه الأمثلة إلا « عينه » فقط

للشرف البريطاني.

أيها الإنجليز الأوغاد.

أنتم آخر من يتحدث عن «الشرف» في القديم والحديث وإلى يوم القيامة .
فلعنة الله عليكم وعلى شرفكم المزعوم .
وعاشت مصر وعاش رئيسها العظيم .

« هاتا شاما »

وقال قائل :

— يستحقون هذا وأكثر منه ، هم الذين بدعوا السباب في منشوراتهم .

وقال آخر :

— منشور بمنشور .

— بل منشور منهم بألف منشور منا . فتحوا على أنفسهم هذا الباب .

— « علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب » .

وغطيت أرض الشوارع بعبارات كتبت بالإنجليزية بلون أبيض :

« أيها القراصنة ! اخرجوا من بلادنا » . أيها القراصنة . عودوا إلى البرد
والجوع . وإن حاولتم العودة إلينا فإننا هنا متربصون ، لنبعث بكم إلى الجحيم .

« هاتا شاما »

وجن جنون الفرنسيين في بورفؤاد ، وتميز الإنجليز غيظا في بورسعيد ،
وراحت الدوريات تجوب الشوارع تنزع المنشورات ، وتطمس الكتابات من
على الجدران ، وتطلى الشوارع بالقار حتى تمحو ما ثبته الفدائيون على الأرض من
عبارات ، وكان وليمز يجوب الطرقات في سيارته الجيب ، بينما راح مورهاوس
ينفس عن غضبه بإلقاء القبض على من يوقعه سوء طالعته في طريقه .

وجددت المنشورات العزم ومدت الأهالي بطاقات جديدة من المقاومة حتى
إنهم كانوا ينظرون إلى الجنود الذين يحملون الفرش والطلاء هازئين ساخرين .
وسرت في الناس روح جديدة ، وانتشرت موجة من الفرح ، فبورسعيد
أصبحت غاصة بالفدائيين ورجال المقاومة الذين بدعوا يناوشون قوات الغزو
ويقضون مضاجعهم .

وعاد جنود الحلفاء إلى مراكزهم وهم يلهثون بعد أن مزقوا المنشورات

وطمسوا كل الكتابات التي كتبت بليل، وما كادوا يستقرون حتى أطلق الشيخ حسن الكلب الذي كان يحمله فراح يعدو في شوارع بورفؤاد، وضح الأهل بالضحك والتهليل، واستمر الكلب في عدوه حتى وقعت عليه عيون الفرنسيين فاستشاطوا غضبا وأخذوا يعدون خلف الكلب ليمسكوه، وقد زاد في إضحاك الناس حتى إنهم كانوا يقهقهون.

كان الكلب أبيض، وكتب عليه بخط أسود غليظ «موليه».

وفي نفس الوقت فتح بيت توفيق وأطلق منه كلب أسود راح يخرق شوارع بور سعيد عدوا، وراه الناس فابتسموا، وأخذ الصبيان يعدون خلفه ويتصايحون، وجذب الكلب كل الأنظار إليه حتى أنظار الجنود البريطانيين. وتمزق البريطانيون غيظا، فقد كتب على الكلب بخط أبيض جميل: «إيدن» وراحوا يحاولون أن يمسكوه وهو يقفز ويفر مرعوبا، وطفق الأهالي ينظرون وهم يضحكون ويهللون.

وهم أحد الجنود البريطانيين أن يسدد رصاصة إلى الكلب ليرديه ويستريح من سخريته المتنقلة وشماته الأهالي وهزتهم، إلا أنه أحجم خشية أن يصيح الناس «قتل إيدن بأيدي الإنجليز».

وأصدر ولهمز أوامره لجنوده أن يطلقوا الرصاص على الجماهير. فرفعوا بنادقهم وقبل أن يسدوها إلى الصدور كان الناس قد تفرقوا وهرعوا إلى مداخل الدور وتركوا الكلب يجرى وحده.

وعادت الشوارع وغصت بالناس، وإذا بمرجان والأسد والفهد قادمون يحملون نعشا سار خلفه مشيعون كثيرون، كان عددهم يزيد كلما توغلت الجنازة في السير.

وفي وسط الشارع وضعوا النعش على الأرض وجروا، وإذا بجميع المشيعين يجرون خلفهم دون أن يعرفوا لماذا يجرون، ورأى الجنود البريطانيون النعش على الأرض والناس يجرون فراحوا يجرون في أثرهم وهم يتلفتون رعبا. واهتزت أسلاك وحدثت اتصالات وأقبلت سيارات الإطفاء وفرق الإنقاذ

وخبراء المتفجرات ، وضرب حول النعش نطاق من جنود مدرين ، وتقدم خبراء المتفجرات من النعش في حذر شديد ، وداروا حوله دورات ثم تقدموا ليرفعوا الغطاء فحبست الأنفاس ، وتقهقر الناس خطوات ، وتوترت الأعصاب ، وأضحى الجميع يخشون أن يفلت من أيدي الخبراء الزمام فيدوى انفجار هائل يزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وقد يعثر أجسادهم أشلاء .

ورفع الغطاء في تودة وأناة وحرص شديد ، ولم يحدث انفجار ، فبلغ البريطانيون ريقهم وإن استمر الخوف في أعينهم .
ومد الخبراء أيديهم وأخرجوا ما في النعش ونشروه ، كان دمية على هيئة إيدن ، فانفجر الناس ضاحكين ، وانفجر مرجل غضب البريطانيين فراحوا يطلقون النار بغير حساب .

وفي هذا الوقت كان مأمون وتوفيق وسليمان وبعض رجال الصاعقة في غرفة تطل على المدرسة التي نزلت بها بعض قوات الغزو ، وأداروا عيونهم في المكان ، ثم ألقوا عليه ما كان معهم من قنابل .

ودوت الانفجارات وخرج الجنود مرعوبين وقد شهرها سلاحهم . خرجوا إلى الشارع يعدون بيد أنهم ما بلغوا أول الطريق حتى انهمر عليهم الرصاص فاضطروا إلى أن يتقهقروا ويعودوا إلى المدرسة ، وما أن وصلوا إلى فنائها حتى ألقى القنابل من الشبايك ، فلم يجد الجنود خيرا من أن ينطحوا على وجوههم وأن يخفضوا رءوسهم .

وفر الفدائيون هارين بعد أن زلزلوا الأرض تحت أقدام المحتلين ، ونفروا في أنحاء المدينة . وراح مأمون يعدو صوب بيت توفيق وجندي بريطاني يركب دراجا يقتفى أثره .

ورأى الجندي دخول مأمون إلى بيت توفيق ، فعاد أدراجه إلى مورهاوس وقال له :

— لقد وضعت يدي على وكر من أوكار الفدائيين .
وأسرع مورهاوس وجنوده إلى دار توفيق وضربوا نطاقا حولها ثم دخل

مورهاوس وبعض جنوده وقد أمسكوا مسدساتهم في أيديهم، وراحوا يتقدمون في حذر وينقبون في كل ركن عن الفدائيين حتى وصلوا إلى الغرفة التي نام فيها عبود.

كان عبود ممددا في سريره وإنصاف بالقرب منه ووقف أمامهما مأمون، وما أن وقعت عيننا إنصاف على مورهاوس وجنوده حتى ارتمت فوق عبود وقالت:

— لا . لا تأخذوه . إنه مريض .. مريض .

وأشار مورهاوس لجنوده ناحية مأمون وقال لهم:

— اقبضوا عليه .

ثم راح يرفع إنصاف من فوق صدر عبود وهو يقول:

— خذوه .

— لا . إنه مريض . دعوه .. دعوه .

ولم يلتفتوا إلى صراخها وجذبه من فراشه، وارتمت إنصاف فوقهم وهي تقول:

— خذوني معه . خذوني معه .

ونظر مأمون إليها في إشفاق، فقد فطن إلى أن عبود هو آسر فؤادها وهو الذي

خفق قلبها بحبه .

ووقع بصره على مدفعه الرشاش فخطر له أنه لو ألقى بنفسه عليه لأمكنه في

مثل لمح البصر أن يقضى على الذين ألقوا القبض عليه، ولخلص إنصاف وخلص

عبود وخلص نفسه . وهم بأن ينفذ ما نبض في رأسه كالبرق الخاطف، إلا أنه قبل

أن يتحرك كانت فوهة مسدس مورهاوس في صدره .

وانطلق مأمون بين جتدين، وسار عبود وهو يتوكأ على إنصاف والجنود

يسددون إليها نظرات نهمة جائعة، حتى مورهاوس كان يتفرس في مفاتها

وطاف بذهنه خاطر خبيث فالتفت إلى الجنود وقال:

— اقبضوا عليها .

وتحرك عبود ليحميها إلا أنه كان أضعف من أن يصلب طوله، ورأت إنصاف

محاولته فانشرح صدرها على الرغم من محنتها .
وخرجوا إلى الطريق ودفعوا مأمون وإنصاف إلى سيارة مورهاوس ، وقبل أن
يدخلوا فيها دوت طلقات نارية ، فالتفت مأمون فرأى رفاقه قد جاءوا ورأوا أسره
فعمزوا على تخليصه .

وشغل الإنجليز بهذه المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها ، فاستداروا يدافعون عن
أنفسهم ، وانتهم مأمون هذه الفرصة فدفع إنصاف وعبود داخل السيارة ، ثم قفز
خلف عجلة القيادة وانطلق هاربا والرصاص يتساقط من حوله .

كان عبود جالسا في سريره في عيادة الدكتور حازم ، وأقبلت إنصاف تحمل
أكواب الشاي ومرت بالشيخ حسن وسليمان واتجهت إلى عبود وقدمت إليه
كوبا ، ثم عادت إلى حيث كان الصديقان فقال سليمان :

— الماء لا يمر على عطشان .

فقالت إنصاف وهي تبتسم :

— هذا ليس ماء . هذا شاي .

وقال الشيخ حسن :

— سئل رجل : أي أبنائك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب

حتى يعود ، والمريض حتى يبرأ .

فقال سليمان محتجا :

— إذا كانت تعز عبود لأنه مريض ، فهو مريض مؤقت ، أما أنا فمريض دائم ،

وأنا أقدم منه .

والتفت إلى إنصاف وقال :

— وعلى ذلك فأنا أولى بك منه .

فقالت إنصاف وهي تضحك :

— والله يا سليمان إن جبي لك كحبي لمأمون ، أحبكما حب

الأخت لأخيها .

واتسعت عينا عبود دهشة ، ترى أتريد أن تسمعه هذا القول ، أتريد أن تؤكد له أنها لا تحب مأمون؟!!

وقال سليمان وهو يشير بيديه كأنما يرفض شيئا يقدم إليه :

— لالا . أنا لأرضى بهذا الحب . إني متنازل عنه لعبود .

وسمع طرق خفيف على الباب فقال سليمان :

— « جينا سيرة القط جه ينط » ، مأمون حضر .

وخفت إنصاف إلى الباب وفتحته ، فدخل مأمون وفي رفقته عسكري

بوليس ، وقالت دون أن تنفرس فيهما :

— تفضلا .

ودخلا ، وما أن وقعت عيون الأصدقاء عليهما حتى أشرقت وجوههم

بالابتسام ، وقال سليمان لعسكري البوليس :

— إنصاف لم تعرفك .

وتفرست إنصاف في وجهه ثم ضحكت وقالت :

— آسفة ، لم أنظر إليك . حسبتك صديقا لمأمون .

فقال وهو يبتسم :

— هذه هي الحقيقة ، أنا صديق مأمون .

كان قائد سرية مأمون وقد ارتدى ثياب عسكري بوليس ، وقال مأمون :

— جاء ليطمئن على صحة عبود .

فقال له إنصاف :

— شكرا لك ! عبود بخير .

وقدمت لهما كرسيين وقالت :

— تفضلا . اشربا الشاي معنا .

وجلسا ، والتفت الشيخ حسن إلى القائد وقال له :

— مارأيك في أن ننضم أنا وعبود وسليمان وتوفيق ومرجان إلى رجالك؟

فقال القائد في بساطة :

— أنتم من رجالي .

وقال سليمان :

— نريد أن نشترك معكم في كل عملياتكم ، وأن نتلقى الأوامر منك .

— بكل سرور .

وسرح خيال الشيخ حسن برهة ثم قال :

— ومارأيك أن نسمى فرقنا « كتيبة الأهوال » ؟

وراح القائد ينظر إليه نظرة فاحصة ثم قال :

— ولماذا اخترت هذا الأسم ؟

فقال الشيخ حسن وقد تفتحت أساريره .

— تيمنا بكتيبة الأهوال التي خاضت كل المعارك في العراق وفارس أيام عمر

ابن الخطاب ، وكتب لها النصر في كل معركة خاضت غمارها .

وجاءت إنصاف وقدمت لهما كويين ، ثم سارت حتى وقفت إلى جوار سرير

عبود وقالت في رقة :

— ماذا تريد أن تفطر اليوم؟ فول؟ بيض؟ طعمية؟ مربة؟

ولم يقو مأمون على إدامة النظر إليهما فأطرق ولاح في وجهه سهوم ، كان

انعكاسا للحزن الذى نزل بقلبه ؛ إنه لم يحزن لأنه فقد إنصاف فما كان حبه لها

هياما ، بل لأن الحقيقة انبلجت واضحة أمام عينيه ، ستزع إنصاف بهية من قلب

عبود وستحل مكانها في بيته ! إن بهية قتلت ، وقد أحس يدا قوية تمصر قلبه لما

أفضى إليه عبود نبأ موتها ، أما الآن فحزنه عليها أقسى وأوجع ، فهو يشعر بنار

مندلعة في جوفه تلتهم أحشائه ، وبوخز كوخز الجمر يلسع روحه ، ولو طأوع

نفسه الآن لتأوه .

ونفض قبل أن يشرب الشاي ، وقال له حسن :

— إلى أين؟

— أرسل إليّ سعد بالأمس يطلب منى مقابلتى ، وقد حان الموعد الذى

ضربته له .

وقال القائد لمأمون :

— أصبحنا في حاجة إلى معمله مرة أخرى بعد أن كشف بيت توفيق .
— أظن أنه يريدني لذلك ، قال لي ذات يوم بعد أن تركنا معمله : حياتي أصبحت فارغة بعد رحيلكم ، لم يبق لي من تلك الأيام السعيدة إلا اللقب الذي منحتموني إياه . ففي أوقات فراغي — وكل أوقاتي فراغ — أقول لنفسي : قم يا صول سعد اغسل وجهك . قم يا صول سعد افطر . قم يا صول سعد واشتر طعاما للغداء . ألا تفكرون في أن تشرفوني بالإقامة عندي مرة أخرى ؟
فابتسم القائد وقال :

— قل له : سنعود إليه الليلة .

ودار مأمون لينصرف ، أراد أن ينفس عن حزنه بما قال ، أضحك الآخرين بينما ظل قلبه يدمى .

وقبل أن يتحرك قال القائد وهو ينهض :

— انتظر يا مأمون ! خذني معك :

وخرجا ، وذهب مأمون لمقابلة سعد ، واتجه القائد إلى المقهى وجلس ، وراحت عيناه تجولان في كل مكان وتنفسان في المارة وترصدان حركة الحراس والدوريات .

وجاء العم محمود يرتدي ثياب الصيادين ، واتجه صوب المقهى وهو يفر الجالسين بعينه ، حتى إذا مارأى القائد في ثياب عسكري البوليس اقترب منه ورمز له بعينه ، ثم سار في طريقه .

وقام القائد وانطلق إلى قسم ثالث ، وقابل بهنس وأسر إليه ببضع كلمات ، فإذا بهنس يترك له مكتبه ويذهب إلى غرفة أخرى .

وجاء العم محمود إلى القسم ، فهم من ارتداء القائد ملابس البوليس أن مكان اجتماعهما هناك ، ومد بصره فرآه جالسا مكان بهنس ، فتقدم ووقف كأنما ينتظر أن يستجوبه .

فتح القائد دفتر الأحوال أمامه ، ثم رفع رأسه وراح يصغى إلى ما يقصه عليه العم محمود ، ولاح في وجهه الاهتمام ، وخشى أن يفتن المحيطون إلى ما يجرى بينهما فصاح :

— والله إن لم تقل لى الحق فسألنى بك فى التخشبية .

وقال العم محمود فى توسل :

— أنا رجل فقير ، والله لم أفعل شيئاً من هذا .

ثم رفع صوته :

— هذا ظلم ، هذا افتراء .

ثم عاد يتم قصته ، حتى إذا ما انتهى منها قال له القائد :

— غدا فى الفجر .

فرفع العم محمود يديه إلى السماء وقال بصوت عال :

— الله يعمر بيتك . الله يستر عرضك .

ثم خرج لا يتلفت يمينا ولا يسرة .

ونفض القائد وانطلق إلى معمل الألبان ، فلما وقعت عيننا سعد عليه هروا إليه

وهو يقول فى فرح :

— أهلا بكم . أهلا بكم . والله لن تغدوا اليوم إلا كباب .

وقال القائد وهو يبتسم :

— كيف حالك يا صول سعد ؟

— الصول سعد سعيد ، سعيد جدا .

— أين مأمون ؟

— دخل يعد لنفسه وسادة من القش .

ودخل القائد وقال للمأمون :

— اذهب إلى جميع رجالنا وقل لهم لا يبرحوا أماكنهم حتى أمر عليهم .

ونظر مأمون إليه نظرات تساؤل كأنما كان يقول له : ماذا هناك ؟

وقال القائد :

— أريدكم في أمر هام؟

وقبيل الغروب راح القائد يمر على رجاله، اتجه إلى عيادة طبيب الأسنان وطرق الباب ففتحت له أم علي، ولما رأته زالت من طريقه وهي تقول:
— تفضل.

ودخل ومر بعض الوقت قبل أن يغادر العيادة، ثم انطلق إلى بيت توفيق، وقبل أن توافي ساعة حظر التجول كان يغذ السير ليصل إلى عيادة الدكتور حازم.

كان الشيخ حسن وسليمان وعبود في انتظاره، وأخذوا يصغون إليه في اهتمام وهو يتحدث، قال:

— سيشارك كل رجالنا غدا في عملية واسعة؛ سنلتقى في الساعة الثالثة صباحا على شاطئ المنزلة خلف المنازل الشعبية، وسيوزع عليكم الليلة كل ما تحتاجون إليه من أسلحة وذخيرة، والله يوفقنا.

فقال الشيخ حسن:

— الله معنا.

ودار لينصرف فألقى إنصاف واقفة عند باب غرفتها فقال لها:
— مساء الخير.

ثم انطلق.

وغادر عبود سريره، ولحجته إنصاف فهرعت إليه تقول:

— ماذا تفعل؟

— أستعد لغارة الغد.

— لا. لن تذهب. لا تزال مريضا.

— بل سأذهب.

— ابق يا عبود إكراما لي.

فقال في إصرار:

— لو بقيت فسأحتقر نفسي.. ناولينى مدفعي.

ولم تقو. إنصاف على معارضته ، فذهبت وأحضرت له مدفعه وقدمته إليه .
وراح ينظفه ويختبره وهي ترنو إليه في وجد وإشفاق .
وبعد منتصف الليل تأهب الشيخ حسن وسليمان وعبود للإنطلاق ، وقبل
أن يسيروا خرجت إنصاف من غرفتها واتجهت إلى عبود ورفعت له ياقة جاكته
لتقيه من البرد ، ودنت منه حتى اختلطت أنفاسها بأنفاسه ولو طاوعت نفسها
لقبلته .

وساروا وهي ترقبهم ، وقبل أن يخرجوا من الباب قالت :
— مع السلامة . لن تعرف عيناى النوم ، سأنتظركم حتى تعودوا .
ثم غمغمت : « حتى تعود يا حبيبي » .

واجتمعوا عند بحيرة المنزلة ، وقفروا كالليوث إلى الزوارق ، وراح العم محمود
يشق طريقه في الظلام وزوارق الصيد في أثره ، كان يعرف طريقه جيدا فقد ظل
يجوب المنطقة ويرسم خطة مفاجأة الفرنسيين ليالى وأياما .

وقلب الشيخ حسن وجهه في الزوارق وفي الرجال فامتلاً زهوا بكتيبة
الأهوال ، ولو استجاب لأهوائه لجلجل صوته في هجعة الليل وجوف الظلام
هاتفا : « الله أكبر ! الله أكبر ! » بيد أنه أمسك لسانه وإن كان التكبير يرن في جوفه
كرنين الأجراس .

ومع خيوط الفجر الأولى نزلوا إلى البر وتقدموا حتى لاح لهم معسكر
الفرنسيين ، فانتشروا حوله وأخذ كل منهم مكانه ، فما كانوا يهدفون إلى غارة
خاطفة ثم يفرون ، بل كانوا متأهبين لخوض معركة مريعة تزلزل الأرض تحت
أقدام أعدائهم .

وألقيت القنابل على المعسكر وفتحت النيران ، فهب الفرنسيون مفزوعين
وأسرعوا إلى أسلحتهم ، وراح الجانبان يتبادلان إطلاق النار ، وتقدم سليمان
خطوات ثم صاح :

— الله أكبر ! الله أكبر !

وعلت التكبيرات فانخلعت لها قلوب الفرنسيين ، وأشرقت الشمس والمعركة

(م ٣٣ — السهول البيض)

مستعرة الأوار، وسالت دماء وزهقت أرواح، ومرت ساعات والقذائف تهمر كأنها المطر.

وأخذت إنصاف تغدو وتروح في قلق، الساعات تمر وعبود لا يعود، «لماذا؟ لماذا تركته يذهب وهو جريح؟ لماذا لم أتشيث به؟ كيف ذهبت طائفة لأحضر له مدفعه لما قال: ناوليني مدفعي؟ لماذا لم أستعن بالشيخ حسن وسليمان ليقنعاه بالبقاء. إني تركته ينتحر. لا. لن أفقده بعد أن وجدته. آه لو قتل عبود!». ولم تستطع أن تتصور عودتهم وهم يحملونه قتيلا ليضعوه عند أقدامهم، فصاحت في فزع:
— لا. لا.

وراحت تمسح وجهها بيدها في انفعال لتمحو الصورة البغيضة التي نبضت في ذهنها.

واستمرت صاعدة هابطة في الغرفة، تهرع إلى الشباك تنظر كلما سمعت وقع أقدام. لا. لم تكن وقع أقدامهم، إنها وقع أقدام الحراس الإنجليز وقد ربطوا أسلحتهم بأيديهم حتى لا يخطفها منهم أحد.

وخيل لها وهمها أنها تسمع دوى الرصاصة التي نفذت إلى قلب عبود. فأحست كأن سكيناً طعن قلبها، فتأوهت في ألم وزاغ بصرها وارتسم في وجهها هلع، ونفذ صبرها ففتحت الباب وخرجت تعدو في الطريق.

ووصلت إلى شاطئ البحيرة وهي تلهث، وانهارت تنوء من التعب، إلا أنها مدت عينيها بعيداً فلم تر إلا الماء والسماء، ولم تسمع إلا صفير الرياح ووجيب قلبها.

ولم تحتمل أن تستقر طويلاً، كانت انفعالاتها نائرة وطاقاتها الحبيسة تضغط في جوفها ضغطاً شديداً حتى خيل إليها أنها ستنفجر، فراحت تسير جيئةً وذهباً على الشاطئ وهي ترقب الأفق البعيد في لهفة، وكل أمانها أن ينفرج عن حبيبها. ولاح لعينيها زورقان يتهاديان على سطح الماء، ودق قلبها دقات قوية، كانا مقبلين نحوها، وراحت أمانها تسبقها فرأت عبود بين من فيهما من الرجال.

ودنا الزورقان واستطاعت أن تميز من فيهما، لم يكن عبود بينهم، فانتشر في جوفها خوف وأحست أن جوفها أصبح فراغا، وأن قلبها يسقط في قدميها، وأنها ستتهار. ونزل الرجال إلى الشاطئ، فتقدمت إليهم وهي ترتجف وقالت في صوت متهدج:

— أين .. أين باقي الرجال؟

— هبطوا في أماكن أخرى.

— لن يأتوا إلى هنا؟

— لا.

— هل .. هل هم بخير؟

— نعم.

— هل .. هل .. هل عادوا جميعا؟

ولم يجر أحد جوابا فراحت تنظر إليهم بعيون زائغة، ثم جرت مرة أخرى صوب البيت وكل خلجة فيها تهتف: «عبود .. عبود .. عبود».

وأضحى البيت على بعد خطوات منها، وغشيتها غيبوبة إلا أنها راحت تقاوم رغبتها في أن تنهار.

وفتحت الباب وصدرها يعلو وينخفض، وعلى عينيها غشاوة أخذت تزيحها بظهر يدها، ورأت عبود في جهد، فهتفت في فرح:

— عبود .. عبود.

إلا أن صوتها لم يخرج من بين شفيتها، وطفرت الدموع من مآقيها، وراحت تجهش بالبكاء.

قال الشيخ حسن:

— أعدموا ثلاثة وحكموا بالسجن على سبعة وعشرين من الجنود الذين

تمردوا ورفضوا إطلاق النار على الأهالي.

وقال عبود :

— أصبح مقامهم بيننا صعبا ، لا أحد يريد أن يتعاون معهم ، كانوا يأملون في أن يقبل القبرصيون أن يشتغلوا معهم ، ولكن بعد أن أذاع حزب أيو كا أن كل من يتعاون مع الإنجليز والفرنسيين في بور سعيد سيعتبر خائنا لبلاده . قضى على ذلك الأمل .

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان فألفاه شاردا وفي وجهه عبوس ، فقال له :

— فيم تفكر يا أبا داوود ؟

فرفع سليمان رأسه وقال :

— أعلن إيدن أن الجلاء سيبدأ في ١٥ ديسمبر ؟

فقال له الشيخ حسن مداعبا :

— وهل جلاؤهم هو الذى أحزنك ؟

فاتسعت عينا سليمان دهشة ، وفغرفاه وارتابك كأنما ضبط متلبسا بجريمة ،

وراح يتلفت بلاهدف ، ثم قال وقد أطرق :

— كنت أفكر فيما سيكون عليه حالى بعد أن تنتهى هذه المعركة .

وخفق قلب عبود رقة ، وأحس الشيخ حسن حقيقة ما يقاسيه سليمان وإن

عبر عنه في كلمات قليلة ، وصمت ولم ينطق حرفا ، وأخذ سليمان يتلفت في قلق

ثم قال :

— سيعود كل منكم إلى عمله وسيلتقى بأهله ، وسأعود مرة أخرى إلى ما

كنت فيه .

وهز رأسه في أسى ثم قال :

— إلى الحانة . إلى الطريق .

وأهاج حديثه ذكريات عبود ، سيعود كل إلى أهله ، أما هو فلا أهل له

ولا ذرية ، ماتت أمه ومات أبوه يوم ماتت بهية ، وتقطعت الأوصال بينه وبين

الدنيا بموت حسين ، ترى ماذا سيكون حاله بعد أن تهدأ العاصفة وتستقر

الأموار ؟

وسار الشيخ حسن وضم سليمان إليه ضمة أودعها كل ما في قلبه من حنان وهو يقول .
— أخطأنا في حقاك يا أبا داود مرة ، ولن نخطئ مرة أخرى . بل سنكفر عن
خطئنا .

وانفرجت شفتا سليمان عن ابتسامة خفيفة ، ولم يطمئن قلبه فقد علمته
السنون أن الناس يسرفون في الوعود وسرعان ما ينسون . بل غالبا ما يتكفرون
لوعودهم .

وقرأ الشيخ الأفكار في عينيه فقال له :
— اتفقت مع السيد توفيق على أن أول ما نفعله إذا ما عدنا إلى الشركة أن
نعيدك إليها .

واتسعت ابتسامة سليمان وقال الشيخ حسن :
— وسأقوم بذبح خروف وتوزيع لحمه على الفقراء ابتهاجا بهذه المناسبة .
فقال سليمان في مرح :
— لن تجد من هو أفقر مني .

وابتسم عبود وراح يرنو إلى سليمان في إعجاب ، لم يسترسل مع حزنه ولم
يسلم نفسه لليأس بل سما بروحه فوق كل ظروفه وراح يمزح ، واقترب سليمان
من الشيخ حسن وقال :

— لي عندك رجاء إذا ما عدت إلى عملي .
— ما هو ؟

— أن تزوجني . إن أغلى أمانى أن يصيح لي بيت ، أن يغلق على وعلى زوجتي
باب .

فقال الشيخ حسن في حماس :

— والله لأزوجنك .

وهز سليمان السرور فقال وهو يضحك :

— وتدفع لي مهرى .

وابتسم عبود ابتسامة عريضة، ولاح في عينيه ما يريد أن يقوله ولكنه أمسك لسانه، وكأنا قرأ سليمان ما يدور في نفس عبود فقال وهو غارق في الضحك: — أعرف ما تريد أن تقوله، أقرأه في عينيك، لا . لا يا عبود، أنا قادر على أن أنجب لنفسى الأولاد .

وضحك الرفاق الثلاثة حتى اغرورقت عيونهم بالدموع .
وأخذ صوت يعلن:
— يا أهل بور سعيد:

ستدخل القوات الدولية مدينتكم لتفصل بين قوات الإنجليز وبين القوات المصرية، ولتسلم المدينة بعد الانسحاب .

وراح الشيخ حسن وعبود وسليمان يتبادلون النظرات، ثم فتحوا الباب واندفعوا إلى الطريق، وإذا بالناس يتدفقون جماعات وقد رفعا في أيديهم صورا كبيرة لجمال عبد الناصر، وساروا في مظاهرات يهتفون:
— يحيا جمال . يحيا جمال .

وانطلقوا كالسيل الجارف إلى المحطة وقد فغر الإنجليز والفرنسيون أفواههم من الدهشة . أين كانت كل هذه الصور المتباينة الأحجام؟
وفي غمضة عين كانت صور جمال قد لصقت على زجاج النوافذ، ووصلت المظاهرات إلى المحطة فألفت جنود الأعداء قد ضربوا حولها نطقا ليمنعوا الناس من الوصول إلى القوات الدولية .
وارتفعت الأصوات يهتف:

— تحيا مصر، تحيا جمال، يسقط إيدن، يسقط موليه، تسقط إنجلترا، تسقط فرنسا، تحيا مصر، تحيا مصر .

وبلغت حماسة الأهالي غايتها، فاندفع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجائز يكتسحون جنود الأعداء الذين وقفوا ليحولوا بينهم وبين القوات الدولية، وتحطم النطاق المضروب وتدفق الناس كالسيل وهم يهتفون من أعماق قلوبهم .

ورفع طفل صورة جمال في وجه ضابط فرنسي وأخذ يهتف :

— يحيا جمال ، يحيا جمال .

وأولاه الضابط ظهره ، فدار الطفل حوله وقرب الصورة من وجهه وعاد

يهتف :

— يحيا جمال ، يحيا جمال ، يحيا جمال .

وأخذت الطفل الحماسة فكان يقفز وهو يهتف ، وابتعد الضابط عنه ، فراح

يقتفى أثره كلما ذهب خلفه وهو يهتف في وجهه :

— يحيا جمال ، يحيا جمال .

ونفذ صبر الضابط الفرنسي وانفجر مرجل غضبه ، فأخرج مسدسه وسدده

إلى قلب الطفل ، ثم أطلقه فأرداه قتيلًا .

وئارت الجموع وهجمت لتفتك بالضابط الآثم ، وإذا بجنود الحلفاء تهرع

لنجدته ، وتحول بأسلحتها بينه وبين الجموع الغاضبة الثائرة المزججة .

ووقف توفيق بين الجموع يهتف بالإنجليزية :

— تحيا مصر ، يحيا جمال ، كلنا جنودك يا جمال ، قلوبنا معك يا جمال .

وراح الناس يرددون الهتافات خلفه .

وهبطت القوات الدولية إلى المحطة فاستقبلت بعاصفة من التصفيق

والهتافات ، ثم اصطفت وسارت في طريقها إلى معسكرها أمام المحافظة .

وخرج الجنود الإنجليز من خنادقهم وألقوا أسلحتهم ، وأخذوا يصفقون

ويهتفون :

— نحن سعداء ، سنخرج من هنا .

وظافت المظاهرات ببورسعيد ، وفي شارع محمد علي لمح رجل الجنرال

ستوكويل في سيارة جيب ، فأسرع إليه وعرى له صدره ، فإذا عليه صورة جمال

وقد كتب تحتها بالإنجليزية : « يحيا جمال عبد الناصر » .

ولاح في عيني ستوكويل الغضب ، أحنقه ذلك التحدى ، إلا أنه سار في

الطريق وهو يتميز حقدا .

ورأى الناس مورهاوس ووليمز فارتفعت هتافاتهم :

— يسقط إيدن ، يسقط إيدن ، تسقط إنجلترا ، تسقط بريطانيا الصغرى .
وأصدر وليمز أوامره بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، فسقط شاب قتيلًا ،
فجن جنون الناس وراحوا يلقون على الإنجليز كل ما تصل إليه أيديهم .
وصوب الإنجليز رصاصهم الخائق إلى صور جمال عبد الناصر التي ألصقت
بزجاج النوافذ ، ورأى الناس يثاروا لما ناهم فكمنوا لسيارة جيب فرنسية في الحى
العربى ، وألقوا عليها قنبلة قتلت كل من فيها .

وهاج الشعب وثار ثورة عارمة ، وإذا بالسيارات البريطانية تجوب الشوارع
تجمع الجنود .. خشية غضبة الشعب الكاسرة .

وحان موعد حظر التجول فعاد الشيخ حسن وسليمان وعبود إلى عيادة
الدكتور حازم ، وتمدد عبود فى سريره وراح يتقلب فيه وهو يحس مللاً ، وأن
حياته فارغة ، وأن شيئاً ما ينقصه .

ولم يحتمل الاستقرار فى السرير فنهض ، وراح يذرع المكان بلا هدف ، وشعر
على الرغم من وجود الشيخ حسن وسليمان أنه وحيد ، وأن رغبة غامضة تحرضه
على أن يبكى لينفس عن ذلك الحزن الثقيل الجاثم على صدره .

وعاد مرة أخرى إلى السرير وارتمى فيه وراح يتقلب ويدور ، ملل . ملل ..
فراغ .. فراغ . إنه يهفو إلى شيء .. شيء لا يدريه . شيء تعجز رغباته عن أن
تفصح عنه ، إلا أنه يملأ الخواء الذى يعيش فيه .

لولا الحظر الذى فرض على الناس لخرج إلى الطريق يمشى بلا هدف ، لأليت
مأمون يأتي الآن ويقول هيا إلى غارة .

ونظر إلى سليمان فحركت شففته : « مسكين ، إن كان قد عانى ما أعانيه من
فراغ وملل فهو معذور إذا شرب . هل تقدم على الشراب يا عبود إذا هيا لك
الهرب من هذا الملل ؟ إذا أعماك عن الفراغ الذى أصبحت فيه ؟ لست أدرى .
وفتح الباب ودخلت إنصاف ، فدبت حياة جديدة فى المكان كأنما سرت فيه
روح ، وإذا بالملل الذى كان يحسه عبود انقشع ، وإذا بالحياة تنبض فى الجو الذى

كان يعيش فيه .

وهب سليمان واقفا، وراح يقلد الإنجليز الذين خرجوا من خنادقهم فرحين لما رأوا القوات الدولية، ويهتف بالعربية بلكنة إنجليزية :

— نهن سؤداء . سنهريج من هنا .

وضحكت إنصاف وقالت للشيخ حسن :

— ماذا يريد أن يقول ؟

— يريد أن يقول بالإنجليزية كما كان الجنود الإنجليز يقولون : نحن سعداء ..

سنخرج من هنا .

فالتفتت إليه إنصاف ودفعته في صدره وقالت :

— فصيح .

وهزته ابتسامتها فنبضت في ذهنه فكرة فقال :

نتكلم بلا هذر مرة ، اسمعى يا إنصاف ، لقد أقسم الشيخ حسن أن يزوجنى بعد أن تستتب الأمور ، ومهرى فى جيبه ، فأصبح من حقى أن أخطب الآن . أن أختار شريكة حياتى . ما رأيك يا إنصاف فى أن تكونى زوجة لى ؟ ولم يضحك أحد ، أحس الجميع أن الأمر لا هذر فيه ، حتى إن عبودا انقبض وأحس أنه يختنق .

وارتبتك إنصاف ، وتلفتت فى حيرة ، أحست أنه صادق فى عرضه ، وأنه

ينتظر منها جوابا .

وأطرق الشيخ حسن وتمنى أن تقول له إنصاف قولاً جميلاً ، إن كانت

سترفض عرضه ، ولت إنصاف كل كياستها وقالت :

— أتجنبنى يا سليمان ؟

فقال سليمان فى صراحة :

— لو لم أكن أحبك ما عرضت عليك هذا العرض . إن كان اسمى لا قيمة له ،

إلا أنى ضنين به ، لن أمنحه إلا لمن يهواه قلبى .

وكان ذلك فوق احتمال عبود فأحس ناراً ترعى فى أحشائه ، وعجب من

نفسه ما باله يحس خناجر تمزق قلبه كلما غازل إنسان إنصاف أو عرض عليها
الزواج؟

وقالت إنصاف في هدوء:

— ما دمت تؤمن بالحب فلنتريث حتى أعرف حقيقة عواطفى نحوك .
وزفر الشيخ حسن في راحة، ونظر إلى إنصاف نظرة كانت تقول في
وضوح: «شكرا لك».

وفهم سليمان أن إنصاف ترفضه وأنها لا تريد أن تחדش شعوره، فأطرق
وغام وجهه بسحابة من الحزن، وفطنت إنصاف إلى أنه التقط حقيقة ما تعنيه
فقالته له:

— الزواج قسمة يا سليمان . لا يمكن لأحد أن يفر مما قسم له .
ولم يكن قادرا على أن يحزن طويلا فابتسم، وأثرت ابتسامته في إنصاف حتى
إنها مالت عليه وقبلته .

واندلعت النيران في عبود حتى إنه لم يستطع أن يكتم عواطفه، فندت من بين
شفتيه آهة، فالتفتت إليه إنصاف في ذعر وقالت:
— ماذا بك؟

فوضع عبود يده على مكان الجرح في كتفه وقال:
— أحس ألما شديدا .

فهرعت إليه إنصاف وقالت:

— توسلت إليك أن تبقى، ألا تخرج معهم، ولكنك لم تستمع لنصحى،
أجهدت نفسك .

وساعدته على أن يصعد إلى سريره، ومددته وهى تقول:

— لن أدعك تخرج من هنا قبل أن تبرأ .

وراح سليمان يرمقهما بطرف عينيه، فتيقن أن إنصاف تهوى عبود وأنه
سالب لهما .

وناموا وفي الفجر استيقظ الشيخ حسن ومد يده يهز سليمان، وبقي سليمان

غارقا في نومه ، وهزه مرة أخرى هزات عنيفة وهو ينادى :

— سليمان قم . سليمان .

وطاف بذهنه خاطر أفرعه ، فنادى في خوف :

— سليمان .. سليمان .

واستيقظ عبود على نداء الشيخ حسن المرعوب ، فأسرع إليهما وقلبه يدق رهبة ، فرأى الشيخ حسن وقد وضع أذنه على قلب سليمان ، فقال وهو يحس أنه سينهار :

— ماذا حدث ؟

ورفع الشيخ حسن رأسه وفي وجهه حزن عميق وقال :

— البقية في حياتك ، سليمان مات .

فقال عبود والأسى يمزق قلبه ، وغصة في حلقه ، والدموع تجري إلى مقلتيه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . رحمة الله عليك يا سليمان .

وسمعت إنصاف كل شيء فخرجت تولول :

— سليمان .. سليمان .

وارتمت عليه تقبله وتغسل وجهه بدموعها .

وأطرق الشيخ حسن ، وإذا ما قاله خالد بن الوليد وهو على فراش الموت

ينبض في ضميره :

« ما في جسمي موضع إلا وفيه إصابة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت

البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

خرج الشيخ حسن وعبود وحدهما لأول مرة ، غاب عنهما سليمان بعد أن وورى في التراب ، بيد أنهما لم ينسياه ، كان حديثهما يدور حوله ، قال الشيخ حسن :

— كان رائعا لما وقف كالطود يغطي انسحابنا يوم هاجمنا الفرنسيين ، حسبت

أنه قرر أن ينتحر ليفدينا، وإذا به يقفز كأبطال السينما إلى آخر زورق وهو يسدد رصاص مدفعه الرشاش إلى الذين كانوا يقتفون أثرنا.

وقال عبود:

— كان يحب الضحك، ولكنني لم أره يضحك في حياته مثلما ضحك آخر ليلة.

. وشرد الشيخ حسن قليلا ثم قال:

— مات بعد أن بدأت تراوده الآمال.

— أحمد الله أن مات بيننا، مات مطمئنا، كان دائما يقول لي: أقسى ما في الدنيا أن يموت الإنسان وحده.

ولوى الشيخ حسن شفته استخفافا وقال:

— هذه مخاوف الأحياء، يستوى أن يموت الإنسان وحده أو أن يموت بين أحبائه وأصحابه وأهله وعشيرته. لا يأخذ الإنسان من دنياه إلا عمله.

ووصلوا إلى شارع سعد زغلول، كانت الجدران مغطاة بصور الرئيس، وصوره جمجمة وعظمتين شعار الفدائيين، وأدام عبود النظر إلى الشعار ثم قال:

— كنت أظن أن الإنسان يستطيع أن يرسم طريق مستقبله، خططت حياتي على أن أعيش مسلما أدعو للسلام، وكنت أظن أن بالهبة تذلل كل الصعاب، وما دار بخلدى يوما أن أحمل في يدي سلاحا. أقسم يا حسن أن ذلك لم يكن عن جبن كما كان يحلو لبعض الزملاء أن يصوروه، بل كان عن عقيدة واقتناع.

فقال الشيخ حسن في هدوء:

— الإنسان ابن ظروفه.

واستمر في سيرهما، المحال لاتزال مغلقة، وكتائب مشاة الإنجليز تقوم باستعراض، والصبية يسرون خلفهم وقد حملوا على أكتافهم قطعاً من الخشب وهم يبالغون في تقليدهم.

ونظر عبود إلى هؤلاء الصبية في حب وقال:

— ترى ماذا يكون مستقبل هؤلاء الأعراء؟

— إننا الآن نعمل من أجلهم، نضحى لنسعدهم.
وقال عبود وهو شارد:

— جميل.

ثم خطرت على ذهنه فكرة، فقال:

— أخشى أن يكون كل جيل يضحى في سبيل الجيل القادم، دون أن يسعد
جيل من الأجيال.

وقال الشيخ حسن:

— قد تكون التضحية ذاتها قمة سعادة الإنسان، إنى عندما أحرم نفسي من
شيء أشتهي لأوفر لفتحية أو محمد أشياء تدخل السرور على قلبيهما، أحس سعادة
تفوق تلك السعادة التي كنت أحسها لو أشبعت رغبتى.

وسرح خيال عبود، يا ليت بهية وحسينا بقيا على قيد الحياة وحرم نفسه من
أجلهما كل متع الدنيا. بهية ماتت يا عبود، وحسين مات، انس ماغات وابدأ
حياة جديدة. لست أول من فجع، ما أكثر المفجوعين الذين أسدلوا على الماضي
ستر النسيان.

وكانا قد وصلا إلى بيت توفيق، فألفيا مأمون وتوفيقا ومرجانا يعملون في
دمية كبيرة على هيئة إيدن، فنظر إليهما الشيخ حسن ثم قال:

— ألم يحضر قائد كتبية الأهوال بعد؟
قال مأمون:

— نحن في انتظاره.

وعكفوا يعملون، كان مأمون يختلس النظر إلى عبود بين لحظة وأخرى،
وكان كلما وقعت عيناه عليه تذكر سليمان وبهية وإنصاف، وتختلط الرؤى في
رأسه وتتداخل: وقال فجأة:

— لم يموت الإنسان قبل أن يحقق آماله؟ لماذا مات راسم قبل أن يدخل تل
أبيب ويعتلى أعلى مكان فيها ويهتف بأمه: قرى يا أماه عينا فقد عدنا إلى فلسطين.
فقال الشيخ حسن:

— سيتحقق هذا الأمل يوم أن يطأ أول جندي من جنود العرب قلب إسرائيل .

فقال مأمون :

— ولماذا مات سليمان قبل أن يتحقق أمله ؟ لماذا مات قبل أن يعود إلى عمله ؟ واضطرب عبود وأسبل عينيه ، خشي أن تلتقيا بعيني حسن ، فأمال سليمان تجاوزت حدود العودة إلى العمل دون أن يدري مأمون ، كان يريد أن يتزوج وأمست أعز أمانيه أن تحمل إنصاف اسمه ، أحقا أحب إنصاف أم كانت الأنثى الوحيدة التي صادفها في حياته الخالية ؟!

وقال توفيق :

— لم يمّت سليمان وفي قلبه مرارة اليأس ، كان واثقا من أن أمله سيتحقق بعد أن تستتب الأمور . أكدنا له أنا وحسن هذه الحقيقة ، فسيان أن يموت الآن أو أن يموت بعد أن يعود إلى عمله .

وقال مأمون في حزن وهو يتحامي نظرات عبود :

— ولماذا قتلت بهية ؟ ولماذا جاء حسين إذا كان مقدر له أن يموت في مهده ؟ وصمتوا جميعا ، قال توفيق بالإنجليزية همسا :

— هذه هي المسألة (That is the question)

وقال الشيخ حسن :

— هذه إرادة الله ، وما لنا أن نحكم على إرادته بعقولنا ؟

وراح مأمون يتلفت بعيون زائغة وقال :

— أريد أن أفهم .

وهم الشيخ حسن أن يقول له : « ربما أراد الله أن يأتي بذرية من صلب عبود من امرأة أخرى » ، إلا أنه أمسك لسانه ، لم يشأ أن يؤلمه أو يسبب حرجا لعبود .

وقال توفيق :

— ما حكمة وجودنا ؟ هذا هو السؤال الذي حير عقول البشر .

فقال عبود في سخرية :

— ليقتل بعضنا بعضا، لننغص على أنفسنا حياتنا القصيرة .
فقال الشيخ حسن :
— إننا نؤمن بصراع الشعوب ، ولولا هذا الصراع لفسدت الأرض .
فقال عبود في دهش :
— أنؤمن بالحروب ؟ أنؤمن بأن يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟
— هذه حقيقة واقعة ، وإننا نؤمن بالواقع ونحاول تهذيبه .
وقال توفيق :
— إننا نميل إلى السلم .
وقال الشيخ حسن :
— الميل شيء والواقع شيء آخر ، ستكون نهاية العالم يوم أن يقف صراع الشعوب .

فقال عبود في حماسة :
— بل ستكون بداية البشر الصحيحة .
فقال الشيخ حسن وهو يبتسم ابتسامة انتصار :
— في الجنة ونعيمها .
وسمع طرق على الباب ، فأسرع توفيق ومأمون ورفاقهما يخفون الدمية التي كانوا يضعون فيها اللمسات الأخيرة لتبدو في هيئة إيدن ، وعرج مرجان إلى الباب وفتحه .

دخل صديق الفرارجي وراح يعانق الموجودين ، ثم انتحى بالشيخ حسن ناحية وقال له :

— جاءني اليوم رجل من المطرية وقال لي : إنه قابل فتحية وأمها والأولاد ، وقد أرسلوه ليقول لنا إنهم جميعا بخير .

وخفق قلب حسن حنانا وأحس الدموع تبلبل عينيه ، ثم أطرق خاشعا وشعر أنه يندمج في روح الكون ، كان على الرغم من وقوفه بين زملائه يصلى شكرا لله . كان في قرارة نفسه يؤمن أن بينه وبين الله عمارا ، وكان يناجيه كلما صفت

نفسه : في العمل وفي الطريق وفي الفراش وفي القتال ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن صلته بالله هي التي جنبته أن يلقيه الله في التجارب والمهالك وعذاب الدنيا . وجاء بهنس وإذا بالجميع يقابلونه بالترحيب ، مضت مدة طويلة لم يروه فيها ، وقال الشيخ حسن وهو يعانقه :

— ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فقال مأمون :

— إنه محور العملية .

وقال عبود لمأمون :

— هل سيأتي العم محمود؟

— لا . العملية القادمة لن نركب لها الماء إنها في قلب بور سعيد ، وسنقوم بها

في وضح النهار .

والتفت صديق الفرارجي إلى بهنس وقال له :

— ما هي مشروعاتك الجديدة؟

فقال بهنس وهو يبتسم :

— سأتزوج اثنتين لأصون أعراض الأراامل .

وقال له الشيخ حسن في خبث :

— رحمة الله عليك يا فانوس . كنت الوحيد الذي تعرف كيف تسكت

ادعاءاته .

وجاء الأسد والفهد وضابط اللاسلكي وبعض الفدائيين ، ووقف ضابط

اللاسلكي وعبود يتحادثان ، قال ضابط اللاسلكي :

— لماذا لا تأتي يا عبود لزيارتنا؟

— أين؟

فقال ضابط اللاسلكي وهو يضحك :

— عند أم علي .

— في عيادة طبيب الأسنان؟

— نعم .

— سأزورك بعد أن تنتهى من هذه العملية .

— إن شاء الله .

وجاء رجل من رجال المطافئ ثم أقبل القائد في ثياب عسكري بوليس .
وجلس القائد والتفوا جميعا حوله ، وأرهف مرجان أذنيه حتى لا تفوته كلمة

مما يقال ، قال :

— هناك عمليتان : عملية فرعية سنقوم بها الليلة وكلما أتحت لنا فرصة ،
وعملية أصلية سيشارك فيها نصف الفدائيين الموجودين في بورسعيد .

نقصت الأغذية في المدينة وعلينا أن نعوضها بطعام الإنجليز ، هذه هي العملية
الفرعية التي سنقوم بها الليلة وكلما سنحت لنا الفرصة ، أما العملية الأصلية ...
وسمع صوت سيارة تقترب ، إنها لاشك سيارة أحد القواد الإنجليز فما كان
يستعمل السيارات غيرهم بعد أن نفذ من المدينة الوقود وصار أغلب الناس
يستعملون الدراجات في تنقلاتهم .

وأسرع بعض الرجال إلى النوافذ ونظروا من بعيد ، وإذا بأكثر من صوت
يهتف في حرص وانفعال ودهشة :

— وليمز!.. وليمز!

وماج الرجال وراحت أذهانهم تعمل في سرعة ، خطر لبعضهم أن يخفوا
أسلحتهم وأن تدور بينهم وبين الإنجليز معركة ، فخير لهم أن يقتلوا من أن يقعوا في
أيدي أعدائهم ، وفكر بعضهم في أن ينسلوا هارين قبل أن يضرب الحراس نطاقا
حول البيت ، وتعطل تفكير بعضهم وراحوا يمدون أبصارهم إلى قائدهم كأنما
يسألونه ماذا يفعلون ؟

ولمعت في ذهن الشيخ حسن فكرة ، فخلع حذائه وجلس يقرأ آى الذكر
الحكيم ، وفهموا جميعا هدفه ، فجلسوا على الأرائك والكراسي يصفون ، وهرع
مرجان إلى المطبخ ليم أطراف مادبره الشيخ حسن .

ودق الباب دقات شديدة ، فأسرع توفيق وفتحه ، ولما وقعت عيناه على وليمز

(م ٣٤ — السهول البيض)

قال له وهو يفسح له الطريق :

— تفضل !

وصك القرآن أذنى ولیمز ، فصوب إليه عينين مستفسرتين ، فقال توفيق في حزن :

— بالأمس مات سليمان زميلنا في الشركة بالسكتة القلبية ، وقد جاء أصدقاؤه للتعزية .

ودخل ولیمز وظل الجميع في أماكنهم يصغون ، وراح يتفرس في الموجودين ، رأى مأمون وعبود وصديق في ثياب الإسعاف ، ورجلا في ثياب المطافئ ، وبهنس في ثياب البوليس ، ورجلا بملابس عسكري البوليس ، وبعض رجال مدنيين . وخطر على قلب مأمون نفس الخاطر الذي طاف برأس عبود ، من حسن الحظ أن الذي جاء للتفتيش ولیمز ، فلو كان مورهاوس لعرفهما ، ولألقى القبض على الجميع ، ولحصل على صيد ثمين قلما تسنح فرصة أخرى بمثله . وأشار توفيق إلى مقعد وهو يسير إلى جوار ولیمز ، وقال له :

— تفضل .

وأرغم ولیمز على الجلوس ، ولو سار إلى الغرفة المفتوحة أمامه لرأى دمية إيدن شامخة في وسطها .

وجاء مرجان يحمل صينية عليها بعض فناجين القهوة ، وتقدم إلى ولیمز وقدم إليه الصينية ، فمد ولیمز يده وتناول فنجانا ، وراح يرشف منه القهوة السادة وهو كاره .

كان الشيخ حسن على علم بأن ولیمز يعرف التقاليد ، وأنه لن ينصرف قبل أن يختم قراءته ، فأنهى ما كان يقرؤه ، فقام توفيق ومأمون وعبود ووقفوا عند الباب يتلقون العزاء .

وقام بعض الرجال وتظاهروا بالانصراف ، وأخذوا يصافحونهم ، فقام ولیمز وصافح الأيدي الممدودة إليه ، ثم انطلق خارجا ، وسار توفيق خلفه ، وقبل أن يسير في طريقه التفت إلى توفيق وقال :

— مضطر إلى تصديقك هذه المرة ولكن لن تفلتوا من يدي .
وانصرف وفي نفسه ريبة، وكان في حيرة من أمره : ترى أخطأ لأنه إنقاد
لعواطفه؟ هل اجتمعوا لتدبير مؤامرة؟ وأية مؤامرة تحتاج إلى رجل البوليس
ورجل المطافئ ورجل الإسعاف وأناس كثيرين وبهذا العدد؟ إنهم أذكاء يا ولیمز .
لا . لا يمكن أن يصل ذكاؤهم إلى مثل هذا التدبير السريع المحكم .
وعاد الرجال الذين انصرفوا بعد أن اطمئنوا إلى أن ولیمز وجنوده قد خدعوا ،
والتف الجميع حول قائدهم يصغون إلى شرح دور كل منهم في العملية الكبيرة
المقبلة .

وفي الليل كان الفدائيون جميعا يتسللون إلى مخازن تموين القوات البريطانية ،
وفي الصباح كانت عربات اليد مكدسة بعلب الجبن والسردين والمرنى وأنواع
أخرى كثيرة ، وكان الصبيان يقومون ببيع علب المرنى بقرش ، وعلبة البولوبيف
بقرشين .

وعند تقاطع أهم شارعين في المدينة كان إيدن يتدلى مشتوقا .

كان بعض رجال التنظيم يحفرون ، وجاءت عربة إسعاف ووقفت عند الحفر
ونزل منها مرجان وصدیق ، وفتحوا باب السيارة الخلفى وأخرجوا منها مدافع
سريعة الطلقات ووضعوها في الحفرة ، وسرعان ما أخفيت تحت التراب .
واستمر رجال التنظيم في حفرهم ، وجاءت سيارة جيب نزل منها الشيخ
حسن والفهد ورجل آخر وراحوا ينقلون البنادق إلى الحفرة . وسرعان ما انهال
عليها التراب .

وجاءت سيارة الحريق بها ذخيرة طلقات المدافع الرشاشة وبعض القنابل
اليدوية ووضعت الذخائر في حرص شديد ، كان رجال التنظيم من خبراء
المفرقات ، وانتبهى نقل الأسلحة وإخفائها ، فراح بعض الرجال يزرعون الأرض
ويزينونها بأصص الزرع :

وذهب مأمون والقائد والأسد وبعض الفدائيين إلى قسم ثالث، وانطلقوا إلى
بهنس فراح يقيدهم في سجلات القسم على أنهم مساجين جاءوا بالأمس،
وساقهم إلى السجن وهو يقول لهم مازحا:

— أنا في الخدمة دائما .

وقال له مأمون:

— يرد لك في الأفراح .

وضحك بهنس وقال:

— ستتعب لأن أفراحي كثيرة .

فقال له القائد:

— متعك الله بشبابك .

فالتفت بهنس إلى مأمون وقال:

— هذا أول رجل قابلته في عينيه نظر .

وقال مأمون:

— نظري ستة على ستة .

وقاطعه بهنس قائلا:

— النظر في القلب والشباب في القلب والحب في القلب .

فقال الأسد:

— قلب المحب لا يموت .

فقال بهنس وهو يغلق عليهم السجن:

— خذ الحكمة من أفواه المساجين .

وضحكوا، وقال مأمون:

— لو أن الشيخ حسن كان معنا لقال لك: السجن أحب إلي مما يدعونني

إليه .

فقال بهنس في انشراح:

— ما يدعونني إليه أحب إلي من روحى .

فقال له مأمون :

— رحمة الله عليك يا فانوس !

وانسل بهنس قبل أن يركبه مأمون بسخريات فانوس .

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً هي ساعة الصفر ، وقبل الموعد بقليل كان الفدائيون يحومون حول معسكر الحرس فقد اتخذوا الإنجليز ملجأً لدباباتهم .

ونظر عبود من بعيد ، كان في فناء المعسكر دبابات تحتها بعض الجنود ، ورأى بالقرب منها غرفة لا يدرى ما بداخلها ، ثم نظر في ساعته ، وسار إلى حيث دفنت الأسلحة وأخرج مدفعا رشاشا وبعض الطلقات ، وأسرع إلى مكانه عند مدخل شارع من الشوارع المؤدية إلى المعسكر .

وفي الساعة الثانية عشرة فتحت باب السجن ، وخرج مأمون والقائد والأسد والآخرون وانطلقوا إلى حيث دفنت الأسلحة ، وتناول مأمون والقائد والأسد مدافع دبابات ، وأخذ الآخرون البنادق والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية ، وخفوا لينضموا إلى زملائهم الذين نصبوا عند كل شارع من الشوارع المؤدية إلى المعسكر كميناً .

وانسل القائد ومأمون والأسد إلى داخل المعسكر وصوبوا مدافعهم إلى ثلاث دبابات ، وصاح القائد :

— اضرب .

وإذا بثلاث دبابات تدمر .

وأنزل دوى الطلقات الملعب في قلوب كل من كانوا في المعسكر ، وقبل أن يتحرك منهم أحد أو يفيق من هول المفاجأة كان القائد يأمر :

— اضرب .

ودمرت ثلاث دبابات أخرى .

وأخذ الرجال الذين كانوا تحت الدبابات يجرون مفزوعين ، وإذا بصوت القائد يصيح : — اضرب .

ودمرت دبابتان وعطلت الثالثة . حدث كل هذا في دقيقة واحدة .

والتفت رجال الاقتحام إلى من نجا من كانوا تحت الدبابات فراحوا يحصلونهم حصداً .

وخرج من كانوا في الغرفة القريبة من الدبابات ، فإذا بالرصاص يصوب إليهم من كل جانب فيتهاوون على الأرض كأوراق الشجر .

وأطلقت بعض الرشاشات البريطانية نيرانها ، فسدد إليها الشيخ حسن رصاص مدفعه وهو يصيح :

— يا منصور أمت . أمت .

وعلى الرغم من الرصاصات المتطيرة في كل اتجاه ، كان خاشعاً مطمئناً كأنما كان في صلاة ، وكان مرجان يطلق الرصاص وفي سريرته صوت ينشد : « والله زمان يا سلاحي » فيخيل إليه أنه يصغى إلى تسييح الملائكة .

وراح توفيق يطلق رصاص رشاشه في انفعال وثورة ، فصوت جانيت يدوى في أرجاء الكون : « قاوموا هذا الطغيان » ، وصورتها والدم ينبثق منها تملأ الفضاء ، وتؤجج نار حقهده وتثير كل عوامل المقت في نفسه ، فيستشعر رغبة طاغية في أن يمحى كل ما يمت للأعداء .

وأخذ يتقدم في ضراوة الوحوش ، كل أمانيه أن يسحق كل الذين هموا إلى رشاشاتهم ويسكنهم إلى الأبد .

وتتابعت الطلقات السريعة القاتلة وأخذ عبود يصطاد الواقفين خلف رشاشاتهم ، وفجأة ملأت صورة إنصاف كل رأسه ، وعجب من نفسه ما باله يذكرها في هذا الموقف المحفوف بالخطر الذي يحوم فيه الموت حوله ؟ وسرى في ضميره صوتها يقول في رقة : « ابق يا عبود . إكراماً لي » . وخفق قلبه كأنما لم يسمع هذا القول الرقيق من قبل . ترى أقالتها مجاملة ، أم كانت صادقة في التعبير عن حقيقة مشاعرها ؟؟ إنه ليفهم هذا الهمس الذي يهمس في جوفه في هذه اللحظة أكثر مما يفهم ليلة أن توصلت إليه أن يبقى . إنه هنا في منطقة الخطر ، أكثر رقة وشاعرية ، إنه زاحر بأشياء ناعمة ، تهزه وتسكب في نفسه بهجة حاملة . وأطلق الرصاص وهو يهتف :

— إنصاف .

واستمر يطلق الرصاص وهو يهذى وقد اختلطت في ذهنه الصور حتى إنه لم يعد يميزها .

وسكنت الرشاشات البريطانية ، وغمر الأعصاب المتوترة هدوء نسي ، وراحت الأنفاس تنتظم والأذهان تصفو وتعود النفوس إلى تمييز ما يدور فيها .

والتفت الشيخ حسن إلى عبود وقال :

— كنت أحس وأنا أسدد طلقاتي أن سليمان إلى جواري .

وسكت قليلا ثم قال :

— أتصدق أنى سمعته في وضوح يكبر : الله أكبر ! الله أكبر ؟

فراح عبود يتلفت ثم قال :

— أنا واثق أن روحه معنا .

وقال الشيخ حسن :

— لا بد أن أرواحا كثيرة معنا الآن .

وشرد عبود ولاح في وجهه سهوم ، فقال له الشيخ حسن :

— فيم تفكر ؟

فصوب إليه نظرات قلقة ثم قال :

— كنت أعجب مما يمكن أن يدور في رءوسنا في لحظة ، رأيت أشياء كثيرة في

اللحظة التي تفصل بين انطلاق طلقتين من بندقيتين .

وسمع وقع أقدام جنود فتأهب الفدائيون للقائهم ، كانت أربع دوريات

بريطانية مقبلة من أربعة طرق ، فرفع كل فدائي في كمين بندقيته وصوبها إلى

صدور من جاءوا على عجل لنجدة من أيدوا عن آخرهم .

وعلى ومضات الرصاص ومضت في ذهن عبود حادثة كان قد نسيها ، أو كان

في الحقيقة يمقت أن يذكرها ، كان بعض فتيات الهوى قد وفدن إلى بور سعيد من

القاهرة ، وقد اندست بينهن بعض الفدائيات ، كن يغرين الجنود بالذهاب معهن

إلى أماكن خالية ، ليقتلهم الفدائيون بخنجر أو بحجر ، وقد عرضت عليه إنصاف

ذات ليلة أن تقوم بما تقوم به الفدائيات وأن تسوق إليه الإنجليز والفرنسيين ليزهق أرواحهم ، بيد أنه اضطرب ورفض أن تقوم بإنصاف بهذا الدور ، كره أن يراها تمثل مغازلة رجل وإن كانت تسوقه إلى الموت . لماذا رفض ؟ لماذا يغار عليها ؟ أهو يحبها ؟ وعادت المشاهد تختلط في ذهنه وتمتزج ، ولم يعد يميز إلا الجنود الذين كانوا يسقطون صرعى .

وتتابعت الطلقات وأخذت تبرق كالبرق الخاطف ، وبرقت في ذهن مرجان ذكرى عجيبة : رأى نفسه يغنى في فرح ، وعجب وراح يتساءل وهو يسدد طلقات مدفعه إلى الأعداء : ما الذى يدفع مثل هذه الرؤى العجيبة إلى سطح ذهنه في لحظات ؟

ودار في صدر توفيق حوار بينه وبين جانيت :

— أرى أن ننجب اثنين يا جانيت ثم نستريح ، ويا حبيذا لو جاء ولدنا وبنتنا .

— ولم العجلة ؟ فلنتمتع بشبابنا ، الأيام أمامنا طويلة .

وكان مأمون يسمع صوت أمه في وضوح :

— أريد أن أفرح بك يا مأمون قبل أن أموت .

— إن شاء الله . بعد أن تنتهى مدة الخدمة العسكرية .

— سأخطب لك أجمل بنات بور سعيد .

ورأى نفسه وهو يحمل أمه وهى مغشى عليها بعد أن أغلق على عبود وبهية باب

الزوجية .

واحتلت ذهن الشيخ حسن أحداث أول لقاء بينه وبين فتحية ليلة الجلوة ،

وسرعان ما تلاشت ليرى نفسه وهو يحمل على ذراعيه ابنه محمد أول مرة .

وطافت بذهن كل الذين كانوا غارقين في خضم المعركة الخاطفة ، ذكريات

حسبوا أنها طمست بكر الأيام ومر السنين .

وسقط من سقط من الجنود وفر من فر منهم ، إلا الدورية التى كانت منطلقة

ناحية الكمين الذى كان الفهد بين أفرادها اكتشفت موضع الكمين ، وأحسّت

أن هناك مفاجأة فى انتظارهم ، فخفف جنودها يتحصنون بالجدران ، وسرعان

ما نظموا صفوفهم وما لبثوا أن تقدموا في حرص وحذر وهم يصلون الفدائيين نارا حامية .

ورأى الفهد أن المعركة لو سارت في طريقها الطبيعي فستطول ، وقد تخف نجدات لشد أزر المقاتلين فصجم على أن ينهى هذه المعركة في أسرع وقت ، فحمل ما معه من قنابل وذخيرة ، وأخذ يعدو ناحية الأعداء كالسهم المنطلق ليشق صفوفهم .

وأصابت أكثر من طلقة من طلقاتهم ما كان يحمل من قنابل ، فإذا بانفجار هائل يدوى ، وإذا بكل رجال الدورية البريطانية يتطايرون في الهواء .
وفي مثل لمح البصر اختفى الفدائيون من المكان ، وانطلق القائد ومأمون والأسد ومن كانوا معهم إلى قسم ثالث ، واستقبلهم بهنس وقد فتح لهم أبواب السجن على مصاريعها .

ولم تستغرق العملية الرائعة أكثر من ثلاث دقائق .
واستقروا في السجن مطمئنين ، فقد كانوا مقيدين في سجلاته على أنهم ممن جاءوا أمس . قبل أن يقع الهجوم بأكثر من أربع وعشرين ساعة .
وفتح بهنس باب السجن ليقدم لهم الغداء وما كان يختلف عن غداء المساجين ، فنظر مأمون إلى الخبز الجاف ، ثم التفت إلى بهنس في زراية وقال :

— ما هذا ؟

— هذا طعامكم .

فقال مأمون وهو جالس على الأرض ، وكان ينظر إلى بهنس الواقف أمامه :
— إننا نستحق وليمة .

فراح بهنس يمرر يده على شاربه ويقول :

— أنا رجل أحترم اللوائح والأوامر والتعليمات ، رجل نظامي ، لا أسمح بأن ترتكب أية مخالفة في القسم ، ولن يقدم في السجن للمساجين من أمثالكم غير هذا الطعام .

ورفع مأمون الخبز الجاف وهم بأن يقذف به بهنس ، إلا أن بهنس أسرع

بالفرار .

وقال مأمون :

— في المرة القادمة سنختار سجنا أفضل من هذا السجن . يشرف عليه أناس
كرماء .

وقبل أن ينتهي مأمون من كلامه فتح باب السجن ودخلت صينية كبيرة عليها
مالذ وطاب .

ورأى مأمون الطعام الشهى فسأل لعابه ، وقام إلى بهنس وأخذ يقبله وهو
يصيح في فرح :

— ينصر دينك .

ورفع بهنس بصره إلى سقف السجن وقال :

— ربنا يجعل مخازن الإنجليز عمارا .

وتحركت الدبابات البريطانية وسيارات نقل الجنود ، وعادت القوات
البريطانية تحتل المدينة . وقرأ الجنود المنشورات المكتوبة باللغة الإنجليزية والتي
ألصقت على أعمدة النور ، فتدفقت دماء الغيظ إلى وجوههم ، وراحوا يمزقونها
في حنق .

وراحوا يمدون الأسلاك الشائكة حول المدارس والملاجئ والأندية التي نزلوا
بها ، بعد الضربة المفاجئة التي نالت من هيبتهم .

ونزل مورهاوس ليجوس خلال الشوارع يرهب الناس ويقبض على من يشاء
ليسومه سوء العذاب ، وانطلق ويمزق البيوت وقوارب الصيد والكنائس
والمساجد .

واتجه مورهاوس إلى بعض الشبان وقال لهم :

— أطلقتم رصاصة من طبنجة ؟

— ليس معنا سلاح .

— ولكنني سمعت صوت الرصاصة .

— لعلها أطلقت من مكان آخر .

— لا . أنتم الذين أطلقتموها .
— من منا الذى أطلقها ؟
— لا أدرى . ولكنى رأيت الرصاصه تنطلق من ناحيتكم .
— فتشنا .
والتفت إلى جنده وقال :
— فتشوهم .
وقاموا بتفتيشهم ولم يعثروا على شيء وعلى الرغم من ذلك قال :
— اقبضوا عليهم .
وانطلق ورجاله إلى شارع التجارة والروضة وما ترك بيتا إلا فتشه بحثا عن
الأسلحة .
كان يدفع الرجال من وجهه ويقتحم غرف النساء ، ولا يلتفت لصراخ
الأطفال الذين كانت تفزعهم المفاجأة .
والتفت خلفه ، كانت ألسنة النيران تتراقص ، فأسرع ليرى ما حدث ، فإذا به
يجد أن سيارة من سيارات الجيش البريطاني قد أشعل فيها الفدائيون النار .

كانت إنصاف تتقلب فى فراشها ، وكان يبدو على وجهها أثر انفعالات
متباينة ؛ كانت ترى فيما يرى النائم ثوبا أبيض ناصعا يقدم إليها مطويا فنشرح له
قلبها وأدخل الهجة على نفسها . ونشرته وهى منتشية فإذا بها تجد تمزقات فى
ظهره ، فانقلب سرورها غما وبهجتها انقباضا ونشوتها قلقا ، وما لبثت أن رأت
الأرض تنشق تحت قدمها فتهاوى فى الفضاء دون أن تصل إلى قرار .
وهبت من نومها مفزوعة يدق قلبها دقا عنيفا ويستولى عليها خوف قاتل ،
وجعلت تتلفت فى لهفة لتؤكد لنفسها أنها كانت تحلم ، ولما هدأت نفسها قليلا
غمغمت :
— أعود بالله .

وراحت تتذكر حلمها وتحاول أن تفسره ، ترى ما هو الثوب الأبيض الجميل الذى انشرح له صدرها؟ وما معنى تلك التمزقات التى وجدتها فى ظهره؟ وما العلاقة بين الثوب وبين انشقاق الأرض وسقوطها ذلك السقوط المفزع الذى كاد يخلع قلبها من صدرها وهى نائمة؟ إنها لا تدرى .. كان كابوسا رهيبا .

وعادت لتنام ومخلفات الخوف لا تزال عالقة بشعورها ، بيد أن ذهنها ظل متيقظا . كانت تفكر فى الحلم فتقلق ، وتتذكر البسمة التى استقبلها بها عبود بعد أن عاد من المعركة التى خاضها فينقشع القلب ليفسح مكانا للعواطف الناعمة ، كانت بسمة رائعة عرفت طريقها إلى قلبها ، وزاد فى روعتها ذلك البريق الجذاب الذى تألق فى عينيه . أحست أنه سيضمها إلى صدره ليقبلها ، ولو أنه لم يفعل إلا أنها أحست نشوة تندس إلى روحها تفوق كل نشوة تنفجر من التفاف شفة بشفة .

كانت نظراته طوال ليلة الأمس توحى بأنه يريد أن يفيض إليها بشيء ، أن يبوح لها بسره ، أن يقول لها : أحبك يا إنصاف . ولو أن لسانه لم يتحرك بما تشبى أن تسمعه منه ، إلا أن جوارحه كانت تهتف فى وجد : أحبك .. أحبك .. أحبك ..

وفاضت سعادتها حتى إنها راحت تتقلب وتضم الوسادة إليها فى قوة ، وكأنما ساء مخاوفها أن تتشبث بالأمانى وأن تهيم وراء آمالها المنحفة فراحت تنفث فيها فكرة أن الثوب الجميل الذى أسر لها إن هو إلا عبود أسر فؤادها ، وأن التمزقات التى رأتها إن هى إلا تمزقات قلبه ، وإن هذا الحب سيزلزل الأرض تحت أقدامها وسيجعلها تهوى إلى غير مستقر .

وأفزعتها ذلك الفحيح البغيض الذى كان يفح بين جوانحها ، وراحت تقاوم الحزن الذى راح ينتشر ليغمر كل مشاعرها ، وتجاهد لتقنع نفسها أن تفسير حلمها لا يمكن أن يكون كما فسرتة ربيتها وذاك التشاؤم الذى يسرع بالبطش بها فى لحظات صفوها .

« عيى أن أحلامي تتحقق كلها ، مارأيت حلما إلا جاء فى وضوح النهار ، ولكن هذا الحلم لا علاقة بينه وبين عبود ، خوفاً هو الذى زج فى فيه . هذا الحلم

يتعلق بي وحدي، الثوب ثوبي، والتمزيق في ثوبي، أنا التي ستصاب بمكروه .
وهل هناك مكروه أبشع من أن أفجع في عبود؟ » .

ولم تخمّل أن تسترسل في هذا التفكير ، فهبت من سريرها وراحت تدرع
الغرفة صاعدة هابطة ، ثم اتجهت إلى الباب وفتحته وراحت تمد عينها إلى حيث
رقد عبود .

كان يتقلب في نومه وكان يخفي وجهه بذراعه ، ترى أيلحم بها؟ أيراهها في نومه؟
« وإذا كان يراني فماذا يفعل في؟ وبماذا يناجي طيفي؟ ليتك يا عبود تقوم الساعة
وتصارحني بما كانت عينك تحكيان . آه لو فعلت لكنت أسعد مخلوقة في الوجود » .

ولف لفة كاملة في سريره فجفلت وأغلقت الباب ، ثم هرعت إلى سريرها
لتستأنف نومها ، إنها ما كانت تعرف الأرق فما بال النوم خاصم عيونها ؟

وأصبح الصباح ، واستيقظ حسن وكان أول ما وقعت عيناه عليه مكان
سليمان الشاعر: « إذا كان سليمان قد ذهب فسيأتي يوم أذهب فيه ، الدنيا
كلها سراب .. وهم من الأوهام .. أنا موجود حقا؟ لست أدري ! » .

وشخص بصره إلى السماء : « ليست هناك حقيقة إلا أنت . سبحانك » .
وأحس أنه استيقظ منقبضا ولا يدري لانقباضه سببا ، فشحذ ذهنه ليتذكر
ما رآه في منامه فلم يتذكر شيئا ، فهب من نومه قفز اليطرد الانقباض الذي أخذ
يترسب في صدره .

وقام عبود من نومه يتمطى ، كان مشرق الوجه ، ولكن لما وقعت عيناه على
مكان سليمان طافت به سحابة من الكدر ، وفطن الشيخ حسن إلى ما اعتراه
فقال له :

— ما رأيك في أن يأتي مأمون ليبيت معنا؟

وفي لحظة اضطرب عبود وماجت مخاوفه وتحركت غيرته ، فقد أحس
بغريزته الخطر الكامن في أن يكون مأمون إلى جوار إنصاف على الدوام ، وخشى
أن يفطن الشيخ حسن إلى قلقه واضطرابه فقال في صوت خافت :

— لا بأس .

وشعر الشيخ حسن أن عبود ليس متحمسا للفكرة فسكت ، وفهم عبود أن
يجيء مأمون أصبح أمرا واقعا ، فلن يرفض مأمون أن يكون بالقرب ممن قال عنها
يوما : « لو فكرت في الزواج ما ترددت في أن أتزوج إنصاف » .
وجلس ثلاثتهم ليتناولوا طعام الإفطار ، فراح عبود وإنصاف يتبادلان
نظرات ملتبهة ، نظرات تروى حقيقة مشاعرهما بأفصح لسان .

وقال الشيخ حسن :

— أرايتم كيف فرح جنود إنجلترا وفرنسا لما ذاع بينهم أن إيدن وموليه قبلا
الانسحاب بلا قيد ولا شرط ؟

فقال عبود في راحة :

— إنه خبر سار للجميع ، ما أبغض الحرب !

— وهل نحن الذين أثرتها ؟ اعتدوا علينا فقمنا ندافع عن أنفسنا .

— أعتقد أن حدة غاراتنا عليهم ستخف .

وقالت إنصاف وهي ترنو إلى عبود في حب :

— أظن أنه لم يعد هناك مكان لهذه الغارات .

قال الشيخ حسن :

— بل العكس ، أرى أن يزداد هجومنا عليهم ، أن نجعل مقامهم بيننا جحيما .

قالت إنصاف :

— ولماذا نستمر في قتالهم إذا كانوا قد أعلنوا موافقتهم على الانسحاب ؟

فقال الشيخ حسن وهو يهز رأسه سخرية :

— ما أكثر الوعود التي وعدونا بها لما يحيح بهم الضيق ، وما أسرع أن
ينكثروا وعودهم إذا ما جاءهم الفرج . لا بد أن نزهقهم حتى يخرج آخر جندي
من بلادنا .

وصمت عبود ، واستمر الشيخ حسن في حديثه قال :

— لن نعرف السلام قبل أن يتم انسحابهم .

قالت إنصاف :

— اشتقنا إلى الاستقرار ، متى تضاء الأنوار ؟ متى تعود إلى بور سعيد بهجتها ؟
قال الشيخ حسن :

— أعتقد أن واجبنا لن ينتهي بخروج الإنجليز والفرنسيين من بلادنا .
فرمقه عبود في دهشة وقال :

— وماذا علينا أن نفعل ؟

— على الأحرار في كل مكان أن يتكثروا ضد الاستعمار ، ضد استغلال
الشعوب للشعوب .

إذا خرج الإنجليز والفرنسيون اليوم من بلادنا وظلوا أقوياء في الجزائر وفي
المستعمرات الإفريقية ، فما أدرانا أنهم لن يعودوا مرة أخرى لغزونا ، علينا أن
نتكاتف مع الأحرار لنقضي على الاستعمار ونكتم أنفاسه .

— أتريدنا أن نكافح الاستعمار خارج بلادنا ؟

— هذا هو السبيل الوحيد لنحمي أنفسنا من غدر الطامعين فينا .

وصمت عبود ، لم يكن مقتنعا ، كان يكره الحرب ، وقد أرغم على حمل
السلاح ليدافع عن وطنه ليصون السلام ، أما وقد انسحب المعتدون
مدحورين ، فليسعد بالطمأنينة التي كافح ليفوز بها .

وخرجوا جميعا ، كانت إنصاف في طريقها إلى المستشفى ، وكان عبود
والشيخ حسن في طريقهما إلى بيت توفيق ، وقبل أن تنطلق إنصاف التفتت إلى
عبود وقالت :

— متى ستعود ؟

— في المساء بعد أن أزور أصدقائي في عيادة دكتور الأسنان .

فابتسمت إنصاف وقالت :

— لا ترفض قهوة أم علي ، فهي مشهورة بيننا بإتقان صنع القهوة .

وفي المساء كان عبود جالسا مع ضابط اللاسلكي والفدائيين الذين توطدت
بينه وبينهم أواصر الصداقة في أثناء هجومهم على أعدائهم ، كانوا ستة وكانت أم
علي تدور عليهم بالقهوة .

وشرب عبود قهوته ، واستمر ينظر في الفنجان فقالت له أم على مازحة :

— أتقرأ الفنجان يا عبود ؟

فابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

— يا ليت .

وتناولت منه الفنجان وهي تقول :

— هات أقرأ لك البخت .

وجعلت تقلب الفنجان بين أصابعها وتنظر فيه مليا ثم تقول :

— أنت مقبل على حب جديد ، كان قلبك حزينا ولكنه سيفرح . أيامك

القادمة أفضل من الأيام التي مضت ..

وسرح خيال عبود ، أقال لها إنصاف شيئا عما بينهما؟ ولكن أيتهما

ما يقال؟ إن كل ما كان بينه وبين إنصاف تلك القبلة التي اضطرت إلى طبعها

على شفتيه لتخدع الحارس البريطاني . تطبعها يا عبود ! كانت قبلة ملتبهة ، قبلة

أمدت القلب بإكسير الحياة .

وسمع وضع مفتاح في باب العيادة ، والتفت الجميع في دهش ، وقالت أم على :

— ليس مع أحد غير الدكتور مفتاح آخر .

وقال ضابط اللاسلكى :

— لعله الدكتور .

— الدكتور لا يأتي في هذه الساعة بعد حظر التجول .

وفي لحظة كان المكان غاصا بجنود بريطانيين على رأسهم مورهاوس يصيح

بالعربية :

— مكانك .

ووقف الجنود وقد شهروا أسلحتهم في وجوه الفدائيين ، وتقدم مورهاوس

يتفرس في وجوههم ، فلما وقعت عيناه على عبود قال في خيلاء :

— آه . هو أنت؟ كنت واثقا من أنك ستقع يوما في يدي ، لن يستطيع

إخوانك أن يخلصوك الليلة . ألا ليتهم يأتون لنقتلهم كالكلاب .

ثم التفت إلى جنده وقال :

— اقبضوا عليهم .

وسار الفدائيون الستة وفي ظهر كل منهم بندقيّة ، ووقفت أم على تنظر وهي ترتجف خوفاً .

وأشار مورهاوس إليها بأصبعه وقال :

— وهذه . اقبضوا عليها .

وقبل أن يغادروا العيادة جاء فدائي ليشارك معهم في سمر الليلة فرأى الجنود البريطانيين وهم يسوقون زملاءه ، وقبل أن يرتد إليه بصره فهم كل شيء ، فوضع يده على خده وقال :

— آه ! أين الدكتور ؟

وقال له مورهاوس :

— ماذا تريد منه ؟

— أريد أن أخلع ضرسى .

— تعال .

وأجلسه على الكرسي وقال له :

— افتح فمك .

وفتح فمه وهو ينظر إلى يد مورهاوس ، فرآه يأتي بكماشة فهب مفزوعاً ،

وقال مورهاوس لجنده :

— اقبضوا عليه .

وقال له :

— متى كان الدكتور ينتظر مرضاه بعد حظر التجول !؟

وعادت إنصاف من المستشفى ، وعاد الشيخ حسن ، ولم يعد عبود ، وراح الوقت يمر وإنصاف تلتفت في خوف وابتابها ضيق ، وتذكر حلمها فقالت للشيخ حسن .

— قلبى يحدثنى أن عبود وقع له مكروه .

(م ٣٥ — السهول البيض)

— لعله سيبيت الليلة مع أصدقائه .

— لا . قال لي إنه سيعود .

قال الشيخ حسن وهو يتأهب للخروج :

— لا أظن .

ونفض وأخذت ترقبه بنظرات قلقة ثم قالت :

— إلى أين ؟

— إلى بيت توفيق لأبيت هناك .

— وعبود ؟ أنتركه ؟ ألا نسأل عنه ؟

— نسأل عنه من ؟

— نذهب لنرى ما الذى أخره .

وفي جوف الليل انسلا خارجين يتستران بالجدران حتى بلغا عيادة طبيب الأسنان ، فهرع الشيخ حسن يطرق الباب دون أن يجيبه أحد .

ونفذ صبراً إنصاف فذهبت إلى بيت قريب من العيادة وطرقته ، وبعد قليل

فتح الباب وخرج رجل يفرك عينيه بظهر يديه ، قالت له إنصاف :

— أليست أم على في العيادة ؟

قال الرجل وهو يتشاءب :

— قبض الإنجليز على كل من كانوا في العيادة .

ودخل لينام .

وقالت إنصاف للشيخ حسن :

— لن يحتمل تعذيبهم .

واحتل صفحة ذهنها صورة الثوب الجميل الممزق من الخلف ، فدفق قلبها

رهبة ، وقالت في أسى عميق :

— سيمزقونه .. سيمزقونه .

— نحن في حرب . ولكل حرب ضحاياها يا إنصاف .

— لا . لسنا في حرب ، قبلوا أن ينسحبوا بلا قيد ولا شرط ، فبأى حق

يلقون القبض علينا؟ بأى حق يعذبوننا؟

— بحق القوة يا إنصاف .

وضعفت فراحت تتن وتقول فى إشفاق :

— ترى ماذا يفعلون بك يا حبيبي ؟ .

* * *

كان عبود واقفا أمام مورهاوس يستجوبه ، قال له :

— من شركاؤك ؟

— كل المصريين .

وابتسم مورهاوس استخفافا وقال :

— أين شركاؤك . اعترف وإلا فسأعرف كيف أنتزع الاعتراف منك انتزاعا .

— شركائى فى كل مكان فى بور سعيد .

— ليس هناك ما يدعو للإنكار ، اعترف كل زملائك .

— ماداموا قد اعترفوا فما قيمة اعترافى !

وأخذ عبود وعرى ظهره وانهاه جندى عليه بالسياط حتى تمزق جلده ، ثم

حملوه حملا إلى حيث كان مورهاوس فقال له :

— قل .. من شركاؤك ؟

فقال عبود فى صوت واه :

— كل المصريين .

وحاول مورهاوس أن ينتزع منه كلمة واحدة تهديه إلى من يتخطفونه فى

وضح النهار ، ومن يظهرون فجأة كزبانية الجحيم ليلقوا الرعب والفرع فى

قلوبهم ثم يختفون فجأة ، كأن الأرض قد انشقت وابتلعتهم بعد أن يجرعوا بعض

جنودهم غصص الموت ، ولكن ذهبت محاولاته مع الريح التى كانت تصفر

خارج الغرفة .

وحمل عبود مرة أخرى إلى حيث ينزعون أظافره بكماشة ، كان يحس أن

روحه تسلم من بين جنبيه ، وراح ينوء من عذاب الهون ، ثم حمل مرة أخرى

وجيء به أمام مورهاوس ، فقال له :

— أين يختبئ رجال الصاعقة ؟

— لا أعرف .

— انطق قبل أن آمرهم بدق عظامك .

وصمت عبود وراح يلتقط أنفاسه في جهد شديد ، وصاح مورهاوس في غيظ :

— اكوهه .

وحملوا عبود ليديقوه من العذاب ألوانا ، ولم ينس عبود بكلمة ، كان يئن ويتأوه ويغنى عليه من الآلام المبرحة التي كانت تفوق احتمال البشر ، وما إن يعود إلى وعيه حتى يستأنفوا تعذيبه ، وأخيرا يسوا من أن ينتزعوا منه سر زملائه ، فألقوا به في السجن ولم يكن أكثر من نفس يتردد .

ومر الوقت وهو لا يستشعر إلا الآلام التي تفوق كل حد ، وتسلب ضوء النهار من شبك السجن دون أن يميزه ، كان لا يقوى على أن يفتح عينيه ، وبدأ ذهنه يصحو . كان أول ما تذكره قول الشيخ حسن :

« على الأحرار في كل مكان أن يتكثروا ضد الاستعمار » .

وراح صوت يهمس في ضميره :

— أن يقاوموا هذا الظلم ، هذا الاضطهاد . كنت في شك مما كان يقول

حسن ، أما الآن فسأحارب الاستعمار أينما كان .

وأن أنة لينفس عن العذاب الذي يعيش فيه ، ثم راح ينادى في صوت ضعيف :

— إنصاف .. إنصاف .

هدد ستوكويل بضرب المدينة بالطائرات إذا استمر هجوم الفدائيين على قواته ، بعد أن طلب من بيرنز قائد القوات الدولية أن يحميه أكثر من مرة من ضراوة الغارات المفاجئة المريرة ، وبعد أن ظلت مدافع الأسطول البريطاني تطلق قذائفها في حالة هستيرية طوال الليل ، لما شاهد أحد الحراس رجلا يسبح في الماء

وعلى ظهره وعاءان من المعدن ، متجها إلى السفن البريطانية ، وحسبه من الضفادع البشرية المصرية .

ذاق ستوكويل الأمرين من جنود الصاعقة ، حتى إنه فزع أكثر من مرة إلى بيرنز يلتمس حمايته ، وإذا بخطر جديد يهدد سفنه .

وراحت دورية بريطانية تجوب الحى العرنى بعد أن أعلن ستوكويل أن المدينة أصبحت محرمة على جنوده ، وما إن توغلت فيه حتى جاءها الرد على تهديد ستوكويل . انهالت عليها القنابل من سطح بيت من بيوت الحى ، ثم هطل عليها وابل من رصاص المدافع الرشاشة ، وقتل جنديان ولاذ الآخرون بالفرار .

وفي لحظات انسل الفدائيون من الحى العرنى ، وبعد أن غادره آخر رجل منهم كانت قوات الاحتلال قد أحاطت بالحى العرنى من كل جانب ، وكان ليمز يقوم بتفتيش البيوت بيتا بيتا .

وتفرق الفدائيون إلى منازلهم الجديدة . أمر قائدهم بتغيير الأماكن بعد أن ضبط الفدائيون الستة في عيادة طبيب الأسنان ، كانت الأوامر ألا يستقر أكثر من اثنين في مكان واحد ، إلا أن هذه الأوامر ما كانت تنفذ استخفافا بالقوات المعادية .

وذهب مأمون إلى بيت توفيق ، واندفع منطلقا إلى الداخل كالسهم ، وإذا به يهتف في دهشة :

— إنصاف ؟ ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟

فقالت فى فنوط :

— إنى قلقه أكاد أموت من اليأس ، مضى أسبوع على القبض على عبود ولا أدرى عنه شيئا ، أقتلوه أم اكتفوا بتعذيبه ؟ حاولت أن أتصل به ، أسبوع مضى وأنا أطوف حول السجن دون جدوى ، كنت أتسم أخباره ، أسأل كل من يخرج من السجن عنه ولم أجد عند أحدهم ما يشفى غليلي .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أتتركون عبود فى السجن يا مأمون ؟

فقال مأمون دون أن تلتقى عيناه بعينها :

— إننا ننتقم له ولزملائه في كل ساعة .

فقالت في انفعال :

— لن أَرْضَى ولو قتلتم الإنجليز والفرنسيين جميعاً ، لن أَرْضَى إلا إذا أطلق سراح عبود .

— اطمئني .. سيطلق سراحه يوماً .

فقالت في ثورة :

— متى ؟ متى ؟

— مهما طال سجنه فسيعود .

ولم تحتمل انفعالاتها فأجهشت بالبكاء ، فأحس مأمون وقدة نار في حلقة ، وقال في تأثر :

— بالله لا تبكي يا إنصاف .. سيعود .

فقالت في قنوط :

— وما أدراني أنه سيعود ؟ . وما أدراني أنهم لم يقتلوه ؟

وشرد مأمون وقد لفه أسي ، ما بال كل أصدقائه يذهبون واحداً في إثر آخر ، كانوا جميعاً ضحية هذا العدوان : ترك راسماً في « أبو عجيلة » مع القوات الانتحارية وودعه وهو على ثقة من أنه يودع شهيداً ؛ وفي بور سعيد قتلت بهية وفانوس ومات سليمان ، ترى أيفجع في عبود ؟ ! وانصرفت مطرقة ، كانت والهة حزينة ، وإذا بخاطر ينبض في رأسها ، إنها في جزع لأن حبيبها قد غاب عنها ، ترى كم أما هنا وكم أما هناك وكم أختا هنا وكم حبيبة هناك تنتظر أوبة حبيبها ؟ لماذا يقتل الناس بعضهم بعضاً ؟

وسارت في الطريق تنظر ، كانت بعض سيارات جيوش الاحتلال تغدو وتروح ، وكان بعض الناس يتنقلون على دراجاتهم ، وكانت سيارات كثيرة قد خزنت تحت البواكي بعد أن نفذ الوقود ، كانت تقرأ في عيون الجميع الخوف والقلق والتحفز والبغض والكراهية ، فخيّل إليها أنها في غابة ، بين وحوش كشرت عن أنيابها .

وغمغمت : « ليت الناس يفتنوني إلى أنه ليس في الدنيا أسمى من المحبة » ثم انطلقت إلى عيادة الدكتور حازم ، لتبيت وحدها تذرف الدمع ، وتتأرجح بين اليأس والأمل ، وتناجي طيف عبود .
وتمدت لتنام وإذا بها جس بهجس في أغوارها : (إذا خيرت يا إنصاف بين أن يطلق سراحه ويتزوج أخرى وبين أن .. » ولم تحتمل الاستمرار في هذا التفكير فقفزت من سريرها وهي تصيح في الظلام :
— أطلقوا سراحه .. أطلقوه .

* * *

وفي الصباح خرج مورهاوس بجوس خلال المدينة ، منطلقا إلى الحى العرنى ، ليسوم كل من فيه العذاب لما نال الدورية البريطانية من مهانة ، كان يقود سيارة ملكية وحده ، شاخ الأنف يكاد أن ينفجر من الغرور ، ففي عروقه دم ملكى أزرق ، إذ أن بينه وبين البيت الملكى فى بريطانيا أواصر قرابة .
وجاء شابان على دراجتين وسارا أمام السيارة ، فضغط على الكلاكس فى تابع فلفت ذلك الأنظار إليه .
ولم يفسح الشابان له الطريق بل أخذوا يتمايلان بالدراجات أمامه ، فثار وضغط على الكلاكس فى غضب ولا من مجيب .
ووقف الشابان بدراجتهما أمامه ، وكان ذلك فوق ما يحتمله فأخرج مسدسه وفتح باب السيارة وانطلق إليهما وهو شاهر مسدسه فى وجهيهما .
ووقف الناس ينظرون ؛ كان ذلك يجرى فى الحى الفاصل بين الحى العرنى وحى الفرنج ، وفى غمضة عين طار المسدس من يده وألقى أيادى تخطفه وتلقى به فى سيارته ، وإذا بالسيارة تنطلق لتسابق الريح .
وصاح الناس فى فرح :
— خطف مورهاوس . خطف مورهاوس .
وفى سرعة الريح انتشر النبأ العظيم فى أرجاء بورسعيد .
انطلقت السيارة إلى الحى العرنى ، ثم مال بها قائدها ودخل بها تحت البواكى

لتنسقر بجوار السيارات التي خزنت لنفاد البنزين .
وأخرج مورهاوس من السيارة ودفع دفعا حتى أدخل قسم البوليس . وراح
الذين خطفوه يرسمون خطة ترحيله إلى القاهرة .

ودار بينهم الحديث :

— ننقله في الليل إلى القابوطي ، ونرحله عن طريق المنزلة إلى داخل البلاد .
— نرسل إشارة لاسلكية إلى القاهرة نقول فيها : مورهاوس في طريقه
إليكم ، تسلموه في المطرية .

— لا نستطيع أن نرسل هذه الرسالة بعد أن ألقى القبض على ضابط اللاسلكي
الذي يعرف الشفرة ، لو أرسلنا الرسالة دون شفرة فسيلتقطها الإنجليز .
— أسافر معه إلى القاهرة .

— هذا هو الرأي .. ستكون مفاجأة .

— لن تكون مفاجأة ، ستذيع كل وكالات الأنباء غدا نبأ خطف مورهاوس .
ونزل خبر خطف مورهاوس على الإنجليز نزول الصاعقة ، فانطلق ولهم كالريج
على رأس قوة كبيرة وقبض على كل الرجال والأطفال والنساء الذين كانوا في
منطقة اختطافه ، وبعث بهم ليستجوبوا ويعذبوا عذابا عسيرا ، وراح ينقب عن
الضابط المخطوف في كل بيت ويقلب كل حجر من أحجار الحر العرنى .

واقترب التفتيش من قسم البوليس ، وراح الرجال الذين خطفوا مورهاوس
يديرون قداح الرأي ، قال قائل :

— نستمر في القسم ولا نبرحه .

— نخنفي في السجن .

— لا أظن أنهم سيقومون بتفتيش قسم البوليس .

— بل فتشوه أكثر من مرة . لا بد أن نهرب به من هنا .

وكتف مورهاوس بلاوثاق ، لف ذراعا إلى ظهره بنفس الطريقة التي
تكتف بها الدجاجة ، وضع في شيكارتين ، ثم وضع في سحارة من سحارات
عساكر البوليس .

وجاءت عربة حريق ووقفت أمام القسم ، فأسرع الرجال ووضعوا السحارة فوقها ، ثم انطلقوا بعيدا عن منطقة التفتيش إلى بيت سيق أن فتش . ووقفت سيارة الحريق وهبط الرجال منها وحملوا السحارة وساروا بها إلى بحر السلم . كانت أرض بحر السلم غير مبلطة وكان البرد شديدا ، وأحس الرجال بالرطوبة تتسرب إلى أرجلهم فكانوا يرفعون رجلا ويضعون أخرى . وظلوا ينتظرون إلى أن تهدأ الرجل ليفروا بمورهاوس إلى القابوطة .
وجاء أحدهم يسعى ، وقال في لهفة :
— احترسوا . عادوا لتفتيش هذه المنطقة .

وراحوا يتلفتون ماذا يفعلون . إن حملوه وخرجوا به فلا شك أنهم سيرونهم وسيطاردونهم حتى يقبضوا عليهم ، وإن تركوه فسيعثرون عليه وتكون مغامرتهم بلا ثمرة . بل قد تكون وبالا عليهم وعلى كل بور سعيد ، سيخرج مورهاوس أكثر ضراوة وأكثر حقدًا ، وسيفتن في أساليب الاضطهاد والتعذيب .
وقرر أنهم على أن يدفنوا السحارة في بطن بحر السلم ، فراحوا يخفرون الأرض في همة ، فالخطر محقق بهم . ولما أتموا حفر حفرة تسمح بوضع السحارة ، حملوها ودلوها في الحفرة ثم أهالوا عليها التراب وراحوا يدوسونه بأقدامهم ، ثم فروا هاربين .

وجاء وليمز ودخل البيت وداس بأقدامه الأرض التي دفن فيها مورهاوس ، وعاد يبحث وينقب ، ويسأل مرة أخرى كل من كانوا فيه .
وانقضت ساعة ووليمز لا يترك بيتا إلا ويدخله ، وبدأت خيوط الأمل تنقطع خيطا خيطا ليتسرب اليأس إلى قلبه ، ففكر في أن يلجأ إلى سلاح التهديد .
ركب سيارة وانطلق إلى محافظ المدينة وقال له :
— إن لم يظهر مورهاوس قبل الساعة الحادية عشرة فلست مسؤولا عما سيحدث للمدينة .

خطف مورهاوس في الساعة العاشرة صباحا ، وفي الساعة العاشرة والنصف وجه وليمز تهديده ثم عاد يفتش البيوت .

وجاء الرجال ليخرجوا مورهاوس قبل أن يموت ، ورفعوا الفئوس ليلدعوا الحفر ، وإذا بجلبة في الطريق . كان ويمز يفتش المنطقة للمرة الثالثة ، وكان في طريقه إلى البيت الذى دفنت فيه السحارة ، وتأهبوا للفرار وقال أحدهم .

— إن تركناه فسيموت .

— وإن أخرجناه لننقذه فسيقضى علينا .

— إننا لم نقتله ، قتله ويمز بإصراره على العثور عليه ، قتله من حيث أراد أن ينقذه .

— كان هدفنا أن نبعث به إلى القاهرة أسيرا .

وقال قائل منهم وهم يتعدون عن منطقة الخطر :

— لقي مصيره .

وراحت سيارة تجوب الشوارع وتذيع :

— محظور على الأهالى التجول في الشوارع بعد الساعة الخامسة ، ومحظور استخدام الدراجات ، وكل من يتجول بعد الساعة الخامسة يعرض نفسه للرمدى بالرصاص .

وراح الناس يصغون إلى الخطر الجديد ساخطين ، وكان يخفف ذلك السخط علمهم بأن الضربة القاسية التى سددت فى الصميم أطاشت بعقول الإنجليز وزادتهم حماقة على حماقتهم .

وأخذت السيارة تجوس خلال شوارع بور سعيد وهى تذيع التحذير بلغة عربية ركيكة ، وفجأة انفجرت وتطايرت فى الهواء ، وإذا بالمكان فى لحظة يغص بالناس ، فقد ذاع فى المدينة أن الذين قبض عليهم ويمز من سكان المنطقة التى خطف فيها مورهاوس يعذبون على أيدي جلادين قساة عذابا لا رحمة فيه .

— إنهم يعلقونهم من شعورهم .

— كوووا جلودهم بالنار .

— انتزعوا أظافرهم بكماشات .

— ماتت امرأة بين أيديهم .

— خلعوا أسنان أحد الشبان .
— إنهم وحوش لا يخافون الله .
وأقبلت سيارة مصرية تديع بالإنجليزية .
— محظور على الإنجليز أن يتجولوا في شوارع بور سعيد بعد الخامسة مساء ،
وكل من يتجول بعد هذا الميعاد يعرض نفسه للرمى بالرصاص .
وعلى الرغم من سيوف الاضطهاد المسلطة على رقاب الناس أخذتهم
الحماسة فاستقبلوا السيارة المصرية بالتهليل والتهافت ، هان في عيونهم ولينز
وجنوده وكل ما يملك من آلات التعذيب الجهنمية .
وجن جنون الإنجليز ، اللطمات توجه إليهم كل لكمة أوجع للقلب من
سابقتها ، وزادت السخرية منهم حتى تجاوزت كل حد ، فخرجوا من كل صوب
ليلقوا القبض على هذه السيارة التي مزقت كبرياءهم تمزيقا أو ليدمروها تدميرا .
وفي غمضة عين اختفت السيارة ولم يعثروا لها على أثر ، كل ما وجدوه دموية في
هيئة جندي بريطاني معلقة في حبل المشنقة وقد كتب عليها :

« هذا مصري كم » .

توعد ولينز وهدد ، وأرغى وأزبد وقال : إن لم يظهر مورهاوس قبل الساعة
الحادية عشرة فسأفعل كيت وكيت ، ولم يظهر مورهاوس ، ولم يستطع أن يفعل
شيئا سوى أن يذهب إلى بيرنز يحمل إليه طلب القيادة البريطانية أن يتوسط
لدى المصريين ليعاملوا الضابط المخطوف معاملة أسير .
لو سلك ولينز هذا الطريق منذ أول لحظة ولم يركب رأسه ويغره سلطانه ، لما
لقى مورهاوس حتفه .

وتحركت الدبابات تطوق الشوارع لتحمي الانسحاب الأخير ، ودخل
الجنود البريطانيون ينامون ، فراحوا يخلمون بالعودة إلى بلادهم بعد أن أعلن
ستوكويل أن الانسحاب سيتم قبل عيد الميلاد ، كانوا جميعا يخلمون بشجرة عيد

الميلاد وهم بين الأهل والأحبة فرحين مستبشرين .

وكانت تدوى في آذانهم الأجراس وتتردد التراتيل ، وكان يعكر صفو الأحلام خوفهم من الفدائيين ، فقد خرج ستائة منهم ليفتشوا عن مورهاوس ، وقد بطشوا بالأهالي ، فباتوا يرتجفون أن يزهدق الفدائيون أرواحهم قبل أن يتحقق الأمل الكبير ، أمل أن يضموا الأحبة إلى صدورهم .

وكاد الليل أن ينتصف ، وانسل توفيق ومرجان ومأمون والشيخ حسن وقائد كتيبة الأهوال وضباطه وجنوده إلى الحى العربى ، واختفوا فوق أسطح المنازل وفي الشرفات وفي مداخل البيوت .

وجاءت دورية بريطانية وانطلقت إلى الحى العربى ، وراحت تتقدم في الظلام ، كانت قلوب رجال الدورية منقبضة ، وكانوا يتمنون أن تنتهى هذه الساعات الثقيلة الفاصلة بين بقائهم فى بور سعيد وذهابهم إلى السفن التى ستحملهم إلى الأوطان فى سلام .

وما كانوا يفهمون سبب إصرار قيادتهم على أن تستمر الدوريات فى المرور ، ماداموا سيتركون المدينة للقوات الدولية .

لماذا تضحى بهم قيادتهم وتدفع بهم إلى براثن الموت ؟ لماذا تعرضهم للهلاك ؟ كانوا يفهمون أن تضحى بهم قيادتهم من أجل تحقيق هدف أو احراز نصر ، أما أن تسوقهم إلى العدم بلا هدف ولا أمل ، فهذا لا يمكن أن يفهم . ووقف الشيخ حسن فى شرفة أحد المنازل وهو يتلفت كالصقر ، كان مدفعه بين يديه ، فى عينيه عزم ولكن فى قلبه حسرة ، فقد كان إلى جواره دواما سليمان وعبود ، وقد ذهب سليمان وقبض على عبود ، أكتب عليه أن يقف وحده ؟

ورأى بعين خياله إنصاف وهى تذهب إلى بهنس فى القسم وتقول له :
ألا تعرف أحدا فى سجن الأجانب يا بهنس ؟ أريد أن أطمئن على عبود .

« كان حديثها نابضا بالأسي زاخرا بأرق المشاعر حتى إنى أحسست الدموع تكاد تظفر من عيني .

شغفت إنصاف بعبود حبا، هامت به وسرى حبه في عروقها مسرى الدم،
ألا ليت عبود يخرج من سجنه لينعم بهذا الحب الكبير . ترى أيدري عبود أن
إنصاف تهواه وأن قلبها تعلق به . »

وحانت منه التفاتة فرأى مأمون فخطر له خاطر : أيزور مأمون صديقه
القديم وزوج بهية إذا تزوج إنصاف؟ أعتقد أنه سيزوره، فقد كان مأمون رجلا
في كل تصرفاته . وأثبت أن قلبه كبير .

وهز الشيخ حسن رأسه وغمغم :

— مسكين يا مأمون، كنت ترجو أن تتزوج إنصاف ولكن قلب إنصاف يتردد .
من يدري لعل الخيرة فيما اختاره الله .

ولمح الدورية الإنجليزية تقترب، وأعطيت إشارة إطلاق النار فإنهمر
الرصاص من كل اتجاه، وسقط ضابط بريطاني قتيلًا وصرع جنديان، ولاذ باقي
الجنود بالفرار .

وبقى الفدائيون في أماكنهم ينتظرون، لم يفكروا في الهرب، كانوا على
استعداد للقاء كل القوات المعتدية الباقية في المدينة بل كانوا يتوقعون أن يخوضوا
معهم غمار معركة مكشوفة . وجاءت قوة للبحث عن الأسلحة والفدائيين في
الحى العرنى، وإذا بالفدائيين يقابلونها بالقنابل ورصاص المدافع الرشاشة .

وجاءت قوات أخرى فشن الفدائيون عليها خمس هجمات بالقنابل والبنادق
والرشاشات، وانسحبت القوات مندحرة .

وأصدر ستوكويل أمره بالأتمر الدوريات في الحى العرنى، ولكن لما أصبح
الصباح جاء بحملة ليؤدب الحى العرنى .

راحت قواته تجمع أقوات الناس، تستولى على اللحوم والخضر وكل ما يقتاتون
به، وساقوا أهل الحى بالقوة ليمزقوا المنشورات وصور جمال المتصقة على الجدران
وليطمسوا العبارات التى تتحدث عن البريطانيين والشرف البريطانى .

وتسلل الفدائيون إلى نقط الحراسة في الجنوب الغربي من بور سعيد، كانوا يرحفون على بطونهم ليذبحوا الحراس أو ليطعنوهم بخناجرهم، وفيما كان توفيق يرحف على بطنه أحس أن أحد الحراس اكتشف موضعه وأنه رفع بندقيته ليرديه، فعالجه توفيق برصاصة من مسدسه .

ونبه صوت الرصاص الحراس فحففوا إلى أسلحتهم، ونهض الفدائيون على أقدامهم وأخذوا يلقون القنابل اليدوية ويطلقون الرصاص على الحراس، واشتد القتال ودوت الانفجارات وأسفرت المعركة عن قتل ثلاثة ممن كانوا يتأهبون للرحيل .

وفي هذا الوقت كان جون ولينز وجراى ضابط المخابرات يدخلان بيت توفيق وأخذوا يجوسان خلال الغرف ينقبان عن الأسلحة، واستمرا يتنقلان من غرفة إلى غرفة حتى وصلا إلى غرفة كان بابها مغلقا، وكان ينبعث منها صوت رجل يتكلم . وأرهف ولينز أذنيه، كان الحديث مثيرا يروى أشياء خطيرة، وفتح الباب في حرص وقد شهر سلاحه، ووقف جراى خلفه يحميه، ونظر قبل أن يدفع الباب ويفاجئ من في الغرفة فإذا به يرى مرجان نائما يروى كل ما حدث في أمسه كما هي عادته .

وتقدم ولينز على أطراف أصابعه وأعار مرجان سمعه، كان حوارا يجري بين مرجان وعدة أشخاص، ولكنه كان يكشف كل شيء، قال مرجان :
— القائد يريد أن يلقاك الليلة في معمل ألبان سعد بالمنزلة .. يا سيد صديق التعليمات أن تجهز سيارة الإسعاف في الليل وتذهب بها إلى بهنس في قسم ثالث وتنقل بها الأسلحة .. نعم يا سيد بهنس إنصاف وحدها الآن في عيادة الدكتور حازم بعد أن قبض على عبود وانضم الشيخ حسن إلينا .
وصمت مرجان قليلا ثم قال :

— تصور . السيد توفيق لبس ملابس خباز وحمل على رأسه لوحا عليه بعض الأرغفة وسار حتى دنا من سيارة جيب وألقى عليها الأرغفة وجرى، فانفجرت السيارة .. أنا؟ لا . لست بطلا يا صديق .. أنت البطل .

وتقلب مرجان حتى بدا أنه سيستيقظ من نومه . فمال جراى ليقبض عليه ،
وإذا بوليمز يجذبه ويقول له :

— دعه ، إذا قبضنا عليه فقد يلفت ذلك أنظارهم .

وخرج من غرفة مرجان وهو شاخ الأنف ، ثم التفت إلى جراى وقال :

— وقعوا جميعا فى المصيدة ، سأنتقم لمور هاوس .

وقال جراى فى حقد :

— ولكل الذين ذهبوا ضحيتهم .

تلملم وليمز قليلا ، وشرذ خياله يفكر فى خطة القبض عليهم جميعا فى وقت
واحد ، وصمت جراى احتراما لتفكير وليمز العميق ، ولما انتهى من نسج كل
الخيوط فى ذهنه التفت إلى جراى وقال :

— الظاهر أن الرأس المدبر فى معمل سعد للألبان بالمنزلة ، سأقوم أنا بمهاجمة
هذا الوكر ، وستقوم أنت بالبحث عن صديق فى الإسعاف وإلقاء القبض عليه ،
وستكلف واحدا من خيرة ضباطك بمراقبة عيادة الدكتور حازم ، أما بهنس فى
قسم ثالث فسنرسل من يلقى القبض عليه .

وسار يوسع من خطوه وهو يقول :

— هيا . لنأتى بقواتنا .

وقفز وليمز فى سيارته وجلس إلى جواره جراى ، وما ابتعدوا قليلا حتى أقيمت
على السيارة قنبلة فانفتح بابها ، وألقى وليمز بعيدا والدم ينزف من ساقه ووجهه .
وبعد لحظات خفت سيارة إسعاف بريطانية إلى مكان الحادث . وحمل جراى
جثة هامدة ، وحمل وليمز والدم ينزف منه فى غزارة ، وانطلقت سيارة الإسعاف
إلى المستشفى .

والنف الأطباء حوله ، كان يشير لهم أن يدنوا منه ، أن يصغوا إليه حتى يفضى
إليهم بما عنده ، ولكنهم كانوا مشغولين عنه بفحص حالته الخطرة ، واتجه أحدهم
إليه ، لا ليصغى إليه ، بل ليعطيه حقنة بنج .

وتبروا ساقه ، ورأوا أن حالته تتدهور فقال أحدهم :

— لا بد من أن ينقل إلى قبرص .

وقال آخر :

— سيموت قبل أن يصل إليها .

— هذا آخر أمل .

وحمل وليمز إلى المطار ووضع في طائرة ليموت بعيدا عن بور سعيد ، لكيلا تتحقق أمنيته ، كان يتمنى أن يموت ويدفن في الأرض التي أذاق أبناءها من العذاب ألوانا .

وراح الإنجليز والفرنسيون ينسحبون في سرعة هائلة والقوات الدولية تحمي انسحابهم ، وانطلق توفيق ومرجان والقائد ومأمون ورجال الصاعقة مع جموع الشعب إلى الميناء لتكتحل أعينهم برؤية المعتدين وهم ينسحبون مدحورين . كانت كل القلوب ترقص طربا ، وكانت دموع الفرح تترقرق في العيون ، وكان اثنان يقاومان التيار الجارف ، كانا يشقان طريقهما في جهد بين الجموع ، كانا إنصاف والشيخ حسن في طريقهما إلى سجن الأجانب .

كانت إنصاف تنادى في كل شهيق وزفير :

— عبود . عبود .

وكان الشيخ حسن يجاهد ألا يفقد أثرها بين الحشود ، وبعد جهود مضيئة وصلا إلى سجن الأجانب وقد تمزقت ملابسهما ، وأسرعت إنصاف في لطفة :

— أين من سجنهم الإنجليز ؟

— أطلق سراحهم جميعا .

وخانتها دموعها فبكت ونادت في وجد :

— عبود .

ثم التفتت إلى الشيخ حسن وقالت :

— ترى أين ذهب ؟ أين يمكن أن نسأل عنه ؟

واتسعت عينا الشيخ حسن ، وظهر في وجهه أنه تذكر شيئا فقال في فرح :

— تعالى .

وكان عبود قد بلغ الشركة، كان يتقدم إليها وهو يحس إحساس المحرم الذى يتقدم صوب الكعبة، سار وهو غارق فى النشوة، ولما دخل الورشة انقبض، رأى كل شيء قد حطموه، وزاد انقباضه لما وقعت عيناه على الطواحين، كانت متناثرة فى المكان كأنما كانت تخوض معركة.

وراح يعدو صوب أحواض الملح، حتى إذا ما بلغها وقف بمد بصره فى خشوع. غسلت الأمطار الدماء التى لوثت المكان. وتركت السهول البيض ناصعة كالجليد، فشعر عبود أن كل أحزانه تنقشع، وأن الطمأنينة أخذت تنتشر فى كل كيانه.

وسمع صوت إنصاف تناديه:

— عبود.. عبود.

فخفق قلبه، ودار على عقبيه وهو يكاد يطير من الفرح، وراح يعدو نحوها وهو يهتف فى وجد:

— إنصاف.. إنصاف.

وتلقاها بين ذراعيه وأخذ يضمها فى قوة.

وسار عبود وإنصاف والشيخ حسن، ورأوا السفن وهى تبتعد عن الشاطئ.

فقال عبود:

— رحلوا.

وقال الشيخ حسن:

— إني أقول كما قال رسول الله ﷺ بعد أن هزم الله الأحزاب فى غزوة

الخندق:

«الآن نغزوهم ولا يغزونا. نحن نسير إليهم».

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الأولى		
١٩٤٢ سنة مايو	قصة	أحمس بطل الاستقلال
١٩٤٢ سنة يوليو		أبو ذر الغفاري
١٩٤٤ سنة مايو		بلال مؤذن الرسول
١٩٤٤ سنة ديسمبر	مجموعة أقاصيص	في الوظيفة
١٩٤٥ سنة يوليو		سعد بن أبي وقاص
١٩٤٦ سنة فبراير	مجموعة أقاصيص	هزات الشياطين
١٩٤٦ سنة أكتوبر		أبناء أبي بكر الصديق
١٩٤٧ سنة فرج يناير		الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد
١٩٤٧ سنة	رواية	في قافلة الزمان
١٩٤٨ سنة مايو		أهل البيت
١٩٤٩ سنة	قصة	أميرة قرطبة
١٩٥٠ سنة مايو	قصة	النقاب الأزرق
١٩٥١ سنة		المسيح عيسى بن مريم
١٩٥٢ سنة		قصص من الكتب المقدسة
١٩٥٢ سنة	رواية	الشارع الجديد
١٩٥٢ سنة	مجموعة أقاصيص	صدى السنين
١٩٥٤ سنة		حياة الحسين
١٩٥٤ سنة	قصة	قلعة الأبطال
١٩٥٧ سنة ديسمبر	قصة	المنتفع

الطبعة الأولى		
يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	أذرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاربي الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٢	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيضاء
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد

القصصُ الديني

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ د	قصص السيرة
في ٢٠ د	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

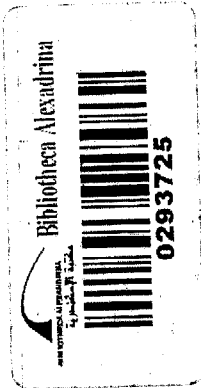
- | | |
|-------------|---------------------------|
| اكتوبر ١٩٦٥ | ١ - ابراهيم ابو الانبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ - هاجر المصرية ام العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ - بنو اسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ - العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ - قريش |
| يوليو ١٩٦٧ | ٦ - مولد الرسول |
| اكتوبر ١٩٦٧ | ٧ - اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ - خديجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ - دعوة ابراهيم |
| يونية ١٩٦٨ | ١٠ - عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ - الهجرة |
| نوفمبر ١٩٦٨ | ١٢ - غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ - غزوة احد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ - غزوة الخندق |
| يونية ١٩٦٩ | ١٥ - صلح الحديبية |
| نوفمبر ١٩٦٩ | ١٦ - فتح مكة |
| فبراير ١٩٧٠ | ١٧ - غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ - عام الوفود |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٩ - حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ - وفاة الرسول |

رقم الايداع ٧٩/٢٦٠٤

التزقيم الدولى ٤ - ٣٦٤ - ٣١٦ - ١٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثلث ٦ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه